

ومحمد صلى الله عليه وسلم لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، فقد حارب، وانتصر، وحارب وانهزم، وقاجر فربح، ويسير عليه ما يسير على البشر، ومرة يدبر الأمر الذي لم يكن فيه منهج من السماء، فمرة يصيب ومرة يخطئ، فيصحح له الله، لذلك يأتي القول على لسانه بأمر من الله: لو كنت أعلم الغيب لما وقعت في كل هذه المصاقل، وكان أهل رسول الله من قريش قد قالوا: إنا أقاربك، فقل لنا على موعد الساعة، حتى نستعد لملاقاتها.

ويتابع المولى سبحانه قوله: ﴿وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾

وساحة ترى «إن» فهي مرة تكون شرطية مثل: «إن ذاكرت تنجح»، ومرة تكون للنفي ونجد بعدها اسما، والمعنى: ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون، والكلام موجه إلى المؤمنين لأنهم هم الذين يتفعلون بالإنذار والبشارة، وما يُندروا به لا يفعلوه، وما يشرّوا به يفعلوه.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا
زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ
خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ
ءَاتَيْنَا صَبْلًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ١٨١

وقوله تعالى: «خلقكم من نفس واحدة» المقصود بها آدم، وقول الحق: «وجعل منها زوجها» المقصود بها حواء، ونلاحظ في الأداء في هذه الآية أن الضمير عائد إلى مؤنث.

﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ﴾

ثم جاء بالتذكير في قوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

إذن فصل الذكورة عن الأنوثة جاء عند « ليسكن » . فكان الكلام في النفس معنى³ به جنس بنى آدم وهو الذي نسميه « الإنسان » ومنه ذكورة ومنه أنوثة ، ولذلك فسبحانه حينما يتكلم عن الذكورة كذكورة ، والأنوثة كأنوثة ، يأتي بضمير المذكر ، أو بضمير المؤنث ، وقوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

لأنه يريد أن يوضح أن المرأة جعلت للرجل سكناً ، لا يقال : إنها له سكن إلا إذا كان هو متحركاً ، كأن الحركة والكدح في الحياة للرجل ، ثم يستريح مع المرأة ويسكن إليها بالحنان ، بالعطف ، بالرقّة . أما إن لم تكن سكناً فهو يخرج من البيت لأن ذلك أفضل له . وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وجعل منها زوجها ﴾

يذكرنا بما عرفناه من قبل من أن الله خلق آدم من الطين ومن الصلصال ثم نفخ فيه روحاً ، أما حواء فقد ذكرها في هذه المسألة ، وأوضح : أنا جعلت منها زوجها ، و« منها » أي أنها قطعة منه ، وقيل : إنها خلقت من ضلع أعوج ، ومن يرجح هذا الرأي يقول لك : لأن الله يريد أن يجعل السكن ارتباطاً عضوياً ، فالمرأة بعض من الرجل ، ونعرف أن الواحد منا يحب ابنه لأنه بعض منه . وعلى ذلك فهذا القول جاء لتقديم الألفة . وهناك من يقول : إن حواء خلقت مثل آدم فلماذا جاء ذكر آدم ولم يأت بذكر حواء ؟

ونقول : إن آدم أعطى الصورة في خلق الإنسان من طين ، لأن آدم هو الرسول وهو المسجود له ، ونعلم أن المرأة دائماً مبنية على الستر . ومثال ذلك نجد الفلاح في مصر لا يقول : زوجتي ، بل يقول : « الجماعة » أو « الأولاد » أو يقول : « أهلي » ولا يذكر اسم الزوجة أبداً .

والحق يقول هنا : « وجعل منها » ، فإن كانت مخلوقة من الضلع فـ « من »

نبيضية، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون من بيانية، أى من جنسها، مثلها
مثلما يقول ربنا :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

أى الرسول من جنسنا البشرى ليكون إلف المبلغ عن الله، والمبلغ عن الله واحدا
منا ونكون مستأنسين به، ولذلك قلنا: إن اختيار الله للرسول صلى الله عليه وسلم
من البشر فيه رد على من أرادوا أن يكون الرسول من جنس آخر غير البشر، فقال
الحق على ألسنتهم :

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝٤١﴾

(سورة الإسراء)

ويأتى الرد عليهم :

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشِّقُونَ مَطْمَتِينَ لَنَرْكَنَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَ
رَسُولًا ۝٤٢﴾

(سورة الإسراء)

ثم لو كان الرسول من جنس الملائكة فكيف كانوا يرونه على حقيقته ؟ كان لابد
أن يخلقه الله على هيئة الإنسان.

ويتابع سبحانه :

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾

ودغشاهاء تعبير مهذب عن عملية الجماع فى الوظيفة الجنسية بين الزوج
والزوجة، والغشاء هو الغطاء، وجعل الله الجماع من أجل التناسل ليثبت منهما
رجالا كثيرا ونساء.

والمعنى هنا أنها حملت الجنين لفطرة وهي لا تدري أنها حامل ، لأن شمر الجنين بطيء بطيء لا تشعر الأم به.

﴿ قَرَّتْ بِهِ فَبَلَّا أَتَقَلَّتْ دَعَا اللَّهَ رَبِّهَا لَنَ ءَاتَيْنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الاعراف)

ومرت به ، مقصود بها أنها تتحرك حركة حياتها قياماً وقعوداً إلى أن تثقل وتشتغل بالحمل في شهوره الأخيرة.

وهنا عرف الزوج أن هناك حملاً ورفع الاثنان أيديهما بالدعاء لله عز وجل أن يكون الولد صالحاً بالتكوين البدني وصالحاً للقيام بقيم المنهج.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الاعراف)

أي أن الذكورة قد انفصلت عن الأنوثة ، وصار الذكر يسكن عند الأنثى.

وهكذا كان الأمر الخاص بآدم ، ثم جاء الكلام للذرية ، وخصر صا أن حواء كانت تحمل بذكر وأنثى ، وآدم وحواء وأولادهم هم أصل القواعد البشرية وأصل النسل.

والقرآن قد يتكلم في موضوعات تبدو متباعدة. لكنها تضم قيماً ذات نسق فريد، فنجد الحق يتكلم في أمر ثم يتكلم في آخر ، مثل قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرَجٌ طَيِّبٌ وَفِرْحَا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُغِطُوا ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

ولم يأت بسيرة البر هنا، بل تكلم بالبر والبحر ثم انتقل إلى الحديث عن مجيء الموت، وأيضاً انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا يوصي الحق الإنسان بوالديه، بالأب وبالأم، ثم يتابع:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ولم تأت سيرة الرجل بل كل الخيشيات للام.
ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا عَاتَبَهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا
ءَاتَاهُمَا فَفَعَلْنِي اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

ويروى أن هذه الآية قد نزلت في «قصي» وهو جد من أجداده صلى الله عليه وسلم، فقد طلب قصي من الله أن يعطى له الذرية الصالحة، فلما أعطاه ربنا الذرية الصالحة سماها بأسماء العبيد، فلم يقل: عبدالله، أو عبدالرحمن، بل قال: عبيد مناف، عبيدالدار، عبيدالعزى. وجعل لله شركاء في التسمية، ولهذا جاء قول الحق: «جعلنا له شركاء فيما آتاهما»؛ ليدلنا على أن الإنسان في أضعف أحواله، أي حينما يكون ضعيفاً عن استقبال الأحداث، يخطر ببالي ربنا؛ لأنه يحب أن يسلم نفسه لمن يعطى له ما يريد، وبعد أن ينال مطلبه ينسى، ولذلك يقول الحق:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ
كَانَ لَدُنَّا إِلَىٰ خَيْرٍ مِّمَّوْ﴾

(من الآية ١٦ سورة يونس)

إذن فائدة الفسر أنه يجعلنا نلجأ إلى ربنا، ولذلك نجد الإنسان أحسن ما يكون ذكر الله وتسبيحاً لله حينما يكون في الشدة وفي المرض، ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه في مرضه وشدة، لا أقول: إنه قد يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة، لا، بل عليه فقط ألا يضجر وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما قال: ﴿اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك﴾ (١)

والإنسان ساعة يوجد في المرض عليه أن يعرف النعمة فيه، فهو في كل حركة من حركاته يذكر الله، وكما تخدم فيه طاقات الاندفاعات الشهوانية، يمتلىء بإيجابيات علوية، ولذلك نجد الحديث القدسي يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى:

﴿يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: وكيف أعوذك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب، كيف أطعمك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن استطعمت عبي فلاناً، فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي﴾ (٢)

إذن ماذا عن حال مريض يشعر أن ربه عنده، ويكون في المرض مع المنعم، وفي الصحة مع النعمة.

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في باب فضل عيادة المريض.

﴿ فَلَمَّا أَتَتْهُمَا مَسَلِحَا جَعَلَا لَكُم شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومعنى هذا أن ربنا تبارك وتعالى ينزه نفسه عما يقول فيه المبطلون ويشركون معه ما يزعمون من آلهة. ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

أشركون في عبادة الله من لا يخلقون شيئاً، وهم أنفسهم مخلوقون لله، إن من أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم وتنازلوا عن العقل، وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾

ولذلك فإن هناك آية أخرى توضح زعمهم يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴿١٧﴾ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ونعلم أن البشر في المعامل قد عرفوا المعجز من خلق خلية واحدة وهي التي لا ترى بالعين المجردة، ولذلك أوضح الحق أن المسألة ليست أمر خلق، بل إن الذباب لو وقع على طعام إنسان وأخذ على جناحه أو في خرطومه شيئاً، لن يستطيع أحد أن يترد المأخوذ منه، فقد ضعف الطالب والمطلوب.

والخلق - كما نعلم - أول مرتبة من مراتب القدرة، فإذا كانت الأصنام التي اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم، فكيف يعبدونها؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتنازل. بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا شيئاً من صنع العابدون بأنفسهم. ونلاحظ أن الحق جاء هنا بالقول : « أشركون » بصيغة تعجب، والتعجب ينشأ عن إنكار ما به الاستفهام، أي تعجب منكراً على وفق الطباع العادية، مثلما

يطلق على المفرد والجماعة؛ لذلك جاء في الأمر الثاني وراعى الجماعة، إذن « يخلق » للمفرد، و« هم يخلقون » للجمع لأن قوله : « ما » صالح للجميع أى للمفرد والمثنى وللجمع والمذكر والمؤنث.

ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وسبحانه قال هنا : « ومنهم من يستمع إليك »، ولم يقل : « حتى إذا خرج من عندك » بل قال : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا » أى أنه جاء بالجماعة، فإذا رأيت ذلك في « ما » و« من » و« ال » فاعلم أن هذه الألفاظ يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى والمثناة وجمع الذكور وجمع الإناث. « أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ».

وهنا في هذه الآية رقعة لغوية أخرى في قوله : « هم » وهي لا تطلق إلا على جماعة العقلاء، فكيف يطلق على الأصنام « هم »، وليست من العقلاء ؟ وأقول : إن الحق سبحانه وتعالى لما علم أنهم يعتقدون أنها تضر، وأنها تنفع، فقد تكلم معهم على وفق ما يعتقدون، لكي يرتقى معهم في رد الإنكار لكل ما يستحق الإنكار. فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق، وثاني مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون والأصنام لا تقدر على نصرهم، إذن فهم معطلون من كل ناحية، لأنهم لا يخلقون. وهذا أول عجز، ومن ناحية أخرى أنهم يُخْلَقُونَ وهذا عجز آخر، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثاني فهل هم قادرون على نصر غيرهم ؟ ها هو ذا سبحانه يترقى في الحوار معهم ترقية أخرى فيقول :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾

يَنْصُرُونَ ١٩٢

إذن فلا أحد من الأصنام قادر على أن ينصر نفسه أو يضمن نصر غيره.

وهكذا نجد الترفن في الحوار على أربع مراحل، أولاً: لا يخلقون، ثانياً: هم يُخلقون، ثالثاً: لا يتصرونكم، ورابعاً: ولا يتصرون أنفسهم. ثم تأتي المرحلة الخامسة في قوله الحق:

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَاحِبُونَ﴾ (١٣٧)

وعلى ذلك فهي خمس مراحل - إذن -، أكررها لتستقر في الذهن، أولها أنه من الجائز أنه لا يخلق، ومن الجائز أن يكون مخلوقاً، ومن الجائز أنه لا يقدر أن يتصر لغيره لأنه ضعيف، ولا يتصر لنفسه لأنه أضعف، ومع ذلك إن أردت أن تهدبه إلى شيء من ذلك أو إلى شيء من العلم فلا يقبل منك.

وكانوا في الجاهلية حين يفزعهم أمر جسيم ينادونهم ويقولون: يا هيل، يا لات، يا عزي. وإن لم يصيبهم أمر سكتوا عن نداء الأصنام؛ لذلك يقول لهم الله من خلال الوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَاحِبُونَ﴾

﴿١٣٧﴾

(سورة الأعراف)

أي إن دعوتكم لهم لا تفيد في أي أمر تماماً كصمتكم.

ونلاحظ أن الأسلوب هنا مختلف «سواء عليكم أدعوتهم» فلم يقل: «أدعوتهم أم صمتتم»؛ لأن الفعل يقتضي الحدث، ولنا أن نعرف أنهم كانوا لا يفزعون إلى آلهتهم إلا عند الأحداث الجسام. أما بقية الرقت فقد كانوا لا يكلمونهم أبداً؛ لذلك جاءت «صامتون» لازمة، لأنها اسم، والاسم يقتضي الثبوت والاستمرار، أما الفعل فيقتضي الحدث والتجدد.

والحق هنا يبلغ المشركين: سواء عليكم أدعوتهم أم لم تدعوا، فعدم الاستجابة متحقق فيهم وواقع منهم، وعدم النصير لأنفسهم ولغيرهم متحقق منهم.

ثم يتكلم الحق ص قضية أخرى فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ
فَادْعُوهُمْ فَلَيْسَ يُجِيبُوا لَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ



« تدعون » لها معيار ، المعنى الأول يعنى أنكم قد تتخلونهم آلهة وتعبدونهم ، والمعنى الثانى هو أن يقال . « تدعون » أى تطلب منه شيئاً ، والعيان يجيبان فى هذه الآية .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ ﴾ .

وهذا ما يسمع الإنسان كلمة « عبد » يفهم أنها من الجنس المتعقل الحى ، فكيف تكون لأصنام عبادة ؟ وأقول نحن هنا نأخذها على شهرة اللفظ ، أما إذا أردنا تحقيق اللفظ وتفصيله ، فالبراء مأخوذ من التذلل والخضوع ، ألم يقل موسى لفرعون ؟

﴿ وَرَبِّكَ يَحْمِلُهَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أذلكتهم . وفى الآية التى نحن بصدد خراطرتها تكون الأصنام عبداً أمثالهم فى أنهم يذلون ؛ لأن السيل إذا سزن أو هبت الريح لحمد هذه الأصنام قد وقعت وتكسرت رقابها ، فيهرع المشركون يأتون من بعيد ترميم هذه الآلهة !! إذن فأنتم أيها المشركون ؛ لأنكم مخلوقون بالله قد فلكون قدرة ، وقوة تستطيعون بها إن جاء لكم صر أن تدفعوا لصر عنكم ، أما الأصنام فليست لها أدنى قدرة إن جاءها من يحطمها ، أو يكسرها ، أو يقلبها ، هى أضعف منكم . وبذلك تكون كلمة « عبد أمثالكم » لوياً من الترفى .

وعلى فرض أنهم عباد أمثالكم، فالعبد من الأحياء حينما يأتي شيء يستدله، قد يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض الشيء إلا إن كان الشيء قويا فوق طاقته. فالمراد والمقصود أنهم عباد أمثالكم أي مدللون ومسخرون ولا يستطيعون دفع شيء عن أنفسهم. وأنت إذا ما نظرت إلى هذه المسألة وأحدث معنى عبادة على معناه الإخلاقي، فأنت تعلم أن العبد هو كل مسخر مدلل من العباد.

لكن هناك مدلل ومسخر فيما لا اختيار به فيه، وآخر مدلل ومسخر فيما له فيه اختيار أيضاً، ولفروا بين الاثنين أن الكافر فيما له اختيار؛ إما أن يؤمن وإما أن لا يؤمن ويختار الكفر، بل إن الإنسان المؤمن له لا اختيار من أن يطيع أو يعصى. ولكن هناك أشياء أخرى أخرى على الإنسان لا اختيار له فيها، كأن يمرض ولا يقدر أن يقول لا لن امرض، أو قد يأتيه الموت فلا يقدر أن يقول لن أموت، وقد يهلك ماله أو تحترق دابته فلا يستطيع دفع القدر، وكل هذه أمور قهرية يكون الإنسان فيها مدلاً مسخراً، والكافر والمؤمن في هذه الأمور سواء.

والمؤمن يتعبر بأنه يتبع منهج الله فيما له فيه اختيار، وهذه فائدة الإيمان، وبذلك يخرج المؤمن عن الاختيار المخلوق لله، إلى مراد الله فيه في الحكم، ويستوى بكل شيء مسخر لله، ولذلك نقول للذين يكفرون ' كفروتم وتأبستم بما خلق فيكم من الاختيار من الإيهان بالله

وقد جعلها الله لكم يقول :

﴿لَسْ شَاءَ قَلْبُؤْمِمْ وَمَنْ شَاءَ قَلْبُكُمْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ومادام الواحد منكم أيها الكافرون يتأبى ويستكبر على حكم الله، إذن فلو اُحد منكم أيها الكافرون رياضة على التمرد، فلماذا لا تقول للمرض لن أمتسلم لك. ولن يستطيع أحد الكافرين ذلك، لأنه إنما يكفر بما له حق ممنوح من الله في منطق الاختيار، أما في غير ذلك فالكل عباد مدللون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا نَكْرًا﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وقول الحق تبارك وتعالى : « فادعوهم » أي اطلبوا منهم أن يلبوا لكم أي طلب ، وهم لن يستجيبوا لكم ، لأنهم لا يقدر أن يذأ ، وفي هذا القول لون من التحدي « فليستجيبوا لكم » لكنهم لن يستجيبوا ، فليست لهم قدرة لأن يحرجوا على أمر ربما يقوون سمعكم ما تطلبون ، لأن طاعتهم وطاعتهم لا تقدر أن تستجيب .

وبعد أن قال الحق عن الأصنام : « بهم عباد أمثالكم » أراد أن يزلهم سرلة أدنى من الشر مثال .

﴿أَلَمْ يَمْشَوْا بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ
بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُطْرَقُونَ



وبينه الحق تبارك وتعالى كل مشرك ، وكأنه يقول له : أنت لك رجل تمشي بها ، وبت يد قد تبطش بها ، ولت أذن تسمع ، ولك عين تبصر ، فهل للأصنام حواس مثل هذه ؟ لا ، ليست لهم ، إذن ، فالأصنام أقل منك ، فكيف تجعل الأتس إليها للأكبر ؟ إن هذا هو جوهر الحيلة .

وقوله : « يمشون بها » ، « يسمعون » ، « يبصرون » جاءت لأن المشركين صوروا التمثال وله رجلان وله أذان وله عيان ويضعون في مكان كل عين نخوة لتكون مثل حدة العين ، وحين ينظر إنسان منهم إلى تمثال يحيل إليه أن التمثال ينظر إليه ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ١٩٨ سورة الأعراف)

وهي قوله تعالى :

﴿ أَهْمُ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَنْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

حين يعرض الحق مثل هذه الأمور بأسلوب الاستفهام. فلماذا يريد أن يحقق المسائل من أقوى طريق. لأن الاستفهام لا بد له من إجابة والكلام من الله ضد الكافر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب. ورجابة الكافر ستكون قطعاً بعدم استطاعة الأصنام المشي أو اللمس أو الرؤية أو السماع؛ لذلك أراد الحق ألا يكون الحكم من جهته. بل الحكم من جهة المشركين، وهي هذه إقرار منهم. ولذلك يقول الحق مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ ﴾

(سورة الأنشراح)

أما كان يستطيع سبحانه وتعالى أن يقول : شرحاً لك صدرك ؟ كان يستطيع ذلك ولكنه يأتي بالاستفهام الذي يكون جوابه : بلى لقد شرحت لي صدري وبينه قوله تعالى :

﴿ أَهْمُ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَنْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

إلى مقدرة الأصنام بالبشر فالبشر لهم أرجل وأيدي وأعين وأذان، وكل من هذه الجوارح لها عمل تؤديه، وهكذا يتأكد للمشركين أنهم أعلى مرتبة من أصنامهم.

فكيف يجوز في عرف العقل أن يكون الأعلى مرتبة مربوباً للأدنى مرتبة ؟ إن ذلك
لن يكون من الحمق

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيّدون فلا تنظرون ﴾

ورسول الله جاء بهذا القول ليذّحض إيمانهم بهذه الأصنام التي اتحلّوها آبهة
ويسفه أحلامهم فيها، وبذلك أعلن العداوة ضدهم العبيدين، والمعبودين -
وصارت حصومة واقعة، وسألهم أن يدعوا الشركاء ليكيّدوا لرسول الله بالأذى أو
التعب أو منع النصر الذي جاء للإسلام، إن كانت عبدكم أو عبدكم قدرة على ضرر
أو نفع.

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيّدون فلا تنظرون ﴾

ويتحدّهم عسى الله عليه وسلم أن يكيدوا هم وألّهمهم، والكيد هو التدبير الخفى
المحكم. وانظروا ما سوف يحدث، ولن يصيب رسول الله بإذن ربه أدنى ضرر.

ولذلك نحمد الحق سبحانه وتعالى قد أجرى على رسول الله أشياء، نشأت بها
أشياء، وقد قالوا إن واحداً قد سحر النبي، ولتعرض أن مثل ذلك السحر قد
حصل، فكيف ينسحر النبي ؟ ونقول : ومن الذي قال إنه سحر ؟. إن ربنا أعلمه
بأساحر وينوع السحر، وأين وضع الشيء الذي عليه السحر، يبين لهم أن كيدهم
حتى بوسطة شياطينهم مفضوح عند الله.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُنتِزُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

وهم كانوا قد بيتوا المكر لرسول الله وأرادوا أن يضربوه ضربة واحدة ليصرف دمه
في القبائل، فأوضح ربنا : أنتم بينتم، ولكن مكركم يبور أمام أعينكم. وليثبت لهم
أنهم باوإحجة لن يستطيعوا مصادمته في دعوته ولا بالثبوت البشري يستطيعون أن
يصدّموا دعوته، ولا بتبويت الحس - وهم أكثر قدرة على التصرف - يستطيعون

مراجعة دعوته وماداموا قد عرفوا أنهم لن يظهروا على الرسول، ولن يفيد
مكرهم أو سحرهم أو كيدهم مع شياطينهم، إذن فلا بد أن بأسوا، وبذلك تحداهم
وقال .

﴿ قُلْ أَذْهَبُ مُرَكَّأً ثُمَّ كَيْدُنِ فَلَا تُمْطَرُونَ ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

وانظروه يعني أحره، والقول هنا : لا تؤحروا كيدكم مع شركائكم،
بل نفلوا الكيد بسرعة، وقد أمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك
لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما أوى إلى ركن شديد؛ لذلك يقول رسول الله
بأمر الحق :

﴿ إِنْ وَلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي سَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى

الضَّالِّجِينَ ﴾

ومادام الولي هو الله، فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يبالى بهم، و"أولى"
هو الذي يليك، وأنت لا تجعل أحداً يليك، لا أقربهم إلى نفسك، وإلى قلبك، ولا
يكون أقربهم إلى نفسك وإلى قلبك، إلا أنا أنست منه نفعاً فرق نفسك، وقوة فوق
قوتك، وعلماً فوق علمك، وقول الرسول بأمره سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْ وَلِيَّيَ اللَّهُ ﴾

أي أنه ماضى على أي كيد يحاول معسكر الشرك أن يصنعه أو يبينه لى . قاله هو
ولي الرسول أي ناصره، واقرب من بصغبات الكمال والجلال التي تحبها سبحانه
وتعالى، وعندما يكون المؤمن حصلة ضعفه فهو يلجأ إلى عنده حصلة قوة، ولذلك
قلنا في قصة موسى عليه السلام حين التفت قومه ووحدوا قوم فرعون فقالوا
﴿ إنا لنذكرون ﴾

أَيُّ جَيْشٍ فَرَحُونَ سَيِّدَرِكِهِمْ ، لِأَنَّهُ لِبَحْرِ أَمَانِهِمْ وَالْعَدُوِّ وَرَاءَهُمْ وَلَيْسَ أَمَامَهُمْ
مَسْجِدٌ أَمَامِيَّةٌ لِلْهَرَبِ وَلَا مَنَافِذُ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَصْعَدُوا أَمَامَ جَيْشٍ مَرْعُونٍ وَهُمْ بِقُوَّةٍ ،
وَمَا يَكْذِبُهُمْ مُوسَى عِنْدَ السَّلَامِ فِي قَوْلِهِمْ ، بَلْ قَالَ لَهُمْ يَطْمِئِنُّهُمْ

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ ذُرِّيَّتِي سَيِّدَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وَمَا خَرَجْتَ الْمَسْأَلَةَ عَنْ أَسْبَابِ الْبُشْرِ وَنَهَيْتَ إِلَى الرُّكْنِ الشَّدِيدِ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ
الرَّسُلَ وَلَا يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ إِلَّا وَهُوَ وَاثِقٌ بِمَا شَقَّ مِنَ بَصَرَةِ اللَّهِ ، وَسَبَقَ أَنْ رَوَيْتَ
لَكُمْ حِكَايَةَ الْمَرْأَةِ الْأُورِيَّةِ الَّتِي أَسْلَمَتْ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَقْرَأُ سِيرَةَ الرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ كَبَهْلٍ مِنْ أَبْطَالِ الْعَالَمِ ، صَنَعَ أَكْبَرَ انْقِلَابٍ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَمَا مَرَّتْ فِي
تَارِيخِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَرَأَتْ أَنَّ صَحَابَتَهُ كَانُوا يَحْرُسُونَهُ مِنْ غَصْبِهِ
وَأَعْدَائِهِ ، إِلَى أَنْ فُوحِشُوا فِي يَوْمٍ مَا بَانَ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
اذهَبُوا عَنِّي فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيَّ .

﴿ وَاقْفُ يَتَّبِعُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

وَاسْتَوْقَفْتَ هَذِهِ الْوَقْعَةَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ فَقَالَتْ : إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ
النَّاسَ جَمِيعاً مَا يَكْذِبُ عَلَيَّ نَفْسَهُ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُسَلِّمَ نَفْسَهُ لِأَعْدَائِهِ بِدُونِ حِرَاسَةٍ إِلَّا
إِذَا كَانَ وَاثِقاً مِنْ أَنَّ إِلَهَهُ أَمَرَهُ عَلَيْهِ هَذَا ، وَأَنَّهُ نَادَرَ أَنْ يَحْصِمَهُ ، وَلَا دُخْلَ بِنَفْسِهِ فِي
غُيُوبَةٍ وَالسَّاحِثَةِ مِنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ قَدْ أَخَذَتْ لَفْتَةَ الْعِبَرَةِ ، وَفِي مِثْلِ هَذَا يَقُولُ الْحَقُّ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى عَنِّي لَسَانُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

﴿ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كَيْفَ يُكُونُ فَلَا سَیِّرُونَ ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

وكانه صلى الله عليه وسلم يستدعيهم إلى التحدى بامركة بالفكر والتبصير ، وألا يتأخروا عن ذلك وهو راثق من أن الله عز وجل ينصره

﴿إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الْأَدَىٰ تُوِّلَ الْكَتَبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٤٦)

(سورة الأعراف)

وأنزل الحق تبارك وتعالى على رسوله الكتاب المبين ليبلغه للخلق ، ولا يمكن أن يسلمه إلى عدو يبعده من تمام البلاغ عن الله. لقد أبدل الحق الكتاب على رسوله ليلجأ إلى الكفاية ولا يمكن أن يتحلى عنه. ﴿إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الْأَدَىٰ تُوِّلَ الْكَتَبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾

وقوله " وهو يتولى الصالحين " أى أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يقول لكل واحد من أتباعه ، كن صالحاً فى أى وقت ، أمام أى عدو ، متجدد الله وهو يتولاك بالنصر ، وساعة يعصم الله الحكماء فهو يشر العظماء بنية الإيمان فى قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم. وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم شيئاً ما سوف يكون له هذا التأيد ، وسيجته الذى جعل رسوله مسلماً عنه المتهج ، وهو سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون ؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة يصنع فى الكون ، وأول مراتب الإصلاح أن ينفى الصالح على صلاحه ، أو أن يزيده صلاحاً إن أمكن.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَصْرِفُونَ﴾ (١٤٧)

لأن الذى لا يستطيع نصرك . يجوز أن يكون ضميراً بصرك ؛ لأن حبه لك حب رياء ، أو لأنه يرغب فى أن يحتفظ بـ ينصرك به نفسه ، أما حين يكون غير قادر

على بصرتك؛ لأنه لا يملك أدوات البصر، فهذا بين عجز ونقص من اتخذه ولياً، وهكذا كان حال المشركين. وفي يوم الفتح جاء المسلمون بالعاول وكُسرَت الأصنام، ولم يقاوم صنم واحد بل تكسرت كلها جميعاً

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَدُّهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

وبطبيعة الحال لو أن أحدا دعاه هذه الأصنام إلى الهداية فنن تهتدى الأصنام لأنها من الجهاد الذي لا تصلح معه دعوة أو فهم رغم أن الصنم منها له عيون كالتي تراها جالبا في معابد الهدوس أو الوذيين، حين يضعون للتمثيل في مكان حدقة العين حورا ملونا يشبه العين، ويوحه الحنقة بجلها وكأنه ينظر إليك وهو لا يرى شيئا.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ﴾

وهذه آية جمع فيها المولى سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق.

وبعد أن أبلغ الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدعو المشركين لأن يكيدوا له مع شياطينهم وأصنامهم ولن يستطيعوا بعد ذلك يوضح له أنا أحب أن تأخذ بالعفو، وفي هذا تعليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولن يتبعه، وكلمة "العفو" ترد على الستة، ونحن لا ندرى أن لها معنى أصيلاً في اللغة. وقد يسألك سائل "من أين أتيت بهذا الشيء؟ فتقول له: جاءني عموماً، أي بدون جهد، وبدون مشقة، ويدون سعي إليه ولا احتياان لاقتنائه

ويقال أيضاً إن هذا الشيء جاء لفلاان صفو الخطر ، أى لم يفكر فيه ، بل جاء مبسراً هذا هو معنى لعفو. والحق هنا يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يأخذ لعفو ، أى أن يأخذ الأمر المبسر السهل ، الذى لا تكلف فيه ولا اجتهد ؛ لأنك بذلك تُسهل على الناس أمورهم ولا تعصدهم ، أما حين تشكلف لأشياء ، فذلك يرهق الناس ، ولذلك يأمر الحق رسوله أن يقول :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (سورة ص)

وقوله : " وما أنا من المتكلفين " أى أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف الأمور حتى تصير الحياة سهلة ولا يوجد لددين الناس ، لأن الذى يوجد اللدد هو التكلف وقهر الناس ، ويجب أن تقوم المعاملة فيما بينهم بدون لد أو تكلف . ولذلك يقال إن المؤمن هو السمع إذا باع ، والسمع إذا اشترى ، والسمع إذا اقتضى ، والسمع إذا اقتضى منه : أى أنه فى كل أموره سمع .

وللأمر يأخذ " العفو " معنى آخر وهو أن يعفو عن ظلمت ؛ لأن ذلك يبسر الأمور

والعفو أيضاً له معنى ثالث ، هو الأمر الرائد ، مثل قوله الحق تبارك وتعالى من قبل أن تهرض الزكاة :

﴿ وَتَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ إِنَّمَا أَنفَقُ ﴾ (سورة البقرة)

ثم حدد الحق بعد ذلك الزكاة وأوجه إنفاقها ، ونلاحظ أن الأمر بالإتفاق من قبل أن تهرض الزكاة ، والإتفاق بعد أن يرل الأمر بالزكاة يلتقيان فى السهولة ؛ لأن المؤمن لا ينفق مما يحتاجه بل من الرائد عن حاجته .

وقول الله سبحانه وتعالى فى الآية " اخذ العفو " فيه أمر " اخذ " ومقابلته " أعطه " وقد تعطى إنساناً فلا يأخذ منك إن رأى أن ما تعطيه له ليس فى مصلحته ، لكن إذا هل الحق تبارك وتعالى " اخذ " ، فهذا أمر يعود بعه عليك ، فلو كان العفو عن ظلمك فى مظهر الأمر ينقص شيئاً ، فعدم أنك أخذت العفو لنفسك .

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هيباً لياً مع إخوانه من المؤمنين . فإن عر عليه أخوه المؤمن فليتهن له ، فإن تعالى أو تعالم أخ مسلم عديك ، فلا تعال عليه أو تعالم حتى لا تقوم معركة بينكما ، بل تواضع أنت ، ليريدك الله رفعة وعرة

وكأن الله سبحانه وتعالى يؤكد لك أنك حين تعطى العفو تأخذ الخير من حلاله ، ودائماً أصرت هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت حين تدخل إلى منزلك وتجد ابناً لك قد أساء إلى أخيه فينتجه فذلك وحياتك إلى المقنوم ونحن عمال ربنا ، فون ظلم واحداً آخر ، فالظالم يظلمه يجعل الله في جانب المظلوم ، ولذلك يحتاج الظالم إلى أن نحسن إليه حيث كان سيئاً في رحمة الله لما فتنه معاً مثلاً مع سيدنا حسن البصري عندما قيل له : إن فلاناً اغتصبك بالأمس ونادى سيدنا حسن البصري الخادم وقال له : جاءنا طبق من باكورة الرطب ، ادع به إلى فلان وحدد للخادم اسم من اعتاه وتعجب الخادم كيف تبعث بالرطب إليه وهو قد غناك ؟ فقال أفلا أحسن إلى من جعل الله بجانبى ، قل له : « يقول لك سيدى بلغه أنت قد اغتصبه فأهديت إليه حسباتك ، وهو أهداك رطبه »

﴿ حد العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾

وتتناول الآية الكريمة الأمر بالعرف :

والعرف هو السلوك الذي تعرف العقول صوابه ، وتطمئن إليه النفوس ، ويوافق شرع الله ، ويسميه العرف ؛ لأن الكل يتعارف عليه ، ولا أحد يستحى منه ، لذلك نسمع في شتى المجتمعات عن بعض ألوان لسلوك هذا ما جرى به العرف وما يجرى به العرف عند المجتمعات المؤمنة يحشر معبداً من مصادر الأحكام الشرعية

وحين مثال على ذلك أننا نجد لشباب لا يحجل من أن يطرق باب أسرة لطيب يد ابتها ، لأن هذا أمر متعارف عليه ولا حياء منه ، بينما نجد المجتمع المسلم يستحى

أن يوجد بين أقرانه إنسان يزني، والعاية من الزنا الاستمتاع، والغاية من طلب يد الفتاة هو الاستمتاع، لكن هناك فارق كبير بين متعة يحرمها الله عز وجل، ومتعة يحلها الله تعالى

وفي نهاية الآية يقول الله تعالى:

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

وكيف يكون الإعراض عن الجاهلين؟ يحظى من يظن أن الجاهل هو الذي لا يعلم، لأن من لا يعلم هو الأمي، أما الجاهل فهو من يعلم مقصده تحالف لواقع ويلحظ أن المشكلات لا تأتي من لاسين الذين لا يعلمون، فالأمي من هؤلاء يصدق أي قضية تحدته عنها وتكون مقبولة بالمطرفة؛ لأنه لا يملك بديلاً لها، أما الجاهل فهو من يعلم قضية مخالفة للواقع ويحتج إلى تغيير علمه بتلك القضية، والخطوة الثانية أن تقعه بالقضية الصحيحة.

والحق ما يوضح. أعرض عن الجاهل لدى يعتقد قضية مخالفة للواقع ويتمصّب لها، وأنت حين تعرض عن الجاهل، يجب ألا تقريه، أي لا تعادله؛ لأن الجدل معه لن يؤدي إلى نتيجة مفيدة؛ لذلك أهول لكن من يواجه قضية التدين ولم يقرأ عن الدين كتاباً واحداً، وقرأ في كتب الانحراف عن الدين المثات، أقول له: كما قرأت فيما يباهض الدين مثات الكتب فمن الحكمة يجب عليك أن تكون عادلاً ومنصفاً فقرأ في مجال التدين بعض الكتب الخاصة به مثلما قرأت في غيرها. وإن أردت أن تبحث قضية الدين بحثاً منطقياً يصح لك عقيدتك، معليك أن تخرج كل الاقتضاعات المسبقة من قلبك ووجدانك وتدرس الأمور بعيداً عن قلبك، ثم أدخس إلى قلبك الأمر الذي تواتح إليه، لكن لا تحتفظ في قلبك بقضية وتهاض منطقها بظاهر لسانك. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا حَمَلَ اللَّهُ رَجُلًا مِّن قَلْبَيْنِ فِي حَرْفِهِ﴾

(من الآية ٤ سورة الأعراف)

فأنت لك قلب واحد، إما أن يمتلئ بالإيمان واليقين وإما بغير ذلك. والقلب حير واحد فلا تشغله أنت بباطل، حين تبحث قضية الحق، بل أخرج الباطل من قلبك أولاً، واجعل الباطل والحق خارجاً، وابحث بعقلك، والذي ييسر إليك أن تدخله إلى قلبك فأدخله

وفي بيان معنى هذه الآية التي نحن بصدد خوارطها عنها روى لنا أبي قال: لما أنزل الله صر وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم: «خذ العصا وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن لله أمرك أن تعصو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك. (١)

وسبحانه - إذن - يريد أن يعلمنا قضية إيمانية إنسانية: لأنك كمسلم تساعد المصائب في بدنه، فما بالث بالمصائب في قيمه، ألا يحتاج إلى معونتك؟ ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَمَا يَتَزَعَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَأَسْتَعِذْ
بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

و «نزغ» تساوي كلمة «نخس» أي أمسك بشيء ووضع طرفه في جسد من بجانبه أو من أمامه وينصح من معنى «نخس» أن هناك مسافة بين الناحس والناخوس ووسيلة أو أداة للنخس.

وعملية النخس لا يدرك بها الناحس أو النخوس حرارة بعضهما البعض، أما كلمة «مس» فقد يشعر الماس والممسوس كل واحد بحرارة الآخر منهما بسرعة، لكن أحدهما لا يدرك نعومة الآخر، أما اللمس فبقية إدراك نعومة وحرارة اللامس والملمس. ومعارك الحرب كلها تدور في هذا النطاق، فحين يكون العدو بعداً يحتاج خصمه إلى أن يتعد عنه كيلا يصيبه بالنبال أو السهام، ويحاول هو أن يصيب

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم

نخصمه بالبال أو السهام . وكما تفعل الجيوش الحديثة حين ترسل طائراتها لترمي
الضابل على قوات الخصم . وتنفذ قوة لدول بقدرتها على ضرب القنارات المعدنية
دون قدرة تلك القوات على الرد ، لأنها تصيبه من بعد في عصر الصواريخ بعيدة
المدى . ولجند الإشارة في قول الحق تبارك وتعالى .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأعداء)

وأوضح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى القوة فيما رواه عنه عقبة
ابن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر
﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي . (١)

لأن الرمي يُعَكِّفُ قديمتك من عدوك ، وأنت بعيد عنه فلا يقدر أن يصيبك
يرمي

وقديماً كانت الجيوش ترحف ، فيلقى الخصوم عليها النبل والسهم ، وإذا ما
اقتربت جيوش أكثر من خصومها فكل فريق يوجه الرماح إلى ما يقرب من أجساد
المرشق الآخر وإذا حمى وطيس المعركة تتلاقى السيوف . إذن كنهها من اسخس .
والمس ، واللمس

وحينما حاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه قائلاً : يا رب كيف بالعصب ؟
أي كيف يكون علاج العصب ؟ نزل قول الحق .

﴿ وَإِنَّمَا يَرَعَيْتُ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَأَسْتَحِذُ بِالنَّارِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(سورة الأعراف)

وقد يشفقهم قائل فيقول : أليس الشيطان الرسول ؟ وأقول : إن الحق تبارك
وتعالى لم يقل : « إذا نزعك الشيطان » ، ولكنه قال : « وإما ينزغك » أي إن حدث

(١) أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد وابن ماجه وأبو داود

ذلك، وهو قول يهيد الشك - ثم نادى يحرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من لذة محاسبة الشيطان ٢ . ويعلم عن ابن مسعود أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قريبه من الجن ، وشربه من ليلثة ، قالوا : وإياك ٢ قال . وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير) . (١)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وإما يترغبك من الشيطان فرغ فاستعذ بالله ﴾

والاستعانة تعني طلب لعون وسليحاً والحفظ وأنت لا تطلب العون ولا تنجأ ولا تستجير إلا بمن هو أقوى ممن يريد أن ينالك شره . ومعلوم أن الشيطان له من حيله الحركة ، ووفرة التفرغ ، ووسائل التسلل الكثير ؛ لذلك فيسخر ألا تستعبد بمثله أو بمن هو دونه ، ولكنك تستعبد بحالقي الإنس والجن وجميع المخلوقات ، وهو القادر على أن يعطل فاعلية الشيطان . وسبحانه سميع عليم ، والسمع له متعلق ، والعلم له متعلق ، فحين تستحضر معنى الاستعانة وأنت مشحون بالإيمان وتلجأ إلى من خلقك وخلق ذلك الشيطان ؛ عندئذ لا يد أن يهرب الشيطان من طريقك لأنه يعلم أنك تدجأ إلى الخالق القوي القادر وهو ليست له قوة على خالفه ، وسبحانه سميع لقولك ﴿ أعوذ بالله ، عليم بما في نفسك من معنى هذه الكلمة

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هنا قد تكلم عن حضرة النبي عليه الصلاة والسلام . وقال ﴿ وإما يترغبك ﴾

أي أن الشيطان بعيد ، وهو يحاول مجرد التزغ ، فنادى عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاء هذا ٢ . هنا يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَسَّكُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُنْصَرُونَ ﴾

ومن رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه قل : « إِذَا مَسَّهُمْ » ولم يقن : « مَسَّهُمْ » . لأنهم من الذين اتقوا ، أي وضعوا بينهم وبين صفات جلال الله وقاية فعملهم يقعون عند حدوده ولذلك يقول . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ﴾ .

والطائف هو الخيال الذي يطوف بالإنسان ليلًا ، وبما أن الشيطان لا يرى ، لذلك نصرره على أنه خيال ، فإذا ما طاف الشيطان بالمس للذين اتقوا وتذكروا خالق الشيطان وخالقهم ، وتذكروا منهج الله الذي يصادم شهواتهم ، وتذكروا أن عين الله تراهم ولا تغفل عنهم ، وأن محارم الله واضحة وبيّنة ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : في الحديث الذي يرويه عنه العيمان بن بشير (الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراخ يرمى حول الحمى يوشك أن يواقع ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) (١)

وإذا ما تذكر المؤمن العفوية المترتبة على أي عمل شائن برئته الشيطان لهم ، هنا تزول صهم أي عشاوة ويصرون الطريق القويم ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتَنِ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾

ونحن حين نتتبع كلمة « يمدونهم » في القرآن ، نجدها مرة « يمدونهم » ، ومرة يمدكم كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة موح)

ونعلم أن الشياطين لن تترك المؤمنين في حالهم ، بل تظل في محاولة الغواية ، ونحاول الشياطين غواية المؤمنين الطائعين أكثر من محاولتهم غواية العاصين ، لأن العاصي إما يمارن الشيطان باتباعه شهوات نفسه ، ولا يقصر العاصي أو الشيطان في ذلك ، بل يحاول العاصي أو الشيطان غواية المؤمنين و«أقصر» من مصاد «قصر» ، أى أنه قادر أن يطول المسافة لكنه يقصرها . وهكذا إجحاح الشياطين لغواية المؤمنين

والشيطان - كما جاء في القرآن - يعترف بموقفه من ملاحقة المؤمنين بالوسوسة وتزيين المعاصي .

﴿ لَا أَقْنِدُ لَكُمْ مِرَاصَكُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

والشيطان يعلم أن من لا يشقى الله لا يحتاج إلى تزيين أو غواية ، لأنه يرغب ويميل للمعاصي والعبادة بالله ؛ لذلك لا يبذل الشيطان لعويته جهدا كبيرا ويصور الحق بعد ذلك .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا أَوْلَا أُجْتَبِشَتْهَا قُلْ إِنَّمَا أَنبِئُكُمْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

وقد جاء الحق تبارك وتعالى من قبل بكلمة « آيات » ، والآيات - كما أوضحنا - إما آيات كونية وإما آيات المعجزات الدالة على صدق الرسل ، وإما آيات الأحكام

والله سبحانه وتعالى جاء هنا بكلمة : « آية » لا « آيات » ، ولكون أمامهم على بآياته ، وانتهج المزل على الرسول عليه الصلاة والسلام وأصبح ، ولا ينقص إلا أن

تأتى الآية المعجزة - من وجهة نظرهم - وبسبب الحق هؤلاء بقوله تبارك وتعالى فى سورة الإسراء .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَجِئَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بِبُيُوتٍ ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ بَنَاتٌ مِّنْ نَّحْبِلٍ رَّعِيْبٍ فَتُفْسِحَ إِلَٰهَتُنَا فَطَلَّهَا تَعْبِيرًا ۝ أَوْ تُسْفِطَ السَّمَاءُ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرِّعٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ بِرُفُوقِكَ حَتَّىٰ تُفْرِكَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرَوْنَ قُلُوبُهُمْ ثُمَّ يَكْتُوبَ لِيَوْمَ هَلْ كُنْتَ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن ما آيات المعجزات التى طلبوها ، لا يأتى بها الرسول من عنده ، والآيات التى ينزل بها المصحح أيضاً ليست من عنده ، بل هى تنزل من لدن عزيز حكيم . وكادوا يتهموه صلى الله عليه وسلم أنه يفتوى القرآن . لذلك طلبوا منه صلى الله عليه وسلم المعجزة الحسية متأسين ما جاءت به آيات القرآن الكريم من معجزة لم يستطيعوا هم أن يأتوا بآية واحدة من مثل آياتها ، وقالوا بالرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى لى من ربي ﴾

يأمره هتاربه أن يقول ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى لى من ربي ﴾

أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكلف بأن يندفعهم بما يأتى به الوحي بحمله لروح لأمين جبريل عليه السلام من آيات القرآن الحاملة للمصحح الإلهي ، وهذا المصحح فى حد ذاته معجزة متجددة العطاء ، لذلك يضيف .

﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكَ وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢١)

(سورة الأعراف)

ففى القرآن الكريم بصائرٌ وهدىٌ ورحمةٌ ، والبصائر جمع بصيرة ، من الإبصار ، إذا امتلأ القلب برور البقين الإيماني فإن صاحبه يعيش فى شفافية وإشراق ، ويسمى صاحب هذه الرؤية المعنوية صاحب بصيرة ، أما البصر فهو مهمة العين فى الأمور الحسية ، لكن هناك أمور معنوية لا تكتشفها ، لا البصيرة ، والبصيرة تضى القلب بانور حتى يستكشف تلك الأمور المعنوية ، ولا يمتلك القلب البصيرة إلا حين يكون مشحوناً باليقين الإيماني

والقرآن الكريم بصائرٌ ؛ لأنه يعطى ويمسح من يؤمن به ويتأمله بصائر ليحدد الأمور المعنوية وقد صارت مبصرةً ، وكأنه قادر على رؤيتها ومشاهدتها وكأنها عين اليقين .

وهذا القرآن المحيد بصائرٌ وهدى ، أى يذل الإنسان ويهديه إلى المهج الحق وإلى طريق الله المستقيم ، وهو رحمةٌ أيضاً من لا يملك إشرافات القلب التى تهدى للإيمان ولا يملك قوة أخذ الدليل الذى يوصله إلى الهداية ، إذن فهو رحمة لكل الناس ، وهدى لمن يسأل عن الدليل ، وبصائر لمن يبقى أصول الإيمان مشهداً ،

وكما قلت من قبل إن الله قد أخبر المؤمنين بأمور عينية ، ومن هذه الأمور العينية أن له جنةً وأن له ناراً ، وصدق المؤمنون بكل ما جاءهم من الملائع عن ربهم ، وعلموا أن ذلك من الله ، وصار هذا العلم علم يقين كقدر مشترك غنما بينهم ، فإذا جاء يوم القيامة ورأوا الصراط مغبروباً على من جهنم عطشاً لم صدقوه وصار حين يقين ، وإذا دخل بعضهم النار - والعياد بالله - تكفيراً لذنوب ارتكبوها ، فهذا حق يقين وصرحت المثل من قل - ولله المثل الأعلى - كان الحفرايمون يحدثونا ونحن طلاب عن خريطة الولايات للتحفة ، ويقولون إن عاصمتها « رانغون » ، والماء الكبير فيها اسمه « نيويوك » ، وفى « نيويوك » توجد « طحات لسحاب » وهى مبان

ضخمة يريد ارتفاع المبني الواحد من هذه المبانى على مائة طابق أى أكثر من مائتى متر، وصدها بحن استاد جغرافيا ، وعندما أتاحت للمعض ما فرصة السفر ورأوا واشنطن وسيويورك من الطائرة ، صارت الرؤية عين يقين بعد أن كانت علم يقين وعند هبوط الطائرة فى مطار واشنطن صارت الرؤية حق يقين

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى لنا الإيمان ببعض من الغيب فى قوله تعالى .

﴿ اَلْهٰكُرُ الْفٰكِرُ ۝۱ حَقَّ رُبَّمَا الْمَعَارِ ۝۲ كَلَّا سَوَفَ تَعْمَلُوْنَ ۝۳ لَّمْ كَلَّا سَوَفَ تَعْمَلُوْنَ ۝۴ كَلَّا لَوْ تَعْمَلُوْنَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ ۝۵ لَتَرَوُنَّ اَبْحِيْمَ ۝۶ لَّمْ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ ۝۷ ﴾

(سورة النكاثر)

أورد سبحانه هنا « علم اليقين » « رعين اليقين » ، وأما « حق اليقين » فقد جاء فى قوله

﴿ فَاَمَّا اِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ ۝۸ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَجِيْمٌ ۝۹ وَاَمَّا اِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَحَنِّبِيْنَ ۝۱۰ فَسَلَمٌ لَّكَ مِنَ الْمُتَحَنِّبِيْنَ ۝۱۱ وَاَمَّا اِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِيْنَ الضَّالِّيْنَ ۝۱۲ فَزَلٌّ مِّنْ حَمِيْمٍ ۝۱۳ وَتَضِيْعٌ حَمِيْمٌ ۝۱۴ اِنْ هٰذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِيْنِ ۝۱۵ ﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمنون المصدقون باختيار الغيب على درجات مختلفة . . فهناك من صدق الله فى الخير عن الغيب كعين يقين ، وهناك من صدق قول الله حق اليقين ، ولذلك عباسا بعد الإمام عليا - كرم الله وجهه - يقول . « لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا »

وفي الحوار الآتي الذي دار بين حضرة النبي ﷺ ، والصحابي الجليل الحارث بن مالك ما يكشف له جوهر هذا اللون من الإيمان

« فقد روى الحارث بن مالك الأنصاري : أنه مرَّ رسول الله ﷺ فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة مما حقيقتك ؟ فقال عزمت نفسى عن لدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت بهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتراودون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتصارعون^(١) فيها . فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً^(٢) . »

هذا الصحابي الجليل وصل إلى أن كل ما قاله النبي ﷺ قد صار حق بغير ، وامتلك البصيرة التى رأى بها كل ذلك .

﴿ وَإِذَا نِمَ تَأْتِيهِمْ بَآئَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَنِبْتُهَا قُلْ إِنَّمَا اتَّبِعُ مَا يوحىٰ إِلَىٰ مِنْ رَبِّى هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ يُزَمِّنُونَ ﴾ [سورة لأعراف]

وهكذا نجد القرآن الكريم بصائر لأصحاب المنزلة والدرجات العالية ، وهدى لأصحاب الاستدلال ورحمة للجميع .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وما دام قد أوضح لك المولى سبحانه وتعالى من قبل أن هذا القرآن بصائر من ربك

(١) يتصارعون أى يرفعون أصواتهم بالصراخ والعويل .
(٢) أخرجه المصنف الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري

وهدي ورحمة ، ألا يستحق أن تمنحني به أيها المؤمن ؟ . ألا تجد بك هذه الخيئات الثلاث لأن تعطى له أدبك وألا تنصرف عنه ؟ .

إذن لابد أن تنصت للقرآن الكريم لتتلقى العوائد الثلاث ، البصائر ، والهدى ، والرحمة ، وهو حقيق وجدير أن يُعرَّض على سماعه إن قرئ .

ولنلاحظ أن الله تعالى قال : ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ ولم يقل « اسمعوا » ، لأن الاستماع فيه تعمد أن تسمع ، أما السمع فأنت تسمع كل ما يقال حولك ، وقد تنسبه إلى ما تسمع وقد لا تنسبه ، ومن الرحمة لرحمته يقول حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ناهياً عن التسمع لأسرار الغير تحسباً منهم بالبحث عن عوراتهم فيما يرويه عنه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجاسلوا ولا تباعصوا ، ولا تحسبوا ولا تحسبوا ولا تناجشوا وكوموا صناد الله إخواناً » (١)

وفي هذا تحذير من هذه الأمور الخمسة التي منها التلصص والتنصت إلى أسرار الناس .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

والإنسان قد يصمت ويستمع ولكن بعينه التعمد فيحرم من ثواب الاستماع ، فاستمع وأصت نية العبادة ، لأن الله هو الذي يتكلم ، وليس من المعقول والتأدب مع الله أن يتكلم ريك ثم تنصرف أنت عن كلامه ، وقد لمت أنظارنا سيدنا جعفر الصادق (٢) : ونبهنا إلى ما فيه الخير حيث يقول .

« عجبيت لمن حاف ولم يفرغ إلى قوله تبارك وتعالى : « حسبنا الله ونعم

(١) أخرجه الإمام مسلم (كتاب الأيمان والأدب) ج ١ ص ١١٩

(٢) الإمام جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر ، بن سيدى على زين العابدين ابن سيدنا الحسين .

الوكيل». فلما سمعت الله عقبها يقول «فاتقلبوا بنعمة من الله وقصصهم
بمسهم سورة».

وعجبت لمن اغتم ، ولم يفرغ إلى قوله تبارك وتعالى : «لا إله إلا أنت سبحانك
إني كنت من الظالمين» فلما سمعت الله عقبها يقول :

«فاستجبنا له ونجينا من الغم ، وكذلك نتجى المؤمنين»

وعجبت لمن مكر به ، ولم يفرغ إلى قوله تبارك وتعالى : «وأفوض أمري إلى
الله إن الله بصير بالعباد» فلما سمعت الله عقبها يقول : - «فوقاه الله سيئات
ما مكروا»

وعجبت لمن طلب الدنيا ولم يفرغ إلى قوله تبارك وتعالى : «ما شاء الله لا قوة
إلا بالله» فلما سمعت الله عقبها يقول «فحسى ربى أن يؤتيني خبيراً من
جنتك»

وبحسب حين ستمع لقراءة القرآن الكريم سنة التعداد فذلك هو حسن الأدب الذى
يجب أن يستقبل به العبر التى تعود بالعائلة علينا .

ووقف العلماء حول الإنصات سماعاً للقرآن ؛ أياكون الإنصات إذا قرئ القرآن
مطلقاً فى أى حال من الأحوال ، أو حين يقرأ فى الصلاة ، أو حين يقرأ فى خطبة
الجمعة ؟

وقد اختلفوا فى ذلك ، فبعضهم قال . إن المقصود هو الإنصات للقرآن حين يقرأ
فى الصلاة ، والسبب فى ذلك أن الأوائل من المسلمين كانوا حينما يقرأ رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، يعيدون بعده كل جملة قرأها فلما قال : بسم
الله الرحمن الرحيم : قالوا . بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا قال «الحمد
لله رب العالمين» ، قالوا : «الحمد لله رب العالمين» فينههم الله عز وجل إلى
أن يتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهم يستمعون إليه دون تردد
للقرآن

وقال آخرون من العلماء : الإنصات للقرآن الكريم يكون في الصلاة ، وفي
خطبة الجمعة أو العيدين ، لأنها تستلزم على آيات من القرآن ، ولكن اشتمالها على
آيات أقل مما يقوله الخطيب ، ونبه البعض إلى أن الإنصات للخطبة ثبت بدليل قول
النبي عليه الصلاة والسلام :

(إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت) (١)

إذن الإنصات للخطبة جاء بدليل من السنة .

وهناك قول بأن الاستماع مطلوب للقرآن في أي وضع من الأوضاع حين يُقرأ ؛
ففي هذا احترام ومهابة تكلام الله عز وجل ، وينسب هذا القول إلى إمامنا وسيدنا
ومولانا سيدي « أبي عبد الله الحسين » ، فيقول :

إذا قرئ القرآن سواء إن كنت في صلاة أو كنت في خطبة ، أو كنت حراً فأنت ،
لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يميز القرآن على مطلق الكلام ، فميزه بأشياء ، إذا
قرئ نعت له ، وإذا من المصحف لا بد أن يكون على « وضوء » حتى لا يجترئ
الناس ويمسوا المصحف كأى كتاب من الكتب ، وهذا يرى المهابة فلا تمسك
المصحف إلا وأنت متوضئ ، فإذا علمنا أولادنا ، نقول للواحد منهم : لا تقرب
المصحف إلا وأنت متوضئ ؛ فتشأ المهابة في نفس الولد .

وأيضاً في « الكتابة » شاء الحق تبارك وتعالى لبعض العاقل كتابة خاصة غير كتابة
لتقعيد الإملائي ، حتى يكون للقرآن قداسة خاصة ، فهو كتاب فريد وليس ككل
كتاب وكلامه ليس ككل كلام .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١)

(سورة الاحزاب)

وبعض العلماء قال : ليس المطلوب مجرد الاستماع بالأذان ، بل المقصود

(١) رواه الإمام مالك في مسنده ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، والبيهقي ، وأبو داود والسنائي -
عن أبي هريرة

بالاستماع هنا هو أن تستجيب لمطالبه ، ألا تقولون لبعضكم حين يدعو بعضكم لبعض : « الله يسمع دعائك » ؟ إنك تقولها وانت تعلم أن الله سامعك ، ولكنك تقصد بها أن يستجيب سبحانه وتعالى لهذا الدعاء ، إذن فالاستماع لقرآن يقتضى الاستجابة لمطلوبات القرآن . لماذا ؟ لنسال الرحمة من الحق فهو الرحمن الرحيم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ .

ونعلم أن « لعل » « وعسى » حين يقال يقصد بها الرجاء ، و « لست » تعنى التمنى وهو مستحيل ولا يتوقع ، ونحن نسمى لنظهر أن هذا أمر محبوب لنا ، لكننا نعلم أنه مستحيل ، مثل قال الشاعر اعجزوز :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

إنه يعلم يقيناً أن الشاب لن يعود ولكن قوله يدل على أن الشاب فترة محيرة ومثل قول اشاعر .

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمنه عقود مدح من أَرْضى لكم كَلِم

ولين تدنو الكواكب .

إذن ساعة تسمع « عسى » أو « لعل » يتبادر إلى ذهنك أن هذا رجاء لأن يحدث ، وإذا كان رجاء من الله ، فهو رجاء من كريم لا بد له من واقع ويقول الحق بعد ذلك :

والذكر مرور الشئ ، إن كان بالبال ، فهو ذكر فى النفس ، وإن كان باللسان ولا يُسمع الغير ويُسمعك أنت فهذا ذكر السر ، وإن كان جهراً فهو قسماً « جهر

مقبول ، وجهر غير مقبول ، والجهر غير المقبول هو أن يتحول الذكور إلى إزعاج والعباد بالله ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى

﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الإسراء)

ولعل إخواننا القراء ينتبهون إلى هذه الآية ، تبها يجعلهم يلتفتون إلى أداء أمر الله في هذا المجال فلا يجهرون ولا يرفعون أصواتهم به لدرجة الإزعاج ، لأنني أقول لكل واحد منهم : إن ربك لم يطلب منك حتى الجهر ، إنما طلب دور الجهر ، وأقول ذلك خاصة لهؤلاء الذين يفسدون نعمة الله على خلقه ، فيصيحون ليلاً ويمنعونهم من رحمة الله ليلاً التي قال فيها .

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَبِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(سورة القصص)

فلا تفسدوا على الناس رحمة ربنا ، لأن الدعوة إلى الله ليست صياحاً على المنابر ، اللهم إلا إذا كنتم تصنعون لأنفسكم دعاية إعلامية على مساجد الله وعلى منابر الله . وهذا أمر مرفوض وغير مقبول شرعاً .

﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وحيفة ﴾ والحق تبارك وتعالى يقول مرة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝١١ ﴾

(سورة الأعراب)

ومرة يقول : ﴿ واذكر ربك ﴾

وقوله : « اذكر الله » يستشعر سماعها لتكاليف : لأن الله هو المعبود ، والمعبود

هر المصاع في الأوامر والنواهي

أما قوله « اذكر ربك » فهو تذكير لك بما حاك به من أفضال ، خلقتك وربك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يعد ولا يحصى . فاذكر ربك ، لأنك إن لم تشقه تكليماً ، فأنت قد عشتته لأنه عبدك بالنعم ، وسبحانه يتفضل عليك ويواليك جميعاً
يا نعم

وأصرب لك هذا المثل - وبك المثل الأعلى وهو منزّه عن التشبيه - وأنت لك أولاد ، وتعطى لهم مصروفاً ، وحين تعطى لهم المصروف كل شهر ، تجدهم لا يحرصون على أن يروك إلا كل شهر ، لكن إن كنت تعطى لهم مصروفيهم يومياً فأنت تلتفت لتجدهم حورك ، فإن كنت دائماً تدخل انك لغرفة يومئذ يسبر بجانبك ويتنحى ليقول إنه يحتاج لشيء موجود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكر وجودك عند لإحسان ربك ؟ وما دمت عبد الإحسان فاذاكر من يحسن إليك ، اذكر ربك دائماً .

واذكره على حالين الأول تضرعاً أي بذلة ، لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بدلة عبودية لمقام الربوبية ، واذكر ربك « خيفة » أي خائفاً متضرعاً ؛ لأنك كلما ذلت له يعزك ، ولذلك يمد العبودية مكرهة في البشر وهي استعصاء ، والباقين يضررون من يستعبدهم ؛ لأن عبودية الإنسان لتساويه طغيان كبير وظلم عظيم فهي تعطى خير لعبيد بلعيد ، ولكن عبوديتك لله تعطى خير الله لك . ولذلك نمد الحق بمتن على رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول

﴿ مَبْعَثَ الَّذِي أَسْرَى بِرَبِّهِ نَسُوا نَبِيًّا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا

الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ بَيْنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١٧ ﴾

(سورة الإسراء)

وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كبرى بحادث لإسراء ، وكان الحديث عنها بامسان من الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

حسب نفسي عراً بأنى عبد يحظى بي بلا موعيد رب

هرى قدمه لأعز ولكن أنا ألقى متى وأين أحب

وأتى بها العبد المؤمن تلقى الله متى أردت ، وإذا أسلمت زمك للإيمان ؛ فالزمم في يدك يكفى أن تنوى الصلاة وتقول . الله أكبر فتكون في حضرة سبحانه سواء كنت في البيت أو في الشارع أو في أى مكان . وفى هذا منتهى العبرة لك .

﴿ وَأَذْكُرَنَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٢٠٥ من سورة الاعراف)

ولم يقل هارب العالمين : بل ربك أنت يا محمد ، وهذه نعمة العطاءات التى جاءت للناس ، فهذا العطاء الذى جاء بمحمد رسولا ، نعمة ومنة من الله على المؤمنين برسائله ، وبعد ذلك ينسب لكل مسم العطاء الذى جاء لمحمد . وقوله تعالى لرسوله : " واذكر ربك فى نفسك ، أى أنه سبحانه لم يجعل دليل عبادته بك مقصوراً على ما يشاهد فى الخارج واسعِد عنك فقط ؛ لأنك قد لا ترى شيئاً فى الكون أو لا تسمع شيئاً فى الكون ؛ لأن الكون متصل منك ، إنما انظر إلى نفسك أنت وستجد الآيات كلها تذكرك بخالقك ،

﴿ وَفِي أَنْفِكَ أَفْلا تَبْصُرُونَ ﴾

(سورة الذاريات)

فقبل أن يجعل ربنا الدليل فى الكون لذى حولك ، جعل لك اندليل أيضاً فى نفسك ؛ لأن نفسك لا تفارقت وأنت أعلم بملكاتها وبجوارحها ، وبترازعها ، ولهذا كان التضرع إلى الله والخيفة منه لهما مجال هنا ؛ لأنك تستطيع أن ترى سر صناعته فيك ، وستجد الكثير من الآيات ، وفى آيات أكبر منك ، لذلك أنت تنضاهل أمام من وهب لك كل هذا ، وتخاف ألا تؤدى حقه لديك .

ونعرد إلى قول الله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ لِكَرْبِكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْحَبِيرِ مِنْ الْقَوْلِ بِانْغِدُو وَالْأَصَالِ ﴾ والذكر حدث، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان، والعدو والأصال ومثان يستوعبان النهار؛ فالغدو هو أول النهار، والأصال هو من العصر للمغرب، مشعنا نقول "شمس الأصل". وهذه الآية الكونية تتكرر في القرآن الكريم كثير، فالحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ١٦٦ ﴾

(سورة الأعراف)

وكما يقول عز وجل:

﴿ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لَتُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَرِّضُونَ نَبُوتَهُ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ١٦٧ ﴾

(سورة المتح)

و"الأصيل" هنا مشترك، ومقابل الأصيل يطلق الحق عليه مرة بكرة، وأخرى يطلق عليه الغدو، ومبيحات القائل:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي الْمِصْبَاحِ الَّتِي فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ رَيْثُهَا يُسْفَىٰ وَلَوْ لَمْ تَحْصُرْهُ لَوُورُهُ عَلَىٰ نُورٍ ۚ بَيِّنَاتٌ لِّأُولِي النُّوْرِ ۚ مِنْ بَيِّنَاتٍ رَضِيبُ اللَّهِ الْأَمْتَلِ لِلنَّاسِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ٢٤ ۚ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمَاءُ بَنِي إِسْرَافِيلَ ۚ لَعَلَّ فِيهَا بِالْغُلُوبِ وَالْأَصَالِ ۝ ٢٥ ﴾

(سورة النور)

إليك ساعة أن تقرأ "في بيوت" تعرف أن هنا حدثًا؛ لأن قوله "في بيوت"

شبه جملة ' في معنى الضرب ، وإذا استقرأت ما قبلها ، لم تجد لها متعلقاً والحظ (ذَنْ أَنْ مَا قَبْلَهَا هُوَ ﴿نور على نور﴾ ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ فأنت حين تذهب إلى المسجد لتلقى الله ، فذلك نور ، وتصلي له فذلك نور ، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك في بيته ، وكل هذا نور على نور ، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل ؛ فليكثر من الذهاب إلى بيوت الله ، وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة ، وتعلم أن الصلاة هي الخطوة التي بين العبد وربه ، وكان رسول الله إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة رأيت إذا ما اتعنت حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وتصلى ركعتين لله إن حزبك أمر وعرت عليك مسأله وكانت فوق أمساكك ثم ذهبت بها إلى الله فلن يحررك الله إلا راضياً. ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾

والغدو والآصال أو البكرة والأصيل كما عرفنا هي أرمنة أول النهار وأرمنة أول الليل.

ولماذا أرمنة أول النهار وأرمنة أول الليل ؟

لأن هذه الأرمنة هي التي يطلب فيها الذكر فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنه من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة ، وفي نهاية النهار أنت تحتاج أن تركز إلى ربك لتزيح عنك متاعب هذا اليوم ، لذلك إياك أن تشعرك الحياة عن وهب الحياة ، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تؤديه وتقوم به وأن تقابل كل نتيجة لعمل بكلمة (الحمد لله) وعندما ترى أي جميل من الوهاب سبحانه وتعالى بحجب عليك أن تقول : « ما شاء الله » وعندما ترى أي شيء بعجيب تقول : (سبحان الله) .

ولذلك حينما دعا الله خلقه المؤمنين به إلى الصلاة قال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بُدِيََ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمٍ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥٩﴾

وهذا التكليف في صلاة الجمعة المفروضة كصلاة الجمعة، والجماعة مطلوبة فيها، ومن الضروري أن يتواجد فيها كجمع، لأن الجماعة مشروطة فيها فلا تصح بدون الجماعة.

ونعرف أن الصلاة إنما هي ذكر ربنا، فماذا بعدها؟

﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١﴾﴾

(سورة الجمعة)

أى إياك أن يشعلك اشتراك في الأرض وابتغائك من فضل الله، والأخذ بأسباب الدني عن واجبك نحو الله، بل عليك أن تذكره سبحانه وتعالى.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيعةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا سَكُنَ مِنَ الْغُفْلِينَ ﴿٢﴾﴾

(سورة الأعراف)

أى لا تكن من الغافلين عن مطلوبات الله والحدود التي بينها الله عز وجل؛ لأن العفلة معناها انشغال البال بغير حالقك، وأنت إن جعلت حائقك في بالك دائماً دونك لا تعمل عن مطلوباته في الغدو والآصال وفي كل وقت، سواء كنت في الصلوات الخمس، أو كنت تضرب الأرض في أى معنى من المعاني، وتأس أبها المؤمن بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان الملائكة والذين لم يرتكبوا أية معصية وليس لهم موجبات المعصية، ولا يأكلون ولا يتناسلون، وليس لهم شهوة بطن ولا شهوة فرج، وكل المعاصي جميعها تأتي من هذه الناحية، مع ذلك يجب عليك أن تتأس بهم؛ لأنهم هم الذين لا يغصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا يستكبرون عن عبادته، ويسبحونه؛ وله يسجدون، لذلك يقول الحق بعد ذلك

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْبَحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾

وإذا كنا كل عند ربنا وفي حضرة ما منحنا من خلق وما أمدنا به من إيمان من عدم سواء ، فلماذا خص هؤلاء بالعبودية ؟

إياك أدتعلم من العبدية أنها عندية المكان ؛ لأن المكان مُحَيَّر ، وربنا عز وجل لا يتحير في مكان ، والعبدية هنا عندية الفضل ، وعبدية الرحمة ، وعبدية الملك ، وعبدية العناية. أو إن كل خلق لله جعل لهم أسباباً ومسببات ، ولكن خلقاً من خلقه يسبحونه بذاته ، وبمس لهم عمل آخر ، ويعرفون باللائكة العالين ، لا الملائكة لمذبرات أمراً أو الحفظة. ولذلك قلنا سابقاً إن الحق سبحانه ونعالي حينما أمر الملائكة بالسجود لأدم ، وامتنع إبليس ، قال له :

﴿ أَتَسْكَبَرْتُمْ أَن كُنْتُمْ مِنَ الْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة ص)

و "العالين" هم الذين لم يشملهم أمر السجود ، فهم ملائكة موجودون ولا عمل لهم إلا تسبيح الذات العلية ولا يدرون عن الخلق أو الدنيا شيئاً. وهم غير الملائكة المستغربين خداماً ؛ فالذين عند ربنا هم الملائكة المهبطون الذين لا يعرفون شيئاً إلا الذات الإلهية وتسبيح الذات وعملهم يحدده الله هنا ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْبَحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾

وحتلت ابعلماء في كيفية سجد الملائكة ، أمر الخضوع ؟ أم الصلاة ؟ أم السجود الذي نغرمه نحن ؟ والسجود عندنا هو متهى ما يمكن من الخضوع لله عز وجل وقب الصلاة. لأنه نزل بأشرف شئ في الإنسان وهو الوجه الذى يصعب المز من على الأرض خضوعاً لله عز وجل ، ولذلك علمت رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنا إذاً، مررنا على آية سجدة من آيات كتاب الله فيها مثل ذلك فعلينا أن نستجيب لها استجابة حقيقية ونسجد لها سجدة تسمى سجدة التلاوة، ويكون ذلك عند تلاوتها أو سماعها من القارئ، وحصرها العلماء فيما تحدوه في المصحف عند كل سجدة وجعلوا عندها علامة ووضعوا تحت الكلمة التي تسجد عندها خطاً، وحين قام العلماء ببيان المواضع التي تطلب فيها هذه السجودات وجدوها قد ابتدأت بسجدة آخر سورة "الأعراف" التي تناولها بخواطرها الآن، وانتهت بسجدة "العلق".

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾

(سورة العلق)

وبينهما سجودات، وبعض العلماء عدّ في سورة الحج سجديتين وبعضهم أحمل السجدة الثانية في هذه السورة، فمن حسبها خمس عشرة سجدة، عدّ سجدة الحج الثانية المختلف عليها مع سجدة الحج الأولى - المتفق عليها - وبعض العلماء قال، إنها أربع عشرة سجدة؛ لأنه لم يحسب سجدة الحج الثانية.

وهب أنك أردت أن تسجد لله شكراً في أي وقت، وعند أي آية فاسجد لله سجدة الشكر، وهي سجدة واحدة كسجدة التلاوة وتستحب عند فجدد نعمة أو انقشاع غمّه، أو زوال نقمة ولا تكون إلا خارج الصلاة.

ولسجود بطبيعة الحال تدهأ بالتكبير، ورفع اليدين كأنك تبدأ الصلاة، والمفترض أن تقول "سبحان ربّي الأعلى"، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علما ما يقوله في السجود للتلاوة، وروى عن ابن عباس قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال: إني رأيت البارحة - فيما يرى النائم كأنني أصلي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدة فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها تقول اللهم حطّ عني بها وزراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، قال اسعاس. فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ السجدة فسجد، فسمعته يقول في

سجوده مثل الذي أخيره الرجلُ عن قول الشجرة، (١)

وبذلك تختم سورة الأعراف، والتسمية لسورة في ذاتها متناسبة؛ لأن "الأعراف" هو المكان العالي البارز الذي يجلس عليه القوم من تساوت حساتهم وسبتاتهم لينظروا إلى أهل الجنة وينظروا إلى أهل النار، وهكذا تكون الأعراف مكاناً يريد في الارتفاع، وهي مأخوذة من "عرف العرس"، وعرف العرس أعلى شرف فيه، والأنفال أيضاً هي الزيادة؛ ولذلك فإن التسمية متناسبة سواء بالنسبة لسورة الأعراف أو الأنفال، وأيضاً يوجد تناسب في المعنويات، وهذا التسبب ملحظه عندما نقرأ قول الحق تبارك وتعالى في أواخر سورة الأعراف

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

(سورة الأعراف)

ثم يأتي قوله سبحانه وتعالى في أول سورة الأنفال:

﴿يَعْلَمُونَكَ عَنِ الْإِنْفَالِ قُلُ الْإِنْفَالِ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَأَنْفَرُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

لأن من مهام الشيطان أن يفرق بين المؤمنين بوسوسته لهم، فإذا ما تذكروا الله وما أعد له أهل الإيمان؛ فهم يبصرون الحقيقة الأولى التي ترتفع على كل شيء وهي الإيمان بالله، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يكدرها حتى تكون خالصة نقية.

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وزاد فيه: وثقيها مني كما تنبأها من عبده داود عليه السلام.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول الحق سبحانه وتعالى مفتتحاً سورة الأنفال .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

السؤال يقتضى سائلاً وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقتضى
مُسئلاً هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويقتضى مسئلاً عنه وهو موضوع
السؤال المطروح .

والمسئول عنه قد يوجد بذاته ، مثلما نسال صديقنا : ماذا أكلت اليوم ؟ هذا
السؤال فيه تحديد لمنطقة الجواب ، و لجواب عنه أيضا يحدد المنطقة .
وموضوع السؤال لى قول الله تعالى .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحْضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا إِلَيْهِ فِي الْمَحْضِ وَلَا
تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴿٢﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

يدل عليه الجواب ، فهم لم يسألوا عن أسباب المحيض ، أو لماذا يتقطع عن
الحامل أو من بلغت الكبر ، لكن كان موضوع السؤال الذى هو واضح من جابة الحق
تبارك وتعالى ، أيجوز أن يباشر الرجل المرأة أثناء المحيض أم لا ؟

وسؤال آخر سأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن البتامة ، ويحدد الجواب

موضوع السؤال - يقول الله تعالى

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ حَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَلْيَنْصُرُوا
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْيُنَ الْمُبْصِرِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَتْكُمْ إِنْ اللَّهُ غَيْرُ
حَكِيمٍ ﴿٢٢٠﴾

(من الآية ٢٢٠ من سورة البقرة)

لأنهم كانوا يتحرفون من مخالطة اليتامى في الأموال ومن مؤاكلتهم ، وغير ذلك
من ألوان التعامل ، ودعاً وبعداً عن الشبهات وجاءت الإجابة لتحدد موضوع
السؤال :

ومرة يأتي السؤال وفيه تحديد مناط الإجابة لأنها عامة مثل قوله الحق تبارك
وتعالى :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾

(من الآية ١٨٩ من سورة البقرة)

هم سألوا محمداً صلى الله عليه وسلم لماذا يبدأ الهلال صغيراً ولماذا يكبر ، ثم
لماذا يختفي في المحاق ؟ . وهذا سؤال في الفلك ولم يجبه الرسول صلى الله عليه
وسلم إلا في الحدود التي يستعيدون منها وهي القيمة التقعية العملية ، وجاءت
الإجابة ﴿ قل هي مراقيت للناس والحج ﴾ .

لأننا ورغم وجودنا في هذا القرن لعشرين إلا أن البعض من الناس مازال يكذب
الحقيقة العلمية التي ثبتت بما لا يدع مجالاً لأي شك ويقول لعمامة إن
الهلال يشبه قلامة الظفر ثم يكبر ليستدير ثم يعتفي قليلاً قليلاً وفي هذا يقول
الشاعر :

وحية ضوء فمبر كنت آمله مثل لقلامة قد قدت عن الظفر

ولو قال بهم : إن الهلال يظهر حين تتوسط لأرض بين الشمس والقمر ثم يبدأ

في الاكتمال تباعاً، لما استطاعت عقولهم أن تستوعب هذه المسألة، فجاء لهم بالحكمة المباشرة، الصعبة التي تدركها عقولهم تماماً، ثم ارتفعت العقول بالعلم ووصلنا إلى دراسة حركة الأفلاك التي توضح كل التفاصيل الفلكية

وهناك سؤال يجيء في أمر محدد، مثل قول الحق :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢١٧ من سورة البقرة)

وهكذا عرفنا أن موضوع السؤال هو عن حكم القتال في الشهر الحرام، لا طلب تحديد لأشهر الحرم بالذات

ويقول الحق تبارك وتعالى هنا : ﴿ يسألونك عن الأمان ﴾ والأمان جمع نَقْل (بفتح الحرف الأول والهمزة)، مثل كلمة سَبَب وأسباب، والمراد بالنقل هنا النجاسة، لأنها من فصل الله تعالى وهي من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد احتضنت بها هذه الأمة دون الأمم السافكة، والنقل بالسكون الريادة، ومنه صلاة الناقبة؛ لأنها زيادة عن العريضة الواجبة، وفي هذا المعنى يقول ربنا عز وجل في آية ثانية : ﴿ ومن الليل فتهجد به ذكراً لك ﴾

وباقلة ثمنى أمر أرائدنا غير معروض، ولذلك نقول: إن النقل هو العبادة الزائدة، وشرطها أن تكون من جنس ما قُرض عليك، لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصي، بل يعبد العبد ربه بأي لون من ألوان العبادة التي شرعها الله، وإذا أراد زيادة فيها فتتכן من جنس ما قُرض الله، حتى لا يستدع لعبادة عبادات ليست مشروعة. ولذلك قل الحق تبارك وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ فَتَنَّا بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مُّحَمَّدًا ﴿١٧﴾﴾

(سورة الإسراء)

النفس، ذو هو أمر تعبدى زائد عن الأصل.

وحينما ابتلى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل، جاءه الابتلاء لا بوحى صريح، ولكن برؤيا منامية وهو ابتلاء شاق، فلم يكن الابتلاء - مثلاً - أن يذبح إنسان آخر سيدنا إسماعيل، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقد، لا بل هو الذى يقوم بذبح ولده إسماعيل. وهكذا كان الابتلاء كبيراً، خصوصاً أنه لم يأت إلا فى أحر العمر. وكانت هذه المسألة من الملايسات القاسية على انتفس. ولذلك أضح رننا عز وجل أن سيد إبراهيم كان أمة، أى اجتمع فيه صفات الإجماع اللازمة لأمة كاملة.

﴿لَمَّا أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴿١٨﴾﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولم رحموت النبوة فى سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاء ليفد أمر الرؤيا بذيح الابن لأن رؤيا الأنبياء وحى؛ لذلك لم يشأ أن يأخذ ولده أخذاً دون أن يطلعه على الحقيقة؛ لأنه لو فعل ذلك سيعرض ولده خطرة بهاجس عقوق لأبيه، وقد يقول لابن أى رجل هذا الذى يذبح ابنه؟. وأراد سيدنا إبراهيم أن يشاركه ابنه كذلك فى الثواب، وأن يكون الابن تخاضعاً لأمر الحق تبارك وتعالى كآبيه فقال له:

﴿يَسْقَىٰ ابْنٌ أَوْ ابْنَتٌ فِي الْمَتَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٩﴾﴾

(من الآية ١٠٦ سورة الصافات)

سورة الصافات

﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

وهكذا أوضح سيدنا إبراهيم عليه السلام الابتلاء الذي جاءه كروياً في المنام .
معاداً يقول الابن إجابة على سؤال أبيه ؟

﴿ قَالَ يَبْنَوتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١١﴾

(سورة الصافات)

أي أن إسماعيل عليه السلام أسلم زمامه لأمر الحق تبارك وتعالى ، ويواصل
المولى سبحانه وتعالى وصف ابتلاء سيدنا إبراهيم بدمج لابن فيقول تبارك
وتعالى .

﴿ قَمَّآ أَسْمَاً وَنَلَّهُمُ اللَّحْمِينَ ﴾ ﴿١٢﴾ وَتَلَبَّثَهُ أَنْ يَكُونُ مِنْهُمْ ﴿١٣﴾ قَدْ صَدَّقَتْ
الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَبُكَ تَعْزَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

(سورة الصافات)

فيبعد أن رضى كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل وصلى الله عليهما وسلم
تعالى وامتناناً للأمر بالقضاء ، رفع الله برحمته هذا القضاء ؛ لذلك يصف الحق تبارك
وتعالى هذا البلاء وتكرمه بالعناء فيقول

﴿ إِنَّ هَذَا لَمُرَّ الْبَلَاءِ الْيُسْرُ ﴾ ﴿١٥﴾ وَقَلْبَيْكَ يَدْبَحُ عَظِيمِ ﴿١٦﴾

(سورة الصافات)

وتعلمنا هذه الواقعة أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله ، إياك أن تهزع ،
إياك أن تسخط ، إياك أن تغضب ، إياك أن تسمرد ؛ لأنك بذلك تقطع أمد لقضاء
عبيك ، ولكن سلم لقضاء الله فيرفع هذا القضاء ؛ لأن القضاء لا يرفع حتى يرضى
به . وهكذا لم يكن جراء الصر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام اعتداء
إسماعيل بلبح عظيم فقط ، بل وزيادة على ذلك يسرق له المولى البشري بمزيد من
الاعطاء فيقول .

﴿ وَبَشِّرْهُمْ بِإِحْتِقَاقٍ بِبَيِّنَاتٍ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٧)

(سورة الصافات)

أى أنه لم يرزقه بولد ثان فقط ، بل بولد يكون نبياً وصالحاً وثأتى زيادة أخرى هي
العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بَاقِلَةً ۖ كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ (٧٨)

(سورة الأنبياء)

هكذا يتجلى عطاء لمولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه
لولد الذى يحفظ ذكره فقط ، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكل
ذلك نافلة من الله ، أى عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبى الأنبياء

إذن النفس هو الأمر الرائد عن الأصل ومثال ذلك ما خص الله به رسوله محمداً
صلى الله عليه وسلم ، فقد قاد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(أعطيت حسناً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، بصرت بالربعب مسيرة شهر ،
وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ،
وأحلت لى الغنائم ، وسم تحمل لأحد قبلى ، وأعطيت الساعة ، وكان انتى بعث لى
قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة)^(١) .

إذن تشريع الله للغنائم فى الإسلام أمر زائد عن الأصل ، لأن الغنائم لم تحمل
لأحد من الأنبياء قبل رسولنا صلى الله عليه وسلم .

وهناك نفل ، وهناك عيمة ، وهناك فى ، وهناك قبض

وسنوضح معنى كل منها .

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه وجامع الأحاديث لمبوطى ج ١ ص ٦٣٥

الغنيمة . هي ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين ، وتقسم فيما بينهم بنسب معينة ، فلرجل القاتل سهم واحد ، وللقدر من سهمان ، وهذا على سبيل المثال فقط وتقسييمها حسب تشريع الله عز وجل ، وسبق بيان النقل والنقل بفتح الوسط وسكونه ، والقبض هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر - « والقبض » تحريك الوسط بمعنى المقرض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم

لكن إذا جاء ولي الأمر وبين للمقاتلين مشجعاً لهم على حركة الحرب مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

(من قتل كافراً فله سلبه)^(١)

فلذلك أمر زائد في حصته في الغنيمة .

وقد يبحث الفقهاء سرية ويشجعونها على حوصص الصعاب فيقول لأفراد تلك السرية : لكم نصف ما غنمتم ، أو الربع أو الخمس ، فهذا يعني أن من حققهم أن يأخذوا النسبة التي حددها لهم الفقهاء كأمر زائد ، ثم تقسم الغنائم من بعد ذلك ، ومساعدة يأخذ المقاتلون الأسلاب والمتاع ، ولعتاد والأموال من الأسرى ، فهذا يسمى غنائم ، أما حين تُجمع الغنائم عند ولي الأمر يصير اسمها القَبْض وقد سبق بيانه .

وفي يوم بدر حدثت واقعة يرويها الصحابي الجليل سعد بن مالك رضي الله عنه قائلاً :

قلت يا رسول الله : قد شقاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا السيف لا بك ، ولا لي ، فضعه » ، قال فوضعه ، ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف من لا يلي بلاني ، قال فإذا رسول الله يدعو من ورائي . قال الصحابي : قد أنزل الله في شيئاً ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سألتني السيف ، وليس هو لي ، وأنه قد وُهب لي ، فهو لك ، قال : وأنزل الله هذه الآية

(١) رواه البيهقي وأبو داود والترمذي عن ابن قتادة

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليحكم فى أمر السيف إلا بعد أن ينزل حكم الله عز وجل . وعدم جميعاً أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غزوة بدر ولم يكن يقصد القتال ، بل كان الخروج للغير التى تحمل بهائم قريش القادمة من الشام ، وليس معها إلا أربعون رجلاً يحرسونها ، ولذلك خرج المسلمون وكان عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم عدة أو عتاد ، بل لم يكن لديهم إلا فرسان اثنان لأنهم لم يخرجوا لقتال ، بل خرجوا للغير بعية أن يعوضوا أنفسهم شيئاً مما سلبوا . فى مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبنا سمعان سلبك طريق الساحل . أتى سار فى طريق بعيد عن المسلمين ولم يأت من جهة الرسول والذين معه ، واستنصرت قريش كل رجلها ليحموا العير ، وصار الأمرين أن يرجع المؤمنون دون حرب ، وإما أن يواجهوا العير ، وهو التعداد الكثير ، وكانوا ألقاً ومعهم العدة والعتاد ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشجع الغتيان على الحرب فقال لهم : « من قتل كافراً قتلته الله » ، أى أنه خصهم بأمر رائد عن سبهم فى العيمة فلما علم الكفار من الصلابة والشجاعة ، قالوا : يا رسول الله هم قاتلوا وقتلوا ، لكن نحن كما عند الريات ، فيفتنون إلينا إن وقعت عليهم هزيمة فلا بد أن نشارك ، وحدث لعط وحلاف ، فحسم الله سبحانه وتعالى هذا اللغط بأن أمر فونه تعالى : ﴿ يسألوكم عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فانقوا الله ﴾

فبين سبحانه أن الحكم فى قسمة الغنائم بين الجميع لله وللرسول وإياكم أن تخرجوا عن أمر الله فيها ، واحجموا بينكم وبين عصبه وقاية . فلا تدرعوا ولا تحتدوا ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ .

إن كان قد حصل بين الطرفين ، لشدة والشيوخ الكبار قليل من الخلاف فأصلحوا ذات بينكم وساعة تسمع ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ قد تسأل ما هو لين ؟
الجواب : الين هو ما بين شيتين ، فحين يجلس صف من الناس بجانب بعضهم

البعض ، هما بين كل منهم هو ما يُسمى «البين» ، وقد يكون الذي يفصلنا عن بعض «بين موده» أو بين حفاوة ، إذن فالبين له صورة وله هيئة ، فإن كانت الصورة التي بينكم وبين بعضكم فيها شيء من الخفوة فأصلحوا السبب الذي من أجله وُجد «البين» حتى لا يكون بينكم حفاوة ونزاع

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

وقلنا نأمر بالطاعة معناه الامتثال ، والطاعة ليست للأمر فقط بل للنهي أيضاً ، لأن الأمر طلب فعل ، والنهي طلب عدم فعل ، وكلامنا طلب وحينما يقول الحق ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

تفهم هذا القول على ضوء ما عرفناه من قبل وهو أن مسألة الطاعة أخذت في القرآن صوراً ثلاث ، الصورة لأولى . يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وفيها يكرر المطاع وهو الله والرسول ، ولكنه يورد الأمر بالطاعة .

ومرة ثابته يقول المولى عز وجل :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

أى أنه سبحانه يكرر المطاع ، ويكرر لأمر بالطاعة

ومرة ثالثة يقول سبحانه وتعالى . ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ . لأن منحه الله فيه أمور ذكرها الله عز وجل ، وذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواردت السمة مع النص اقرأني ، فتص يصيح الله والرسول في الأمر الصادر من الله وهناك بعض من التكليف جاءت إجمالية ، والإجمال لا بد له من تفصيل ، مثل الصلاة وفيها قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَتِمُّوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْعُظًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الباء)

إذن فالله عز وجل أمر بالصلاة إجمالاً وقدّم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الإجمال تفسيراً. تطبيقاً فهي خمس صلوات، ركعتان للصبح، وأربع ركعات للظهر، وأربع ركعات للعصر، وثلاث ركعات للمغرب، وأربع ركعات للعشاء، وحثّد الرسول عليه الصلاة والسلام لصلوات التي لجهر فيها بقراءة الفاتحة وبضخ آيات من القرآن، وحدّد الصلوات التي لا يجهر فيها بالتلاوة.

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾، أى أطيعوه فى مجمل الحكم، وحين يقول ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أى أطيعوه فى تفصيل الحكم، وإذا ما قال ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ فهذا يعنى أن الحق قد أمر وأن الرسول قد بلغ، والمراد واحد، وإذا لم يكن لله أمر، وقال الرسول شيئاً فالحق يقول ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾، ومبجّاه قد أعطى رسول تفويضاً بقوله :

﴿ وَمَا أَسْكُرُ الرَّسُولَ فَعُذُّهُ وَمَنْ نَكُرْهُ عَنْهُ فَأَنْتَهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

أى أن كل أمر من الرسول إنما يأتى من واقع التفويض الذى أكرمه الله به، وهنا يقول سبحانه وتعالى

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

دَاثَ بَيْنَكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ① ﴾

(سورة الأنفال)

أى إن كنتم مؤمنين حقاً فاتقوا الله الذى أمّتم به وأطيعوا الأمر الصادر من الله

ورسوله لكم، لأن مدلول الإيمان هو اقتناع القلب بخصيصة لا تطفو لنساقشة من جديد، وكذلك اقتناع بأن هذا الكون له إله واحد، وله منهج يبلغه الرسول المريد من الله عز وجل بالمعجزة، وهذا الإيمان وهذا المنهج يعرض عليكم تقوى الله بإصلاح ذات البين، ويفرض عليكم طاعة لله والرسول في كل أمر، ومن هذه الأمور التي تتطلب العاعة هو ما أنتم بصدده الآن، لأنه أمر في بؤرة الشعور

ويأتى الحق بعد ذلك ليبين من هم المؤمنون فيقول

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ ﴾

وفي هاتين آيتين الكريمتين خمس صفات لها ترتيب عقائدى وحركى وجوارحى، وبذلك يتحدد تشخيص كلمة «المؤمنين»، هذه الصفات هي الأولى أنه إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وثانية الصفات أنه، إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً، ثالثة الصفات: أنهم على ربهم يتوكلون، ورابعة الصفات: أنهم يقيمون الصلاة، وخامسة الصفات: أنهم ينفقون مما رزقهم الله

والصفة الأولى للمؤمنين هي

﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

والوجل هو الخوف فى فزع يتشأ منه قشعريرة، واضطراب فى القلب، رحيماً أراد الشعراء أن يعطوا صورة بهذا الإحساس، فحمد شاعراً منهم يقول:

كأن القلب ليلة قيل يعدي بلبلى اعامرة أو يراح

تططط غرها شرك تجا دبه وقد علق الخساح

فالشاعر يصور حالة قلبه حين سمع بئاً سفر حبيبته ، كأنه صار مثل حمامة تحاول أن تخلص نفسها من شبكة أو مصيدة وقعت فيها ، إنها تجاذب المصيدة حتى تخرج ، وهي ترجف في مثل هذا الموقف ، هكذا حال القلب لحظة مراق المحبوبة عند الشاهر .

وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ، ألا يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى : ؟

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَطَمَنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨)

(سورة الرعد)

في الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين ؛ لأن ذكر الله تعالى يأتي بأحوال متعددة ، وإن كان الإنسان مسرفاً على نفسه ، فهو يرجف حين يذكر الله الذي يخالفه منهجه . وإن كان الإنسان يرجي حق الله في كل عمل قلتر لاستطاعة ، فلا بد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله ؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا

إذن فالخوف أو الرجل إنما يشأ من مهابة وسطوة صفات الحلال . والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال . ولذلك تجمعهم آية واحدة هي قلوب الحق ببارك وتعالى .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُفَشِّحًا مَثَلَيْنِ تَقْشَعْرِمَنَّهُ جُلُودُ

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّكَ دَرَكْتَ اللَّهَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الزمر)

فالجلود تقشعر خوفاً ووجلاً ومهابة من الله عز وجل ، ثم تلين اطمئناً وطمئناً من حنان استأن سبحانه وتعالى ، لأن ربنا قال :

﴿ سَبِّحْ عِبَادِي أَنْ أَنَا الْغَوْرُ الرَّحِيمُ ٥٧ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فلا يقولن أحد إن هناك تعارضاً بين الوجل والاطمئنان، فكلها من ذكر لله بالأحوال المتعددة للإنسان، فإذا ما وجن الإنسان فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن مصداقاً بقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ إِنَّ أَحْسَنَ نَجْوَىٰ نَجْوَىٰ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ دِكْرِي لِلَّذِينَ كَانُوا

(من الآية ١١٤ سورة هود)

و هل يريد الإيمان أو ينقص ؟

اختلعت العلماء في هذا الأمر . ونحن عندما ننظر إلى قول الحق بحده يؤكد زيادة الإيمان، وحينما نسأل ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ . . الخ نجد الجواب في توضيح الرسول صلى الله عليه وسلم ورده على السائل في الحديث الآتي والذي يرويه الصحابي الجليل سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس قائمه رجل فقال يا رسول الله : ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وترسله وتؤمن بالبعث الآخر، قال يا رسول الله . ما الإسلام ؟ قال . الإسلام أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال يا رسول الله . ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك . قال يا رسول الله متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربتها فذلك من أشراطها، وإذا كانت المرأة الحفاة رموس الناس عداك من أشراطها، وإذا تطاول رعاء لبهم في البنيان فذلك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا صلى الله عليه وسلم إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن لله عليم خبير، ثم أدير الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه

ومسلم . ردوا على الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم ^(١) .

وجبريل عليه السلام حين جاء يسأل ليعلم بعضاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الرسول عليه السلام عن الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفي رواية أخرى ذكر القضاء والقدر خيره وشره .

وهذه كلها أمور عينية ، ولا يقال في الأمر لحسن إيمان ، فلا يقول واحد أنا مؤمن أي أغرك على لأرض ، لأن هذا أمر حسي ، والإيمان لا يكون إلا بالأمور العينية وأولها أن تؤمن بالله واحد لا تدركه الأبصار وهو غيب ، وملائكته وهي عيب ، وصدق وجودها لأنه ألعما بذلك الوجود . وكذلك أن يؤمن بالكتب المرسلة على الرسل . وبالرسل ، وصحيح أن الكتاب أمر حسي والرسول كذلك له وجود حسي ، لكن لم شاهد الوحي وهو ينزل انكتاب على الرسول . دن فهو أمر عيني ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر أمر غيب أيضاً ، والإيمان بالقضاء والقدر وهو ما عابت عنا حكمته ، وكلها إذن أمور عينية .

هذا الإيمان في القمة ، لكن هناك إيمان آخر يجيء . لأسما يعلم أن التشريعات لم تأت مرة واحدة ، بل كانت تأتي على مراحل ، فتشريع يربى أولاً بأن يؤمن أنه من الله . إذن فالذي يريد وينقش من الإيمان هو الإيمان بالكتابات ، وأنها صادرة من الله عز وجل ، وكلما كانت ترل أنه تشريع جديد كانت تزيد المؤمنين إيماناً ، فبعدما نزل الأمر بالصلاة أموا بإقامتها واستحبوا وتعبدوا ، ثم جاء الصوم فامتثلوا للأمر به ، ثم يجيء الأمر بالزكاة فتكون الطاعة والتنفيذ ، وطبعاً هناك فرق بين أن تؤمن بالشيء ، وأن تعمل الشيء . فالإيمان شيء ، وعمله شيء ، لأن الإسلام هو الامتثال الظاهري للمنهج ، وتطبيق كل ما يجيء به الإسلام هو . إيمان مستمر متزايد ، لأن أمنا بأن ما يجيء من المنهج هو من الله . إذن فالذي يريد هو توافع الإيمان من التكميمات والامتثال لهذه التكميمات ، مثل ذلك . كلما تعرف قول الحق .

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه الجزء الأول من ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ كتاب الإيمان

﴿ وَفَوْقَ عَلَى النَّبْرِ رَحْبُ الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

لكن هناك أدس ، يتمسكون بحرفية قوله الحق :

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

والذين يتمسكون بحرفية القول الحق لم يتساءلوا : كفر بماذا ؟ هل كفر لأنه لم يحج ؟ لا ، إن كفره في هذه المسألة لا يكون ، لا بأن ينكر أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالمطرب ما إيمانياً أن نفر بالحج كركن من أركان الإسلام في حدود الاستطاعة ، فإن فعله الإنسان كان قد نفذ الحكم ، أما إن لم يفعله فقد يكون ذلك في حدود عدم الاستطاعة .

ويدين الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة التي نحن بصددتها بقوله : ﴿ وَعَنِ رَبِّهِمْ يَتُوكَلُونَ ﴾

ومشعلتي الحمار والمحروور دائماً يكون متأخراً ، بينما هنا يتقدم الحمار والمحروور ، لذلك ففي الأسلوب حصر وقصر ، مثلما نقول : « لربك المال » أي أن المال ليس لغيره ، وقول الحق : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتُوكَلُونَ ﴾ أي لا يتوكلون على غيره ، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى ، والثوكل : أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشيء الذي لا تقرى عليه تقول بصده « وكلت فلاناً ينجز لي على خير وجه » وحتى تحتار الذي توكله ويكون مناسباً لأداء تلك المهمة فأنت تعلن باطمئنان أنت قد وكلت فلاناً .

إذن معنى ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتُوكَلُونَ ﴾ أي أنهم يكلون أمورهم على من اتعنونه على مصالحهم ، وهو الحق سبحانه وتعالى القادر العظيم الذي خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدي إلى مسببات الأسباب مقدمة . والمسببات هي النتيجة . وبعد ذلك ترك

أمور آتية فيها أسباب ، إلا أن يلحظ دائماً اسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعز عليك في أسبابه ، إياك أن تياس من أنه لا يحدث ، بل قل ، تلك هي قضية الأسباب ، أما أنا فلي رب حل الأسباب . وهو القادر فوق كل الأسباب ، وفي حياتنا اليومية نلاحظ أن الناس يحفظون من عمل الجوارح ، وعمل العلوب ، ويظن إنسان ما أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ويركن إلى الكسل ويقول : أنا متوكل على الله ، وهذا تفور له ، لا ، إن هذا منك تواكل وليس تركلاء ، لأن التوكل ليس عمل جوارح ، اتوكل عمل قلوب

والمؤمن الذي يستقل منهج الله بالفهم يجد الأسباب التي يجب أن يأخذها ، ومبجانه وتعالى هو اسبب الأعلى ، والإيمان يؤكد أن الجوارح تعمل والعلوب تترك ، فعلى الجوارح أن تحث الأرض ، وأن تحث البكرة الطيبة ، وتشرها في الأرض ، ثم ترونها . وتتبعها . وهذه العمليات اسمها الأسباب ، ثم لا تترك إلى الأسباب فقط ، بل عليك أن تفور . إن فرق كل الأسباب هناك المسبب فمن الحائر أن يخضر الررع ويسو ، ثم تأتي له آفة من مخر أو حر وتضيقه

ومن ينقل التوكل إلى الجوارح نقول له : أنت تواكلت ، أي بقت عمل لقلب إلى الجوارح ومن يقول ذلك إنما يكذب على نفسه وعلى الناس . لأنه تكسل عن الأخذ بالأسباب وذهي أنه متوكل على الله . ولو كان الواحد من هؤلاء صادقاً في تركه على الله لأخذ بالأسباب . وعادة قلبي دائم أقول لمن يدعى التوكل مع الكسل : ماذا لا تترك الطعام يأتي إلى فمك ، ماذا تمد إليه يديك ؟ . إن من يكسل إنما يكذب في التوكل ، فلا أحد مثلاً يترك قطعة اللحم تقفز من طبق الطعام إلى فمه ، لكنه يأخذها بيده . ويمضغها بآسنه ، ويلعنها بعد المصغ ، ولو كان صادقاً في أن التوكل هو ألا تعمل جوارحه لما فعل شيئاً من ذلك ، لكنه يكذب ويتواكل فيما يتعبه ويشغل جوارحه فيما يريحه ، ولا يستعملها في الأمور التي تتعبه . وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾

هذا القول يعني أنهم يؤمنون بأن الأسباب من خلق الله . وحين يأخذ المؤمن

بالأسباب فهو يؤمن أنه لا جن إلى الله ومعتمد عليه ، لكن إن عزت عليه الأسباب فهو يعلم أن له رباً ، ولذلك قال : ﴿ وعلى ربهم ﴾ ، والرب هو الخالق من عدم ، والمهد من عدم ، ومادم قد حققت وأمسك من عدم قبل أن يكلعك ، فهل من المعتول أن يظلمك ؟ طبعاً لا . لكن علسك أن تفحص أنه خلق لك جوارح ، فاستعمل الجوارح فيما خلقت من أجله .

وتأتي الآية الثمانية لتوضح عمل الجوارح ، وهي تحمل الصفتين الرابعة والخامسة من صفات المؤمنين :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُعْقِدُونَ ﴾ (٤)

(سورة الأنفال)

والقديم والبقود والقراءة والتسبيح والتكبير في الصلاة عمل جوارح ، وكذلك الزكاة هي عمل ناتج من عمل سبق ، فحتى تخرج الزكاة لابد أن نذل الجهد ونأخذ بالأسباب لتتج ما يعولت أنت ودائرتك القريبة من روجة وأبناء ثم أقرب ، ومن بعد ذلك يفيض من المال ما تستقطع منه زكاة ، وهذه طبيعة الحال غير زكاة الرزوع التي تُخرج في يوم الحصاد

﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ردائما ما نجد الصلاة والزكاة وهما مقتربتان ببعضهما ، ولا نجد أيه فيها ذكر للصلاة إلا وفيها ذكر للزكاة أيضاً ، لأن الصلاة تعني ترك أمورك الحياتية التي تسعى فيها لسيا الأسباب ، ونذهب إلى الحق سبحانه وتعالى وتقف بين يديه ، أي أنك قد اقتطعت جزءاً من الزمن الذي كنت تقصبه في حركة حياتك لتقف فيه أمام ربك خالق الأسباب

والزكاة تعني أنك تقطع جزءاً من مالك ، ولذلك قلنا : إن الصلاة فيها زكاة

وزيادة ، فانت تخرج مقدار اثنين ونصف في المائة مما يبقى معك من مال يبيع بصافاً ويكون رائداً عن الحاجة الأساسية ، لكنت بانصلافة تضحي ببعض الوقت الذي تقضيه في العمل الذي يأتي لك بأصل المال ، إذن ففي الصلاة زكاة وأكثر . وأنت في الزكاة تنازل عن بعض المال ، لكنت في الصلاة تتدخل عن الوقت الذي هو محل العمل ، وهو الذي تنتج فيه الرزق ، والرزق وعاء الزكاة

ويذيل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية قائلاً :

(ومما رزقهم ينفقون) وتعلم أن الرزق كما ذكر العلماء هو كل شيء ينتفع به الإنسان ، وحتى البص الذي يسرق ويستفح بسرقة يعد هذا بالسبة له رزقاً لكنه رزق غير طيب وله عقاب في الدنيا إن تم ضبطه ، ولن يفلت من عقاب الله الحاكم العادل في الدنيا والآخرة ، وهو بطبيعة الحال غير الرزق الحلال الذي يأتي من عمل مشروع ، والمؤمن الحق هو من ينفق من هذا الرزق حلالاً ، سواء لتطلعات حياته أو رعاية المجتمع الإيماني

وبعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

« أولئك » تشير إلى من أكرم الله عليهم بالعصاة الخمس السابق ذكرها ، هؤلاء هم من وجلت قلوبهم من ذكر الله ، وزادتهم الآيات في إيمانهم ، وعلى ربهم شاكلون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، هؤلاء هم المؤمنون حقاً ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ .

ولنعلم أن الحق هو شيء الثالث الذي لا يتغير ولا تذهب به الأغيار ، ويحضر به كل الناس لأنه يتعلق بمصالح حياتهم وإن جاء الباطل ليورحح الحق ، نجد الحق ثابتاً لا يتروح لأنه قوى ، ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى .

﴿أَوَلَمْ مِّنْ أَسْمَاءٍ مَّا هِيَ هَاتَتْ أُذُنَهُ بِقُدْرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ وَبَدَأَ رَأِيًا
وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ مِنَ النَّارِ أُتُفَاءَ خَشْيَةً أَوْ مَنَعَ رَبَّهُ مَثَلُهُ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ قَدَّامًا أَلَزِمَ فَيَذَرُ خِصَاءً وَأَمَّا مَا يَمِيعُ
النَّاسِ يَمِيعُكَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة الرعد)

وحين يرسل المطر من السماء، يأخذ من مائه كن واد من الرخيان على قدر اتساعه وعمقه، ويمشي، ترى الرغاوى وهي الربد تطمو فوق السيل، وهي عمدة عن هواء مسبه وجود الشوائب من قش وغيره، وهذا مثل مراد في حجب قناء ويجعل الأرض والناس وكل المخلوقات تتسمع بأصواته، لكنها لا تتسمع بالزبد أو الرغاوى، ثم يتنقل الحق في ذات الآية من ضرب المثل بالماء، إلى ضرب المثل بالنار فيقول

﴿وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ أُتُفَاءَ خَشْيَةً أَوْ مَنَعَ رَبَّهُ مَثَلُهُ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وأنت حين ترى قطعة الحديد وهي تتحول إلى السيولة بالانصهار في النار، تجد شراً يتطير منها، ويعلمو فوق سطح الحديد المصهور، وهو ما يسمى بالحث الحديد، ويتم إزالة هذا الحث يبقى الحديد صافياً لتصنع منه السيوف أو الخناجر وغيرها، وهذه الحالة تحدث في الذهب حين يصهره الصانع ليبريل عنه أية شوائب ويعيد تشكيله ليكون خلياً

وربد الماء ورد الحديد وزبد الذهب يتجمع على الجواب ويسقى الماء صافياً، وكذلك الحديد والذهب، ولهذا يقول الحق:

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن الحق يبقى صافياً ثابتاً، أما الباطل فيعلو ليتجمع على الخواص لبذهب بعير

فائدة

ويوضح الحق علو كلمته سبحانه وتعالى في آية أخرى فيقول

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة لقمة)

ولنلاحظ أن الحق تبارك وتعالى جاء بالجعل لكلمة الكافرين ، أما كلمته سبحانه وتعالى فلها العلو اثابت

والحق هنا يبين أن المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفات الخمس هم مؤمنون حق للإيمان فيقول عز وجل : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾

ومعنى هذا أن هناك مؤمنين ليسوا على درجة عالية من الإيمان ، أى أن هناك سائر ودرجات للإيمان متفاوتة ، ولكل قدر من الصفات منزلة وعطاء مناسب

وبحق نرى البشر حيث يتخصصهم واحد بوجه يفيضون عليه من خيراتهم ، فبجد غير العالم يأخذ من يودهم من العلماء بعض العلم ، والصحيح الذى يعطى وده لقوى ، يعينه القوى ببعض من قوته ، والفقير الذى يعطى وده لى ، يعطيه الحى بعضاً من المال ، والأرع يأخذ من يودهم من العقلاء قدرأ من التعقل للأمور

إذن أهل المودة والتقوى يفاض عليهم من المولى وهم من ختصهم الله بالنعطاءات ، فالذى وجدت فيه هذه الصفات ، ومؤ من حقأ تكون له درجات عد ربه تمام حظه من الحق وحظه من لصفه ، ولنعرف أن السير في درب الحق يعطى الكثير . والمنال الذى تقدمه على ذلك أننا نجد من يعطى الأوقات الخمسة في مواعيدها ، وهذا هو المطلوب العام ، إذا ما صلى ضعف ذلك بالليل ، أو واط على الصلاة في الجماعة ويلزم نفسه بجهج الله ، سوف يأخذ حظاً من الصفه لم يكن موجوداً عنده من قبل ذلك ، وسيجد في قلبه إشراقات وتجييات ، وتسير أمور حياته بسهولة ويسر

وقد يكون الإنسان من هؤلاء على سبيل المثال - نخرجاً من البيت وسألته زوجته: ماذا تنوي اليوم؟ وبحيائها: لنفص هذا اليوم بما تبقى عشتا من الأمس وعدم يعود قد يفاجأ بأن شقيقه قد قدم من الريف، وأحضر له هدية من الطء والقشدة والعطائر، فتسأله زوجته: أكنت تعلم بمجيء أخي؟ فيقول: لم أكن أعلم، وهذا مجرد مثال، لكن عطاءات الصفاء تكون أكثر من ذلك مادياً ومعنوياً، ومن يستمر في العبادة ويزيد عليها ويؤدي كل ذلك بحقه، سيريد عطاء الله له، لأن الله لا يمل عطاء أهل الصفاء أبداً. ومن يجرب مثل هذه العبادة ويزيدها سيجد عطاء الله وهو يريد

ودائماً أضرب هذا المثل ولله امثل الأعلى وهو سره سبحانه وتعالى عن الشبيه تنقضى أن إنساناً أراد أن يسافر من القاهرة إلى الإسكندرية، وسأل إنساناً آخر، فقال له: إن ذهبت من الطريق العلاني ستجد استراحة طيبة، عكس الطريق العلاني.

ويتبع المسافر نصائح من أرشده، فيجده صادفاً، فيرتاح من بعد ذلك لرايه، وكذلك أهل الصفاء، هم أهل العطاء، وعلى قدر صفتهم يكون هذا العطاء. والذي يشجع الناس الذين يباليون في التعبد هو هذا الإشراق، وهناك من يصف الواحد منهم بأنه مجتوب وإن من يطلب على التعبد الرهد هذا الوصف يرى الممرلة العالية وهي تشد هذا المتعبد إليها، وهو من جهة أخرى سطر هذا الراهد إلى من يتعشرون في صلب الدنيا، ويصفهم بينه وبين نفسه بأنهم من «العلابة» ويدهو لهم

وأقول لمن يرى واحداً من هؤلاء: لا شأن لك بأى إنسان من هؤلاء وإياك أن تتعرض بهم واتركهم في حالهم، مادام لواحد منهم لا يألك شيئاً (لهم درجات عند ربهم)

والدرجات عند البشر هي ارتفاعات يسعى إليها، طمأ بالالدرجات التي عند الرب؟ وما دام الله سبحانه وتعالى قد وعدهم بالدرجات العالية عبده فقد ضمنوا المقبرة؛ لأن الواحد منهم سيظهر بالمعزة، وجاء الحق بعطاء الدرجات قبل المعزة

لأنه سبحانه خلق خلق ويعرف أنهم أهل أغيار، ويعلم أن هناك من أسرفوا على أنفسهم، ويحاولون فعل الخيرات لأنهم يؤمنون بأن الحسنات يذهبن السيئات، وصباحاته علمنا أن معالم الدين تأخذ حطها من اسرفين على أنفسهم، لأن من سم يسرف على نفسه تجده يطيع الله طاعة هادئة رتيبة قليس وراءه ما يلهب ظهره أما من عزموا السيئات فإن هذه السيئات تقص مضاجعهم والمسرف على نفسه لحظفة الإمراف يقضى أنه أحد من الله شيئاً واحداً من حديد مبهجة، فيوضح له ربما، إياك ن تظن أن هناك من يتدفع الله هانت ستمحل كثيراً وبشرق الخدمة منهج الله، ويحد المسرف على نفسه لحظفة الإفاقة والنوبة وهو يتدفع إلى فعل الخيرات مصداقاً لقول لرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل العاجر﴾ (١).

لأن فجر الهاجر يتجسد أمامه ويريه سوء التصير، فتدفع إلى فعل الخيرات ليمحو لسنات، أما من سم يحطى، فتجده هدى القلب، مطمئن النفس، لا يلهب ظهره شيء.

﴿لَسْمٌ دَرَحَتْ عِندَ رَبِّهِمْ مَعْمَرَةٌ وَرِيقٌ كَرِيمٌ﴾

(من الآية ٤ سورة الأنعام)

وهل هذا الرقيق ناشيء من كسريم؟ الحسومات لا؛ لأن الكرم تعدى من الكرم لأصيل، إلى أن صدر الرقيق منه كرمياً، وكأن هذا الرقيق يتعشق صاحبه؛ لأن ربنا ساعة يعطى إنساناً نعمة، ثم يستعملها العبد في الساعة، تحس النعمة أنها مسروقة بالذهاب إلى هذا الإنسان لأنه استعملها في الطاعة وفيما يرى الله عز وجل

ولكن أن تعرف أن الرقيق أعلم بكائك منك مكانه. فلا أحد يعرف عيون الرقيق الذي قدره الله له، لكن الرقيق يعرف عوان صاحبه، ويعتد به في كل مكان إلى

(١) جامع الأحاديث للسيوطي، ج ٢ ص ٢٢٥ رواه الطبراني

أن يجده هكذا نفهم أن الكرم يعمد إلى الرق نفسه فيصيح الرق كريهاً

وجاء كل هذا لحديث بما سمة الخلاف على الغنائم والأنفال، ومفصل ربما بالحكم وبين وأوضح أن الأنفال لله والرسول ولم يعد لأحد كلام بعد كلام الله، وهذه الحادثة في الأنفال حدثت في الخروج إلى الحرب، فحين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج للحرب، كان هناك فريق منهم كاره لهذا الخروج ثم رضى به. لكن حالهم احتسب من الغنائم لطالب بعضهم بأكثر مما يستحق؛ لذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

و « كما » تدل على تشبيه حالة بحالة، فهم قد رضىوا بقسمة الله في الغنائم بعد أن رضىوها، وكذلك قبلوا من قبل أن يخرجوا لملاقاة القبر بعد كراهيتهم لذلك لكنهم خرجوا وحاربوا وانتصروا ثم اختلفوا على انفسهم، ورضوا أخيراً بقسمة الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام

فهل ذكر مسألة كراهيتهم للخروج إلى الحرب هي طعن فيهم؟ لا، فهذا القول له حيثية بشرية؛ لأن لدى يريد أن يحرض معركة لابد أن يخطب عليه اطن بأنه سرف يتصر، ولا سيظهر إلى أن عملية لخروج إلى القتال فيها مجازفة، وكان المسلمون في ذلك الوقت قليلي العدد، وليس معهم عُدَّة، بل لم يكن لديهم من مراكب إلا فرسان اثنان وكان حروجهم من أجل البضائع والعيير، لا لملاقاة جيش كبير، وهكذا سم تكرر الكراهية لهذه المسألة ندعة من التأني على أوامر الله تعالى، أو مطالب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكنهم نظروا إلى المسألة كلها بالمقاييس البشرية فلم يجدوا فيها التوازن المحتمل.

ويريد الله أن يشيت لهم أنهم لو ذهبوا ويتصرفوا على المير فبعد، لقبل عنهم إلههم جماعة من قطع الطرق قد انقضوا على البضائع ونهبوها، فلم يكن مع العير إلا أربعون رجلاً، والمسلمون ثلاثمائة ويريدون، ومن المعلوم أن يتصرفوا، ولكن ربما أراد أن يتصرفهم على الثمر الذي استثمره الكفار من مكة، هذا الصبر الضخم في العدد ولعدة ويصم جهابذة قريش وصناديدها، وتحقق إرادة الحق في أن يرهق الباطل ﴿كَمْ أَهْرَاجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾

والخروج من البيت من مقصود به خروج الرسول من مدينة لملاقاة الكفار، وهذا الفريق من المؤمنين لم تخرجهم الكراهية عن الإيمان؛ لأن معنى «فريق» هم الجماعة الذين يفترون عن جماعة ويجمعهم جميعاً رباطاً واحداً، فالخيش مثلاً يتكون من فرق، يجمعهم الخيش الواحد.

وهذه الفرق التي يأتي الحديث عنها هي الفرق التي كرهت أن تخرج إلى القتال رغم أنهم مؤمنون أيضاً، وتعلم أن كراهية القتال أمر وارد بنسبة للبشر وسخطه وتعالى القاتل

﴿كُنْزٌ عَلَيْكَ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكَ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ يُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٨)

(سورة البقرة)

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿يَجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٩)

و«يجادلوك في الحق»، أي يجادلوك في مسألة الخروج لملاقاة الخصم، بعد ما

تبين لهم الوعد الحق من الله عز وجل وهو وعده سبحانه وتعالى بأن تكون لهم إحدى الطائفتين، وهما طائفة العير أو النمر الضخم الذي جمعه قريش للاقاتهم ومادام الحق قد وعدكم إحدى الطائفتين، فلمماذا لا تأخذون الوعد في أقوى الطوائف؟ لماذا تريدون الوعد في أصعب الطوائف؟ لقد وعدكم الحق سبحانه وتعالى أن إحدى الطائفتين ستكون لكم، فكان المنطق والعقل يؤكدان أنه مادام قد وعدنا الله عز وجل إحدى الطائفتين، فتقدم إلى الأنصع للإسلام والحق الذي نحارب من أجله، وأن تواجه طائفة ذات قوة والشوكة والمنفعة؛ لأنه قد يكون من الصحيح أن النصر مؤكد على طائفة العير، لكن هذا النصر ميسقى من بعد ذلك مجرد نصر يقابله إنه نصر لقطاع طريق، لا أهل قضية إيمان ودين

ولذلك يقول الحق ببارك وتعالى

﴿ وَإِذْ يَدْعُرُكُمْ إِلَهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَآ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَٰلِكَ الشَّوْكَةُ

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكُفْرِ مِنْكُمْ ﴾

(سورة الأنفال)

فالمناطق إذن يمرض أن الله عز وجل ما دام قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين، طائفة في عير ولاخرى في نغير، كان المنطق يفرض، قال المؤمنين على مواجهة الطائفة القوية؛ لأن النصر على النمر هو أشرف من النصر على طائفة العير. ﴿يجادلوك في الحق بعدما تبين كأنهم يسألون إلى الموت وهم يظنون﴾

وينتظر أن هناك «سوق»، وهناك «قيادة»، والقيادة تعني أن تكون من الأمام بتلك الناصر على الطريق، و«السوق» يكون من الخلف لتحت المتقدم أن يقصر المسافة مع تقصير الزمن، فبدلاً من أن تقطع المسافة في ساعة - على سبيل المثال - تقطعها في نصف ساعة

وقوله تعالى :

﴿يَسْأَلُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَرْجُونَ﴾

(من الآية ٦ من سورة الأنعام)

أي أنهم غير منجزين للسير بل هم مدفوعون إليه دفعاً، وهم ينظرون بشاعة الموت، لأنهم تصوروا أن مواجهتهم لألف في من مقاتلي قريش مسألة صعبة فآلف أمام ثلاثمائة مسألة ليست هينة؛ لأن ذلك سيفرض على كل مسلم أن يواجه ثلاثة معهم العدة والعناد، فكان الصورة التي تمثلت لهم صورة بشعة، لكنهم حينما نظروا هذه النظرة لم يلتفتوا إلى أن معهم رباً يتصرهم على هؤلاء جميعاً

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾

والوعد من الله هو وجل يجب أن يستقبل من الموعد بأنه حق؛ لأن الذي يقدر هو وعد الناس للناس أو الإنسان له أعيار، فقد تعد إنساناً بشيء، وقد حاولت أن تنفي عما وعدت ولكنك لم تستطع الوفاء بالوعد. أو كانت لك قوة وانتهت، وقد يتغير رأيك، إذن فالوعد من المساوي من الخلق غير مصموم، لكن الوعد من القدير القوي، الذي لا تنف عراقيل أمام إنفاذ ما يريد، هو وعد حق ويجب أن يلقوا هذا الوعد على أنه حق ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

أى إن كنتم تميلون ونحسون أن تكون لكم الطائفة غير ذات الشوكة التى تمس العير - والشوكة هى شئ محدد من طرف تحديداً يعذ بسهولة من غيره، و أنت تمهد الشوكة مدببة رصيفة من الطرف ثم يزداد عرصتها من أسفلها ليتناسب الغلف مع القاعدة لتمد باتساع وذاب الشوكة أى الفئة القوية التى تنفذ إلى الغرض المراد، ولا يتأبى عليها غرض، ولذلك يقال «شاكى السلاح» . فإن كم تصمون وتريدون عدم ملاقاته جيش الكفار فى معركة فالولى عر وحل يمول لكم ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ .

أى أن الله تعالى يريد أن ينصر الإسلام بقوة صنيعة ضعيفة يعير عتاد على جيش قرى يعرفون أن ربهم مؤيدهم، وبذلك يحق الحق بكلماته أى بوعده . وهى تلك الكلمة من الله لى قال بها

﴿ وَأَوْثَقْنَا الْقُرْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعَفُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَيْنَ رِجْمَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنُ ﴾

(من لآيه ١٣٧ من سورة الأعراف)

هكذا كان وعد الله الذى تحقق ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾
والدابر والدبر هى الخلف، ونقول : « قطعت دبره » أى لم أجعل له خلفاً
ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِتُزْكَرَ
الْمُجْرِمُونَ ﴾

ونلاحظ أنه سبحانه وتعالى قال من قبل ويريد الله أن « يحق الحق »، وهنا يقول :
« ليحق الحق » والمراد بالحق لأول نصر لجماعة الضعاف، القلة لضعيفة على الكثرة
القوية، هذا هو الحق الأول الذى وعده الحق بكلماته، ليحق منهج الإسلام كله،
ولو كره المجرمون

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَيْنِ
مُعِذُكُمْ بِالْأَيْفِ مِنَ الْمَلَأَيْكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

ومادة «استعاث» تفيد طلب العوث، مثل «ستسفى» أى طلب السقى، و«ستفهم» أى طلب الفهم، و«الألف» و«السين» و«التاء» توجد للطلب و«استعاث» أى طلب العوث من قوى عنه قادر على الإغاثة، وأصدها من العيث وهو المطر، فحين تجذب الأرض لعدم نزول المطر ولا يجدون المياه يقال طلب العوث، ولأن الماء هو أصل الحياة؛ لذلك استعمل فى كل ما فيه عوث، وهو إبقاء الحياة، وفى حالة الحرب قد يعنى فيها المقتلون؛ لذلك يطلبون العوث من الله عز وجل ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾

و«تستغيثون ربكم» بضمير الجمع، كأنهم كلهم جميعاً يستغيثون فى وقت واحد، وقد استعاث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصطب القوم وقال أبو جهل اللهم أولانا بالحق فأنصره، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه واستقل القنة وقال: «اللهم أنحر لى ما وعدنى، اللهم أنسى ما وعدنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض» (١).

ويدل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه كان يستغيث بالخالق الذى وعد بالنصر، وود القوم خلعهم، آمين، لأن أى نساء يؤمن على دعاء يقوله أمام أو قائد فهو يتأمنه كإنما يدعو متعلماً يقول الإمام أو القائد ومن يقول «آمين» يكون أحد الداعين بنفس الدعاء والحق سبحانه وتعالى هو الفاعل

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّى إِنَّكَ أَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا رَبِّى لِيُصَلِّتَهُ سَبِيلَكَ رَبِّى أَخِصِّصْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْتَ ذُو الْعَرْشِ الْعَلِيِّ ﴾

(١) روى مسلم عن عمر بن الخطاب

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِرُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٧﴾

(سورة يونس)

وهذا ما جاء في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعدها

﴿ قَدْ أُحِيتَ دُعَاؤُكُمْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة يونس)

مع العلم بأن سيدنا موسى عليه السلام هو الذي دعا، وقوله سبحانه من بعد ذلك « أحييت دعوتكما » دليل على أن موسى دعا وهرون قال: « آمين » فصار هارون داعياً أيضاً مثل أخيه موسى.

﴿ إِذْ كُنْتُمْ شُرَكَاءَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأنعام)

« فاستجاب لكم » الألف والسين والياء - كما علمنا - تأتي لطلب، وقول الحق سبحانه وتعالى « فاستجاب » يعني أنه طلب من جمود الحق في الأرض أن يكونوا مع محمد وأصحابه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى، خلق الكون، وخلق فيه الأسباب برها ظاهرة، ووراءها قوى خفية من الملائكة، والملائكة هم خلق الله الخفي الذي لا نره ولا نرصه، إلا أن الله أخبرنا أن به ملائكة.

فالملائكة ليست من المخلوقات المشاهدة لنا، وإنما إيمان بالله، وتصديقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله تعالى جعلنا نعرف أنه سبحانه وتعالى قد خلق الملائكة، وأخبرنا أيضاً أنه خلق الجن وصدقنا ذلك، إذن بحجة إيمان بوجود الملائكة والجن هو إخبار الرسول المصدق بالبلاغ عن الله تعالى ومن يقف عقله أمام هذه المسألة ويتساءل، كيف يوجد شيء ولا يرى، فنقول له، هذه أخبار من الله.

وهناك من أنكر وجود الملائكة وأخر وفان إنها اقوى الميكانيكية فى لأسباب ، ولم ينتموا لى أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر عيسى ، فسبحانه يترك فى مشهديات وجوده وكونه ما يقرب هذا الأمر الغيبى إلى الذهب ، فيجعلك لا تعرف مجرد أشياء تشعر بأثارها ، ثم يمرور لزمس تدرك وجودها ، وهذه الأشياء لم تخلق حين اكتشمتها ، وإنما هى كانت موجودة بكنك لم تتعرف عليها ، هناك فرق بين وجود الشيء وإدراك وجود شيء . ومثال ذلك كان اكتشاف الميكروب فى القرن السابع عشر وهو موجود من قبل أن يكتشف ، وكان يدخل فى أجسام الناس ، وينتد من حنك ، وحين اكتشفوه ، دل ذلك على أنه كان موجوداً لكى لم تكن تلك أدوات إدراكه . إذن فإن حدثت بان لله خلقاً موجوداً وإن لم تكن تدركه - فخذ بما أدركته بعد أن لم تكن تدركه دليل تصديق لما لا تدركه

وأحسب الحق تبارك وتمسنى بوجود الملائكة ، وكل شيء له ملائكة يدبرونه ، وهم : المديرات أمراء ، والملائكة الحمظة ، وسبحانه القائل

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وسبحانه أيضاً القائل

﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ ﴾

(سورة ق)

وهؤلاء الملائكة هم انوكبرون بمصاح الإنسان فى الأرض ، المطر مثلاً له ملكه ، الروع مثلاً له ملكه ، وكل شيء له ملك . وهو مسب خفى غير مطور يحرك الأشياء . فاستجاب لكم أنى محمدكم بألف من الملائكة ﴿

والإمداد هو الريادة التى تهىء للجيش ، لأن الجيش إذا ووجه بمعارك لا يستطيع أن يقوم بها العدد المرحود من الرجال أو السلاح ، حينئذ يطلب قائد لجيش إرسال

المد من الرحل والعتاد

﴿ أَلَيْسَ لَكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾

ويعلم أنه ساعة أن أمر ربنا الملائكة أن تسجد لأدم، ثم يكن الأمر لكل جنس الملائكة، بل صدر الأمر إلى الملائكة بالوكيل بمصالح الأرض أما ملائكة عبد الموكنين بهذا، فلم يدخلوا في هذه المسألة، ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى جيباً عن إبليس، قال له .

﴿ أَسْكَرْتُمْ أَمْ كُنتُمْ مِنَ الْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

ولقصد به : العالين : هم الملائكة الذين لم يشهدهم أمر السجود
ولحق تبارك وتعالى هذا في هذه الآية يبين أنه سبحانه وتعالى قد أمد المسلمين
المحاربين في غزوة بدر - ﴿ يَأْتِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾

ولرؤف هو ما يتبعك، وسملك يقال : فلان ركب معيته وأرؤف فلاناً ، أي جعله وراءه . ولرؤف هو من يكون في الأمام، ولرؤف هو من يكون خلفه . والآية توضح لب أن الملائكة كانت أمام المسلمين ، لأن جيش المسلمين كان قليل العدد، وجيش الكفار كان كثير العدد . وجاءت الملائكة لتكثير عدد جيش المسلمين، فبدا كأن لعدد مكوناً من ألف مقاتل، فقد أرسل الحق ملائكة بنص العدد ويزيد بذلك جيش المؤمنين بعدد المؤمنين . وكان يكفى أن يرسل الحق ملكاً واحداً، كما تحكى الروايات عما حدث لقوم لوط، فقد روى أبو جبريل عليه السلام، أذن جاحه الواحد تحت مدائن قوم لوط، وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء بهيق الحمار، ونباح الكلاب، وصياح الديوك، ولم تكفى لهم حرة، ولم يشكب لهم ناء، ثم قلها دفعة واحدة وصرها على الأرض

وصيحة واحدة رلزلت قوم ثمود لماذا إذن أرسل الحق تبارك وتعالى هذا ألفاً من

الملائكة ؟ حدث ذلك لتكثير العدد أمام العدو وليعبد في أمرين اثنين :

الأمر الأول : أن تأخذ العدو رهينة ، والأمر الثاني : أن يأخذ المؤمنون قربة لكر
أكان للملائكة في هذه المسألة عمل ؟ أو لا عمل لهم ؟ ما حدث خلاف

ونجد الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا
النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١ ﴾

أى أن الملائكة هي بشرى لكم ، وأنتم الذين تقتلون أعداءكم ، وسبحانه وتعالى
هو المقاتل

﴿ فَتَبْلُوهُمْ يُعْذِرُهمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيُنْصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُسِفُ صُدُورَ
قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١١ ﴾

(سورة النوبة)

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك للمؤمنين وهم يدخلون أول معركة خيرية ،
ويواجهون أول لقاء مسلح بهم وبين الكافرين ، لأنهم إن علموا أن الملائكة متقاتل
وتدخل ، فقد يتكاسدون عن القتال ويدخلون إلى حرب بقلوب غير مستعدة ، وبغير
حمية ، فأوضح ربنا : أنا جعلت تدخل الملائكة بشري لكم ، و « لتطمئن به
قلوبكم » ، أى أن عدد الملائكة يقابل عدد جيش الكفر ، والريادة في العدد هي أتم
يا من حرجتم للقتال راعسوا أن الملائكة هي لطماناة القلوب . لكن الحق يريد أن
يعذبهم بأيديكم أنتم ، لأن الله يريد أن يربى المهابة لهذه العصبة بالذات ، بحيث
يحسب لها الناس ألف حساب .

واخلف الروايات في دور الملائكة في غزوة بدر ، فوجد أن جهل يقول لامر
مسعود . ما هذه الأصوات التى أسمعها في المعركة ؟ فقد كانت هلك أصوات تُفرع

الكفار في غرورهم - ويرد ابن مسعود على أبي جهل : إنها أصوات الملائكة
قل يدن الملائكة تعلون لا أشم .

فياكم أن تعتزوا حتى بالملائكة ، لأن النصر لا منكم ولا من الملائكة ، ولكن
النصر من عدي أن : لأن الذي يحب أن ينصره ، لابد أن يكون واثقاً أنه قادر على
نصرته ، وليس مع الشر بطون الانصار من قبل الحرب ، ومن الجائر أن يعلب
الطرف الآخر ، لكن النصر يخفى من الذي لا يُعَلِّب وهو الله سبحانه وتعالى
﴿ وما لنصر إلا من عند الله ﴾

وأنت حين تستنصر أحداً لينصرك على عدوك فهذا الذي نستنصر به إن كان من
جنتك يصح أن يُعَلِّب معك ويصح أن تعلب أنت وهو ، لكن تدخل الحرب
مظنة أنك تعلب مع من ينصرك وقد يحدث لكما معاً نهضة أما الحق سبحانه وتعالى
فهو وحده الذي لا يُعَالَب ولا يُعَلِّب . ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز
حكيم ﴾

وهو سبحانه وتعالى النصر ، وهكذا يكون المؤمن الذي يقاتل بحمىة لإيمان
وإثقا من النصر ، لكن يياكم ن تطوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن
وراء نصر الله لتؤمن حكمة ، فلا تهافتتم في أمر يسلب منكم النصر لأن
الله لا يعبر عنه مع خلقه ، وقد رأيتاه حدث في عزرة أحد من تحدوا ولم
ينفدوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتصرفوا لأن الحكمة اقتضت ألا
ينصروا ، ولو نصرهم الله لاستهانوا بعد ذلك بأوامر رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ولقد حص منهم : تحصاه وتنصرت ، وهكذا بعد أن طاعة الله والرسول
والأخذ بالأسباب أمرهم ، فحين جاء الأمر من رسول الله في هروة أحدى معه
بدرمة لا تتركوا أماكنكم ، ولو رأيتموه يهر إلى المدينة ، فلا شأن لكم به ، وعلى كل
منكم أن يأخذ دوره ومهمته ، فإذا رأى أحد له في دوره قد بهرم فليس له شأن ،
وعلى كل مقاتل أن يمدد غيره ، لكنهم خالفوا فسد بهم الله انصر وهكذا
بأكد لهم أن النصر من عند الله العزيز الذي لا يعلب وقال البخاري عن السرايين
عارب قال : نقيبا المشركين يرمته وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيش من

الرماة ، وأمر عليهم « عبد الله من جبير » ، وقال عليه الصلاة والسلام :
« لا ترحوا ، وإن رأيتمونا ظهورنا عليهم فلا ترحوا ، وإن رأيتموهم ظهورنا علينا فلا
تعبونا » (١)

ونلاحظ أن المدة بالملائكة ورد مرة بالالف ، ومرة بثلاثة آلاف في قول الحق
سبحانه

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ مُتَرَاتِينَ ٥٦ ﴾

(سورة النور)

فإن لم يكفكم ثلاثة آلاف سببهم الله العبد ، لذلك يقول المولى عز وجل

﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ قُدُورٍ مِّمَّا هَذَا بُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِمِينَ ٥٧ ﴾

(سورة النور)

إذن عدد يتناسب مع حال المؤمنين ، ويبين ذلك قوله سبحانه ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا ﴾

فالصبر إدب وحده لا يكفي بل لابد أيضاً من تقوى الله ، ولابد كذلك من مصيرة
عمالة العدو في الصبر ؛ لذلك يقول المولى تبارك وتعالى في موقع آخر ﴿ اصْبِرُوا
وَصَابِرُوا ﴾ وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضاً ميرة الصبر ؛ لهذا يريد الله الصابر ،
فإن صبر العدو على شيء ، صابر أنت أيها المؤمن أكثر منه
وقد جعل الله عز وجل الإمداد بالملائكة بشري لطمأنة القلوب وثقة من أن الصبر
من عند الله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىًٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٥٨ ﴾

(الآية ١٠ من سورة الاحقاف)

وما أد بدأت المعركة حتى بدأ توالى النعم اتى سوف تأتى بالنصر، إمداد
بالملائكة، شرى لتطمئن القلوب، وثقة من أن النصر من عند الله العزيز
الحكيم.

ثم يأتى التذكير بالدلالة على ذلك فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ
السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي
لَرِيطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾

والنعاس عبارة عن السَّنة الأولى التى تأخذ الإنسان عندما يحب أن ينام،
ويسمىها العامة فى مصر «نعيلة» ويقولون «فلان معسل» أى أخذته سنة
النوم، وهى ليست نوماً بل فتور فى الأعصاب يعفيه النوم، وهذا من إيات الله
تعالى مى أن يهب الإنسان راحة مؤقتة وليست نوماً. وسنحانه يقول عن ذاته
العلب.

﴿ لَا نَأْخُذُ بِسُنَّةٍ وَلَا نَوْمٍ ۝١٢﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

أى أنه - جل وعلا - لا يأخذه النومُ لضعف ولا النوم الثقيل لأن السَّنة هى
إلحاح من الجسم مى طلب النوم، ويكون نوماً خفيفاً، وسنحانه وتعالى ليس
كمثله شىء، فهو عز وجل لا يتجسد أو يتمثل فى شىء، لا السَّنة تأخذه ولا
النوم يقاربه، ونسحف أن الإنسان إذا ما تكلم بجانب من تأخذه السَّنة فهو يصحو
وينتبه أما الدائم بعمق فقد لا يصحو.

فالسنة إذن هي لداعى الخفيف للراحة أما النوم فهو الداعى الثقيل . وهما أنزل الله عليهم النعاس بمثابة مقدمة للنوم ليستريحوا قليلاً . ومعلوم أن نوم أية من آيات لله عز وجل فى كون ؛ لأن الجسم حين يعبر عن نفسه بالحركة والطاقة ويأكل لعداء ويشرب الماء ويسفر الهواء ، كل ذلك يتحول إلى طاقة ثم إلى وقود للحركة .

وهذه الطاقة تتكون بالتفاعل بين العناصر المختلفة ، من تثليل للعداء وتحويل الطعام إلى بوعات مختلفة لتعددية كل حية من خلايا الجسم بما ياسبها ، ثم استخلاص « الأوكسجين » عبر التنفس وطرود ثاني أكسيد الكبريت ، وعشرات الآلاف من التفاعلات الكيميائية لا توجد بها عضلات لتخرج ، وهى تختلف عن التفاعلات الأخرى التى تخرج منها الفضلات من أحد السبيلين ، أو من صماخ الأذن أو غير ذلك

ومثل هذه الفضلات إنما تنتج من الاحترقات التى نقول عنها : « العادم » فى الآلات الميكانيكية . والعادم هو نتيجة الاحتراق وهى عذرات تنفصل لتسير الحركة . وفى الإنسان نجد العادم يتمثل فى لعائط ، وما خرج من صماخ الأذن ، و « عماص العين » ، والعرق ، كلها عوادم . لكن هناك لون من تركيبة هذه التفاعلات يمثل لإيجاد الطاقة وليس له عادم .

والوسيلة الأساسية لاستعادة اشتراكن الكيميائى المناسب للإنسان هى أن نريح الجسم ، وتفاعل مواد الجسم مع نفسها ويعود طبيعياً . وهذا لا يحدث إلا بالنوم . ولذلك نجد الإنسان حين يسهر كثيراً ويذهب إلى النوم يشعر برحليه وقد « خدلت » أو كما يقال : « غملت » . وهذه نتيجة عجز مواد الجسم عن التفاعل لذى تحتاجه نتيجة اليقظة ، وهذه كلها مسائل لا إرادية تدل على أن الإنسان يرغب أحياناً فى أن ينام ، ويتحارب أحياناً على النوم فلا يأتيه ؛ لأن النوم من

العمليات المخصصة بلحق سبحانه وتعالى ، وهو آية من آيات الله في هذا الكون ، ومن ضمن الآيات العجبية . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَسْكُكُمْ وَأَنْتُمْ بِالْآيَاتِ أَنْتُمْ مُصَلِّونَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

(سورة الروم)

وحين حاول العلماء الباحثون أن يفسروا طاهرة النوم ، وضعوا عشرات الطريقات ، وآخر التجارب التي أجريت أنهم أحصروا إنسانا وعلقوه كالرافعة من وسطه ، وكأنه عصا مرفوعة من وسطها بترار ، وجعلوا كل نصف من النصفين متساوياً في الارتفاع ، وحين جاء النوم لهذا الإنسان محل التجربة وجدوا أن جهة من النصفين مالت ، وكأن نقلاً ما جاءها من النصف الآخر مرادت كتلتها ، وهذا حرمها درسوه في النوم ، هذه التجربة أثبتت أن النوم عجيبه من العجائب التي تستحق أن يقول الحق تبارك وتعالى عنها : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

ونظر إلى كلمة « والنهار » هذه تر فيها الرصيد الاحتياطي المرحود في آية النوم ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾

وفي هذا القول رصيد احتياطي لمن جاء به ظرف من الظروف ولم يسم بالليل ، فيعرض هذا الأمر ويهدم بالنهار ، ومن حكمة الله تعالى أنه ذيل هذه الآية بقوله عز وجل ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

وهذا بسبب أن النوم يعطل كل طاقت الجسم ، فعندما ينام الإنسان لا يتدبر جسمه على أن يتحرك ، التحرك الإرادي ، إلا السمع فهو باق في وظيفته ؛ لأن

به الاستدعاء، وإن أعين - مثلاً - لا يرى أشياء السوم ، إنما الأذن تسمع ولا تتحلى عن السماع أبدأ ، لأن بالأذن يكون الاستدعاء ، فإذا ما نادى ، لأب ابنه وهو نائم فهو يسمع النداء . بذلك قلب سابقاً . إن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن ينمى أهل الكهف لثلاثة سنة وازدادوا تسعاً ، قال تعالى

﴿فَضْرَبَ عَلَىٰ دَائِرَتِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرًا عَدَدَ ١٦﴾

(سورة الكهف)

لأنه لو لم يضرب على آذان أهل الكهف لظل السمع باقياً ، فإذا ظل السمع ، أهاجته الأصصير ، وعواء الذئاب ، وزئير الأسود ، ولما استطاعوا النوم طيلة هذه المدة .

وهذه في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها .

﴿إِذْ يُعَلِّمُكُمُ الْفَرَاسَ أَمَةً مِّنْهُ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال هو .

وهل هناك فراس غير أمية ؟ والجواب نعم ؛ لأنه مجرد الراحة من تعب لتتشط بعدها ، هذا لنفهم أن «أمية» جاءت لمهمة هي تهدئة أعماق المؤمنين في المهبجات المحيطة ، فهذا عدد كثير العدد ، وهم بلا اعتداد ؛ لذلك شاء الحق تبارك وتعالى ألا يصيب منهم لطفة اللزومة للمواجهة ، ولا تتبدد هذه الطاقة في الفكر ؛ لذلك جعل نفاسهم نفاساً معصوصاً بغيرهم وهو «نفاس أمية» ، وجعل المولى عز وجل من هد النفاس أية ، حيث جاءهم كلهم جميعاً ، وهذه بفردتها أية من آياته سبحانه وتعالى ولو غلبهم النوم العميق لمال عليهم الأعداء ميلة واحدة ، وبكفهم أحسدوا شيئاً من الراحة التي فيها شيء من

اليقظه ، ﴿إِذْ يُخَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً﴾ .

وهنا النعاس مصحول به ، وهو أمة من الله ، وسبحانه يقول في آية أخرى .

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا﴾

(من الآية ١٥٤ سورة آل عمران)

هذا في آية الأنفال نعاس وأمنة ، وهناك في آية آل عمران أمة ونعاس ؛ لأن الحالتين مختلفتان - فتوضح آية آل عمران أن النعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين في عزوة أحد بعد أن أصابهم العم في هذه الغزوة ، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما في سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشى الجيش كله حيث كان الجميع على قلب رجل واحد والإيمان يملأ قلوبهم جميعاً ولا يوجد بينهم متناق أو مرتب عفتيتهم جميعاً هذه لأمنة بالنعاس ؛ لأنه يزيل الخوف ، ومن دلائل الأمن والطمأنينة والثقة بنصر الله

ويقول الحق تبارك وتعالى متابعاً في ذات الآية .

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِيحَ الشَّيْطَانِ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنفال)

ومعنى اسطهير أن هناك حادثاً يستحو التطهر منه وهم لم يجدوا ماءً ليطهروا به حيث كان المشركون قد غلبوا المسلمين على الماء في أول الأمر ، فظمى اسلمون وانشغلوا بالعطش ، وبالرغبة في تطهير أجسامهم ، وهذا يدل على أن المؤمن يجب أن يظل بصيفاً ، رغم الوجود في المعركة التي لو استمر فيها الواحد منهم يوماً أو اثنين دون استحمام ، لما لامة أحد على ذلك ، وجاء

هذا القول ليذل على حرص المؤمن على النظافة إن خرج شيء من الإفرات والعرق ، أو كان التطهر من رجس الشيطان ، لأن الشيطان حيل لهم مساكن جسية ، وأحد يوسوس قاتلاً لهم . أنتم تقولون إنكم على حق ، وكيف تصلون وأنتم جب ؟ وكان مجرد حدوث هذا الأمر لهم جميعاً هو أياه أخرى من الآيات . فأعاط الله الشيطان وأنزل عليهم الماء ليشربوا ويتطهروا .

ويقول اموى سبحانه وتعالى في ذات الآية ﴿ وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾

وأراد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن المؤمنين فلا تتورع أو تشتت مشاعرهم ، وما أن نزل المطر حتى حفر الحفر ليتجمع فيها الماء ، وهكذا حماهم سبحانه وتعالى من نقص الماء ، كم أن نزل المطر على الأرض الرملية نعمة كبرى من جهة أخرى حيث بثت الرمال على الأرض فلا تثير عباراً ، ونعلم أن الإنسان حين يسير على الأرض ، فإن ثقله يثبت ما تحته مما يحتمل ذلك على قدر ورنه ، فالطفل الصغير حينما يمشي على الرمال ، فأثر سيره يكون بسيطاً ، عكس الرجل الضخم ، وإن فستها بالسنة لورن الصبي أو الغلام ، ويوزن الرجل الممتلئ ، نجد أن الأرض قد غاصت بنسبة الكثرة التي سارت عليها ، وحين يسير الناس دون حمل ولا يقصدون غير السير ، يكون الثقل خفيفاً ، أما حين يدخل الرجال الحرب فالأقدام قد معوص في الرمال وقد يصير حراً من جسد المقاتل معطلاً عن الحركة ، لأن القدم هي التي تحقق التوازن .

إن هذه من حكمة الله تعالى ، ونحن نرى ذلك في حياتنا ، فنجد أهل الريف يصعدون فوق جدران الماء جرع بخلة أو «عرقاً» من الخشب ليسير عليه الإنسان بين الشطرين ، وإن فكر المسافر في هذه المسألة قد يقع في الماء ، لكنه إن ترك رجله ليسير تلقائياً ، فهو يمشي محققاً التوازن ، ومثل هذا الأمر يحدث

في صناعة سلالم السيوت ، إنما نجدها متساوية في ارتفاع درجاتها ليصعد الإنسان صعوداً رتيباً من غير تفكير ، فإذا اختلفت درجة واحدة في السلم بأن كان ارتفاعها مختلفاً من بقية الدرجات يحس التوازن ويقع الإنسان ؛ لأن الساق ضبطت نفسها آلياً على هذا الوضع

ولذلك نجد الصعود على السلالم الخلزوية متعباً لأن لسلالم الخلزونية فيها جهة واسعة وأخرى ضيقة. وقد يربك الإنسان أثناء الصعود ، ولهذه الأسباب نجد الجيوش تكشف حياً على المجندين ، ولا يختارون إلا الشحص المستوي القدمين لتستقبل أقدامه كل لظروف ويكون قادراً على مواجهة الظروف غير العادية ، ومن عظمة الخالق سبحانه وتعالى أن جعل كل عضو من لأعضاء له مواصفات خاصة

وسبحانه يذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ .

وتثبتت الأقدام من جهة يمثل أمراً معنوياً ، ومن جهة أخرى يكون تثبيت الأقدام « بمعنى أن نزول المطر جعل الأرض ثابتة » ولا تثير الغبار أو الرمال ، وسبحانه هو القائل في مناسبة أخرى

﴿ وَكَانَ مِنْ نُجَى قَتْلٍ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ قَالُوا هَؤُلَاءِ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا صَعَبُوا وَمَا اسْتَكَأُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْغَافِلِينَ ١١٦ ﴾
قَالُوا رَبَّنَا آغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَدْمَانَا وَاصْرِنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ١١٧ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نفهم أن تثبيت الأقدام به ألوان متعددة ، حسية ومعنوية .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا
الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ
كُلَّ بَنَانٍ﴾

ولمولى سبحانه وتعالى هنا بين أنه أوحى إلى الملائكة بالإنعام : أى معكم
بالتصبر والتأييد ﴿ثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

أى قووا عزائم المؤمنين وثبتوا قلوبهم. أى جعلوا قلوبهم كأنها مربوطة
عسيها فلا يخافون أية أعيار من عدوهم ، ويزيد الإيصاح للمؤمنين : إياكم أن
تظنوا أن كثرة لعدد أو قوة العدد هى التى تصنع النصر. بل النصر دائماً من عند
الله تعالى وسبحانه اقتل

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَمَّتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِذَنْ اللَّهِ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وذلك لأن النسبة بين المؤمنين والكافرين غير متوازنة وتحتاج إلى مدد عال
من الله تعالى. وقد إن لسماء تدلحل إذا كان الأمر فوق سباب الخلق ،
وبذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿أَمِنْ يُجِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وإن قال قائل : أنا أدعو الله أكثر من مرة ولا يجيبني ، نرد عليه ونقول له . أنت لم تدع دعوة المضطر ، بل دعوت دعوة المترف ، مثلما يدعو ساكن في شقة بأن يرزقه الله بنصر صغير . أو يدعو من يسير على أقدامه وتحمله سيارة العنبر طالباً سيارة خاصة ، أو يدعو من يملك «تليفزيوناً» بأن يهبه الله جهاز «فيديو» ، هذه كلها ليست دعوة اضطرار ، لأن المضطر هو من فقد أسبابه ويتابع الحق القول في ذات الآية .

﴿ سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ نَارٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنعام)

وإذا ألقى الله عز وجل الرعب وحل الرعب والنفوس في قلوب العدو مهما كان عدده ومهما كانت عدده ، فسيترك هذا العدو كل ما معه ويفر من حالة الرعب والفرع ، وقد فعل بعض من اكفار ذلك . وقد امتن الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأن أمدهم بالملائكة بشرى واضمثناباً ، وهباً لهم الماء ، وظهرهم ، وأذهب عنهم رحر الشيطان ، وكل هذه مقدمات معركة مستوفاة من جانب الحق تبارك وتعالى إمداداً لكم ، وما حديثكم أيها المؤمنون سوى أن تغلبوا على المعركة بعزيمة صادقة ، عزيمة المقاتل الشجاع المحارب الذي له من العقل ما يفكر به ويدبر في التخطيط ، وفي لكر والفر .

وكائب أدوات القتال قديماً هي السيوف والرماح والسال ، وكان المقاتل يحتاج رأسه ليحفظ به ، ويحتاج يديه وأنامله ليمسك بها لسيف ، ولذلك ينه الحق المؤمنين ، في هاتين النقطتين المؤثرتين فيقول : ﴿ فاصربوا فوق الأعناق واصرخوا منهم كل سائر ﴾ .

والضرب لما فوق الأعناق هو ضرب الرأس فيفقد القدرة على التفكير، أو تذهب حياته لينتهي، وإن بقى على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائه وذلتهم. والضرب منهم في كل مكان.. أى ضربهم بالسيف في أيديهم؛ لأن الضرب في الأيدي إنما يجرحها ويجعلها عاجزة عن القتال.

لماذا؟. يجيب الحق في الآية التالية :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاكِبَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١٣)

وما يوضح الحق سبحانه وتعالى . أن هذا التصرف المؤر للنبى وصحبه والهزيمة للمشركين؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله، و"شاقو" من "الشق" ومعناه أنك تقسم الشيء الواحد إلى اثنين. وكان المفروض في الإنسان منهم أن يستقل منهج الله الذى نظم له حركته فى هذا الكون، ولم يكن هناك داع لتبديد الطاقة بالانشقاق إلى جماعتين؛ جماعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وجماعة مع الكفر والشرك؛ لأن الطاقة التى كانت معدة لإصلاح أمر الإنسان والكون للخلافة؛ إنما يتبدد جزء منها فى الحروب بين الحق والباطل، ولو توقفت الحروب لصارت الطاقة الإنسانية كلها مرحلة للإصلاح والارتقاء والبهوض وتحقيق الخير لبنى الإنسان، لكنهم شاقوا الله ورسوله، فجعلوا أنفسهم فى جانب يواحه جانب المؤمنين بالله والرسول؛ لذلك استحقوا عذاب الله وعقابه، ويسب أنهم شاقوا الله ورسوله، عليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله، فيقول سبحانه وتعالى

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

وهذه قصية عامة، وسنة من الله في كونه تشمل هؤلاء الذين شاقوا الله
ورسوله من بدء الرسالة، وإلى قيام الساعة
ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ

النَّارِ ۝١١٦﴾

وذلكم إشارة للأمر الذي حدث في موقعة بدر من ضرب المؤمنين للكافرين
فوق الأعناق، وضرب كل يتان كافر، وإن رينا شديد العقاب، وهذا الأمر كان
يجب أن يذوقه الكافرون. ولذوق هو الإحساس بالمطعم شرباً كان أو طعاماً،
إلا أنه تعدي كل محسن به ولو لم يكن مطعوماً أو مشروباً ويقول رنا عز وجل :
﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝١١٧﴾

(سورة الدخان)

أى ذق الإهابة والمدة لا مما يطعم أو مما يشرب، ولكن بالإحساس؛ لأن
ذوق الطعام هو الحاسة الظاهرة في الإنسان؛ قد يجده بلذوق حريفاً، أو
حلواً، أو خشناً أو ناعماً إلى غير ذلك. وما هو ذا الحق بضرب لنا مثل على
تعميم شيء : فيقول عز وجل

﴿ وَصَرَّتْ اللَّهُ مَثَلًا قَرْنَةً كَانَتْ أَمِيَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ مَا ذُقَتْ إِنَّ اللَّهَ يُبْسُ الْجُوعَ وَالْخَوْفَ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ

﴿ ١١٧﴾

(سورة النحل)

والجوع سلب الطعام، فكيف تكون إذاقة الجوع؟ الجوع يس مما يذاق، ولا

اللباس مما يذاق ، ومن قول الحق تبارك وتعالى تفهم أن الإداقة هي لإحساس
لشديد بالمطعم ، واللباس كما نعلم يعم البدن ، فكان الإداقة تشعدي إلى
كل البدن ، فالأامل تذوق ، والرحل تذوق ، والصدر يذوق ، وأربعة تذوق ؛
وكان الجوع قد صار محيطاً بالإنسان كله وهنا يقول المولى سبحانه
وتعالى : ﴿ ذَلِكُمْ مَذْقُوهُ ﴾ .

والتذوق غير السلع والشبع ، ونرى ذلك في عالم أسلعي والتجاري ؛ فمادة
تشتري - على سبيل المثال - جواقة ، أو بلحاً أو تيناً ، يقول لك البائع : إنها
فاكهة حلوة ، ذق منها ، ولا يقربك كل منها واشبع ، إنه يطلب منك أن
تجرب طعام الفاكهة فقط ثم تشتري لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك . وما
نراه في الدنيا هو مجرد ذوق ينطبق عليه المثل الرقيق " على لساني ولا
تسألي " ، والعذاب الذي رآه الكفار على أيدي المؤمنين مجرد ذوق حين جداً
بأنسبة لما سرف يرويه في الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم ، وسألتني
الشيع من العذاب في الآخرة ، لماذا ؟ ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن
يشاق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

ومذا اللون من إداقة الذل والإهانة في الدنيا لهؤلاء الكفار المعاندين ، مجرد
تمودج بسيط لشدة عقاب الله على الكفر ، وفي يوم القيامة يطبق عليهم القانون
الواضح في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

إذن المهرجة لعسكر الكفر والدلة هي مجرد تمودج ذوق حين لم سرف
يحدث لهم يوم القيمة من العذاب الأليم والحق سبحانه وتعالى هو القاتل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابَ دُونَ ذَلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً، و «العذاب» هو إيلاام الحس، إذا أحست أن تديم الله، فأبوء فيه آله الإحساس بالألم، ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن سيمان والهدد يقول :

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٤٦١﴾ لَا أُغْنِيهِ عَنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ أَوْ أَذْبَحْتَهُ تَوَلَّىٰ تَوَلَّىٰ بَنِي إِسْلَاطٍ مُّبِينٍ ﴿٤٦٢﴾﴾

(سورة المل)

كأن الذبح ينوي العذاب، بدليل أن مقابل العذاب في هذا الموقف هو الذبح. وماذا عن عذاب النار؟ إن النار المعروفة في حياتنا تحرق أى شيء تدخله فيها، لكن نار الآخرة تختلف اختلافاً كبيراً لأن الحق هو القائل .

﴿كُلَّمَا يَصْجَتْ جُودْتُمْ بِذَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيُنْزِقُوا آعَذَابَ﴾

(من الآية ٥٦ سورة السجدة)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُيَسِّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحَقًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآذْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

ويعلم أن نداء الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، إما أن يكون بعد أمر بمتعلق الإيمان ومطلوبه، وإما أن يكون بعد الإيمان نفسه، ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾

(من الآية ١٣٦ سورة السجدة)

وبعضهم يقول : كيف يتأذى مؤمنين ثم يقول لهم . « آمنوا » ، ومؤلاء المستفهمون لم يلتفتوا إلى أن الحق حين يكلم المؤمنين يعلم أنهم مؤمنون بالفعل ، ولكن الأغير من الاحتيار قد تدعوهم إلى أن يترخى البعض منهم عن مطلوبات الإيمان ، و « آمنوا » الشاية معها : أنشئوا دائما إيماناً حديداً أى مستمراً يتصل بالإيمان الحاصر والإيمان المستفصل ، ليدوم لكم الإيمان

إذا كان بعد ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أمراً بمطلوب الإيمان ، من حكم شرعى ، أو عظة أخلاقية ، يكون أمرها واقعاً ، والمعنى : يا من اهتمم بى إلهاً قادراً حكيماً ، تقرأ فى كل ما أمرك به لأنى لا أمركم بشئ فيه مصلحة لى ، لأن صفات الكمال لى ألفة ، فخلقى لكم لم يشئ فيه صفة كمال ، فلو كنتمكم بشئ ، فتكليفى لكم يعود عليكم بالنفع والمصلحة لكم ، وضربت المثل - ولله المثل الأعلى منه - عن كل مثل - أنت تذهب إلى لطيب بعد أن تتشاور مع أهلِكَ وزملائك وتكون واثقاً بأن هذا هو الطيب الذى ينفع فى هذه الحالة التى تشكو منها ، وساعة تذهب إليه يشخص لك المرض ويكتب لك الدواء ، وسواء استخدمت لدواء أم لم تستخدمه فأنت حر وأنت ذك يعود عليك وعدم استعمالك لدواء لن يضر الطيب شيئاً ، بل أنت الذى يضر نفسك ، كذلك منهج الله الذى يجمع لصلاحية حركة الحياة . إن اتعته وطبقته تنفع نفسك ، وإن تركته ظلم تطبقه فسوف تضر نفسك ، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ قَن شَاءَ فَتُؤْمِنُ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

إذن فلاحتيار لك والله سبحانه وتعالى قد خلقك ، وخلق الكون الذى يخدمك من قبل أن توجد ، وأنت طارىء على هذا الكون ، طارىء على الشمس وعلى القمر ، وعلى الأرض ، وعلى الجبال ، وعلى الماء وعلى أى

شيء في هذا الوجود. والذي خلق ما سبقك لا بد أن تكون له صفات الكمال المطلق، فهو سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء بالحكمة والنظام، ومادام له سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق المستوعبة، فهو لا يطلب منك بالتكليف أن تنشئ له صفة كمال جديدة، وهو ضنى عنك، فإذا اقتنعت بالإيمان فلمصلحتك أنت، ولم يكتفك إلا بالأحكام التي تصلح من حالك. وحجة كل حكم هو تصديره بـ ﴿يأيها الذين آمنوا﴾.

إليك أن تبحث عن علة في الحكم؛ لأنك لو ذهبت إلى الحكم لعلمته، لاشرت مع غير المؤمنين، فالمؤمن - مثلاً - حين سمع الأمر باجتناب الخمر، امتثل للحكم لأنه صادر من الله، من بعد ذلك عرف غير المؤمنين - يا سحيل العلمي - أن الخمر صارة فامتنعوا عنها، فهل امتناعهم هو امتناع إيمان؟ لا.

إذن فإن المؤمن يأخذ الأمر من الله عز وجل لا لعلة، الأمر بل لمجرد أنه قد صدر من الله؛ لذلك يمتثل للأمر ويتقنه.. فالمسلم يمتثل لأوامر الله ويؤدي العمل الصالح دون بحث أو تساؤل عن علته، حين يقال - على سبيل المثال - إن من فوائد الصيام أن يذوق الغنى ألم الجوع، ويعطف على الفقير، حين أسمع من يقول ذلك أقول له: قولك صحيح لأن فيه لمسة من فهم، لكن ماذا عن صوم الفقير الذي ليس عنده ما يعطيه لغيره، ألا يصوم أيضاً؟.

إن المؤمن يصوم لأن الأمر جاء من الله بالصيام. ومعظم أحكام الله تأتي مسبقة بقوله: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾، أي: يا من آمنتم بي إلهاً أقبلوا على، فإنكم إن بحثتم عن العلة، ثم نفتم الحكم لعلة فأنتم غير مؤمنين بالإله الأمر والمشرع، لكنكم مؤمنون بعلة المأمور به، والله يريدك أن ترضع له فقط، ولذلك يأمرك بأوامر وينهاك بنواه، فأنتم - مثلاً - حين تحج بيت الله الحرام، تسلم على الحجر الأسود بأمر من الله، وقد تبيح لك الظروف أن تقبل هذا

الحجر كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت في كل ذلك لا ترضخ
للحجر. بل للأمر الأعلى الذي بعث محمداً بحرب على الأصنام وعلى
الأحجار، وأنت تتبع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنتهى التسليم
والإيمان، وتذهب بعد ذلك لترجم لأحجار التي هي رمز إبليس. وتفعل ذلك
تسليماً لأوامر الله تعالى التي بلعتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وهنا يقول الحق تبارك وتعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحُّهُمْ فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾

(سورة أنفال)

فما دمت قد أمت بالآله، لابد أن تدافع عن مذهب الآله؛ لأن هذا أيضاً
لمصلحتك؛ لأنك بديانتك بالآله أيها المؤمن تتفجع المجتمع كله بحبرك، ولن
يأمرك سبحانه إلا بالخير، فليس تسرق، وليس ترمي، وليس تشرب خمرأ، ولن
تعريد في الناس، ولن ترششي، وكل ذلك السلوك يتفجع المجتمع؛ لأن
المجتمع يضار حين يرجد به فريق غير مهتد. وأنت حين تقاتل تعرض لكلمة
الإيمانية على هؤلاء، فهذا يعود إلى مصلحتك، ولذلك فإن اتصافك بالإيمان
لا يتحقق إلا إن عديته لغيرك، ومن حبك لنفسك، أن تعدي الإيمان بالقيم التي
هناك إلى غيرك لتتفجع أنت سلوك من يؤمن، ويستفجع غيرك سلوكك معه،
ومن مصلحتك أن يؤمن الجميع.

وحين يكفك الحق تبارك وتعالى بالجهد في سبيل الله فأنت تفعل ذلك
لمصلحتك

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحُّهُمْ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

وزحفاً مصدر زحف، والزحف في الأصل هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر بالنصف الأعلى من الجسم. ونقول: «الولد زحف» أي تحرك من مكانه بنقل يديه وشد بذلك بقية جسده. كما نقول: «حيا». أي استعمل الوركين والركبتين ليتحرك بجسده على الأرض، ثم نقول: «منى» أي وقف على قدميه وسر، فذلك إحد مراحل تبدأ من زحف ثم حثو ثم مشي، ولطفل يبدأ حركته الأولى بالزحف، بعد أن يتمكن من السيطرة على رأسه، ويمتلك القدرة على تحريكها بإرادته، ويقوى نصفه الأعلى، فيقف، ثم يزحف، وبعد ذلك تقوى فحده فيحبو، ومن بعد ذلك تقوى اساقان فيمشي. إذن قوة الطفل تبدأ من أعلى.

ولكن ما حكاية «زحف» هنا في هذه الآية الكريمة؟ ولماذا لم يقل هرولوا إلى القتال؟ ونقول: إن الزحف هو انتقال كتلة لا ترى الناقل فيها، فممن يراها يظن أن الكتلة كلها تتحرك.

وكان الحق تعالى يقصد أريد منكم أن تتحركوا إلى الحرب كتلة واحدة متلاصقين تماماً فيظهر الأمر وكأنكم تزحفون، وزحفاً أصلها زحفين، وقد عدل سبحانه وتعالى عن اسم الفاعل وجاء بالمصدر، مثلما نقول عن إنسان عادل إنه إنسان عادل، أي أن عدله مجسم ولذلك نحمد الشاعر يقول عن الجيش الزاحف:

خميس (١) يشرق الأرض والعرب زحفه

وهي أدل الخوازم (٢)

(١) وسمى الجيش بذلك؛ لأن حمس فرق: المقدمة، والقلب، والميعة، والميسرة، والساق.
(٢) زمازم جمع زمزمة وهو صوت الرعد

والخميس هو الجيش الجرار ، ويريد الشاعر أن يصور الزحف كأنه كتلة واحدة متماسكة ومتراصة ، بحيث لا تستطيع أن تميز حركة جندي من حركة جندي آخر ، حتى ليخيل إليك أن الكتلة كلها تسير معاً. ومن يريد أن يتأكد من ذلك يدعو الله أن يكتب له الحج ويصعد إلى الدور الثاني من الحرم المكي الشريف ويرى العائدين ، ويجمعهم ملتحمين جميعاً كأنهم كتلة واحدة تسير ، ولذلك سمّوها «السيل» .

و «سأت بأعناق المطى الأباطح»

مثلهم مثل السيل في تدفقه لا تفرق فيه نقطة عن أخرى.

والحق تبارك وتعالى يوضح لنا هنا أن لقاء الكفار يجب أن يكون زحفاً أى كتلة واحدة متماسكة ، فيصيب المشهد الكاهرين بالرعب حين يرون هذه الكتلة الضخمة التي لا يفرق أحد بين أعصائها ، وهكذا تكون المواجهة الحقيقية.

ويواصل الحق سبحانه وتعالى التثنية فيقول :

﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنعام)

أى لا تعطوهم ظهوركم ، وهو سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول :

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

ويريد الله أن يعطى صورة بشعة من أذن القوم ، لأن «الأدبار» جمع «دبر» والدبر مفهوم أنه الخلف ويقابله القُبلُ ، وهذا تحذير لك من أن تمكن عدوك من ظهرك أى دبرك ، لأن هذا أمر مستهجن ، ولذلك نجد الإمام علياً - كرم الله

وجهه يرد على من قالوا له إن درعك له صدار وليس له طهار ، أى معطى من الصدر ، وليس له ظهر . وهذا بقول الإمام على رضى الله عنه : « ثكلتني أمي إن مكنت عدوى من ظهري » ، وكان شهامة وشجاعة الإمام تحمده على أنه يترك ظهره من غير وقاية .

وفى قول الحق جل وعلا « فلا تولوهم الأدبار » تحذير من الفرار من مواجهة العدو .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك .

وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُمْ أَلَامَةٌ لِّقَبَالِهِمْ
أُوْمْتَحِيزُوا إِلَى فِتْنَةٍ فَفَقَدَ بَاءَ يَغْضَبُ مِنْ
أَنَّهُ وَمَا وَنَهُ حَتَمَهُمْ وَيَسُ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة لم يرب الغضب منه إلا على من يولى الدبر هرباً وفاراً من لقاء الأعداء ، أما الذى يولى الدبر احتيلاً ولإيهام العدو بأنه ينسحب وفى ذات اللحظة يعاود الكرة على العدو مطوقاً له ، فهذا هو المقاتل الحق والصادق فى إيمانه الذى يكر بالعدو وكذلك من يولى الدبر متحيزاً إلى فئة مؤمنة ليعاود معها الهجوم على الأعداء حتى لا تضيق منه حياته بلا ثمن ، فهذا أيضاً من أعمس فكره ليُنزل بالعدو الخسارة ؛ لأن المؤمن يحرص دائماً على أن يكون موته يقابل ، فإذا ما وعده الله بأجته ألا يقاتل هو ليصيب الأعداء بالهزيمة ؟ . وكان ثمن المؤمن من قبل عشرة كفارين ، بمعنى أن الله تعالى ميع كل مؤمن قوة تعلى عشرة ، مصداقاً لقوله عز وجل :

﴿ يَذِّبُ الَّتِي حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغِيثُوا
مَائِثِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغِيثُوا أَلْفًا الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ

﴿٦٥﴾

(سورة الأنعام)

وكن علم الله أن المؤمنين ضعفاً هجس مقابل المؤمنين في المعركة اثنين من
لكفار ، مصداقاً لقوله تعالى .

﴿ أَلَمْ نَقُلْ نَعْفَ اللَّهُ عَنْكَ وَعَلِمَ أَنَّ مِنْكَ ضَعْفًا قَدْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغِيثُوا
مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغِيثُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

(سورة الأنعام)

ولذلك فربنا محمد الذي يهرأهم ثلاثة من الأعداء لا يسمى قاراً في الحكم
الشرعي لكن من يهر من مواجهة اثنين ، يعد قاراً ، لأن الحق تعالى قال قبل أن
يوجد هينا الضعف :

﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغِيثُوا مِائَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

أي أن المقاتل المؤمن كان يمكنه أن يواجه عشرة من الكافرين . فإن كان
المقابل أقل من عشرة كافرين ، فعلى المؤمن أن يحافظ على نفسه حتى لا يموت
رخيصاً لشخص . ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى أن الضعف سيصيب
المؤمنين ؛ لذلك قال .

﴿ أَلَمْ نَقُلْ نَعْفَ اللَّهُ عَنْكَ وَعَلِمَ أَنَّ مِنْكَ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغِيثُوا

مِائَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنعام)

وهكذا انتقلت السببة بين المؤمنين والكافرين من واحد لعشرة ، إلى مؤمن مقابل اثنين من الكفار ، وهذا من رحمة الله تعالى ، فمن رأى نفسه في مواجهة أكثر من اثنين من الأعداء يوضح له الحق تعالى : عليك أن تنحاز إلى فئة من المؤمنين تعصمك من يبلهم منك بلا ثمن

﴿ وَمَنْ يُؤْمِرْ يَوْمَئِذٍ بِالْمَنَافِقِ أَفَلَا يَعْلَمُ إِنَّهُمْ عَصَوْا أَمْرًا إِلَىٰ نَفْسٍ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

وعرف أن المتحرف للمنفال هو صاحب الخيلة ، ونقول هي المظالم التي تجري على الاستنفا في حياتنا اليومية : « فلان حريف » أى لا يذبله أمر ويحتال عليه ، وهكذا يكون المتحرف في لقتال الذي يكيد للكافرين ويدبر لهم أشياء فيظنون الانهزام ، وهي في الواقع مقدمات للنصر ، وقوله سبحانه « أو متحيزا » مأخوذ من « الخير » ، وهو المكان الذي يشغله الجسم ، وكل واحد ماله « حيز » هي مكان يشغله ، أى أن كل واحد من متحيز ، والحيز هو ظرف المكان الذي يسع الإنسان من واسمه ظرف مكان ، وكل واحد من المظالم له مكان وهو متحيز بطبيعته ، وحاءت كلمة « متحيز » في هذه الآية لتوجه كل مؤمن مقاتل أن يأخذ نفسه حيزاً جيداً يمكنه من صابة الهدف ، وكذلك تعيد ضرورة انضمام المقاتل دائم إلى فئة مع إخوانه بهدف تقوية المواجهة مع العدو . ومن لا يفعل ذلك فعليه أن يتلقى العقاب من الله ، وقد بينه تعالى في قوله سبحانه :

﴿ قَدْ بَاءَ بِعَصَابٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

و « باء » تعني رجوع ، والتعبير الأدائي في القرآن الكريم مناسب لما فعلوه :

لأن من يعطى الأعداء دبره فهو الرجح عن الزحف والقتال. لكن من يرجع بهدف الكيد للأعداء والمناورة في القتال أو لتقوية جماعة أخرى من المؤمنين، فهذا له وضع مختلف تماماً، إنه ناصر لدين الله، عكس لمنسحب الفار الذي يصحبه في انسحابه غضب من الله، ولغضب من الله - كما يعلم - هو مسبب من أسباب إترال العذاب، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ سَاءَ يَغْضِبُ مِنْ اللَّهِ وَمَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَصِيرٍ ﴾

(من الآية ٦٦ من سورة الأنفال)

والمأوى هو المكان الذي يأوى إليه الإنسان، وتعلم أن الواحد ما حين يرغب في الراحة فهو يأوى إلى المكان الذي يجد فيه الراحة والأمن من كل سوء. والفار من مواجهة لعدو في معارك الإسلام لن يجد مأوى إلا النار، بل وترحب به النار ويدور حوار بينها وبين الحق عز وجل يرم القِيامة توضحه لآية الكريمة :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝٢٠﴾

(سورة ق)

ويثبت الحق في قرآنه الكريم أن النار تتقاطر من الكافرين لأنها جند من جنود لله تعالى ومسحرة بتنفيذ حكم الله، فمن حالف المهج في الدنيا تتلقاه النار بتعذيب وزفير، ويسمع الكافرون تعيظها حين تراهم من بعد، والحق سبحانه هو القاتل :

﴿ إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَامٍ يَعِيدُهُمْ قَبَعُوا لَهَا فُجُورًا ۝١٧﴾

(سورة الفرقان)

وحين تكون النار هي المأوى ، أليس ذلك هو ينس المرجع ؟.

كان الراجع من الزحف والفار من مواجهة الأعداء ومخافة أن يقتل ، سينهب إلى شيء شر من القتل .

ثم يرب الحق في المؤمنين ويطلب منهم ألا يفتنوا بالأسباب فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسْبًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وقول الحق تدرك تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

مثل قوله تعالى في آية أخرى :

﴿ وَمَا أَنْصَرُوا إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وهي هذا تربيت من الحق تبارك وتعالى للمؤمنين ، فكما أن النصر من عند الله عز وجل لمن أخذ بالأسباب ، كذلك قتل الكافرين كان بإرادته سبحانه من كفر ووقع هذا القتل بيد المؤمن ، فالمؤمن يضرب بالسيف ، ويتجرح العدو وينزف ، لكن ألم تر جريحاً لم يموت ، وألم تر غير مجروح يموت ؟. إذن فالقتل هو من الله .

سبحان ربي إن أراد فلا مرد له يقوت

كم من جريح لا يموت وعير مجروح يموت

إذن فالمؤمن حين حاربوا أهل الكفر إنما يجرحونهم فقط ، أما الموت فهو واقع بهم من الله سبحانه وتعالى .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الانفال)

ولقد قل أن يقول : إن الحق تبارك وتعالى قل في موقع آخر

﴿ قَتَلُوهُمْ يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

إذن فليس من المقاتل مظهرية القتال ، بلحق حقيقة القتل . وبذلك يأتي سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله

﴿ وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

وفي هذا القول الكريم عطاء لشيء كان مجهولاً لهم بشيء علم لهم ، وبذلك قاس غير معلوم بمعلوم . وعرفنا من قبل أنك إذا رأيت حدثاً أو فعلاً منياً ومشتاً له في وقت واحد ، قد يبدو لك أن في الكلام تناقضاً . وهذا - على مسيل المثال - ينفي الحق الحدث في قوله : « وما رميت » ويشبهه في قوله : « إذ رميت » . والرمي معروف ، والضاعل هو رمي لله صلى الله عليه وسلم ، فكيف ينفي عنه الفعل أولاً ، ويشبهه له ثانياً ؟

ويعلم أن انقراض هو رب حكيم، وأسلوبه حسن أعلى ما يكون. وحتى نفهم هذه المسألة، نحن نعرف أن كل حدث له هيئة يقع عليها. وله غاية ينتهي إليها، فمرة يوجد الحدث، لكن الغاية منه لا تتحقق، مثلما يقول الوالد لولده: لقد قرب الامتحان فاجلس في حجرتك وذاكر. ويجلس الولد في حجرتة وأمامه كتاب ما يقلب صفحاته، وبعد ساعة يدخل الأب حجرتة ابنه ليقول: هات كتابك لأسألك فيما ذاكرته. ويسأل الأب ابنه سؤالاً ثانياً فلا يعرف الابن الإجابة عن الأسئلة، فيقول الأب: ذاكرت وما ذاكرت، أي كأنه لم يذاكر، بل فعل الفعل شكلياً، بأن جلس إلى المذاكرة، ولم يؤد ما عليه لأن أثر الفعل وهو المذاكرة لم يتحقق.

وفي عزوة بدر استنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه واستغاث ودعا الله ورجع يديه فقال:

(يا رب إن تهلك هذه العصية فليس تعبد في الأرض أبداً، فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب وارم بها في وجوههم) فأخذ صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب ورمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عييه ومتخبريه وقمته تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين (١) ومعلوم أنه ساعة تأتي ذرة تراب في عيني الإنسان يشتعل بعينه عن كل شيء، إذن فقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

أي أنك يا رسول الله ما أرسلت بالرماية الواحدة - خفة اثتراب - إلى عيون كل الأعداء؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد، ولكنك «إذ رميت» أي أديت نصيحة جبريل لك، أما الإيصال إلى عيون العدو فهذا من فعل الله

(١) رواه الطبري، والقرطبي وابن كثير

لقوى القادر.

ونتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿وَلَيْسَ الْمُزْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(من الآية ١٧ سورة الاحقاف)

والبلاء الحسن هنا هو حوض المعركة وحسن أداء القتال فيها.

ويحطىء الإنسان حين يظن أن البلاء هو نزول المصائب، لا، إن البلاء هو الاختبار بأية صورة من الصور . فلطالب الذى استذكر دروسه يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً حسناً، ومن لم يستذكر يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً سيئاً. إذن فالابتلاء غير مدموم على إطلاقه، ولا بمدح على إطلاقه، لكن نتيجة الإنسان فيه هل ينجح أم لا.

وحتى نعرف أن القرآن يمسر بعضه بعضاً فلنقرأ قول الحق تبارك وتعالى .

﴿وَتَبْلُوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

(من الآية ٣٥ سورة الانبياء)

فالخير بلاء، كما أن الشر بلاء، وحين تستخدم الخير فى خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله، فهذا كله اختبار من الله عز وجل، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ رُبُّهُ فَاكْرِمُوا رَبَّهُمْ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمُ﴾

(سورة الحجر)

وهذا هو الابتلاء بالخير ، أما الابتلاء بالشر فيقول عنه الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا آتَيْنَاهُ فَفَعَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنِي ۝﴾

(سورة الفجر)

والابتلاء بالخير أو بالشر هو مجرد اختبار، والاختبار كما وضعنا غير مدموم على إطلاقه، ولا ممدوح على إطلاقه، ولكنه يذم ويمدح بالنسبة لعايته التي وصل إليها المثلّى أو من يمر بالاختبار، فلو لمجم، فهذا ابتلاء حسن، وإن فشل، فهو ابتلاء سيئ.

ونلاحظ - على سبيل المثال - أن الطالب الذي ركر فكره ووقته وحسن نفسه ويذل كل طاقته في التحصيل والاستدكار طوال العام الدراسي، هذا الطالب حين يدخل الامتحان. فهو يحاول أن يثار من التعب الذي عاناه في التحصيل والإحاطة؛ لذلك يجيب على الأسئلة بدقة، وكلما انتهى من إجابة سؤال إجابة صحيحة، يشعر ببعض الراحة، وإن حاول وعمل له أن يشوش عليه فهو بصدء ولا بلغت إليه، بل قد يستدعى له المراف.

والمؤمن الذي يشترك مع المؤمنين في البلاء الحسن هو مثل التلميذ الذي يؤدي ما عليه بخلوص.

والذي يسمع همسة كل مؤمن ويرى فعله هو الحق سبحانه وتعالى، ولذلك جاء بعد الحديث عن لبلاء الحسن بقوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

١ من الآية ١٧ سورة الأعراف

إذن فآله سبحانه وتعالى سميع يد تظهرون به وعليم بما تغفره في صدوركم وهو جل وعلا يعلم من حارب بقوة الإيمان، ومن خالطته الرغبة في

أن يرى الآخرون مهارته في القتال ليشيدوا ويتحدثوا بهذه المهارة. ولا أحد
 قادر على أن يدلس على الله عز وجل
 ويقول سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ ١٨

و « ذلكم » إشارة إلى أن الأمر كان كذلك ، وسبحانه وتعالى هنا يخبرنا أنه
 موهن كيد الكافرين ، أى يضعف هذا الكيد ، ولسائل أن يقول : لماذا لا ينهائهم
 ؟ لماذا يضعف لكفر فقط ؟ ونقول : إن إضعاف الكفر يهيج على الإيمان
 ويحبب المؤمنين فى الإيمان حين يرون آثار الكفر التى تفسد فى الأرض وهى
 تضعف ، ولأن الحسبة الإيمانية تزيد حين يهاج الإسلام من خصومه ، إذن فبقاء
 الكفر لون من استبقاء الإيمان ،

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ
 تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ
 فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٩

و « تستفتحوا » من الاستفتاح وهو طلب لفتح ، لأن الألف والسين والتاء
 تأتي بمعنى اطلب ، فنقول : استمهم أى طلب الفهم ، و « إن تستفتحوا » ، أى
 تطلبوا الفتح ، ونعلم أن العنويات مأخوذة كلها من الأمور الحسية ، لأن أول
 ألف للإنسان فى المعلومات جاء من الأمور الحسية ، ثم تكون للإنسان
 المعلومات العقلية. ومثال ذلك قولنا : « إن النار محرقة » ، وعرفنا هذا القول

من تجربة حسية مرت بأكثر من إنسان ثم صارت قضية عقلية يعرفها الإنسان وإن لم ير ناراً وإن لم ير إحراقاً.

وعندما تجتمع للحسّات تتكون عند الإنسان حمائر معنوية وقضايا كلية يدبر بها شئونه العامة، ومثال ذلك . إننا نعرف جميعاً أن المجتهد ينجح، وأحدنا هذه الحقيقة من لواقع، تماماً كما أخذنا الحقيقة الفائلة: إن المقصر والمهمل كل منهما يرسب.

وسبحانه وتعالى ينبها إلى هذه فيقول .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَغْنَمُ لَهُمْ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

أي أن لإنسان ما مخلوق وهو حالي الذهن، وغلوا الذهن بطلب الامتلاء، وكل معلومة يتلقاها اذهن الصغير يستطيع أن يستظهرها فوراً، ولذلك نجد التلميذ الصغير أقدر على حفظ القرآن الكريم من اشباب الكبير؛ لأن هذا الشاب لكبير قد يزدحم ذهنه بالمعلوم العقلي.

وقد شرح لنا علماء النفس هذه المسألة حين قالوا: إن لكل شعور بؤرة هي مركز الشعور والأمر الذي تفكر فيه تحيد المعلومات الخاصة به في ذهنك فوراً. وقد تنزعج هذه المعلومات من ذاكرتك إذا فكرت في موضوع آخر، كما تنزعج المعلومات الخاصة بالموضوع الساق إلى حافة الشعور لتحل مكانها المعلومات الخاصة بالموضوع الجديد في بؤرة الشعور.

والخيز في المعنويات مثله مثل الخيز في الحسيات، فأت حين تملأ زجاجة بالمياه لابد أن تكون فوهة الزجاجة متسعة لتحل فيها المياه ويخرج الهواء الذي بداخل الزجاجة. لكن إن كانت فوهة الزجاجة ضيقة كفوهة زجاجة اعطر مثلاً

فهذه بصعب ملؤها بالمياه إلا بواسطة أداة لها سن ربيع كالسرجة الطبية حتى يمكن إدخال المياه وطردها الهواء الموجود بداخل الزجاجاة ذات الموهة الصعبة.

وهكذا نرى أن الحيز في الأمور المحسنة لا يسع كميتين مختلفتي النوعية، ويكون حجم كل منهما مساوياً لحجم الحيز. وتقترب المسألة في ملح من هذا الأمر أيضاً، فأنت لا تتذكر المعلومات الخاصة بموضوع معين إلا إذا كان الموضع في مركز الشعور، فإذا ما ابتعد الموضوع عن تفكيرك بعدت المعلومات الخاصة به إلى حاشية الشعور البعيدة. والطفل لصغير يكون خايب الدهن لذلك يستقبل المعلومات بسرعة ويكون مستحضراً لها.

ولذلك لا يجب أن نشتم إنساناً بالعباءة ونخر بالذكاء لمجرد قدرة واحد على سرعة التذكر وعجز الآخر عن مجاراة زميله في ذلك، فالذكاء له مقاييس متعددة مزال العلماء إلى الآن يحتلونها حولها. لكن في موضوع التذكر اتفق جانب كبير من العلماء على أن الدهن كآلة التصوير يأخذ المعلومة من أول نقطة شريطة أن تكون بذرة الشعور خالية لهذه المعلومة، أما إن كانت بذرة الشعور مشغولة بأمر آخر فهي لا تلتقط المعلومة، والحق سبحانه وتعالى هو العاقل :

﴿وَاللَّهُ اتَّخَذَكُمْ مِنْ بَطُونٍ أَهْمْتُمْ لَا تَعْبُونَ شَيْءً وَحَمَلَكُمْ لِكُلِّ أَسْمَعٍ رَأً أَهْضَرَ

وَلَا تَعْبُدُ لِعَمَلِكُمْ تَتَكَبَّرُونَ ﴿١٨﴾﴾

(سورة اسحل)

والسمع والأبصار هما عمدة الحواس، تأخذ بهما محسّات وتكون منها معلومات عقلية.

والحق تبارك وتعالى هو يقول

﴿إِنْ تَسْتَشِيرُوا فِئْتَهُ جَاءَ كُرُّ الْمَنْعِ وَإِنْ تَنْهَوْا عَنْهُ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ نُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ إِنَّكَ شَكَّاءٌ وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ٥٦﴾

(سورة الأنفال)

ولفتح يُطلق إطلاقات متعددة، منها الحسى، مثل فتح الباب أو فتح الكيس ويقصد إزاحة إغلاق شيء يصور شيئاً، مثل فتح الباب، والباب إنما يصور ما يدخل العرفة، والفتح الحسى مثله القرآن الكريم بقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعُهُمْ وَحَدَّوْا يَصْنَعُهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ٥٧﴾

(من الآية ٦٥ سورة يوسف)

أى، إذ أحس يوسف حين فتحوا الأخراج - وكما كانت هى بديلة الخفائب - وجدوا البضاعة التى كانوا قد أخذوها معهم ليستبدلوا بها سلعاً أخرى وهذا هو الفتح الحسى.

وقد يكون الفتح فى الأمور المعنوية كالفتح فى الخير وفى العلم مثل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ٥٨﴾

(من الآية ٢ سورة فاطر)

إذن ففتح الرحمة فتح معنوى.

وقد يكون لفتح فى الحكم؛ لأن الحكم يكون بين أطراف مشتبهة فى قضية، وكل طرف يدعى على الآخر، ويأتى الحكم ليزيل خفاء القضية ويفتحها.

ومثال ذلك ما حدث بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه فقومه قالوا :

﴿لَيْسَ رَّبُّنَا يَنْصُوحُ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرْجُمِينَ﴾

(من الآية ١١٦ سورة اشعراء)

فماذا قال سيدنا نوح عليه السلام ؟ :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِيٌّ كَدُّونٌ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي مِنَ الْغَافِقِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

(سورة الشعراء)

أى أن سيدنا نوحاً عليه السلام قد دعا الله أن يفصل فى القضية التى بينه وبين قومه بالحق وهو يعلم أن الله تعالى معه، لذلك صلب منه لشفاعة لنفسه ولمن معه من المؤمنين.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرن عنها نجد أن الفتحة بأتى بمعنى لحكم الذى يفصل بين المتزعين، وهو صلب حكم يفصل بين فريثين، فريق لهدى والداعى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين، وفريق الضلال وهم كفار قريش.

وقد استفتح الفريقان، فقد قال أبو جهل حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم، وآنانا بما لا نعرف فأحنه (١) لغداة (٢)

لقد ظن أبو جهل أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يقطع رحمهم، ويجعل الولد يترك أباه وأمه، وأيضاً كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى

(١) أحنه - أى أملكه .

(٢) دواه أحمد والناسى وإحكام

يدرو أحدوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا .

« اللهم انصر أعلى الجيدين ، وأكرم العتبتين وخبر القبيلتين »

هكذا كان دعاء الكفار .

أما دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو قوله :

(يارب إن تهلك هذه العصاة فكن بعبدي الأرض أبداً) .

و لا استفتاح من الطرفين يدل على أن كلا منهما مجهد بأمر الآخر ، ولو كان أحدهما مرتاحاً والآخر متعباً لطلب المتعب الفتح وحده .

وجاء المحكم من الله سبحانه وتعالى في لقضية هذه ، حيث حكم تبارك وتعالى على الكافرين بأن يُسلبوا ويقتلوا ويصبحوا مثل السخريّة من أنفسهم ومن يرويههم وقد استحقوا ذلك بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم ومحررتهم للحق ، والذي رجح أن الفتح جاء أيضاً من المؤمنين أن الحق كان .

﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾

(من ، الآية ١٩ سورة الأنفال)

أى إن كنتم قد استمعتهم وطلبتم الفص والحكم فقد جاءكم الفتح ، وهذا لفتح كان في صالح المؤمنين ، وأيضاً في صالح دعاء الكافرين ، إنه جاء في الأمرين الاثنين ؛ فتح للمؤمنين ، وفي صالح دعاء الكفار . وأنتم - أيها الكافرون - قد دعوتهم ، بما أن تكونوا قد دعوتهم والله أجاب دعاءكم وهو شر عليكم ، وهذا دليل على أنكم أغبياء في ادعاء ، ومادام الفتح قد جاء ، كان لواجب أن ينتهي كل فريق عند تحد الذي وقع ، وكان على الكافرين أن يقتنعوا بأنهم انهزموا ، وعلى المؤمنين أن يقتنعوا بأنهم انتصروا .

﴿وَإِنْ تَتَّبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُخْرِجْكُمْ مِنْ دُونِ آلِكُمْ وَلِيَدْخُلُوا آلَكُمْ مِنْ دُونِ أَهْلِكُمْ وَمِنْ أَسْرَابِكُمْ مَا فَرَحْتُمْ بِهَا وَهُمْ لَا يَعْزِمُ عَلَيْكُمْ دِينَكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

والتتبعوا هذه، صالحة أولاً بظاهرها للكفار، أى إن تتبّعوا عن معاداة الرسول وحصومه، والنجح في أنكم جعلتموه عدواً، وتكتلون وتتآمرون عليه، فإن تتبّعوا فهذا خير لكم في دنياكم لأنكم قد رأيتم النتيجة، حيث قتل البعض من جناديدكم، وأسر البعض الآخر، وأخذت منكم لأسلاب والغنائم. فإن انتهيتُم عن العمل لذي سبب هذا فهو خير لكم في دنياكم، وخير لكم أيضاً في أحراركم؛ إذا كان الانتهاء سينول بكم إلى أن تتبّعوا عن مخالصة الدين الذي تخاصمونه وتصبحوا من المتبّعين إليه.

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿وَإِنْ تَوَدَّوْا نَحْدُ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وإن لم تتبّعوا وعدتم إلى العداة ومحاربة هذا الدين فسنعود لنصرة المؤمنين، وإياكم أن تقولوا إنكم فئة كثيرة؛ ففتكم لن تغني من الله عنكم شيئاً، والدليل على ذلك أنكم هزمتُم في بدر وأنتم كثرة، وأصحاب عدد، وأصحاب عدة. فما أعنت عنكم كثرتكم ولا عدتكم شيئاً.

﴿وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وكان المؤمنون قلة ورغم ذلك كانوا هم الغالبين

وما نعدم إنما يعنى الكلام بالنسبة للكفار، فمادام كان الكلام والاستفاح

بالنسبة للمؤمنين، هي أي شيء يتهون ؟.

إن عليهم أن يتهوا عن اللجاج والخلاف في الغنائم، الذي جاء فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ الْأَمْوَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وهم قد اضطروا أن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ربه، فلإن عادوا للنزاع والجدل فيما بينهم وكأنهم فريقان متعارضان غير مجموعين على إيمان، فلن تغنى منه عن أخرى شيئا، وعليكم أن تعلموا يا أهل الإيمان أنه إن عزت طائفة منكم، فلتهن مامها الطائفة لأخرى، ولا تظنوا أنكم بالنصر قد صرتم كثيراً لأن النصر لم يكن لا باقنة ولا باملائكة، ولكن النصر كان من عند الله العزيز الحكيم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَسْمِعُوا سَمْعَكُمْ ۖ ﴾

وهذا مداء واضح من الله عز وجل للمؤمنين، وأمر محدد به بطاعة الله والرسول ؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد الجازم القلبي بالله وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وعلى المؤمنين أن يؤدوا المطلوب الإيمان. ومطلوب الإيمان أيها المؤمنون - أن تنفذوا التكليف التي يأتي بها المهيح من الله عز وجل، ومن الملمع عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الأوامر والالتواهي.

وفد فصلنا من قبل مسألة الطاعة ، الطاعة له تكون في الأمر الإجمالى ، وطاعة لرسول صلى الله عليه وسلم تكون في تباع الحكم التفصيلى التطبيقى الذى يأتى به رسول الله للأمر الإجمالى ، وكذلك تكون طاعة الرسول واجبة فى أى أمر أو حكم ؛ لأن الله قد فوض رسوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك .

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

وتمثل التمويض من الحق سبحانه وتعالى إلى لرسول صلى الله عليه وسلم فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهذه فى الآية التكرية التى نحن بصددها نحن نحمد الملاحظ الجليل فى الأداء القرآنى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

(سورة الأنفال)

والنولى - كما نعلم - هو الإعراض ، والأمر هنا بعدم الإعراض ، وما دمتم قد أمتم فلا إعراض عما تؤمنون به . والملاحظ الجليل أنه سبحانه لم يقل ، ولا تولوا عنهم . قياساً بالأسلوب المشرى . لكنه قال : « ولا تولوا عنه » أى أنه سبحانه وتعالى قد وحد الكلام فى أمرين اثنين ؛ طاعة الله وطاعة الرسول ، ولأن الرسول مبلغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين ؛ لأن طاعة الرسول هى طاعة لله تعالى .

أو نقول . إن التولى لا يكون أبداً بل سببة إلى الله ، فلا أحد بقادر على أن يتولى عن الله ؛ لأن الله لاحق ومدركه في أى وقت .
لذلك نجد الحق تبارك وتعالى يقول في آية ثانية :

﴿يَخْبِتُونَ يَأْتِيهِمْ لَيْسُ بِرِضْوَانِهِ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة التوبة)

وهو سبحانه وتعالى في هذا القول يوحد بين رضا الله والرسول فمجعله رضا واحداً ، فالواحد من هؤلاء يقسم أنه لم يقم لفعل المخالف للإيمان إرضاء للمؤمنين ، وليبرئ نفسه عند البشر ، لكن هناك رضا أعلى هو رضا مراعاة تطبيق المنهج الذي أنزله له عز وجل وجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهناك قيوم أعنى يرقب كل سلوك ، ويعلم ما ظهر وما بطن . فلو كنا متروكين لبعضنا البعض لكان لأى إنسان أن يواجه الآخر ، كن بقوته ، لكن نحن في الإيمان نعلم أننا تحت رقابة المفترق القيوم ، فمن ظلم أخاه ؛ وغفر المظلوم لظالمه ، فالله سبحانه وتعالى رب الظالم ورب المظلوم - لا يغفر للظالم بل يواحد.

وسبحانه وحده أيضاً في هذه الآية بين رضا الله ورضا الرسول ولم يقل . والله ورسوله أحق أن يرضوهما بظهر الأسلوب في لغة الشر ، لكنه شاء أن يوحد لرضا ؛ لأنه يدور حول أمر واحد بطاعة واحدة ، وحول بهي واحد بانتهاء واحد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبِعُوا حِمْلَهُ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا الأمر بصناعة الله تعالى ولرسول بلاغ من الله، وإبلاغ أول وسيلة له الأذن، لأن الأذن أول وسيلة للإدراكات، ولذلك فإن الرسول يسبغ الأمر بالقول للناس، ولم يبلغهم بالكتابة؛ لأن كل الناس لا تقرأ، فأبلغ صلى الله عليه وسلم الناس قولاً كما أمر أن يكتب القرآن ليظن محفوظاً.

ونعلم أن السماع هو الأصل في القراءة، وأنت لا تقرأ مكتوباً، ولا تكتب مسموعاً إلا إذا عرفت القواعد، وعرفت كيفية نطق الحروف.

والمعلم يعلم طالب المعرفة القراءة والكتابة عن طريق السماع أولاً، إذن فالسماع مقدم في كل شيء، ومن يستطيع واحد أن يقول في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم: سم تبليغي الدعوة؛ لأن الدعوة أبلغت للناس بالسماع، وقوله: «وأنتم تسمعون» تعطينا أن الإنسان إن لم تبليغه الدعوة، فليس منوطاً للتكليف، لأن ربنا سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

والمحتمعات التي تعيش في غفلة وليس عندهم رسول ولم يبلغهم المنهج، لن يعذبهم الله، وهذا أمر وارد لأن في البلاد المائبة البعيدة عن الالتقاء بالإسلام ومنهج الإسلام، وبالسماع عن الإسلام؛ لأنهم ما سمعوا شيئاً عن الدين ولم يعرفوا منهجه. وهؤلاء ناجون من العذاب طبقاً لقول الله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

فثمرة بعث الرسول أن يبلغ الناس، ولذلك أخذنا حكماً هاماً من الأحكام من قوله الحق تارك وتعالى:

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأنعام)

أخذنا من هذا القول أن من لم يبلغهم المنهج لا يحاسبون، ولكن أيكمي السماع في أن نعلم المنهج . لا ، لا يكفي في السماع أن نعلم أن هناك رسولا جاء ليقلب على رسول سبق ، ولكن عليّ أن نبحث أنت. فإن كان في الأرض من لم يبلغه هذا فهو ناجح ، وإن كان قد بلغه خير رسول ولم يبلغه المنهج الكامل فعليه أن يبحث بنفسه ، تدبيل أن الإنسان يبحث عن أهون الأشياء بمجرد أن يسمع عنها ، ويشغل نفسه بالبحث.

ولنفرض أن إساناً قـل في قرية : إن الدولة ستغير بطاقة النـمـو، ألا يتجه كل فرد في القرية لـسأل عن هذا الأمر ويهتم به كل الاهتمام ؟. إذن كان يكفي في وصول البلاغ أن يسمع الإنسان رسولا في العرب قد جاء للناس كافة برسالة عامة ، وأن هذه الرسالة تعقب الرسالات السابقة ، ومن سمع هذا السماع كان عليه أن يعامل هذا الخبر معاملة لمصالح الدنيوية الأساسية لأنه إذا كان أمر الدنيا هاماً فـمـ بالنا بأمر صلاح الدنيا والآخرة ؟

وجزاء من التبعة في ذلك يقع على المسلمين الذين لم يجذوا ويبلغوا منهج الله وحبس الله إلى غيرهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

ففي هذه الآية الكريمة ينهانا الحق جل وعلا أن نكون مثل من قالوا :

«سمعاء» وحكم الله بأنهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم من أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمعوا ولم يلتفتوا ؛ لأن المراد بالسمع ليس أن تسمع فقط ، بل أن تؤدي مطلوب ما سمعت ، فإن لم تؤد مطلوب ما سمعت ، فكأنك لم تسمع . بل تكون شراً ممن لم يسمع ؛ لأن الذي لم يسمع لم تبلغه دعوته ، أما أنت فسمعت لبغتك الدعوة ولكنك لم تستجب ولم تنفذ مطلوبها .

إذن قول الله تعالى :

﴿ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأنعام)

يفسر لك أن هذا السماع منهم كان مجرد انتقال الصوت من المتكلم إلى أذن السامع بالذبذبة التي تحدث ، ولم يأخذوا ما سمعوه مأخذاً جاداً ليكون له الأثر العميق في حياتهم . فإذا لم يتأثروا بالمهج ، فكأنهم هم يسمعون ، وبالنسبة لم يسمعو ؛ لأنهم صاروا شراً ممن لم يسمع

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢١ ﴾

(سورة الأنعام)

أو أن السمع يراد ويقصد به القول ، مثلما نقول : اللهم اسمع دعاء فلان ، وأنت تعلم أن الله سميع الدعاء وإن لم تقل أنت ذلك ، لكنت تقول . اللهم اسمع دعاء فلان بمعنى : اللهم اقبله ، فيكون المراد بالسمع لقبول .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

وكلمة «دابة» تعنى كل ما يدب على الأرض، ولكنها حُصِّتْ عرفاً بذوات الأربع وجمع دابة دواب.

و «السواب» كما نعلم هي القسم لثالث من الوجود، لأن الوجود مرتقى إلى حلقات؛ أولها اجساد، وثانيها النبات، وثالثها الحيوان، ورابعها الإنسان، ويجمع هذه الأشياء الأربعة رباط واحد، فنجد أن أعلى مرتبة في الأدنى، هي أول مرتبة في الأعلى، فالأدنى هو اجساد، وفوقه النبات، وأعلى شيء في الجساد، يُمثل أول شيء في النبات، مثل المرجاسات، كأد الجراد نفسه له ارتقاءات في ذاته تتوقف عند مرحلة معينة لا يتعداها، فلا ترتقى إلى أن تصير نباتاً، أو أن يصبح النبات حيواناً، لا، إن كل قسم يظل مستقلاً بذاته وفيه ارتقاءات تقف عند حد معين. وإذا كان أعلى شيء في الجراد يكاد أن يماثل أول شيء في النبات، فهو لا يتحول نباتاً مثل طاهرة غر الشعاب المرجانية التي أخذت طاهرة النبات، لكنها لا تنتقل إلى نبات، بل تظل أعلى فئة في الجساد. وكذلك النبات، نحوه يرتقى إلى أن ينتهي إلى أعلى مرحلة فيه، فالنبات مراحل، وآخر مرحلة فيه أن يوجد نبات يُحس، لأن الإحساس فرع الحياة، وهذا ما نراه في نباتات الظل التي تشاهدها وهي تتجه بطبيعة تكوينها إلى نور النهار. وكان فيها نوعاً من الإحساس. وإذا تغير مكان الضوء، فإنها تُغيّر اتجاهها إلى المكان الجديد.

وهناك نوع من السات يدس فور أن تلمسه. ونسمع عن نبات يسمى في الريف «الست المستحية» وهي تغلق أوراقها على ثمرتها فور اللمس، وأخذت

أعلى مرتبة في النبات، وهي أول مرتبة في الحيوان، لكنها لا ترتقى إلى حيوان.
بل تظل في حلقته كبسات،

وماتى إلى الحيوانات لمجدها نرقى، فهناك حيوانات تستأنس، وحيوانات
لا تستأنس، بل تظل متوحشة، وقد خلقها رباً بالحكمة. فالإنسان يستأنس
بالجمل ولا يستطيع أن يستأنس الثعبان، ولا ببرغوث، كأن الله يريد بذلك أن
يعلمنا أننا لم يستأنس الحيوانات التي نستأنسها بقدرتنا وبذكائنا؛ بل هو الذى
جعلك تأنس بها، فانت أنست بالجمل، وقد ترى البنت الصغيرة وهي تقوده،
وتأمره بالقيام والقفود، بينما البرغوث الصغير قد يجعل الإنسان ساهراً طوال
الليل لا يعرف كيف يصطاده. إذن هذه الأمور تعطيت حكمة أوجزها الحق تبارك
وتعالى في قوله .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَمْلُوكُونَ ﴿٧١﴾
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُفُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(سورة يس)

ويوالم بذلل الحق تبارك وتعالى هذه المخلوقات، لما استطاع الإنسان
تذليلها، ونرى المخلوق الصغير وقد عجز الإنسان أمام تذليله، ليعرف أن
المذل ليس الإنسان، بل المذل هو الله سبحانه وتعالى. وهي المستأنس من
الحيوانات تجد نوعاً تعودده على بعض الأشياء فيعتادها ويقوم بها مثل القرد الذى
يقول له مدبره اعجن عجينة الصبية، أو العجوزة، فيقلد القرد نصبة أو
«العجوزة»؛ لأن فيه قابلية التقليد، فهو يملك درجة من الفهم وهو أعلى مرتبة
في الحيوان، ويقف عندها ولا يتطور إلى خارجها، بدليل أنك إن علمت قرداً
كل شيء، فهو يصنع ما تعلمه له من الحركات ويضحك الناس منه، لكن القرد
لا يستطيع أن يعلمها لبي حسه. وكذلك نجد من يدرب الأسد والنمر يزدى

فقرات ترفيحية في السيرك، لكن الأسد لا يعلم أولاده من لأشياء ما تعلمه من مدرب السيرك.

إذن ما الوجود بحلقاته الأربع؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً لا ترتقى فيه حلقة إلى الأعلى منها؛ بل تقف عند حد معين، وتلك هي الشبهة التي أصابت بعض المفكرين في أن يظنوا أن أصل الإنسان قرد؛ لأن المخلوقات حلقات يسلم بعضها لبعض، وأدنى مرتبة في الأعلى لكل حلقة هي أعلى مرتبة في الأدنى وتقف في حدودها. والذي يهدم نظرية داروين من أولها هو هذا المصم لمطبعة التطور.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذريات)

أي أن كل الكائنات مخلوقة ابتداءً من الله، ولا يوجد جنس قد شأ من جنس آخر.

ونقدم هذا الدليل العقلي لغير المتدينين، فنقول: لماذا لم تؤثر الظروف التي أثرت في القرد الأول ليصير إنساناً، في بقية القردة لتكون أناساً؟

وهكذا تنهدم النظرية - نظرية داروين - من أولها لأحررها، وعلماء الأجاس يهدمونها الآن. والحق تبارك وتعالى أخبرنا أن هذه المخاوفات التي تقع في المرتبة تحت الإنسان، لا تستطيع أن ترتب المقدمات، وتأخذ منها النتائج. ولا تعرف البديلات في الاختيار، وحيوان وهو أرقى الأجاس ليس عنده بديلات؛ إنه يتعلم مهمة واحدة وتنتهي المسألة؛ لأنها دواب لا تعقل، لكن الإنسان يملك القدرة على الاختيار بين البديلات وجرب أن تعاكس فطة فإنك تجد أنها جملك وتجرحك بمخالبها إلا إن كنت أنت مسانئها وتعرف أنك

تداعبها، أما المؤمن العاقل المكلف فهو يتصرف في المواقف بشكل مختلف، فون
قام إنسان بإيذائه فقد يعاقبه بمثل ما عوقب، وقد يعفو عنه، وقد يكظم غيظه.

﴿وَالْكَنُيْتِينَ أَقْيَطَ ۖ وَالْعَيْنِ عَى ٱلْأَيْسِ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إذن عانت أيها المؤمن عندك بديلات كثيرة، لكن الحيون لا يملك مثل هذه
البديلات.

ولذلك صرنا من قبل المثل : لو أنك عدفت حيواناً إلى أن أكل وشبع ثم
جئت إليه بعد شبعه بشيء زائد من أشهى طعام عنده، تجده لا يأكله. بينما
الإنسان إن شبع فقد لا يمانع أن يأكل فوق الشبع من صنف يحبه.

ومثال آخر : نرى في الريف أن الحمار حين يرى جدولاً من المياه ويكون
اتساع الجدول فوق قدرته على أن يقهر عليه ليعبره، نحدد الحمار قد توقف
رافضاً انقمر أو المرور فوق هذا الجدول، فهل قاس الحمار المسافة بنظره ووزنها
بقدرته ؟ إنه يقهر فوق الجدول التي هي متناول قدرته، لكنه يرفض ما مرق
هذه القدرة، رغم أننا نصف الحمار بالبلادة.

وهذا يبين لنا أن كل جسم يسير في ماموس تكوينه ليؤدي مهمته التي أرادها
له الله . ولقائل أن يقول : كيف يقول الحق تبارك وتعالى : « إن شر الدواب
عند الله » يسما الحيوانات كلها مسخرة ؟ ونقول : إذا كنت أيها الإنسان تأخذ
وظيفة الأدنى هائب تختار أن تكون شراً من الدابة : لأن الأدنى مسخر بقنونه
ويجعل الأشياء بخراتره لا بفكره ، فكأن فكر الاختيار بين البديلات غير موجود
فيه ، لكنت أيها الإنسان ميزك الله بالعقل الذي يختار بين البديلات ، فإن
أوقفت عقلك عن العمل ، وسلبت قدرته على القول لما تسمع من وحى ألا
تكون شر الدواب ؟

وحين نقابل كلمة « شر وخير » نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ (٦) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٧) ﴾

(سورة الزمر)

فالخير يقابله الشر، وخير يقابل الخير الشر، فالإنسان يميز الخير، لأنه نافع وحسن، ويميز الشر، لأنه ضار وقبيح.

ولكن كلمة « خير » تعمل أحياناً استعمالاً آخر لا يقابله الشر، بل يقال : إن هذا الأمر خير من الثاني، رغم أن الثاني أيضاً خير، مثل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وهي كبر خير). (١)

إن كلا منهما - أي المؤمن القوى والمؤمن الضعيف - فيه خير، لكن في الخير ارتفاعات، هناك خير يريد عن خير، ويخبر الولي في قوله تعالى : (إن شر السواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون).

أي أن الكفار شر مادباً على الأرض لأنهم قد افتقدوا وسيلة الهداية وهي السماع، وبذلك صاروا بكماً أي لا يطقون كلمة الهدى.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ۖ

لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

فهو سبحانه وتعالى قد علم أنه ليس فيهم خير، فلم يسمعهم سماع الاستجابة.

والمولى سبحانه وتعالى متزه من أن يبتدئهم بعدم إسماعهم؛ لأنهم لم يرجد
فيهم خير، والخير هنا مقصود به الإيمان الأول بالرسول، وهم لم يؤمنوا فلم
يستسمعوا النداء الهداية منه صلى الله عليه وسلم كمبلغ عن الله تعالى. إذن
لعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم، وسبحانه وتعالى اعقائل.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهم - إذن - سبقوا بالكفر فلم يهدهم الله
وسبحانه وتعالى القائل .

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله.
وسبحانه وتعالى القائل .

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة المائدة)

وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله.
والله متزه عن الافتئات على بعض عباد، فلم يسمعهم سماع لاستجابة
لنداء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)
وعلم الله تعالى أزلى، لكنه لا يحاكم عباد بما علم عنهم أزلاً. بل ينزل لهم

حق الاختيار في التجربة الحياتية لعملية وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - تجد أنا بعني من مأساة فشل بنه في الدراسة أو في الاعتماد على نفسه في الحياة، ويحب الولد لاهباً غير معدر لتبعات الحياة، فيقول أصدق الوالد له لماذا لا تقيم لابنك مشروعاً يشغله بدلاً من اللهو، فيرد الأب - إنني أعرف هذا الولد، سيأخذ المشروع ليبيعه ويصرف ثمنه على اللهو. والأب يقول ذلك بتجربته مع الابن. لكن ألا يحتمل أن يكون هذا الابن قد ملّ الانحراف واللهو وأراد أن يتوب، أو على الأقل ليثبت للناس أن رأي والده فيه غير صحيح؟ لذلك نجد الأب يفتح لابنه مشروعاً، لكن الولد يعليه طبعه السيئ فيبيع المشروع ليصرف نقوده في الفساد.

هل حدث ذلك من نقص في تجربة الوالد؟ لا، بل صرف لأب عدم الحد من إبه، ومهوية انقياده لهواه، فما بالنا بلحق الأعلى العليم أزلاً بكل ما حوى وما ظهر من عياده؟.

ولكنه سبحانه وتعالى شاء ألا يحاسب عبياده بما علمه أزلاً، بل يحاسبهم سبحانه وتعالى بما يحدث منهم واقعاً، فهو لقائل -

﴿وَلِيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (١١)

(سورة النمل)

فسبحانه وتعالى العالم أزلاً، لكنه شاء أن يعلم أيضاً علم الإقرار من العبد نفسه؛ لأن الله لو حكم على العباد بما علم أزلاً، لقال العبد - كنت سأفعل ما يطلبه منهج يارب لذلك يترك الحق الاختيار للبشر ليعملوا على ضوء اختيارهم ويكون العمل إقراراً بما حدث منهم.

﴿وَنُوعِلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَعْلَمَهُمْ وَنُوعِلِمَهُمْ لَتَقُولُوا وَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ (١٢)

(سورة الأنفال)

وحتى لو أسمعهم الله عز وجل لتولوا هم عن السماع وأعرضوا عنه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم اختاروا أن يكونوا ضللاً من الدواب عبده ، وهم الضم الذين لا يسمعون دعوة هداية ، وأنكم لا ينطقون كلمة توحيد ، ولا يعقلون فائدة لمهج لذى وضعه لله تعالى لصالح دنياهم وأخراهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ ﴿٢٤﴾

ومنا نقل المسألة من سماع إلى استجابة ؛ لأن مهمة السماع أن تستجيب .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

أي استجيبوا لله تعالى تشريعاً ، ولرسول صلى الله عليه وسلم بلاغاً ، وغاية التشريع والسلاع واحدة ، فلا بلاغ عن الرسول إلا تشريع من الله عز وجل ، بل ولرسول صلى الله عليه وسلم تفويض بأن يشرع . ورسول الله لم يشرع من نفسه ، وإنما شرع بواسطة حكم من الله تعالى حيث يقول

﴿ وَمَا أَسْكُرُ أَرسُولٌ مَّخْدُومٌ وَمَا يَكْفُرُ بِهِ عَانِتٌ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وأصرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - ' نسمع أن فلاناً قد فصل لأنه غاب خمسة عشر يوماً عن عمله في وظيفته ، ويعود المحامي إلى الدستور الذي تتبعه البند فلا يجد في مواد الدستور هذه الحكاية ، ويسمع من المحامي الأكثر خبرة

أن هذا القانون مأخوذ من تفويض الدستور للهيئة التي تنظم العمل والعاملين.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مخصص من ربه بأبلاغ وبالتشريع.

﴿ تَسْجِئُوا بِهِ وَلِرَسُولٍ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنعام)

ونجد هنا أيضاً أن الحق تبارك وتعالى قال «إِذَا دَعَاكُمْ» ولم يقل «إِذَا دَعَاكُمْ» وفي ذلك توحيد للغاية، فلم يفصل بين حكم الله التشريعي وبلاغ الرسول لنا. ونعلم أن لأشياء التي حكم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم حكماً ثم عدل الله له فيها الحكم، هذا التعديل بشأ من الله، وهو صلى الله عليه وسلم لم ينشئ حكماً عدله الله تعالى، لا فيحتمل أن ينزل الله فيه حكماً وحين ينزل الله حكماً مخالفاً لحكم وصحه الرسول، فمن عظمتته صلى الله عليه وسلم أنه أبلغنا هذا التعديل، وهكذا جاءت أحكامه صلى الله عليه وسلم إذا وافقت حقاً فلا تعديل لها، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو صلى الله عليه وسلم يعدل لنا. وبذلك تنتهي كل الأحكام إلى الله تعالى. فإذا قال قائل: كيف تقول إن قول الرسول يكون من الله؟ نجيب: إنه سبحانه العاقل:

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴾

(سورة النجم)

و«الهوى» كما نعلم أن تعلم حكماً ثم قيل عن الحكم إلى مقابله لتخدم هوى في نفسك، والرسول صلى الله عليه وسلم حينما عمداً إلى أي حكم شرعه ولم يكن عنده حكم من الله عز وجل، فإن جاءه تعديل أبلغنا إذن ما ينطق عن الهوى. أي من كل ما لم يرله الله، وحكم فيه صلى الله عليه وسلم بشريته، ولم يكن له هوى يخدم أي حكم، ولتجد في قول الله تعالى

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَسُوا اسْتَجِيبُوا لَهُ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنعام)

أن كلمة «دعاكم» مفردة، مثلها مثل كلمة «يرضوه» في قوله لكم

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

(من الآية ٦٢ سورة التوبة)

ومثلها مثل الضمير في «هت» في قوله تعالى :

﴿أُحْيِرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأنعام)

وهي هذه الآيات الكريمة توحيد للضمير بعد المنس، وهذا التوحيد كان مشر
شبهة عند المستشرقين، فقالوا : كيف يحاطب اثنين ثم يوحدتهما ؟ ونقول لمن
يقول ذلك : لأنك استقبلت القرآن بنغير ملكة العربية. فلم تفهم، وبو وجد
الكفار في أسلوب القرآن ما يحالف اللغة لما سكتوا، فهم المعابدون، ولو كانوا
جربوا في القرآن كلمة واحدة محالمة لأعلنوا هذه المخالفة. وهدم إعلان الكمبر
عن هذه التشبهات التي يثيرها الأعداء، يدل على أنهم فهموا مرمى ومعنى كل
ما جاء بالقرآن، وهم فهموا على سبيل المثال- الآية التي يكرر المستشرقون
الحديث عنها ليشككو الناس في القرآن الكريم، وهي قول الحق تبارك وتعالى .

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأَوْصِلُوا بِهِمَا^١ فَإِنْ نَجَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى

الْآخَرَى فَقَتَلُوهُ^٢ الَّتِي تَبَىٰ حَقٌّ تَفَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتًا فَأَصْلَحُوا^٣ بِهِمَا

بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا^٤ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٥﴾

(سورة الحجرات)

وتساءل المستشرقون - مستكبرين - : كيف يتحدث القرآن عن طائفتين ، ثم يأتي الفعل الصادر منهما بصيغة جمع ؟ ونقول : إن « طائفتان » هي مثني طائفة ، والطائفة لا تطلق على لفرد ، إنما تطلق على جماعة ، مثلما نقول : المدرستان اجتمعوا ؛ وصحيح أن المدرسة مفرد ، لكن كل مدرسة بها تلاميذ كثيرون ، وكذلك « طائفتان » ، معناها أن كل طائفة مكونة من أفراد ، وحين يحدث لقتال قهوقتان بين جمع وجمع ؛ لذلك كان لقرآن الكريم دنيئاً حين قال :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾

ولم يقل القرآن الكريم : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا ؛ لأن هذا القول لا يعبر بدقة عن موقف الاقتتال لأنهم كطائفتين ، إن انهوا فيما بينهم إلى القتال فبسة القتال لا ينحيز كل فرد لفرد ليقاتله ، وإنما كل فرد يقاتل في كل أفراد الطائفة لأخرى ، وهكذا يكون القتال بين جمع كبير من أفراد الطائفتين .

وبعد ذلك يواصل الحق تبارك وتعالى تصوير الموقف من الاقتتال بدقة يقرون سبحانه :

﴿ مَقْتَبُوا إِلَى تَبَنَى حَقَّ تَبَنَى إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾

(من الآية ٩ سورة الحجرات)

ومنا يقول سبحانه وتعالى : « فأصلحوا بينهما » ، ولم يقل : أصلحوا بينهم . وهكذا عدل عن الجمع الذي جاء في الاقتتال إلى المثني ؛ لأننا في لصح إنما نصلح بين فئتين متحاربتين ، ونحن لا نأتي بكل فرد من الطائفة بنصحه مع أفراد الطائفة الأخرى . ويمثل كل طائفة رؤساؤها أو وفد منها ، وهكذا استخدم الحق في مجاله ، مستخدم الجمع في مجابه ، وسبحانه

وتعالى سره عن الخطأ.

وهذه في الآية التي مارلتا بصدد خواصها عنها وفيها يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنعام)

وفي أولها نداء من الله للمؤمنين، والنداء يقتضي أولاً أن يكون المبادى حياً؛ لأنه سبحانه وتعالى القائل :

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّا اللَّهُ نَسْمِعُ مَنْ نَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ
مَنْ فِي أَنْقُورٍ ۝﴾

(سورة طه)

ذن : كيف يقول سبحانه لمن يحاط بهم وهم أحياء «دعاكم لم يحييكم» ؟.

وهنا يقول : ما هي الحياة أولاً ؟. نحن نعلم أن الحياء يأخذ مظهرين ، مظهرَ الحسِّ ومظهرَ الحركة ، ولا يتأتى ذلك إلا بعد أن توجد الروح في المادة فتتكون الحياة ، وهذه مسألة يتساوى فيها المؤمن والكافر ، وثمره الحياة أن يسعد فيها الإنسان ، لا أن يحيا في حرب وكراهية وتنعيس الآخرين به وتنعيسه للآخرين ، والحياة الحقيقية أن يوجد الحسّ والحركة ، شرط أن تكون حركة كل إنسان تسعده وتسعد من حوله ، وبذلك تتآزر الطاقات في زيادة الإصلاح في الأمور النافعة والمفيدة ، أما إذا تبددت الطاقات الناتجة من الحسّ والحركة وضاعت الحياة في معانده البعض للبعض الآخر ، فهذه حياة التعب والمشقة ، حياة ليس فيها خير ولا راحة. وهذا ما يخالف ما أراده الحق سبحانه وتعالى

للخلق ، فقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفة له في الأرض ليصنع لا
ليفسد ، وليريد الصالح صلاحاً ، ولا تتعبد حركة لفرد مع غيره ؛ لأن كل
إنسان هو خليفة لله ، ومادما كنا خففاء لله تعالى في الأرض ، فلماذا لا نجعل
حركاتنا في الحياة متساندة غير متعاندة ؟

وعلى سبيل المثال : إن أراد إنسان أن يخدم نفسه ومن حوله بحفر بئر ، هنا
يجب أن يتعاون معه جميع من سوف يستفيدون من البئر ؛ لمجموعة نحمر ،
ومجموعة تحمل التراب بعيداً ، ليخرج الماء ويستفيد منه الجميع ، لكن أن
يتسلل إنسان ليردم البئر ، فهذا يجعل حركة الحياة متعاندة لا متساندة.
وقد نزل المنهج من الله عز وجل لجعل حركة الحياة متساندة ؛ لذلك يقول
الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ بِمَا بَيْنَكُمُ

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

والنداء هنا من الله للمؤمنين فقط ، فإذا قال الله : يا أيها الذين آمنوا استجبوا
لما أمركم به ؛ فهو لم يطلب أن تستجيب لمن لم تؤمن به ، بل يطلب منك
الاستجابة إذا كنت قد دخلت في حظيره الإيمان بالله ، واهديت إلى ذلك
بعقلك ، وبالأدلة الكونية واقتنعت بذلك ، وصرت تؤمن أنه إذا طلب منك
شيئاً فهو لا يطلب منك عبثاً ؛ بل طلب منك لأنك أمنت به تعالى إلهاً ، ورباً ،
وخالقاً ، ورازقاً ، وحكماً ، وعادلاً .

حين يأمرك من له هذه الصفات ، فمن الواجب عليك أن تستجيب لما يدعوك
إليه ، والله المثل الأعلى ؛ لجد في حياتنا الأب والأم يراعيان المصالح القريبة
للغلام ، ويأمره الأب قائلاً :

اسمع الكلام لأنى والدك الذى يتعب من أجل أن تنعم أنت. وتضيف الأم
مائلة له : اسمع كلام والدك ، فليس غريباً عنك ، بل لك به صلة وهو ليس
صدوّاً لك ، وتحريته معك أنه نافع لك ويحب لك الخير ، هنا يستجيب الابن .
وكلنا عيال الله ، فإذا ما قال الله : يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول
لمبلغ عن الله لأنه سيدهوكم لما يحبيكم فعلينا أن نستجيب للدعوة .

الداعى - إذن - هو الله تعالى وقد سبقت نعمه عليك قبل أن يكلفك ، وهو
مصححانه قد أرسل رسولاً مزيّداً بمعجزة لا يستطيع وحداً أن يأتي بها ، ويدعو
كل إنسان إلى ما فيه الخير ، ولا يجمع الإنسان من الاستجابة لهذا الدعاء إلا أن
يكون غيباً .

ونلاحظ فى حياتنا ليومية أن لإنسان المريض ، المصاب فى أمر وأثمن شيء
عنده وهو عافيته وصحته ، وهو يحاول التماس الشفاء من هذا المرض ويسأل
عن الطبيب التخصص فبما يشكو منه ، وهناك لكل جزء من الجسم طبيب
متخصص ، فإذا كان له علم بالأطباء فهو يذهب إلى الطبيب المعين ، وإن لم
يكن به علم فهو يسأل إلى أن يعرف الطبيب المناسب ، وبذلك يكون قد أدى
مهمة العقل فى الوصول إلى من يأمنه على صحته . فإذا ما ذهب إلى الطبيب
وشخص له الداء وكتب الدواء ، فى هذه اللحظة لن يقول المريض : أنا لا
أشرب الدواء إلا إن أقتننى بحكمته وفائدته وماذا سيعمل فى جسمي ؛ لأن
الطبيب قد يقول للمريض : إن أردت أن تعرف حكمة هذا الدواء ، اذهب إلى
كلية الطب لتتعلم مثلما تعلمت . وطبعاً لن يفعل مريض ذلك ؛ لأن المسألة
متعلقة بعافيته ، وهو سيذهب إلى الصيدلية ويشتري الدواء ويسأل عن كيفية
تناوله ، والمريض حين يفعل ذلك إنما يجعله لصالحه لا لصالح الطبيب أو
الصيدلى .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يدعوننا لما يحيا به ، إنما يعمل ذلك لأن الله تعالى أوكل له ابلاغ المصالح الذي يصلح حالنا ، وإذا كانت الحياة هي الحسن والحركة ، بعد أن تأتي الروح في المادة ، يواجه الإنسان ظروف الحياة من بعد ذلك إلى الممات . وهذه حياة لمؤمن والكافر ، وقد يكون في الحياة منغصات وتمتع بالحركات المتعاند ، وقد يمتلئ البيت الواحد بالخلافات بين الأولاد وبين الجيران ، ويقول الإنسان : هذه حياة صعبة وقاسية . والموت أحسن منها . والشاعر يقول :

كفى بك ذاء أن ترى الموت شافياً

وشاعر آخر يقول :

دل من يخبط الذليل بعيش

رب عيش أحف منه الحمام

والحمام هو الموت ، وكان الموت - كما يراه اشاعر - أخف من الحياة المينة بالمنغصات . إذن فليس مجرد الحياة الأولى هو المطلوب ، بل المخلوب حياة حليلة تأتي في مجتمع خلفاء الله في الأرض . وكل منا موكل بالتعاون وإصلاح انجال الذي يخصه ولا يصح للوكلاء أن يتعاندوا مع بعضهم البعض ، بل عليهم أن يتفقوا ؛ لأنهم وكلاء لواء أحد . كذلك خلف الله الإنسان ، خلفه خليفة له في الأرض وأنجب الخليفة خلفاء ؛ ليؤدوا الخلافة بشكل متساند لا متعاند .

إنما - على سبيل المثال - حين نرغب في تفصيل جلباب واحد ، نجد الملاح يزرع القطن ، والغزال يعزله ، والنساج يسججه ، ومن بعد ذلك يشتريه لذهب به إلى الخياط الذي يأخذ المقاسات المناسبة للجسم ، ثم يقوم بحياكة جلباب

عنى آلة اشتراها بعد أن صنعها آخرون. إذن فجلوب واحد يحتاج إلى تعاون بين كثير من البشر، هكذا تتعاضد الحياة.

وإذا نظرنا إلى العالم الذي نحيا فيه نجد ميثاً بالتعب، خصوصاً الأمم المتحللة، وأيضاً نجد التعب فى الأمم المتقدمة، لأننا نجد صعايلك من أية دولة يصعدون إلى طائرة تنبع دولة كبرى ويهددون بتمجير لطائرة بمن فيها ويفرضون الشروط، ويُرَكون الدولة الكبرى إذن فالحياة حتى فى الدول الراقية متعبة.

وعلى سبيل المثال - الحروب التى قامت فى منطقتنا منذ عام ١٩٤٨ مع إسرائيل واستمرت كل هذه لمدة الطويلة، ثم الحرب الأهلية فى لبنان، ثم الحرب التى دارت بين العراق وإيران؛ هذه الحروب تكلفت المليارات التى لو استخدمت فى وجه آخر لرفعت من شأن تقدم بلادنا.

إذن الذى يتعب العالم هو الحركة المتعبدة، والحق سبحانه وتعالى أمر لنا بالمنهج القويم ليجعل حركة حياتنا متسادة فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ لأوامر من له واحد، وصار كل منا مكلفاً بالتعامل مع غيره، وهذا لم يحدث إلا إذا استجبت لما يدعو الله تشريعاً ولرسول بلاغاً، وبهذا تتساند الحياة وتصح حياة لها طعم، وينطق عليها قول الحق تبارك وتعالى :

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ وَأَتَىٰ وَثْقَىٰ مِّنْ صَالِحِينَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَٰجِرَتُهُمْ أَجْرُهُمْ بِحَسَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٧)

(سورة اسحل)

أما من يحيا بغير منهج فتكون حالته كما يبيها قول الله تعالى :

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾

(سورة طه)

وعلى هذا : فالعقاب على عدم اتساع المنهج الإلهي لا يتأخر إلى يوم القيامة ، ولكن الحياة في الدنيا تكون مرهقة ، ومعيشة ضنكا .

إذن إياكم أن تفهموا أن المنهج الديني لله غاية الأخرة فقط ، لا يس إن اتباع المنهج الديني لله حزاؤه في الآخرة ، وأما ثمرته فهي الدنيا . فمن يوفق في هذه الدنيا ، وحركته متساندة مع غيره ، يعطى له الله استزاء في الحياة استريحة في الدنيا بالإضمان إلى جراء الآخرة ، وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا ، أما الآخرة فهي حزاء على هذا الاختيار الدسوى .

ونوله سبحانه وتعالى

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنعام)

أى يعطىكم منهجاً من إله واحد ؛ لا يعود بالخير عليه ولا على اميلغ عنه وهو الرسول ، وإنما يعود بالخير عليكم أنتم ، وتلك هي حيثيات الاستجابة ، ومن لا يستجب لهذه فهو الأحق .

﴿سَلِّمُوا إِلَهُ وَرَسُولٍ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنعام)

إذن فـ الخبير يأتي من أمر إله واحد ؛ فلا يجعل كل ما إلهه هواه ، حتى لا تتعدد لأهواء .

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَحْنُ أَهْوَاءُ هُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾

(من الآية ٢١ سورة المزمل)

وبذلك لا يتعرض التشريع من الله سبحانه وتعالى إلا ما للأهواء فيه مدخل، أما الشيء الذي ليس للأهواء فيه مدخل فهو يترك الإنسان ليواجهه بملكاته التي خلقها الله له، والشرع يتدخل فقط فيما يمكن أن يخضع للهوى، أما الأمور التي لا تخضع للهوى فالأعداء يتفكرون فيها.

والحياة الآن فيها موجة ارتقاء طموحي علمي، وهذا الطموح العلمي نشأ عن التجربة في المعمل حيث يجلس العلماء الوقت الطويل ليبتدعوا ويطوروا، مثال ذلك: «أديسون» الذي قضى وقتاً طويلاً ليبتدع المصباح الكهربائي، وغيره من العلماء طوروا مخترعاته وجاءوا باختراعات جديدة، ولم ندر عنهم شيئاً إلا أننا نصاباً بابتدع قد أتى منهم، والعالم من هؤلاء نجده أشعث أغبر، لا يفكر في العناية بحسن مظهره وقد لا يأكل ولا يشرب، ولا تدري أنت به إلا إذا الثمرة من عمله واختراعه جاءت، ويقال: فلان اخترع شيء «الفلاني»، وتتبع أنت بما اخترع رغم أنك لم تشق شفاءه حين أخذت الخير البائع منه.

ونرى المعسكرات المتضادة في عالمنا المعاصر تحاول أن تسرق تجارب غيرها في العلوم، وهذه المعسكرات تختلف فقط في الأهواء، فذلك شيوعي، وآخر رأسمالي، وثالث وجودي، الخلاف - إذن - في الأهواء غير المحكومة بالمادة أو بالتجربة. ومن المؤسف حقاً أن ما اتفقنا عليه كالعلوم المادية الكونية التي هي وليدة التجربة، هذه المخترعات نستعملها في فرض ما نختلف فيه، وهكذا تجد أن لتعب في العالم إنما يأتي من الطموح الأهوائي لا الطموح المادي العلمي؛ لذلك يتدخل الشرع في الأهواء ويحسمها، ليكون كل ما عبداً لله تعالى،

وكل متأحر أمام غيره.

والرسول صلى الله عليه وسلم بمنهجه الذي جاء به من الله يدعوا إلى - صاحب الحس والحركة - إلى أن تكون حياته حياة طيبة ليس فيها ضحك ، هذا إن نظرنا إلى كيفية الحياة. فإن قسنا الحياة بعمر الآخرة ، فهي لا تساوى إلا القليل ؛ لأن ما لا يختلف فيه كأفراد في الخلافة يجب أن يكون عناية لسحفاء ، فربما قد يخلق واحدا ليموت في بطن أمه ، وواحدا يموت بعد ساعة من مولده ، وثالثا يموت بعد شهر من ميلاده ، ومنا من يعمر مائة سنة ، ولا يمكن أن يكون الأمر المختلف فيه عناية للمتشحدين في الجنس ، فالعناية أن يعمر الديق بالعمل الصالح لسمعه بها ، ونعبر منها إلى ما هو أجل وهي الآخرة ، ومأمون فيها أننا لا نغوت ، ومأمون فيها أننا لن نتعب أبداً ، لأنه كلما اشتبهت شيئاً سنجد أنه أممك . وهذه قمة الحياة الطيبة

وعلى فرض أنك ستتعبد في سبيل منهج الله حين تبلغه لكس ، دهاً عنه بالحرب والقتال وبالتصحية بالأموال ، فأنت راسع الحياة طيبة أبدية ، ويبين القرآن الكريم لنا هذه الحياة في قول الحق تبارك وتعالى

﴿ وَإِنَّ أَفْئَرَ الْآخِرَةِ لَهِيَ الْخَيْرَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

فالدار الآخرة ليست مجرد حياة ، بل أكبر من حياة ؛ لأن حياتك لدنيا موقرة ومحددة ، ونعيمك فيها على قدر إمكانياتك ونصورتك ، ولكن الحياة الأخرى ليست موقرة بل ممتدة ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات حالقك المتعم الفادر وهكذا نتأكد أنه صلى الله عليه وسلم قد دعانا إلى ما يحيينا .

والحق سبحانه وتعالى حينما دعانا إلى الحياة الطيبة سمي المعيشة في منهجه

حياء، لأنها حياة سعيدة، وتنسم إلى حياة حائلة. ولذلك سمى الحياة لأولى
التي تأتي إذا نفخ الله الروح في المدة، وقال عن آدم وكل بني آدم

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ رَفَعْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

وأعطى الله سبحانه وتعالى هذه الحياة للمؤمن والكافر. وسمى سبحانه
وتعالى ما يحمل المسيح للناس وهو القرآن روحاً .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والمهيج - إذن - روح من أمر الله سبحانه وتعالى يروى به الروح الأمين،
وهذه هي الحياة المطلوبة لله سعادة، وتسانداً، وخلوداً في الجنة ولذلك أنزل
المهيج ليمسح التعاند والتعارض والتضديد بين المؤمنين، وليحمي كل مؤمن نفسه
من الزلل، فيقوم المعصية وهي صغيرة قبل أن تكبر وتستفحل.

ثم يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ رَأَيْتُمْ أَنَّ اللَّهَ يَخُونُ بَيْنَ أَمْرِهُ وَنَفْسِهِ - وَهُوَ إِلَيْهِ يُخْشَوْنَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنعام)

وماذا يعنى قوله تعالى : « و علموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » ؟ .

وأقول : إياك أن تظن أن الكافر - على سبيل المثال - يعلم أن قلبه قد انعقد
على الكفر؛ لأنه قد يجرب أن يخلع نفسه من هواه وينظر إلى حقيقة الإيمان

فيقتنع به ، ولن يسيطر على هواه ، وقد انقلب أكثر من قلب شرير إلى قلب خير ، مثل صناديد قريش من الكفار الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كانت قلوبهم معقودة على الشر ، لكنها لم تستمر على الشر ، بل حال الحق بين كل امرئ منهم وقلبه .

والقلب هو محل التمسك بالأماني ، وأول الأماني أن تطول حياة الإنسان ، خصوصاً وهو يرى أن من في مثل عمره يموت ، ومن في مثل عمر والده يموت . وأن حده يموت ، ولأن الإنسان يحب أن تطول حياته ، يرغب في أن ينجب ولداً ليمتد ذكره ، إنه يريد الحياة ولو من غيره ، مادام منسوباً له .

كما أن الإنسان يحب الآمال ، ويبني في أحلامه الكثير مما يريد أن يحققه ، والواجب عليه ألا يسعى أن لهذا الكون إلهاً قادراً ، قد ينهي حياة أي منا رغم أن كل إنسان يحلم أن تطول حياته ، وقد يقف بين الإنسان وبين آماله التي يريد أن يحققها ، ولا أحد مما معروف عن خالقه ، وكل ما في يد الخالق ، وسبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ثم يترك لمواميس لتعمل دون إرادته ، بل كل الواميس في يده .

ومدام الحق يحول بين المرء وتمنيات قلبه ؛ استنزاف حياة ، وتحقيق آمال ، وستر للموت وأسبابه وزمنه ، كل ذلك لتتجه دائماً إلى فعل الخير لنحيا في ضوء المنهج وأنت لا تعرف متى ينهي الأجل ، ولي الله المصير .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

ويأمرنا الحق عز وجل أن نتقى الفتن من بدتها قبل أن يستفحل شأنها، وأن يتجنب الإنسان المعصية، وأد يصرب المجتمع على يد أي انحراف، فمن يسرق الآن الخزائن قد بدأ أولاً بسرقة اليسير، سرق من أخيه أو من البيت ثم من الجيران ثم من النك. ولو أن كل انحراف عو جل بالضرب على يد من فعله وهو صغير لما كبر المنحرف والانحراف. ولثم وأد اخرا تم الكبيرة في مهدها؛ لأن من ارتكب الصغيرة قد عوقب. وإياكم أن يقول أحدكم مادام مثل هذا الانحراف لا يمسى فليس لى به شأن؛ لأن الذى اجتراً على مثلك، من السهل أن يجترىء عليك. ونحن نعرف جميعاً قصة الثيران الثلاثة؛ الأحمر والأبيض والأسود، فقد هاجم الأسد الثور الأبيض فأكله، ولم يدافع عنه الثور الأحمر أو الأسود. وهاجم الأسد الثور الأحمر بعد ذلك فعال لثور الأسود لنفسه مادام الأسد لم يأكلنى فلا دخل لى بهذا الأمر. وجاء الأسد إلى الثور الأسود، بينما هو يقترب منه قال : لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

إذن فنقول الحق تبارك وتعالى

﴿وَأَقْوَاتِنَا يُغَيِّبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ حَاصَّةً﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنفال)

هذا القول يدلنا على أن اتقاء الفتنة يبدأ من الضرب على أيدى صانع الفتنة وهى من بدايتها. وأضرب هذا المثل ليبقى فى الذاكرة دائماً؛ إن الأم التى قسمت الأكل مما فيه من لحم وخضر وفاكهة على الأبناء، فأكل أحد الأبناء نصيبه، ثم احتفظت الأم ببقية أصصة إخوته فى السلاجة، ومن بعد ذلك لاحظت الأم أن الابن الذى أكل نصيبه يأكل نصيب أحد إخوته من خلف ظهرها ودون استئذانها، وهنا يجب أن تؤنبه وتعاقبه على مثل هذا الفعل حتى لا يتمادى فى ذلك.

كذلك إن دخل الابن بلعبة أو بشيء يفوق ثمنه قلعة مصروب يده على الشراء ، فعلى الأب أن يضرب على يد الابن حتى لا يتمادى الولد في إنساد نفسه ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى جعل الدية في القتل الخطأ على العاقلة وهم العصبة أي قومه القاتل من جهة أبيه ، ويطلق عليهم العائلة - أي عائلة القاتل - لأن أفراد العائلة حين يرون أن كلاً منهم سوف يصيبه جزء من الغرم ، فإنه يضرب على يد من يتمادى في إرهاب الغير وتهديدهم إن كان من عائلته.

ولذلك ترى أن الناس إذا رأوا لظالم ثم لم يضربوا على يده فإن الله يعمهم بغضب من عنده ؛ لأن الظالم يتمادى في ظلمه وطمأنه ويعربد في الآخرين ، فيستشري الظلم في المجتمع ويحق على الجميع عقاب الله ، ولذلك نجد سيدنا أبو بكر رضوان الله عليه - يقول ، يبين لنا ذلك فيما روه عنه الإمام أحمد ، فقد روى الإمام أحمد قل : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإلستم تضعونها على غير موضعها .

وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيروته ، يوشك الله - عز وجل - أن يمسهم بعقاب » .

وبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصريق الفاصل في القضايا العقدية والحكمية ويأتي بمثال واضح يتمق عليه الكل ، فيقول صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه العمان بن بشير :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا ^(١) على

(١) استهموا اقترعوا

سفينة، فأصاب بعضهم أهلها، وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استموا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو آتانا خرقا نخرقاً متى نصيبنا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً^(١).

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل بقوم ركبوا سفينة، وأجروا فيما بينهم القرعة لينقسموا إلى جماعتين: جماعة تجلس في النصف الأعلى من السفينة أى على سطحها، وجماعة تسكن في بطن السفينة، حسب ما تأتى به قسمة القرعة وهى ما تسمى بالاستهام.

وهذا يدلنا على أنهم أناس طيبون، ولا توجد فيهم جماعة قوية تعرض شيئاً على جماعة ضعيفة. وكان الذين يسكنون أسفل السفينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى ليرلوا الأواني من فوق سطح السفينة إلى النهر.

ولو ترك الذين في أسفل السفينة لتنفيذ رغبتهم فى حرق السفينة لياخذوا الماء من النهر لخرقت السفينة، لكن إن ضرب الذين يعيشون فوق السفينة على يد من يريدون خرقها لنجوا جميعاً.

وهكذا يكون فهمنا لمول الخلق تارك وتعالى .

﴿وَأَنْقُضَ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِمَّا جَاءَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ۝١٦﴾

(سورة الأنعام)

ولسائل أن يسأل ويقول : إن العقاب يقع ها على الظالم والمظلوم، والظالم هو الذى يستحق العقاب على ما وقع منه من ظلم، ولكن ما ذنب المظلوم ؟

(١) أخرجه البخارى والترمذى

والجواب : أن المظلوم قد كان في ميكنته أن يرد الظلم لكنه سكت عن ذلك فاستحق أن يشمه العقاب.

وإن لم تتبه المجتمعات إلى مقاومة الفتن ، أنزل الله بها العقاب ، وعقاب الحق تبارك وتعالى أشد من عقاب الخلق.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ
تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْنَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَآيِدُكُمْ يَضْرِبُوهَا
وَرِزْقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وبعد كل ما حدث من وقائع ، يذكر الحق عز وجل هنا صاحب الحال الأعلى بالماضي الأدنى ، ليثبت له : أن لدى بقلك من أدنى حية إلى أعلى حية ، موحود ولا يزال مرحوداً ، ومادام قد شاءت قدرته أن ينقلك من الأدنى للأعلى ، فقدرته سبحانه وتعالى - إن شاءت - نقلتك من الأعلى إلى الأدنى. فإذا كنت في حال أعلى ؛ إياك أن تنسى أنك كنت في حال أدنى. وعليك أن تعترف بجميل عطاء الخالق المنعم المتعصل وتقول : إن ربي القوي العظيم هو الذي وهبى ورفع مكانتى ولم أقعل ذلك بمهارتى ، وحتى إن كنت قد ارتقيت بالمهارة ، فالمهارة عطاء منه سبحانه وتعالى ، لذلك يقول المولى عز وجل هنا :

﴿وَأَذْكُرُوا إِذَا أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ .

أى اجعلوا هذا الأمر على بلكم دائماً وإياكم أن تخافوا أية قوة مهما بلغت هذه القوة ، ولكن أعدوا بكل قوة ما يناسبها من أسلوب المواجهة الكثير ؛ لأنكم حملة دعوة ، ومن يحمل الدعوة قد يعانى من المضاعب والمتاعب والمشقات ،

لكن يجب ألا يبت ذلك في عضدكم.

لقد كان المسلمون الأوائس قلة تعاني من إدلال واضطهاد الكافرين لأقوياء. وكان المسلم من الأوائس لا يجد أحياناً من يحميه من اضطهاد المتجبرين، فيلجأ إلى كافر يتوسم فيه الرحمة ويقول له : أجزني من إخوانك الكفرة. وحين بلغ الضعف بالمسلمين الأوائس أشده، ولم يجدوا حامياً لهم من ظلم وتعديب الكفار، عرض عليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى الحبشة؛ لأنَّ فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وكانت الهجرة إلى الحبشة هرباً من قوة الخصوم، ولم يظل حال المسلمين كذلك، بل نصرهم الله لا بقوتهم، ولكنه سبحانه وتعالى شاء لهم أن يأخذوا بأسباب منهجه فانتصروا وعلت كلمة الله عز وجل.

إننا نتحدث من هذه المسألة حجة ومثلاً نواجه به من يشككون في قدرة المسلمين على إدارة الحياة والارتقاء بها؛ لأن العالم كله قد شهد ألف عام كان المسلمون فيها هم قادة العلم والمكر والابتكار، وكانت غالبية الدول تخضع لحكم دولة الإسلام.

لقد سبق أن قلت : إن هارون الرشيد الخليفة المسلم بعث لشارلمان ملك فرنسا بهدية هي ساعة دقاقة بالماء؛ تم تصميمها بدقة عالية تفوق طاقة خيال الناس في فرنسا، ولحظة أن شاهدوها في فرنسا ظنوا أن الشياطين هي التي تحركها؛ لأن التقدم العلمي والتطقي في بغداد في ذلك الوقت فاق كل التصور الأوروبي حيث كانوا يعيشون في تخلف علمي شديد.

لكن المسألة انعكست في زماننا هذا، وصارتا نعني من تخلف في الأخذ بأسباب الله للاستفادة بالعلم، فحين جاء «الراديو» وجاء «التليفزيون» إلى بعض البلاد الإسلامية، وجدنا من يقول عن الراديو : إن بداخله شيطاناً يتكلم ويلون ويعير من صوته، ولم يعير أصحاب هذا الرأي ندهاشهم ورقصهم

لوجود محطة الإذاعة وأجهزة الاستقبال في بلادهم، لا بعد أن قلنا لهم :
حركوا مؤشر الراديو وستجدونه يذيع القرآن الكريم، وحين فعلوا ذلك
ستمعوا إلى صوت الشيخ محمد ربيع، وكان يقرأ في سورة مريم، وقلنا
لأصحاب هذا الرأي : إن الشيطان لا يقرأ القرآن، بل إن الإذاعة وأجهزة
الاستقبال هي اختراعات علمية توصل إليها من أخذوا بأسباب الله في العلم
لتطبيقات.

وحين جاء اختراع « الميكروفون » طالب الكثير بوضعه في المساجد وقت
صلاة الجمعة، وجدنا البعض يرفض دخول الميكروفون إلى المسجد، متجاهلاً
أن هناك مساجد كبيرة يحتاج إسماع الناس فيها لخطبة الجمعة وجود أكثر من
« ميكروفون ». وقلنا لواحد من هؤلاء : ليصبح الله حالك وبالك، لماذا
ترتدي نظارة طبية وتضعها على عينك ؟ أجبني : لأن نظري ضعيف والنظارة
تكسر لي الكتابة، فقلت : وهكذا « الميكروفون » يكبر الصوت ليسمعه من
يجلس بعيداً عن المبر والإمام، أثناء صلاة الجماعة وصلاة الجمعة.

فإذا كان بعض من الدون الإسلامية قد وصل بها الحال إلى هذا الحد من
العجز في تحمل العلم، فهذا تنبيه لنا لأن نعيد الأخذ بأسباب الله في الكون،
ولنطور لعلوم، ونخدم بها مهج الله، بدلاً من أن نظل متحلفين رغم أن منهج
الله يحضنا على الأخذ بالأسباب الموجودة في الكون، وكلنا يعلم أن كون الله
في يده والنواميس في يده، يسخره سبحانه وتعالى لمن يأخذ بالأسباب.

ويذكر الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿وَأَذْكُرُوا أَنَّمَا قَلِيلٌ مِّمَّا تَصْنَعُونَ فِي الْأَرْضِ تُحَاوِرُونَ أَنْفُسَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

والخطف هو أخذ بسرعة، أى أن يأخذ إنسان أو جماعة غير الحق، وعرفنا من قبل أن أخذ غير الحق له صُورٌ متعددة، والمثال - مجدناجرأ يعرض نى يفرض بضاعته عن تمر أو تفاح، ويأتى أحد المارة ليطهر إلى الصبغة المعروضة وفروشة وليس معه ثُفود يشتري بها فيخطف تفاحة أو بعضاً من الثمر ويجرى بسرعة، ويحاول صاحب البضاعة أن يجرى وراءه فلا يلحق به؛ هذا هو الخطف، لكن من استطاع تساحب البضاعة أن يلحق به وحاول للخص أن يتخلص ويعتبه به؛ فهذا سعة غصب، أم السرقة، فهي أخذ ادال خفية من حرر وصاحب غير موجود، ويختلف كل ذلك عن الاختلاس؛ لأن الاختلاس هو أن تأخذ بما فى حورتك وأنت مأمن عليه، إذن أخذ غير الحق له عدة صور هي: حطف، أو غصب، أو سرقة أو اختلاس. والحق تبارك ونعالى يقول .

﴿تَحَاوُونَ أَنْ يَخْطِفَكُمْ النَّاسُ فَقُولُوا لَهُمْ لَا يَخْطِفُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنعام)

أى يأخذوكم دون أن بدفع عنكم أحد. وهذا أنتم أولاء قد صرتم أقوياء باستقرار الإيمان فى قلوبكم، ويمدد من الله عز وجل؛ لذلك يجب أن تذكروه دائماً امتناً وتقديراً وعبادة، وشكراً، وحشوعاً. فهو سبحانه وبعالى قد أعطاكم الاستقرار فى المأوى الحديد - المدينة المنورة - ورحب بكم مجتمع الإيمان فى المدينة المنورة.

وعند ما دخلتم إلى المدينة أقمتهم المسجد وهو سعة استمرار النور من السماء هداية للأرض. كان هذا هو أول عمل لكم ولم تشعلوا من قبله بأى عمل آخر واعتبركم الأنصار إخوة، فصرتم أقوياء بأخوة الإيمان، وصاروا هم أيضاً أقوياء بهذه الأخوة بعد أن كان ليهود هناك يستفتحون عليهم بالرسول القادم، جاء

الرسول وكان في نصرة المستضعفين وصار منهجه قوة لكم وللأنصار، وكان المهاجر منكم يجد الدعوة من الأنصارى إلى بيته، لا للطعام ولا للشراب فقط، بل للإقامة أيضاً.

ثم حدث الملحظ العجيب، فالإنسان إذا أنعم الله عليه بنعم شتى، فقد يحب أن يتمتع صاحبها من هذه النعم، إلا المرأة، فالزوج يعار على نفسه. لكن الأنصارى من هؤلاء إن كان متزوجاً من اثنتين، يقول للمهاجر ' لقد حثت من مكة إلى المدينة دون أهلك، فانظر إلى زوجتي، فأيهما تعجبك أطلقها وتزوجها بعد انقضاء عدتها، هذا هو الملحظ العجيب، وهي مسألة لا يمكن أن تمر على خيال الحرى أبداً.

ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِّنْ أَعْيَابِنَا لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

وقد رزقهم المولى سبحانه وتعالى وأمدهم باخيرات والأسلحة والنفائس وهزموا صناديد قريش، ولم تكن الغنائم نحل لأحد من الأنبياء من قبل، لكنها أحلت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذن فالذى صنع لكم كل ذلك حقيق أن يذكر فلا ينسى وأن يشكر دائماً.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ

وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧)

والحياة مقبها الأمانة، والأمانه هي الشيء يستودعه واحد عند آخر بدون

وثيقة عليه، ولا شهود. بل الأمر متروك إلى من عنده الأمانة، إن شاء أقر بها وإن شاء أنكرها؛ لأن الأمانة ليس عليها صك ولا عليها شهرد. ولا عليها «كمبيالة»، وغير محكومة بأي شيء إلا بدمه من التمس، ولحق سبحانه تعالى بهول :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٦)

(سورة الأحراب)

وكل الأجاس التي في الوجود ودون الإنسان من حيوان ونبات وجماد، كلها مُسخرة، ولا تملك الاختيار في أن تفعل أولا تفعل الشمس ليس لها اختيار في أن تقوى. سأشرق اليوم على هؤلاء الناس، أولس أشرق اليوم. والهواء لا يملك إرادة الاختيار، كل الكائنات التي أوجدها الله في هذا الوجود ما عدا الإنسان مسخرة للمؤمن وللكافر. ورفضت هذه الكائنات أن تحمل أمانة الاختيار، لكن الإنسان قال: أن لي عقل يختار بين لبيدات وأتيل تحمل الأمانة وسوف أؤدي كل مطلوبات الأمانة لأنى أقدر على الاختيار.

لكن الإنسان ادعى لنفسه لقدرة على أداء الأمانة. وكأنه قد وثق من نفسه أنه سيؤديها، وهو لا يعلم بأي شيء حكم ذلك الحكم على أمر غيبى مستقبلى.

صحيح أنه ساعة التحمل كان في نيته أن يؤدي الأمانة، لكن ماذا عن ساعة الأداء؟ وأنت لا تعرف ماذا تجيء به الأحداث والأغیر معك، فقد يأتي لك ظرف تضطر أن تبتد فيه لأمانة؛ لذلك تجد العاقل هو من يقول: أبعد عني أمانة الاختيار، لأنى لا أعلم ماذا أستعمل في الأغیر لحظظة الأداء. وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمل الأمانة وقبل استخیر، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة

وأنه سيؤديها. ورضعه القرآن الكريم بقوله :

﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

(من الآية ٧٢ سورة الاحزاب)

« ظلوماً » لنفسه لأنه حمل نفسه شيئاً ليس في يده و « جهولاً » لأنه قاس وقت التحمل ولم يذكر وقت الأداء . فلم يضع في الاعتبار ما سوف تفعل به الأعيان.

ويقول الحق عز وجل هنا :

﴿ لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أمانتكم وأنتم تعلمون ﴾ .

وكثير من التصرفات السلوكية بالإنسان تكون مستترة عن عين الخلق ؛ لأن عين الخلق حين ترى جريمة ما ، فهي تستدعي رجال القانون ليأخذوا حق المجتمع من المجرم ، لكن ماذا عن الجرائم المستترة ؟

نحن نعلم أن كل جريمة تعفر وتظهر واضحة إنما توجد تحتها جرائم مخفية ؛ لأن الذي يقتل إنما يخفي جرائم أخرى ؛ مثل شرائه السلاح بدون ترخيص ، وإن كان لا يملك نفوداً فقد يسرق ليشتري السلاح ، ثم يقوم بتجنيد غيره لمساعدته في القتل ، وكل ذلك جرائم مستترة ، وبالتأكيد هناك سلوكيات باطنة يأتي بعدها السلوك المقلق للمجتمع وهو الجرمية الظاهرة ، وقصارى قانون البشر أن يحرس المجتمع من الجرائم الظاهرة فقط ، لكن عين القانون لا ترى الجرائم الباطنة والخفية ، أما عين الدين فتحتلف ، إنها ترشد الأعماق إلى الصواب ؛ لأن الدين أمانة وصمعهما الحق - الذي خلق الخلق - في ضمير الإنسان . فإياك أن تخون الأمانة في الأمور السرية التي لا يعرفها أحد سوى الله ؛ لأن الأمور التي يعرفها الناس يمكن أن تدافع عنها أمام هؤلاء الناس ،

بخلاف الأمور الباطنة وهي المهمة ؛ لأنها هي التي تسيطر على إيجاد السلوك .

هايك أن تحيون الله والرسول ، وتحبون الأمانة التي وصعت لك ، ولا حجة لك - في ذلك - إلا اختيارك . إن شئت فعلت وإن شئت تركت ، وعلى الإنسان ألا يخون الأمانة التي بيده وبين ربه وإذا لم تتوافر الحراسة الإيمانية من صميره على الأعمال الباطنة قد يتحرف ؛ لأن كل حريمة ظاهرة إنما تنم شبيبت أمر باطن .

ومادمت قد آمنت بالله تعالى رباً بمحض اختيارك ، فالتزم بالأمور التي جاء بك بها من آمنت به ، وأنت تعلم . أن الإيمان هو علة كل تكليف ، وعلى سبيل المثال ؛ أنت تصلي خمسة فروض لأن المشرع أمرك بذلك ، تصلي في لصبح ركعتين ، وفي الظهر أربع ركعات ، وفي العصر أربع ركعات ، وثلاث ركعات في المغرب ، وأربع ركعات في العشاء ؛ لأن المشرع وهو المولى سبحانه ونعالي أمرك بذلك وأنت تصوم لأن الله أمرك أن تصوم ، فإن أدركت من بعد الصيام أن فيه مافع لك ، فهذا موضوع آخر ، ومع ذلك تظل علة الصيام أن الله أمرك به ، وهكذا تكون علة كل حكم هي الإيمان بحكم بهذا الحكم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وما خيانة ؟ . إن مادة الخيانة كلها الانتقاص ؛ وضده التمام ، والكمال ، والوفاء . ويقابل كل ذلك الاختيان والعدو . فإذا كان الله يقول لنا لا تخونوا الله ولرسول ، فعليتنا أن نلتزم ؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة لرسول ، ومن يطع لرسول فقد أطاع الله ؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة ، بل خاطب رسولاً اصطفاً من خلف وأبدى بمعجزة . وكل بلاغ وصلنا إلى كان بواسطة الرسول .

﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ .

فلا تخن لله فيما جاء في القرآن، وجاء من الرسول المفوض من الله بأن يشرع. وتشريع الرسول واتباعه جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَسْكُرُ الرَّسُولُ فَعْدُوهُ وَمَا يَهْتَكِرُ عَنْهُ قَاتِلُهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الاحقاف)

فلله أمانة فيما نص عليها قرآنًا، وللمرسول أمانة فيما لم ينص عليه القرآن إلا تهويض قاتل القرآن للمرسول بأن يشرع، فإن أطعت هذا الرسول، فقد أطعت الله

وعرفنا أن الاختيان هو الانتقاص، ومعنى الانتقاص هو انوقوف بعيداً عن الكمال والإنعام المطلوب. والإنسان حيناً من يصيح للإيمان في النفس أمانة. فأنت قد آمنت أنه لا إله إلا الله، وأمانة هذا الإيمان تقتضيك ألا تجعل لمخلوق ولاية عليك ولا ولاء له إلا أن يكون هذا الولاء نابعاً من إسماع منحه الله تعالى. وهذه هي أمانة الشهادة، أما أمانة الرسالة فهي إحرص على تطبيق كل ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه قدر الاستطاعة.

إذن فالأمانة مع الله تعالى أن تلتزم بكلمة الإيمان في أنه لا إله إلا الله، وإياك أن تعتقد في أن أحداً يمكنه أن يتصرف فيك، أو يملك لك ضرراً أو نفعاً، أو أن مصالحك يمكن أن تقضى بعيداً عن الله، فكل شيء بيد الله سبحانه صاحب الحول والطول ولا إله إلا الله، وإياك أن تفهم أن حكماً يجيء لك من غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنك إن خرجت عن هذا الإطار تكون إنساناً لم يؤد أمانة الله ولا أمانة الرسول.

والقصة في لأمانة هي إيمان بالله، وإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

والله قد أمر بأحكام وحين تقبلها فلها أمانة، وأمانتها هي أداؤها من غير نقص في شيء سواء كان عاماً أو خاصاً، ولو في الحديث يجرى أمانك، وعتمد أمانة الإيمان إلى كل شيء، مثل أمانة أي مجلس توجد فيه، فلا يحق لك أن تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين.

ونعرف رجلاً من قادة العرب هو (ناد بن أسه) وكان شديد الحزم، فوشى واث بهمام بن عبد الله السلولي إلى زياد، وتوقع القوم عقاباً صارماً بهمام؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن، لكن نله ألهم همماً كلمة طلت «دستوراً يطبق»، وحين استدعى زياد همماً، قال زياد: بلغني أنك هجونني، قل هممام: كلا أصلحت الله ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل. فقال: إن هذا الرجل وأخرج الرجل من الخلاء - أخبرني - فظن همم إليه فوجده جليساً وصديقاً ومؤنساً، فلما رآه كذلك أقبل عليه وقال: أنت امرؤ إما اتهمتك حالياً فحنت، وإما قلت قولاً بلا علم فأبت رجعت - من الأمر الذي كان بيتاً بمتزلة الخيانة والإثم، أي إما أنك حائن أو أثم، فإن كنت قد اتهمتك على كلمة نفست بها عن نفسي فأنت حائن، وإن كنت احتلفتها على ما أنت كاذب، فأعجب زياد هذا المنطق، وأقصى لواشياً ولم يتقبل منه. ويقال إنه خلج على هممام الصلة ولعطايه. فكان هممام حين يرى الواشياً يقول به: هل بك لي وشاية أخرى تغيبني؟؟!

وفي سيرته صلى الله عليه وسلم وفائع حدثت في تربيته حتى من بعض الصحابة، وعلى سبيل المثال: نحن نعلم أنه حين قدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، جعل عهداً بينه وبين اليهود، فاستقام لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استقاموا للعهد، فدعا خالفوا هم العهد؛ أراد رسول الله أن يؤدبهم، فأدبهم، وكان أول ذلك في بني النضير وأوصح لهم أنه لن يقتلهم. بل سيكتفى بإخراجهم من ديارهم وإبعادهم إلى الشام. ثم حدثت خيانة من بني قريظة، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن. فبعثوا

إلى رسول الله من يقول . يا رسول الله إن بنى قريظة يريدون أن تصنع بهم ما صنعتهم مع بنى النضير، أى أن بنى قريظة يعرضون ترك السداد إلى انشام، فرغض الرسول ذلك إلا بعد أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، وكان يحب بنى قريظة ويحبهم صلة، وعرف بنو قريظة أن رسول الله يطمئن إلى حكم سعد بن معاذ فقالوا : لا ولكن أرسل لنا أولاً أبا لبابة، وهذه كنيته، أما اسمه فهو مروان بن عبد المنذر، وكان ماله في يد اليهود يتاجرون له به، أى أن بينه وبينهم صلة مالية.

ذهب أبو لبابة إلى اليهود، فاستشروه في الأمر متسائلين : أرضى بحكم سعد بن معاذ؟ فماذا قال أبو لبابة؟ قال : إنه لذبح، وأشار إلى حلقومه، وبعد ذلك لام أبو لبابة نفسه وقال : والله ما جالت قدماي حتى تيقنت أني تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن انظروا إلى الإيمان، ويقين الإيمان، وترجيح أمر الآخرة على أمر الدنيا، والسر إلى أن افتصاح الإنسان في الدنيا أمر هين بالنسبة لافتصاحه في الآخرة .

ذهب إلى سارية المسجد - أى عمود في وسط المسجد - على مرأى ومشهد من الناس، وحكم على نفسه بأن يربط نفسه بالسارية بيده، وظل لا يقطع ولا يشرب سبعة أيام، حتى خارت قواه وغشى عليه وسقط، فعطف الله عليه، وأبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله قد تاب عليه. فقالوا له . حل نفسك بممسك لأنك أنت الذي ربطت نفسك، فقال : والله لا أحلها حتى يحلني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحله من السارية

لماذا فعل أبو لبابة ذلك بتعمده ؟ لأنه شعر بأنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه قال لليهود إنه الذبح.

وهناك صحابي آخر هو حاطب بن أبي بلتعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع أمره لفتح مكة وأراد أن يستمر مقدمه حتى تفتأ قريش. وتكون المفجأة سبباً في عدم تولد اللدد ولتتم الصلح. لذلك كتب الأمر، وبعد ذلك جلس رسول الله بين صحابته وأعلمهم الله أن حاطب قد أرسل إلى قريش يحذرهم. فابتدب علياً ومعه صحابييان وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهبوا إلى مكان حدّده لهم في الطريق إلى مكة ليحددوا فتاةً معها كتاب إلى قريش، فلما ذهبوا إلى المكان المحدد وجدوا الفتاة، فقال لها الإمام عليّ: أخرجي ما معك، فقالت: ليس معي شيء. فمسك عليّ من أبي طالب عقيقته وأخرج الكتاب من المكان الذي تخبئ فيه أشياءها، فوجد رسالة تحذير بقريش، وعاد عليّ - كرم الله وجهه - بالرسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم حاطباً: ما حملك على هذا يا حاطب؟

قال: والله يا رسول الله لقد علمت أن ذلك لا يضرّك في شيء، وأن الله ناصرٌ.. ناصرٌ لك، ولكني أردت أن أتخذ لي يداً عند قريش، لأنني رجل ضعيف ولا مال لي ولا أهل.

فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أن هذا نوع من اختيان الرسول. ولكن عليك أن تعلم أن كل مخالفة لحكم قبلته من لله الذي آمنت به يعتبر حيانة للأمانة

﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أُنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الاحزاب)

أي لا تخونوا الله ولرسول في المنهج ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وأنتم تعلمون، أي ألا يخون أحدكم قومه عن عهد، ويؤخذ من هذا القول ثبوت

المغفرة في حالة الخطأ والنسيان، والممنوع أن نحون ونت تعلم وتقصّد، لكن إن حدث أمر سبب قلّة لسان، فاعلم أن ربنا سبحانه وتعالى غفور رحيم، وله فضل عظيم، لا يأخذك بالسهور، وأنتم تعلمون بالفطرة أن مثل هذا الفعل وذيلة لا يقبل عليها إنسان كرم، ولو لم يكن متديباً، وعليك أن تقيس الأمر بمقياس واضح هو: أتحب أن يفعل أحد معك نفس ما تفعله مع غيرك؟ وهذه سؤال تكون إجابته دليل الفطرة. فإن عرفت أن الفطرة ترفض الفعل ولا تتقبله، فعليك ألا تفعله، لأنه منافي لهذه الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، وعلى سبيل المثال: إن اللص لو تخيل نفسه مسروقاً لما رضى أن يسرق، ولما اعتدى على لمرض، لو تخيل أن هناك من يعتدي على عرضه لما اقترف الاعتداء على عرض الغير بهدف تحقيق شهوة في النفس وما لا ترصاه لتمسك يجب عليك ألا ترصاه لغيرك، أتحب أن يحونك أحد في حديث أو في أمانة؟ لا؛ لذلك عليك أن تقيس كل أمر لا من الطرف الآخر، بل من طرفك أنت.

إذن فقول الحق تبارك وتعالى «وَأَنْتُمْ يَعْمُرُونَ» أي معمدون، غير ناسين أو ساهين، أو جاء لأمر كسلّة لسان؛ لأنكم إذا كنتم تعلمون، ففى ارتكاب هذه الأفعال خيبة والله ينهى عن ذلك فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمْ أَنْتُمْ قَاعِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

سورة الأنفال

ولمّا أن الخطاب هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأمانات أيضاً لجماعة، وأنت حين تفصل الأمانات المجموعة على القوم المخاطبين بذلك، تعلم أن على كل إنسان تكليفاً محدوداً هو ألا يخون أمانته مثلما يقول الأستاذ للتلاميذ: أخرجوا أقلامكم. فهذا أمر لجماعة التلاميذ بأن يحرح كل واحد قلمه

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ
وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

وإذا بحثنا عن علاقة هذه الآية بالآية السابقة عليها نجد أن لعلاقة واضحة ؛ لأن خيانة الله ، وخيانة الرسول ، وخيانة الأمانات إنما يكون لتحقيق شهوة أو نفع في النفس ، وعليك أن تقدر أنت على نفسك لأنك قد لا تقدر على غيرك ، ومثال ذلك : أنت قد لا تقدر على مطالب أولادك ، وقد لا يكفي دخلك لمطالبهم ، فهل يعني ذلك أن تأخذ من أمانة استودعها وحد عندك ؟ لا .

هل يعني ذلك أن تخون في البيع والشراء لتحقيق مصلحة ما ؟ لا .

هل تخون أمانات الناس من أجل مصالح أولادك أو لتصير غنياً ؟ لا .

وقد جاء الحق هنا بالأمرين : المال والأولاد وأخبرنا أنهما فتنة ، والفتنة - كما علمنا من قبل - لا تدم ولا تمح إلا بتيجتها ؛ فقد تكون مدوحة إذا نجحت في الاختبار ، وتكون مدمومة حين ترسب في ذلك الاختبار المبين في تلك الآية الكريمة .

والمتتبعون لأسرار الأداء القرآني يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة ؛ لذلك نجد من يتساءل : لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأمور على الأولاد ؟ ونقول : لأن كل واحد له مال ولو لم يكن له إلا ملبسه . وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد ثم إن الأبناء يشأون من الزواج ، ومجىء الزوج يحتاج إلى المال ؛ لذلك كان من المنطق أن يأتي الحق بالأموال أولاً ثم يأتي بذكر الأولاد .

وأساليب القرآن الكريم تناول هذا الموضوع بالوان مختلفة ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تَزِينُ لِلنِّسَاءِ حُجُبَ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الْذَهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾

« من الآية ١٤ سورة آل عمران »

وفي هذا القول نجد أن القناطر المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين، ولم يأت مذكر الأموال أولاً ثم الأولاد كفتنة، وعلينا أن نتساءل أنه سبحانه وتعالى جاء هنا بالقناطر المقنطرة، وهي ثأني بعد تحقيق الشهوة الأولى ؛ وهي لنساء، والزينة الثانية وهي الأبناء، وتعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج ولإحجاب قد يطمع في المزيد من المال، فإذ كانت الوحيدة من القناطر المقنطرة هي القنطرة، فمعنى ذلك أن الإنسان الذي يملك قطاراً، إنما يطمع في الريادة مثلم يطمع من يملك ألف جنيه في أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه، وهكذا . [د] والقناطر المقنطرة تعني الرغبة في المسالعة في الفنى.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

« من الآية ٢٨ سورة الأنعام »

ويقول في آية ثانية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾

« من الآية ١٤ سورة التماين »

وفى هذا القول نحمد أن العداوة تأتي من الأزواج قبل الأولاد، ويعلم أن الزوجه هي بعض الأحياء هي التي تكره أولاً ثم يتأثر بكرهيتها ويتشبه بها الأنساء، وهذا كلام منطقي؛ لأن الذي يتكلم هو رب حكيم.

﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾.

وفى هذا القول تحذير واضح : إياكم أن ترمسوا في هذا الاختبار؛ فمن يجمع المال من حرام لشرف أبنائه فهو حائل للأمانه، وهذا له عقاب، ولذلك يذكرنا الحق تبارك وتعالى في آخر هذه الآية بما يحجب إلينا النجاح في الاختبار فيقول سبحانه :

﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾.

ونعلم أن النفس الشرية مولعة بحكم تكريمها الفطري من الله بحب النفع لنفسها، ولكن المختلف فيه قيمة هذا النفع : وعمر هذا النفع ؛ لأن الذي يسرق إنما يريد أن يسمع نفسه بجهد غيره، ومن لا يسرق يريد أيضاً أن يسمع نفسه ليبارك الله له في المال وأن يعطيه الرزق الحلال. وهكذا تكون النفعية وراء كل عمل سواء أكان إيجابياً أم سلباً،

والمثل الذي أضربه : ثمناً لذلك هو الصائب الذي يهمل في دروسه، ويوظفه أهله كل صباح بصموية، ثم يخرج من المنزل ليتسكع في الشوارع، والطلاب الثاني الذي استيقظ صباحاً وذهب إلى مدرسته وأكب على دروسه، إن كلاً من الطالبين قد أراد نفع نفسه، الفاشل أراد النفع الأحمق، والناجح أراد النفع في المستقبل. ويعرف أن النفع غاية مطلوبة لكل نفس، وإيهم هو قيمة النفع، وعمر النفع. فإذا كانت الحياة متؤدي لك نفعاً في أولادك أو أموالك، فادكر ما يقابل الأمانة من الأجر عند الله عز وجل، وضع هذه في كفة، وضع تلك في الكفة الأخرى، وانظر أي كفة ترجح، ولا بد أن ترجح كفة الأجر عند الله عز وجل.

ولذلك قال المتنبي :

أرى كسبا يغني الحسبة لنفسه

حريصاً عليها مسهماً بها صت

وحبُّ الجسدِ النفسَ أوردته انتفى

وحبُّ الشجاعِ النفسَ أوردته الحرب

فكك نوح الحياة؛ الحبان الخائف من الحرب يحب الحياة، والشجاع الذي يحب نفسه ويعلم قيمتها عند حائلها يخوض الحرب رغبة في حياة الاستشهاده، وهي حياة عند الله إلى أن تقوم الساعة، ثم تملوها حياة الجنة حيث يحلده فيها أبداً.

إذن فالمعيار الذي نقيس به النفع هو محل الاختلاف.

وفي عرف البشر يجد أن الأجر يساوي قيمة العمل، لكن الأجر عند الله لا يساوي العمل فقط، بل هو عظيم بطلاقة قسرة الحق سبحانه وتعالى، ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٥١﴾

ويستهل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بثناء الإيمان، ثم يصح شرطاً هو : « إن تتقوا الله »، ويكون جواب الشرط أن يجعل لنا فرقاً، ويكفر عن السيئات، ويغفر لنا وسيجده هو الكريم وصاحب الفضل العظيم.

والمراد بالتقوى هنا أن تكون التزاماً بالأحكام ، وقمة الالتزام بالأحكام هي الإيمان بالله عز وجل ، ودا وجد الأئمة ، الإيمان بالله والالتزام بالأحكام ، لا بد أن يتحقق وعد الله الممثل في قوله تعالى :

﴿ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ ذُو الْعَرْشِ الْعَظِيمُ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنعام)

والفرقان من مادة « فرق » الفاء والراء والقاف ، وتأتي دائماً لفصل بين شيئين ، مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فكن كل فرق كالطود العظيم وسبحانه و تعالى يقول

﴿ وَهَذَا فُرْقَانُ الْبَحْرِ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة البقرة)

أي برع الله سبحانه الاتصال بين متصليين فصار بينهما فرق كبير .

واقترض على سبيل المثال - أنك أحضررت ثوباً من قماس متساو في النسيج واللون ، ثم شغقت من الثوب جزءاً منه ؛ هنا لا يقال إنك فرقته بين القطعتين ، بل فصلت بينهما ، لكن لا يقال فرق إلا إذا كان الفصل يؤدي إلى فرقتين ، فرقة هه ، وفرقة ههك وهذه لها أشباه ومتعلقات ، وتلك لها أشياء ومتعلقات .

إذن فافرق ليس هو الفصل بين متلاحمين فقط ، بل هو فصل يؤدي إلى أن يكون لكل فرقة منهج ، ومذهب ، ورأي .

و « يجعل لكم فرقانا » أي يفصل بين شيئين لم يكن يوجد بينهما اتفاق ؛ لأنه لو كان بينهما اتفاق لصارا فرقة واحدة ، لكن لأيهما مختلفان لذلك لا بد من وجود تناقض بينهما . وهذا يقول الحق تبارك وتعالى : إنه يجعل لكم فرقاناً ، مثال ذلك ، هناك من يهتدى ، وهناك من يصل وبطبيعة الحال يوجد فرق بين اهتدى وبين الضلال . فالحق شرح صدر المهتدى للإسلام ، وجعل صدر

«يُحَرِّجُهُ فِيهِ غُلٌّ وَحَقْدٌ وَحَسَدٌ وَمَكْرٌ، وَخَدِيْعَةٌ؛ لِدَلِّكَ يَنْصُلُ رَبَّهُ
بَيْنَ مَنْ يَفْقَهُ صَمَاتِيَّةَ الْإِيْمَانِ وَيَبِينُ مَنْ يَمْتَلِئُ صَدْرُهُ بِالصَّغْبَةِ، فَالْمُؤْمِنُ مِنْ فِرْقَةٍ
تَخْتَلِفُ عَنْ فِرْقَةِ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْحَقُودَةِ
وَحِينَ يَقُولُ الْحَقُّ مَسْحَاتِهِ، تَعَالَى .

﴿يَجْمَلُ لَكَ مَرَّةً نَا﴾

(من لآية ٢٩ سورة الأعراف)

أى أنه سبحانه وتعالى يفصل بينكم أو يفصل بين عموم الحق وعموم
الباطل؛ لأنه يريد أن تكون حركة الحياة وحدة متكاملة منسجمة، لا يسردف
هوى جماعة ضد جماعة بها هوى آخر؛ لأنهم كلهم خلقاء لله في الأرض،
وكلهم مخلوقون لله، وكنهم بمصعوب بخيرات الله؛ لذلك يجب أن يكون
حركاتهم متسادة ومتناسقة غير متعائدة.

والنصرق كما يعلم إلهنا ينشأ عن اشتباك بين فريقين اثنين، واحد منهما
يمثل فريق الهدى، والثاني هو من حى عليه عذاب الله،

﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾

(من لآية ٢٩ سورة الأعراف)

ويتمثل الفرقان في هدى القلب، والصيرة والعلم؛ وأى شىء يفصل بين
الحق والباطل، وأحوال الإنسان كما يعلم - قسما - أحوال الدب،
وأحوال الآخرة، وأحوال الدنيا فيها أمور قلبية مستشرة، وفيها أمور صاهرة،
وإن نظروا إلى حالات الدنيا نجد منها الظاهر وهو الحركة المحسنة، ومنها التمسى
الذى لا يعرفه من بعد الله إلا صاحب القلب، والفرقان فى أحوال الدنيا القلبية
تلمسه حين تجد من اهتدى، ومن ضل؛ ويجد أن المهتدى قد شرح رباه صوره
للإسلام، ويجد أن الضال هو من لم يشرح الله صدره للإسلام والمهتدى يعيش
ضمن الفريق الذى لا عل فيه ولا حقد، والضال هو من يعيش فى فريق تصف

بالعمل واحقده، هبا في الأمور القلبية. أما في الأعمار لظاهرة، فاحق يجعل
الفرقان بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ بالصبر، والعلة، والعدة.
ومادا عن الفرقان في الآخرة ؟.

إن الحق يجعل الفرقان في الآخرة بحيث يكون لأهل الإيمان النعيم المقيم
والثواب العظيم، ويحس لأهل الكفر لعذاب الشديدا والمقت الكبير.

﴿إِنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنعام)

وإذا كنا سنتقى الله فهل سيكون لنا سيئات ؟.

وأقول : إن أردت بقوله : « إِنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ » ، بما أنه ، فسبحانه يكفر عنكم
سيئاتكم ؛ صغائرها وكبائرها ، ولا يصير مع الإيمان معصية ، بل تدخل في عفو
الله وغفرانه

وإن أردت بالتقوى « التزام أمر » فكثير السيئات يعني أن تتقى الله بترك
الكبائر فكفر عما السيئات وهي الصغائر. ولتكفير على نوعين ؛ أولا أن يسرها
عليك في الدنيا ، أو يذهب عنك عقوبة الآخرة ، ولذلك يقول سبحانه في حتام
جميل للآية :

﴿وَيَكْفِرُ نَحْرُكَ وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ الْعَظِيمُ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنعام)

وحيث يوصف الفضل بأنه عظيم ، فمعنى ذلك أن هناك فصلاً أهل من
عظيم ، كما أن هناك فصلاً يعلوه تميزاً نعم ، ونعلم أن التفاضل موجود عند
البشر ؛ هذا يتفضل على هذا بطعام ، أو يتفضل عليه بمكسب ، أو يتفضل عليه

بشراب، أو يتفضل عليه بمسكن، أي أن هناك أنواعاً متعددة من الفصل، لكنّها لا توصف بالعظمة؛ لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط لأنه سيؤول إليه كل فصل من دونه، فمن أعطى أحرار عفيف حيز فلنعلم أن وراءه من أحضر الخبز من الحبز، ووراءه من جاء بالدقيق من المطحن، ووراءه من زرع وحصد.

إذن كل فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله عز وجل، وهذا هو الفصل العظيم. وأيضاً نجد أن الذي يتمصل على واحد لا بد أنه يبغي من وراء هذا افضل شيئاً، مثل كمال الذات، وأنه يود الحمد والثناء، ويبغى راحة نفس إنسانية، ونرى أناساً يؤدون الفصل لغيرهم ليعملوا من ألامهم، لا لأنهم يطلقون مسيح الله، بل يرغبون في مجرد راحة لنفس، مثل الكفار الذين يصنعون أشياء تفيد الناس، فهم يفعلونها وليس في بالهم الله، بل في بالهم راحة النفس واستجماعها

إذن فالذي يتفضل إنما يريد شيئاً، إما كمال مال أو ثناء وإطراء، وراحة نفس من مآظر الإيلام التي يراها، وهذا دليل على أنه يماس من نقص ما ويريد أن يكمله. وهذا كان الله عز وجل هو صاحب الفضل، الله نقص في كماله إلا. إذن هذا هو الفصل العظيم ويحبه لعباده تمضياً منه دون رغبة في كمال أو ثناء، وأيضاً فكل فضل من دون الله يضمن المرء، لكن فضل الله تعالى ليس فيه من وليس فيه دنة لأحد، وقد يستكف إنسان أن يأخذ شيئاً من إنسان آخر. لكن من الذي يستكف على فضل الله؟ لا أحد لأنّ الحياة كلها هبة منه، ولذلك يضرب المثل بالقضاء التي قالت لمن بن زائدة :

فَعُدُّ إِنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَاد

وملئى بابن أروى أن يعود

وكانت العشة تطالب اس زائدة أن يعود إلى التفصل عليهم ، فبهرها أبوها ،
فقال له : يا أبى إن الملوك لا يُستحي من اطلب منهم .

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الانعام)

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن تشبه إلى أن كل مظهر من مظاهر وجودك في
الحياة ومظاهر استيقاظ حياتك ، ومظاهر نعيمك كلها ، إن نسبتها فستصل إلى
الله ، فإن كنت تشتري - على سبيل المثال - أثاثاً بينك ، واخترت خشب الورد
ليكون هو الخشب الذى يصنع لك منه اشجار هذا الأثاث ، فأنت تأتى بهذا
الخشب من أندونيسيا أو باكستان مثلاً ، لأن الغابات هناك تنتج مثل هذا النوع
من الخشب ، وكل شيء فى حياتك إن سلسلته مستحد أن أهدى المخلوقات من
البشر تنتهى عند خلق لله وهه للإنسان ، وهذا هو الفصل العظيم من الله تبارك
وتعالى .

وبعد أن أوضح الحق سبحانه وتعالى بهذا التوجيه : لا تخوبوا الله ، ولا
تخوبوا الرسول ، ولا تخوبوا أماناتكم ، من أجل أولادكم أو أزواجكم ،
واعلموا أن مرد كل الفضل إلى الله تعالى ، واذكروا رافع الديب معكم ،
أصدقت هذه المسائل أم لم تصدق ؟ لقد صدقت كلها ، كما قال الحق سبحانه
وتعالى من قبل .

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُتَعَمِّرُونَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنبَأَكُمْ أَن يَمْطُرَكُم مِّنْ أَنسٍ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الانعام)

وكان هذا القول بالنسبة للمسلمين ، فجاذا من الرسول صلى الله عليه
وسلم ؟ . هنا يقول المولى سبحانه .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ
أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَكِيدِينَ﴾

ونلاحظ أنه سبحانه وتعالى لم يأت بمادة تذكر في جانب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقل له : واذكر إذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ؛ لكبه في جانب الصحابة جاء بمادة الذكر حيث قال : واذكروا إذ أنتم قليل ، فما السبب ؟

ذلك لأنه لا يطرأ على البال أن يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكر الله تعالى ؛ لأن الذكر هو مهمته عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه وتعالى القائل

﴿فَذِكْرٌ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾

(سورة الفاشية)

هذا الذكر والتذكير هما وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويختلف هذا عن مهمة الإيمان في حياة المؤمنين ؛ لأن الإيمان بالنسبة لهم إنما ليعدل من حياتهم . لذلك جاء هنا بالظرف فقط .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيدِينَ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا كله شرط وحيثية لقوته تعالى . ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾

والمكر هو التثبيت بشيء حفى يصير بالقصم . والذي يَمْكُرُ ويبيت شيئاً خفياً بالنسبة لعدوه ، لا يملك قدرة على المواجهة ، فيبيت من ورائه ، ولو كان عبده

قدرة على المواجهة فمن يكثر بذلك لا يمارس المكر إلا لضعيف ومحدوم
سبحانه وتعالى يقول

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

(من الآية ٧٦ سورة السجدة)

ثم تحذره سبحانه وتعالى بقول

﴿إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ومادم كيدهم عظيمًا فضعفهم أعظم . ولذلك يجد الشاعر العربي يقول

وهزيمة فإذا أصابت فرصة

قُتلت كذلك فُدرة الضعفاء

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استعملها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة
ثانية ، لذلك يدفع إلى قتل خصمه . أما القوي فهو يثق في نفسه وقدراته
ولذلك يعطي خصمه فرصة ثانية وثالثة ، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء
إليه

﴿رَأَى يَمُكِّرُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُشْتَرِكُ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِمُونَ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

أي يدبرون المكيد والتبذير بك يا مكر ، لكنهم لا يعلمون أن من أرسلك
يا رسول الله لا تخفى عليه خافية ، فقد بقدرتون على المكر لمن هم في مثلهم من
القدرة ، لكلك يا رسول الله محاهد بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته
فلأنت في حفظه ورعايته

إِذْ فَتِسْتَ رَحْدَكَ لِأَنْتَ تَأْوِي إِلَى اللَّهِ ، وَيَكْشِفُ اللَّهُ لَكَ كُلَّ مَكْرِهِمْ ،
وَهَذَا الْمَكْرُ وَتَسَبَّ مَكْشُوفٌ ، مَفْصُوحٌ مِنَ اللَّهِ ؛ بَذَلْتُ يَقُولُ لَكَ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى .

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرُورِينَ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنعام)

وَالْمَكْرُ مَبْهُمٌ لَهُ وَسَائِلُ وَعَايَاتُ ، هُمْ يَمْكُرُونَ لِيُثْبِتُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ لِيُقْنَعُوكَ ،
وَيَمْكُرُونَ لِيُخْرِجُوكَ . وَكُلُّ لَقْظَةٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ لَهُ سَبَبٌ فَحِينَ عِنْدَ كَعْبَرِ قَرِيشٍ
أَنْ أَهْلَ امْتِدَادٍ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ قَدْ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَلَى أَنْ يَنْصَرُوهُ ؛ هَذَا قَرَحٌ كَعْبَرِ قَرِيشٍ وَأَرَادُوا أَنْ يَصْعُقُوا حَمْلًا لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ،
فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ يَرِيدُونَ أَنْ يَحْدُو حَلًّا يُوقِفُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَعْرَابِي فَوَجَدَهُمْ يَتَشَوَّزُونَ ، وَفَدَلُوا لَثَمَةَ ،
وَالثَّمِيتُ خُذْ الْحَرَكَةَ ، وَقَوْلُهُ «لَيْثَمَتُكَ» أَيْ لِيُقَيِّدُوا حَرَكَتَهُ فِي الدَّعْوَةِ ؛ لِأَنَّ
هَذِهِ الدَّعْوَةَ تَرْتَلُّ لَهُمْ وَلَوْلَا الرِّسَالَةُ ، لَفُظُّوا عَلَى اسْتِزْجَارٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
فَعَدَّ كَتَّ فِي بَطْنِهِمْ انْصَادِقُ وَالْأَمْسُ ، وَلَمْ يَرَوْهُمْ إِلَّا التَّحَرُّكَ الْأَحْبَرَ لِإِشَاعَةِ
مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ ، لِذَلِكَ أَرَادُوا أَنْ يُقَيِّدُوا حَرَكَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ

وَالْتَقْيِدُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بَأْنُ تَمَتُّعِ الْمُتَحَرِّكِ عَنِ الْحَرَكَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يُقَيِّدَ لِمَنْتَحَرِّكِ
نَفْسَهُ فَتَحْدُدَ مَجَالَ حَرَكَتِهِ إِذْ فَالْتَّمِيتُ يَكُونُ بِالْقَيْدِ أَوْ السَّجْنِ ، وَقِيلَ لَهُمْ
إِنْ هَذَا أَيْ عَمْرٍ صَانِبٌ لَكُمْ بَوَقْدَتِهِمْ أَوْ مَحْتَمُوهُ فَبِوَقْدَتِهِمْ قَوْمُهُ
وَيُغَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يَحْتَدُونَ لِيُفَكُّوا عَنْهُ الْقَيْدَ أَوْ السَّجْنَ ، وَقَدْ سَبَقَ لَكُمْ
حَاصِرُ قَوْمِهِ فَمَنْ تَعَدَّوْا ، وَقَالَ آخَرُ . خَرَجَهُ مِنْ بِلَادِهِ ، وَبَايَعُوا هَذَا الْأَمْرَ
عَلِمَ يَجِدُوهُ صَوَابًا ، وَقَالُوا : إِنْ هَذَا حَرَجٌ ، فَلَسَوْفَ يُوَثِّرُ فَيَمْنُ يَخْرِجُ إِلَيْهِمْ
تَأْثَرَ أَيْ يَجْعَلُ لَهُ مِنْهُمْ أَتْبَعًا ، يَأْتُونَ إِلَيْنَا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لِيَتَأْتِيَهُمْ ، وَأَشَارَ الْأَعْرَابِيُّ
بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَكِنَّ كَبِيرَ قَرِيشٍ قَالُوا : نَحَافُ مِنْ

قومه أن يأخذوا بنارهم ، فاقترح أبو جهل قائلا : نأخذ من كل قبيلة من قبائلنا
مَن جلدًا قويًا ، وبعد ذلك يذهبون إلى محمد وهو في فراشه ويضربونه ضربة
رجل واحد ، فإذا مات ففرق دمه في القبائل . ولن تستطيع قبيلة محمد أن
تواجه القبائل كلها . فيرضون بالدية ، وتدفعها لهم وينتهي هذا الأمر .

هكذا ناقش القوم تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقييد حركته أو
إخراجه من بلده أو قتله ، وكل هذا بمكر وتبصير . وكشف الله لرسوله كل
ذلك وأخرجهم من مكة مهاجرين إلى المدينة ليوضح لهم أنه سبحانه خير لماكرين
حقاً وصدقاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا
لَوْ شَاءَ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِن هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢﴾

وقول الحق " إيتنا " يعني آيات القرآن ؛ لاسأ عرفنا من قبل أن الآيات إما
أن تكون ، آيات الكونية التي تلفت إلى وجود المكون الأعلى مثل الليل والنهار
والشمس والقمر ، وإما أن تكون الآيات بمعنى المعجزات .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَا آخِذِينَهَا ﴾

(من الآية ٢٠٣ سورة الاحزاب)

وهذه الآيات المعجزة علامة على أنه صادق أو الآيات التي هي فسط من
القرآن وهو المنهج

وهنا يقول الحق نبارك وتعالى :

﴿وَإِنَّا نُنزِّلُ هَبِيمٌ ءَايَاتٍ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنعام)

وبفهم من البلاوة أن المتصود هو آيات القرآن الكريم . فماذا قالوا ؟

﴿عَاوُوا قَدْ سَمِعَ نَوْنَاءَ نَسَاءَ مِثْلَ هَذَا﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنعام)

وقولهم : « لو نشاء » هذا يدل على أنهم لم يقرؤوا : لأن « لو » حرف امتناع لامتناع ، مثلما تقول : لو جئتني لأكرمك ، فامتنع الإكرام منى لامتناع المجيء منك ، فهذا يعنى امتنع لامتناع ، ومثلما يقول قائل : لو عندي مال لا اشتريت نصراً ، ولأنه لا يملك مالا ، فهو لم يشتتر القصر إذن هم لم يشاءوا ولم يصولوا لذلك كان كلامهم محرداً نهوياً ، وتهديد لا محل له فلم يحصل منهم هذا ولا ذاك

إذن ثبت الإعجاز لقد ثبت لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منهم أولاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين قالوا : إن القرآن كثير ولا يقدر أن يأتوا بمثله ، محذاهم بأن يأتوا بعشر سور ، وحين مثلوا ، محذاهم بأن يأتوا بسورة ، فلم يأتوا ، وكان هذا تدرجاً في الإعجاز .

لقد محذاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنى التحدى حفز المتحدى أن يُجند كل ما يقوى عليه ليرد التحدى . فحين لم تجمع لهم المواهب التي تكفل قبول انسحدي انسحبوا : لكن واحداً منهم اسمه « البصر بن الحارث » ذهب لعارس ، ورأى كتاباً هناك يضم أساطير وحكايات ، وجاء ليقول وسط فريش . هاأنذا أقول مثل محمد . لكن كلامه لم يكن به هدف ولا يحسن صيحاً ولا توجد لكل كلمة فيه قدرة جذب معنى ، ولم يوجد في قوله أى معنى جاذب للكلمة ، لذلك انصرف عنه القوم .

﴿ وَإِذَا نَحَىٰ عَنْهُمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ جِئْنَاكُمْ بِشَاءٍ لَّغَيَّا مِثْلَ هَذَا إِن هَذَا إِلَّا أَصْطِيرٌ
الْأُولَئِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهذا قولهم ، وسبق أن اشرعوا بأنه قرآن ، وسبق لهم أن قالوا الرسول الله
صلى الله عليه وسلم

﴿ وَقَالُوا إِن نُّؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ تَمُجَّرَ مِنَ الْأَرْضِ يُسْجَعُ ۖ أَوْ تُكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ
نَّحِيلٍ وَرَعِبَ فَتُجَرَّ الْأَنْهَارُ حِلَاقًا تَجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقَطُ السَّمَاءُ كَمَا زُفَّتْ
عَلَيْكَ كَمَا أَوْثَانُ بَاقِهٖ وَأَنْصَبَكَ قَبِيلًا ۖ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ رُّحْرَفٍ
أَوْ تَرْقَىٰ فِي أَسْمَاءٍ وَلَمْ نُؤَمِّرْكُكَ حَتَّىٰ تُرَىٰ عَيْنٌ كُنْتُمْ تَقْرَوْنَ قُلْ سُبْحَانَ
رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَ سَوَآءٍ ۖ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين نقرأ هذه الآيات الكريمة ونقوم بتعداد ما طلبوا منه ، نجد أنهم طلبوا
تمجير الأرض يسوع ماء ، وطلبوا أن تكون له جنة من نحيل وعب فتججر
الأنهار حلالها بصحيرا ، وطلبوا أن يسقط السماء كما زعم عليهم كنسما ،
وطلبوا أن يأتي بالله والملائكة قبيلة ، وطلبوا أن يكون له بيت من رحراف ،
وطلبوا أن يرقى في السماء ، وكل هذا كلام طويل أثبت القرآن الكريم ، فهل ما
قلوه يعد قرآن ؟ لا ، ولتلفت إلى دقة أداء القرآن ، فلم يقل كل هذه الطلبات
بإساذ واحد ، بل قال كل منهم طلباً ، وبأسلوب مختلف ، ولكن بلاعة القرآن
الكريم جمعت كل الأماليق فأدتها بتوصيغ دقيق وبإعجاز رائع ، ولذلك لنا أن
تلفت ألسنة ساعة نسمع بقلا لكلام العير من القرآن ، فعليه ألا يأخذه على أن
هذا الكلام الذي قيل هو معاد فيلت ، وجاء انقرا القرآن الكريم بها بأسلوب الله

وأصرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إذا جئت لابنك وقلت له : يا بني اذهب إلى عمك فلان وقل له إن أبي يدعوك عدداً مساءً لتناول العشاء معه ؛ لأن عمه ضيقاً ويحرص على أن يشاهدهم ويشاهدوك وتقوى من مكاتته وحين ذهب الولد بعمه ، هل قال له نفس لكلام ؟ طبع لا ؛ لأن الأب قد يكون متعلماً ، ولا يستطيع إلا أن يقرب ذات الكرم أو قد يكون - أب أمّا ، والامم متعلماً أصبح فينقل الابن رسالة أكثر بلاغة .

إذن فأت إذا سمعت أو قرأت كلاماً من غير الله على لسان أحد ، فعد أن هذا آفة الله لمطلوبات المتكلم .

﴿وَدَا سَمْنٌ عَلَيْهِمْ ، يَنْفَقُونَ قُلُوبُهُمْ قَدْ سَمِعَتْ نَوْفًا لَقَدْ مِثْلَ هَذَا وَإِنَّا لَآسَاطِيرُ

الْأُولَئِينَ ﴿٣٢﴾

(سورة الأعراف)

والأساطير جمع أسطورة ، أى الحوادث والأحداث الخرافية مثل ألف لله وليلة ، وكليلة ودمية ، والإلياذة وغيرهما من كتب الأساطير

ويقرن الحرسارك ومعالي بعد دلف .

﴿وَذُقُوا لَوْلَا اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ

مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ

أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾

و «إد» تاتى للضرب أيضاً ، ولم يقل سبحانه ومعلى ، وذكر أن قالوا ، بل قال «دقانو» وقد بلغ بهم العجز إلى أن قالوا : كان هذا نقران هو الحق لعدم من عندك فأمطر علينا حجارة ، أو تبا بعذاب اليم

أليس هذا لكلام دليلاً على عناء قذليته ؟ ماله لو كان عندهم عقل ومنطق
ومعكير ، أكانوا يقولون ذلك ؟

ألم يكن من المناسب أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا
إليه ، أو فاجعلنا نقبله ؟ وماذا موقد قتلوا « اللهم » فلما نادى هو الله .

﴿ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

ذن هم يعمنون أن لله عز وجل عذبة ، وبها حق ، وهكذا نرى أنهم
اعترفوا بوجود الله ، وأن عند الإله حقاً فكيف إن جاء ناس وقال لكم إيسى
رسول من عند الله ، وهذا هو المنهج ، وهو منهج ومعجزة في وقت واحد ،
ألم يكن من الواجب أن تستشرف أذانكم إلى من يطلع عن الله هذا الحق وأن
تستجيو له ؟ نكن ما داموا قد استمطروا على أنفسهم اللعنة والعذاب ، فهذا
دليل كراهيتهم لمحمد ، ومن أجل هذه الكراهية دعوا إليه أن يبرز عليهم
العذاب كما فعل بالأمم السابقة وطلبهم هذا للعذاب يدل على أنهم عموماً أن
من يكذب الرسل ويرفض المنهج إنما يتلقى العذاب من الله وهكذا ينبغي لنا أن
ما ينقصهم لإعلان الإيمان هو عدم قبولهم لرسول الله شخصياً ، ويسئل هذا
في قول الحق تبارك وتعالى في آية أخرى

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

(سورة الحرف)

إذن لو أن القرآن نزل على شخص آخر ، لآمنوا به . وفي هذا اعتراق بأن
القرآن معجزة ، ومنهج ، وقوله تعالى « وذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق
من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ورد على ناس

أبى جهل وهذا يدل على كثرة جهله وشدة تكذيبه وعدائه وعتوه هو ومن معه من المشركين المكذبين فعن أنس بن مالك : قد أبى جهل بن هشام « ألهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فترلت : « وما كان الله يبعذبهم وأنت فيهم وم كان لله معذبهم وهم يستغفرون » (١)

وهؤلاء العاندون قالوا أيضا :

﴿أَوْسُقِطِ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾

(من الآية ٩٢ سورة لإبراء)

وهذا دليل على التحبط فى الكلام ، وفقدان الرعى العقلى

﴿أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الانفال)

واحق سبحانه وتعالى قادر على أن يصيب بالعذاب قوماً يعينهم وقادر على نجاة المؤمنين ، وشاء الله سبحانه ألا ينزل العذاب ؛ لأن رؤية المتألم حتى ولو كان هدواً ، فيه إيلاام - لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا كُنَّا بِمُعْذِيبِهِمْ قَاسِمِينَ﴾
 ﴿كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٢)

لأن سنة الله مع خلقه المكذبين للرسول ، أنه سبحانه وتعالى قبل أن ينزل العذاب يخرج الرسول والمؤمنين به ، مشال ذلك أمره نوحاً عليه السلام بأن يصنع تسفينة ؛ يسحو من الطوفان. وكل رسول لم تستجب أمته أصابها شيء

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه

من هذا ، وعلى ذلك يحرج الرسول أولاً ، ثم ينزل الحق عذابه ، كما أنه يقول
سبحانه وتعالى من صبح فصل الدعاء الى الله بالاستغفار .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

وهم إن استغفروا ، الله فعلى ذلك أنهم آمنوا به ، ولكن الحق جاء بهذا القول
ليبدلهم على اسفد الذي يحبس الإنسان منهم من حريم الكفر ، وفي ذلك
رحمة منه سبحانه وتعالى ، وكأنه يحصهم على أن يسفروا حتى لا ينزل بهم
العذاب ، ويرسم لهم وسيلة العجاة .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنَّهُمْ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنعام)

ونسعى اعلام في " ليعذبهم " ، " لام جحود " ، بجحد أن يعذبهم الله وفيهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذن هو جحد الرسول فيما بينهم أمر أنه تقدير
خاص ، أن هم فالحق تبرك وتعالى يقرب بشأنهم

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنعام)

وهكذا يرى الحقائق الإيجابية ، فالنفس المؤمنة الصادقة حين يكون بها عدو ،
ثم تفل بالعدو مصيبة ، لا تأتي أبداً كسمة الشماعة على بال المؤمن ، هذا هو
الخلق الإيماني الذي قد يولده مطهر الضعف والهدية للمؤمن ، فيض الله على أن
يعدب قوماً ومنهم من يستعمر ، وكأنه بوضوح لنا هب عيب الحسب ، أي أن
يداري الحسب على المسىء ولذلك نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم في
صلح الحديبية صد عن ليل الحرام ، وهذا الصد تنسب في أنهم يعقدون معه
معاهدة هي صلح الحديبية ، وكان هناك من المؤمنين من يعارض هذه المعاهدة ،
ومهم من قال : فعلام بعضي اندية في ديسا ؟ والقائل لذلك هو عمر

اس الخطاب رضى الله عنه ، وفي النسخ وضع ، جاء على بن ابي طالب
ليكتب معاهدة ، وفي بدنها : هذا ما صالح عليه رسول الله " وعرض لغرض
عن معسكر انشروا قائلا : لو كنا مؤمنين بأنك رسول الله لما حاربناك ، بل
اكتب " هذا ما معاهد عنه محمد بن عبد الله " ، فسمع على بن ابي طالب ،
وبال لا اكسها الا رسول الله فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتبها
كما يقولون انتهى الموقف ، وسقط معجزة ، فظهر لعبي وهو مصطبه ،
فقول له

" اكتب فإن لك مني تعطيها وأنت مصطبه " ويحقق ذلك بعد جاء ابي ،
وحلفه ابي بكر ، وحلفه عمر ، وحلفه عثمان ، ثم تحيى خلافة لعبي
وحدث فيها ما حدث ويحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
" اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مصطبه " (١)

أى مستحقون منك موقفاً مثل هذا وسوف يقبله ، ولما جاء الخلاف بين معاوية
وحنوذه ، وبين على وحنوذه ، أرادوا أن يوقعوا معاهدة فباعا بينهم لسمعوا
الراعي من المسلمين ، فقال على كرم الله وجهه : هذا ما تعهد وتعقد عليه
أمير المؤمنين على بن ابي طالب ، فقال المقام من عن معاوية : لو كتب أمير
للمؤمنين أكت بحاربك ، فذكر على كرم الله وجهه ما قاله رسول الله صلى
الله عليه وسلم يوم صبح الحديبية : " اكتب فإن لك مني " إلخ "

ومعنى ذلك أن السياسة تقتضى ألا تتحمد كمن يكون في قاتل حدي ،
بل تقتضى السياسة كمن يعمل بها شأ من اللبنة وبعد النظر لنسهي الموقف
الصعبة ، لأن كل طرف لو أصر على موقفه ما فعت المعاهدة ، وكانت معاهدة
صبح الحديبية مظلونه ومناسه لبتسرح اسمون بعد الأمن من فرش
لندعوه إلى مهبج الله في الأرض ، وهذا ما حدث خلال السنوات العشر التي
بالت هذه المعاهدة ، وأشر الإسلام في ربيع خريسة العربية ، ومن بعد ها إلى
أفاق الأرض كلها.

إذن قولى الأمر عليه أن يمتك البصيرة التى لا تجعله حامداً ، لأنه لو محمد لأهى الخير المرجود فيه وفى قومه ، وهكذا أراد رسول الله أن يعلمنا عدم الحمود بصلح الحديبية على الرغم من أن بعض المسلمين ومنهم عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - قاسوا ، لا ، عظام يعطى النية فى دينا ؟ وبعضهم قالوا متسائلين ، بل دعائين : ألم تعدنا يا رسول الله أنك ستدخل البيت الحرام ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أقتل لكم هذا العام ؟ .

وبم ينه المسلمون حين سمعوا ذلك إلى أهمية أن يصح القرارات لسياسة لتأخذ طريقها إلى التنفيذ . وكادت الفرقة أن تحدث بين المسلمين ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زوجه أم سبعة مكرراً . وقال لها يا أم سبعة هلك المسلمون . أمرتهم فلم يمتثلوا .

وبرى موقف أم سبعة رضى الله عنها وهى الروحة الأمينة المشيرة لناصحة ، لقد قالت : يا رسول الله بهم مكرويون ، لقد جاءوا وهى بيتهم أن يذهبوا إلى البيت الحرام بعد طول فرقة واشتياق ، ثم حرموا من ذلك وهم يراى من اسيت ، ولكن قم يا رسول الله فاعمد إلى ما أمرك الله به ، ولا تقبل لهم شيئاً ، بل اذهب هديك ، وهم إذا رأوك فعلت قتلوا .

وبالفعل حرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب الهندي ، وبعض المسلمون مثله . وبجد سيدنا أما بكر - رضى الله عنه - يقول عن اخذيه . هى انتح فى الإسلام . وما كان فتح أعظم من فتح الحديبية ، ولكن اناس لم تتسع ظنونهم إلى السر من الله . والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بحجة عباده حتى تبلغ الأمور ما يراد لها .

وقد كان المخالمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم غيورين على دينهم ، على قدر علمهم لا علم الله . وشاء الحق ببارك وتعالى أن يبين لهم السبب

في أنه لم يجعل من الحديدية أرض قتال أو التحام ، فقال :

﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَآهَدُوا أَنْ يَبْلُغَ عَمَلُهُمْ
وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَ تَفْسَدُوا وَتُغْلَبُونَ فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ
مَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَى الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابَ الْيَوْمِ﴾

(سورة المتح)

بعم فقد كان هناك مؤمنون ومؤمنات يخفون بين الكفار ، فلم يكن في مكة
قبل الفتح حتى لمسلمين الذين يخفون إيمانهم ، وحتى للكفار ، بل كان
الناس يسكنون معاً ، فإذا ما قامت الحرب بين أهل مكة وبين الجيش القادم إلى
الحديسة ، لقتل المسلم أخاه المسلم الذي لم يعلن إسلامه ، ولو أمكن التفريق بين
المسلمين الذين لم يعلنوا إسلامهم وبين الكفار ، لعدب الله الكفار بأيدي
المؤمن عذاباً أليماً.

وهنا في هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد حواطرها عنها يقول الحق تبارك
وتعالى .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

ويعنى بذلك أن بعضهم هو الذي يستغفر فيجمع الله عز وجل العذاب عن
الكل ، مشيئة منع تعذيب الكافرين بصلح الحديدية ، لأن هناك مؤمنين مستغفرين
فيهم بينهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كُنُوا أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ
إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾

وهنا ننسأل . أى شيء يمنعهم من أن يعذبهم الله ؟ . إن تعديسهم هو
عبادة ؛ لأنهم فعلوا ما يستحقون عليه اتعذيب . لقد صدوا لرسول والمسلمين
عن زيارة المسجد الحرام ؛ لأنهم ظنوا أن لهم الولاية عليه . رغم أن منهم من
سمع خبر أبرهة الأشرم حين جاء بالأفيال ليهدم الكعبة . واستولى أبرهة الأشرم
على مائة من الإبل كانت لسيد قريش عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه
وسلم ، فذهب إليه عبد المطلب وقال له : تلك قد أصبت لى مائة بعير فأرجو
أن تردّها لى . فقال أبرهة لأشرم : حئت لأهدم بيتكم ، وبيت آبائكم ، ثم لا
تكلمنى فسه وتكلمنى فى مائة من الإبل أصبتها منك ؟ فقال عبد المطلب . أنا
رب هذه الإبل ، أما لبيت فله رب يحميه .

وهذه كلمة لا يقولها إلا واثق من أن لبيت الحرام رباً يحميه .

وحاءت طير أباييل ترمى أبرهة بحجارة من جهنم فجعلته هو وجريشه
كعصف ماكون .

إذن فكيف تصد قريش محمداً والمؤمنين معه عن البيت الحرام ، وهم بإقرار
سيدهم قديماً يعلمون أن لبيت رباً يحميه . فكيف تكون لكم على البيت
ولاية ؟ وكان عليهم أن يعلموا أن ولاية أمر بيت الله باختيار الله ولا تكون إلا
لمتقين ، ولم تكن قريش من المتقين

وحديث التعذيب إذن هي صدهم عن لمسجد الحرام وما كانوا أولياءه.

لماذا؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَفْهِنُوا الَّذِينَ يَخُوفُونَ إِلَهُكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَخُوفُونَ إِلَهُكُمْ هُمْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الاحقاف)

وإذا كان أكثرهم لا يعلم، فأقلهم يعلم اليقين حقيقة البيت الحرام، فقداسة هذا البيت التي تعظمها الأقلية ونسيتها الأكثرية من كفار قريش هو قول الحق تبارك وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي قِيَمًا مِّنَ الصَّلَاةِ فَاجْعَلْ أَفْجِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارُدَّهُمْ مِّنَ الْغَمْرِ﴾

(من الآية ٢٧ سورة إبراهيم)

لقد جعلهم الله عز وجل في هذا المكان ليقموا الصلاة ، لأنه سبحانه وتعالى يحب أن يعبد في الأرض ولو بواحد في هذا المكان ، وتصل عبادته دائمة ومهما علت فئة من البشر مثل قريش فهي بصدها عن البيت الحرام قد اتبعت أهواءهم ، وسبحانه يحقق ما يريد ، فهرم قريشا ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعادت بلعبة حرمتها وصارت مكانا للعبادة له بصفة مستمرة

وإننا نجد تشريعات الحق سبحانه في أوقات الصلاة ، فاصبح عند قوم هو ظهر عند قوم آخرين ، وظهر عند قوم هو صبح عند قوم آخرين ، والعصر عند قوم هو صبح أو ظهر أو مغرب أو عشاء عند أقوام آخرين ، وهكذا نجد كل إجراء النهار مشغولة بأوقات الانجاء إلى الله ، وهناك في كل لحظة من ينجه إلى بيت الله الحرام بصلاة ما في ميقاتها ، ولا تحلو بقعة في الأرض من قول : « الله أكبر » ، وعدم بناء البيت الحرام من أجل هذه الصلاة

لكن قريشا حولت الصلاة من خضوع وخشوع وعبادة لله تعالى ، واستحضر لعظمته وجلاله إلى ما يقول عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا
مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

حيث كانت صلاتهم مطهرا من مظاهر اللهو واللعب يؤدونها بالمكان،
والتصدية، والمكاء هو الصغير الذي يصفروته، والتصدية هي التصفيق،
وكانت صلواتهم هي صغير يسبب صدى للأذان، بالإضافة إلى التصفيق بإيقاع
معين، فكيف تكون الصلاة هكذا؟ وكيف يصدون عن البيت الحرام ولا
ولاية بهم عليه؛ لأن الذي يلي أمر البيت الحرام لابد أن يكون متقياً لله، لكن
هؤلاء لم يكونوا أهلاً للتقوى؛ لأنهم لم يقوموا بالصلاة المطلوبة للبيت الحرام
والتي يجب أن يذكر فيها الله ويعبد؛ لذلك كان التعذيب لمن أصر على ذلك
بعد أن نزل منهج الله الخاتم صلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴾

ويبين المولى في هذه الآية أن هؤلاء المشركين قد كفروا بالله وصرفوا المال
ليصدوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك الأمر بأدى
نسيجة، وكان الحق يفرى الكافر بأن يتمادى في الإنفاق ضد الإيمان، فيخسر
الكافر ماله ويتجرع آلام الحسرة؛ لأن الله يغلبه من بعد ذلك

وحين سمعوا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿فَسَبِّحُونَهَا لِمَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

لم ينتبهوا إلى أن الحق سبحانه يتحدث عن المستقبل ، وأنه مهيبا أمتع الكفار صد دين الله فليس يصلوا إلى أية نتيجة ، ومصداق الأحداث يؤكد أن كل ما يحيى به القرآن الكريم حق .

ولماذا لم ينتبهوا إلى ذلك ؟ ولم يدخروا أمر لهم ؟ وقد نصر الله دينه ؟

إذن هذا هو فعل من فقد البصيرة والذكاء . وحين يأتى القرآن الكريم بقول الله تعالى : « فسيفقونها » أى أن الإنفاق سيكون في المستقبل ، والاستقبال له مرحلتان : استقبال قريب ، واستقبال بعيد . فإن كان الاستقبال قريباً فهو يقول : « فسيفقونها » ، وأما إن كان بعيداً فيقول : فسوف ينفقونها مثلما قال القرآن أيضاً :

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَوْلَاهُمْ عَنِ قِبَلِهِمُ آتَىٰ كَانُوا عَلَيْهَا﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

وقد أعلمنا القرآن صلاة من رسول الله ، وحجراً من الصحابة بالخسر ، وأعلمهم القرآن الكريم أيضاً ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى التحذير الذى صار من بعد ذلك خبيراً يروى دليل افتقارهم لصعاء الفطرة . : لذلك عجز لهم الحسرة بعد أن أنفقوا المال ، وخسروه فلم يستفيدوا شيئاً ولم يحققوا مرادهم ولا أمالهم . ويتابع سبحانه وتعالى تذييل هذه الآية فيقول .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

وحينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الأمور التي تحدث للكفر من عذاب عظيم في جهنم ، فسبحانه لا يريد بهذا الحديث أن يجعل مأواهم النار ، لكنه يخوفهم ويرهبهم من الكفر ويدعوهم إلى الإيمان ، ويحضرهم على ألا يكونوا كافرين حتى لا يحشروا في جهنم

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

وهذه الآية لكريمة تكشف لك أن المعارك التي تنشأ بين الإسلام وأتباعه من جهة ، وبين خصوم الإسلام وأتباعهم من جهة أخرى : هذه المعارك إنما هي أمر مراد من الله تعالى : لأن النزلة التي تحدث ، حتى لم آمن ، إنما هي تصفية لعنصر الإيمان ، ومثال ذلك ما حدث في الإسراء ، حيث وجدنا من كان إيمانه ضعيفاً يتساءل : أمعنول أن يذهب محمد إلى بيت المقدس في ليلة ١٩ بينما نجد ثابت الإيمان مثل الصديق أبي بكر يقول : ' إن كان قد قتل فقد صدق . إن الثابت والقوي إيمانه يصدق ، أما من لم يشتد إيمانه فهو يكذب . وهكذا كانت أحداث الإسلام ، فقد جاءت كلها لتمييز الخبيث من الطيب ، وتجمع الخبيث بغضه إلى بعض ليصير ركائماً ثم يضعهم الله في النار .

لقد جاءت أحداث الإسلام لتسمح ببعض ، مثلاً تضع الحديد في النار لتستخرج منه الخبيث وتصير صافياً ، وهكذا جاء الإسلام لتصفو به قلوب المؤمنين ، ويقوى إيمانهم ، لأنهم يحملون رسالة الله تعالى إلى الأرض كلها ، بعد أن مروا بالتصفيات الكثيرة .

ومثل هذه التصفيات تحدث في المجال الرياضي ، فحملة الأثقال على سبيل المثال - يدخلون في مباريات أولية ، ومن يستطيع حمل الوزن الأثقل هو الذي يكون مؤهلاً لأن يدخل المباريات الدولية ، لينتج الأتوى .

﴿ يُمِيزُ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ نَجَسًا عَلَى بَعْضِ عِبْرَتِهِمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي سَهْمٍ أَوْ لَيْسَ لَهُمْ الْخَبِيرُونَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى أعطانا أمثلاً لأحداث تمير الخبيث من الطيب ، فالناس في الأحوال العادية الرتب لا تظهر معادن نفوسهم ؛ لأن الناس إذا كانوا أمينين لا يواجهون خطراً ، ادعوا لشجاعة والكرم والشهامة ، وادعوا الإيمان القوى المستعد لأي نصيحة في مسيل الله ، فإذا جاءت الأحداث فهي الاختبار الحقيقي لما في القلوب فقد يقول إنسان لصديقه : أبا ومالي لك . وإذا ما أصابت هذا الصديق كارثة ، يتهرب منه ، فما الذي يحدد - إذن - صدق الحديث عن النفس ؟ إنها الأحداث وهكذا أراد الله تعالى أن يميز الخبيث من الطيب فعركت المؤمنين الأحداث ، وزال الصلاء عن ذوي العقيدة الهشة ؛ ليكون الناس شهباء على أنفسهم ، ويبقى المؤمنون أصحاب صفاء القلب والعقيدة . وحين يميز الله الخبيث من الطيب ، فهو سبحانه وتعالى يريد تمير الطيب حتى لا يختلط بالخبيث . والخبيث إنما يكون على أكران مختلفة وأنواع متعددة ، فهذا خبيث في ناحية ، وذلك خبيث في ناحية أخرى ، وثالث خبيث في ناحية ثالثة ، وعصرهم في ناحية رابعة ، وخامسة إلى ما شاء الله ، ويجمع الله كل الخبيث فيرجمه في النار جميعاً

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ
مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ مَثَلُ
الْأَوَّلِينَ﴾

و " قل " أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وما دام قد وجد
أمر ، فلا بد من وجود المبلغ للأمر ، أى أن هناك مخاطباً ومخاطباً ، والمخاطب
هنا هو الله سبحانه ، والمخاطب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله
تعالى قال له : " قل " ، والبلاغ المطلوب منه إبلاغه للناس هو ما ينضمته قول
المولى سبحانه .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

أى إن انتهوا عن الكفر عصرت لهم دنوبهم التى ارتكبوها أيام كفرهم ،
وبلاحظ هنا اختلافاً فى أسلوب الكلام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين يخاطب الكافرين كان الذى يفرضه السياق أن يقول لهم : إن تنتهوا يغفر
لكم ، لأن الخطاب لابد أن يتسجم مع المخاطب ، وعادة عندما توجه الخطاب
لشخص تكون هناك " لام التوجيه " ، تقول : وجهت الخطاب لفلان ،
وتخاطبه بشكل مباشر ، ولكن الله يقول هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وكان سياق الكلام يقتضى القوب : إن تنتهوا يغفر لكم ، ولكن الله سبحانه
وتعالى عدل عن إن تنتهوا إلى " إن ينتهوا " ، والكلام مخاطب به الكفار ،
والكفار حاضرون فكيف يخاطبهم بصيغة لعاب ؟

لقد أراد الله تعالى أن يأتى الخطاب ليعم كل متكلم يقل له هذا الكلام من أى مؤمن ، فكأنه قد عمم الخطاب ليقطع المعادير . ومثل ذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقُلْ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأحقاف ،

وإذا أخذت ذات المقياس لكان الكلام يقتضى أن يقال : لو كان خيراً ما سبقتهمونا إليه ، ولأن هذه العبارة قيلت من أكثر من كافر فى أماكن متعددة للمؤمنين ، وأراد الله سبحانه وتعالى : أن يلعننا لذلك ، بعمم الخطاب حتى يشمل جميع الحالات ولا ينطبق على حالة واحدة فقط ، بل ينطبق على كل حالة مماثلة ؛ لذلك كان سبحانه .

﴿ إِنْ يَنْهَوُا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وهذا يدلنا على أنهم إن انتهوا عن مقاومة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنادهم معه فهو سبحانه وتعالى يغفر لهم ، لأن العناد والمقاومة ناشتان عن الكفر ، فإن انتهوا عنهما ، صاروا مؤمنين . والإسلام يجزئ ما قبله .

ولذلك عندما أعلن محارب عن إيمانه وعتق الإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم دخل المعركة فاستشهد صار شهيداً ، لأنه قد غفر له بشهادة الإسلام كل ذنوبه التى حدثت منه أثناء الكفر ، وهى الذنوب التى تتعق بحقوق الله تعالى ، أما ما يتعلق بحقوق الناس ، فعلى ورثته أن يؤدوه عنه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ يَعْرُدُوا فَقَدْ بَصَّتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وقوله هـ : « وإن يعودوا » أراد به الله أن يعلمنا أن تحرى هذه الكلمة على اللسان ، فمن عادوا مرة أخرى إلى الكفر والعناد ، يطردها من رحمته الله ومغفرته ، إذن شرط الغفران لهم أن يسمروا في إيمانهم ولا يعودوا للكفر مرة أخرى ، وقوله تعالى : ﴿ فقدمت سنة الأولين ﴾ .

والسنة هي الطريقة أو الكيفية أو الحالة التي يكونون عليها ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَلِي تَهْدِيَنَا اللَّهُ تَبَرُّلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأحراب)

أي الطريقة التي احتارها الله لمعالجة الأمور بالحق والعدل ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ مضت سنة الأولين ﴾ :

أي الطريقة التي عرفتموها وعالج بها الله أمر رجل أمر من عاد الرسل ووقف منهم موقف المنازعة والمعارضة . ومثل ذلك حدث للكفار في بدر ، فكان من يقف أمام دعوة الله ومهجه لا بد أن يتعرض للهلاك كما حدث مع كل من قاوم الأنبياء ، فأنتم تعرفون ما صنعه الله بقوم هود وقوم عاد وقوم ثمود وقوم فرعون . ومر كل ذلك عليكم ، كسنة عامة تشمل كل من قاوم الأنبياء ووقف في طريق دعوتهم إلى الله .

والخطاب هـ إما أن يكون خطاباً لهم على حالهم في وطنهم وما حدث للمحالقين في بدر وقد رأوا مصارعهم ، وإما أن يكون الخطاب ميباً لسنة الله تعالى وقد شاءت منه سبحانه إبادة كل مخالف لسته .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الَّذِينَ كَفَرُوا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا بِمَا
يَعْمَلُونَ﴾

وهذا أمر من الله عز وجل بالقتال ، والقتال مفاعلة تحدث بين اثنين أو أكثر ،
أى اشتباك بين مقاتل ومقاتل . ولذلك عندما تسمع كلمة " قتال " يتبادر إلى
ذهلك وجود طرفين اثنين وليس طرفاً واحداً ، أو بين فريق وفريق آخر

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « وقاتلوهم » نفهم أن هذا أمر
للمؤمنين ليقاتلوا الكفار ، ولا بد أن يكون الكفار قد فعلوا شيئاً يستحق أن
يقاتلوا عليه ، أو أنهم يستتوون للمؤمنين القتال وعلى المؤمنين أن يواجهوهم
ويقاتلوهم . ولم يقل الله سبحانه وتعالى : قتلوهم بل قال : « قاتلوهم » ؛ أى
مواجهة فيها مفاعلة القتال . والتفاعل معنا أن الحدث لا يأتى من طرف واحد
بل لابد من مقابل معه . فأنت تقول . " قابلت " أى أنك قابلت شخصاً ، وهو
قابلك أيضاً ، وهذه مفاعلة . أو تقول ' شاركك ' أى أنك اشتركت أنت
وأخر فى عمل ما . وهنا قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

ومعنى ذلك أن هناك قتالاً يؤدي للقتال . وجاء القتال ليحسم الأمر ؛ لأن
ترك هؤلاء الكفار يمتدون على المسلمين ، ويأخذون أمورهم بالباطل ، فيرى
الناس المؤمنين أدلة مستضعفين ، والكفار حاليين أقوياء فتحدث فتنة فى الدين ،
أى يفتن أساس فى دينهم وهم يرون الذل دون أى محاولة أو تحرك لدفعه .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن تنتهي الفتنة . والعنتنة هي لاختبار . وكما قلنا :
إن الاختبار ليس مدموماً لذاته ، ولكنه يؤدّم بتييجنه . فإن رسل الطالب في
الاختبار تكون نتيجة الاختبار مدمومة . وإن لمجح تكون محمودة . ولقد كن
كفار قریش يفتنون الناس في دينهم بتمذيبهم تعذيباً شديداً حتى تخور نواهم
ويخضعوا لأحكامهم . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يضع نهاية لهذا الظلم .
بأذن بقتالهم ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما استوجب قتالهم .

ونجد قوله سبحانه وتعالى

﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

بينما نجد أنه قد ذكر في سورة البقرة بدون " كله " ، حيث يقول الحق سبحانه
وتعالى فيها . ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ لَهُ ﴾

دون أن تذكر كلمة " كله " ولكل آية لفظة ومعنى ؛ لأن كل لفظة في القرآن له
معنى ، فقوله تعالى : ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

يعنى أنه لا يجب أن يجتمع ديان في جزيرة العرب وقد حدث وأما قوله
تعالى : ﴿ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾

فقد أعطتنا لفظة أخرى ، فالأولى تحصر العرب والجزيرة العربية ، والثانية
تعنى أن الإسلام للعالم كله ، ويقول الحق سبحانه وتعالى في الآية انتى نحن
بصددها .

﴿ فَإِنْ أَشْتَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَشْتَوْا ﴾ أى استجابوا وأطاعوا ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى فليحذروا ، أن يتم هذا خداعاً لأن الله بصير بهم ،

ومطيع عليهم ، وما داموا قد انتقلوا من حظيرة الكفر إلى حظيرة الإيمان فإلله
يمحو سيئاتهم ويبدلها حسنات ؛ لأن قوما عاشوا على الكفر وألفوا حصاله ثم
تركوا ذلك إلى الإيمان فهذا أمر يصعب يحتاج إلى جهاد شديد مع النفس ،
فيثيبهم الله تعالى بقدر مجاهدتهم لأنفسهم ، ويشببهم آوى سبحانه وتعالى
بسحائه . وهناك معنى ثان في قوله تعالى .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

أى : فإنا من وقفتم موقف لعداء من الإيمان ، وتعرضتم للكافرين النعرص
الذى أعاد لهم التهديد وحسن التعامل مع المؤمنين ، اعلموا أنه سبحانه
وتعالى بصير بما عملتم ليكون الدين كله لله .

وهكذا نرى أن كلا من المعنيين يكمل الآخر .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ يَغْمُ الْمَوْلَى
وَيَغْمُ النَّصِيرُ ۝١٠١﴾

والله سبحانه وتعالى يرعب الدس حتى يؤمنوا ، ولكنه فى ذات لوقت يبين
لهم أن كثرة عدد المؤمنين ليست هى التى تعلى راية الإسلام وتصنع النصر
للإيمان ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾

وهنا شبهة فى أن الله تعالى يحسن هؤلاء على أن يؤمنوا ، وأن يسلموا ، وأن
يعودوا إلى حظيرة الحق ، وربما ظن ظان أن الإسلام يريد أن يقوى بهم ،
ولذلك قال الحق : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى إياكم أن يفت ذلك فى عضدكم ، أو أن
يقلل هذا الأمر من هممكم وشجاعتمكم ؛ لأنكم إنما تنصرون بمدد من الله

العلی القدير ، فهم إن سم یؤمنوا ، فاعلموا أن الإسلام لا یتصور بهم ، وإنشاره
 لیس بكثرة المسلمين أو قلتهم ؛ لأن النصر من عند الله ، وسبحانه لیس
 محتاجاً لحلقه ، وكثرة جنود الإسلام لا تصنع النصر ؛ لأن نصر الله للمسلمین
 إن اتبعوا منهجه یتحقق سواء قلوا أم كثروا . ولذلك یلفت نظرهم ویبہم إلى
 أنه إن تولى هؤلاء وسم یؤمنوا ، فلیاكن أن یؤثر ذلك علی شجاعتكم ؛ لأنكم
 لا تتصورون بمدد من هؤلاء الذين رفضوا الايمان ، ولكن بمدد من الله سبحانه
 وتعالى ، فالله هو مولاكم . وإذا كان الله مولى لكم ای ناصراً ومؤيداً فهو
 سبحانه وتعالى :

﴿ نَعَمْ أَنَسَؤُنَّ وَنَعَمْ أَنَصِيرُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأنفال)

لمادة ٩ .

لأن المولى إذا كان غیر الله فهو من الأغیر ، قد یكون اليوم قوياً قادراً علی
 أن يأخذ بيدنا ونصربا ، ولكنه قد یموت غداً ؛ لذلك فهو لا یصلح مولى .
 وقد یسقط عنه سلطانه وقوته ویصبح صعیفاً محتاجاً لمن ینصره فلا ینفع ولما
 ولا معیناً لأحد . والمولى الحق الذى یجب أن تسمسك به هو الذى لا تصیبه
 الأغیار لأنه دائم الوجود لا ینتهى بالموت وهو دائم القوة والقدرة لا یضعف
 أبداً ، هذا هو المولى الذى تصع فیه ثقتك وتوكل علیه . ولذلك یجد الحق
 سبحانه وتعالى یوضح لنا أنت یجب ألا تصع ثقتنا وأملنا إلا فیه وتوكلنا إلا علیه
 سبحانه وتعالى یقول :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَمِيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

أى إذا أردت فعلاً أن تتوكل ، فتوكل علی من هو موجود دائماً قوى دائماً ،

فتوكل على الله . وقوله تعالى : ﴿ نعم المولى ﴾ يؤكد أن الله قوى قادر دائم الوجود ، وقوله تعالى : ﴿ وتعم النصير ﴾ .

يؤكد أنه سبحانه وتعالى محيط بكل ما يدبره لك أعداؤك ، فلا يعيب عنه شيء . أنت تحاربهم بما تعرفه من الحيل وفنون القتال وهم يفعلون ذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حيلهم فيبطلها ، ويحقق لكم النصر بأن يهزمكم من الحيل ما لا يستطيعون مواجهته . ، يعطيكم مددا من السماء وهذا المدد هو الذي يحقق لكم النصر .

ويتحدث الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك عن العنائم يقول :

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَأَنْتُمْ السَّبِيلُ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا
عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾

ما سبب ذكر الغنمة هنا ؟ . وما المناسبة ؟ . ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن القتال . وبهية كل معركة يتصرف فيها المسلمون يكون فيها عنائم .

وهذه مناسبة الحديث عن العنائم ، وبما أن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن مدد للمؤمنين . وأنه ناصرهم ، وأنه نعم النصير ، ولكن العنائم لا تنجي إلا نتيجة للنصر ، فكان الله يريد من المؤمنين أن يتأكدوا أن النصر سيكون من نصيبهم ، بليل أن الحديث انتقل إلى العنائم . والغنمة هي كل منقول يأخذه المسلم المقاتل من الكافر . والثابت أن العنائم لم تكن تحمل لأحد من الأسياء قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق :

﴿وَأَعْطُوا نِصْفَ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ فِيَّ نِصْفَهُ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

إذن فلله الخمس وتبقى أربعة أخماس توزع على المقاتلين . والخمس الذي هو لله كيف تقسمه ؟

لقد ذكر اقرآن أسلوب توزيع هذا الخمس بطريقة اختلف فيها العلماء ؛
فلاية تقول :

﴿فَإِنَّ فِيَّ نِصْفَهُ وَلِلرُّسُولِ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

ثم تزيد :

﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالنَّكَاحِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وقد قال بعض العلماء تحسكاً بظاهر الآية الكريمة : إن خمس الغنائم يورع على من سماهم الله تعالى في كتابه العزيز وهم ستة : (الله ، الرسول ، ذو القربى ، اليتامى ، المساكين ، ابن السبيل) فتكون لأسهم ستة ، وجمهور العلماء على أن خمس الغنائم يقسم خمسة أسهم فيكون لله ولرسول سهم واحد لأنه لا يوجد فصل بين الله ورسوله ، والأسهم الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على الأنواع الأربعة (ذى القربى - اليتامى - المساكين - ابن السبيل) لكل نوع سهم سهم .

واختلفوا أيضاً فى معنى ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ هل هم القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم من ؟

ثم بعد ذلك جاء بصيب اليتامى والمساكين وبن السبيل فلم يحدث خلاف فيه - والخلاصة : أن الغنائم كلها تقسم خمسة أقسام خمسها لهؤلاء الخمسة وأربعة أخماسها الباقية للجيش المقاتل ؛ لأن الله تعالى بين حكم الخمس وسكت عن الباقي فدل ذلك على أنه للغنائم ثم يقول الحق :

﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة الأنعام)

وهم بطبيعة الحال مؤمنون بالله ، وكان هذا القول جاء ليراجعوا إيمانهم إذا عترضوا على هذا التخصيم ، فإن طمع أحد منهم في الخمس الذي هو لله ورسوله ولم يقنع بأربعة الأقسام المقدسة - كما قال الله تعالى - يكون قد خدش إيمانه بمن أصدر هذا الأمر ، وسعائه هو الذي أنزل هذا التخصيم ، فمر زاغ وتطلعت عنه إلى شيء فليرد هذا الزيف ؛ لأن الذي قسم هو لله الذي نصر المقاتلين وإذا كان النصر هو الذي جاء بالغنائم ، فالذي أعطى النصر هو الله سبحانه وتعالى ، والنصر سبب من الله ، وما يوهب للإنسان من الحق ، على العبد أن يقبل فيه قسمه الله .

ومثال ذلك ما أراده الله للإنسان المسلم من حسن التصرف في ماله ، فهو في حياته حر ويملك حق التصرف في هذا المال ، واحتراماً لمشاعرك الاجتماعية والإنسانية والعاطفية في البيئة التي تحبها فيها ، جعل الله لك الحق في الرخصة بأن تخصص ثلث مالك لم تريد ومن تريد ، فقد ترى أن هناك إنساناً من غير أقربائك وهو بطبيعة الحال لم يرثك ، وبكمه خدمك في حياتك أو في مرضك أو في شبحوحتك ، وأنت تريد أن تترك شيئاً من ثروتك له ، اعترافاً بجسميله ، أو لعل هناك أناساً من معارفك تعرف أنهم أحوج من أمثالك ، فتخصص لهم بعضاً من المال ، شرط ألا يتعدى الثلث ، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصع للمواطن الإيمانية الإنسانية في الناس معجلاً ،

فترك لث الحرية في أن تتصرف في ثلث المركة ثم قسم الله سبحانه لثنين على
الورثة

إذن يقول الحق تبارك وتعالى

﴿وَإِذَا كُنْتُمْ عَلَىٰ سُلُوكٍ وَنُحِيلُوا الْمَوْتُ عَنْكُمْ وَفُتِحَ الْحَدِيدُ غَلَاظًا﴾

(من الآية ١١ سورة الانفال)

أي أنه سبحانه قد جعل من الإيمان أن يتم توزيع العنايم بأشكل الذي حدده
الله عز وجل ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿وَمِمَّا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَنْ قَدْ أَخْرَجْنَا الْأَرْضَ عَنْهَا الْإِبْرَاهِيمَ﴾

(من الآية ١١ سورة الانفال)

والفرق هو شيء لدى يفرق بين الحق والباطل : عرفاً واصحاً بشدة
بحيث يكون ظاهراً للجميع وقد أطلق الله الفرق على الفراد الكريم في
سورة آل عمران فيقول تبارك وتعالى ،

﴿وَأَنْزَلَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِكَ وَأَخْرَجْنَا الْأَرْضَ عَنْهَا الْإِبْرَاهِيمَ﴾

(من الآية ٣، ٤ سورة آل عمران)

محيماً أنزل الله تعالى الأنبياء والإحليل جاءت المودة سمرق بين الحق
والباطل ، وأيضاً جاء الإحليل ليمرقي بين الحق والباطل ، وشاء الله سبحانه
وتعالى ألا تطلق كلمة " الفرق " إلا على القرآن الكريم ، لأن القرآن هو
الفرق النهائي الذي ليس يأتي مارق من بعده ، فليس يزل كتب سماوي آخر

﴿وَمِمَّا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عِبْدِنَا مِنْ قَبْلِكَ أَنْ قَدْ أَخْرَجْنَا الْأَرْضَ عَنْهَا الْإِبْرَاهِيمَ﴾

(من الآية ٤١ سورة الانفال)

الله سبحانه وتعالى يقصد بها يوم الفرقان يوم بدر الذي كان فرقاً بين حق
وباطل : عرفاً لاقتلاً للباطل ، وقد أخذت كلمة الفرقان المعنى العام وهو أن يفرق

بين الحق والباطل ، فالمسلمون كانوا قلة والكفار كانوا كثرة ، والمسلمون كانوا حارجين للاستيلاء على القافلة والعيير وسم يكن لديهم أى عدة أو عتاد للحرب ، بينما اسعد الكفار للحرب والقتال بالعدد والعتاد والفرسان ، وكان المسلمون يتمنون أن تكون قافلة عريش لهم ، وهى قافلة لا يحرسها إلا عدد قليل من الرجال ، لا شوكة لهم ، وأراد الحق تبارك وتعالى أن يراحمه المسلمون وهم قلة جيشا له شوكة أى له عدة وعتاد ، لأن المسلمون طمأن أن الاستيلاء على القافلة لن يستغرق منهم وقتا طويلا أو جهدا كبيرا ، فحراس القافلة عدد محدود وبلا سلاح قوى . لكن شاء الله عز وجل أن يحوص المؤمنين المعركة وهم قلة وأن ينصروا ، حتى يعلم الجميع أن هذه القلة المؤمنة انصرت بلا عدد ولا عدة على من يملكون العدد والعدة ، وبذلك يظهر الفرق بين الإيمان والكفر ، ومن نصر الله وريث الشيطان ، ولو استولى المسلمون على قافلة عريش لفضل إن أنه مجموعة من المسلحين كانت تستطيع أن تهلك هذه القافلة ، ولذلك سم يعطهم الله العير ، بل اسلاهم بأنهم وهو الجيش الخارج من مكة بقصد الحرب وهو مستعد لها ليلعت اسطر إلى هؤلاء المؤمنين الذين خرجوا بغير قصد الحرب وقد نصروا على الكفار الذين خرجوا للحرب واستعدوا لها . وكان المؤمنون ثلاثمائة وجيش الكفار ألفا ، فإذا جاء النصر ، تأكد الكل أن قوة المؤمنين قد رجحت ، وإذا تعجب أحد كيف ينصر هذا العدد القليل عير مسلح على هذا العدد الكثير والمسلح ، يمكن أن يرددوا قول الله تعالى :

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(من الآية ٢١ سورة لاثقان)

وهذه المشيئة الإلهية هى التى هبت الموارين .

وهى أول سورة البقرة يحكى الحق سبحانه وتعالى له قصة طائفتين وحالوت ، ويروى كيف طلب نوح إسرائيل من بني لهم أن يحدد السدء شخصاً

يكون ملكاً عليهم ، ليفردهم في معركة صد طاعية اسمه جالوت ؛ أخرجهم من ديارهم وشردهم ، فلم جاء الأمر بأن يكون طالوت هو الملك ، حادى هو إسرائيل في قيادته لهم.

﴿قَالُوا إِن يَكُنْ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾

(عبر الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانوا هم الذين طلبوا أن يكون لهم ملك، فمدحهم طالبوت باختيار الله
اعتمدوا عليه. ثم حرج طالبوت مع الذين اتبعوه وابتلاهم الله بهر وهم
عطاش، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَقَسِيٰٓءٌ مِّنِّي وَمَنِ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

(مس: الآية ٤٤٩ سورة النقرة)

وَتَلَاهُمَ اللَّهُ سَبْعَةً وَتَعَالَى بَانَ مَرُوا عَلَى نَهْرٍ وَهُمْ عَطَشٌ ، وَطَلِبُ مِنْهُم
أَلَا يَشْرُبُوا ، لَا أَنْ يَأْخُذَ كُلُّ مَنْهُمْ قَلِيلًا مِنَ الْمَاءِ فِي كَفِّ يَدِهِ لِيَرْطَبَ بِهِ فَمَنْه ، فَلَمَّا
وَصَلَوْا إِلَى النَّهْرِ ، انْدَفَعَتْ أَعْصِيَّتُهُمْ لِيَعْبُوا وَيَشْرَبُوا مَا شَاءَ لَهُمْ ، وَالْأَكْثِيَّةُ فَقَطْ
هِيَ الَّتِي امْتَنَعَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ تَشْرَبْ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ يَقْوَامُ طَائِفَاتُ
رَعِيمُوا لِلنَّهْرِ ، لَكِنَّهُمْ حِينَ رَأَوْا جَيْشَ الْأَعْدَاءِ ، قَالَتْ أَعْصِيَّتُهُمْ مَا جَاءَهُمْ
الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَحَكَاهُ لَهُ :

﴿فَلَمَّا جَاوَزْهُمُ رَأَىٰ مِنَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلٌ لَّهَا قُتُلُوا لَأَطَاقَهُنَّ آلَهُنَّ الْيَوْمَ بِجَآئِلَتٍ ۖ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

أى أنهم حافوا من مواجهة جيش جالوت ورفضوا القتال ، إلا الأقلية منهم . وهكذا حدثت لهم انتصافية مرتين بالاختيار والاثلاء ؛ لأولى بالصبر على العطش ، والثانية بمواجهة جيش العدو ، وهذه هى الأقلية الصافية التى رسخ اسماءها ، وعانوا ما جاء بالمرآن الكريم .

﴿ نَالِ الَّذِينَ يَخُفُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أن هذه الفئة المؤمنة التى بقيت ولتى تحشى حسب الله فى الآخرة لم تخضعهم قتلهم ولا كثرة جلود جالوت ، بل قابو . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وانتصروا بالفعل ، وكان هذا فرقاماً ظاهراً من الله عز وجل .

وها يقول الحق تبارك وتعالى

﴿ يَوْمَ الْمُرْفَقَيْنِ يَوْمَ انْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنعام)

أى يوم النقاء جمع المؤمنين وجمع الكفار ، وتحقيق نصر المؤمنين ، دعم قلة العدد واعتاد . ولذلك يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم

﴿ وَاللَّهُ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

أى أن الله عز وجل قادر على أن يصير المؤمنين وهم قلة وغير مستعدين للقتال

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك

﴿إِذْ أَسْمُ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى
وَالرَّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ
فِي الْمِيْعَادِ وَلَئِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا
لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبَحِيٍّ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ
وَأَنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٦﴾﴾

ساعة تسمع «إذ» تعرف أنها طرف، ومعناها . اذكر هذا الوقت، اذكر إذ
أسم بالعدوة الدنيا، والعدوة شاطئ الوادي وحانب . وهي جبل مرتفع ؛ لأن
الجمال إن كان يسها قضاء سمي هذا القضاء وادياً، فيكون الوادي هو القضاء
بين جبلين ، ويكون المكان لعالي الذي على يمين الوادي وعلى شماله عدوة .
وقوله تعالى :

﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنعام)

بوضيح وبيان الجغرافية المعركة ، وأهل الإسلام كانوا من ناحية المدينة ، وقوله
تعالى «ديب» تأنيث الأدمى أى الأقرب ، فالمسلمون كانوا قريبين من المدينة ،
وكان الكفار قدامين من مكة ، وبزوا في المكان الأبعد

وقوله تعالى

﴿لَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنعام)

أى فى مكان قريب، وموقع غروة بدر - كما نعلم - قريب من المدينة، أما كفر قريش فقد جاءوا من مكة وبذلك جاءوا من مكان بعيد عن المدينة لذلك سمى الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿بِإِعْدَادِ الْعَصَايِ﴾ أى فى المكان البعيد عن مكة، ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله . ﴿وَارْكَبْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾

والركب هو تعير أى احتمال اننى تحمل استجارة، وكان المسلمون قد خرجوا ليأحدوها. ولا عرف أبو سفيان بذلك غير سير القاهرة واتجه إلى ساحل البحر، ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن سلوك أبى سفيان حينما أمر أن تسير القوافل بجانب ساحل البحر. وساحل البحر - كما هو معلوم - يكون دائماً أسفل من أى أرض يابسة. ويُسَّحَد سطح البحر إلى الآن مقياساً للارتفاعات والانخفاضات بالنسبة للمقاييس البشرية، فمثال . هذا ارتفاعه مائة متر أو مائة متر أو أكثر أو أقل بالنسبة لمستوى سطح البحر. وساحل البحر بالنسبة لسطح البحر مساو، أما لأرض والجبال ولوديان فهى تختلف فى العلو والانخفاض فلا تصلح مقياساً للارتفاعات والانخفاضات، بينما سطح البحر مسطرق استطرافاً سليماً، بحيث لا توجد فى سطح الماء بقعة عالية وأخرى منخفضة.

وهكذا يلمتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن أسفل ما فى الأرض هو ساحل البحر وقد اتخذ الناس سطح البحر مقياساً للارتفاعات.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَوْ تَرَاءَيْتُمْ فِي الْبُعْدِ وَلَكِنْ لَيَقْمِيَنَّ اللَّهُ أَمْرًا كَان مَفْعُولًا﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنعام)

أى لو أن المؤمنين اتفقوا مع الكفار على موعد ومكان، لجاء بعضهم متأخراً عن الموعد أو منحرفاً عن المكان، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى حدد موعد المعركة ومكانها بدقة تامة تتم اللقاء فى الموعد والمكان المحددين ليتم الأمر كما قدره الله سبحانه وتعالى، والأمر هو معركة بدر، وليلقى المؤمنون الكافرين، لينتصروا عليهم.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الاحقاف)

وهل يعنى قول الحق ﴿ليهلك من هلك﴾ أن الهلاك هنا هو الموت ؟ لقد مات أيضاً بعض المؤمنين واستشهدوا. وقول الحق : ﴿ويحيى من حى﴾ وهل الحياة هنا تعنى مجرد البقاء على قيد الحياة ؟. فقد عاش أيضاً من الكفار كثير رغم أنهم خاضوا معركة بدر. إذن فليس معنى الهلاك هنا الموت، وليس معنى الحياة النجاة، ولكن قول الحق : ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ تعطينى على لكفار سواء الذين ماتوا أو الذين نجوا، لأن الهلاك هنا هلاك معنوى، فمن قتل من الكفار هلك ومن نجا هلك أيضاً، لأنه بقائه المؤمنين قد أورد نفسه مورد التهلكة بالعذاب الذى ينتظره فى الآخرة، إلا إذا أدركته رحمة الله وأمن قبل أن يأتى أجله. والذين حيوا هم المؤمنون، والمراد - إذن - ليكفر من كفر، ويؤمن من آمن عن يقين.

ولقد قلنا من قبل، إن الحق سبحانه وتعالى أطلق الحياة على معان متعددة، فهناك الحياة التى فيها الحركة والحس، وهذه تتحقق ساعة أن تدخل الروح الجسد ليكون للإنسان حياة، وهذه الحياة هى للمؤمن والكافر. ولكن الحياة بهذا الشكل؛ حياة منتهية إلى موت غير موقوت نستظره فى أى لحظة ولكن الحياة المطلوبة لله هى الحياة التى لا يأتى فيها موت، ولا يكون فيها تعب وشقاء، تلك هى الحياة الآخرة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَمِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المكيوت)

أى أنها الحياة الحقيقية . إذن فالذى يؤمن إيماناً حقيقياً يعطيه الله تعالى حياة الخلود فى الجنة . لذلك يستمع جميعاً الى قول الحق ببارك وتعالى .

﴿ اسْجُدُوا لِلَّهِ وَالرُّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النساء)

ومنا من يشاء . كيف يحاطب الله الناس وهم أحياء ويقول لهم إذا دعاكم لما يحييكم ؟ ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد لنا بالإيمان حياة حادثة فى الجنة . ثم نحتسب الحق سبحانه وتعالى الآبه الكريمه بقوله :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

ومعنى سميع وعليم أنه سبحانه وتعالى مدرك لكل الأشياء والخواطر ، وما بالسمع يسمعه ، وما بالعين يراه ، وما بهى لصدر يعلمه ، وما هو فى أى حس من أحاسيس الإنسان هو عليم به : لأنه أحاط بكل شيء علم

ووسائل الإدراك العمدى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، هذه هى اخوس الخمس التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكن يعلم شيئاً

وهو سبحانه وتعالى القاتل

﴿ رَأَى أَنَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْقِرُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ي أن هذه الخواص هي التي تعطي الإنسان ما لم يكن قد علمه ، وكما علم شيئاً ، فيقول الحمد لله .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى كيف يتم قدره فيقول :

﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوَ أَرَدْتَكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَتَسَلَتُمْ وَلَتَنَرَعُثُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٤١)

والحق سبحانه وتعالى إذا أراد معركة فاصله ، يجعل الخواطر هي كل قوم مهيجة على الحرب ، لأنه سبحانه وتعالى يريد للمعتين أن يشنكوا ، ويفصل الحق في المسألة ، وهذا الاشنك لو حدث بالمقبيس لعادية ربما حَسُنَتِ العثة لقليله عن أن تواحه الفسة الكثيرة وبكى تتم المعركة لأبد أن يكون كل من لفريقين المتحارين واثقا من النصر ، لأنه لو أيقن أحدهما أنه سيهزم لم يدخل إلى المعركة.

والله سبحانه وتعالى يعلم رسوله والمؤمنين كيف أعد الله الإعداد الثقى للمعركة ، فدرى النبي في الرؤيا أن عدد الكفار قليل بخنى يؤمن أن المؤمنين سيبصرون عندهم بسهولة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في مبه رؤيا توحي أن عدد الكفار قليل في أعين المؤمنين ، وأخر فومه بذلك ، ولقد قلن الله عدد الكفار هي أعين المؤمنين ، وقلن عدد المؤمنين في أعين الكفار ، ليتم اللقاء وتحدث المعركة.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ
 قَلِيلًا وَثَقَلْتُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
 كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

إذ رأى المؤمنون الكفار قليلاً، ورأى الكفار المؤمنين قليلاً، ولو كثرت الكفار في أعين المؤمنين، أو كثرت المؤمنين في أعين الكفار ما حدثت المعركة، ولكنه سبحانه وتعالى شاء أن يقلل كل فريق في نظر الآخر لبدء القتال، ويحكى سيدنا عبدالله بن مسعود:

لقد قتلت لجار لي أظهم سبعين، فقال: لا بل مائة.

وهكذا أكد عدد الكافرين قليلاً في نظر المؤمنين، وكان عدد المؤمنين بالمعنى قليلاً في عيون الكافرين.

وأيضاً شاء الحق سبحانه أن يجعل في ذلك ملاءمة من إشارات السيرة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد رأى النبي عدد الكافرين في المدام وهم قليل، وأحضر صلى الله عليه وسلم قومه بذلك، ودار المعركة الذي أراه الله تعالى.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

والأمر الخامس هو التقاء العتقين المتقاتلين في معركة بدر ليصلى الله بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر؛ حتى ترجع الأمور إلى الله، فلكل واحد من جود المعركة جراءة من عند الله سبحانه وتعالى، المؤمنون بهم حذراء على قدر نياتهم وإخلاصهم في الجهاد، والكافرون عليهم غضب من الله تعالى والعصب مازل، كل مره من العصب حسب أحوال صاحبه.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ يجد فيه كلمة «الأمور» وهي جمع أمر، وفي المعارك ألوان مختلفة من الأوامر؛ فلكل حندي أمر، وهناك أمر عام تنتهي إليه المعارك وهو انتصار طرف وانهزام طرف آخر. ولكي يتم النصر للمؤمنين فإن الله يطلب منهم أن يثبتوا في المعركة؛ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وساعة تسمع كلمة «فئة» فاعلم ان معناه جماعة اجتمعت بحوص المعارك في ميدان القتال، فليس مطلق جماعة، بل هي جماعة مترابطة من المقاتلين؛ لأن كل مقاتل يمس لغيره من زملائه، أي جماعة أخرى غير مترابطة تستطيع تفريقهم بصرخة أو عصا، أما المقاتلون فأبت لا تصرفهم إلا بقوة أكبر منهم، ويحاول كل منهم أن يحمي زميله، إذن فكل منهم يمس إلى الآخرين.

والحق تدرك بقول

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ فَلَبَّتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ آمَنُوا فِئَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

إذن فالفئة هي جماعة في الحرب.

وقوله تعالى

﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْنُوا﴾

(من الآية ٤٥ سورة الأنفال)

يُقصد به ساعة حدوث المعركة وشبوب القتال، لأن الحرب تقتضى أولاً إعداداً، ثم تحطيظاً يتم قبل الالتحام ثم دهاً إلى مكان المعركة . وقوله تعالى ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾ أى أن المسألة قد وصلت إلى المواجهة مع الكفار. ويقول الحق تبارك وتعالى ﴿فَانْتَبِهُوا﴾ والشتات هما معناه المواجهة الشجاعة، لأن الإنسان إذا ما كان ثباتاً فى القتال، فالعدو يتخشاها ويهابها، وإن لم يكن كذلك فسوف يضطر إلى الكوص، وهذا ما يُجرىء الكفار عليكم.

ومدتم قد جئتم إلى لقتال، فلا بد أن يشهد الأعداء شجاعتكم لأنكم إن فررتم بهذه شهادة ضعف صدكم.

ولذلك لابد من التدريب على الثبات والقتال، وهذه هى الإعداد المسبق للحرب؛ بالتدريب القوى والتحطيظ للذيق، وألا يتولى أحد منكم ويفر لحظة لرحف لأن هذا العمل هو من أكبر الكيانات، والحق سبحانه وتعالى يقول

﴿وَمَنْ يُؤْمِرْ يَوْمَئِذٍ دُرَّةً أَوْ لُجَّةً يَأْخُذْ بِالَّذِي أُؤْتِيَ مِنْهُ فِئَةً بِغَضَبٍ
مِّنَ اللَّهِ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

﴿يؤلمهم﴾ أى يعطيهم، و﴿درة﴾ أى طهر، وهذا تنبيه لعملية الفرار؛ لأن الدبر محل الصيانة ومحل المحافظة. ويعلم أن هناك من قال للإمام عبيد كرم الله وجهه - . إن درعك له صدار وليس له طهر، أى أن الدرع يحمى

صدرك بم وراءك لا يوجد جزء من الدرع يحمي ظهره فقال : ﴿ لا كنت إن مكنت خصمي من ظهري ﴾ ، أى أنه كره الله وجهه - يوصل لاستشهاد على أن يمكن خصمه من ظهره ، فلو أن درعه من الأمام ومن الخلف ، ففي هذه الحالة يكون في تيشه أن يمكن خصمه من ظهره ، ولذلك جعل الدرع يحمي الصدر فقط ، وهو على يقين أنه لن يدير ظهره لعدوه ، ويسمعون تلك الحالة الأخرى طاهرة صط انفس ، أى أنها طريق لمع الشئ - أن يحدث ولو هي ساعة الشدة ، لأن المقابل حين يدخل المعركة ، وهو يحمي صدره فقط فهو لا يتولى لبصر ، لأنه يعلم أنه لو تولى فيكشف بهم ظهره وسيتمكن من عدوه وسوف يقتل

والحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فائتو ﴾ لا يطلب هذا الثبات على إطلاقه ، ولكن يريد من المؤمنين الثبات والقوة في العمل . أما إذا كانت المشقة انتهى يواجهها المؤمنون كسيرة العدد أو كثيرة العدد فذلك يتطلب الدراسة والاستعداد ، وه طلب الحق الثبات يعلم المؤمنون يقياً ، أنهم لا يواجهون عدوهم بقوتهم ولكن بقوة الله الذي يجاهدون من أجله . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وادكروا الله كثيراً ﴾ ، أى تذكروا وأنتم تقتلون أن الله معكم بعونه وبصره ، فإن لم تستطع أساسكم أن تأتى بالنصر ، فإن حلق الأسباب يستطيع بقدرته أن يأتى بالنصر .

وكلنا نعلم أن الحق تبارك وتعالى قد وصح في كونه الأسباب ، فإذا استغنى أسباباً ، توجهنا إلى حلق الأسباب ، ولذلك نجد أن من لا يؤمن بالله إذا كانت الأسباب يتحرر أو ينهار تمام أو يصاب بالخلو ، ولكن المؤمن يقول : يد خاشي الأسباب بمعنى رب الأسباب وحالها ، ويأوى إلى ركن شديد .

إن الطفل الصغير إذا عدى عليه أحد يقول : إن لى أنا أو أحاسيرد عى لإيذاء ؛ لأن الأسباب لا تعطيه قدرة لرد ، فكيف لمن له رب قدرته فوق قدرة

الكون كله ، وقوته موجودة دائماً . ولذلك يجد قوم موسى حير وصلوا إلى شاطئ البحر ووجدوا أمامهم الماء ، ونظروا حشفهم ورأوا جنود فرعون مقبلين من بعيد ، قالوا ﴿ إنا لنذكر كون ﴾

وكابرو ، منطقيين فيما قالوه ، ولجرو أمامهم والعدو وراءهم وليس لهم من طريق للهجاء مستخدم لأسباب العادية في هذا الكون ، ولكن موسى عليه السلام بقوة إيمانه بالله تعالى يقول ما جاء على لسانه في القرآن الكريم ﴿ قل كلا ﴾ .

أي إن فرعون وجنوده لن يذكرونا ، ولم يعمهم قوم موسى ، لأن البحر أمامهم وحنود فرعون وراءهم ، وأضاف سيدنا موسى عليه السلام بـ « فيه قوته » .

﴿ إِنَّمَا نَبِّئُكَ سَيِّدِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

أي أنه رفع الأمر من الأسباب إلى المسبب ، وإذا بالله يأمره أن يصرب بعضاء البحر فيسحق ، وتظهر الأرض اليخسة ويعبر سو إسرائيل للبحر ، وعندما وصل موسى وقومه إلى شاطئ البحر بعد أن عبروا ، أراد موسى أن يصرب البحر مرة أخرى حتى يعود الماء إلى الاستطراق . فلا يتمكن جنود فرعون من اللحاق بهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال لموسى

﴿ وَأَتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾

(سورة النحل)

أي لا تعجل وتصرب البحر ليعود مرة أخرى لاستطراق الماء بل اتركه على حاله ساكناً فبأمر الله به سي سرتيل مسغرق به آل فرعون ، وذلك أنجي وأهلك بالشيء الواحد ، وهذا لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى

وهما يقول الحق تبارك وتعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٤٥﴾

(سورة الأنعام)

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها وكيف تعاني النفس من كرب عظيم، خصوصاً إذا كان ذلك في ميدان القتال، ولذلك طلب من المؤمنين أن يتذكروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم في المعركة وأنه سبحانه وتعالى معهم، فليذكروا هذا كثيراً ليؤاخي نصرهم على عدوهم؛ لأنهم دائماً داوموا على ذكر الله تعالى فسموا هذا الذكر إيمانهم، ويجعل في قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر

وذكر الحق كلمة ﴿كثيراً﴾ هنا يعني أن الإنسان قد يذكر الله عند اليأس فقط، فإن جاءت الحياة بعد ذلك بالرحاء فقد ينسى ذكر الله؛ لذلك يؤكد سبحانه وتعالى هنا أن يكون ذكر الله كثيراً، ليؤاخي الله نصر المؤمن على عدوه. ومثال ذلك أننا نجده سبحانه وتعالى حينما يستحضر الحق المؤمن للصلاة في يوم الجمعة يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بُدِئَ الصَّلَاةُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩٠﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَاعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩١﴾

(سورة الجمعة)

يطلب الحق سبحانه وتعالى ذلك من المؤمنين وهو العليم بأنهم يداومون اسوة له سبحانه كل يوم خمس مرات

ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانشار في الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى ، وينهنا أن يساوم على ذكره ، فكأنه يقول : إياكم أن يلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله ، أو تعتقدوا أن ذكر الله في المسجد أو وقت الصلاة فقط ، بل داوموا على ذكر الله في كل أحداث الحياة. فإن فعلتم ذلك وذكركم الله كثيراً فستكونون من المفلحين.

وذكر الله كثيراً معناه أنك تشعر في كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به. وهكذا تكون الصلة دائمة بينك وبين الله عز وجل في كل وقت

مثال ذلك ما حدث في عام ١٩٧٣ في معركة اعاشر من رمضان ، كان ذكر الله يملأ القلوب واستمد الحمد من قولهم : ﴿ الله أكبر ﴾ طاقة هائلة واحموا بها العدو ، واقتحموا خط « باريق » وأعانهم الحق بمدد الإيمان من عنده ، وأوجد في نفس كل منهم طاقة هائلة تحقق بها النصر ؛ وذلك بإجادة التدريب ومداومة الذكر لله تعالى

ثم يقول الحق بعد ذلك

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا أَنْفُسَكُمْ أَنْ تَذْهَبَ رِجْلُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنْ اللَّهُ مَعَ الصَّائِرِينَ ﴾

وعرفنا من قبل أن طاعة الله تعالى تتمثل في تنفيذ ما أمر به في المنهج ، وطاعة الرسول هي طاعة تطبيقية في السلوك ، وهي طاعة لله أيضاً ؛ لأن الرسول مبلغ عن ربه ، ولا بد للطائع أن يتعد عن انتزاع مع إخوته المؤمنين ؛ لأن التنزع هو تعاند القوى ، أي توجد قوة تعاند قوة أخرى ، والقوى المتعاندة تهدر طاقة بعضها البعض ، والتعاند بين قوتين يهدر طاقة كل منهما فتصبح كل قوة ضعيفة وغير مؤثرة. فكونوا بدأ واحده ؛ لأنكم إن سارعتم فستصعب قلوبكم

وتقابلون المشل، أى لن تحققوا شئنا مما تريدون؛ لأنكم أهدرتم موتكم فى التنازع، ولم تعد لكم قوة لتحقيق بها ما تريدون ومشذهب ربحكم فى هذه الحالة. والفضل هو إحقاق الإنسان دون المهمة التى كان يرجوها من نفسه.

وانظروا إلى عبادة الحق تبارك وتعالى :

﴿وَتَنَزَّهَ رَّبُّكُمْ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعدال)

نحن نعرف أن الريح يُطلق على الهواء الذى حبره المصاء على سطح الأرض، إذن فمكان الهواء هو أى مكان خال على سطح الأرض، ولذلك نجد العمود المكون من الأسمنت والحديد مثلاً، لا يوجد فيه هواء لأنه لا يوجد فيه فرع، أما العواصل التى بين الأعمدة فيوجد فيها هواء لأن فيها فراغاً ونعلم أن مصومات الحياة طعام وشرب وهواء، ولكن الهواء هو المقوم الأول للحياة؛ لأنك لا تستطيع أن تعيش على الهواء مقدار شهيق وزفير.

إذن فالهواء هو المقوم الأول للحياة وكل من من هذا الكون، ومادام الهواء محيطاً بالشئ بحيث يتسوى الضغط من جميع أواحيه يكون الشئ ثابتاً، فإذا فرغت الهواء من ناحية قام ضغط الهواء بتعطيم هذا الشئ. وفى التجارب المدرسية شاهدنا تأثير ضغط الهواء، وكانوا يأتوننا بصفيحة وضع فيها ماء ويتركونها تغلى على النار، فيطرد بخار الماء الهواء الموجود فى الحرة الخارج من الصفيحة ليملاً الحار هذا الفراغ، ثم يعلقون الصفيحة بإحكام ويسكبون عليها من الخارج ماءً بارداً؛ فتكثف أسحار، ويقل حجمه، ويصبح حظه من الصفيحة حالياً من الهواء، فتهاجر جذور الصفيحة إلى الداخل بسبب ضغط الهواء خارج الجدران، وتمزج الهواء داخل الصفيحة ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يعدب قوماً أو يرسل بهم عقاباً، فهو يرسل عليهم ريحاً ويقول
جن وعلا

﴿وَأَمَّا غَدَاةُ قَلْبِكَ فَأَبْرِجْ صَرَصَرًا تَبِيرُ ۝١ صَرَصَرًا عَلَيْهِمْ سَبَّ لَيْلٍ وَنَهْنِهَةٌ أَيَّامٍ حُسُومًا ۝٢ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُتِخِّلُوا فِئًاوِيَةً ۝٣﴾

(الاسرار سورة الحاقة)

وكذلك نجد مسجانه وبعاس يقول

﴿مَدَا عَارِضٌ مُّطِرًا نَّالٌ مُّوَسَّاتٌ مَّتَّعِلَتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ۝٢٥﴾

(من الأبيات ٢٤ ٢٥ سورة الحاقف)

وأيضاً يقول الحق سبحانه عن الريح التي تمرق بأمرها العالية

﴿ذَا كُنتُمْ فِي الْمُلْكِ وَحَرَيْنَ يَمِ بِرِيحٍ طَبِيرَةٍ وَفَرَحُوا بِمَا جَاءَتْهَا رِيحٌ مُّخَصِّفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَرْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۝٢٦﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

بدون فكلمة ربح بعد عن القوة المدمرة للهواء؛ لأن الريح إذا انحدت قوتها وانجبهت أصبحت مدمرة. ولكن إن هادتها ربح ناسه فاستوارن يحدث بين القوتين. وبذلك حين يستعدم الحق كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للشحريب والدمير. أما إن تكلم عنها للحير مسجانه يأتي بكلمة ربح؛ لأن تعدد اتجاهات الرياح هو الذي يوحد التوارن في الحياة فبد أراد الله أن يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحيه لا يعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتتعاادل القوتان

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ تُثَارِفْنَ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۝٢٧﴾

(من الآية ٢٨ سورة الم فاف)

ويقول سبحانه وتعالى

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

أى أن الرياح تنقل اللفاح بين النبات ، فينم التلمح وتنبث الشمار ويأتى الخير. ولكن هناك آية واحدة جاءت فيها كلمة « ريح » وكانت تحمل الخير فى قوله تعالى .

﴿حتى إذا كنتم فى العلك جريين بهم يريح طيبة وفرحوا بها﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

وسبحانه وتعالى عندما استخدم كلمة « ريح » فى هذه الآية وصفها بأنها « طيبة » . وهذا فى الآية يقول سبحانه وتعالى .

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنعام)

و « ريحكم » أى قوتكم ، لأن الرياح هـا معناه القوة التى تدمر عدوكم ونعلم أن السفر فى الماصى كانت تُبحر بقوة الريح. وعندما تقدم العزم وحاء البحر ولكهرباء ألقى شراع لمراكب واستخدم بدلاً مـه ماكبسات تدفع حركة السفينة.

ونطلق كلمة « الريح » على الرائحة، فيقال « ريح عطرة » ، وهذه الرائحة تبقى فى المكان حتى بعد أن يغادره من استخدم هذه الرائحة، وكل إنسان مـه رائحة خاصة، تماماً كمـه أن لكل إنسان بصمة خاصة، ولكن لا نستطيع أن نغيرها، ولكن الكلاب مدرة تغير الرائحة الخاصة بالإنسان، فبأى الكلب ويشم رائحة الإنسان ويتبعه إلى المكان الذى ذهب إليه. أو يستطيع أن

يخرج من سن عشرات الأشخاص. ولا تحتل رائحة أحد بأحد رغم وجودهم في مكان واحد، وإلا لما استطاع الكلب المدرب أن يمس رائحة شخص معين ضمن عشرات الأشخاص الموجودين.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ يعنى بأن تشهوا ولا يكون لكم أثر ، لأنه مادام لكم أثر في الأرض فلكم ريح تميزكم. وتلك التي - كما قلنا - أن الكلاب المدربة غيرها، ولكن الإنسان إذا مات ودفن فلا رائحة له. ويدلنا القرآن الكريم على ذلك حين يتكلم عن قصة يوسف عليه السلام حين ألقاه حوته في البئ. وعثرت عليه قومه ، ثم اشتراه ملك مصر ، ثم دخل السجن وخرج وأصبح هو عزيز مصر. وجاءه إخوته وأعطاهم يوسف عيب السلام قميصه ليلقوه على وجه أبيه يعقوب ، ليرتد بصيراً ، بعد أن أذهب الحزن بصره ، يقول الحق عن خروج العير من مصر إلى الشام حيث كان يعيش سيدنا يعقوب .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْعَمِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أُنِصِّرُوهَ ۖ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

أى أن العائلة حين خرجت من بين المباني التي يمكن أن تكتم الريح بقوة كتلتها ، لأن المباني لها إشعاعات قد تكتم الريح وتخفيه ، وبعد أن صارت القفلة في الخلاء عرف يعقوب عليه السلام ريح ابنه يوسف من القميص الذي يحملوه ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أُنِصِّرُوهَ ۖ ﴾

ثم يدل الحق سبحانه وتعالى الآية التي نحن بصدد نواظرها عليها .

﴿ وَأَمِيرُوا إِنْ أَقَامَ مَعَ الْغَائِبِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الانعام)

وهذه نتمة لصوره التي يريد الله أن يلتفت إليها ، فقد أمرهم الله أن يشتروا في القتال ، ولقتال يحتاج إلى قوة وإلى عدم سراع وإلى صبر على الشدائد ؛ حصراً إذا كان عدوك صابراً شديداً للأس.

ردن فهي المعركة يريد الله عز وجل من المؤمنين الثبات في قتال وعدم لفرار ، وذكر الله كثيراً ، وعدم التسارع حتى لا تضيع قوة المؤمنين ، ويوصيهم سبحانه بالصبر ؛ لأن عدوهم قد يكون عنه صبر وجلد ، فلا بد أن يصلح المؤمن رصيذاً من الحمد والصبر ؛ يُمكنه من هزيمة عدوه ، وصحة نصرته على المنافسة. وهي مأخوذة عندما كانوا يعطسون في الماء ، والذي يبقى تحت الماء أكثر من الآخر يكون نفسه أطول. ولذلك فسيدينا عباس وسيدنا عمر رضي الله عنهما - دخلا في منافسة في العطس. وقال له : يا عباس ، أى سرى من الذي سيمكث تحت الماء أكثر ويكون صابراً ؟ أى يتحمل أكثر في المواقف الصعبة ويصبر صبراً عوق صبر الخصوم. وبوبه الحق عز وجل هنا

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(من الآية ٤٦ سورة النمل)

ثبت به سبحانه وتعالى أن كل مؤمن عليه أن يشعر أن الله تبارك وتعالى هو الذي انتدبه ليقوم بهذه المهمة القتالية وهو معه ، فلا تخور نفسه ؛ لأن الضعيف إذا ما تحصن بالقوى ، عظم الجرأة والقدر على الاحتمال ، تماماً كالولد الصغير ، إذا مشى في الشارع وحده قد يخشى عليه الأولاد الآخرون ، ولكن إذا كان يسير مع أبيه لا يخشاه منه أحد ، فما بالك بالإنسان الذي هو مع ربه ؛ لذلك يوصي الحق كل مقاتل أن يتذكر أنه في معيه ربه ، أن أى حدث صار في يكون لا يستطيع أن يئله مهما كان ضعيفاً لأن قوة الله معه

وبذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل

يقول يوم القيامة -

(يا ابن آدم مرضت فلم تعدني . قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟
 قل : أما علمت إن عصى فلاناً مرض فلم تعده .. أما علمت أنك لو عدته
 لوجدتني عنده . يا ابن آدم استطعمتك فلم تصعمني . قال يا رب كيف أطعمك
 وأنت رب العالمين ؟ قال . أما عدمت أنه استطعمت عصى فلان فلم يطعمه ..
 أما عبت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عدى . يا ابن آدم استسقيك فلم
 تسقي ؟ قال يا رب وكيف أستقيك وأنت رب العالمين ؟ قال استسقك عدى
 فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عدى) (١)

فإذا مرض إنسان فقد تثبت منه العافية فلا يستطيع أن يسير ولا أن يتحرك ،
 بل يرقده في براحته لينأى ، ويوضح لنا الحق سبحانه ونعالي أنا إن سلت منه
 العافية ، وهي نعمه فأنا عنده . ولذلك إياك أن تفرح إذا تركت النعمه مدام
 بلنعم معك . والمريض المؤمن يستشعر أن الله معه .

وحين يكون المسلم في معية الله فإن مقاييس المادة والشريات لا تحي . أبداً .
 المثال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في العار . وقد جاء الكفار
 عند باب العار فراحهم أبو بكر رضي الله عنه فقال يا رسول الله لو نظر أحدهم
 تحت قدميه لرأى . هذا كلام مطلق مع النظرة المادية ، ولو انحنى أحد هؤلاء
 الكفار ونظر من باب العار لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ،
 وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطعمن أبا بكر فيمضي عنه ما جاء في
 باله من خوف أن يراهما الكفار . كان المروص أن يقول رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : يا أبا بكر اطمئن ، إنهم لن يظروا داخل العار ، ولكن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم قال : ما ظلك ماثنين الله ثالثهما وفي ذلك حال لإمام
 أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن

(١) روه الإمام مسلم (الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣١٧)

في العار . لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا نحت قدميه قال ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ^(١)

وما دام الله ثالثهما تكون المصيبة موجودة ، وقد كنت في مصيبة من لا تدركه الأبصار ، تدركك الأبصار ؟ . طبعاً لا تدركك أبصار الأعداء والخصوم اللهم اجعلنا في مصيبتك دائماً .

ثم يكمل الحق سبحانه وتعالى ما يريد ألا يكون عليه المؤمنون في ساعات الشدة فيقول تبارك وتعالى .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا
وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ
يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

والذين خرجوا من ديارهم بطراً هم الكفار عندما علموا أن أبا سفيان قد جاء بالقافلة ولم يتمكن المسلمون من الاستيلاء عليها ، وهم قد خرجوا من مكة لاحتصاص القافلة من أيدي المسلمين ، فلم قيل لهم إن القافلة تحت قيادة أبي سفيان فارجموا قالوا لا يكفيناهم ، بل لابد أن نخرج ونهمل محمدًا ومن معه ، ونقتصر عليهم ونلقط الطبول ونسبح الدناج ليعلم أهل الحريرة بخبر هزيمة محمد ومن معه فلا يجروا أحد أن يتعرض لقافلة من قو فلنا

إذن فهم لم يكتفوا بأن أموالهم قد رجعت إليهم ، بل أرادوا أكثر مما يقتضيه الموقف ، أرادوا أن يخرجوا في مظاهرة صليبية للفتنة والتكبر ثبت أن لهم قوة .

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وكان يكفيهم نجاة القافلة وينتهي لأمر. وكان عليهم أن يرجعوا، ولكنهم أرادوا أن يقوموا بمظاهرة لا لزوم لها.

إذن فالمسألة شمانية، وهذا لون من البطر؛ أن تكون عندك نعمة فلا تقدرها حق قدرها، وتحب أن تنمو عليها. ويقال فلان بطران إذا أحضروا له الإفطار من الفول مثلاً ويقول: 'إنه يريد المربي والرشد وعسل الحبل وهكذا فعل كفار هريس، فلم يكتفوا بنجاة القافلة، بل استخفوا هذه النعمة فلم يكتفوا بها وطلبوا المزيد

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾

أى يريدون بالحرب مع رسول الله والذين آمنوا؛ السمعة بين الناس، وأن يعرف العرب أنهم خرجوا إلى المدينة وقاتلوا محمداً وصحبه لتكبر لهم سمعة وهيبة بين الناس في الجزيرة العربية.

وقوله تعالى:

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

لأن الناس حين يرون الكفار المبتدئين لمنهج الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد صارت لهم اليد العليا، وهم يرفصون ويغنون لانتصارهم، ويرون المسلمين وهم محتتمون جائفون من مواجهة الكفار، فسوف يعرف ذلك الناس باتباع منهج الكفر، فكان الكفار برعبهم في قتال رسول الله وصحبه إما يصدون عن سبيل الله ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى ليوضح لا تخسوا أنهم بعيدون عن علمي.

﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَمُنُّونَ يُحِبُّهُ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنفال)

أى أن الله سبحانه وتعالى محيط بكل أعمالهم ، لا يعيب عنه عمل واحد
 من يعملونه ، هو محيط بهم تماماً وهم لا يستطيعون أن يفتنوا منه .
 ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى دور الشيطان وأغوائه وما يعمل به
 الكافرين ؛ فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ رَيْنَا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ
 لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا
 تَرَآتِ الْفِتْنَانَ كَضَرَ عَلَى عِقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ
 مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه الكفار وهم قليل وذلك
 من صنع الله تعالى لتتم المعركة، وبدأ الشيطان يري للكافرين أعمالهم
 ويستدحها، ويعويهم أنهم كثيرون ولا أحد مثلكم في فتنة الفتنة
 وستحصلون على النصر في لمح البصر. لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن تشت
 المؤمنين ويقويهم ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يري رسول الله صلى الله عليه
 وسلم الكفار وهم قليل. و لواقع أنهم قليل ؛ لأن النصر ليس هنا بالعدد ولكن
 بتأييد الله تعالى ، ومهما كثر الكفار فهم أمام تأييد الله قليل ويحاول الشيطان
 أن يري للكفار فبال المؤمنين ، أى يجمعه محباً إلى نفوسهم وأنهم سيحققون
 النصر ، ويصيحون حديث الحريرة العربية كلها ، وتحافهم الناس وتهابهم
 ويصيحون هم الكبراء وأصحاب الكدمة. وهكذا صور الشيطان لهم عملية قتال
 المسلمين في صورة محبة إلى نفوسهم. وهذا يري بوضوح عباء الشيطان وعجوه

عن أن يعلم بضء الله، فدر علم م ستتهى. ليه معركة بدر م زين لكفار دخول المعركة، لأر معركة انتهت بنصر المسلمين وقتل صناديد قريش، وعلت صورة المؤمنين في الخزيرة العربية كلها. ولم يكن النصر هو م يريد الشيطان، ولكنه لجهه زين للكافرين المعركة.

وهي دلت بقول الحق سبحانه وتعالى

﴿وَلَا ذَرِيَّةٌ مِّمَّنْ الشَّيْطَانِ أَتَمَلَّاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ اللَّهِ وَإِنِّي بِمَا تَكْمُلُ كَذِبٌ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الانعام)

أى أن وسوسة الشيطان لكفار كانت في صورة تصحيم هو بهم وأن أحدا لى يغلهم هي قتالهم بدر، وأنه أى الشيطان سبتصرهم في المعركة ويجيرهم إن حدث بهم سوء، ولكن هل للشيطان سلطان على أن يُعين الكفار؟ نحن نعلم أن الشيطان ليس به سلطان إلا الترييس فقط، فكيف يكون له سلطان على نتيجة المواجهة بين الحق والباطل؟. إن الشيطان يأتي في الآخرة فيطلب منه الكفار أن يجيرهم من عذاب الله تعالى، لأنه هو لدى أغواهم وزين لهم سوء أعدائهم وجيرهم إلى طريق النار، فيقرأ منهم ويقول لهم:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُخَصِّرِمْ﴾

(من الآية ٢٢ سورة هود)

أى أنه يقول للكافرين: أنا لم أجبركم على المعاصي، هم يكن لى عليكم سلطان القهر، لأنهمكم على أن تفعلوا شيت ولا سلطان الحق لأقنعكم بأن

تعملوا المعاصي، ولكني محذر أن دعوتكم استجبتن بي؛ لأنكم تريدون المعصية واتباع شهواتكم. وقوله ﴿ما أنا بمصرحكم﴾

وأصرح فلاناً أي سمع صراخه فذهب إليه ليقضه، والإنسان عندما يواجه قوة أكبر منه يلجأ إلى الصراخ لعل أحداً يسمع صراخه ويأتي لمجده، والذي يسمع الصراخ إما أن يكون صعيماً فلا يستجيب؛ لأنه لا يستطيع أن يقض ذلك الذي يواجهه الخطر، وإما أن يكون قوياً فيدفع لمجده، فيقال ﴿أصرحه﴾ أي أنقذه وأزال سبب صراخه، وقوله تعالى حاكياً ما يقوله الشيطان ﴿ما أنا بمصرحكم﴾

أي أن الشيطان لا يستطيع أن ينجيهم من العذاب ويهديهم منه، فيرين سبب صراخهم ﴿وما أنتم بمصرحي﴾

أي أنتم لا تستطيعون دفع العذاب عني

وقد أخذ الشيطان يرين بهم أعمالهم ويهدم كدماً بأنه سيحيرهم ويؤزرهم ويعمل على نصرهم حتى اقترب المؤمنون ولكفار من بعضهم البعض وأصبحوا على مدى رؤية العبي

﴿فَبِتْرَآةٍ آتِئْتَنَّاكَ لَكَمْ مَلَأَ عَيْنِي مِنْكَ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الاحقاف)

أي أنه بمجرد البترتي بين المؤمنين والكفار، وقبل أن يلاحموا في المعركة وبدأ القتال هرب الشيطان وترأ من الكفار وجرى بعيداً، وهذا ما يشرحه الله تعالى في قوله:

﴿كَذَلِكِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ

اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

(سورة الاحقاف)

وهذا كلام سطقى مع مرقب الشيطان حين طرده الله ولعن ؛ لأنه رفض
بعبء أمر السجود لأدم ؛ فقال له الله عز وجل

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٧٨)

(سورة ص)

حينئذ تصرخ الشيطان إلى الله تعالى أن يبقه إلى يوم القيامة :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٧٩)

(سورة الاعراف)

وهكذا أمر الشيطان بطلاقة المدرة له تعالى وبأنه عاجز لا يقدر على شيء
تمام قوة لله ، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٨٠) ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْوَعْدِ الْمَعْرُومِ ﴾ (٨١)

(سورة الحجر)

إذن فالشيطان لا قدرة له ولا قوة على فعل شيء ، وكن ما يمكنه هو الخداع
والتريس والكذب ، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم ، وما أن صار
المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض ، هرب الشيطان وفرع
ونكص على عقبه ، وأعلن حوته من الله ؛ لأنه يعلم أن الله شديد العقاب

إذن فمصدر خوف الشيطان هنا هو لخوف من العقاب ومن العذاب الذى
سيصيبه حتماً ، ولم يزع الشيطان - إذن - حباً لله تعالى

ثم يعطيا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى

﴿ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ غَرَّهُتْ أَلَاءَ دِينِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤٩)

المدايق كلمة مأخوذة من باققاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه القمل يعيش في
الحيال في مراديب ، وحين يسمعه حيوان آخر ليقترب منه ، فهو يسرع إلى جحره
الذي يشبه السرداب ، وهو يفتح أكثر من فتحة لهذا الجحر لتكون مخارج به ،
ومثل هذه الفتحات كالأبواب الخلفية ، فينجو من لافتراس ، فكأنه فتح لنفسه
بفق ، يتأفق منه غيره فلا يقوى على المطاق به . ولذلك نجد المفايق متعارضاً مع
نفسه ؛ يطق لسانه بما لا يؤمن به ، وبما المؤمن مسحج لنفسه ؛ يطق لسانه بما
في قلبه ، والكافر أيضاً كذلك مسحج يطق لسانه بما في قلبه من الكفر ، ولكن
المدايق متحفظ مع نفسه ، لسانه يقول كلمات الإيمان وقلبه يصمر لكفر ،
وهكذا تتعاند ملكات المدايق ، وحيثما يكون القلب واللسان متعاندين لا توجد
راحة نفسية ، وحسبك من المدايق أنه متعدد في الملكات .

وبصف الخس سبحانه وتعالى المدايق بقوله .

﴿ وَإِذَا نَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا وَإِذَا نَادَى الَّذِينَ كَفَرُوا كَفَرُوا وَعَسَىٰ أَنفُسُكُمْ تَخْشَىٰ
مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النقرة)

إد فالدانية ضائعه ؛ لأن الإنسان لا يفقد دته حيثما تكون ملكاته مسجعة
ولا توجد ملكة تعارض ملكة أخرى ويكون عمله متوارباً ، ولكن الذي تتعاند
ملكاته يعيش دائماً في قلق نفسي وحيرة . ولذلك يحاول أن يهرب من واقعه ،
فيبحث إلى المخدرات أو غيرها ، وليس الحل بأن يحدد الإنسان نفسه أمام
الأحداث ، ولكن لابد أن يواجه الإنسان الأحداث ويحاول إيجاد حل لها ،
والمدايق لا يقلد على ذلك فيبهار ، ويقول الله تعالى

﴿ إِذَا يَقُولُ الْمُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ عَرَّهٖٓ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الاحمال)

وبعد أن يتحصّر المؤمنون بحمدهم وهم يرددون إيماناً وثقة في أنفسهم ،
وتلقوهم عزة لإيمانهم ، فتنظر إليهم اسوقون بحسد وحقده ؛ لأنهم يكرهون
المؤمنين ؛ ولا يتمنون لهم خيراً ، فهم في نفاقهم كمد ، هي قلوبهم على
المؤمنين بحاطب بعضهم البعض ويقولون : 'صاب هؤلاء الغرور بديهم ،
ولكن ما أصاب المؤمنين ليس غروراً ؛ لأن معنى الغرور أن تعار بحصلة فيك
تجعلك متفوقاً على غيرك ' ؛ المؤمن ساعه انصر لا يقتر نفسه ولكنه يعترف بأنه
القوى العرب ، ويرداد تواضعاً له ويكون مشغولاً بشكر الله على ما أنعم الله به من
نصر ، أم المجرور فهو من يعرف النعمة عن المنعم وبسببها لنفسه ، والمؤمنون
ينسبون كل شيء لله تبارك وتعالى ؛ لأنهم يعلمون أن النعمة عطية من يد الله
الممدودة بالنعيم التي لا تعد ولا تحصى ، وما دامت النعمة لم تنعد الإنسان عن
الله ، فإن الله يزيده منها ؛ لأنه مأمون على النعمة ويسببها لمصاحبها ، والمجرور
يستعلى بأي خصبة يتميز بها عكس المؤمن الذي لا يستعلى أبداً بها ، لأنه يعلم
أنه لا دائمة له ، وأن الفصل لله تعالى ، وذلك يقول الحق تبارك وتعالى وهو
يصف المؤمنين

﴿ اِنَّهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَةٌ يَبَينُهَا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والشدة من لست غروراً ، ولكنها طمع ومكدة ، ولو كانت غروراً لقيت كما
هي ، ولكن المؤمن شديد على الكفار دليل على المؤمنين لا ينكر عليهم أبداً ،
ولا يمكن أن يحبه إيمانه في قالب جامد ، لأن الإيمان يعطى المؤمنين مرونة
أمام الأحداث ، لذلك يجد المؤمن لا هو شديد على إطلاقه ، لأن هناك مواقف
تتطلب الرحمة في التعامل مع المؤمنين ، ولا هو رحيم على إطلاقه ؛ لأن هناك
مواقف تنصب الشدة في مواجهة الكفار .

وكان سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - معروفاً بأنه كان كثير البكاء من
خوفه وخشيته لله ؛ وقببه ملى بالرحمة على المؤمنين ولكن عندما جاءت

حرب الردة لما معنى الركاة ماذا حدث ؟. جلس هو وعمير من الخطاب، والمعروف عن عمر أنه كان شديداً، وحلسا ينشاوران، وكذا رأى عمر ألا يقاتلوا من ارتدوا بنكرهم ومنعهم الركاة، لأنهم قالوا: لا إله إلا الله، فقال له أبو بكر: «ولنه لأقاتلن من مرق بين الصلاة والزكاة فإن الركاة حق المال والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعهم».

هذا هو أبو بكر الذي عُرف عنه أنه كان كثير المكاء من خشية الله تعالى، وكان قلبه يمتلىء بالرحمة للمؤمنين - إنه يعلن في قوة وشدة في الحق أنه سوف يقاتل الخارجين عن حدود الله والمنايع المنكرين للركاة. ولرأى هذا الأمر حدث من عمر لقال الناس: شدة أنفاه، ولكن أن يحدث هذا الأمر من هذا الرجل الطيب الرحيم المطبوع على الرقة وعلى اللين، فهو أمر يبين لنا شدة المؤمن في مواجهة الكفر. المؤمن - إذن - لا هو مطبوع على أشدة المصلحة ولا هو مطبوع على الرحمة المطففة، لكنه شديد حين تكون الشدة مطلوبة للدين، ورحيم حينما تكون الرحمة مطلوبة للدين، وعزير حين تكون اعرة للدين، ودلين حين تكون الدلة للدين. إذن فقول المدققين ﴿عمر هؤلاء دينهم﴾ لا يسند إلى حكم صحيح، بل هو مما يمليه عليهم تعاقبهم، ماداً ؟.

لأن المؤمنين بنو كلون على الله دائماً ويبون كل الفضل لله تعالى

﴿قُلْ إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(عن الآية ٤٩ سورة الأنعام)

ومادام الله عزيزٌ ولدي أمر به عزيزه وسبحانه وتعالى يقول

﴿وَاللَّهُ الْأَعِزُّ وَلِرَسُولِهِ ۚ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(من الآية ٨ سورة المنافقون)

وما دام الله حكيماً فهو يعطى الحكمة للمؤمنين ، والتوكل على الله معناه أن
تكل كل أمورك إليه سبحانه وتعالى ، وأول هذه الأسوار امرت بالاحذ
بالأسباب ، فلا تترك الأسباب بدأ ، بل اخذها دائماً مع التوكل عليه فبدله
تسعتك بهذا السب . فقد قال الحق ببارك وتعالى لعباده المؤمنين

﴿ قَتْنُوهُمْ بِعَذَابِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة النوبة)

وأمرنا سبحانه تعالى بالسعي فقال عمر و جل .

﴿ فَامْشُرُوا فِي مَآكِبِكُمْ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فهو سبحانه وتعالى كما أمر المؤمنين بأن يقتلوا ويأخذوا بالأسباب ؛ لأنه
سبحانه يريد أن يعذب الكفار بأيدي المؤمنين ، أمرهم سبحانه وتعالى كذلك أن
يسعوا في سبل الرزق .

وأنت حين تتوكل تنقل صفة إلى صفة ؛ لأن التوكل عمل القلوب ، والعمل
تقوم به الجوارح ، فلا يحسن التوكل عمل الجوارح ؛ لأن الجوارح تعمل
بالأسباب . والقلوب تتوكل على الله ، وهكذا نفهم أن التوكل الحقيقي
لجوارح هو أن تعمل وبذلك فلا تدس العمل والاحذ بالأسباب مع التوكل ،
ولا بد لنا أن نسهل الماتقين في ذلك فنرى الله سبحانه وتعالى

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الانفال)

والمنفرون - كما قلنا - هم لقوم الذين تنصارع ملكوتهم ، وما على المستهم
يتاقص مع ما في صدورهم ، أما الذين في قلوبهم مرض فهم ضاعفون
الإيمان ؛ مسلمون ساعة الرخاء ، فاروق من الدين ساعة الشدة . إذ هناك

فريقان ذكرهم الحق سبحانه و تعالى ؛ الساقطون وهؤلاء كانوا من الأوس
والخزرج ملكهم مصاريه ؛ لأنهم كانوا يريدون استعادة عبي المدسه وواحد
منهم كان ينتظر أن يفس باح الملك ، وبعثى رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى مدسه تنتهى منه هذه العرصه و تصع فريضة الملك و بر عامه ، وقد أوحى
دع في نفسه حمد و عظم و لكن طهره الأفعال من أهل مدسه كلهم على
الإيمان و دحوا في الإسلام ؛ حيث هؤلاء المنافس لا يستطيعون لغاومه ،
لذلك نطقوا الشهادتين أسسهم و شى في قلوبهم حق و صفة على الإسلام ،
هالوا أحد منهم يتبعه نحياتان متعارفتان

والدبر في قلوبهم مرض يسو منفس وكنهم يصعبوا الإسلام ، وقد
دخلوا إلى مدس بأحدوا وهم لا يعظون ، فإذا أعظاهم الإسلام بعضا من نعم
لديهم حواسها ، وإذا أصابهم شدة مربوا ومن هؤلاء بعض المدس أسسوا في
مكة ولكن إسلامهم لم يصل بهم إلى أرهاقهم ، إلى المدسه ، خوفا من أن
تؤكوا أموالهم وأولادهم فطروا في مكة ، و مرضى القلوب هؤلاء لا يعدمون
الحياه ؛ لأن المرض لا يعدم الحياه ، لكنهم كانوا يعانون من عدم صحة الإيمان ،
ولما جاءت عملية القتال في غزوة بدر تشاوروا ؛ أينهمون مع الكفار أولا
يدهون ؟ ومع أى من الفريقين يقاتلون ؟ و قد خرج مع الكفار من و حذا
أنهم موى ك معهم ، وإن و حذا سلسل من لا يؤيد الصمصم إليهم

ومن هؤلاء منس بن الوليد بن المعبره و على بن مية بن حنف و العاصي بن
صه بن الحجاج و حارب بن رمعه بن الأسود بن مصعب و ابو المنس بن اشاكه
بن المعبره و تجمع هؤلاء مع بعضهم و دهموا إلى المعركة لتصلوا إلى
المبصر ، مؤمن كان أو كافرا و هم أخذوا هدايتهم لأن صحة الإيمان في
قلوب هؤلاء غير موجوده بهم أصحاب هلو م صفة و معنفه يحب الدنيا

ومما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض يدل على الرعدة في اتقاء نصرهم، مع أن هؤلاء في المدينة وهؤلاء في مكة ولكنهم قالوا شيئاً واحداً، وهذا دليل على أن إغواء الشيطان للفريقين كان واحداً وكذلك المحدث العبرة. وقال هؤلاء وهؤلاء، ﴿غُر هُؤْلَاءُ دِينَهُمْ﴾

قالها الفريقان (فريق المنافقين وفريق الذين في قلوبهم مرض) مع اختلاف المكان، فبعضهم - كما عدنا - من مكة وبعضهم من المدينة إذن فلا بد من وجود قاسم مشترك ففهمهم أن يقولوا قولاً واحداً، أي أن الشيطان وسوس إليهم بهذه العسيرة. ولذلك كان الواجب أن تنبهوا إلى أن اتفاق القول دليل إغواء الشيطان لهم.

وما معنى، ﴿غُر هُؤْلَاءُ دِينَهُمْ﴾

عزرت فلاناً أي ريت له الأمر تزييماً بحيث يقس عليه إقبالاً لا ترشحه قوته له، وقويت استعداده لكي يقوم به، فإذا حثت لإنسان محدود الدحل مثلاً وأردت أن تعربه بشراء سارية، فأنت تقول تزيين به المسألة، اجتريص من فلان وفلان وادفع الباقي بالتقسيط، كأنك تغريه أن يتخذ موقفاً غير موقفه الذي كان يولى القيام به

ولكن ما وجه الغرور في الدين؟

إن المؤمنين المعبرين بدينهم قد أحسوا بكثرتهم رغم أن عددهم قليل. فأقبلوا على الحرب بالرؤية التي أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن عدد لكمار قليل، ويوعده الله لهم بالنصر، أو عرهم بأن أوضح لهم أن الذي يموت مقولاً في هذه الحرب يصير شهيداً ويكتب له حناء حالده، وقد جعل ذلك القوى منهم والضعيف بقاتلان بقرة؛ لأن الشهيد سيذهب إلى الجنة. وهكذا في رأى المنافقين اغتر المؤمنون بدينهم.

ويرد الله عز وجل عليهم بقوله تعالى :

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

هذا هو الرد عليهم في أن المؤمنين لم يغرهم دينهم ، بل إنهم متوكلون على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكفايه ، وسبحانه عزير لا يغيب ، وحكيم يصح الهزيمة في موضعها والنصر في موضعه .

إذن فالمسألة أن هؤلاء المؤمنين قد اختاروا الله فأعزهم ونصرهم

ولكن هن فبلت هذه العادة من المنافس علناً ؟ . لا ، إنهم لم يجرؤوا أن يعلنوا بن قابوها سرأ في أنفسهم ، فأعلم لله سبحانه وتعالى رسوله بما حدث في نفوسهم ، وكانت هذه لئمة من الله سبحانه وتعالى بأن نصح حقيقتهم لعلهم ساعة يسمعون ما يدور في نفوسهم ؛ قد تكون نفقهم ويعودون إلى حظيرة الإيمان الصحيح ، خصوصاً إذا انشهو إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ مِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْضَى بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِيهِمْ تَرْضَوْنَ إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرِصُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة التوبة)

ففي هذه الآية الكريمة يوضح الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين في كل معركة يحوضونها ، فهم إما أن يتصروا ويهرموا الكفار ويقتنوهم ويأخذوا غنائمهم ، وإما أن يستشهدوا فيدخلوا الجنة ، وكل من الأمرين خير . وكشف الحق ما يدور في صدور المنافقين ، وكان ذلك تنبيهاً للمؤمنين ألا يؤثر فيهم كلام المنافقين ؛ لأن المؤمنين قد توكّلوا على الله والله غاب على أمره .
ويقر الحق بعد ذلك

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَھُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ﴾

و لدى يُوجه إليه هذا الخطاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه لو كشفت لك الغيب لترى ، ونلاحظ أن الله سبحانه وتعالى ترك الجواب ، فلم يقل ماذا يحدث لهذا الكافر والملائكة نصرته ، وإذا ما حذف الجواب فإث ترك لحيل كل إنسان أن يتصور ما حدث في أشنع صررة ، ولو أن الحق سبحانه وتعالى جاء بجوابه لحدده لما يحدث ، ولكن ترك الجواب جعل كلا ما يسخيل أمراً عجيبيّاً لا يخطر على البال ، ويكون هذا تعظيماً لما سوف يحدث .

و لصورة هنا تتقل ما من عذاب الديار للكفار إلى ساعة الموت .

و ﴿ يتوفى ﴾ أى لحظة أن يقبض الملائكة أرواح الكافرين ، والسوفى وهو نفس الأرواح يجىء مرة منسوباً لله سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله : ﴿ وهو الذى يتوفاكم ﴾ ومرة يأتى منسوباً لرسول الله ﴿ توفته رسلنا ﴾ ومرة يأتى منسوباً إلى ملك الموت وهو عزرائيل . ﴿ من يتوفاكم ملك الموت ﴾

وبذلك يكون التوفى قد أسد مرة إلى الله عز وجل ومرة إلى عزرائيل ومرة إلى رسل الموت ، ويقول لا يعارض فى هذه الأقوال ، لأن الأمر فى كل الأحوال يصدر من الله سبحانه وتعالى ، إما أن يقوم عزرائيل بتنفيذه وإما جوده وهم كثير ون .

الأمر الأصح - إحد - من الله ، ويسب إلى المتلقى المبشر من الله وهو عزرائيل ، ويسب إلى من يطلب منهم ملك الموت أن يقوم بهذه العملية .

وهذا العذاب يحدث ساعة الاحتصار وهي اللحظة التي لا يكذب الإنسان فيها على نفسه؛ لأن الإنسان قد يكذب على نفسه في الدنيا، وقد يكون مريضاً بمرض لا شفاء منه فيقول: سأشفى عداً، ويعطي لنفسه لأمس في الحياة، وقد يكون مريضاً لا يملك من وسائل الدنيا شيئاً ويقول: سوف أعني؛ لأن الإنسان دائماً يعبث عليه لأمس إلا ساعة الاحتصار، فهذه لحظة يؤمن فيها كل ميت أنه ميت فعلاً ولا مفر له من لقاء الله، ولذلك عبد الله الذي ظلم إنساناً لحظة يموث يقول لأولاده: أحضروا فلاناً لقد صدقته فردوا به حثرة بحوى وما طعمته به، والإنسان لحظة الاحتصار يرى كل شريط عمله، فإن كان مؤمناً رأى شريطاً ميراً، فينتسم ويستقبل الموت وهو مطمئن وإن كانت أعماله سيئة فهو يرى ظلاماً، ويتمدكه الذعر والخوف لأنه عرف مصيره.

وحجب ربي الشيطان للكفار أن يقاتلوا المؤمنين ووعدهم بالمصر، وقال: يا ساجدكم إذا دارت عليكم الدائرة، فلما أصبح المؤمنون والكفار على مدى الرؤية من مصيبتهم لمحض هرب لشيطان؛ لأنه رأى من بأس الله ما لم يره الكفار، وهذا هو موقف الشيطان دائماً، إذا رأى بأس الله أسرع بالفرار، ويعترف أن كل حديثه لا بأس آدم إنما هو وعد كاذب منه اخفد الذي في قلبه؛ لأنه تلقى بحفا من الله عز وجل بعد أن رفض تمديد أمر الله له بالمسجود لآدم، وهو الذي أوجب عليه العذاب الذي سيلقيه، ويرى الشيطان مسلماً كما يحير بالحق سبحانه وتعالى بقوله

﴿ قَبِرْتَنِي لَأُخْرِجَنَّهُمْ لَاجِبِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أي أنه أقسم بحلال الله وعمره، ومعنى عزة الله أنه على عن خلقه جميعاً لا يحتاج لأحد منهم، فهو الله بحلال وجسم صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد، ولما آمن به الناس جميعاً

ما رددت في ملكه شيئاً. ولو كفر به اساس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً
وقسم إبليس بعزة الله إقراراً منه بها. وقد أقسم بعزة الله أن يطلب العواية
للإنسان؛ لأن الله سبحانه وتعالى مادام لا يريد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه؛
لذلك أعطاهم حرية الاختيار، ونور أراد الله الناس مؤمنين ما استطاع إبليس أن
يقترّب من أحد منهم، ويحاول إبليس بحقه على الإنسان وكرمه له أن
يصرفه عن طريق الإيمان، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن؟
لا، ولديك هناك سؤال:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصُونَ﴾ (سورة ص)

أي أن إبليس لا يستطيع أن يقترّب من عبد مؤمن مخلص في إيمانه. ولذلك
لأنه قد نذرت إلى قول الشيطان الذي جاء على لسانه في الآية الكريمة
﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنعام)

إذن فمادم إبليس يخاف الله، ومادام يعلم أن الله شديد العقاب فما الذي
أذهب عنه هذا الخوف حين أمره الله بالسجود لآدم فعصى؟ خصوصاً وهو
يعلم أن الله شديد العقاب، ولو كان قد عرف أن الله لا يعاقب أو يعاقب عقاباً
خفيفاً لعلنا نعرفه بسطة العقاب بالمعصية. ولكن علمه بشدة العقاب كان يجب
أن يدفعه إلى الطاعة من باب أولى

ويقول: إنه في ساعة الكبر نسي إبليس كل شيء!

فأنت في حين يا حنك الكبر تعالى ولو في مواقع أشد، حتى وإن علمت
أنه قد يصيبك عقاب شديد، ولكن يختفي كل هذا من نفسك إذا دخل فيها
الكبر.

ولذلك قد تجدد إنساناً يُعذب بضرب شديد ولكن الكبر في نفسه يجعله لا يصبح ولا يصحح . ونجد إنساناً قد يتخذ في لحظة كبر قراراً له عواقب وخيمة ولكنه يتحملها . وإيليس ساعة رفضه تنفيذ أمر السجود كان يمتليء بالكبر والغرور ، فتكبر على أمر الله وملكه الغرور فقال :

﴿ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ ﴾ (سورة الإسراء)

إذن ففي لحظة الكبر نسي إيليس كل شيء ، واندفع في معصيته بمسوء الزهور وأصر على المعصية رغم علمه أن لله شديد العقاب .

وفي قوله تعالى :

﴿ لَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنزَلُوهُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۖ ﴾ (سورة الأنعام)

بعد أنه قد حلف جواب « لو » والمعنى لو كشف الحجاب لثرى الملائكة وهم يتوفون الدين كفروا لرأيت أمرا عظيما فظيما ، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يقتل الكفار في المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب ، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية ؟ كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى .

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنزَلُوهُمْ ۖ .. ﴾ (سورة الأنعام)

فالقبض منهم يضربونه على وجهه ، فإذا أدار ، وجهه ليتقى الضرب ، يضربونه على ظهره ، وكان الكفار يعذبون المؤسسين بهذه الطريقة : فالقبض عليهم

من المؤمنين يصرونه على وجهه ، فإذا حاول الفرار صريره على ظهره وعلى رأسه .

ويدقق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين . ولكن الفارق أن الصابر من الكفار كان يضرب بقوة البشرية المحدودة ، أم الصابر من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة ويعمل ' إن الملائكة معهم مقامع من حديد أي قطع حديد صلبة يضربون بها رءوس الكفار وذيابهم ومن شدة الصدمة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار .
ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَدُودُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

إذن فهم يضربون الكفار ساعة لا تنصبر ضرباً مؤلماً يجد ولكن هذا الضرب رغم قسوته ، والشور الذي يخرج منه لا سحبه في الآخرة من عذاب الحريق .
ولذلك أقبل صحابي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له :
يا رسول الله.. لقد رأيت في ظهر أبي جهل مثل شراك النعل أي علامة من الضرب الشديدة ظاهرة على جسده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ذلك ضرب الملائكة ، وجاء صحابي آخر وقال يا رسول الله لقد سمعت بأن
أقتل فلانا فتوجهت إليه سيمى ، وقل أن يصل سيي إلى رقبته رأيت رأسه
قد طر من فوق جسده . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : سمعت إله
الملك وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِذْ يُرْسِلُ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَيْنَاكَ الَّذِينَ ءَاسُوا سَاقِيًا إِلَىٰ مَنَاجِدٍ

الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوَقَّ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۖ﴾

(سورة الأنعام ،

وهما في الآية الكريمة التي نحن بصددها خوطبوا عنها يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنزَلُوهُمْ ۖ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنعام)

أي أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب ، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاماً فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أُحْدِ وعُذِبَ ربما يحمل العذاب بحلده ، ولكنه إذا صُرب أمام الناس كان ذلك أشدَّ إهانة له ، فإذا كان الضرب من لدى وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر .

ولكن هذا الضرب والعذاب لا يسجّيهم من عذاب النار ، بل يدخلون إلى أشد العذاب يوم القيامة ، وهذه نتيجة منطقية لما بفعله الكفار من عدم الإيمان بالله ، ومن قبيحهم بإلقاء المؤمنين به والإفساد في الأرض .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ

بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾

نحن تعلم أن معظم أعمال الإنسان يرارها بيده ، وقد يفعل أشياء بقدميه أو بلسانه ؛ لكن معظم الأعمى تتم باليد ؛ لأن اليد تحمل لقدرة على الفعل فسبحانه لم يفتن عبيدهم .

و « ذلك » إشارة إلى الضرب والعذاب الذي يتلونه جراء ما قدمت أيديهم .
ويقول سبحانه وتعالى

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنعام)

أى أن العذاب الذى يصيب الكفار يكون نتيجة أمرين ؛ ما قدمت أيديهم أى
ما كسبت من الآثام والمعاصى ، وعدل الله سبحانه وتعالى .

ولحمد الحق سبحانه وتعالى بقول

﴿ تَعَدَّ سَبْعَ آفَةٍ قَوْلَ الْغَابِرِ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَمِيرٌ وَهَّاشٌ أَحِبَّاءُ سَكَنُوا مَا قَانُوا وَقَتْلَهُمْ
الْأَنْبِيَاءَ بِعَمْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْخَرِيفِ ﴿٤٨﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ
آفَةً سَبْعٌ يَطْلُومُ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وبقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج .

﴿ قَالِبَ عَمَّ قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ آفَةً بَيْسٌ يَطْلُمُ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

وهكذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد قال : إنه ليس بضلام للعبيد ثلاث
مرات فى القرآن الكريم ، والذين يحسبون أن يستبركوا على كتاب الله يقولون
إليه جاء فى القرآن أكثر من مرة أنه سبحانه وتعالى ليس بضلام للعبيد . فهل هذا
يعنى أن الله سبحانه وتعالى - طالم ؟ . ونقول : لا ، سبحانه ينهى الظلم عن نفسه
على خلقه . ولأسد حين يظلم فهو طالم ، فإذا اشتد ظلمه وتعدد ، يقال
« ظلام » إذن فهذه صيغة مبالغة هى الظلم ، عندما تقول : فلان « أكل »
وفلان « أكل » أى كثير الأكل مبالغة فى تناول الطعام وتقول : فلان
« جحر » أى أمسك قطعة خشب بدين حرة رصع منها شيئاً ولكن
إذ هبت « جحر » كانت هذه صيغة مبالغة من إتقنه على صنعته ، كذلك
« خائط » و « حبط » ، ونقول : فلان « جرز » أى يستطيع أن يدبح ، وإذا
قلب « جرار » أى عمله هو أن يدبح بإتقان .

هذا « فعل » صيغة مبالغة في الفعل وصيغ المبالغة لها حالتان ، حالة ثبتت وحالة نفى . فأنت حين تقول . فلان « أكل » أنت له صفة المبالغة هي الأكل - أى كثرة الأكل ، ومن باب أوى صفة الأكل مطلقاً ، ومادمت قد أثبت له الصفة الأعلى تكون الصفة الأدنى ثابتة ، وإذا ثبت أن فلاناً « خياط » أثبت له أنه يعرف الخياطة ويحيدنها . وإن قلت إنه « نجار » أثبت له أنه باهر متقن للسجارة ، أما من ناحية النفي فإذا قلت إن فلاناً ليس أكلاً تنفى المبالغة ونكسها لا تنفى أنه يأكل ، فإذا قلت إن فلاناً ليس نجاراً نفيت عنه إتقانه للسجارة ولكم لا تنفى عنه أنه قد يكون نجاراً ، وإذا قلت إن فلاناً ليس علامة فقد يكون علامة وأنت عندما تثبت الأعلى تثبت الأدنى ، وعندما تنفى الأعلى لا تنفى الأدنى . وعندما تقول : إن فلاناً ليس ظلاماً ، تكون قد نفيت الأعلى ولكن لا يلزم من الأدنى فقد يكون ظلاماً فقط وليس ظلاماً إذن فكلمة « ليس ظلاماً » نفيت المبالغة فقط ولكنها لم تنف الظلم . وهذا مما قداله المستشرقون : إن آيات القرآن ينقص بعضها بعضاً ، هي آية مثلاً يقول . « ليس بصلām » نفى الأعلى ولا يلزم من نفي الأعلى نفي الأدنى ويقول سبحانه وتعالى في آية أخرى

﴿ إِنْ أَقَمَّ لَا يَطْلِمُ مِثْلَ دَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الباء)

نفى الأدنى والأعلى . وهذا في رأيهم تعارض تقول . هل إذا نفى الأعلى يلزم أن يثبت الأدنى ؟ طبع لا ، إن نفي الأعلى لا يمنع أن يوجد الأدنى ولكنه لا يلزم بوجوده .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى

نفي مبدأ الظلم، وقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَيَبْسُطُ ظِلْمَهُ لِلْعَبِيدِ﴾

(من الآية ٥١ سورة الانعام)

نفي مبدأ المبالغة، والقرآن يكمل بعضه بعضاً، فإذا قيل: إن الله نفي الأعلى وهذا إثبات للأدنى نقول: إن نفي الأعلى لا يلزم منه إثبات الأدنى ولا يمنع من وجود الأدنى، فإذا جاءت آية أخرى ونفت الأدنى، إذن فلا هو بظلام ولا هو بظلم. ولابد أن تلتفت إلى الإعجاز القرآني في الأسلوب، فالمتكلم هو الله. نقول: هل قال الله سبحانه وتعالى: ليس بظلام للعبد أم ليس بظلام للعبيد؟ لقد قال الحق ﴿ليس بظلام للعبيد﴾ وهي هنا صيغة مبالغة، والمبالغة مرة تكون في قوة الحدث وإن لم يتكرر، ومرة تكون في المبالغة في تكرار الحدث، والإنسان حين يظلم ظلماً شديداً مبالغاً فيه يقال عنه: إنه ظلام؛ لأنه بالغ في الظلم، وإذا لم يبالغ في الظلم وكان ظلماً بسيطاً وبكمه شغل عدداً كبيراً من الناس يكون ظلاماً نظراً لتعدد المظلومين.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال ﴿ليس بظلام للعبيد﴾؛ ولم يقل: ليس بظلام للعبد، وعما أن الظلم يتناسب مع القدرة. نجد مثلاً قدرة الحاكم على الظلم أكبر من قدرة محدود النفوذ؛ وهذه أكبر من قدرة الشخص العادي، فلو كان الله سبحانه وتعالى مع كل واحد من عباده ظالماً ولو مثقال ذرة لقبل - ظلاماً. وقد أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يخبرنا أنه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة، إذن فهو ليس بظلام للعبيد؛ لأنه لو ظلم كل عبد من عباده ذره لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد. ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا يحدث من الله سبحانه؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد.

ثم يعطيا الحق سبحانه وتعالى أمثلة قمة الكفر في الحياة لدنيا فيقول تبارك وتعالى :

﴿ كَذَّابٌ أَإِلَٰهٌ فِرْعَوْنُ ۚ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا
بِعَايِنَتِ اللَّهُ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

﴿ الذاب ﴾ هو العادة التي تتكرر مع الإنسان ويقال : ذؤوب على كذا ؛ أى يعله باستمرار . ويوضح الله سبحانه وتعالى ما يرسله صلى الله عليه وسلم ذاب هؤلاء الكفار معك يا محمد ، أى عادتهم معك ، كذاب ال فرعون مع رسولهم ، أى أنهم يفعلون معك كما فعل آل فرعون مع موسى عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ والدين من قلمهم ﴾

أى قوم نوح وهود وصالح ولوط وعيسرهم ، ما الذى حدث هؤلاء ؟ هلاك أو استنصاف أو تعذيب أو إعراف أو خسف . إذن هالكهم الدين بعدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاربونه ، ويقعون مرقف لأذى منه ، هذا الذاب والموقف منهم معه مثل ذاب وموقف ل فرعون مع موسى عليه السلام ، وقوم لوط مع لوط عليه اسلام ، وكذلك الدين من قلمهم ، ويقون الحق تبارك وتعالى

﴿ كَفَرُوا بِمَا بَيَّنَّتِ اللَّهُ ﴾

فهل تركهم الله ؟ لا . ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

فمنهم من أغرقوا، ومنهم من أصابتهم الصاعقة، ومنهم من غصف الله بهم الأرض، وما دام الله سبحانه وتعالى قد فعل ذلك مع الكفار السابقين كما هو ثابت، فسبحانه سوف ينزل عقابه على الكفار الذين يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم لن يخرجوا عن قاعدة التعامل مع المكذبين للرسل، وقد حدثت سرايق مشابهة في الكون وقضايا واقعية، فالفرعون مثلاً بلغوا قمة التقدم والحضارة في عصرهم وسبحانه وتعالى يقول عن حضارة العرانة

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾

(سورة القمر)

وبالنسبة لثمود إذا ذهبنا إلى مدائن صالح في السعودية نجد آثار ثمود وقد حصروا بيوتهم في صخور الجبال، ويقول الحق عن حضارة ثمود:

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾

(سورة القمر)

وكل الحضارات القديمة قد زالت في خاليتها ولا أثر بها، وإن وجد أثر، فهو أثر قليل ويسيطر لا يحمل كن سمات الحضارة، إلا آثار المراعصة؛ حيث تحوى مسلات ضخمة وأعمدة عالية وأهرامات كبيرة وهي باقية، أما حضارة قوم عاد والحق سبحانه قد طمس أثرها فلم يثر منها على شيء حتى الآن. لقد انطمست ضالية آثار الحضارات إلا آثار حضارة آل فرعون التي يأتي إليها الناس من أنحاء الدنيا كلها؛ لينعجبوا من جمال البناء وروعة الفن وقمة التقدم في التصميم الهندسي، وكيف نُقلت هذه الأحجار الضخمة إلى أماكن العيا بدون سقالات، وكيف ارتبطت الأحجار كلها مع بعضها البعض كن هذه السنوات لطويلة دون استخدام الأسمنت أو غيره من مواد التثبيت للأحجار،

بل ثم ذلك بتمرير الهواء، فكيف استطاعت هذه الهندسة العجيبة أن تفرغ الهواء بين حجرين كبيرين صخمين؛ ليتصقعا ببعضهما التصاقاً محكماً بغير لاصق ولا يستطيع أحد أن يرحزحه، فإذا كانت حصاره الفراعنة قد وصلت إلى هذا الفن الهندسى باستخدام تفرغ الهواء بين أنقال ضخمة فهي حصاره راقية جداً. هذا إن نظرت إلى فن البناء فقط، وكذلك إن نظرت إلى تحيط الخشب التى لا يعرف أحد سرها حتى الآن، وكيف أمكن للمح فطة على المومياوات آلاف السنين دون أن تسحل. وكذلك إن نظرت إلى الألوان التى ظلت به المعابد والرسومات وبقيت زاهية كما هى رغم كل ذلك الزمن الطويل، وإلى الحبوب التى حُطت وبقيت آلاف السنين دون أن يصببها أى تلف، بل وصالحه للطعام، هذه الحصاره التى احتفظت بأسرار هذه الأشياء فلم تصل إليها البشرية حتى الآن، لابد أن تكون حصاره قوية وعالية، ولكنها رغم قوتها وعلوها لم تستطع أن تحفظ نفسها من الانهيار لتصبح أثراً وتظل آثاراً.

أين ذهب صناع هذه الحصاره وقد بلغوا شأواً كبيراً وملكوا زمام الدين فى عصرهم؟ لا بد - إذن - من وجود قوة أعلى منهم، قد دكتهم، ولماذا أتى لله بآل فرعون فى هذه الآية بالاسم بينما أتى بالحصارات التى كانت قبلهم إجمالاً، فقال تعالى :

﴿كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

لأن آثار آل فرعون قد كشف الله عنهم ورعب فيها البشرية كلها؛ ليأتوا ويروا تلك الحصاره الهائلة التى لم تستطع أن تحمى نفسها، وذلك الفرعون الذى ادعى أنه إله ولم يستطع أن يضمن لنفسه البقاء. وشاء الله سبحانه أن يبقى آثار هذه الحصاره ليشاهدها الناس جميعاً، ثم يروا أن الله عز وجل قد

أهتك أصحابها وأصبحوا أثراً بعد عين؛ ليعرفوا أن القوة لله جميعاً، وأن الألوهية لله وحده، وأن كل شيء هالك إلا الله؛ لذلك ذكرت حضارة آل فرعون مخصصة، وهذا الذكر لأثار قوم فرعون من إعجازات القرآن؛ لأنه ذكر هذه الحضارة بخصيصاً ثم جاء الحق بحبر الحضارات الأخرى إجمالاً؛ قوم نوح وعاد وإرم وشمود. وكلهم: ﴿كفروا بآيات الله﴾

وعرفنا أن الآيات تطلق ثلاث إطلاقات: الآيات الكونية التي تثبت وجود الخالق الأعلى مثل قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾

(من الآية ٢٧ سورة قصص)

وكذلك المعجزات التي يأتيها الله رسلاً لإثبات صدق بلاغهم عن الله مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام، وإبراء الأكف والأبرص وحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام، ثم آيات القرآن الكريم التي هي محكم منهج الله في الأرض.

وقول الحق: ﴿كفروا بآيات الله﴾، نعلم منه أنهم أنكروا وجود الخالق، والأصل في الكفر هو الستر، وكفر يعني ستر، ولذلك يسمون الزارع بالمعنى اللغوي: كافر؛ لأنه يحضر الحطب ويستره بالتراب، ويسمون اللين لغريباً: كافر؛ لأنه يستر الأشياء. والشاعر يقول:

لِي فِيكَ أَجْرٌ مَجَاهِدٌ

إن صح أن الليل كافر

ومعنى «كفروا» أي سترو وجود الله تعالى، إذن فالله عز وجل موجود ثابت لوجود قبل أن يستروه بالكفر؛ لأن الإيمان أصل في وجود الخلق، والخلق قد وجدوا على الإيمان، ثم جاء أناس ستروا هذا الإيمان. إذن فكلمة

الكفر التي معناها الستر دليل من أدلة الإيمان، وإلا لو لم يكن الله موجوداً فكيف يستر ما ليس له وجود ؟، فإذا قال لك أحد : إنه كفر - واعياذ بالله تقول : الكفر هو الستر؛ فماذا سترت ؟ لا بد أنك سترت ما هو موجود، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾

أي كفروا بآياته الكوبية فلم يؤمنوا رغم الآيات الظاهرة التي ثلأ الكون، وكفروا بآيات الرسل فكذبوا رسلهم رغم أنهم جاءوهم بمعجرات تخزي قوايين الحياة، ولم يصدقوا آيات الكتاب التي أنزلت من السماء لتبين لهم مهج الله تعالى :

وقوله تعالى :

﴿ كَذَّبَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

ليجوز معبر يذكر لك لماذا أخذهم الله بذنوبهم .

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِذْ اللَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

والأخذ في قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَهُمُ ﴾ كان بسبب ما ارتكبوه من ذنوب وإفساد في الأرض، والإنسان حين يجد سوءاً يحيط به وعذاباً أليماً يأتيه فهو يحاول أن يفر منه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى :

﴿ اخَذَ عَزِيزٌ مُقْبِلٌ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة القمر)

أي أن قدرة الله تعالى تمسك الكافر مسكة محكمة فلا يستطيع فراراً أو هروباً.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

أى أن الله أقوى من كل ما تصنعون من كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم .
ويعلم أن العاص لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد
العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكن لكل جزاءه على
قدر ذنبه ؛ وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ؛ لأن العقاب من الله
إمّا يحدث بقدرات الله ، فمهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ، وقول الحق سبحانه
وتعالى ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ .

هد القول لا يدخل من الخبره التى يقول عنها الشاعر :

ألقاه فى اليم مكترفاً وقال له

إياك إياك أن تبخل بالماء

ويخطيء من يظن أن الله قد كتب جيراً على إنسان أن يكون كافراً ثم يلقى به
فى نار جهنم ، لا ؛ لأن مثل هذا لأمر يتناقى مع عدالة الله سبحانه وتعالى ،
فأنت أيها الإنسان مخير بين الطاعة وبين المعصية ، بين الإيمان وبين الكفر .
وعلى هذا نفهم قول الحق :

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

أى بسبب ذنوبهم ، ومدام الحق تبارك وتعالى قد توعدهم بعقاب شديد
فهذا دليل على شدة ظلمهم .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى الحثيثة لذلك فيقول تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

و « ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وأنت إن مطرت إلى بداية البشرية تجد أن الله تعالى خلق آدم ليجعله خليفة في الأرض ، وخلق حواء لإبقاء النوع الإنساني .
وقبل أن ينزل آدم على الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى المنهج ، ومن آدم وحواء بدأت خريتهما ، ولو ساروا على المنهج لذي علمه آدم لهذه الذرية ،
لصارت البشرية إلى سعادة ، ولكن الذرية تغيرت ، وجحدوا النعمة وأنكروا أن
للنعمة خالقاً ، فهل يبقى الله عليهم الأمن والسلامة والعم ماداموا قد تغيروا ؟
لا . بل لا بد . إذن . أن يخبر الله نعمه عليهم ، وإلا أصبح هناك أي مطلق
للدين ؛ لأن الإنسان قد طرأ على النعم ، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم
خلق له النعم . بل خلق العم أولاً ثم جاء الإنسان ليكون أهد له إصداً
كاملاً ؛ وفيه كل مقومات الحياة واستمرار الحياة . وظل الإنسان فترة طويلة هي
طفولة الحياة يرتع في نعم الله ، فقبل أن يعرف اسرراة ؛ وجد الثمار التي
يأكلها ، وقبل أن يعرف كيف يبعث عن الماء وحد الماء الذي يشربه ، وعلمه الله
كيف يعيش . وذلك له من الحيوان ما يعطيه اللبن واللحم . وكل هذه النعم
وغيرها كان لا بد أن يأخذها الإنسان بالشكر واستمرار الولاء لله الخالق المنعم .

ولكن الإنسان جحد نعمة الله تعالى وجحد النعم ، أتبقى له سعادة وحياة
مطمئنة في الأرض ؟ طبعاً لا ، ومادام الإنسان قد غير ، لابد أن يعير الحق
النعمة إلى نعمة ، ومن رحمته سبحانه أنه شاء أن يكون الإنسان هو البادي ،
فالحق سبحانه منزه أن يكون البادي . بالظلم ، بل بدأ الإنسان يظلم نفسه .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ أَتَىٰ رَبَّكَ مُبْتَلًىٰ نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُفَكِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنعام)

إذن ففكرية آدم بدأت أولاً بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر، ومن شكر النعمة إلى جحودها، فجيزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم، ولو أنهم عادوا إلى شكر الله وعبادته؛ لأعاد لهم الله نعم الأمن والاستقرار والحياة الطيبة.

وبلغتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها، فيقول

﴿ وَلَوْ أَن نَّهَلَ النَّاسُ أَلْسِنَهُمْ لَقَنَعُوا غِنًىٰ عَلَيْهِمْ بِرِكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وطبقاً لهذا القانون الإلهي لمجد أن تغيير الناس من الإيمان إلى الكفر لابد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم وإلا لأصبح منهج الله بلا قيمة، والمثال أن كل طالب يدخل امتحاناً، ولكن لا ينجح إلا من ذاكر فقط، وأما من لم يستذكر فإنه يرسب، حتى لا تكون الدنيا موضي، ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطى لمن اتبعوا المنهج نفس العطاء الذي يعطيه لمن لا يتبعون المنهج فما هي قيمة المنهج؟.

ذن لابد أن يدخل الإنسان إلى الإيمان، وأن يكون هذا الإيمان متغصلاً في أعماقك وليس أمراً ظاهرياً فقط، فلا تدع الإصلاح وأنت تفسد، ولا تدع الشرف والأمانة وأنت تسرق، ولا تدع العدل وأنت تظلم الفقير وتحابي الغني؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يعطي نعمة الطاهرة والباطلة إلا لمن يتبعون منهجه. وإذا رأيت قوماً عمّ فيهم الفساد فاعلم أن نفوسهم سم تتغير رغم أنهم يتظاهرون

باتباع المهج الإلهي.

وإن شكونا من سوء حالنا فلنعرف أولاً ماذا فعلنا ثم نغيره إلى ما يرضى الله عز وجل فيعير الله حالنا. ولذلك إذا وجدت كل الناس يشكون فاعلم أن هذا قد حدث بسبب أن الله غير نعمه عليهم ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم . أي أن حالتهم لأولى أنهم كانوا في نعمة ومشجعين مع منهج الله ، فعيروا انسجامهم وطاعتهم فتغيرت النعمة . أي أن هناك تغييرين أساسيين ، أن يغير الله نعمة أنعمها على قوم ، وهذا لا يحدث حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقوله تعالى

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنعام)

أي أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يفعلون ويسمع سرهم وجهرهم ، ولذلك إذا غيروا ، سمع الله سبحانه وعلم ؛ لأن التعبير بما أن يكون بالقول وإما أن يكون بالفعل ، فإن كان التعبير بالقول فالحق سبحانه يسمعه ولو كان مجرد خواطر في النفوس ، وإن كان التعبير بالفعل فالحق يراه ويعلمه ولو كان في أنفص الأرض .

يعود الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون فيقول :

﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا
ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

يتساءل البعض . لماذا عاد الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون ولم يأت بها

مع الآية الأولى ٤. مقوم ٠ لأن هناك مرقاً دقيقاً بين كل منهما . فالآية الأولى يقول فيها الحق تبارك وتعالى : ﴿ كُفِّرُوا بآيَاتِ اللَّهِ ﴾ وفى الآية الثانية يقول فيها .

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

والآية الأولى تدل على أنهم كفروا بالآيات الكونية المثبتة لوجود الله تعالى وآيات الرسل وآيات الكتب لى أنزلت إليهم ، وفى هذه الآية كذبوا بآيات ربهم أى لم يصبروا النعم التى أعطاهما الله لهم ، فنعم الله عطاء ربوبية ، وتكليفه ومهجه عطاء ألوهية ، وهم فى الآية الأولى كذبوا بعطاء الألوهية ، أى كفروا بالله . وفى الآية الثانية كذبوا بعطاء الربوبية أى بنعم الله ، فعطاء الربوبية هو عطاء رب خلق من عدم وأمد من عدم لتكتمل للإنسان مقومات حياته . والله يساوى فى عطاء الربوبية بين المؤمن والكافر وبين المعاصى والطائع ، ولا يفرق بينهم بسبب الإيمان أو الكفر .

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَعْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

أى لم يكن بينهم مؤمن وكافر بحيث يكون هنا تفرقة بأن ينجى المؤمنين ويفرق الكافرين ، بل كلهم ظلموا أنفسهم بالكفر ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ، وذكر سبحانه آل فرعون بالتخصيص ؛ لأنهم الأمة الوحيدة التى بقيت حضارتها تدل على مدى تقدمها ، هذا التقدم الذى لم يصل إلى كل أسواره حتى الآن . ولا يمكن أن تنتهى مثل هذه الحضارة إلا بقوة أعلى من قوتها . فكان الحق قد أراد أن يلفتنا إلى آل فرعون بالذات ؛ لأنه قدر

للإبشيرية أن تكتشف آثار آل فرعون، وآثارهم لافئة للعالم أجمع، ووضع في قلوب البشر حب أن يأتوا ليروا حضارة آل فرعون، ويتمجّبوا كيف وصلوا إلى هذه المنزلة العالية من الحضارة، ثم انهارت هذه الحضارة كدليل على وجود قوة أعلى وهي الله سبحانه وتعالى، وقد أهدبهم الحق لأنهم كفروا بالآلوهية واتخذوا فرعون إلها وربا من دون الله، وكفروا بنعمة الربوبية التي أعطاه الله لهم، والتي يذكر الله جزءا منها في قوله الكريم :

﴿ تَزَكُّوا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ۚ وَدَّرُوعٍ وَمَقَائِرٍ كَرِيمٍ ۚ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ ۚ ﴾

(سورة الدخان)

إذن فالله تعالى قد أعطاهم الزرع والماء ولم يعطهم بتقدير، بل أعطاهم بوفرة وسعة؛ لذلك قال تعالى : ﴿ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

وأعطاهم الثروة والقوة التي تحفظ لهم كرامتهم، وتجعلهم أسياد الأرض في عصرهم، وحققت لهم مقاماً كريماً ولم يجزّز أحد على أن يهينهم، ولا أن يعتدى عليهم، فقد كان عندهم كنوز الأرض؛ وعندهم القوة التي تحفظ لهم الكرامة في قوله تعالى :

﴿ وَدَّرُوعٍ وَمَقَائِرٍ كَرِيمٍ ۚ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ ۚ ﴾

(سورة الدخان)

وأعطاهم من لعلم ما يوفر لهم الترف والحياة الطيبة الرغدة المريحة في كل شيء، ولكنهم كفروا بنعم الربوبية هذه، كما كفروا بنعمة الألوهية؛ فاستحقوا العقاب، وبقيت آثارهم تدل عليهم؛ فوجد فيها الذهب والكنوز، وقد دفنت مع موتهم، ووجد فيها الحضرة والقوة في المعارك التي صوروها على معابدهم بتوضيح وإنفاق، ونرى فيها النعمة الهائلة التي كان يعيش فيها فرعون

وقومه ، ولكنهم لم يؤدرا حَقَّها وكفروا بالخالق واهب النعم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿الدواب﴾ جمع دابة ، والدابة هي كل ما يدب على وجه الأرض ، فهذا كان هذا هو المعنى يكون الإنسان داخلًا في هذا التعريف ، وبكى العرف اللعوى حدد الدابة بدوات الأربع ، أى الحيوانات . وشرف الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأن جعله لا يعشى على أربع ، فلا يدخل في هذا التعريف .
وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأنعام)

يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألحق لكفار بالدواب واستثنى المؤمنين فقط ، فسبحانه خالق الدواب وباقي أجناس الكون مقهورة تؤدى مهمتها في الحياة بالقريرة وبدون اختيار ؟ والشئ الذى يحدث بالفرائز لا تختلف فيه العقول ، ولذلك نجد كثيراً من الأشياء نتعلمها نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات لتي لا عقول بها ؛ لأن الحيوانات تتصرف بالقريرة ، والقريرة لا تخطئ أبداً ، فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أُنْخِئَ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

نجد أن الغراب الذى لا اختيار له ، ولا عقل ؛ علم الإنسان الذى له عقل

واحسير. وقد حدث ذلك لأن الغراب محكوم بالغريرة. إذن فكل ما يقوم به الحيوان من سلوك هو باختيار الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحيوان مقهور على التكليف. ومن رحمة الله تعالى أن المخلوقات باستثناء الإنسان خلقت مقهورة ؛ تفعل كل شيء بالغريرة وليس بالعقل ، ولكن الإنسان الذي كرمه الله بالعقل يكفر ويعصى. رغم أن الحق أنعم على الإنسان بنعمة الاختيار.

ومن العجيب أننا نجد الحيوان المحكوم بالغريرة لا يخرج سلوكه عن النظام المحول عليه ويؤدي مهمته كما رسمت له تماماً، فالدابة مثلاً تلد ويأخذون وليدها ليذب حوله فلا تفعل ؛ لأن هذه مهمتها في الحياة أن تعطي للإنسان اللحم. والحمامة ترقد على بيضها وعندما يخرج الفرج الصغير تتولاه لفترة بسيطة جداً حتى يعرف كيف يطير وكيف يأكل ثم بعد ذلك تتركه ؛ ليؤدي مهمته ؛ لأنه محكوم بالغريرة. والفرائز لا تخطئ. ويتصرف بها الحيوان بدون تعليم له.

فلماذا جئت للإنسان نجد أن ألوان السلوك المحكومة بالغريرة فيه لا يتعلمها ؛ إذا جاع طلب الطعام دون أن يعلمه أحد كيف يشمر بالجوع ، فهذه غريزة. وإذا عطش طلب الماء دون أن يعلمه أحد معنى العطش ولا كيف يشرب. وكل واحد منا في الفرائز متساو مع الآخر. ونجد الغنى والفقير والحاكم والعصير إذا شعروا بالجوع طلبوا الطعام، وإذا شعروا بالعطش طلبوا الماء. فكل شيء محكوم بالفرائز لا يوجد فيه تغيير.

ومن العجيب - مثلاً - أن الحمار حين يريد أن يعبر مجرى مائياً ينظر إليه ، ويجرد النظرة يستطيع أن يعرف هل سيعبره أو لا ، فإن كان قادراً قفز قفزة واحدة ليعبر ، وإن لم يقدر بحث عن طريق آخر. ولا تستطيع أن تجبر حماراً على أن يعبر مجرى مائياً لا يقدر على عبوره ، ومهما ضربته فمن يستجيب لك ولن يعبر. أما الإنسان إن طلبت منه أن يعبر قناة مائية فقد يقول لنفسه :

سأجمع كل قوتى وأقمز قفزه هائلة، وإن لم يكن قياسه صحيحاً، يسقط في الماء، ذلك لأنه أخطأ وصورت له أداة الاختيار أنه يستطيع أن يفعل ما لا قدر عليه، إذن فلمحكوم بالغريزة هو الأرض.

وعندما نأتى إلى الأكل، نجد الحيوان المحكوم بالغريزة أكثر وعياً، لأنه يأكل فإذا شبع لا يذوق شيئاً. ولو جئت له بأشهى الأطعمة، فأنت لا تستطيع أن تجعل الحيوان يأكل عود برسيم واحداً، أو حبة تبن، أو حبة فول بعد أن يشبع، وتجده يدوس عصى ما راد عن حاجته بقدميه. وتعال إلى إنسان ملأ بطنه وشبع وغسل يديه، ثم قالوا له مثلاً: أنت نسيت الفاكهة، أو نسيت الخدوى، تجده يعود مرة أخرى ليأكل وهو شبعان؛ فيتلف معدته ويتلف جسده، ولذلك تجد الإنسان مصاباً بأمراض كثيرة لا تصيب الحيوان، لأنه يسرف في أشياء كثيرة، بل تجد أن الأمراض التى تصيب الحيوان معظمها من تلوث بيئة الحيوان مما يفعله الإنسان.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الدابة المحكومة بالغريزة خير من الكافر؛ لأن الدابة تؤدي مهمتها في الحياة تماماً، بينما لا يؤدي الكافر مهمته في الأرض، بل يفسد فيها ويسفك الدماء، وبذلك يكون شر من الدابة. ولعد قلوباً: إن الدابة تمسك من مكان إلى مكان ولا تشكو، وتحمل أثقالك ولا تترحم، وتظل سائرة فترة طويلة وأنت جالس فوقها فلا تضيق بك وتلفيك على الأرض، لقد خلقت لهذه المهمة وهي تؤديها كما خلقت لها دون شكوى أو صجر؛ لأنها محكومة بنظام دقيق تتبعه وتعهده، ولكن الإنسان اخترع السيارة وطور فيها، وقد يحلس أمام مقعد القيادة ويصيب التعب فينسى ويقع في حادثة فيصاب فيها ويصيب غيره أيضاً.

وكان من المفروض أن يتبع الإنسان في حياته منهج ربه الذى أنزله إليه، لكن من البشر من كفر وأخذ يعرِف في الكون، وبذلك يكون شراً من الدابة،

لأن الكافر لا يستخدم عقله في أولويات الوجود ، وهو لو استخدم عقله يعرف أنه أقبل على كون قد أعد إحصاءاً دقيقاً ؛ شمس تضيء نصف الكون لتعطيه النهار ، وتغرب ليظل لمرضىء بالليل يؤنس في الظلام ؛ ومجرم تهديه الطريق في البر والبحر ، ومطر ينزل لينبت الرزق. وحيوان مسحور له يعطيه اللبن والسحم ويعمل أثفاه. كان لا بد - إذن - للإنسان صاحب العقل أن يفكر : من الذى خلق له كل هذه النعم ؟ لأن هذه هي من أولى مهام العقل الذى يفكر ، وينبئنا على الخالق. وكان لا بد في هذه الحالة أن يعرف الإنسان بعقله أن الذى صنع له كل هذه النعم وسخرها له لا بد أنه يريد به خيراً. ولذلك إذا جاءه المنهج من السماء عليه أن يتبعه ؛ لأنه يعلم أن هذا المنهج خير ما يصلح له ؛ لأنه جاء من خالفه.

وفي هذه الحالة كان لا بد لأمر أن يكون أن تستقيم. ولكن بعضاً من بنى الإنسان استروا وجود الله وكفروا به ولذلك بوضح لنا الحق تبارك وتعالى أنهم شر من الدواب ، لأنهم لا يؤمنون.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ
فِي كُلِّ مَرْوَةٍ لَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الكافرين الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتقل هنا للكلام عن الجماعة التى عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يكفوا عنه شرهم ، وألا يتعرض لهم الرسول ، وهم اليهود ، فهل ظلوا على وفائهم بالعهد ؟ لا . بل نقضوا العهد.

بوقريظة - مثلاً - عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يعينوا عليه أحداً، ولما جاءت موقعة بدر مدوا الكفار بالسلاح ونقضوا العهد، ثم عادوا وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ثانياً، وعندما جاءت عزوة الخندق اتفقوا على أن يدخل جنود قريش من المنطقة التي يسيطرون عليها ليضربوا جيش المسلمين من الخلف في ظهره، فأرسل الله ريحاً بددت شمل الكفار، إذن يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنفال)

وهم قد فعلوا ذلك؛ لأنهم تركوا منح الله وحاقوا من رسول الله فحاولوا أن يحددوه بنقض المعاهدات، وقوله تعالى : ﴿وهم لا يتقون﴾

إنهم لا يتقون الله - عز وجل - الذي يؤمنون به إلهاً؛ لأنهم أهل كتاب؛ جاءتهم التوراة، وجاءهم رسول وهو موسى عليه السلام، وهم ليسوا جماعة لم بأنها كتاب بل نزل عليهم كتاب سماوى هو التوراة، ومع ذلك لا يتبعون ما به كتابهم ولا يتقون الله تعالى، فهم أولاً ينقضون لعهد، وانقضض ضد الإبرام، والإبرام هو أن تقوى الشيء تماماً كما تبرم الخيط أى تقويه، وعندما تقوى الخيط فانت تجعله ملفوفاً على بعضه ليصبح متيناً، فالخيط الذى طوله شبران عندما تبرمه يصبح طوله شبراً واحداً ويصبح قويا، فإذا فككت أى نقضته أصبح ضعيفاً، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَظَتْ غَزَلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُرْعَةٍ أَنْكَبُوا ﴾

(من الآية ٩٢ سورة النحل)

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى الحكم فى هؤلاء؛ أولئك الذين لا يؤمنون،

ولا يتقون وينقضون عهدهم ، فيأتى فيهم انقول الحق :

﴿ فَاِمَّا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ

لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٤٧﴾

أى إن وجدتهم فى أى حرب فشرد بهم من خلفهم

ولنا أن ملحظ أن كلمة « إما » هى إن الشرطية المدغمة فى « ما » إذا ما حذفنا منها ما ، نجد أنها تصبح إن ، كأنه يقول : « إن ما » ، وأدغمت نون « إن » فى « ما » ، مثبها مثل أن نقول إن جاءك زيد فأكرمه ؛ هذه جملة شرطية فيها شرط وجواب وأداة شرط ، ولكنه إذا تم مرة واحدة يكون قد انتهى . ولكن « ما » مع إن الشرطية تدل على أنه كلما حدث ذلك فإننا نفعل بهم ما أمر الله تعالى به ، كما نقول : كلما جاءك زيد فأكرمه ؛ لأن إما هذه تتضمن ما يفيد الاستمرارية ، مثل « كلما » فكما جاءك تكرمه ولو جاء مائة مرة ، ولو لم تحيىء « ما » لكان يكفى أن تصنعها مرة واحدة .

وقوله تعالى : « تثقفنهم فى الحرب » ، تثقف بمعنى وجد ، أى كلما وجدتهم فى الحرب : فشرد بهم من خلفهم ، أى جعلهم أداة لتشريد من خلفهم . وعليك أن تؤدبهم أدبا يجعل الذين وراءهم يخفون منكم ، ويستعدون عنكم ، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع ، وكما يقول المثل العاسى : « اضرب المربوط يحاف السائب » . أى أن المطلوب أن مجاهدكم بقوة وبدون شفقة ، حتى لا يفكر فى مساعدتهم من جاءوا خلفهم لينصروهم أو يؤازروهم بالدخول معهم فى القتال ، ولا تحدثهم أنفسهم فى أن يستمروا فى المعركة ، فشرد بهم ، والتشريد هو التشيت والتفريق والإبعاد ولكن بقوة . فحيثما يريدوا أن يذهبوا ؛ امنعهم وشتهم على غير مرادهم . وقول لحق سبحانه وتعالى : « لعلهم يدكرون »

أى لكى تكون هذه التجربة درساً لهم ؛ كيلا يفكروا مرة أخرى فى حرب

معك؛ لأنهم سوف يتذكرون ما حدث لهم فيتعلمون عن مواجهتك.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْصُرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾﴾

وسبحانه وتعالى يبدأ هذه الآية بقوله : « وأما » ومثلها مثل « فيما » في الآية السابقة وقد تم التوضيح فيها ، وهـ يتحدث عن الآخرين الذين لا يواجهون بالحرب ، بل يدبرون خيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقول : هل هذه الخيانة مقطوع بها ؟ أو أنت أخذت بالشبهات ؟ . الله سبحانه وتعالى هنا يفرق عدالك في خلقه بين الخيانة المقطوع بها والخيانة عبر المقطوع بها ، ما الخيانة المقطوع بها لها حكم ، والخيانة المظنون بها لها حكم آخر . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى بلغك أنهم سيخونونك ، ماذا تفعل فيهم ؟ .

يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿فَاصْبِرْ إِلَىٰ سَوَاءٍ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى أنه مادام هناك عهد والعهد ملك لطرفين ، هذا عاهد وذاك عاهد ، وإياك أن تأخذهم على عرة ، بل انصد إليهم ، والنصد هو الطرح والإبعاد ، أى عليك أن تلغى العهد الذى بينك وبينهم ، وتنتهي ، وتبعده بكرامية . فساعة تخاف الخيانة

أبعلهم ، ولكن لا تحربهم قبل أن تعلمهم أنك قد ألقيت العهد بسبب واضح معلوم.

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبيلة خزاعة - كانت من حلفائه بعد صلح الحديبية - وكان الصلح يقضى ألا تهاجم قريش حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يهاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفاء قريش ، وذهب بعض من أفراد قريش إلى قبيلة خزاعة وحربوهم ، أى أن قريشاً خانت العهد ، ونقضت الميثاق الذى كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم ، وذلك بمعاونتها بنى بكر فى الاعتداء على خزاعة حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم مما إذا فعل الماجرون من خزاعة ؟. أرسلوا عنهم عمرو بن سالم الخزاعى يصرخ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة وقال : إن قريشاً أخلفتك الرعد ونقضت ميثاقك ، ولما حدث هذا لم يبق رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة سرا ، بل أبلغ قريشاً بما حدث. وأنه طرح العهد الذى تم فى صلح الحديبية بينه وبين قريش.

وعندما جاء أبو سفيان إلى المدينة ليحاول أن يبرر ما حدث. رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقابله.

إذن فإن وجدت من القوم الدين صاهدتهم بواجب حيازة مائذ العهد ، أما إن تأكدت أنهم حاربوك فعلاً وحدثت الخيانة ففاجئهم بالحرب ، تماماً كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد أن خانوه فى غزوة الخندق ونقضوا لعهد والميثاق.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)



فكان الله تعالى يرى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرى،
والمسلمون أبرياء أن يخونوا حتى مع الذين كفروا؛ وهذه تؤكد لنا أن الإسلام
جاء ليعدل لموازن في الأرض؛ ليس بالنسبة للمؤمنين به فقط بل بالنسبة
للناس جميعاً. ولذلك إن قرأت قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحَقَّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَوْثَقَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

تلاحظ أن الآية لم تقل : بين المؤمنين . ، ولكن قالت : ﴿ بين الناس ﴾ ؛
حتى لا تكون هناك تفرقة في العدل بين مؤمن وغير مؤمن ، معبر المؤمن مخلوق
لله ، استدعاء الله إسي هذا الوجود ، ومبجانه فداً له مكانه في هذا العالم ؛
لذلك لا بد أن تراعى العدل معه في كل الأمور ولا تظلمه بل تعطيه حقه ؛ لأنك
بذلك تكون أنت مدداً من إمدادات الله . وقد كان هذا السو ك العادل ادى أمر
به الله سبأ في دحول عدد كبير في الإسلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى . يوب .

﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

أى لا تبصر - يا محمد - الخائنين حتى وإن كانوا من أنبيائك . وقد نزلت
هذه الآية عندما سرق درع من قتادة بن النعمان وهو من الأنصار ، وحامت
الشبهة حول رجل من الأنصار من بيت يقال لهم : بنو أبيرق . فجاء صاحب
الدرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن طلعة بن أبيرق سرق
درعى ، فلما علم اسارق بما حدث ، وضع الدرع في جوال دقيق وأسرع وألقاه
في بيت رجل يهودى اسمه زيد بن السمين . وقال لعشيرته : إني وضعت الدرع
في منزل اليهودى زيد بن السمين ، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقالوا : يا رسول الله إن صاحبنا يرى . والذي سرق الدرع هو فلان

اليهودى. وذهب الصحابة فرجدوا الدرع فى جوال دقيق فى بيت اليهودى. ولكن ليهودى أنكر أنه سرق الدرع وقال . لقد أتى به طعمة بن أبيرق ولم يلحظ طعمة أثناء نقل جوال الدقيق أن الجوال ثقباً صغيراً ، تسرب منه الدقيق ليصنع علامة على الأرض ، وذلك من غفلة ، لأن الله لا بد أن يترك دليلاً للحق يهتدى به القاضى حتى لا يضيع الحق ؛ فتنبع المسلمون علامة لدقيق حتى أوصلتهم إلى بيت طعمة بن أبيرق وأصبحت القضية أن السارق مسلم. ولكنه اتهم اليهودى كذباً بالسرقة. وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حكمت لليهودى على المسلم يكون المسلمون فى خسة وذناء وخرج ، وإذا بالوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحسمه من تعدى خواطره فى هذه المسألة :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَادَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلظَّالِمِينَ خَصِيماً ١٢٩ ﴾

(سورة النساء)

أى لا تكن لأجل ولصالح الخائنين مدافعاً عن أى واحد منهم ولو كان هذا الخائن مسلماً. وهكذا كان عدل الإسلام فى أن حكم الله تعالى لا ينصر مسلماً على باطل ولا يظلم يهودياً ، ألا يرون هذا الدين وما فيه من قوة الحق ؟ ألا يدفعهم ذلك إلى أن يتجهوا إلى هذا الدين الإسلامى دين العدالة والإنصاف ليكونوا فى أحضانه ؟

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّمَا تَحْكُمُ مِنْ قَوْمٍ حَبَائِلَ عَلِيلَةٍ يُحِبُّونَ سَوَاءَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنعام)

أي قل لهم إني ألغيت هذا العهد الذي بيني وبينكم وأصبحت في حل منه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

يعين أنه سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين حتى ولو كانوا من المنسوين للإسلام .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ٥٨ ﴾

حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الكفار في حرب ، قُتل فريق من الكفار ، وأسر فريق آخر منهم ، وفر فريق ثالث ، وأما الذين قتلوا والذين أسروا فقد أخذوا جزاءهم ، والذين فرروا نجوا من القتل ومن الأسر ، فكأنهم سبقوا فسم يلحق بهم المسلمون الذين أرادوا أن يقتلوه أو يأسروهم . والسبق أن يوجد شيء يريد أن يلحق بشيء أمامه فيسبقه ، ولا يستطيع اللحاق به . فكأن الكفار عندما فروا سبقوا المسلمين الذين لو لحقوا بهم لقتلوه أو أسروهم .

الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا هو ظاهر ما حدث ، ولكن الحقيقة التي يريدنا الله عز وجل أن نفهمها هي أن هؤلاء الكفار الذين فروا وسبوا ، ولم تلحقهم أبدى المسلمين ، هؤلاء لا يعجزون الله تعالى ولا يخرجون عن قدرته سبحانه وتعالى وسوء يأتيهم العذاب في وقت لاحق ، إما بانقضاء الأجل وإما في معركة ثانية .

وعادة يجد أن كلاً من السابق والمسبق يستخدم أقصى قوته ، الأول ليفر والثاني ليلحق به . ولذلك عندما تراهما فقد تتعجب من القوة التي يجري كل

مهما بها، وهذه هي الطبيعة الإنسانية « فساعة الأحداث العادية يكون للإنسان قوة ومذرة. وساعة الأحداث المفاجئة تكون له أي للإنسان ملكات أخرى. فإذا غرقت سفينة في البحر مثلاً وتعلق واحد من ركابها بقطعة خشب من حطام السفينة، نجاهه سباح لفترة طويلة دون أن يشعر بالتعب. فإذا وصل إلى الشاطئ غارت قواه.

ولقد عرفنا سر ذلك عندما اكتشف علم وظائف الأعضاء أن الإنسان عنده غدة فوق الكلى هي الغدة الكظرية، إذا وقع في مأزق مفاجئ « تفرز مادة « الأدرينالين » وهذه مادة يمكن أن تعطيه عشرة أضعاف قوته، ولكن إذا زال الخطر تتوقف الغدة عن إفراز هذه المادة. لا بالنسبة التي يحتاجها الجسم، ولذلك نجد الإنسان الذي يقارع الموج في البحر تده هذه الغدة بالوقود، فإذا وصل إلى الشاطئ توقفت الغدة عن الإفراز الزائد المناسب للخطر فتخور قواه وربما يظل ثلاثة أيام نائماً من التعب.

وهناك قصة خيالية رمزية تروى عن صائد أرسل كلبه يجرى وراء غزال ليأتيه به، والكلب يجرى يريد اللحاق بالغزال، والغزال يجرى طلياً لئلا يسجاة، ونحاة التفت الغزال إلى الكلب وقال له . لن نلحقني ؛ لأنني أجري لحساب نفسي وأنت تجرى لحساب صاحبك.

فمن يفعل شيئاً لينجو بنفسه يكون قويا. وقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنفال)

أي إنهم في قبضة المشيئة لا يخرجون عن قدرة الله الذي سيحصرهم ويحاسبهم.

ويعمد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن حارب، ومن عاهد وعذر، ومن

فر ومضى، ومن يريد أن يلحق به، أراد أن ينهنا إلى حقيقة هامة وهي ألا نقصر في إعدادنا للقوة التي تعيننا على سلافة الأعداء وقت الحرب أو حتى تأتينا الحرب؛ لأننا قد نحتاجها فلا نستطيع أن نستعد، ولذلك لا يجب أن يقتصر استعدادنا للقتال إلى أن تأتي ساعة القتال داتها، لا، بل يجب أن نستعد سلماً وحرباً. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك .

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِسُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُورِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ يعني أن يكون الإعداد لكل من تحدث عنهم، وهم الذين قاتلوا وقتلوا وأصاب أهلهم ضرورة الثأر لقتلهم، والذين أسروا، والذين نقضوا العهد نقضاً أكيداً أو نقضاً محتملاً، كل هؤلاء لابد أن تعد بهم ما جاء به قول الحق تبارك وتعالى: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾

وهذا تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا دائماً قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة،

ولماذا قدر استطاعتهم ؟

لأن الإنسان محدود بطقه، ووراء قدرة المؤمنين قدرة الله سبحانه. ولذلك

أنت تعد قدر ما تستطيع ثم تطلب من الله أن يعينك. وإذا ما صنعت قدر استطاعتك، إياك أن تقول: إن هذه لاستطاعة لن توصلني إلى مواجهة ما يملكه خصمي من معدات يمكن أن يهاجمي بها، فخصمك ليس له مدد من السماء إنما أنت لك المدد السموي، وما دام لك هذا المدد فقوتك بمدد الله تجعلك الأقوى مهم كان عدوك، ولذلك عندما يحدث الله تعالى المؤمنين يوضح بهم، إياكم أن تحافوا من كثرة عدد عدوكم، واطلبوا منكم أن تعدوا له ما استطعتم من قوة وحتى أطمئنتكم أني معكم، تذكروا آية وحيدة أنزلتها، وهي:

﴿سَبِّحْ فِي نَوْبِ الَّذِينَ كَفَرُوا ارْغَبْ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

وساعة يلقي الله عز وجل في قلوب الذين كفروا الرعب سيلقون سلاحهم ويفرون من ميدان القتال ولو كانوا يحاربون بأقوى الأسلحة، وسيتمكن المؤمنون منهم ويتصرون عليهم بأية قوة أعدوها. وقوله تعالى:

﴿ما استطعتم من قوة﴾

هذه القوة قد تكون ذاتية هي النفس بحيث لا تخاف شيئاً، فجميع كل مقاتل قوى متملىء بالصحة وله عقل يعمل بانتدار وإقبال على القتال هي شجاعة، بالإصاصة إلى قوة السلاح بأن يكون سلاحاً حديثاً متطوراً بعيد المدى، وأن يحرص المؤمنون على امتلاك كل شيء موصول بالقوة. وكان الهدف قديماً وحديثاً أن يمتلك المقاتل قوة تمكنه من عدوه ولا تمكن عدوه منه، وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مدى رمي لسهام هو رمز القوة. فأول ما تبدأ الحرب يضررون العدو بالبيان، فإذا زحف العدو وتقدم يستحذمون له الرماح، فإذا تم الالتحام كان ذلك بالسيوف، وكانت أحسن قوة في الحرب هي

السهام التي ترمى بها تحصمك فتنااله وهو بعيد عنك ، ولا يستطيع أن يثالك أو يقترب منك ، ولذلك عندما همر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة قال قيم يرويه عن عقبه بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ، ثم قال : « إلا إن القوة الرمي ، إلا إن القوة الرمي ، إلا إن القوة الرمي » .^(١)

لأنك بالرمي تتمكن من عدوك ولا يتمكن هو منك ، فإذا تفوقت في الرمي كنت أنت المتصر عليه .

ولكن كيف ينطبق ذلك على الحرب في العصر الحديث بعد أن تطورت الأسلحة الفتاكة ؟ لقد صارت المدفعية لفترة من الزمن هي السلاح ، لأنها المحقق لمصر لبعدها ، ثم جاءت الطائرات لصبح هي السلاح الأقوى ؛ لأنها تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وتلقى بقذبتها وتعود ، وصارت قوة الطيران هي التي تحدد المتصر في الحرب ؛ لأنها تحقق بالعدو خائر جسيمة دون أن يستطيع هو أن يرد عنيها مادام غير مسفوق في الطيران ، ثم بعد ذلك جاءت الصواريخ والصواريخ عابرة للقارات ، إلى آخر الأسلحة المتطورة التي تتسابق على اختراعها الدول لان ، وكلها أسلحة بعيدة المدى ، والهدف أن تنال كل دولة أرض عدوها ولا يستطيع هو أن يبال أرضها ، ويضيق الحق تبارك وتعالى .

﴿ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ورباط الخيل هو القوة التي تحتل الأرض ، فمهما بلغت قدرتك في الرمي فأنت لا تستطيع أن تسترلي على أرض عدوك ، ولكن رابى الخيل كانوا

(١) رواه الإمام مسلم وغيره

يدخلون المعركة في الماضي بعد الرمي ليحتلوا الأرض. وهذه عملية تقوم بها المدرعات لأن. فالمعركة تبدأ أولاً رمية بالصواريخ والطائرات حتى إذا سقطت قوة عدوك انطلقت المدرعات لتحتل الأرض، فالطائرات والصواريخ تهلك العدو وتحطم ولكنها لا تأخذ الأرض. ولكن الذي يمكننا من الأرض والاستيلاء عليها هو: رباط الخيل، أو المدرعات، ورباط الخيل هو عقده للحرب، أي أن الخيل تُعد وتُعلم وتُدرّب وتكون مستعدة للحرب في أية لحظة، تماماً كما تأتي للمدرعات وتعلمها عدداً جيداً بالدخيرة، وتصلح ماكساتها وتُدرّب عليها لتكون مستعدة للقتال في أية لحظة. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من خير معاش الناس لهم رجل بمسك بعدا قرب في سبيل الله بطير على متنه كلما سمع هبة أو فزعة طار على متنه يبتغي القتل أو الموت مطاناً، ورجل في غنيمة في شعبة من هذه الشعفاء ورجل راد من هذه الأودية، يقسم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعدّ به حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير (١)"

أي أنه لا يتظر بل ينطلق لأي حبيشة. ومن الإعجاز في الأداء القرآني أنه أعطانا ترتيباً للحرب، فالجرب أولاً تبدأ بهجوم يحطم قوى العدو بالرمي، سواء كان بالصواريخ أم بالطائرات أم بغيرهما، ثم بعد ذلك يحدث الهجوم البري، ولا يحدث لعكس أبداً. ورتب الحق سبحانه وتعالى وسائل استخدام القوة أثناء القتال، فهي أولاً الرمي، وبه نهلك مكياً ثم نستولى على المكان، وكان ذلك يتم برباط الخيل الذي تقوم مقامه المدرعات الآن. ونجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء في القرآن الكريم بالأداء الذي يعلم ما تأتي به الأيام من اختراعات الخلق، ونجد في زمانها هذا كل قوة للسيارة أو المدرعة أو لدبابة

إنما تقام منسوبة إلى الخيل ، فيقال قوة خمسة أحصنة أو خمسمائة حصان.

ويقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنعام)

فالقصد - إذن - من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتى لا يطمع فيكم ؛ لأن مجرد الإعداد للقوة ، هو أمر يرب رهبا للعدو. ولهذا تقام العروض العسكرية ليرى الخصم مدى قوة لدولة ، وحين تيسر لخصمك القوة التي تملكها لا يجترئ عليك ، ويتحقق بهذا ما سمي به بلعة العصر « التوازن السلمي » . والذي يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو التوازن السلمي بين مجموعات من الدول ، بالإضافة إلى العامل لاقتصادي المكثف للحرب ، فالقوة الآن لا تقتصر على السلاح فقط ، ولكن تعتمد القوة على عناصر كثيرة منها الاقتصاد والإعلام وغيرهما. وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب. وكل دولة تخشى مما تخيه أو تظهره الدولة الأخرى.

وهكذا صار الإعداد للحرب ينفى قيام الحرب.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنعام)

ولا تظنوا أن من يواجهونكم هم أعداء الله فقط وقد سلطكم سبحانه عليهم ، لا بل عليكم أن تعرفوا أن أعداء الله هم أعداؤكم أيضاً ؛ لأنهم يفسدون الحياة على المؤمنين. وعدو الله دائماً يحاول أن ينال من المؤمنين. وأن يكل بهم ، وأن يجبرهم إن استطاع على الكفر وأن يعريهم على ذلك. فالخوف من الله سبحانه وتعالى لا يغضب ؛ لأنهم لم يؤمنوا به ، بل لأنهم لا يطبقون المنهج

الذى يسعد الإنسان على الأرض ، سبحانه وتعالى لا يكرههم ولكن يعائبهم بسبب لإفساد على الأرض وبغيهم وطغيانهم .

﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنعام)

وهذه لفظة من الحق سبحانه وتعالى إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كهار فريرش واليهود والمنافقين وغيرهم ، ولكن هناك خلقاً كثيراً سيأتون بعد ذلك لا تعلمونهم أنتم الآن ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم ، كما يلفتنا سبحانه إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم الذين يظهرون في ميدان القتال فقط ليحاربوا المسلمين ، ولكن هناك كثيراً ممن لا يظهرون في ميدان القتال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين . وقد ظهر معنى هذه الآية الكريمة ، ولا يزال يظهر للمسلمين ، فظهرت عداوة الفرس والروم وحربهم ضد المسلمين ، وظهرت عداوة الصليبيين وغيرهم . ومع الزمن سوف يظهر من يعلمهم الله ولا تعلمهم نحن . وقد جاءت أحداث الحياة لتؤكد دقة تعبير القرآن الكريم .

ثم يتناول الحق سبحانه وتعالى هو اجس النفس البشرية ، وهي تنصت بهذه الآيات من الإعداد العسكرى ، فالدى يحظر على الببال أولاً أن مثل هد لإعداد يتطلب مالا ، ويتطلب جهداً ، ويتطلب زمناً فوق الزمن لقضاء المصالح والخوائج . فإياكم أن تنكصوا عن الاستعداد ؛ لأن كل ما تنفقونه في سبيل الله محسوب عند الله . وإياكم أن تقولوا : إن الإعداد لقوة المجتمع يحتاج مالا ويقتصر على الأبناء ؛ لأن الله يرزقكم . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ رَمَّا تُعَمِّرُونَ مِنْ نَحْنُ وَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرْجِ وَانْتُمْ لَا تَصْطَرُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الأنعام)

أى أن ما تنفقونه مما يمال به : شىء سواء أكان قليلاً أم كثيراً يرد إليكم ، ولقد جاء التعبير : ﴿ من شىء ﴾ فى قوله تعالى ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ أى بما يقال له شىء . ولو جاءت الآية : غنمتم شيئاً ، لما شملت الأنبياء البسيطة ، ولكن قوله تعالى : ﴿ من شىء ﴾ أى من بداية ما يعار له شىء ، حتى قالوا : إن الخيط الذى يوحده عند العدو لا بد أن يذهب للغنائم ، وقوله ببارك وتعالى .

﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأفعال)

، يعنى أى شىء تنفقونه فى سبيل الله تعالى مدحركم ما دمتم أنفقتموه وليس فى بالكم إلا الله عز وجل أما الإنفاق الذى طاهره لله وحقيقته بشهرة أو الحصول على الثاء أو للتأخير أو لتقصاء المصالح . فكل ذلك اللون من الإنفاق خارج عن الإنفاق فى سبيل الله ، لكن الإنفاق فى سبيل الله سيرده الله لكم مصداقاً لقوله تعالى - ﴿ يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾

أى أن ما تنفقونه فى سبيل الله لا ينقص مما معكم شيئاً .

على أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نأخذ طريق العدل وليس طريق الافتراء ؛ لذلك يطلب منا عز وجل ألا يطغينا هذا الاستعداد للحرب على خلق الله ، فعدام لدينا امتطحة وأعدنا قوتنا وأسلحتنا فليس معنى ذلك أن نصاب بالعرور ونجترى على حق الله ؛ ولهذا فإن الله عز وجل يهب إلى فلك بقوله

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهُمْ تَوَكُّلاً عَلَى اللَّهِ ﴾

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

أى أن الله لم يطالبنا بأن نكون أقوياء لنفثرى على عيرنا ، فهو لا يريد منا إعداد القوة للاعتداء والعدوان ، وإنما يريد القوة لمنع الحرب ليهود السلام ويعم الكون ؛ لذلك ينهانا سبحانه وتعالى أن يكون استعدادنا للقتال وسيلة للاعتداء على الناس والاقراء عليهم. ولهذا فإن طلب الخصم السلم والسلام صار لازماً علينا أن نسألهم. وإياك أن تقول : إن هذه خديعة وإنهم يريدون أن يخذلونا ؛ لأنك لا تحقق شيئاً بقوتك ، ولكن بالتوكل على الله عز وجل والتأكد أنه معك ، والله عز وجل يريد الكون متسانداً لا متعانداً . وهو سبحانه وتعالى يطلب منك القوة لترهب الخصوم. لا لتظلمهم بها فتفنانلهم دون سبب. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ جَحَرُوا لَكَ فَاتَّخِذْ لَهُمْ ^١

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى إن مالوا إلى السلم ودعوك إليه فاجبه أنت أيضاً إلى السلم ، فلا داعى أن تنهمهم بالخدع أو تخشى أن يقلبوا عليك فجأة ؛ لأن الله تعالى معك بالرعاية والبصر ، وأنت من بعد ذلك تأخذ استعدادك دائماً بما أعددت من قوتك.

وقول الحق :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ^٢

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى إياك أن تتوكل أو تعتمد على شيء مما أعددت من قوة ؛ لأن قصارى الأمر أن تنتهى فيه إلى التوكل على الله فهو يحملك. ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى حشية ذلك فيقول

﴿ تَنْتَظِرُ ^٣ مُوَالِيْعُ الْعَلِيْمِ ^٤

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى أنه لا شيء يغيب عن سمعه إن كان كلاماً يقال، أو عن علمه إن كان فعلاً يتم. وإياك أن تخلط بين التوكل والتوكل، فالتوكل محله القلب والجوارح تعمل؛ فلا تتوكل عن الجوارح وتدعى أنك تتوكل على الله، وليعلم المسلم أب الانتباه واجب، وإن رأيت من يفقد يقظته لابد أن تنبيهه إلى ضرورة اليقظة والعمل، فالكلام له دورها، وكذلك الفعل له دوره؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى .

﴿إِنَّمَا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(س الآية ٦١ سورة الأنعام)

ولنلاحظ أن قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَأَن سَأَلُوا إِلَهًا فَمَا آتَاهُمُ إِلَّا أَنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(سورة الأنعام)

هذا القول إنما جاء بعد قوله تعالى .

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَغْنَوْا مِن قُرَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ أَخْلَسَ مُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

(س الآية ٦٠ سورة الأنعام)

وهي آية تحض على الاستعداد للقتال بإعداد العدو له .

ويريد الحق تبارك وتعالى أن يبيننا إلى أن قوة المؤمنين واستعدادهم الحربي يجب ألا يكونا أداة للطغيان، ولا للقتال لمجرد القتال. ولذلك يبيننا سبحانه وتعالى إلى أنهم لو مالوا إلى السلم فلا تخالهم وتصر على الحرب؛ لأن لدين يريد سلام المجتمع، والإسلام لا يتشر بالقوة وإنما يتشر بالإقناع والحكمة. فلا ضرورة للحرب في شر الإسلام؛ لأنه هو دين الحق الذي يقنع الناس بقوة

حجته ويجذب قلوبهم بسماحته، وكل ذلك لشحن ملى قوة الإيمان، لنكون على أهبة الاستعداد لملاقاة الكافرين، ولكن دون أن نبطرننا القوة أو ندعونا إلى مجاوزة الحد، فإن مالوا إلى السلم، علينا أن نميل إلى السلم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد سلامة المجتمع الإنساني. وإن كتمت تخافون أن يكون جنوحهم إلى السلم حديعة منهم حتى نستقيم بهم، ثم يفاجئوننا بعدد، فاعلم أن مكرمهم سوف يمور؛ لأنهم يمكرون بفكر البشر، والمؤمنون يمكرون بفكر من الحق سبحانه وتعالى؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي يُدْكِرُ الْغَوَّاصِينَ﴾

فإذا أحسنت أن مبادرة السلم التي يعرضونها عليك هي مجرد حديعة حتى يستعدوا لك ويفاجئوك بغدر ومكر، فاعلم أن الله تعالى عليم بمكرهم، وأنه سيكشفه لك، وعادام الله معك فلن يستطيعوا خداعك، وإذا أردت أن يطمش قلبك فاذكر معركة بدر التي جاءك النصر فيها من الله تعالى وتمثلت أسبابه المثبتة في استعداد المؤمنين للقتال ودخولهم المعركة. وتمثلت أسبابه غير المثبتة في جنودهم يرها أحد، وفي إلقاء الرعب في قلوب الكفر، وكان النصر حليفك بحسنة الله تعالى.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾

والخداع هو إظهار الشيء المحبوب وإبطان الشيء المكروه، وهول: «ولان يخادعنى» أى يأتى لى شىء أحبب، ويطن لى ما أكرهه، ولأن الخداع فى إحقاء ما هو مكروه، وإعلان ما هو محبوب، فهل أنت يا محمد متروك لهم، أم أن بك رب هو سنلك، وهو الركن الركين الذى تأوى إليه؟ وتأتى لإحاطة

من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَبَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣)

(سورة الأنفال)

إذن قاله سبحانه وتعالى حسبك وسنتك وهو يكفيك لأنه نصرتك واررك. وأنت ترى أن هذه قضية دليلها معها ، فقد نصرتك بنصر رغم قلة العدد والعدد.

والتأييد تمكين بقوة من الفعل ليؤدي على أكمل وجه وأحسن حال ، وما دام الله عز وجل هو الذي يثبته فلا بد أن يأتي الفعل على أقوى توكيد ليؤدي المراد والغاية منه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَاللَّيْلَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٣)

والتأييد هنا عناصره ثلاثة : الله يؤدي نصره ، والله يؤدي بالمؤمنين ، والله يؤلف بين قلوب المؤمنين ، والتأليف بين القلوب جاء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل لقوم لهم عصبية وحمية ، وهم فيأثرون متفرقة تقوم الحروب بينهم لأنهم لأسباب ، لأن عناصر التفرقة موجودة بينهم أكثر من عناصر الائتلاف.

إن القبيلة مجتمعة تهب للدفاع عن أي فرد فيها مهما كانت الأسباب والظروف ، حتى إنه ليكفي أن يسب واحد من الأوس مثلاً واحداً من الخرج لتقوم الحروب بين القبيلتين ، ولو أن القلوب ظلت على تفرقها لما استطاعت هذه

القبائل أن تواجه أعداء الإسلام ، ولشغلها حروبها الداخلية عن نصرة الدين والدفاع عنه ومواجهة الكفار. ولكن الله ألف بينهم ، وبعد أن كانوا أعداء أصبحوا أحبباً. وبعد أن كانوا متناهرين أصبحوا متوادين.

وهكذا ألف الله بين قلوب المسلمين بحيث أصبح الإسلام في قلوبهم وأعمالهم وأسلوب حياتهم هو أقوى رابطة تربط بينهم. فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب. وحين تتألف القلوب ، فهذا أقوى رباط ، لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة في القلب.

إن القلب هو مصدر النية التي يتبعها السلوك ، والذي يحرك إنساناً مؤثراً منك ويشير جوارحه ضلك ، إنما هو لقلب ، فإن وجدت إنساناً يعين في وجهك فافهم أن في قلبه شيئاً ، وإن لقيته وحاول أن يصربك فافهم أن في قلبه شيئاً أكبر ، وإن حاول أن يقتلك ، يكون في قلبه شعوراً أعمق بالبغض والكراهية.

إذن فالينوع لكل المشاعر هو القلب. ولذلك يرى الإنسان يضحى بكل شيء وربما ضحى بحريته وبماله في سبيل ما آمن به ومستقر في قلبه ، ونحن نرى العلماء في معاملهم يعيشون سنوات طويلة ويحرمون أنفسهم من متع الحياة الدنيا لأن العلم قد تحول إلى عقيدة في قلوبهم سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك ، فكأنما نية القلب وما يستقر فيها هي أقوى ما في الحياة.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا فصل عظيم منه أن ألف بين قلوب المؤمنين؟ فيقول.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ نَوَاسِطَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٥٦﴾

والتأليف بين القلوب هو جماع التواد والمساندة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الذي يرويه عنه النعمان بن بشير رضي الله عنهما: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله).

والحديث تمامه: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(١)

ولم تكن المسألة في تأليف القلوب مسألة احتياج إلى مال؛ لأن المال لا يمكن أن يعطى الحب الحقيقي، ولذلك فهناك بين الناس ارتباط مصالح وارتباط قلوب، وارتباط المصالح ينتهي بمجرد أن تهتز أو تنتهي هذه المصالح، لكن ارتباط القلوب يتحدى كل الأزمات، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يحبك حقيقة مهما أعطيت من مال؛ لأن الحب الحقيقي لا يشتري ولا يباع، إنما يشتري العشق والتظاهر وغير ذلك من المشاعر السطحية. والعرب الذين ألف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما يهمهم الحمية والعصية، فمالبينهم يملكون الثروات، ولكن المُرقة فيما بينهم نابعة من الحمية والعصية التي تجعل في القلوب غلاً وحمداً وحقدًا؛ لذلك نفعل جوارحهم. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلِكُلِّ أَلْفٍ مِنْهُمْ إِتْرَ حَرِيرٌ حَكِيمٌ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنعام)

ومادام لله سبحانه وتعالى له عزة فهو لا يخلب، ومادام حكيماً فهو يضع الأمور في مكانها السليم، والله سبحانه وحده هو القادر على أن يجعل

(١) رواه الشيخان . البخاري ومسلم

القلوب تتألم؛ لأن القلوب في يد الرحمن يقلبها كما يشاء، لذلك يدعو بدعاء رسول الله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فمن شهر بن حوشب قال: كنت لأم سلمة رضي الله عنها يا أم المؤمنين ما أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك^١ قالت: كان أكثر دعائه يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك^(١).

وَسُبِّحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ

﴿وَأَقْبِلُوا إِلَى اللَّهِ يَحُولُ بَيْنَكُمْ وَأَقْبِلُوا إِلَى اللَّهِ يَحُولُ بَيْنَكُمْ وَأَقْبِلُوا إِلَى اللَّهِ يَحُولُ بَيْنَكُمْ﴾

(عن الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى قصة إيمانية فيقول:

فَاتَّيَاهَا النَّبِيُّ حَمْسُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّعَكَ مِنْ

المؤمنين ﴿٤٠﴾

وإيك أن تظن أن الله عز وجل يعاقب استكثار لأنهم لم يؤمروا برمل الله فقط، ولكن لأن الكون يفسد بسلوكمهم، وهو سبحانه غير محتج لأن يؤمن به أحد، ثم إن دين الحق سيقتصر سواء آمن الناس به أم لم يؤمروا، وسبحانه يريد بالمتنهم الذي أنزل كل الخير واسعادة لعباده؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قُلْ لَا تُشْرِكُوا بِي إِلَّا أَنفُسُهُمْ ۚ إِنَّمَا حَرَّمَ ذَاتَ الْفُلُوْهِ عَلَيْهِمْ ۖ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِيْعِبَادِهِ ٱلْآيٰتِ ۚ﴾

(س الآية ١٧ سورة الطحيرات)

فلماذا دخل أحد في الإسلام فلا يمن على الله أنه أسلم ؛ لأن إسلامه لم يربد في ملك الله شيئا ، وليعلم أن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليه بهدايته للإسلام وهي نصلحه ، ويريد الله من رسوله ألا يلتفت إلى عدد الكفار أو قوتهم ؛ لأن

(۱) روه الترمذی وقال حدیث حمین .

معهُ الأتقَى ، وهو الله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك يقول :

﴿ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

أى يكفيك الله .

وقوله تعالى

﴿ وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

هى داخله فى ﴿ حسبك الله ﴾ . لأن الله هو الذى هدى هؤلاء المؤمنين للإيمان فامنوا .

ويكون المعنى : حسبك الله وحسب من أتبعك من المؤمنين ، أى يكفكم الله ، وعلى ذلك فلا تلتصق العزة إلا من الحق سبحانه وتعالى .
ويمكن أن يكون المعنى يكفيك الله فيما لا تستطيع أن تحققه بالأسباب .
ويكفكم المؤمنون فيما توجد فيه أسباب .
ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال .

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

وهذا النداء إنما يأتى فى الأحداث ؛ أما البلاغ فيقول الله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا نَزَلَ الْكِتَابَ مِنْ رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى ينادى الرسول بـ ﴿ يا أيها النبى ﴾ حين يكون الأمر متعلقا بالأسرة السلوكية ، أما إذا كان الأمر متعلق بتنزيل تشريع ، فالحق سبحانه وبخاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ يا أيها الرسول ﴾ ذلك أب الرسول جاءوا مبلعون للمنهج عن الله ، ويسيروا وفق هذا المنهج كأسوة سلوكية . على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر كل رسول باسمه فى القرآن الكريم

يقال، «يا موسى»، وقال: «يا عيسى بن مريم»، وقال: «يا إبراهيم»، لا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد خاطبه بـ «يا أيها النبي»، وبـ «يا أيها الرسول»، وهذه لفظة انتبه إليها أهل المعرفة، وهذا الداء فيه خصوصية لخطاب الحضرة المحمدية، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿يَنَادِمُ اسْكُنْ أَتَىٰ وَرَوْحُكَ أَلْمَسَ﴾

(من الآية ٢٥ سورة البقرة)

وينادي سيدنا روحاً قائلاً سبحانه .

﴿يَنُوحُ أَهْطِ سَلَامٌ مِنَّا وَبَرَكَاتٌ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وينادي سيدنا موسى فيقول:

﴿أَنْ يَحْمَدِيَ إِلَٰهَ أَنْ أَرَىٰ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

(من الآية ٢٠ سورة القصص)

وينادي سيدنا عيسى فيقول:

﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

فكل نبي ناداه الحق تبارك وتعالى ناداه باسمه مجرداً إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقل له قط: يا محمد، وإنما قال: «يا أيها النبي»، و«يا أيها الرسول». والحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نحن بصدد حواطرها عنها أن يفت نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يعلم أنه يكفيه الله والمؤمنين مهما قل عددهم ليتصمروا على الكفار.

ثم يأتي الداء الثاني من أمولى تبارك وتعالى في قوله:

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَصٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ
إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبْرُونَ يَعْلَمُوا بِثَلَاثِينَ
وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَعْلَمُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا يَا أَيُّهَا قَوْمُ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٠﴾

وساعة تسمع أن فلانا يحرض فلانا، فهذا يعني أنه يحثه، ويشير حماسه ويعبره على أن يفعل، وأنواع الطلب كثيرة، فهناك طلب نسميه نداء، أي تناديه، وطلب نسميه أمراً أي تفعله، وطلب نسميه نهياً، أي لا تفعله. هذه كلها أفعال طلب يسبقها النداء. هناك مثلاً طلب أن يُقبل عليه، وطلب آخر أن يتعهد عنه، وطلب ثالث أن يقضى له حاجة، كل هذا يعنى أن المتكلم يعرض على السامع أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا. وهناك لون من الطلب لا يحمل الإلزام، بل هو عرض فقط (وهو لطلب يرفق ولين) كقولك لمن تعنوه: أنا لا أمرك، بل أعرض عليك فقط. وهناك لون ثالث من الطلب تحمله كلمة «حض» وهو الطلب بشدة؛ لأن المعروض معه دليل الإقبال عليه. فأنت حين تحض ابنك على المذاكرة مثلاً فهناك مبرر الإقبال على المذاكرة وهو النجاح. وأنت حين تحض الإنسان على فعل، فأنت لا تنهيه أو تأمره لأنك تريد أن يقل على الشيء بحب، ولكن حين تأمره بقسوة قد يكره هذا الشيء. وقد تعرض على إنسان شيئاً فتجده يحب أن يفعله ولو بدون أمر منك.

إذن يقول الله تعالى:

﴿حَرَصٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أى حثهم وحضهم وحمسهم ، والععل يتكون من الحاء والراء والضاد ،
ومها « حرّض » و « يحرض » ومادة هذه الكلمة معناه القرب من الهلاك ،
ونجد قول الحق تبارك وتعالى على سنان إخوة يوسف لأبيهم :

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتُنَا بِذٰلِكَ يُوسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا اَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْفٰلِكِيْنَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

أى أنك ستستمر فى ذكر يوسف حتى تقترب من الهلاك أو تهلك بالفعل .
ولكن هل معنى « حرّض » هت معنى : قرب المؤمنين من الهلاك ؟ نقول :
لا ، لأن ما يسموه الإزالة ، وهى أن يأتى الفعل على صورة يربل أصل
اشتقاقه ، عندما نقول : « قشرت البرتقالة » أى أزلت قشرتها ، وكذلك قونا :
« مرّض » الطبيب فلانا وليس المعنى أن الطبيب قد أحضر له المرض ، ولكن
معناها أزال المرض ، إذن فهناك أفعال تأتى وفيها معنى الإزالة . ويأتى معنى
الإزالة مرة بتضعيف الحرف الأوسط مثل « حرّض » و « قشّر » ومرة تأتى
بهمزة ، فتعطى معنى الإزالة ، فإذا قلت : « أعجم الكتاب » . فمعناه أنه أزال
عجمته ، ولذلك يسمى كسب اللغة « المعاجم » ، أى التى تزيل خفاء اللغة
وتعطى معانى الكلمات . ومن قبل شرحنا معنى « فسط » و « أفسط » ! فوسط
تعنى « اجبور » أى الظلم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَاَمَّا الْفٰسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وأفسط أى أزال الظلم . إذن فهناك حروف حين تراد على الكلمة : تزيل
المعنى الأصلي لمادتها . وهناك تشديد يزيل أصل الاشتقاق مثل « قشّر » أى أزال
القشر ، و « مرّض » أى أزال المرض . و « حرّض » أى أزال الحرّض .

ومعنى الآية الكريمة : اطلب منهم يا محمد أن يزيلوا قربهم من الهلاك بالقتال. وهذه القاعدة اللغوية تفسر لنا كثيراً من آيات القرآن الكريم. ففي قوله تعالى

﴿إِنْ أَسَاءَ فَإِنَّهُ أَسَاءُ لَا تَعْلَمُ اللَّهُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

(من الآية ١٥ سورة طه)

الذين يأخذون بالمعنى السطحي بقولون «أكاد أخفيها» أى أقرب من أن أسترها ولا أجعلها تظهر، ونقول : الهمزة فى قوله «أكاد» هى همزة الإزالة، ويكون معنى «أكاد» أى أننى أكاد أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى والعلامات الكبرى التى أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها. وبعضهم قد أرقق نفسه فى شرح «أكاد أخفيها» ولم يتسوها إلى أن إرادة الاشتقاق تأتى إما بتضعيف الحرف الأوسط، وإما بوجود الهمزة، وقول الحق تبارك وتعالى هنا

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم تحريض المؤمنين على الجهاد وكأنه يقول له : ادع قومك إلى أن يحددوا الدنر من الهلاك عن أنفسهم، لأنهم إن لم يجاهدوا لتغلب عليهم أهل الكفر، فأهل الكفر يعيشون فى الأرض بمنهج السيطرة والغلبة والخبروت، وحين يجاهدهم المؤمنون إنما ليقضوهم عند حدهم. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى .

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

فكأنهم إن لم يحاربوا أهل الكفر سوف يحيط بهم الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة. والله سبحانه وتعالى يريد لهم الحياة الآمنة الكريمة فى الدنيا والجنة فى

الأخيرة. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وضع معياراً إيمانياً في القتال بين المؤمن والكافر، والمعياريات وضعه خالقهم، وخالق قواهم وملكاتهم وعواطفهم. والمعيار الإيماني هو في قوله تعالى :

﴿إِنْ يَكُنْ بِكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ۚ وَإِنْ يَكُنْ بِكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

إذن فالمعيار الإيماني باختصار يساوي واحداً إلى عشرة، أي أن القوة الإيمانية تجعل من قوة المؤمن ما يعادل قوة عشرة من الكفار، هذا هو المقياس وهنا يأتي بعض الناس ليقول، أسأل القرآن مشية على الإيجاز وعلى الإعجاز، فلماذا يقول الحق سبحانه وتعالى : « عشرون يغلبوا مائتين » . ثم يقول «مائة يغلبوا ألفاً» ألم يكن من الممكن أن يقول : إن الواحد يغلب عشرة وينتهي القول ؟ .

نقول : إنك لم تلاحظ واقع الإسلام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلعب مع المؤمنين في قتالهم ويحضر معهم بعضاً من أحداث القتال التي سميها « عزوات » ، أما البعثات القتالية التي لم يخرج فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يكتفى فيها بإرسال عدد من المؤمنين، فقد كانت تسمى سرايا، وهذه السرايا كانت لا تقل عن عشرين مقاتلاً ولا تزيد على مائة، فذكرها الله تعالى مرة بالعشرين ومرة بالمائة.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِنْ يَكُنْ بِكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ۚ﴾

(من الآية ٦٥ من سورة الأنفال)

ونحن نرى أن المقياس هنا ليس بعدد المقاتلين فقط ، ولكن لابد أن يكونوا موصوفين بالصبر ، وفي آية أخرى بالصبر والثابرة ، فمن الخائز أن يصير عدوك فعليك حينئذ أن تصابره ، أى إن صبر قليلاً ، تصير أنت كثيراً ، وإن تحمل مشقة القتال ، تتحمل أنت أكثره . إذن فالقوة القتالية لكى يتحقق بها ولها الصبر لابد أن تكون قوة صابرة قوية فى إيمانها قادرة على تحمل شدة القتال وعنفه .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى تعليل هذا الحكم الإيماني الذي أبلغنا به فيقول عز من قائل :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ خَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا
مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ يَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝١٥﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

إذن فالسبب فى أن المؤمن يغلب عشرة من الكفار ، هو أن الكفار يوم لا يفقهون ، وماداموا لا يفقهون ، يكون المقابل لهم من المؤمنين قرما يفقهون . وهنا نقارن بين المؤمنين الذين يفقهون ، وللكفار الذين لا يفقهون ونقول : إن الكافر حين يقاتل لا يعتقد فى الآخرة ، وليس به إلا الدنيا ويخاف أن يفقدها ، ولذلك حين يوجد الكافر فى مساحة الحرب فهو يريد أن يحافظ على حياته ولو بالفرار ، ولكن الدنيا بالنسبة للمؤمن رحلة قصيرة والشهادة هى الفوز برضوان الله ودخول الجنة بلا حساب ، ولذلك فإنه يقبل على القتال بشجاعة من يريد الاستشهاد . ومجد خالد بن الوليد يقول للعرس : أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أُنتم الحياة .

فلو أن الكفار فقهوا أى فهموا أن الدنيا دار عمر ومغبر للآخرة ، وأن الآخرة هى المستقر لأنها الدار الباقية ، لا مثل كراوة دافعة للقتال ، ولكنهم يريدون هذه الحياة لأنها بالنسبة لهم هى كل شيء . ولذلك علمنا القرآن الكريم فيقول :

﴿قُلْ هَلْ رَفَعُوا يَدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا يَحْدِي أَحْسَنِينَ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى لن يحدث لنا فى هذه الحرب إلا ما هو حسن، فيما أن نتصير ونفهركم ونغنم أموالكم، وإما أن نُشْهِدَ فَتَحَ الْجَنَّةِ وَكِلَاهُمَا حَسَنٌ. ويكمل الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَمَنْ تَزِرْ وَزِرَتَهُ يُكْفَرُ إِنَّهُ بِصِغَارِ اللَّهِ بَشِيرٌ ۖ فَمَا تَأْخُذُكُمْ مَعَهُمْ مَتَرِ حَصْبٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى أنكم أيها الكفار لن يصيكم إلا السوء والخزى. إما عذاب شديد من عند الله بغير أسباب، وإما عذاب بأيدينا أى بـأسباب. إذن فالكافر حين يدخل المعركة لا يتضر إلا السوء، إما أن يقتل ويذهب إلى جهنم - والعياذ بالله - ، وإما أن يصيبه الله بعذاب يدفع الخوف في قلبه أثناء المعركة. والكفار في القتال لا يعتمدون إلا على قوتهم وعددهم وحُدُثِهِمْ؛ أما المؤمنون فيعتمدون أولاً على الله، القوي العزيز ويثقون في نصره. ولذلك يقبلون على القتال معهم وصد كبير من طاقة الإيمان وهى طاقة تفوق العدد والعدة، ويكون المقاتل معهم قويا في قتاله متحمساً له؛ لأنه يشعر أنه مؤيد بنصر الله. ويعلم أن كل إنسان يحرم على العايدة من وجوده؛ وغاية الكفار متاع الحياة الدنيا المحدود، أما غاية المؤمنين فمستدة إلى الآخرة. ولذلك فالكافر يحارب بقوته فقط وهو مجرد من الإيمان.

ونلاحظ أن النصوص خبرية هي قوله الحق تبارك وتعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ سَرِيحُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْفِتَالِ ۖ إِنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ حَتِيرُونَ يَفْئِدُونَ

يَأْتِيهِمْ وَهَنٌ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَفْئِدُوا ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝﴾

(سورة الأنفال)

والتصور من الخبرية ليس فيها طلب ، وإن كان الطلب يخرج منخرج الخبر
ليوهبك أن هذا أمر ثابت، وعندما قام بعض المتسرفين من سوات ودخلوا
الحرم بأسلحتهم وحاصروا الناس فيه قال بعض الصحبين إن القرآن يقول .

﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وأن هذا خبر كونى معناه أن كل من دخل الحرم كان آمناً، وقلنا : إن قول
الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ هذا كلام الله ؛ فمن أطاع لله
فليؤمن من يدخل الحرم، وقد تطيعون فتؤمنون من يدخل الحرم وقد تعصون فلا
تؤمنو بهم. إذن فالمسألة هي حكم تطيعونه أو لا تطيعونه ، كذلك قول الحق
سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْمُطَافِقَةُ يَتَرَقَّبْنَ فَأَنْذِرْنَهُنَّ نَحْنُ وَرُودُ ﴾

(من الآية ٢٢٨ سورة البقرة)

هذا كلام خبرى. فإن أطاعت المطلقه الله ؛ انتظرت هذه الفترة ، وإن عصت
لم تنتظر ، وكذلك قوله تعالى ،

﴿ وَأَطِيعُوا لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ الطَّيِّبَاتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وقد نرى فى الكون زيجات عكس ذلك ؛ تجد رجلاً لثيماً يتزوج بامرأة
طيبة ؛ وامرأة لثيمة تتزوج رجلاً طيباً ، وقد تتساءل : لماذا لم يتزوج الطيب طيبة
مصدّقاً لقول الحق ، ولماذا لم يتزوج الخبيث خبيثة ؟

ونقول : لقد أخطأت الهمهم لقول الله تعالى ، فما قاله الله ليس خيراً كونياً ،
ولكنه خسر تشريعى ومعناه : زوجوا الطيبات لطيبين ، وزوجوا الخبيثات

للخبيثين، فإن فعلتم استقامت الحياة، وإن عصيتم لا تستقيم الحياة؛ لأن الرجل الخبيث إن عاير امرأته وأهانها فهي ترد عليه الإهانة بالمثل ويكون التكافؤ موجوداً حتى في القبيح. ولكن الشفاء في الكون إنما يأتي من زواج الطبيب بالخبيثة، والخبيث بالطيبة، وليس معنى الآية - إذن - أنك لا تجد طبيباً إلا متزوجاً من طيبة، ولا خبيثاً إلا متزوجاً من خبيثة؛ لأن هذا أمر تكليفي تشريعي، فإن فعلت تكون قد أطعت، وإن لم تفعل تكون قد عصت. ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك .

حَمَلَ الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ إِلَهُكُمْ
صَعْفَ فَإِنْ يَكُرْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَارَتْ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ
وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ
مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾

وفي هذا الحكم تخفيف عن الحكم السابق، الذي جاء فيه أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين، ونعلم أن هناك شروطاً لقتال، أولها أن يكون المقاتل قوى البدن وقوى الإيمان وعلى دراية بحيل الحرب وفنونها بحيث يستطيع أن يناور ويعير مكانه في المعركة ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا تحسمها معركة واحدة، بل لابد من كبر وفرا وإقبال وإدبار وخداع للقتل ومناورات مثلما فعل خالد بن الوليد في كثير من المعارك.

إذن فلكي تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين لابد أن يتحقق في هؤلاء جميعاً قوة بدن وصبر وجلد، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجلد ضعيفاً وقد تأتي للإنسان فترات ضعف، وتأتيه أيضاً فترات قوة. ومن رحمته سبحانه وتعالى بالؤمنين أنه خفف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات

ضعف نصيب الإنسان ؛ لذلك جعل النسبة واحداً إلى اثنين. وقال سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ فَيُكَرِّمُ مَنَّهُ فَمَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ قَائِلُ صَاحِبَةٍ يَغْلِبُهَا
بِأَسْنَنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أُنْثَىٰ تَعْبُوا أَتَعْبُونَ إِلَهُ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٧٩٩﴾

(سورة الاحزاب)

وهل معنى ذلك أن الآية الأولى قد سحقت ؟ نقول : لا ، ولكن الآية الثانية أعطت حالات لأغيد والضعف لبشرى وحسب لها حساباً. ولذلك نجد الحكم الأول قائم وهو الحد الأعلى ، كما أن الحكم الثانى - أيضاً - قائم وهو الحد الأدنى ، فإذا لقي مؤمن ثلاثة كفار وفر منهم لا يعدُّ فاراً يوم الزحف ، ولا يؤاخذ الله على ذلك. لكن إن واجهه اثنان فانسحب وتركهما يعتبر فاراً ؛ لأن الحد الأدنى هو واحد لاثنين ، وتكون هذه أقل نسبة موجودة. وانسحب تصارت بين واحد إلى اثنين حتى واحد إلى عشرة ، حسب قوة الصبر وقوة الجسم وعدم التحيز إلى فئة. وبطبيعة الحال نعلم أن القوى قد يصير ضعيفاً. وكذلك فإن بعضاً من المنكرين قد تضيق بالصبر ، وأيضاً حين زاد عدد المؤمنين ، فمن المحتمل أن يتكل بعضهم على بعض. ولكنهم عندما كانوا قلة ، كان كل واحد منهم يبذل أقصى قوته فى القتال للدفاع عن عقيدته.

والمشرع لا يشرع للمؤمنين بما يحملهم ما لا يطيقون ، ولكنه يشرع لهم ليخفف عنهم ، والمثال على ذلك نجد أن الله قد أباح الإفطار فى رمضان إذا كان لإنسان مريضاً أو على سفر ، وكذلك شرع الحق تبارك وتعالى قصر الصلاة أثناء السفر ، إحد فالشرع قد عرف مواطن الضعف فى النفس البشرية التى نجعلها لا تقوى على التكليف. وفى هذه الحالة يقوم المشرع داته بالتخفيف ، ولا يتركنا نحن لضعف كما نشاء.

وبعض الناس يقول إن الحياة العصرية لم تعد تتحمل تنفيذ هذه التشريعات، وأنه ليس في وسعنا في هذا العصر أن نلتزم، وأن رث سبحانه وتعالى يقول:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦)﴾ (سورة البقرة)

ونقول لكل من يقول ذلك: لقد فهمت ومع النفس خطأ، وكان صيغك أن تقيس وسعك بالتكليف، ولا تقيس التكليف بوسعك. والسؤال: هل كلف الله سبحانه وتعالى أو لم يكلف؟ فإن كان قد كلف بذلك تأكيد على أنه في استطاعتك، ولا تقل. أن سأنيس استطاعتي. ثم اسحب هل التكليف في نطاق هذه الاستطاعة أو لا؟ وعليك أن تبحث أولاً: هل كلفت بهذا الأمر أو لم تكلف؟ فإذا كنت قد كلفت به يكون في استطاعتك أداء ما كلف به؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها؛ لا تفرض أنت استطاعة ثم تخضع التكليف لها، ولكن اخضع استطاعتك للتكليف.

وقول الحق سبحانه وتعالى.

﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ لَكُمْ ضَعْفًا .. (٦٦)﴾ (سورة الأنفال)

و«الآن» تعني الزمن، وقد خفف الله أي هو سبحانه وتعالى الذي رفع المشقة، وأنت تقول هذا الشيء حفيف وهذا الشيء ثقيل. لكن أنعرف بأي شيء حكمت بمقدار المشقة التي تتحملها في أدائه؟. فإن رفعت قلماً تقول: هذا خفيف، وإذا رعت قطعة حجر كبيرة تقول: هذه ثقيلة. بأي شيء حكمت؟ هل بمجرد النظر؟ لا. فأنت لا تستطيع أن تفرق بالنظر بين حقيقتين متماثلتين لنقول هذه ثقيلة وهذه خفيفة؛ لأن إحداهما قد تكون مملوءة بالحدود، والثانية فيها أشياء خفيفة؛ ولا تستطيع أن تحكم باستخدام حسنة السمع ولا

حاسة للمس، لأنك باللمس لا تستطيع أن تحكم على حقيقة بأنها خفيفة والأخرى ثقيلة، ولا بحاسة الشم أيضاً.

هذه فكل وسائل الإدراك عاجزة عن أن تدرك خفة الشيء أو ثقله، فبأي شيء يدرك؟ ويقول قد اهتمت علماء وظائف الأعضاء أحياناً إلى أن النحل والحفة لهما حاسة هي حاسة العضل، فحين يبذل ثقل ما عضلات الإنسان ويحمل مشقة أنه ثقيل، فهو يحتلف عن ثقل لا يؤثر على العضل ولا تحس فيه بأي إجهاد؛ لأن هذا الثقل يكون خفيفاً.

هذه فهذه وسائل الإدراك لم تكن تعرفها في الماضي واكتشفها العلم الحديث. أنت مثلاً حين تمسك قميصاً بين أصابعك تقول: هذا قميص كثيف أو سميك وهذا خفيف أو رقيق، ما هي الحاسة التي عرفت بها ذلك؟ تقول إنها حاسة «العين» فقد ابتعدت أصابعك قليلاً في القماش الثقيل، وفريت من بعضها في القماش الرقيق، وقد يصل الفرق إلى مليمتر واحد أو أقل لا تدركه بالنظر؛ ولكن تدركه بحاسة العين.

ولما كنتم أن تحسوها رياحاً وعددياً وتقولوا إن النصر بالعدد؛ لأنكم بذلك تعملون أنفسكم عن الله، أو إنما تفتنون بالأسباب، فكل نصر هو بإذن الله ومن عند الله تبارك وتعالى.

ولماذا لم يقل الحق سبحانه. علم فيكم ضعفاً وخففاً عنكم؟ لأنه سبحانه وتعالى أراد أن يكون الترحيب في الحكم أثبت من الحكم، على أن هذا التخفيف قد يعود إلى عدة أسباب؛ منها أن حكم الله أزل. ولدلت وضع الله سبحانه وتعالى حداً أعلى يتناسب مع قوة الإيمان في المسلمين الأوائل، وحداً أدنى يتناسب مع ضعف الإيمان الذي سيأتي مع مرور الزمن، أو يتناسب مع العزوف عن الدين بالنسبة للمسلمين الأوائل، وعلى الإقبال على الدنيا بالنسبة لأولئك الذين سيأتون من بعدهم، أو مع قلة الفتن التي كانت في عصر النبوة وكثرة الفتن في عصر كالذي نعيش فيه.

ويذيل لحق سبحانه وتعالى الآية بقوله

﴿وَأَقْهَمَ الصَّابِرِينَ﴾

(من الآية ٦٦ سورة لأعمال)

وأنت قد تقول : فلان سافر إلى الخليج ومعه عشرون جنيهاً فإذا اندهش من سمعت وتساءل : « ماذا يفعل بهذا الملع الصغير » ؟ تقول له : إن معه فلاناً « المليونير » فيطمئن السائل . فإن قلت : إن فلاناً وهو رجل كبير السن ذهب إلى الجبل ليحضر صخرة .. نتساءل : كيف ؟ . يقال لك : إن معه فلاناً لقوى فتطمئن .

إذن فمعية الضعيف للقوى أو الأدنى للأعلى تصنع نوعاً من الاستطراق ، وتعطى من القوى للضعيف ، ومن العسى للمقير ، ومن لعالم للجاهل ، إذن فالحبة تعطى من قوة التفوق قدرة للضعيف .

وهنا يوضح المولى سبحانه وتعالى للمؤمنين : إن قوتكم وقدرتكم على الصبر محدودة لأنكم بشر ، فلا تمزقوا هذه القوة المحدودة عن قدرة الله غير المحدودة ، واصبروا لأن الله مع الصابرين . ولأنه سبحانه معكم فهو يعطيكم من قوته فلا تستطيع أى قوة أن تغلب عليكم وتقهركم .

ولقد تعرضنا لهذا وقت أن تكلمنا عن الغار ، حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسيديا أبو بكر رضى الله عنه الغار في طريق الهجرة إلى المدينة وجاء الكفار ووقفوا على باب الغار فعادا قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . وهذا كلام منطقي مع الأسباب . فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له ليطمئنه ؟ . قال : ما ظنك بآيتين الله ثالثهما ؟ ولكن ما وجه الحجة في ذلك ؟ . لقد قال : مادام الله ثالثهما ، والله لا تدركه الأبصار ، فالدين في محبته لا تدركهم الأبصار .

وفي هذه الآية مثل سابقتها! يتحدث اهلولى سبحانه وتعالى عن المعارك والنصر.

ومن الطبيعى أن يكون من معايير النصر كسب الغنائم. ولعنائم النى تمت فى بدر فسماء! منقولات، وقد نزل حكم الله فيها بأن لله ولرسوله الخمس، وفى جرة آخر من الغنائم لم ينزل حكم الله فيه وهم الأسرى، ففى معركة بدر قتل من قريش سبعون وأسر سبعون، فاستشار^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس. فقال: ما ترون فى هؤلاء الأسرى؟ إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس.

فقال أبو بكر يا رسول الله أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان استبقهم، ونى أرى أن تأخذ الفداء منهم، فىكون ما أخذنا منهم قوة بنا على انكفار، وعسى الله أن يهديهم بك، فىكونوا لك عضدا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقول يا بنى الخطاب؟

قال: يا رسول الله قد كلبوك وأخرجوك وقاتوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكتنى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - حتى يضرب عنقه، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست فى قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فأضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى، وإنما نحن راعون مؤلفون.

وقال عبدالله بن رواحة: يا رسول الله أنظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا، فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمتك. قال أبو أيوب: فقل - يعنى الأنصار - إنما يحمل عمر على ما قال حد لنا.

(١) مسند أحمد الأحاديث ٣٦٣٢ - ٣٦٣٤، مع اختلاف فى بعض العبارات

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت ، فقال أناس : ياخذ بقول أبي بكر ، وقال أناس ياخذ بقول عمر ، وقال أناس : ياخذ بقول عبد الله من رواحة ، ثم حرج فقال : إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللين ^(١) ، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجرة . مثلث يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل يرس بالرحمة ، ومثلث في الأنبياء مثل إبراهيم قال : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك عقور وحيم ﴾ ^(٢) ومثلث يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم إذ قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تعفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ^(٣) ، ومثلث يا عمر في الملائكة مثل جبريل ينزل بالشد والباس والنقمة على أعداء الله تعالى ، ومثلث في الأنبياء مثل نوح إذ قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ ^(٤) ومثلث في الأنبياء مثل موسى ، إذ قال : ﴿ ربنا احص على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ^(٥) لو اتفقتم ما خالفتكما ، أنتم عالة ^(٦) فلا يملتن منهم أحد إلا نغداً أو ضرب عنق ، ومن بين الأسرى كان عدد من أغنياء قريش .

وسبق له صلى الله عليه وسلم أن استشار الصحابة في معركة بدر ، وحدث أن احتار رسول الله عليه الصلاة والسلام أماكن جيش المسلمين ، فتقدم أحد الصحابة وهو الحباب بن المنذر بن الجموح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله : رأيته هذا المرل أمرلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فأشار الحباب بن المنذر بتغيير موقع المسلمين ليكون الماء ورعهم فيشربوا هم ولا يشرب الكفار .

(١) الواقدي ١ / ١١٠ « ألين من الربد » . (٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٦ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٨ . (٤) سورة نوح : الآية ٢٦ .

(٥) سورة يونس : الآية ٨٨ . (٦) الواقدي ١ / ١٠٩ : ١ وإن يكتم عبلة » .

إذن فلو أنه منزل أنزله الله لرسوله لما جروا أحد على الكلام؛ لأن الله علماً آخر لا نعلمه، فنحن بشرية لنا علم محدود؛ والله له علم بلا نهاية. وكذلك في مسألة الأسرى؛ لم يكن فيها حكم قد نزل من الله. ولذلك استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته، وكان أمامه رأى فيه شدة لعمر بن الخطاب ومعه عبدالله بن رواحه، ورأى ابن يحالف الرأى السابق وكان لسيدنا أبى بكر الصديق.

وكان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجز ما قاله الفريقان؛ فريق الملين بقيادة أبى بكر رضى الله عنه وفريق الشدة بقيادة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ثم مال لى صلى الله عليه وسلم إلى رأى الفداء. وجعل فدية الواحد من ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم، وكان فى لأمر العباس وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم، فسمع التى أنبه من قيده فقال: فكوا عنه قيده. وفسر بعض الس هذا على أنه ميل من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه، ولكنه كان ردا على جميل فعله العباس فى بيعة العفة؛ حينما حضر وفد من أهل المدينة إلى مكة ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

وقد حضر العباس هذه البيعة، وكان أول من تكلم فيها رعم أنه كان مازال على دين قومه. فقال: يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار للخزرج.. خزرجهم وأوسهم. قال العباس: إن محمداً ما حيث قد حملتم، وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأيا به فهو فى عز من قومه ومبعة من بلده، أبى. لا الانحياز إليكم واللحقوكم بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون به بما دعوتهم إليه، ومنعوه عن مخالفه، فأنتم وما حملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده^(١)

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٤٤ طبعة الأنوار المهدية

إذن فالعباس قد وقف موقفاً لا بد أن يجازى بمثله ، ورغم أنه كان كافراً وقتل ، إلا أن الكفر لم يمنع عاطفة العباس أن يتجدد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف بمثله ، لأن المبدأ الإسلامى واضح فى قول الحق :

﴿ وَإِذَا حِيَمٌ مُحِيَّتْ خَبَرُوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أُرْدُوهُ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة النساء)

فلا يؤخذ هذا التصرف - إذن - على أنه مجاملة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه ، ولكنها حق على رسول الله من موقف العباس فى بيعة العقبة. وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : يا عباس لقد نقست وأبى أخيك عقيل بن أبى طالب وموفل بن الحارث وحليفك عقبة بن عمرو بن جحدم أخا بى الحارث بن فهر ؛ فإليك ذو مال. فقال : يا رسول الله إني كنت مسلماً ولكن القوم استكروني. فقال رسول الله : الله أعلم بإسلامك إن يكن ما تذكر حماً فالله يجزيك به. أما ضاهر أمرك فقد كان علياً فاعد نفسك. وكان المسلمون قد أخذوا من العباس عشرين أوقية من ذهب كغنيمة ، فقال العباس يا رسول الله احسبها لى فى قدامى ، فقال الرسول : لا ، ذلك شيء أعطانا الله عز وجل منك. قال العباس : فإنه ليس لى مال. لقد جعلتنى يا محمد أتكفف قريشاً ، فضحك النبي وقال : فأين المال الذى وضعت بهيمة حيث حرجت من عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا ؛ فللمفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا. قال العباس . والذى بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها ، وإني لأعلم أنك رسول الله. فعدى العباس نفسه بأربعة آلاف درهم. وقضى كلام من ابني أخيه وحليفه بألف لكل منهم. ^(١)

إذن وفى التقييم المادى دفع العباس أربعة أمثال ما دفعه الأمير العادى كخدية.

(١) القرطبي وابن كثير مع اختلاف فى بعض العبارات .

ثم ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوج ابنته زيب وكان^(١) في الأسارى أبو العاص^(٢) بن الربيع حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته زيب، أسره خراش بن الصمة، فلما بعثت قريش في فداء الأسرى بعثت زيب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص وأخيه عمرو ابن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت حديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فاطلقوها وردوا عليها الذي لها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه أن يخطي سبيل زيب إليه، وكان فيما شرط عليه في إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلم ما هو، إلا أنه لما خرج بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار، مكانه، فقال: كونا سطين بأجمع حتى نمر بكما زيب فتصحباه حتى تأتياي بها^(٣)، فحرجا مكانهما، وذلك بعد بدر شهر أو شيعة^(٤)، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها بالحرق بأبيها، فخرجت تجهز.

ومن بعد ذلك نزل قول الحق تبارك وتعالى

مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُفْجِرَ
فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْأَجْرَ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

(١) من أبي داود ٢٦٧/١ وابن جرير ٢٩٠/٢، ٢٩١ وابن هشام ٣٠٦٠ - ٣٠٨

(٢) ط: أبو العاصي

(٣) من أبي داود: حتى تأتياي بها

(٤) شيعة قريب منه

و «أسرى» جمع كلمة «أسير»، وتعريف الأسير أنه مشدود عليه الوثاق من أخذه بحيث يكون في قبضة يده، والأسير في الإسلام هو نبيج العبودية والرق؛ لأن الأسير يقع في قبضة عدوه الأقوى منه ويمكنه أن يقتله أو يأخذه عبداً.

إذن ففي هذه الحالة لا تقارن بين أسير أصبح عبداً وبين حر، وإنما تقارن بين قتل الأسير وإبقائه على قيد الحياة، وأيهما أنفع للأسير أن يبقى على قيد الحياة ويصبح أسيراً أم يقتل؟.

إن بقاءه على قيد الحياة أمر مطلوب منه ومرغوب فيه. وبذلك يكون تشريع الله سبحانه وتعالى في تحملك الأسرى إنما أراد الله به أن يحقق دماءهم ويبقي حياتهم؛ لأن الأسير مقدور عليه بالقتل، وكان من الممكن أن يترك الأسرى ليقتلوا وتنتهي المشكلة، ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يحفظ حتى دم الكافر؛ لأن الله هو الذي استدعاه إلى هذه الحياة وجعله خليفة، ولذلك يحفظه. ولعله من بعد ذلك أن يهتدى ويؤمن. وتعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لعن من يهدم بنيان الله إلا بحقه.

على أن الإسلام قد اتهم زوراً بأنه هو الذي شرع الرق، ولكن الحقيقة أنه لم يبتدع أو يبتلى «الأسر والرق»، ولكنه كان نظاماً موجوداً بالفعل وقت ظهور الإسلام، وكانت مباح الرق متعددة بحق أو بباطل، بحرب أو بغير حرب، فقد يرتكب أحد جنائيه في حق الآخر ولا يقدر أن يعوضه فيقرب «خذني عبداً لك»، أو «خذ ابنتي حارية»، وآخر قد يكون مديناً فيقول: «خذني عبداً لك أو ابنتي حارية لك». وكانت مصادر الرق - إذن - متعددة، ولم تكن للمعتق إلا مصرف واحد. وهو إرادة السيد أن يشتق عبده أو يحرره.

ومعنى ذلك أن عند الرقيق والعبيد كان يتزايد ولا ينقص؛ لأن مصادر

متعددة وليس هناك إلا باب واحد للخروج منه ، وعندما جاء الإسلام ووجد الحال هكذا أراد أن يعالج مشكلة الرق ويعمل على تصفيته. ومن سمات الإسلام أنه يعالج مثل هذه الأمور بالتدرج وليس بالطفرة؛ فالغنى الإسلام كل مصادر الرق إلا مصدراً واحداً وهو الحرب المشروعة التي يعلنها الإمام أو الحاكم، وكل رق من غير الحرب المشروعة حرام ولا يجوز الاسترقاق من غير طريقها، وفي ذات الوقت، عدد الإسلام أبواب عتق العبيد، وجعله كفارة لذنوب كثيرة لا يكفر عنها ولا يغفرها سبحانه وتعالى إلا بعتق رقبة، بل إنه زاد على ذلك في الثواب الكبير لدى ياله من يعتق رقبة حبا في الله وإيماناً به فقال سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَا أَتَحَمُّ الْعَفْءَ ۖ وَمَا أَقْرَنَكَ مَا الْعَفْءَ ۖ فَتُ رَقَبَةً ۖ ﴾

(سورة النحل)

فإذا لم يرتكب الإنسان ذنباً يوجب عتق رقبة ولا أعتق رقبة بأريحية إيمانية، فإنه في هذه الحالة عليه أن يخامس الأسير معاملة الأخ له في الإسلام. فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه سيدنا أبو ذر رضى الله عنه :

(إخوانكم حولكم جعلهم الله فتنة تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ، ولا يكتفه ما يغلبه ، بل أن يكلفه ما يغلبه فليعنه)^(١)

إذن فقد ساوى هذا الحديث الشريف بين العبد والسيّد ، وألغى التمييز بينهما؛ فجعل العبد يلبس مما يلبس سيّده ويأكل مما يأكل أو يأكل معه ؛ وفي العمل يعينه ويجعل يده بيده ، ولا يتناديه إلا بـ « يا فتى » أو « يا فتاتى » .

إذن فالإسلام قد جاء والرق موجود وأبوابه كثيرة متعددة ومصرفه واحد؛

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والبيهقي وابن ماجه

فَانْقَضَ الْأَبْوَابُ كُلُّهَا إِلَّا بَاباً وَاحِداً، وَفُتِحَ مَصَارِفُ الرِّقِ حَتَّى تَمَّ تَصْفِيَتُهُ تَمَاماً
بِالتَّدْرِيجِ. وَبِالنِّسْبَةِ لِلنِّسَاءِ جَاءَ التَّشْرِيعُ السَّمَاوِيُّ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

وَكَانَ ذَلِكَ بَاباً جَدِيداً مِنْ أَبْوَابِ تَصْفِيَةِ الرِّقِ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ إِن تَزَوَّجَتْ عَبْدًا
مِثْلَهَا نَظَلَ عَلَى عَسْوَدِيَّتِهَا وَأَوْلَادُهَا عِبِيدٌ، فَبِإِنْ أَحَدُهَا الرَّجُلُ إِلَى مَتَاعِهِ
وَأَصْحَتْ أُمُّ وَنَدِهِ يَكُونُ أَوْلَادُهَا أَحْرَارًا، وَبِذَلِكَ وَاصِلُ الْإِسْلَامِ تَصْفِيَةُ الرِّقِ،
وَهِيَ ذَاتُ الْوَقْتِ أَزْحَ عَنِ الْأُنْثَى الْكَهْبِ لِجِنْسِي الذَّكَرِ يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَهَا تَنْحَرِفُ
وَهِيَ بِمِידَةٍ عَنْ أَهْلِهَا مَقْطُوعَةٌ عَنْ بَيْتِهَا، وَتَرَى حَوْلَهَا زَوَّجَاتٍ يَتَمَتَّعْنَ بِرِعَايَةِ
وَحْتَانٍ وَمَحَبَّةِ الْأَرْوَاجِ وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ تَحْرُكُ فِيهَا الْعَوَاطِفُ، فَأَمَّا حَقُّ الرَّجُلِ إِنْ
رَاقَتْ عَوَاطِفُهُمَا لِبَعْضِهِمْ أَنْ يَعَاشِرَهَا كَأَمْرَأَتِهِ الْحُرَّةِ وَأَنْ يَجِبَ مِنْهَا وَهِيَ أُمَةٌ،
وَفِي ذَلِكَ رَفْعٌ لَشَأْنِهَا لِأَنَّهَا بِالْإِنْجِبِ تَصْبِيحُ زَوْجَةٍ، وَهِيَ ذَاتُ الْوَقْتِ تَصْفِيَةُ
لِلرِّقِ.

إِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ أَثَرَتْ جَدَلًا كَثِيرًا حَوْلَ الْإِسْلَامِ، وَقِيلَ فِيهَا كَلَامٌ كُلُّهُ كَذِبٌ
وَإِفْتِرَاءٌ. وَالْآنَ بَعْدَ أَنْ أَلْمَى الرِّقَ سِيَاسِيًّا بِمُعَاهِدَاتٍ دَوْلِيَّةٍ انْتَهَتْ إِلَى ذَاتِ
الْمَبْدِئِ، الَّتِي جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ وَهِيَ تَبْدُلُ الْأَسْرَى وَالْمُعَامَلَةَ بِالْمِثْلِ. وَهُوَ مَبْدَأُ
أَوَّلٍ مَا جَاءَ، ثُمَّ جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ، فَلَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يَأْخُذَ عَدُوُّ لِي أَوْلَادِي
يَسْخَرُهُمْ عَنْدَهُ لِمَا يَرِيدُ، وَأَنَا أَطْلُقُ أَوْلَادَهُ الْأَسْرَى عِنْدِي، وَلَكِنْ الْمُعَامَلَةُ بِالْمِثْلِ
فَإِنْ مَتَّوْا نَحْنُ، وَإِنْ قَتَلُوا نَحْنُ. وَيَشَاءُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ الرِّقَ
الْشَّيْءَ عَنِ الْأَسْرِ مَقِيداً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿مَا كَانَ يَشَاءُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يَفْضَلَ فِي الْأَرْضِ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ونقول : إن هناك فرقاً بين حكم يسبق الحدث فلا يخالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكم يجرى مع الحدث ، ولا بد أن يعرف بين الحكمين ؛ حكم يسبق الحدث إن خولف تكون هناك مخالفة ولكن حكماً يأتي مع الحدث ، فهذا أمر مختلف ، لتفرض أنك جالس وجاء لك من يقول إن قريش فلان ذهب إلى المكان الفلاني ، وأنه ينفق على كذا ، وأعطى كمبيالة على نفسه بمبلغ كذا . اذهب إليه لتمنعه ، فتذهب إليه وتمنعه ، عند جاء الحكم مع الحدث ، فلا تكون هناك مخالفة .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْجِرَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الاحزاب)

قد جاء هذا الحكم بعد أن سم أسير كفار قريش وأحدوا إلى المدينة ، وتشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بشأنهم ووصلوا إلى رأي . إذن فالحكم جاء بعد أن انتهت العملية ، والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يقيس الحكم ، فظل الأسير والقتلاء . إذن . ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ أي ما ينبغي لنبي أن يكون له أسرى حتى يفسر على الكفار في الفتان .

ويريد الحق سبحانه وتعالى هنا أن يسه المؤمنين إلى أنهم لو كانوا يريدون الأسرى لعرض الدنيا ، كأن يطمع أي واحد من يخدمه ، أو يطمع في امرأة يقضى حاجته منها ، أو في مال يغني به رغد العيش ، كل ذلك مرفوض ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد من المؤمن أن يجعل الدنيا أكبر همه ، بل يريد الحق من المؤمنين أن يعملوا ويحسنوا الاستخلاص في الأرض ؛ ليقوموا العدل على قدر الاستطاعة ، وليجزئهم الله من بعد ذلك بالحياة الدائمة المعمة في الجنة .

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْجَسَ فِي الْأَرْضِ مَنْ يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

■ سورة الأنفال ■

وسبحانه العزيز الذي لا يغلب، والحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه.
ويجيء من بعد ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ تَوَلَّوْا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيهَا أَنْتُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة نشرح وتبين أن الحق سبحانه وتعالى لا يحاسب أحداً إلا
بعد أن ينزل التشريع الذي يرتب المقدمات والنتائج، ويحدد الحرامات
والعقوبات، ولولا ذلك لنزل بالمؤمنين العذاب لأخذ الأسرى، من قبل أن
تستمر الدعوة، وبما أن الحق تبارك وتعالى لا ينزل العذاب إلا مخالفة بسببها
التشريع الذي يحددها، لولا ذلك لأنزل العذاب بالمؤمنين، ولكن بما أن هذا
المعل لم يجرم من قبل فلا عقاب عليه.

ويتقل الحق سبحانه وتعالى إلى الغنائم التي حصل عليها المؤمنون في غزوة
بدر فيقول تبارك وتعالى :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ شَفِيعٌ رَحِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

أَيُّ إِيَّاكُمْ أَنْ تَنْفَقُوا مَا غَنِمْتُمْ بِهِ سَفَاهَةً فِي أَيْ شَيْءٍ لَا لِرُومٍ لَهُ، بَلْ اتَّقُوا اللَّهَ
فِيمَا أَعْطَاكُمْ وَمِنْحَكُمْ مِنْ غَنَائِمٍ سِوَاهُ كَانَتْ مَنَقُولَاتٍ أَمْ مَا لَا أَمَّ أُسْرَى
تَجْلُو بِهِمْ يَقُومُونَ بِأَعْمَالٍ يَعُودُ نَفْعُهَا وَعَائِدُهَا إِلَيْكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فِي كُلِّ هَذَا
وَلَا تَنْفَقُوهُ بِحِمَاقَةٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ أَنْ اللَّهَ تَعَالَى
قَدْ غَفَرَ لَكُمْ مَا فَعَلْتُمْ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ هَذِهِ آيَةُ الْكَرِيمَةِ:

ثُمَّ يَخَاطَبُ الْحَقُّ مَسْحَانَهُ وَتَعَالَى الْأَسْرَى بَعْدَ ذَلِكَ فِيَقُولُ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى
إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ
مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧)

أَيُّ إِنْ صَحَّ كَلَامُ الْعَبَّاسِ فِي إِسْلَامِهِ وَأَنَّهُ كَتَمَ الْإِسْلَامَ: فَالَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي
قَلْبِهِ وَسُوءَ نِيَّتِهِ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا أَحَدُ مَنْهُ وَبِالْعَمَلِ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى الْعَبَّاسِ بِالْخَيْرِ .
فَقَدْ أَمْسَدَ الطَّبْرِي إِلَى الْعَبَّاسِ أَنَّهُ قَالَ: مَنُ نَزَلَتْ - أَيُّ هَذِهِ الْآيَةُ - حِينَ أَعْلَمْتُ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِسْلَامِي وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَحْصِيَ بَالْعَشْرِينَ أَوْ قَبْلَهُ
أَتَى أَخَذَتْ مِنِّي قَبْلَ الْمَعْدَةِ مَا بِي وَقَالَ: « ذَلِكَ قِيٌّ »، فَأَبْدَلَنِي اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ
عَشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ تَاجِرٌ بِحَالِي .

وَفِي الرِّوَايَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اسْ كَثِيرُ (قَالَ الْعَبَّاسُ فَأَعْطَانِي اللَّهُ مَكَانَ عَشْرِينَ
الْأَوْقَةِ فِي الْإِسْلَامِ عَشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يُضْرَبُ بِهِ مَعَ مَا أَرْحَوْهُ مِنْ
مَغْفَرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) (١)، وَهَكَذَا نَحْفِظُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

﴿يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ ..﴾ (٧)

(سورة الأنفال)

وبعد أن نزلت هذه الآية الكريمة، وكانت موافقة لما اتخذهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرارات، وأبلغ صلى الله عليه وسلم الأسرى بالحكم النهائي من الله: لا تفكون إلا بالفداء أو بضم الرباق، وهنا قال سيدنا عبدالله بن مسعود: يا رسول الله إلا سهل بن بيضاء فإنتى عرفته يذكر الإسلام ويصنع كذا وكذا، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيته في يوم أحوف من أن تقع على حجارة من السماء منى في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا سهل بن بيضاء، وقول الحق سارِك وتعالى:

﴿ وَيَنْصَرُّكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

أى مادام فى قلوبكم الخير وقد آمنتُم أو ستدخولون فى الإسلام؛ فإنه يعلم ما فى قلوبكم وسيغفر لكم لأنه غفور رحيم. وعندما استقر الأمر قال بعض من الأسرى: يا رسول الله: إن عبدنا مالا فى مكة، فاسمح لك نذهب إلى هناك ويحصر لك الفداء، وخشى صلى الله عليه وسلم أن تكون هذه خدعة واحتيال، فماذا يفعل؟ أيطلس سراهم ويصدقهم فيحصروا العديه؟ أم هذه حيلة وقد أضروا الخيانة والقدر؟

فزل قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ

فَأَمَكَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧١)

ويوضح الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: لا توافقهم على ما يريدون، فهم إن أضروا لك الخيانة فقد خابوا الله من قبل فمكنت منهم فلا تأمن لهم، وسبحانه يعلم ما فى صدورهم.

وبعد أن تكلم سبحانه عن قصة بدر وأسرى بدر، والمواقف التى وقفها

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته في هذه القصص، أراد سبحانه وتعالى أن يصف الأمة الإسلامية المعاصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عناصرها، وتعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صاح بالدعوة الإسلامية في مكة، ومكة هي مركز سيادة العرب، وكانت قبيلة قريش هي سيدة جميع قبائل العرب ومبدا الجريوة كلها، لأن قريشاً سيدة مكة، ومكة فيها بيت الله الحرام، وكانت كل قبيلة من قبائل العرب يكون بعض من أبنائها في بطن سيادة قريش خلال الحج، ومادامت كل قبيلة تذهب إلى مكة فهي تطلب حماية قريش، ولم توجد قبيلة تعادي قريشاً أو تهجر عن مهاجمتها؛ لأنها تعلم أنه مسجى، يوم تكون فيه تحت حماية قريش وتحت رحمتها حين الحج إلى بيت الله الحرام.

إذن سيادة قريش نشأت من وجود البيت. ولو أن هذا البيت لم يكن موجوداً لكان مركز قريش كمركز أي قبيلة من العرب، ولو أن البيت قد هدم من أبرهة، لكانت سيادة قريش قد انتهت. ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الفيل:

﴿الرَّكَيفَ قَعْلَ دَمَكٍ بِاتِّخَابِ الْعَيْلِ ① الرَّيْحَ كُلَّ يَوْمٍ فِي تَضَلُّلٍ ② وَلَا سَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبِيبَلٍ ③ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ⑤﴾

(سورة الفيل)

ثم تأتي بعدها مباشرة السورة الكريمة التي توضح لنا أن الله سبحانه وتعالى حين حفظ بيته وفك بجيوش المعتدين فجعلهم كعصف مأكول، قد أكد هذه السيادة لقريش يقول نبارك وتعالى في السورة التي سميت باسمها:

﴿لَا يَلْبَسُ قُرَيْشٌ ① لِبَاسَ رِحْلَةِ الْبُحْرَانِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④﴾

(سورة قريش)

إذن فإذنى أعطى السيادة لقريش هو بيت الله الحرام. ولذلك تذهب قوافلهم
 للتجارة ليمن والشام ولا يجزؤ أحد من القبائل أن يتعرض لها. ولو لم يكن
 بيت الله الحرام في مكة وقريش سادة مكة ؛ لما كان لهم هذا الوضع المتميز
 والمكانة العالية ، إذن فمقر قريش في بيت الله الحرام ، وأمنهم وسيادتهم في أنهم
 جالسون في راحة وتنقل قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن. ثم تعود محممة بالخير
 والربح وهم آمنون مطمئنون. وحين أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 دعوته كان ذلك الإعلان في مكة ، وقد أعلنها صلى الله عليه وسلم في وجه
 الجحارة وأقوياء الجزيرة العربية كلها. ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 قد بدأ دعوته في قبيلة صغيرة خارج مكة لقالوا: استضعفهم وغرر بهم، أو
 لقالوا يريدون به اسيادة، أى أنهم كقبيلة مستضعفة لم يأخذوا رسالة رسول
 الله صلى الله عليه وسلم إيماناً، ولكنهم أخذوها مسلماً ليسودوا بها الجزيرة
 العربية. ولكن شاء الحق تبارك وتعالى أن يكون ميلاد الرسالة في مكة وأول من
 سمعها هم سادة قريش ؛ لتأني في مركز السيادة ويكون المراد بها هو الحق،
 وإعلاء في وجه سادة الجزيرة العربية.

ثم كانت المعركة بين سادة قريش والإسلام وأدوا رسول الله صلى الله عليه
 وسلم والذين معه وحاولوا إيقاف الدعوة بكل الطرق وشتى الحيل. لكن هل
 انتصروا ؟ ثم هل امتد الإسلام وانتشر من مكة ؟ لا، بل كانت الهجرة إلى
 المدينة ، ومن هناك امتد الإسلام.

إذن فقد بدأ الإسلام من مكان السيادة في الجزيرة العربية ، ولكنه انتشر من
 مكان لا سيادة فيه ، لماذا ؟ لأن الإسلام لو انتشر من مكة لقالوا : قوم ألفوا
 السيادة على الناس ، وتعصبوا لواحد منهم ؛ ليمتدوا سيادتهم من الجزيرة العربية
 إلى أماكن أخرى في العالم. ولكن النصر جاء من المدينة لتعلم الدنيا كلها ، أن
 الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصية محمد ، وهو الذي حقق النصر لمحمد ،

ولم يخلق العصية لرسول الله أنه من قريش ، أو أنه من قبيلة اعتادت سيادة الجزيرة العربية.

ويصف الحق سبحانه وتعالى لنا المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهؤلاء هم المهاجرون. ومنهم الأنصار، ومنهم جماعة مزومة لم يهاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم هاجروا بعد ذلك. ومنهم جماعة آمنوا ولم يهاجروا من مكة ومقوا فيها حتى الفتح.

إذن : هناك أربع طوائف. الدين هاجروا مع الرسول إلى المدينة، والأنصار الذين استقبلوهم وأووههم. وطائفة لم يهاجروا مع رسول الله ولكنهم هاجروا بعد ذلك ، وطائفة بقيت في مكة حتى الفتح.

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَهُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَقٌّ يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ لَوْلَاَنِ بَصِيرَةٌ ﴿٧٢﴾﴾

انصتة الأولى في هذه الآية هم المهاجرون وقال فيهم الحق تبارك وتعالى

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأنعام)

والعنة الثابتة هم الأنصار الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَوَوْا وَنَصَرُوا﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

ثم يوحد الله تعالى بين المهاجرين والأنصار فيقول عز وجل:

﴿أُولَئِكَ نَعُصِّهِمْ أُولِيَاءَ بَعْضِ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وبعض من العلماء فسر قول الحق: ﴿بَعْضِهِمْ أُولِيَاءَ بَعْضِ﴾ على أنها تشمل الاتصاف الكامل، لدرجة أنه كان يرث بعضهم بعضاً أولاً - حسب قول العلماء - لى أن نزلت آيات الإرث فألغت ذلك التوارث الذى كان بينهم.

وقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ نَعُصِّهِمْ أُولَى سَعَصٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

أبعدت هذا المعنى، وبعض العلماء قال: إن الولاية هي النصر، وهي المودة، وهي التمتع، وهي الإكبار، فقالوا: هذه صفات الولاية، وهلاك أية أخرى عن الأنصار يقول فيها الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَوِّنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وقد عرفنا الكثير من الإيثار من الأنصار الذى قد بلغ مرتبة لا يتسامى إليها البشر أبداً إلا بصدق الإيمان، ذلك أن الرجل الذى يعيش فى نعمة وله صديق

أو حبيب يحب أن يتحفه بمشاركته في نعمته ، فإذا كان عنده سيارة مثلاً يعطيها به ليستخدمها ، وإذا كان له بيت جميل قد يدعوه للإقامة فيه بعض الوقت ، وإذا كان عنده ثوب جميل أو فاكهة نادرة قد يعطيه منها ، إلا المرأة فهي النعمة التي يأنف الرجل أن يشركه فيها أحد.

ولكن عندما وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا نساءهم في مكة ، كان الأنصاري يجيء للمهاجر ويقول له : انظر إلى نسائي والتي تعجبك منهن أطلقها لتزوجها هذه مسألة لا يمكن أن يصنعها إلا الإيمان الكامل ، وحين يصنعها الإيمان ، بهذا الإيمان يجتمع أنف الغيرة ويسعها أن تتحرك ، ولا يكون هناك من له أكثر من زوجة ومن هو محروم من المرأة.

وقد حدد الحق لنا صبرة كل طائفة من طوائف المؤمنين وبين أحكامهم : فالطائفة الأولى المهاجرون الذين أمروا وتركوا دينهم الذي آمنوا ، ثم هاجروا وتركوا أوطانهم وبيوتهم وأموالهم وزوجاتهم وأولادهم وجمالهم وزروعهم ، ثم بعد ذلك عملوا لأنفسهم على أنفسهم مال يكتسبونه ويعتقون منه أيضاً على الجهاد ، مع أنهم تركوا أموالهم وكل ما يملكون في مكة ، فكانهم ضحوا بمال وضحوا بالنفس . ودخلوا وهم قلة بلغت ما بلغت من تزايد عن ثلاثمائة ودخلوا في معركة مع الكثرة المشركة ، ولم يكونوا واثقين من النصر ولكنهم كانوا يطلون الشهادة.

إذن فهم آمنوا ، هذه واحدة ، وهاجروا ، وهذه الثانية ، وجاهدوا بأموالهم هذه الثالثة ، وجاهدوا بأنفسهم هذه الرابعة ، وكانوا أسوة لأنهم سبقوا إلى الإيمان والجهاد فشحعو غيرهم على أن يؤمنوا ، ولذلك فلهم أجر من سن سنة حسنة ، ولهم أجر من عمل بها ، وهؤلاء هم السابقون الأولون ولهم منزلة عالية وعظيمة عند الله عز وجل .

والطائفة الثانية الأنصار وهم الذين آووا هذه واحدة ، ونصروا هذه الثانية ،

وأحبوا من هاجر إليهم، هذه الثالثة. وهؤلاء جمعهم الله في الولاية أى النصره والمودة والتعظيم والإكبار. ثم يأتى القول من الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَنْتَبِمِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وهؤلاء هم الطائفة الثالثة الذين آمنوا وتركوا دينهم الذى ألفوه، ولكنهم لم يهاجروا ولم يتركوا أوطانهم ولا أولادهم ولا أزواجهم ولا أموالهم، إذن فهم خصلة قدح وخصبة ثانية ليست فى صالحهم؛ فموقعهم يون يون، ولكن لأنهم لم يهاجروا، لذلك يأتى الحكم من الله:

﴿مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَنْتَبِمِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

إذن فهذه الطائفة آمنت ولم تهاجر، ولكن عدم هجرتهم لا يجعل لهم عليكم ولاية، إلا أن قوله تبارك وتعالى

﴿مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَنْتَبِمِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وفى هذا تشجيع لهم حتى يهاجروا، كأن تقول لا بئس لك عندى مكافأة حتى تذاكر. وفى هذا تشجيع له على المذاكرة. ولم يقطع الله سبحانه وتعالى أمامهم الطريق إلى الهجرة لأنهم ربما همروا أن الهجرة لم تكن إلا فى الأفواج الأولى لأنه قال: «والذين آمنوا وهاجروا» أى أن الباب مفتوح.

وكلمة «هاجروا» مأخوذة من الفعل الرباعى «هاجر»، والاسم «هجرة»، والفعل «هاجر». وهجر غير هاجر. فقد يترك الإنسان مكاناً يقيم فيه فيكون هذا

معناه «هجر» أى ترك وهو عن قلة وضيق تدفع إلى الهروب، إنما هاجر لا بد أن يكون هناك تفاعل بين اثنين ألقاه إلى أن يهاجر، إذن فهناك عملتان، اصطهاد الكفار بالمسلمين؛ لأنهم لو لم يضطهدوهم وعاشوا فى أمان يعلنون إيمانهم وإسلامهم، ما حدثت الهجرة. ولكن الاصطهاد الذى لاقاه المسلمون كان تفاعلاً أدى إلى هجرتهم، والمتنبى يقول:

إذا ترحلت من قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم بالراحلون هم

أى أنك إذا تركت قوماً دون أن يكرهوك على ذلك تكون أنت الذى رحلت عنهم، ولكن المهاجرة التى قام بها المسلمون كانت بسبب أن الكفار ألقاؤهم إلى ذلك، إذن هجر تكون من جهة واحدة، واسم الهجرة، مأخوذ من هاجر، فكان لله سبحانه وتعالى يقول: إن أبادر التى اضطهدتم فيها كان يصح أن تهجروها. ويوضح الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبِيلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْضَرُوا فِي الدِّينِ فَعَبَّكُمُ النَّصْرُ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى لا بد أن يكون هناك النص من لإيمانى دون الولاية اكاملة للمؤمنين الذين لم يهاجروا. فالإيمان له حقه فى قوله تعالى:

﴿وَإِنْ اسْتَفْضَرُوا فِي الدِّينِ فَعَبَّكُمُ النَّصْرُ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

ولكن النص هت مشروط بشرط آخر هو:

﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَتَذَكَّرُ فِيهِمْ فَيَنْتَوُكُوا﴾

(من الآية ٧٢ من سورة الأنفال)

فاحفظوا هذا الميثاق لأن نقض العهود الميثاقية ليس من تعاليم الدين الإسلامي. ولكن مادام بينكم وبينهم ميثاق فيجب أن تتم التمسوية من طريق التفاهم. فعليكم احترام ما اتفقتم وتعاهدتم عليه. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى يعلم ويرى كل ما تصنعون وقد جمعهم الله سبحانه وتعالى كمؤمنين فى آية واحدة وكلهم فى مراتب الإيمان وهم قسم واحد.

ثم يأتى الحديث بعد ذلك عن القسم الثانى المقابل فيقول سبحانه وتعالى .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لَا تَفْعَلُوا
تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

فالكفار - كم نعلم - وكما تحدثنا الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض.

فإن لم يتجمع المؤمنون لينتربطوا ويكونوا على قلب رجل واحد، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام. وإن لم يتجمع المسلمون بالترابط تجل قول الحق تحذيراً لهم من هذا :

﴿إِلَّا تَقْعُدُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فسبحانه يريد أن يعلم أننا إن لم نعش كمسلمين متحدين ننحاز لبعضنا البعض في جماعة متضامنة، وتآلف وإيمان، إن لم نفعل ذلك فسوف تكون هناك فتنة شديدة وفساد كبير. لماذا؟ لأن المؤمنين إن لم يتجمعوا ذابوا مع الكافرين، ومستوجب ذبذبة واختلال في التوازن للإيماني جيلاً بعد جيل. ولو حدث مثل هذا الدويان، سيترى الأولاد والأطفال في مجتمع يحتلظ فيه الكفر بالإيمان، يأخذوا من هذا، ويأخذوا من ذلك، فلا يتعرفون على قيم دينهم الأصيلة، وقد يضعف المسلمون أمام إغراء الدنيا فيتبعون الكافرين. ولكن إن عاش المسلمون متضامين متعاونين تكون هناك وقاية من أمراض الكفر، وكذلك لا يحترىء عليهم خصومهم.

أما إذا لم يتجمعوا ولم يتحدوا فقد يتجرأ عليهم الخصوم فيصبحون قلة هنا، وقلة هناك وتضيع هيبتهم، ولكن إذا اتحدوا كانوا أقوياء، ليس فقط بإيمانهم، ولكن بقدرتهم الإيمانية التي تجذب غير المسلمين لهذا النور، ويشأ الفساد الكبير حين لا يتضامن المسلمون مع بعضهم البعض فيحترىء عليهم غير المسلمين ويصبحون أدلة وهم أغلبية، ولا يهابهم أحد مع كثرة عددهم، ولا يكونون أسوة سلوكية، بل يكونون أسوة سيئة للإسلام، ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فهل هذا نوحية من الله جل جلاله لهم، أو إخبار بواقع حالهم؟

لقد طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض، ولكن هل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ هو طلب للكافرين، كما هو طلب من الله للمؤمنين؟ يقول: لا؛ لأن الذين كفروا لا يقرأون كلام

الله عز وجل ، وإذا قرأوه لا يعملون به.

إذن فهذا إخبار بواقع كونى للكافرين. فعندما يطلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض، فهذا تشريع بطيب الله أن يحرص عليه المؤمنون، أما إذا قال إن الكفار بعضهم أولياء بعض. فهذا إخبار بواقع كونى لهم.

إن الإسلام جاء على أهل أصنام من قريش، ويهود من المدينة هم أهل كتاب، وكذلك كان الأوس والخزرج كفاراً مثل قريش، ولكن الإسلام جمعهم وجعل بعضهم أولياء بعض، وكان بين الأوس والخزرج وبين اليهود قبل الإسلام عداً، وإن لم يصل إلى الحرب، لأنهم كانوا يحتاجون لمال اليهود وعلمهم وأشياء أخرى، وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج بمجيء النبي محمد المذكور عندهم في التوراة ويقولون لهم: أطل زمان نبي مستمعه ونقتلكم قتل عاد وادم.

إذن كان اليهود تنوعدون الكفار، لما بينهم من عداً عقدي وديني، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر اليهود برسائله والتحموا مع كفار قريش وقالوا:

﴿مَنْزِلًا أَهْدَىٰ مِنْ آدَمَ، آمَنُوا سَبِيلًا﴾

(من الآية ٥١ سورة النساء)

أي أن كفر قريش أهدي من الذين آمنوا بمحمد، فالولاء بين الكافرين واليهود جاء لهم بعد أن كانوا أعياء، لكنهم اتحدوا بعد ذلك ضد المؤمنين، فإذا كان هذا قد حدث بين الكفار واليهود، فيجب على المؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض، لأنهم اجتمعوا على شيء يعاديه الجميع وهذا ينفي مسألة الإرث التي قال بها بعض العلماء من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض أي يرث بعضهم

بعضاً؛ لأنه لو كان هذا صحيحاً فكان الله يشرع للكافرين - أيضاً - أن يرت بعضهم بعضاً؛ لأنه استلزم كلمة أولياء بالنسبة لهم أيضاً. والحق سبحانه وتعالى لم يشرع للكافرين .

وبعد أن بينا أقسام المؤمنين الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفنا أنهم أربعة، ذكرنا ثلاثة منهم هم المهاجرون والأنصار والذين آمنوا ولم يهاجروا، وبقي من هذه الأقسام الذين آمنوا وهاجروا بعد ذلك، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

أى إياكم أن تقولوا بأنهم لم يهاجروا معكم، وتكفروا أنهم معكم. بل هم معكم وأولياؤكم فهم قد اتبعوكم بإحسان.

وما الذى جعل الحق سبحانه وتعالى يذكر هذا مرة أخرى ؟. لقد تكلم سبحانه وتعالى عن الذين آمنوا وجاهدوا في سبيل الله والذين نصرنا، ولنتنبه إلى أن هذا ليس تكراراً لأنه سبحانه وتعالى يذكر لنا هنا أنهم جاهدوا بالمال والنفس. وقد جاءت هذه الآية لتثبيت الحكم الشرعى. وانظر إلى عجز كل آية لتعرف. ففى عجز هذه الآية :

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمُ الْمُغْفَرُونَ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

والحكم الشرعي بالنسبة لهم هو أن يكونوا أولياء بعض، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة حيث يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ تَتَغَمَّدُهُمْ أَوْيَاتٌ بَعْضُهَا﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى أعطنا الحكم الشرعي في ولاية بعضهم لبعض، وأوضح أن هؤلاء لابد أن يكونوا أولياء، وهذا هو الحكم المطلوب منهم، ولكنه سبحانه في هذه الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ حَقًّا﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

فلم يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الولاية ولم يعط حكماً بها، وإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ حَقًّا﴾ وهذا حصر يسمونه قصراً، أى أن غيرهم لا يكون مؤمناً حقاً، مثلما تقول: فلان هو الرجل، يعنى أن غيره لا نعد وحولته كاملة من كل نواحيها، وهذه مبالغة إيمانية.

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية لكريمة التى نحن بصدد خواطرتنا عنها بقوله الكريم:

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ رَازِقٌ كَرِيمٌ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

وهنا يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الجزاء، والجزاء إما أن يكون في الدنيا،

ولذلك حكم الله لهم بأنهم هم المؤمنون حقاً، وإما أن يكون الجزاء في الآخرة. وجزاء الآخرة يحجر السيئات ويرفع الدرجات فقوله: ﴿لهم مغفرة﴾ أي تحصى سيئاتهم. وقوله تعالى: ﴿ورزق كريم﴾ أي نصاعف لهم الحسنات في الجنة. فكان لآية الأولى كان مقصوداً بها حكم الرلاية. وهو حكم مطلوب منهم. والآية الثانية تكلمت عن الجراء وبيست جزاءهم في الدنيا والآخرة. والجزاء في الدنيا أنهم هم المؤمنون حقاً، أما الجزاء في الآخرة فهو محو للذنوب حتى لا يعاقبوا. ورفع درجاتهم بإعطائهم الثواب، وهو رزق كريم.

والمنصرة لهم على قليل الذنوب؛ لأنه لا يوجد أحد بلا كسوة في شيء من الأشياء ولا أحد معصوم مثل الرسل فهم وحدهم الذين عصمهم الله من الوقوع في المعاصي، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يشفر لمن ذكرهم في هذه الآية النزوات الصغيرة، ولهم رزق كريم أيضاً. والرزق هو ما انتفع به الإنسان، وإن كان الناس ينظرون إلى الرزق على أنه المادة فقط، من مال وأرض وعقار وطعام ولباس، ولكن الحقيقة أن الرزق مجموع أشياء متعددة؛ منها ما هو مادي وما هو معنوي.

فالاستقامة رزق، والفضيلة رزق، ولعلم رزق، والتقوى رزق، وكلما ابتد نفع الرزق بوصف بأنه حسن وجميل. وما وصف الحق الرزق بأنه كريم. والكرم هو مجموع الأشياء التي فيها محاسن. وإذا جاء الرزق بلا تعب يكون كريماً، فالهواء رزق لا عمل لك فيه؛ يمر عليك فتتنفس، والماء رزق لا عمل لك فيه لأنه يهبط عليك من السماء، والطعام رزق لك فيه عمل قليل، فأنت بذرب ورويت وانتظرت حتى جاء الثمر.

إذن فهناك رزق لا عمل لك فيه مطلقاً وهو رزق في قمة الكرم، وهناك رزق لك فيه عمل صئيل وهو رزق كريم لأنه أكبر من العمل. وأنت حين تعطى إنساناً

أجره ليس هذا، منّا أو كرمنا منك لأنه معبد عمل، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل. ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك وتشتيه تجده أمامك.

إذن فهو رزق في قمة الكرم، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق، فالرزق يعرف عوائك ومكائك وأنت لا تعرف عوائه ولا مكانه لأنك قد تبدل جهداً كبيراً في زراعة أرضك ثم تأتي آفة وتصيب الرزق فلا يعطيك رزقاً. وقد نذهب إلى مكان وأنت تحالي الدهن فتأتيك صفقة فيها رزق وفير،

إذن فالرزق يعرف مكانك ويأني إبيك وبكك لا تعرف أين هو. وقد حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده، وكل رزق مقوم لك سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك، وأنت قد نأكل طعاماً نتد به ثم يهيج معدتك فتخرج معدتك منه، ويأني طائر ليل تقط بعضه هذا رزق الصائر تعافه أنت، وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات في دمك ثم تذهب تنمرع بهذا الدم إلى غيرك.

إذن فهذا الطعام الذي أكلته وتحول إلى دم في جسدك ليس رزقك ولكنه رزق من نقل إليه الدم. ولذلك إذا قرأت القرآن تجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَصَرَفَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَأَنَّ أَمَةً مَطْمَئَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَارٍ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الحل)

والرزق يأتيك ولا تذهب أنت إليه، وإذا كان الرزق قد ربط في الدنيا بأسباب العمل، فالرزق في الآخرة بأيك بلا عمل.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَابِرٍ وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ
فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي
كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

إذن فمن آمن بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد به أيضاً مغفرة ورزق كريم .
هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها ،
فالذين آمنوا هم جميعاً قد انضموا انتماء أوليا إلى الله ، ولذلك نجد أن الحق
سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهوراً في أشياء ومختاراً في أشياء يفعلها أو
لا يفعلها ، وللمؤمن يختار ما أراه الله تعالى له ؛ ففعل ما قال له : « افعل » ،
ولم يفعل ما قال له « لا تفعل » ، فكانه يختار مرادات الله في التشريع .
إن معنى الإيمان أن يستقر في قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات
كمال خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، وأنا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أعد بنا
إعداداً جيداً ، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان ، وأعطانا الله سبحانه وتعالى
الاختيار في أشياء ، وجعلنا من رحمته مقهورين في أشياء .

مثلاً دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لك عز
وجل لا دخل لاختيارك فيها ، وكذلك التنفس فأنت تتنفس وأنت نائم ولا
تعرف كيف يحدث ذلك ، ولكن الأفعال التي تصدر منك بعد فكر ، تلك هي
الأفعال التي جعل الله لك فيها اختياراً . ولو أردت الخالق أن تكون مقهوراً
لفعل ، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعاً لفعل ؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم
الاختيار ؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ؛ ليعرف مَنْ من عباده أحب إليه
فأطاعه في التكليف ، وَمَنْ من الخلق قد عصاه .

إذن فالانتماء الأول للمسلم هو انتماء الإيمان، وللإنسان انتماءات أخرى؛
 ينتمى بوطنه ولأهله ولأولاده ولماله، ولكن لانتماء الأول يحجب أن يكون لله
 تعالى، بحيث يترك الناس أوطنتهم وأموالهم وأهلهم إذا كان الإيمان يقتضى
 ذلك والإنسان المؤمن هو الذى يترك اختياره فيختار ما أمر به الله عز وجل،
 ويجعل كل ما يمكنه فى خدمة ذلك؛ فيجاهد بنفسه لأن الله أمره بذلك،
 ويجاهد بماله لأن الله أمره بذلك. إذن فالمؤمن الحق لا انتماء له إلا لله. فالذين
 هاجروا والذين آووا ونصروا، تركوا أموالهم وأولادهم وكل ما يملكون حباً فى
 الله وطاعة له.

فالأصهار لم يهاجروا ولكنهم وضعوا كل إمكانياتهم فى إيواء المهاجرين حباً
 لله؛ فتنازلوا عن مساكن لهم وأموال لهم، وتنازلوا عن زوجاتهم فى سبيل الله
 كل منهم مؤمن حقاً، أما الفئة الثانية فهناك نقص فى إيمانهم؛ ذلك أنهم لم
 يهاجروا رغم إسلامهم وفضلوا أن يبقوا مع أولادهم وأهلهم. ولذلك قال الله
 سبحانه وتعالى عنهم:

﴿لَكُمْ مِنَ وَلَدِهِمْ مِر شَوْءٌ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

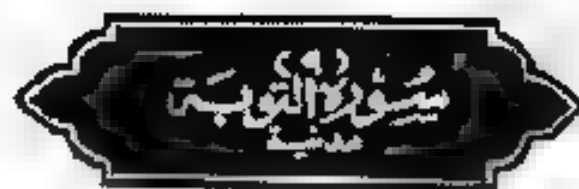
أى ليس مطلوباً أن توالوهم، لكن إذا استنصروكم فى الدين فعليكم النصر،
 لماذا؟ لأنهم لم يتركوا الانتماءات الأخرى مثل المال والولد والأهل ومكان
 الإقامة، والفئة الثالثة هم الذين جاءوا بعد ذلك، لم تكن هناك هجرة ليهاجروا
 ولكن من أمن منهم وجاهد وترك اختياره وحصص لاختيار الله خضوعاً تاماً
 يكون كالمؤمنين الأوائل؛ لأنهم تركوا كل الانتماءات من أجل الله تعالى. ثم
 يختتم الحق سبحانه سورة الأنفال بهذه الآية الكريمة

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَّهَهُوا بِعَظَمَةِ مَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَ وَالْأَرْحَامَ

نَعَصْتُهُمْ أَوَّلَ بَيْعٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

(سورة الأنفال)

سورة التوبة



وتنتهي حواطرها عن سورة الأنعام لتبدأ حواطرها عن سورة أخرى هي سورة التوبة، ومن عاداتنا عند انتهاء سورة وإبتداء سورة، أن تبدأ أسورة الحديد بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، ولكن سورة التوبة هي السورة الوحيدة التي بدأت بدون البسملة، ووقف العلماء ليحاولوا العلم بسر عدم البدء بالبسملة، وقد اختلفت آراؤهم، ولحظ كل عالم ملحظاً، فمن قائل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد بداية السور ولم يحدد بداية هذه السورة.

ونقول: لا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد مكان الآية في كل سورة، وقبل إن باقي سور القرآن الكريم وعددهم مائة وثلاث عشرة بدأت بالبسملة.

ولم تبدأ سورة التوبة بالبسملة حتى نعرف أن الأمر ليس رتبة انتهاء سورة وإبتداء أخرى، بحيث تنهى «بسم الله الرحمن الرحيم» مع بداية كل سورة، ولكن أسماء السور توقيفية؛ أي أن سيدنا جبريل عليه السلام هو الذي يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما في القرآن الكريم، ونعلم أن رسول الله كان يراجع القرآن كله مع جبريل في كل رمضان، وراجعته في عامه الأخير مرتين مع جبريل، وكل ما جاء بالقرآن الكريم ترقى كما أبلغه الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن عظمة الشرع أن يتقبل المؤمن من شيء إلى شيء، ليجد فجوة يتوقف العقل عندها، وهنا يأتي دور الإيمان ليمسح العقل من التوقف عند أي فجوة؛ لأن المشرع وهو الله سبحانه وتعالى يريد ذلك، ولو جاءت الآيات على رتبة واحدة لما اتبه الإنسان إلى قيم الإيمان.

على سبيل المثال نحن في الحج نقبل حجرا ويرجم حجراً ، وحاء هذا كأمير من الله سبحانه وتعالى بأن هذا حجر يُقدم وذاك حجر يُرجم ويدامر ؛ لنعلم أنه لا شيء في هذا الكون مقدم لذاته ، ولكن التقديس لأمر الله وبشؤجه منه سبحانه وتعالى ؛ إن قال : قبلوا ، قبلك ، وإن قال ارجوا ، رجاء .

ولي الجيش مثلاً عندما يأتي المضابط ويقول للعجود : قف ، فيقف الجنود ، حتى الذي وضع لقمة في فمه يتوقف عن مصنها والحكمة من ذلك هي الانضباط ، والانضباط الإيماني أكبر ؛ لذلك إذا صادف المؤمن أشياء في منهج الله يقف فيها العقل يقول : هذه إرادة الله وسأعدها لأن الحق تبارك وتعالى أمر بها

والمثال لنا هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ حينما أخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أسرى به إلى بيت المقدس ، وخرج به إلى السماء لم يقس المسألة بعقله ولكنه قال : أو قد ذلك ؟ فالتوا نعم ؛ قال : فأنا أشهد إن قال ذلك لصد صدق . قالوا فتصدده في أن يأتي لشتم في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه ، بحبر السماء ؛ قال أبو سلمة - فيها سُمي أبو بكر الصديق -

ومن العلماء من قال : إن سورة الأنعام كانت عهداً ، وسورة براءة هي نقض لهذه العهود ، ونقص العهد يأتي بعد العهد ذاته فجاءت سورة التوبة مكسرة لسورة الأنعام ، ولذلك نجد في سورة الأنعام أن الحق سبحانه وتعالى قال مشرعاً لتوزيع أموال الغنائم ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنعام ٤١]

رجعت سورة التوبة لتفصل كيف يتم التوزيع لأموال الصدقات فقال الله جل جلاله :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَبِرِضَةِ مَنِ اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة ٦٠]

إذن نكان من الطبيعي أن تأتي سورة التوبة بعد سورة الأنفال ؛ لأن سورة التوبة متممة لسورة الأنفال . وسورة التوبة تعرض للقطيعة ، وتبدأ بقول الله تبارك وتعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. (١) ﴾ [التوبة]

وهذه البداية لا تتناسب مع قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

لأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وهذه براءة . وقيل في عدم تسميتها سورة براءة وتسميتها سورة التوبة لأن القطيعة هنا بين الله وبعض عباده الذين ضلوا واختاروا الكفر والنفاق ؛ ولأنه رب رحيم أراد أن يفتح لعباده الذين أبقوا باب الرجوع إليه بالتوبة ؛ سميت السورة سورة « التوبة » وقد بدأت السورة بقوله تعالى : « براءة » واسمها التوبة حتى تسبق التوبة البراءة . ولذلك لمجد فيها آيات التوبة في قول الله تعالى ﴿ قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ .. (١١٧) ﴾ [التوبة]

وهي آية أخرى . ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨) ﴾ [التوبة]

وهي آية ثالثة ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ .. (١٢٥) ﴾ [التوبة]

إذن فعلى الرغم من أن السورة بدأت بالبراءة ، لا أنها جاءت بالتوبة رحمة منه ؛ وقبلها من تعالى رحمة بالناس .

فإنه يشرع التوبة ويفتح بابها فضلا منه ورحمة ؛ فلو لم يشرعها الله ، فقلت توبة أبداً ولو عن معصية واحدة ، والذي يبأس من التوبة وعمره أن الذنوب يشتد في المعاصي وينعمس فيها ويحدث نفسه بأنه ما دامت معصية واحدة سوف تدخله النار ، فلا فرق بين معصية وألف . ولا بد - إذن - أن يرتكب كل يوم جريمة ؛ لأن ذنباً واحداً أخرجه من الرحمة ، وشاء سبحانه وتعالى أن يفتح باب التوبة بمنع شراره الإجرام في المجتمع ، فكل عاص يمكنه أن يعود بالتوبة إلى الإيمان ، ويعيش المجتمع في أمان وسلام . وهكذا كان تشريع التوبة رحمة ، وقبلها من الله رحمة . ولذلك بعض

الناس يقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١٨) ﴾ [التوبة]

ويتساءل كيف تاب الله عليهم ليتوبوا؟ نقول : تاب عليهم أى شرع بهم التوبة ، فإن تابوا قبل الله توبتهم .

إذن فالمسألة تشريع وقبول . وما دام الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة فهو تواب . إذن فقد قدم الحق هنا للإنسان أملاً بيمين يصحح بهما مساره ، قد شرع التوبة ، وأذن بقبولها . ومن عظمت له لم يعل عن نفسه إنه تائب ولكنه تواب . فإذا فعل الإنسان معصية وتاب ، قبل الله توبته ، وإن علبه الشيطان أو غلبته نفسه وارتكب معصية أخرى وتاب قبل الله توبته أيضاً لأنه تواب رحيم .

وأحدث سورة التوبة حيزاً مع المشركين وحيزاً مع اليهود والنصارى ، وحيزاً مع المنافقين ، وكما حدثت المؤمنين في آخر السورة ، حدثت أيضاً موافق كل من هؤلاء ، وقد كان بيان موقف هؤلاء ضرورياً لأن المتفق مثلاً متعارض الملتكات ، والكافر منسجم الملتكات ، فالمتفق ينطق لسانه عكس ما فى قلبه ، والكافر إنما ينطق بما فى قلبه ، ولكن المتفق والكافر يتفقان فى عداوة المؤمن . وبذلك قضح الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأعداء وأظهر ما فى أعماق الكافرين والمنافقين وخصومتهم للإسلام ، وحاز المنافقون قسطاً وامراً من السورة لأنهم ادعوا الإيمان واقتربوا من المسلمين ، وخصومة الغريب أشد على النفس ، مما بالتنا بخصومة الإنسان مع نفسه ؟!

هكذا كان حال المنافقين للدين عداوة بين المسلمين وملكابهم متعارضة وخصومتهم للمؤمنين أشد ، لأنهم يتطهرون بالإيمان ، ويضمرون الكفر . ولذلك كانت معظم آيات هذه السورة تقضح حال اسافقين وتظهر ما أضمره من بغض وعداوة لأنهم أشد خطراً على الدين من الكفار .

والله سبحانه وتعالى يعطينا فى هذه السورة صورة لتمررد نوع من خلق الله من بنى الإنسان .

وهم هؤلاء الذين يكذبون بالله ويعتونه ويصمرون الكفر والحقد وينظاهرون بأنهم مع المسلمين عند بأنهم لم يمسواوا مع الخيادات وسائر خلق الله من غير بني الإنسان حتى الحيوان ، فإن هؤلاء جميعا يسبحون الله الخالق ويسجدون له ؛ معجودون إفراد بالربوبية ، أما المسافقون فهم من منى الإنسان الذين تمردوا على الله حالقهم ، ولذلك اقرأ إن شئت في تصنيف الأجاس في الكون ، الحياد ، النبات ، الحيوان ، الإنسان ، حيث يقول الحق ببارك وتعالى . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ ﴾ [الحج : ١٨]

وهذه هي الجيادات ، ثم يأتي الخبز بالنسبة للنبات والحيوان فقول الحق جل وعلا . ﴿ وَالشَّجَرُ وَالْأَنْبَاءُ ﴾ [الحج : ١٨]

ثم جاء الخبز في الإنسان فقال الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج : ١٨]

أي أن الأمر في التسبيح والطاعة واسجود لله انقسم عند الإنسان لأن له اعتباراً ونجد رحمة ربوبية في أنه ، كما جعل للمؤمن رزقه ، فقد جعل للكافر رزقاً أيضاً ، وبين الله عز وجل أنه يروق الكافر رغم أنه أراد بالسورة القطع بينه سبحانه وتعالى وبين الذين نقضوا العهد ، فإنه شاء أن يسمى السورة «سورة التوبة» ؛ لفتح لهم باب التوبة فقد يتوبون ويرجعون إلى الإيمان

وقبل أن نصنف من حياء في سورة التوبة لسان الموص من المشركين ، والموص من أهل الكتاب ، والمرفق من منافقين ، بحسب ما أد بعصل الكلام في مسأله التسمية - السملة - لأنها شغلت بال اعتناء كثيراً

ويعلم أن «بسم الله الرحمن الرحيم» وردت في القرآن الكريم مائة وأربع عشرة مرة ؛ منها مائة وثلاث عشرة مرة في بداية السور ، ومرة في مساق آيات سورة المل ؛ في قوله تعالى . ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) ﴾ [المل : ١] وهي آية مجمع عليها ، أب آية من سورة في القرآن الكريم ، ولكن ماذا عن

السلسلة في أوائل سور القرآن الكريم ؟

اسمع العلماء على أنها آية من آيات القرآن الكريم ، ولكن كان الخلاف بينهم حول: هل هي آية من كل سورة ؟ وانفق الجمهور على أنها آية قد نزلت للمفصل والابتداء ، ولا يصح أن نقول : إنها للمفصل فقط ، بل نقول : هي للمفصل والابتداء ، وهناك من يقول : إنها في العائنة للابتداء ، أما المفصل فلا يوجد قبل الفاتحة سورة أخرى في المصحف ، وعلى ذلك فهي للمفصل بين الفاتحة وسورة البقرة . ولعل هذا القائل سرد فائس ، إن المدقق في علوم القرآن الكريم يعلم أن ترتيب المصحف غير ترتيب السور ، فالمصحف له ترتيب ، والقرآن نزل مجزئاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفاتحة - على سبيل المثال - نزلت بعد سورة المدثر ، فهي فاصلة بين المدثر والعائنة

وحيث تصفح المصحف الشريف نجد أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية من الفاتحة، ولكنها ليست آية من كل سورة . فهي ترقيم آيات الفاتحة نجد ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الآية الأولى . وبعد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي الآية الثانية ، بينما في باقي السور، نجد أن الآية الأولى تبدأ بعد قوله تعالى : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذلك لأن جمهور العلماء عدّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية في سورة الفاتحة

وجزى الله خيراً صاحب المعجم المفهرس الذي وضع معجماً لأبيات القرآن الكريم بحيث إذا أحسنت أن تعرف موقع آية في المصحف تستطيع أن تحصل عن موقعها من الكليات في هذا المعجم ، إلا أنه من عجيب الأمر واستبلاء الفص عن البشر، شاء الحق تبارك وتعالى هذا الرجل الطيب الباحث ، أن يسي وضع ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ في الإحصاء ، وجاء بكلمة الله في ٩٨٠ آية بالرفع ، ٩٢ آية بالنصب ، ١١٥٢ آية جاءت فيها كلمة الله بالجر ، ونقص آيات الجر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

وأنت حين تقرأ القرآن الكريم تستعيد بالله من الشيطان الرجيم ثم تقول من بعد ذلك ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لأن القرآن قد بدأ مقروءاً باسم الله ، وكذلك يبدأ

متلوا باسم الله ، وها نحن أولاء مع رسول الله حسبا كان في عار حرا ، يتعد ، وحاء له
الوحي فقال له : ﴿ اقرأ ﴾ [العلق]

واقرا تتطلب أحد أمرين ؛ الأمر الأول هو أن يكون المتلقى ها قد حفظ شيئا
فيقرأ

والأمر الثاني أن يكون أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب يقرأ ، ورسول
الله صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده محفوظ ، ولم يكن أمامه مكتوب فضلا عن أنه
صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف القراءة والكتابة . ولهذا تساءل رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ما أنا بقارىء . وكان صلى الله عليه وسلم منطقيا مع نفسه في هذا الرد .
وقال الملك جبريل ثاني : اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء .

أنعرفون لماذا كان هذا التكرار ؟ كان ذلك في فحواه ردا على شعرة أثارها خصوم
الإسلام وأعداؤه بعد محمى رسالة الإسلام بأربعة عشر قرنا ، حينها قالوا : إن القرآن
هو بعض من وسوسات وأحاديث في نفس محمد . لكن ها نحن أولاء أمام الرد . لقد
جاء الملك جبريل ليقول لمحمد « اقرأ » وها هو ذا رد محمد « ما أنا بقارىء » .

بإذن أمام شخصيتين متباعدتين ، شخصية امرأة جارية ، وشخصية متمنعة ،
فلو كانت المسألة مسألة حديث نفس أو وسوسة ، لما كان هناك سبب لوجود
الشخصية الأمرة ، ووجود الشخصية الثانية المحتنعة ، وكل شخصية مسجومة مع
صفاتها وقدراتها ، فالشخصية التى تقول « اقرأ » هى الأمرة بالقراءة . والشخصية
التي تقول « ما أنا بقارىء » هى شخصه تعرف الأسباب وفقد الأسباب وتعرف
مواقعها من الأمية . إذن فهنا شخصيتان متميزتان لا شخصية واحدة

وحين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أنا بقارىء » فهو مطلق مع نفسه
ومع الواقع . وحين يقول الملك جبريل مبلعا عن ربه : « اقرأ » فهو يُقرئه باسم
ربه ، لأنه قارىء ولا لأنه كاتب . كأنه يقول له : إنك يا محمد ستقرأ باسم ربك لا
باسم تعليمك . ويتابع الوحي : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من
علق ﴾ فكما خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان فقدرته من علق ، هو قادر على

أن يجعلك يا محمد تقرأ ، وإن لم تتعلم القراءة . وهذا ليس بالأمر العسير أو الصعب على الخالق ، اقرأ باسم ربك : لا باسم أمك قد تعلمت ، ربك هو الذي خلق الإنسان من علق ، وربك هو الأكرم ، الذي علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، فأنت لم تقرأ مما تعلمته من البشر ، ولكنك تقرأ مما تعلمته من خالق البشر .

ونحن في موقف مع رب الأسباب : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ [علق . ٣]

والإنسان منا حين يتعلم القراءة والكتابة فهو يتعلمها من إنسان مثله ، وهي دليل على كرم الله تعالى لأنه يقدها من إنسان إلى إنسان ، ولكن حين يتعلم من غير ذلك فهذا هو الموقف الأكرم . إذن فهناك «كريم» وهناك «أكرم» كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لحمد : أنت لا تقرأ باسم أمك تعلمت ولا باسم أمك حافظ ، وإنما تقرأ باسم ربك ، وإن لربك مطلق القدرة إذا أراد شيئا فهو يقول سبحانه وتعالى

﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس . ٨٢٠]

إذن فقد قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن أولاً باسم الله . ونحن نتلوه أيضاً باسم الله . ولابد أن تأخذ «بسم الله» من زاويتين : زاوية الأولى هي فيها فلفظه من لغة البشر ، فإذا ما تكلم إنسان في أمر من الأمور ويريد إقناعه به وتأييده له فأنت تقول له . باسم من تتكلم ؟

فيقول لك أنا أتكلم يا سيدي باسم السلطة . وقد تكون هذه السلطة هي النيابة أو الشرطة أو الضرائب . إذن جاء بك بالصفة التي يتكلم باسمها

ونحن في هذه الحياة المعاصرة نجد الحاكم مثلاً يفتح خطبه قائلاً «باسم الشعب» ويكون ذلك هو مدخل الحاكم للحديث في أي أمر .

وإزاوية الثانية هي أنك حين تتكلم باسم الله فأنت تعرف أي قدرة مطلقة تقبل على العمل بها . فأنت تذهب إلى الأرض لتحراثها ، فتعطيك الزرع ، وأنت تعلم أنك لم تخلق لأرض ، ولا تعرف حدود العاصراتي فيها ، وأنت كذلك لم تخلق البذور التي تنزرع في الأرض ، ولا أنت الذي تستول الماء من السماء لتروى الأرض كل ما في

الأمر أنك حرثت الأرض ، أى أنك عملت فكراً المحبوب لله فى المادة المخلوقة لله بالصفة المخلوقة لله سبحانه وتعالى .

إذن تأت حين نقل عن الزراعة تعرف حدود قدرتك وتعرف مطلق قدرة الله سبحانه وتعالى فتقول : « باسم الله » وهذا يعنى صفياً أنك تقول : أنا لا أقدر على أن أزرع باسمى لأنى لم أخلق الأرض ، ولا أسأل المطر ، ولا أنا حالى اسود ، ولا قدرة لى لأزعم الأرض على أن تنبت الزرع بأنواعه المختلفة

وعلى الإنسان أن يسأل نفسه عندما يفشل عن أى عمل من الأعمال : ما هى قدرى التى ترغم العمل على أن ينعس ؟ لا يوجد للإنسان أى قدرة ولكن هى قدرة السحير التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى كل الكائنات التى تنبع بها أياها الإنسان . لذلك فمن حسن الأدب مع الله أن تدخل على كل عمل قائلاً : أيدى لا قدرة لى عليك إلا باسم الله الذى سحرك لى وأمرك ألا تنزع عن طاعتى .

وعن سبيل المثال هل يمكننا أن نؤثر فى حركة الشمس ونكون فى استطاعتنا أن نقربها ، أنشرقى ؟ نحن لا نتحكم فى الشمس ولا فى القمر ولا فى الهواء ولا فى النجوم . إذن . فمن حسن الأدب مع الله تعالى أن تدخل على كل ذلك باسم الذى سحر هذه الكائنات لخدمتك وانظر دائماً إلى من سخر لك جميع الكائنات لسكر لى طاعتك .

عليك أن تعرف أنك بلا قدرة على شيء ، وأنت لن تفكر على أى شيء إلا بقدره الله تعالى وأنت إن أقدمت على أى عمل ، وليس فى يالك الله لمسحرك ، واحتفظت فى يالك فقط بالتيحة التى يحققها لك هذا العمل ، فاعلم أن هذا هو أول فارق بين المؤمن والكافر . فالكافر هو الذى يدخل على أى عمل وهو باظر فقط إلى فائدته المجردة سواء أكانت زراعة أم صناعة أم طعاماً أم شرباً . أم المؤمن فهو يعلم دائماً الولاء لله سبحانه وتعالى وأنه لا يقوم إلا بالعمل الذى أسأحه الله له . به يصنع الله دائماً فى قلبه وفى ماله وذلك يكسبه مائدتين ، الأولى : هى الوصل والوصول إلى نتيجة هذا العمل ، مثله فى ذلك مثل الكافر ، والمائدة الثانية هى الثواب الذى يناله

المؤمن في الآخرة . إنه يستعيد من عطاءه لأمس عطاء واحد . ولديك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ (١)

والمؤمن ساعة يرى نتيجة عمله في الدنيا لصالح نفسه فهو يقول الحمد لله وساعه يرى عطاء الله له في اليوم الآخر من حسن الثواب فهو يقول أيضا : الحمد لله الحمد لله أولا واحمد لله آخر .

اذن ساعة نقول . ﴿ باسم الله ﴾ وأنت مصل على أى عمل فأنت تعرف أنك تدخل على العمل بلا حول منك ولا قوة ولا طول ، وإياي يقيم أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يسخر لك هذا العمل . ولولم يسخر الله لك ما أمرك من كائنات لم اصعد لك ، أو أعطت ثمرة .

وأما لأعمل من ضرب هذا المثل من الأنعام ، تلك الأنعام التى يتأسسها الإنسان بإرادة السحير التى خلقها الله تعالى ، فهناك بعض من الحيوانات التى لا يستطيع أن يتأسسها نحن ستأسس الجمل ، وقد تستأنس الفيل ، ولكن لا يستطيع أحد ما أن يتأسس ثعبان صغيرا أو ديك لأن الحق ترك هذه الكائنات معلقة ولا يستطيع الإنسان أن يتأسسها ، حتى يعلم الإنسان أنه لا حول له ولا قوة ، وأنه لو لم يدل الله له بعض من الحيوانات ، لما استطاع أن يدل أى شئ منها ، والدليل على هذا هو وجود حيوانات لا يستطيع أن ندليها ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِي أُنْعَامًا لَهُمْ لَهَا مَا يَكُونُ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ (٧٢)

إذن لو لم يدل الله تبارك وتعالى لما استطعنا نحن ندليها ، وترك الله بعضا من الوحوش غير مستأسسه ليحريها أما لأنملك مطلق طاقة التدليل والتسحين ولكنه سبحانه وتعالى هو الذى يخلق طاقة التسحير والتدليل فيه يشاء من يشاء . وهذا تيه واضح للإنسان حتى لا يفضل وحتى لا يأخذه الغرور . فإذا أقبلت على أى عمل

باسم الله، فكأنك دخلت على الحمل باسم من سحر لث الكائنات لتفعل معك.

وقد يقول قائل . ولكن الكائنات أيضا تفعل للكافر الذي لا يقول ﴿ باسم الله ﴾ ونقول : إن الكافر لا يأخذ إلا نتيجة العمل فقط . أما المؤمن فهو يثاب على عمدة استحضار الله في باله مع الجزاء نتيجة العمل ذاته .

وبعد ذلك يطلق الحق سبحانه وتعالى أشياء في الكون ويفلتها من قانونها الذي وضعه لها، فالسنن في الكون موجودة ولكن الله يأمر هذه السنن أن تخرج على قوانينها لماذا؟ ليعلم سبحانه العرق بينه وهو الحق وبين الحق. إن الحق يطلق القساوي ويقيده ويصلته كما يشاء، والخلق يصممون القساوي لعمل ما، ولا يستطيع الشخص أن يتجاوز به حدود ما صمم له.

فسبحانه وتعالى قد وضع نواويس للكون، ويحرق سبحانه هذه النواويس في بعض الأحيان حتى يلتفت نظر الناس إلى أنه القائم على هذا الكون. مثال ذلك أننا نجد المطر يسرل دائعا في مكان ما من لأرض، وبعد ذلك يصيب هذا المكان الجفاف، وهذا خروج عن الساموس. هو بذلك يلعبنا إلى أن الكون لا يخضع للساموس، ولكنه خاضع لإرادة خالق الساموس. ولحق سبحانه وتعالى يحرق الساموس ليلفتنا إلى مطلق قدرته. ته يلتفتا لتعرف أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لها مدلول في الكون

ومثال براه في حياتنا على حرق المومس، نحن نعلم أن التكاثر يحدث في
الإنسان من دواج رجل بمرأة، ويريدان الإنجاب. لكن الحق سبحانه هو الذي
يحدد عطاء البوع ذكرًا أو أنثى أو لا يعطي حسب مشيئته ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ إِمَّا نًا وَيُهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۚ﴾ (٤٩) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ
ذَكَرًا وَإِمَّا نًا وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٥٠) [الشورى]

إلى الرجل والمرأة موجودان، ولكن الناموس لا يتصرف بمشيتته، ولكنها إرادة
حالت الناموس.

ولخلق سبحانه وتعالى بصروب أكثر من مثل على ذلك ونعرف حكاية سيدنا زكريا

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿٤٨٤٣﴾

وكان يكفل مريم عليه وعليها السلام ، ويأتى لها بالطعام والشراب فدخل عليها مرة فوجد عندها لون من الطعام لم يكن قد أتى به ، فقال لها تلك المقولة المشهورة التي تعلمنا كيف ندير أمور حياتنا بلا فساد أو إسباح بفساد لأبدنا وبناتنا ، قال لها :

﴿أَتَى لَكَ هَذَا﴾ . آل عمران : ٢٧

إنه يعلمنا الرقابة على من تكلمهم ، فساد لبيوت ينشأ من عدم الرقابة على الأولاد ، فلأم إن رأيت قلم حبر فاختراً - على ميل المثال - مع الابن ولم يحضره له أبوه ولم يسأله «من أين لك هذا ؟» فهذا سر عى لفساد فى الابن وقد يكبر فى الفساد من بعد ذلك . والأم إن رأيت بعضاً من الملابس التي لم تحضرها لابنتها ، والآن تتردبها ، عليها أن تسأل وتدقق بأسلوب «أتى بك هذا ؟» حتى لا تتحرف الابنة ، ولو أن ابروجة تنسبه إلى أسلوب تصرف زوجها وإتفاقه الذى قد يصوق مرتته كثيراً وتسأله بحسب . «أتى بك هذا ؟» فهي تحمى زوجها وبناتها من المال الحرام .

إن مبدأ «أتى لك هذا ؟» لو سيطر على المناخ العام للمجتمع لامتنع الفساد من جذوره . وقد أطلق الحق هذا التساؤل على لسان سيدنا زكريا عليه السلام لرسم بعد أن كملها : ﴿يَا مَرْيَمُ أَتَى لَكَ هَذَا﴾ [آل عمران : ٢٧]

هنا قالت مريم : ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٢٧]

إذن واجه سيدنا زكريا حرقاً سماوياً للمؤمنين .

وكان زكريا عليه السلام يريد لنفسه أن يدخل ضمن دائرة : ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فلدعا ربه أن يرزقه علام رغم أنه قد بلغ من الكبر عتياً ، وأن زوجه عاقر ، ما دام الحق يرزق من يشاء بغير حساب فليدع الله :

﴿هَذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران : ٣٨]

وجاءت الإشارة من الله تعالى بيجب ، وتحقيق لركن ما آمن به من أن الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب . ولما أن متبه إلى أن هذه المسألة جرت بين يدي

سيدتنا مريم ، ذلك أن مريم ستعرض لحنة لم تتعرض لها امرأة في العلم ، فأراد الله عز وجل أن يؤنس بشرتها حتى لا تنزل أفكاره ويعلمها أن تقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِعَرٍ حَسَابٍ﴾ وفي ذلك إيهام لمريم لما سيحجر عليها من خروج عن الناموس فتلد من غير ذكر . لقد عرفت أن الحق يرزق من يشاء بعير فتوى ، ورأت أمها تجربته ركريا عليه السلام عندما أعطاه الله الولد بعد أن جاء على لسان ركريا

﴿ وَكَانَتْ أَمْرًا بِي عَاقِرًا وَفَدَّ بَغْتًا مِنْ لَكِبَرٍ عَتِيًّا ﴾ [مريم : ٢٨]

ورأت مريم أن ذلك على الله حين :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : ٢٩]

وعندما يأتي لها الملك متمثلاً في هيئة بشر ليشرحها بسلام ، تقول :

﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٠]

يقول الملك : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [مريم : ٢١]

وتلد مريم الولد ، وهكذا خرق الله بهادونه الناموس .

وبذلك أن خلق سبحانه وتعالى حين تكرر الاصطماء لمريم في القرآن الكريم كره الحكمة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]

فالاصطفاء الأول هو اصطفاء قيمي تدخل به في دائرة المضطربين الأحياء والاصطفاء الثاني لمريم عندما ولدت دون أن يمسه بشر؛ بذلك كان اصطفاؤها على نساء العالمين ، فكيف امرأة تلد بمصاصة رجل ، أما مريم فقد اصطفاها الله عز وجل لتلد دون رجل . ولهذا حدد الله أشخاص هذه القصة لأن امرأة أخرى لن يحدث لها مثل ذلك ، ولكن بعض قصص القرآن الكريم لا يأتى فيها تحديد لأشخاص مثال ذلك قصة أهل الكهف : ﴿ إِنَّهُمْ قَنِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٢]

لم يحدد الحق سبحانه وتعالى أسماءهم أو عددهم، وذلك لأن حدد أهل الكهف ليس له قيمة في معنى القصة، وكذلك لم يحدد البلد الذي كان فيه أو العصر الذي عاشوا فيه. ولم يأت الحق عز وجل هنا لتحديد أسماءهم وتحديد أسماء أهل الكهف؛ لأنه لو فعل لقال قائل: هذه خصوصية هذه الأسماء فلا تتكرر في انبياء، لكن عندما سركها الحق هنا دون تشخيص ولا تحديد للعدد ولا لزمان هؤلاء القية، فهذا معناه أن هؤلاء القية أرادهم الله مثلاً في الكون، يتأتى من أي فئة بأي أسماء في أي زمان وفي أي مكان، والإلهام هاميه مزيه بعدة القصة. لكن حين يريد الله عز وجل تحديد الشخص تحديده على مثل المثال يقول: ﴿صُوبَ الدِّمَاءِ لِلدِّمَاءِ كَهْرًا وَامْرَأَةً نَجْرًا وَامْرَأَةً لُوطٍ كَانَتْ تَحْتَ عَيْدِي مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَمْنَاهَا فَلَمْ يُغَيِّرْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا اسْرَارَ مَعَ الدَّاحِلِينَ (١)﴾ (الحجر)

لقد حدد الله تعالى روحين لاثنتين من آياته، وكل منهما استقلت بمقدتها وما استطاعت أن يبدىها، وأيضاً امرأة فرعون أتت رعم أن فرعون ادعى الألوهية ولكنه لم يستطع أن ينعج امرأته، لإياديه. يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَصُوبَ الدِّمَاءِ لِلدِّمَاءِ كَهْرًا وَامْرَأَةً نَجْرًا وَامْرَأَةً لُوطٍ كَانَتْ تَحْتَ عَيْدِي مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَمْنَاهَا فَلَمْ يُغَيِّرْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا اسْرَارَ مَعَ الدَّاحِلِينَ (١)﴾ (الحجر)

إذن هي امرأة مؤمنة لم عقيدتها المستقلة، لكن حينما ذكر الحق سبحانه وتعالى مريم جاء بالتحديد والتشخيص، فلم يذكر اسمها فقط، من ذكر اسم أبيها أيضاً فقال مريم لمة عمران. ويأتى القرآن الكريم لقصة دى العريب، وعندما سألتوا عن اسمه لم يذكر اسمه، بل قال في بيك أو صافقه ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَابْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَيِّئًا (٢٨)﴾ (الكهف)

لقد أراد الله سبحانه وتعالى هذا الإلهام، وإن سألتك أحد من هود والقريب؟ قلت أن يجب أنريد أن نعبد على القرآن مرده؟ إن المراد من القصة المرأة هو بقاء في القرآن، وأراد الحق أن يظل اسمه مبهماً، إنه رجل مُحْكَمٌ به في الأرض، أنه الله تحكيب

ونحاط نفسه بالطيبين ، وأبعد عنه أهل السوء ووقفه لإغاثة الضعفاء ، وهذا المثل لا بد أن يظل مع الناس طوال الزمن ، ونقول . الحق سبحانه وتعالى حين يبدأ قرآنه بقوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

فعليك أن تبدأ قراءة القرآن الكريم بها وأن تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . (كل امرئ مال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم أقطع)^(١)

لأن كل عمل يبدأ بعراسم الله هو عمل ناقص ، حتى لا يصعدك الغرور ولهميان وتتخيل أنك أنت الذي تسخر المسائل لتنعمل لك ، وهكذا تفتقد التصور الحق لهدرانك ، وأنت ساعة لا تذكر اسم الله تعالى في بدء العمل فمعنى هذا أن الله ليس في بالك ، ولا يكون لك على هذا العمل جزاء في الآخرة ، وقد مأخذ عطاء العمل في الدنيا ، ولكنه حجب عنك ومعك عطاء الآخرة . أما الذي يريد عطاء الآخرة فعنده أن يمول دائما . «بسم الله الرحمن الرحيم» في بدء كل عمل ذي بدل يقوم به وذلك يبقى كل عمل بعطائه في الدنيا وحسن الجزاء عنه في الآخرة.

يتروج المرء باسم الله ويكبح باسم الله ، وما دمت تدخل عليها باسم الله فأنت إذن تستطيع أن تحير الحلال عن الحرام ، ولن تبدأ أي عمل باسم الله إلا فيما أباحه الله عز وجل ، فالإنسان لا يمكن أن يسرق أو يقبل الرشوة باسم الله .

وحين تبدأ العمل الحلال باسم الله فأنت تعرف أن الحق محبوب ، وله أوامير «افعل» وله نواهيه «لا تفعل» وإياك أن تستحي إن كنت عاصيا أن تستفتح أحمالك باسم الله ، لأن الله لا يحمي على حلفه ولا يتعبر على حلفه ولا يفرض يده من أمور خلقه ، فإن كنت قد عصيت الله في شيء فأقبل على عملك باسم الله لأنه الرحمن ولأنه رحيم . هو سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة على معصية من المعاصي ، فمعنى ذلك أنه أدن بأن تقع تلك المعصية . فإذا كنت قد عصيت الله وتنجل من أن تبدأ عملك «بسم الله الرحمن الرحيم» فتذكر أن الحق تبارك وتعالى «رحمن» و«رحيم» ونعرف أن الاشتقاق

(١) السبوطي في الجامع الصغير وابن كثير في تيسيره بلفظ «مهوراً جديماً»

في الرحمن ، و«رحيم» من الرحم ، والرحم هو مكان الجنين في بطن أمه ، وهو منتهى الحنان . وبذلك جاء في الحديث القدسي عن صله الرحم : وفيه يقول الله عز وجل :

(أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي

فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته) (١)

(حديث قدسي)

إذن فكلمة «الرحمن» وكلمة «الرحيم» مأخوذتان من الرحم ، والحق حبان عن صاده ، وعطوف عنيهما ، ولذلك فالعاصي لا يصح أن يستحى أن يستغفر «باسم الله» وأن يقول في بداية أي عمل بشرع فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم» إنه بذلك يجمع عن نفسه العيوب بأنه قدر بذاته ، بل به قدر على الأمور بالتسخير منه سبحانه وتعالى ولا يحرم نفسه لثواب عمله في الآخرة ، ونحن يقول المؤمن : «بسم الله الرحمن الرحيم» فهو يدخل في حماية الله ، وإذا قيل «رحمن» فهي مبالغة ، وإذا قيل «رحيم» فهي مبالغة .

لكن إياكم أن تظنوا أن صفات الله عز وجل تتأرجح بين القوة والضعف ، فمرة يكون ذاها ومرة يكون دحمان ومرة يكون رحمان ، لا ، لأن صيغ المبالغة إنما تأتي في الأغيار ، ويقال فلان عالم وفلان عالم أي أكثر علماً من العالم ، وفلان علامة أي أكثر علماً من العلامة ، فالصفات في البشر تتناير ، لكن عند الحق سبحانه وتعالى لا تضعف صفة وتقوى أخرى . وإياها متعلقات الصفة هي التي نكثر أو تقل . فأنت تقول : فلان آكل ، وفلان أكال وفلان أكول . والأكول لا يأكل رغباً واحداً على سبيل المثال مثل الآكل ، لكنه قد يأكل خمسة أرصعة في المرة الواحدة ، والأكال قد يأكل خمس مرات بدلاً من ثلاث ، فالمبالغة تأتي مرة في الحدث وهو هنا الأكل ، ومرة تكون المبالغة في المعنى

أقول ذلك حتى يعرف أن الصفات في البشر - وهم أحداث - تتغير ، أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى فهو لا يتغير ولا تتغير صفاته ، بل تضعف متعلقات الصفات

(١) رواه البخاري وأحمد وأبو داود والترمذي

أو تكثراً فهو رحيم لأنه يرحم المؤمن والكافر في الدنيا لذلك فرحته وسعة ، وهو رحيم في الآخرة لأنه يرحم المؤمنين في الآخرة . والله لا يتغير من أجسادنا ولكن نحن الذين نتغير ويجب أن تتغير من أجل الله تعالى . لو كان الحق سبحانه يتغير لحسب الأرض بالعدد الذي فيه . وهو متناهي يعصيه العاصي ويستره ، وهو حلیم لا يتغير .

وحين يأمر الحق سبحانه وتعالى أن يبدأ قراءة القرآن الكريم بقول

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

فنستعرف أن ذلك مطلوب مما في قراءة القرآن الكريم وفي أي عمل آخر نقوم به ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذي سخر كل شيء ، ولو لا تسخيرها لما استطاع أحد ما أن يعمل شيئاً ، ولأن الله يريد ألا يكون عمل الواحد بلا ثواب حتى إنسان الزوجية وأنت تنوي إعفاف نفسك وإغفائها أو تنوي الدرية الصالحة فتبدأ ذلك باسم الله تعالى ، وبذلك يكون لك الثواب

يقول صلى الله عليه وسلم ضمن حديث له : وفي بضع أحدكم صدقة . وقد ذكروا له ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ » فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له فيها أجر^(١)

ولذلك كل أمر ذي مال لا يبدأ فيه باسم الله هو أستر ، ومعنى ذي مال أي عمل يقدم عليه الإنسان ففكر ، لكن الأعمال التي تمر على الخطيئة فقد يسي الإنسان أن يبدأها باسم الله فهي معصية له لأن الإنسان ما به ثلاث نسب في كل موقف : نسبة ذهنية ؛ نسبة كلامية ، ونسبة خارجية . مثال ذلك إن عطش الإنسان فإن النسبة الذهنية التي تجيء إلى الذهن « إنني أريد كوب ماء » وهذا يقول الإنسان . « أعطني كوب ماء » وهذه النسبة كلامية ، وعندما تأتي بكوب الماء إلى العطشان فهذه نسبة خارجية .

والنسبة الخارجية إنما تنشأ من التسميتين الأولى ، وكل أمر يحدث منك نسبة خارجية أو نسبة كلامية ولم يحضر على ثالث بنسبة ذهنية فهو أمر غير ذي مال .

وَقَدْ أَن الْمَصِيحَ الْكَهْرِبَانِي الَّذِي يَمُرُّ لَيْلًا أَنْ كَسَرَ فُجَاءَةً ، فَقُلْتُ : «يَاسَارُهُ وَلَمْ تَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ» وَابْتَعَدْتُ عَنْ مَكَانِ الْخَطَرِ ، هَذَا الْعَمَلُ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِسْبَةٌ ذَهَبِيَّةٌ ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ أَمْرٌ عِبْرَتِي بَالٍ ، أَمَّا الْأَمْرُ بِوَالِدِ الْوَيْلِ فَإِنَّكَ بِأَحَدٍ عَلَيْهِ عَطَاءُ الدُّنْيَا وَبِأَحَدٍ عَلَيْهِ الْأَجْرُ وَالثَّوَابُ فِي الْآخِرَةِ إِذْ قُلْتُ : «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وَبَعْضًا يُلْحِظُ أَنَّ الْكَافِرَ يَقْبَلُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَحْرُثُهَا وَتُعْطَى لَهُ وَيَأْخُذُ بِالْمَحْصُولِ لَكِنَّهُ لَا بِأَحَدٍ الثَّوَابُ مَعَ الْمَحْصُولِ ، وَلِذَلِكَ يَعْلَمُ أَنَّ سَجْدَةَ اللَّهِ وَتَعْبُدُ أَنْ تَبْدَأَ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ بِ«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هِيَ الَّتِي أَمْدَنَتْ بِهَا سُورَةُ هَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَابْتَدَأَتْ بِهَا كُلُّ سُورَةٍ مِنَ سُورَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا السُّورَةَ الَّتِي بَحْنُ بِصَدِّهِ حَوَاطِرُنَا عَلَيْهَا وَهِيَ سُورَةُ التَّوْبَةِ .

وَنَجِدُ فِي التَّسْمِيَةِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ لِلَّهِ : اللَّهُ وَالرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ ، وَاللَّهُ «عَلِمَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَهُوَ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِكُلِّ صِفَاتِ الْكَمَالِ فِيهِ وَالرَّحْمَنُ» يَبِينُ عَمَّا لَا أَنْعَالَ اللَّهُ وَصِفَاتِهِ «وَالرَّحِيمُ» تَبِينُ عَمَّا لَا عَطَائِهِ لَنَا فِي الْآخِرَةِ . وَبِمَا أَنْتَ لَا تَمْلِكُ سَبْطَةً هِيَ أَيْ جَنَسٌ مِنْ أَجْنَاسِ الْكَوْنِ إِلَّا بِأَنَّ سَحَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَحْدُثْ ؛ إِذَنْ فَمَنْ الطَّبْعِيُّ أَنْ يَقْبَلَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى اسْتِغْنَاءٍ عَنْ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ . وَأَنْ سَدَىءَ ذَلِكَ بِاسْمِ اللَّهِ سَحَرْتُكَ هَذَا لَشَيْءٍ ؛ لِأَنَّكَ لَا تَدْخُلُ عَلَى الْأَشْيَاءِ بِقُدْرَتِكَ ، فَلَيْسَ لَكَ قُدْرَةٌ إِلَّا فِي حُدُودِ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَا تَدْخُلُ عَلَى شَيْءٍ بِعِلْمِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَا عِلْمَ لَكَ إِلَّا مَا عَلَّمَكَ اللَّهُ . وَحَيْثُ أَنْ تَتَذَكَّرَ أَنَّ اللَّهَ لَكَ وَأَنْ تَقُولَ «يَا رَبِّ أَقْبَلْتُ بِأَرْبَ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ لَا يَقُونِي وَلَا بِاِقْتِدَارِي وَلَكِنْ بِاسْمِكَ أَمْتُ بِسَبْحَاكَ أَنْتَ الَّذِي سَحَرْتَنِي» وَحِينَ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ عَلَى أَيْ عَمَلٍ بِاسْمِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ يُعْطِيهِ حَبِيرَ ذَلِكَ الْعَمَلِ وَيَبَارِكُ لَهُ فِيهِ .

صَحِيحٌ أَنَّ الْأَشْيَاءَ بِعَمَلٍ أَيْضًا لِلْكَافِرِ حِينَ يُقْبَلُ عَلَيْهَا دُونَ أَنْ يَنْطَلِقَ وَيَقُولَ : «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وَلَكِنْ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحُكْمِ دَسُوسَتِهِ لِكُلِّ الْخَلْقِ . مُؤْمِنُهُمْ وَكَافَرُهُمْ ، وَهَرِائِذُ اسْتَدْعَى الْخَلْقَ إِلَى الْكُفْرِ ؛ لِذَلِكَ جَعَلَ الْكُفْرَ يُعْطَى الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ ، وَقَوْلُكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ فِي بَدْءِ أَيْ عَمَلٍ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» يَحْتَسِبُ حَرَكَةَ عِبَادَةِ اللَّهِ فَتَذَكُّرُ نِعْمَةَ اللَّهِ لَكَ فِي التَّسْحِيرِ ، وَهِيَ إِذْ لَمْ تَزِدْكَ عَلَى الْكَافِرِ شَيْئًا فِي

انفعان الأشياء لك ، فهي قد ضمنت لك ثواب تذكرك لنعمة الله تعالى ولا يقطع عطاؤه في اليوم الذي يبقى فيه العطاء وهو يوم الحساب .

وإذا نظرنا إلى اسم الله في «بسم الله الرحمن الرحيم» وجذب أن «الله» هو اسم علم عن واجب الوجود وبه صفات كثيرة ، هذه الصفات أصبحت في مجال الأسماء الحسنى لله : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ [الأعراف : ١٨٠]

ولسوف نوضح ذلك : أنت في حياتك اليومية قد تلتقي بإنسان حديم ذي أناة ووفاء ، فتصفه بأنه حليم ، وتقابل إنساناً له ثراء فتقول : فلان عس ، وتلتقي بإنسان له حكمة فتقول : فلان حكيم ، وأنت تحفظ أنه لابد من وجود موصوف لتصفه ، أما حين تطلق الحكمة والعسى والحلم فهي لا تصرف على إطلاقها إلا أنه فإن قلت : «الحكيم» على إطلاقه و«الرحيم» على إطلاقه و«العسى» على إطلاقه فهي كلها تصرف إلى الحق عز وجل وكذلك الرحمة على إطلاقها تصرف إلى الله تعالى . فالرحمة في كل راحم في الأرض هي بعض هبات الرحمة الخاطبة من الله تعالى إلى الخلق وتتسامى الرحمة في الرحماء في الدنيا إلى أن تتصل بالرحيم الأعلى سبحانه وتعالى .

دون فهو سبحانه وتعالى يسوع ارحمة . وإذا أطلقت كلمة «الرحيم» تصرفت لله تعالى ، أم إذا كنت تصف بها إنساناً فهي مخلودة وسية . هذا بالنسبة لأسماء الله التي هي صفاته ، أما اسم «الله» فهو لا يعطى صفة وإنما يعطى ذاتاً موصوفة بصفات الكمال ، وبإدام علماً على واجب الوجود ، فلا يطلق على غيره . ومن قدرة الله تعالى أن أحداً لا يمرز أن يسمى نفسه أو أحد أبنائه باسم «الله» ، مما قل هذا الاسم الكريم من قل ومن بعد الإسلام علماً على واجب الوجود وهو الحق الأعلى .

ت تجد الناس تطلق على ذريتهم أسماء ، منهم من يسمى ابنه «محمد» ولا يسمى ابنه الثاني بنفس الاسم ، فكلمة «محمد» أصبحت مشحونة للاس الأول ، لكن بعضاً من أهل الريف من يحب التفاضل باسم «محمد» لأنه اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسمى ابنه الأكبر «محمد الكبير» ويسمى ابنه الثاني «محمد الصغير» ويتأيز الأبناء أصحاب الاسم الواحد بأوصاف أخرى مثل : «محمد الطيب» و«محمد الطاهر»

إذن فإطلاق الأسماء على التسميات أمر شائع في دنيا الناس وليس بعجيب لكن الله حين اختار لنفسه اسماً هو علم عليه وحده وهو «الله» وهو الدال على صفات الكمال فيه سبحانه وتعالى . لم يجرؤ أحد الكافرين أن يسمى تابعاً له بهذا الاسم . ورغم أن الكفار معارصون ومعاندون لكلمة الإيمان ، إلا أن أحدا منهم لم يجرؤ أن يقول : «مادام الله قد سمي نفسه بهذا الاسم فأنا سأسمى هذا الشيء «الله» . ولهذا قال الحق تبارك وتعالى ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

وسبح الحق جل وعلا في الكافرين عريضة التحدي ، حتى لا يقال : لم تُهَيِّجْ وم بطراً هذا الأمر على بالنا ، وجعلها الحق واضحة أمامهم وعلى ناهم رقل مسحانه

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

فبوكان الكافرون مؤسسين تكبرهم لحاء واحد منهم وقاب .
- سأسمى متى «الله» .

لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يدحل نفسه في التجربة ، مما يدل على أن أي كافر بالله أو شرك به إنما يعبد وهما ، لا يقيد ، ذلك أنه لو كان مؤمناً بما يحد من غير الله لأطلق هذا الاسم على أي مخلوق ولعاش في حماية من عبده ، ولكن أحدا من الكافرين لم يجرؤ على ذلك قبل نزول القرآن أو بعده ؛ لأن الناس لم يتجهوا إلى هذا اللون من الفكر ، فهذا هو ذا لقرآن الكريم قد نزل وواجههم بالتحدي :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

إن هذا يدل على أن الدين يبدلون شيئاً غير الله لا يرضون في ذلك الشيء أبداً ولو كانوا واثقين فيه بحبانه بقائراً ، نحن نقولها ونسمى لأشخاص أو الأشياء بها ونحن مطمئنون إلى أن هذا الذي نعبد به بحمينا ، ولكن أحدا منهم لم يرض ذلك .

ومن بعد ذلك يأتي أن «بسم الله الرحمن الرحيم» اسمان من أسماء الله تعالى هما «الرحمن» و«الرحيم» وأنك حين تبدأ عملاً «بسم الله» فأنت تؤمن بيقين أنك تبدأ باسم

من يعينك على فعلك ، وإن كنت تريد عملاً يحتاج إلى قوة ، فأنت تقول : «باسم القوى» حتى يمدك الحق بأمرار صفة القوى ، وإن كنت تريد شيئاً ، فأنت تقول : «باسم العليم» ومن يريد الحكمة عليه أن يقول : «باسم الحكيم» . ومن يريد أن يعينه الله على قهر عدوله ، عليه أن يقول «باسم القهار» وأنت حري أن تبدأ عملك بأي اسم من أسماء الله لتقل عن حركتك في هذه الدنيا لتعمل لك ، ولكن الأعمال لا تقصر على مسيل صفة واحدة ، بل تحتاج إلى صفت كثيرة في كل عمل ، فأى عمل منها بدأناها في حدود تصورك أنت ، تحتاج إلى صفات متعددة ؛ تحتاج إلى القدرة وإلى الحكمة وإلى الأناة والحلم وإلى غيرها من الصفات .

وحتى لا يتقل الله عليك لتكرر الصفات التي تعينك في مجالات العمل المختلفة ، فقد علم المولى سبحانه ونعمالي الاسم الذي يجمع كل المجالات ، إنه «الله» فإذا قلت : «باسم الله» فكأنك قلت «باسم القوى» و«باسم العليم» و«باسم الحكيم» و«باسم الرحيم» و«باسم المهيم» و«باسم القدرة» و«باسم القهار» . كأنك استدأت وسقت لكل أسماء الله الحسنى ؛ لأنك أتيت باسم لدات الموصوفة بصفات الكمال

فإذا كان الحق قد أمرنا أن بشيء كل عمل لناذى نال بقولنا ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فصح أن يستثمر هذا الأمر ونريد أن نتذكر ما فات من نعمة البدء بالسمة واسم الله على كل عمل لم بدأه بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وهذا اسمه . «بسم الله» قصاة ، فأنت بذلك تقضى ما عليك مما فات من بدء أعمالك السابقة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وتصيب أيضاً . وبسم الله عن كل عامن سنى أن يقول عند بدء عمله ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فتكون قد أديت عن نفسك في الحال وأديت عن نفسك في الماضي ، وجمعت عن آحيث السامى عن التسمية ، وهما يعطيك الله شحبه البركة في كل ما تأتيه مضاعفاً بيتك فيه

ولذلك نحن نسمع بعض الأئمة حين يوصى الصلاة يسر بالتسمية وبعد ذلك يقرأ العاتمة جهراً ابتداء بقول الحق :

[الفاتحة]

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١)

والعلم من هؤلاء يبدأ الصلاة بالتسمية سرا ، لأن الصلاة عمل دو بال وكل شيء ذى بال يجب أن يبدأه المأمون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذكر في الحديث القدسي .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل : فسميت الصلاة بي وبين عبدتي بمسمى ، ولعبدتي ما سألت ، فإذا قال العبد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله عز وجل حمدني عبدتي ، فإذا قال ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله عز وجل عتروني ، أنا الذي على عتدي ، فإذا قال ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله عز وجل - مجدني عبدتي ، فإذا قال ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال الله عز وجل - : هذا بيبي وبين عبدتي ، ولعبدتي ما سألت ، وإذا قال ﴿اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال الله عز وجل - : هذا لعبدتي ولعبدتي ما سألت (١)

ونلاحظ أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هي آية من آيات الفاتحة

فكان الحق سبحانه وتعالى حين بدأ القرآن بالفاتحة ، وبدأ الفاتحة

بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢)

بدأ بها لتعني أن بدأ بها أي عمل ، وكل عمل هو إلى عبادة وسيحة .

وعلى ذلك فحين بدأ الحق تبارك وتعالى حديثه القدسي بحمد العبد لله ، فهذا يدل على أن فاتحة الكتاب شيء ، والتسمية الاستهلالية شيء آخر إذن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من القرآن ولكنها ليست من نص السورة ، لأن الحق سبحانه وتعالى عندما فضل الحديث القدسي ، لم يأت بها ، وبذلك قال العلماء : إن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ليست من نص كل سورة في القرآن الكريم ولذلك يسمى الإمام بها في بعض الأحيان سراً

ولما أن تذكر أن الحق سبحانه وتعالى احتص خلقه برحمته وأراد أن يرفع الحياء عن

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي ومن حجه

العاصي لله ، فلنعاصي الله حين يقبل من العمل أن يستعين بسم الله ، ولا يقولن واحد لنفسه خجلاً .. «أأستعين بمن عصيته وأعصيته » لا يقولن إنسان لنفسه هذا ، فالحق سبحانه وتعالى رحيم ورحيم ، لذلك لا يصح أن تمدح معصيتك لله أن تستهل كل عمل باسمه سبحانه وتعالى ، فقد جاء سبحانه بالحقيقة لنا جميعاً ، إنه رحمن ورحيم ، ولولا رحمته ورحته لما بقى لنا دنيا .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَحْتَنَهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [التحل ١]

إذن نحن نعيش على رعم معاصياتي عجالات جلالات الرحمن وجلالات الرحيم ، وعلمنا أن نسحق النظر في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحل ٢]

والحق أيضاً يقول .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم ١]

والآيتان تتشابهان في الصلوة ، وتختلفان في العجز ، لأن الآية الأولى جاءت في سياق وتحييت الرحمة ، أما الآية الثانية فقد جاءت في سياق حبروت العاصي الذي يأخذ نعمة الله ويستعملها في معصيته .

فقد جاء قبلها قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨]

وهذا القول مناسب لظلم الإنسان لنفسه وكفره بنعم الله تعالى ، ولو أراد الإنسان أن يخصي نعم الله عبر رجل فلن يخصيها لأن الله عصور رحيم ، والنعممة - كما نعرف - تمتص ثلاثة عناصر ، عنصر هو المتعم ، وعنصر هو المتعم عليه ، وعنصر هو النعمة ،

ونعلم أن «إن» حرف شرط وتستعمل للأمور المشكوك فيه ، وهي غير «إذا» التي تستعمل للشيء المحقق ، وحين يقول الله سبحانه وتعالى : «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» فهذا شك في أن يقبل أحد على عد نعم الله ، لأن الذي يمكن أن يقبل على إحصاء عددي لأمر ما ، هو من يظن أن هناك إمكانية للإحصاء . ولو حاول إنسان أن يحصى نعم الله تعالى لما استطاع ، لذلك جاء الحق «باب إن» فالإنسان قد يظن أنه قادر على إحصاء نعم الله لكن أحدًا لم يستطع ذلك .

ومن ناحية المتعبد ، هناك استدامة من المتعبد على المتعبد عليه ، ودليل ذلك أنه عمرو ورحيم ولا ينحل عن العاصين فيمنع عنهم النعم ، فهو الذي استدعاهم جميعاً إلى هذا الرجود . سبحانه معهم على الإنسان والإنسان ظلوم كفار ، ولكنه سبحانه عفور رحيم .
والآن إلى حواطرننا في سورة التوبة التي رأينا أن نستلهمها مما تقدم من المحققين
افاق «بسم الله الرحمن الرحيم»

وسبحانه وتعالى قد صنف في سورة التوبة المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وقد قلنا إن اسماء تتعاند ملكاته فهو يعطى إيجاباً ويظن كعراً ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ (١٤)

[البقرة]

وعندما تتعاند ملكات الإنسان يكون محتقراً بين الناس وبينه وبين نفسه . ولقد اتفق جمهور الفقهاء على أن من أساء التوبة «لقاضحة» لأنها فضحت المنافقين

وقد روى سعيد بن جبيرة قال : سألت أس عباس رضى الله عنه عن سورة براءة فقال : تلك القاضحة ، وما زال يتزل : ومنهم ومنهم حتى خفنا الاتدع أحداً .

وهؤلاء المنافقون منهم من دل في عزوة نبوك .

﴿ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ [التوبة ١٩]

ولبعد قال الفاتل هذا القول طدياً الإذن بعدم الحرب متعللاً أن غيرته تلتصت للنساء ؛ وساء الروم جيالات وهو يحشى على نفسه الفتنة ، فيرد الحق تبارك وتعالى عن ذلك بقوله ﴿ لَا فِيْ لَعْنَةٍ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩]

وكذلك منهم من كان يعيب على النبي صلى الله عليه وسلم في توزيع الصدقات ، ويقول إنه يجاهى انحص ولا يعطى الآخرين ، فجاء قوله سبحانه وتعالى في هذا الشأن . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة : ٥٨]

ومهم من اذمى على النبي صلى الله عليه وسلم أنه يعطى أدبه لأى إنسان ويحكم به يسمع من طرف واحد ، ونسى أنه صلى الله عليه وسلم هو أدن خير ، فاستمع بحق وكان لسان صدق قلع بحق ، بذلك جاء قوله تعالى .

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ نَبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنُ ﴾ [التوبة : ٦٠]

ومهم ثعلبة السدي نخل به أفاء الله تعالى عليه من خير وفصل وقد عاهد الله من قبل على البذل والعطاء عما يرزقه الله ويعصمه من فضل ، فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ تَسْلُماً أَنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُؤْتِيَهُمْ وَلَكُنْ مِنَ الْعَافِينَ ﴾ (٧٨) فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَحَلُوا يَدَيْهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٩) [التوبة .

ومهم من كان ينفق مرغماً في سبيل الله

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَماً ﴾ [التوبة : ٩٨]

ومهم من كان منافق فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى . ﴿ وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنْ الْأَعْرَابِ مُتَفَقِّهِينَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّعَقِ لَا تَعْلَمُهُمْ خَيْرٌ يَعْلَمُهُمْ سَعْدَانَهُمْ قَرْنَيْنِ ﴾ [التوبة : ١٠٠]

وهكذا كشف الحق سبحانه وتعالى لرسوله وللمؤمنين كل أصناف الأعداء ،
لذلك أطلق على هذه السورة مأها « العاصحة » لأنها فضحت كل العيوب ، ولم يعمل
ذلك ليشتت الناس بعضهم في بعض أو لينشئ الخلق في أصاب غيرهم من كشف
وفصح ، ولكنها جاءت كذلك ليسلم الصف الإيماني من لينات الضعف في
تكويبه ، وتعزل الضعف الإيماني من صفوف المسلمين ، ولا يبنى إلا الإيمان الحق
وقد سمي بعض العلماء هذه السورة « المفسقة » لأنها تفضح من العفاق أي ترى
منه ، وهذه السورة تربع العفاق من أرض الإيمان ومنهم من يسميها « المعثرة » ،
والعثرة لا تكون إلا في شيء مكروم ، وعندما تأتئ للكرمة وتعثرها يظهر شيء المحبأ
في وسطها فهي تعثر أسرار المنافقين وسميت « الخافرة » لأن الإنسان حين يحفر
الأرض يخرج المحبأ منها . وسيت كذلك « المثيرة » لأنها تظهر ما حوى عن العيوب ،
وسيت « المدممة » و« المهلكة » لأنها أوضحت العصاب لكل محرم ، مصداقاً لقول
الحق تبارك وتعالى ﴿ فَنَدِمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَغَوَّاهَا ﴾ الشمس ١١

وسيت « سورة العذاب » ، لأنها تكشف ما في الصدور وأعطت لكل عدو
للإسلام حراءه . وكسفت استار عن أعماق كل منافق . وعن حديفة إنكم تسمونها
سورة التوبة ، إنما هي سورة لعذاب .

للسورة إذن أسماء متعددة ، ولكن اسم ملحظ ، والخط الوافي الأسماء للمنافقين
: العاصحة ، والمفسقة ، والمحرثة ، والمثيرة ، والخافرة ، والمدممة ، والمهلكة ، وكل
ذلك في كشف منافقين . وبدأ السورة بكلمة « براءة » وسميها سورة التوبة ، بينما
البراءة قطع ، فكيف يستقيم الأمر ؟

معلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق الخلق وجعل الإنسان خليفة ، وهو رب
انكل ، ولذلك قلده عر وجل عطاءان ، عطاء ربوبية ، بمعنى خلق كل شيء ،
ومسكة كل شيء . والتكامل برزق كل الخلق ، وفي هذا يسرى المؤمن والكافر ، الطائع
والعاصي ، ومن بأحدب الأسباب وإن كان كافر أحط من خير الربوبية ، وإن لم بأحد
المؤمن بالأسباب يظل محلاً ، هل هو عطاء ربوبية ، أم عطاء الألوهية فهو في

الكيف «افعل» و«لا تفعل» والتكليف تختص بالعبادة .

إذن خافه رب الجميع لأنه هو الذي أسدعاهم للوجود وصمم لهم مقومات الحياة .

والسررة تقول .

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

والبراءة - كما قلنا - هي انقطاع العصمة ، والعصمة استمساك ، والحق تترك وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَتَّخِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١١٠]
وهو أيضا يقول : ﴿ لَا عَاقِبَةَ لِّلَّذِينَ يَمُوتُونَ مِنَّا قَبْلُ هَٰؤُلَاءِ مَا لَدُنَّا بِهِنَّ مِنْ شَيْءٍ وَلَا يُؤْتَوْنَ بِهِمْ شَيْءٌ ﴾ [هود : ١٣]

إذن فالبراءة يلزم منها أنه كان هناك عهد واستمساك به ، وجاءت البراءة من الاستمساك بهذا العهد الذي عهد رسول الله معهم ، وكانوا معتصمين بالمعاهدة ، ثم جاء الأمر الإلهي بقطع هذه المعاهدة . وكلمة «براءة» تجدها في «لذئب» ويقال : «بريء فلان من الذئب» . أي أن الذئب كان لارماً في رقبته ، وحين سددته وأذاه يقال : «بريء من الذئب» . ويُقال : «بريء فلان من المرض» إذا شفى منه أي أن المرض كان يستمسك به ثم انقطع الاستمساك بيته وبين المرض .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد قريشاً وعاهد اليهود ، ولم يؤت هؤلاء بالعهود ، وكان لزاماً أن ينقص رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العهود وإذا سأل سائل : لماذا لم ينقص هذه العهود من البداية ، ولماذا تأخر نقصه ما إلى السنة التاسعة من الهجرة . رغم أن مكة قد فتحت في العام الثامن من الهجرة ؟

لقد حرر الرسول صلى الله عليه وسلم لكعبة من الأصنام الوثنية ، وبعد أن استقرت دولة الإسلام بدأ تحرير «المكعبين» وهو لإنسان الذي يحيا بجانب ليث

الحرام، وكان لابد من تصفية تجعل المؤمنين في جانب ، والكفار وأهل الكتاب والمتنافسين في جانب آخر، وقد حدث هذا في العام التاسع من الهجرة حتى لا يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والمكان محرر والمسجد محرر والناس محررون ، ولذلك أوضح سبحانه وتعالى هذه الآية لأصحاب العهد التي كانت بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم . أنتم لستم أهلاً للأمان ولا للوفاء بالعهد ؛ لذلك نحن قد قطعنا هذه العهود وهذه القطيعة ليست من إرادة بشرية من محمد وأصحابه ولكنها قطيعة بأمر الله تعالى ، فقد يجوز أن يعرف المشركين بأنهم أشياء ، لكن العالم الأعلى قال : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١٠]

ولم يقل براءة من الله وبراءة من الرسول ، ذلك لأنها براءة واحدة ، والبراءة صادرة من الله المشرع الأعلى ، ومبلغة من الرسول الخاتم ، والبراءة موجهة إلى المشركين الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له حلف مع قبيلة خراعة ، وكانت هناك قبيلة مصدة لها اسمها هيل بكر متحالفة مع قريش . وقد أعادت قريش قبيلة بكر على قبيلة خراعة ، فذهبت إلى المدينة فباع من خزعة هرو عمرو بن سالم الخراسي وقال القصيدة المشهورة ومنها هذه الأبيات :

يسارب إني ناشدُ محمدًا ١٠ حلف أبى وأمه ألا تلدا
كُتب لنا أباً وكُتِّبَ ولدا ١٠ نُصَّتْ أسلم ولم يشرع يدا
فانصر هناك الله نمرًا عهدًا ١٠ وادع عهده الله يأتوا مددا
إن قريشاً أحلفوك الموعدا ١٠ ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم يتسونا يا بوتر هجداً ١٠ وقتلون ركعاً وسجداً

هنا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال : نصرت يا عمرو بن سالم ، لانصرت إن لم أنصرك .

إذن فالمشركون هم الذين نقضوا العهد أولاً ، وصاروا لا يؤمن لهم بجانب لأهم

لا يجترمون عهداً أو معاهدة ، ويرى الحق سبحانه وتعالى . ﴿براءة من الله
ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ (١) [التوبة .

الخطاب هـ للمسلمين ، والبراءة من المشركين ويرى بعد ذلك قول الحق تبارك
وتعالى

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ
غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (٢)

والخطاب هنا للمشركين وتساءل البعض كيف يأتى أن يكون خطاب الحق في
الآية الأولى للمسلمين بالبراءة من المشركين ، ثم يأتى خطاب من الله للمشركين ؟
وقال بعض العلماء إنه ما دام اب البراءة قد صدرت من الله ، فكأن الله تعالى يقول
للمؤمنين قولوا لمشركين : ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة : ١٠]
ولكننا نرد على هذا بأن المعاهدة تكون بين اثنين ، ولذلك لابد أن يكون هناك
خطاب للذين قطعوا ، وخطاب للمقطوعين ، ويتمثل خطاب الذين قطعوا في قوله
تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ (١)
[التوبة]

وخطابه للمقطوعين يتمثل في قوله سبحانه وتعالى :

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة : ١٠]

ومن سياحة هذا الذين أسره الحق تبارك وتعالى : أن المولى سبحانه يعطى
مهلة لمن قطعتم المعاهدة معهم ، فأعطاهم مهلة أربعة أشهر حتى لا يقال إن
الإسلام أخذهم على عزة ، بل أعطاهم أربعة أشهر ومن كانت مدة عهده أكثر من
أربعة أشهر فسوف يستمر العهد إلى ميعاده .

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة : ١٠]

وكلمه « فسبحوا » تعطي صي بأ إنيييا ، و« ساح » معبها ساربطه ، وهناك « مسح الشيء » و« سال الشيء » عندلها نقول : « سال الماء » أى تدفق ومسال ، وأنت تشاهده مسائلًا وإن قلت « ساح السمس » أى ساربطه لأ يلدرك حتى صار مسائلًا ولماذا فى الحق سبحانه وتعالى ﴿ فسبحوا فى الأرض ﴾ ٩ .

والإجابة . أن سباحة الإسلام تمنع أن نأخذكم على عرة ، رعى الذين قطع الإسلام معهم العهد أن يسيروا وهم مطعونون فى أوس وأمان ولا يتعرض لهم أحد . ووقف العلماء عند تحديد أربعة الأشهر ، ونظر بعضهم إلى ناريج النزول ، وقد نزلت هذه الآية فى شوال ، إذن فتكون الأشهر الأربعة هى : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم .

وقال علماء آخرون إن ساعة النزول لا علاقة لها بالأشهر الأربعة ، وإن الأشهر الأربعة تبدأ من ساعة الإبلاغ أى فى الحج ، لأن الله تعالى يقول :

﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر ﴾ [البقرة : ١٩٧]

وعلى ذلك فكون من يوم العاشر من ذى الحجة إلى يوم العاشر من ربيع الآخر . وقال بعض العلماء - إن نزول هذه الآية كان فى عام السوء لدى كان الكفار يؤخرون ويقدمون فى الأشهر المحرم ، والذي قال به الله سبحانه وتعالى .

﴿ نما النسيء ، زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليؤجلوا علة ما حرم الله ﴾ [البقرة : ٢١٧]

وأصاف صلى الله عليه وسلم فى حديثه الذى رواه أبو بكره حيث قال : « إن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى حجته فقال : « ألا إن الرمان قد امتدار كهيته يرم حلق الله السموات والأرض ، السنة اثن عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان »^(١)

(١) روى الإمام أحمد وأخرجه البخارى

أى أنه صلى الله عليه وسلم حسب من بداية الكسوف إلى هذا الوقت فرجع بالأمر إلى نصابه وألغى النسيء ؛ هذا النسيء الذى كانوا يقررونه أيام الشرك لتقديم أو تأخير الأشهر الحرم ؛ لأنهم كانوا إذا أتت الأشهر الحرم ويريدون الحرب يؤجسون الشهر الحرام حتى يمكنهم الاستمرار فى الحرب . ولذلك كان الحج فى هذه السنة فى شهر دى القعدة . ومادام الحج فى شهر دى القعدة ، تنتهى الشهور الأربعة فى العاشر من ربيع الأول . ومن إن اختيار أربعة الأشهر جاء ليوفق ما شرعه الله فى قوله سبحانه تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٣٦]

فيكون عدد الأشهر مناسباً لعدد الأشهر الحرم . ولكن هذه المرة فيها ثلاثة أشهر حرم فقط هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، والشهر الرابع هو رجب فكيف يقال أربعة ؟

ويقول : إن الأشهر الأربعة الحرم التى فيها رجب هى الأشهر الحرم الدائمة ، أما الأشهر الأربعة التى ذكرت فى هذه الآية فهى أربعة أشهر للعهد تنتهى بانتهائها ، ولكن أربعة الأشهر الحرم الأصلية تبقى محرمة دائماً ، ولقد شرع الله عز وجل الأشهر الحرم ليحرم دماء الناس من الناس ؛ ذلك أن الحروب بين العرب كانت تستمر سنوات طويلة دون نصر حامس . فجعل الله الأشهر الحرم حتى يجمع الناس إلى السلم ، ويتحكم فيها العقل وتنتهى الحروب .

وهما يبلغنا الحق نبارك ونعالى أنه قد أعطى المشركين أربعة أشهر يسرون فيها آمنين ، لماذا ؟ لأن الذى يكون صعباً مع خصمه يتنهر أى فرصة يفدر عليه فيها ليستعلها ويقضى عليه ، ولا يمهله أربعة أشهر حتى ولا أربعة أيام . ولكن القرى لا يسالى بمد الأجل لخصمه لأنه يستطيع أن يأتى به فى أية لحظة . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٢]

ويقال فلان أعجز فلاناً ، أى جمعه ضعيفاً عاجزاً . ولذلك فإن كل شىء مُعْجِر شرف للمُعْجَز ، والمثل - عندما جاء لقران الكريم معجراً للعرب وكان ذلك شرفاً

هم لأهم كانوا أمة بلاغة وفصاحة . والله لا يتحدى الضعيف وإنما يتحدى القوى ،
فلله القرآن أعجزت العصيح وللملغ . وحين يعطى الحق سبحانه وتعالى هذه المهلة
للمشركين إنما كانت ينود معية ، وكان أمير الحج في هذا العام سيدنا أبو بكر وكان
هو الذي سيبلغ الداءة . وهي أنه لا يدخل المسجد الحرام مشرك ولا يبيع مشرك ، ولا
يطوف بالبيت عريان ، ولن يدخل الجنة إلا من آمن ، هذه هي الهند

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثته النبوة كان يعرف أن العرب لا يقلون
نقض العهود والمواثيق إلا من أهلها . فأرسل صلى الله عليه وسلم سيدنا علياً بن أبي
طالب يعلم نقض العهود ؛ لأنه علم أن الكفار كانوا سيقولون ' لا نقبل نقض
العهد من أبي بكر ، بل لابد أن يكون من واحد من آل الناقض .

وحينما قال المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَاعْتَمِرُوا أَنْكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة ١٢]

أعطى هذه المهلة الطويلة ، لأهم مهما دعوا في هذه المهلة ، والله غالب على أمره
فمن يصوت أريغيب شيء عنه سبحانه وتعالى ، ومهما حاولوا أن يجدوا حلفاء لهم فلن
يستطيعوا شيئ مع الله ، صحيح أنهم صحاف في هذه الفترة ، وصحيح أن الضعيف
قد تكون قدرته على القوى مينة لأنه يعرف أن فرصته واحدة ، ومن لم يقدر على
خصمه فسوف ينتهي ، لكن الله غالب على أمره . وأراد الشاعر العربي أن يعبر عن
ذلك فقال :

وصعيمة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة المعفاء

لأن الضعيف يتهر الفرصة ليقتضى عن خصمه . أما القوى فعرف أنه قادر على
خصمه في أي وقت ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ رَأَى اللَّهُ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة ٢]

الإخزاء هو الإذلال بفضيحة وعدم ولا يكون ذلك إلا لمن كان متكبراً متعالياً . أي أن
الله قادر على أن يخزي الكفار بفضيحة وعار مهما بلغت قوتهم وكبرهم .

ويقول اخو عروجل بعد ذلك :

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتِغُوا فَهَوْاْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وبعض الناس يقول مادام الله تعالى قد قال :

﴿برءة من الله ورسوله﴾

فليأد بهيد سبحانه وتعالى :

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾

التوبة ١٣

ويقول إن الرأفة جاءت إعلاماً بالمبدأ ، والأذان جاء لإصلاح الرأفة ، و«أذن» معها إعلام يبلغ للناس كلهم ، تحملاً كأذن الصلاة ، فهو إصلاح للناس بدخول وقت الصلاة ، والأذان مأخوذ من الأذن لأن الإنسان حين يعلم الناس شيء لابد أن يخطب فيهم فيسمعون كلامه سداً عنهم ، ولذا أتى تحذير الأذن هي الوسيلة الأولى للإعذار ، فقبل أن يرى تسمع ، وقبل أن تتكلم لابد أن تسمع ، فمن لم تسمع من يتكلم لا تقدر أنت على الكلام ، ولذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿صُمُّ بَكْمٌ﴾

[البقرة ١٨٠]

أي لا يسمعون ، وماداموا لا يسمعون لا يتكلمون . وقد يأتي بعض الناس ويقول : إن وسيلة الإعلام قد تعتمد على العين ويقرأ منها الإنسان - ولكن من يقول ذلك

يسى أن الإنسان لا يستطيع أن يقرأ إلا إذا سمع ألفاظ الحروف ، وحين يقال له : هذه ألف و هذه باء و هذه تاء فهو يتعلم . إذن كل بلاغ رب يبدأ بالأذن ، والأذن هي أول آلة إدراكية تؤدي مهمتها فور ولادة الإنسان ، لأنك إن أشرت بأصبعك إلى عيسى طمط على ولادته أيام لا يتأثر ذلك أن العين لا تبدأ في أداء مهمتها قبل بضعة أيام ، ولكن إذا صرحت بحرارة الطفل يسمع ويرى

واقه سبحانه وتعالى حين يتحدث عن وسائل الإدراك يأتي بالسمع أولاً فيقول جل جلاله . ﴿ وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [التين ٧٨]

لأن الأذن تبدأ عملها فوراً - كما قلنا - والعين لا تبدأ عملها إلا بعد أربعة أو خمسة أيام والأذن تستقبل بها أصواتاً متعددة في وقت واحد ، ولكن مجال الرؤية محدود وأنت حين لا تريد أن ترى شيئاً تبعد عينيك عنه . وبكسر الأصوات تصل إلى أذنك من كل مكان دون أن تستطيع منعها . ولذلك يأتي السمع مفرداً ، والأبصار متعددة ، لأن هذا يرى شيئاً وهذا يرى شيئاً لكك بالأذن تسمع دائماً أو متقطعة ، وتأنيث الأصوات ويتوحد المدرك من السمع ؛ فهي آلة الاستدعاء والإيقاظ . ولذلك حين تكلم الله عن أهل الكهف يريد أن يبينهم ثلاثمائة واربعمائة رغم أن أقصى ما ينامه الإنسان هو يوم أو بعض يوم ، قال سبحانه وتعالى عنهم في هذا الشأن

﴿ فَصَبَرْتُ عَلَىٰ آدَائِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَّةً ﴾ [الكهف ١٠٩]

وكان الصرب على الآذان حتى لا يوقظهم صوت عال لإنسان أو حيوان . وهم عندما قاموا . ﴿ فَاتَّوَلَّوْا لِبْنَانًا يُرْمَىٰ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ ﴾ [الكهف ١٠٩]

لأن الإنسان عادة لا ينام أكثر من هذه المدة ، وهذا يدل على أنهم حين استيقظوا كانوا على الهيئة التي ناموا عليها لم يتغير فيهم شيء ، مما يدل على أن الله أوقف تأثير الزمن عليهم ، ولولا أن الله قد صرب على آدائهم لأبقتهم صيوت الرعد أو الحيوانات الخرسنة أو غيرهم من الأصوات . وأثبت لنا العلم الحديث أن من يرقد في الفراش لسبب مرض مدة طويلة يخاف الأطباء من إصابته بقروح الفراش ، فلا يخاف

الطبيب على المريض من المرض فقط ، بل يخاف أبصاً من آثار الرقود على الجسد والله يلفتنا إلى هذه الحقيقة فيقول

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [الكهف: ١٨٠]

ولأن الأذن هي وسيلة السمع ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذْنُكَ لِرَبِّهَا رَحِقَتْ (٢) ﴾ [الانشقاق]

وهنا نقول يدل على أن السماء فور سماعها من الله أمره بأن تنشق ؛ تستجيب على العور ويطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة ، وإذا كان الذي بلغ الأذن من الله ورسوله إلى كل الناس يوم الحج هو على بن أبي طالب ؛ فكيف يقال ؟

﴿ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة ٢]

نقول : إن الله تعالى أعلم رسوله ، والرسول صلى الله عليه وسلم أعلم عليا ، وعلى هو الذي نادى وبلغ ، لكن هناك من يقول : إن الله طلب البلاغ إلى الناس - مع أنه المرأة كانت للمشركين .

ونقول : إن الإعلام كان لكل الناس للمؤمن وغير المؤمن حتى يعرف جميع الناس موقفهم ؛ فيعرف المؤمن أن العهد قد قطع ، ويعرف غير المؤمن أن العهد قد قطع ، فلا يؤخذ أحد على غرة ، ويرتب كل إنسان موقعه في ضوء البلاغ الصادر من الله عز وجل ؛ والله سبحانه وتعالى أراد اعتدال الميزان بأيدي رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك فهو لا يخاطب المؤمنين وحدهم ، بل كان الخطاب للعالم كله ، وإن كان المؤمنون هم الذين سيجاهدون لمسحح حركة الأرض مع منهج السماء - ومن هذا يستفيد المؤمن والكافر ؛ لأن الكل سيستمع بالعدل والأمانة والنزاهة التي يضعها لمنهج على الأرض .

ولذلك يلتفت الحق سبحانه وتعالى إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء

سورة التوبة

﴿٨٦٧﴾

بالمهجع لإصلاح الكون كله يقال سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
[النساء : ١]

أى أن الحكم بين الناس جميعاً هو المطلوب من رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب منهج السماء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة : ١٠]

وهذا القول فيه تعميم في المكان وتعميم في المكانين ، فيوم الحج مجتمع الناس كلهم في مكان واحد

وقد يتساءل البعض : لماذا سمي الحج الأكبر؟ نقول : لأنه الحج الوحيد الذي اجتمع فيه الكفار والمؤمنون ، وبعد ذلك لم يجد هناك حج لتكفار أو المشركين .

وبعض المفسرين يقولون : إن كلمة الحج لأكبر جاءت لتعريف بين الحج الأصغر وهي العجرة وبين الحج الذي يكون فيه الوقوف بعرفات ، ونقول : إن العمرة لا يطلق عليها الحج الأصغر .

وقيل إن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة . ولكن بعض العلماء قالوا : إنه يوم لنحر؛ لأن فيه مناسك كثيرة . رمى الجمرات والتقصير وطواف الإفاضة ؛ لذلك سمي يوم النحر بالحج الأكبر لكثرة مناسكه ، وقيل : إنها أيام الحج كلها وأنها قد سميت يوم الحج على طريقة العرب لآداء الحدث الواحد بطرقه الثلاثة ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى يوم حنين ؟ وحين استقرت أياماً فكان اليوم يراد به الظرف الجامع لحدث كبير ، فكان أيام الحج كلها يطلق عليها «يوم الحج»

أو أن الإعلان قاله سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم عرفة ، وبلغ هذا الإعلان كل من سمعه إلى غيره ، والآية الكريمة تقول : ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة : ٣]

وهذا إذن من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن رسوله إلى عباده كرم الله وجهه ، ومن عباده المؤمنين ، ومن المؤمنين : من سمع لن لم يسمع ، أن الله يرى من المشركين ، وكان هذا معلوماً بالقطعة ، ولكن الله برحمته لا يفلق الباب أمام عباده أبداً ، ولذلك يقول ﴿ فَإِنْ تَتُوبْاْ فَهُوَ حَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [التوبة ٣] .

أي فسمح لهم باب التوبة فإن تابوا عما فعلوا عنهم ، وإن لم يتوبوا فالعقوب انهم صر . ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُواْ نَكْمٌ عَيْرٌ مَّعْجُوزٍ اَللّٰهُ وَيُشِرُ اَلَّذِيْنَ كَفَرُواْ بِعَذَابِ اَللّٰهِ ﴾ [التوبة ٣]

إذن فالحق سبحانه وتعالى قادر عليهم وقادر أن يأتي بهم مهما كانوا ، وعلى النبي والمسلمين عنه أن يشرروا الكفار بالعذاب الأليم ، والشارة لإعلام بخبر صار ، والانداد بحار سوء . فهل العذاب بشارة أم إنذار ؟ . يقول : إن هذا هو حجاب أسدود القرآن الكريم ، يشر الكفار فيتوقعون حراً صاراً ، ثم يعطيهم الخبر السيئ بالعذاب الذي يتظرهم ، تماماً كما تأتي إلى بساب يعانى من العطش الشديد ، ثم تأتي بكوب ماء مثلج وعندما تصب به إليه ويكده يلمس فيه تفرغه على الأرض ، فيكون هذا زيادة في التعذيب وزيادة في الحسرة ، فالنفس تبسط أولاً ثم يأتي للنفس .

وفي هذا يقول الشاعر .

كعب أبرقت قروماً عطاشاً عممة

قلها رأؤهم أفسحت وتجلت

وهكذا تكون البذعة للذمتين ، ابتداء مطمع ، وبنهاية ميسر يتما في الإنداد بصدعة واحداً . وانظر إلى قوله الحق تبارك وتعالى

﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾ [الكهف : ٢٩]

حين تسمع «غاثوا» تتوقع انفرج فيأتي الجواب :

[الكهف : ٢٩]

﴿ يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْهَيْئِ بِشَرِّ الرَّجْوَةِ ﴾

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَإِنْ قَوْلَيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٢٥]

والعذاب من الله يوصف مرة بأنه عظيم ومرة أخرى يوصف بأنه مهين وثالثة يوصف بأنه أليم ، والسبب هو أن الوصف يختلف باختلاف المُعَذَّبِينَ ، وسيأخذ كل مسمى وعاص وكافر من العذاب ما يناسبه ، فهناك إنسان يحتمل العذاب ولا يحتمل الإهانة ، وهناك إنسان يحتمل الإهانة ولا يحتمل الألم ، فكان كل واحد من الناس سيأبى العذاب الذي يتعبه ، فإن كان لا يتعبه إلا العذاب العظيم جاءه ، وإن كان لا يتعبه إلا الإهانة جاءه ، وإن كان لا يتعبه إلا الألم جاءه

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا
إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ



هذا امتشاء ، ولكنه استثناء مشروط بأن هؤلاء كانوا أماء عن العهد وموفين به ولم ينقصوا منه شيئا ، أى لم يصدوا لكم تجارتهم ولم يسولوا عن أعضائهم ولم يسرقوا أسلحتكم ولم يغفروا بكم أحداً ولم يظاهروا عليكم أحداً ، وهؤلاء هم بنو صمرة ومكحانه ، فلم يحدث منهم شيء صد المؤمنين فجاء لأمر بأن يستمر العهد معهم إلى مدته ونقائل أن يقول : إن المستثنى يقتضى مستثنى منه ، ونقول : المستثنى منه هم المشركون في قوله الحق ببارك وتعالى ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة : ١٢]

والإنقاص معناه تقليل الكمِّ، كما في اندوات، وإما في متعلقات الدوات،
والإنقاص في الدوات يكون بالقتل، والإنقاص في متعلقات الدوات يكون بمصادرة
لتجارة أو الماشية، وسرقة السلاح.

إذن ففي الإنقاص هنا مرحلتان : مرحلة في الدوات أى بالقتل، ومرحلة في تدبير
الدوات وهى الأشياء المدبوكة، ولذلك قال : «لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً» أى شىء كان،
سواء في الدوات أو متعلقات الدوات، وأيضاً لم يعرفوا عليكم أحداً ولم يشجعوا أحداً
على أى عمل ضد الرسول

﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة: ٤]

ويضاهر أى يعادل، وكهها مأخوذة من مادة الطهر، وهويتحمل أكثر من ايده،
فالإنسان لا يقدر أن يحمل جوال فمع يده مثلاً، ولكنه يقدر أن يحمل من طهره
ولذلك يقول الخليل العاملى : من له ظهر لا يصرب عن بطنه . إذن فالطهر للمعونة
والحق يقول

﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصصف: ١٢]

أى عالىين

والحق سبحانه وتعالى حين نص عيسى به تأمر بعض من نساء النبى - صلى الله
عليه وسلم - عليه ، قال : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحریم: ٤]

فظهر في الآية الكريمة أى معين . ويأتى الحق هنا إلى منطقة القوة في الإنسان ،
لذلك يقال فلان يشد ظهري . أى يعاونى بقوة . ويقال : ظهر فلان على فلان أى
غلبه وتمرق عليه ، ويقال : وعلا ظهري . أى استولى على منطقة القوة منه ، لذلك
يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم في سورة الكهف عن ذى القرنين ذكر بعض
القصص وقال *

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السُّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قُوتًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾
 (٤٨) قَالُوا يَا دَا الْقُرَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَا جُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ لَهَلْ يَحْتَلُ نَكَ
 حَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَحْمِلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٤٩) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي
 بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٥٠) ﴿ [الكهف]

فأله سبحانه وتعالى لها ما إلى حقيقة علمية لم يعرفها إلا في العصر الحديث
 فالسد إذا كان كله من مادة صلبة ؛ يتعرض للاهيار إذا ما جاءت مرة أخرى في كل
 جوانبه ، أما إن كان هناك جزء من بناء صلب على الحافة ، وجزء صغير استتصف
 وجزء ثالث ، ثم رابع ، ويفصل بين كل جزء ردم من تراب فالردم فيه تمسكات
 بحيث يمنع الصدمة ، وهي نفس فكرة الإسفنج التي نحيط بها الأشياء التي
 نخاف عليها من الكسر لحفظها ، فلو أن الصدوق من الخشب أو الحديد أو أي
 مادة صلبة لتحطم لشيء المرصوع به بمجرد اصطدامه بالأرض صدمة قوية ، ولكن
 إذا أحاطه بوسادة من الإسفنج فهي تمنع الصدمات ، وأنواع السدود التي تتلقى
 الصدمات يقال عنها السد الركامي .

ونلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ [الكهف ٥٠]

وهذا يدل على أن القوى يجب أن يعين الضعيف معونه لا تخوجه له مرة أخرى ؛
 لذلك يقال لا تعط الجائع سمكة ؛ وبكى عليه أن يصطاد السمك ليعتمد على
 نفسه بعد ذلك ، وهذه هي المموسة الصحيحة ، ولذلك بعد أن ذا القربى رفض أن
 يأخذ مقابل لئام الردم ؛ لأن مهمة الأقرباء في الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية
 أن يجمعوا الظلم سلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة ؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما
 يدفعه للقوى . ولو أن كل قوياً أراد نمواً لصره الضعيف لاحتل ميزان الكون وطمع
 الناس ، وبكى الأقرباء في عالمنا يريدون أن يظلوا بقوتهم ؛ لذلك يحتل ميزان الكون
 الذي تعيش فيه . ولننظر إلى تفويض الله لدى القرنين وكيف أحسن ذو القرنين الحكم
 بين الناس ، وأقام العدل فيهم وكيف ترصد الظالمين ، قال القرآن الكريم على لسان
 ذي القرنين :

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴾ (٨٧) وَأَمَّا
مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءٌ الْخَيْرُ ﴿

هكذا أقام ذو القربين العدل ، بتعذيب الظالم وتكريم المؤمن صاحب العمل
الصالح .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان ذي القرنين : «أعطيني» يعطيا كيفية إدارة
العدل في الكون ، فذلك الذي أعطاه الله الأسباب إن أراد أن يعين الصالحين عليه أن
يشركهم في العمل معه ، ولا يعمل هو وهم يتخرجون وإلا تعودوا على الكسل فتسد
همة كل منهم . ولكن إذا جعلهم يعملون معه سيتعلمون العمل ثم يتقونه فترداد
مهارتهم وقوتهم في مواجهة الحياة ؛ لذلك نجد أن ذا القرنين أشرك مع الصالحين ،
وقال لهم : ﴿ أَتَوْتَنِي رَبِّيَ الْحَدِيدَ ﴾ [الكهف : ٩٦]

إذن فقد جعلهم يعملون معه ويمسكون ، وهذه ثمرة القوي فيما آتاه الله تعالى من
القوة ، بل إننا نجد قد تفاهم معهم رغم أن الحق تبارك وتعالى قال فيهم

﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [الكهف : ٩٣]

كيف تفاهم معهم ؟ لعله استخدم لغة الإشارة وتحايل ليفهموا مقصده . ويدلنا
القرآن عن تفهمهم له أن قال الحق على لسانهم .

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ
خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ (٩٤) ﴿

قد تمَّ بناء السد بمعونة هؤلاء الضعفاء ، وكان بناء هذا السد بصورة تتحدى
طاقة الحدوان في كل من يأجوج ومأجوج ، وقد حاول كل منهما أن يصعد فوق السد
ليغلب عليه ، ولكنه كان فوق طاقة كل منهما فلم يستطعا احتراقه . وهذا وضحه لـ
ابن سحابة وتعالى في قوله .

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (٩٧) ﴿ [الكهف : ٩٧]

إِذْ فَقُولَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَبَعَالَى .

﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة :

أى لم يعشروا ولم ساعدوا أحداً من أهل أوائلكم حتى يتعلب عليكم ، وسباحتة
سبحانه وتعالى بإتمام مدة العهد تسمى أن هذه المدة كانت أكثر من أربعة أشهر .
وهكذا يعطينا سبحانه جلال عدالته ، فسمع لمن كان العهد معهم أقل من أربعة
أشهر ، أن يأخذوا مهلة أربعة أشهر ، وإحق سبحانه لا يحب نقض العهد ؛ لذلك
طلب من المؤمنين أن يعطوا المشركين الذين عاهدوهم مدة العهد ولو كانت أكثر من
لأربعة أشهر ؛ حتى يتعلم المؤمن أن يؤتى بالعهد مادام الطرف الآخر يحرمه وزيادة
المدة هنا ؛ أوريدة المهنة تابعة من قوة الله تعالى وقدرته ؛ لأن كل من في الأرض غير
معجزي الله ، فإن طالت المدة أو قصرت فس تعطى المشركين ميرة ما ، فانه يستطيع
أن يهزم في أى وقت وفي أى مكان

ويحتم الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : .

والمؤمنون هم الذين يجعلون بينهم وبين أى شىء ، يعضب الله وقاية . وإن تعجب
عنصر الناس من قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وقوله : ﴿ وَتَقُوا النَّاسَ ﴾ فإننا
نقول : إن معنى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى اجعلوا بينكم وبين صفات الخسوف لله وقاية ،
اتقوا صفات الخسوف في الله حتى لا يصيبكم عذابه ، فله صفات جلال منها المنقم
والخار وإنه هار ، وله صفات جمال مثل الرحمة ، والوهاب ، السراى ، الفناح ، إذن
اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في الله وقاية لكم وحماية من أن تتعرضوا لخصب
الله تعالى ، ولإنسان يتقى صفات الجلال في الله بأن يشع منهجه ويطيعه في كل ما أمر
به لتال من نفس صفات الجلال . ونوله الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَاتَّقُوا النَّاسَ ﴾ أى
اجعلوا بينكم وبين النار وقاية حتى لا تنسكم النار

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ فَإِذَا أَسْلَحَ الْأَشْهُرُ الْحَرَمُ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا
لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ٥ ﴾

و«اسلح» يعنى انقضت وانتهت لأشهر الحرم ، ومادة «سلح» و«انسح» تدور كلها حول نزع شيء ملتصق بشيء ، فنقول «اسلخت الشاة» أى برعت الجلد عن اللحم ، والجلد يكون ملتصقا باللحم التصاقاً شديداً . فكان الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأشهر الحرم هي زمان ، والزمان طرف ، فالناس مطروقون في اسرمان والمكان ، فكان الأشهر الحرم تحيطهم كوقاية لهم من المؤمنين ، فإذا مرت الأشهر الحرم تنزل هذه الوقاية عنهم بعد أن كانت ملتصقة بهم . والانسلاخ له معنيان: مرة بقدر يسلم الشيء عن الشيء ، ومرة يقال . ينسلخ الشيء من الشيء ، ولذلك نجد في القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنْقُلْ عَلَيْهِمْ بَأْسَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٥]

وهذه الآية لكريمة التي نزلت في ابن ياعقوراء الذي أعطاه الله لعلم والحكمة والآيات ، ولكنه تهاون فيها وتركها ، فكانه هو الذي اسلخ برادته وبيست هي التي اسلخت منه ، وصار بذلك معاللاً للشاة ، ونحن نبيع جلد الشاة من الشاة .

والحق سبحانه وتعالى أيضاً يقول

﴿ رَأَيْتُمْ لُحْمَ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾

[يس : ٣٧]

فكان الليل مثل الدبيحة، ثم يأتي النهار فيسلخ منه الظنمة وبزيلها عنه ويأتي بالضياء، فكان الليل ثوب أسود يأتي عليه ثوب أبيض هو النهار، فإذا جاء ميعاد الليل رفع الثوب الأبيض أو سلخ النور عن ظنمة الليل، لتصبح الدنيا مليئة بظلام الليل، وكان السور هو الذي يطرأ على الظنمة فيكسوه بياضا، أي أن الضوء هو الذي يأتي ويذهب، يسا الظنمة موجودة، فإذا جاءها ضوء الشمس صارت باردا، وإذا اسلخ منها صارت ليلا.

ومادا يحدث عندما تنتهي الأشهر الحرم؟ يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿فَإِذَا مَسَّحَ الْأَشْهُرُ الْحَرَمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥]

فكان الله سبحانه وتعالى بعد أن أعطى المشركين مهلة أربعة أشهر، والدين هم عهد أكثر من ذلك يركون إلى أن تنهي مدة العهد، ومن بعد ذلك يكون عقاب المشرك هو القتل، لماذا؟ لأنه لا يجتمع في هذا المكان دينان.

ولفائل أن يقول: وأين هي حرية الدين؟ يقول: فيه فرق بين بيعة نزل فيها القرآن لعدة أهلها؛ وعلى رسول من أنفسهم، أي يعرفونه جيدا ويعرفون تاريخه ومأصيه، وبيعة لها أحكامها الخاصة بحكم السري، وأولئك الذين نزل القرآن في أرضهم وجاءت الرسالة على رسول منهم وهو موضع ثقة يعرفون صدقه وأمانته ويأمنونه على كل نمى وعال بمكوبه، وكان كل ذلك مقدمة للرسالة، وكانت المقدمة كهيئة إذا قال هم إني رسول الله لم يكذبوه؛ لأنه إذا لم يكن قد كذب عليهم طوال أربعين سنة عاشها بينهم، فهل يكذب على الله؟ الذي لا يكذب على المخلوق أيكذب على الله؟ هذا كلام لا يتفق مع العقل والمنطق؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]

أي ليس غريبا عليكم، تعرفونه جيد حتى تكلم كتم تأتمنونه على أغنى ما تملكون، وتلقبونه بالأمين في كل شئون الدنيا، فكيف ينقلب الأمين غير صادق عندكم؟ كما أن القرآن الكريم وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء

باعتكم وأسلموه من جس ما يعتمد فيه ، فكان إعجازاً لكم ، ونحداكم الله تعالى بأن
نأتوا بسورة من مثله فعجزتم وأنتم ملوك اسلاغة والفصاحة ، فكان الإعجاز من أمامه
الرسول وصدقه ، والإعجاز من بلاءة القرآن وتحديه يمتصى منكم الإيذان فيكون عدم
الإيذان هنا مكابره تقتضى عقاباً صارماً.

فإن سأل سائل : أين هي حرية التنصير ؟ وأين تطبيق قول الحق تترك وتعالى ؟

[البقرة ٢٠٦]

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

نقول : نعم ، لا إكراه في أن تؤمن بالله وتؤمن بدينه ، ولكن مادمت قد أمنت فلا بد
أن سرم بها يوجبه هذا الإيذان ، أما عند التفكيرى مبدأ التنصير فأت حرى أن تؤمن
بالله أو لا تؤمن.

ولكن إذا امت فأنوجب أن تطلب منك أن تلتزم ثم إن الحق سبحانه وتعالى
شاء ألا يجتمع في الجبرية العربية دينان أنداً.

ولكن في أي مكان آخر مثل فارس ، الروم ، فهم لن يعبروا إعجاز القرآن الكريم
كدغة ، ولكن يسمعون أنه معاني سامية بقوانين فعالة تنظم الحياة وترتقى بها.

أما الذين يعرفون لرسول وفصاحته المعجزة التي جاء بها ، قبل يقبل منهم إلا أن
يسلموا ، ولا يقبل منهم أن يظلوا في أرض الرمال دون إسلام ، وإن أرادوا أن يطلوا
على الشرك فليرحلوا بعيداً عن هذه الأرض

وهناك من يقول : إن الإسلام انتشر بالسيف أو الخزية ، ونقول : إن الإسلام بشر
بالقدوة ، أما السيف فكان دافعاً عن حق اختيار العقيدة في البلاد التي دخلها
الإسلام هاتماً ، والجبرية كانت لقاء حماية من يريد أن يبقى على دينه

ونجد في حياتنا اليومية من مستخدم ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ في غير موضعها ، فحين
يقول مسلم لأخر : ماذا لا تصل ؟ يرد عليه بهذا لقول : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾
ونقول : إن ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ مألّه تخص قمة الدين ، أي مسألة اعترافك بألّه
مسلم أو غير ذلك ، لكن ما حمت قد أعلنت الإسلام ونحست على المسلمين ،

فعلبك الالتزام بما فرضه عليك الدين فلا تشرب الخمر ولا تنز ، إذن هـ ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ تعني لا إكراه عن اختيار الإسلام ، ولكن لابد من الحرص من أعلنوا الإسلام على مطنوبات الدين

إذن هـ اأكره العرب على الإسلام ؟

ميل في ذلك سبحانه . الأول أن الرسول صلى الله عليه وسلم مهم ، والثاني أن المعجزة جاءت بلسانهم

ويتابع الحق سبحانه وتعالى قوله : ﴿ وَخُذْهُمْ وَأَخَصِرْهُمْ ﴾ [التوبة ١٥] فإن عز عليكم أن تقتلوهم فحبوهم أسرى ، ماداموا لم يذاهبوا عن أنفسهم بقتلكم ، ولم يهددوكم في حياتكم ، وهـ يحق الام واستعداد بهم كسرى .

وإن حقت من شروطهم فاحصروهم في مكان مراقب إذا قاموا بأي حركة معادية يكون من أسهل عليكم كشعها ، وإنراا اعقابهم . واخلصوها قصد الحركة مع السباح لهم معركة محدودة بحيث لا يعيرون عن نظركم

ثم يتابع المولى سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة ٢٠]

أي ارصدوا حركاتهم حتى تأمنوا مكرهم : وحتى لا يتصل بعضهم ببعض الآخر ، وشئتوا نكسلاً يعادى لإسلام . ارصدوا حركتهم ، وارصدوا كلامهم ، وارصدوا أفعالهم ، ولا تجعلوهم عرجون عن رقابكم وافعلوا ما توسعكم ليكونوا في مأمن من شروطهم ، ولكن لا تخرجوا بالاستطلاع إلى حيراسند لا هم ، بالاستدلال غير الاستدلال

وقد شغل العصف : لماذا هذا الاختلاف في العقوبة حيث هناك القتل وهناك اخصرهم وهناك الرصد لهم في طرقهم ومسالكهم ؟ . نقول إن العقوبة تختلف باختلاف مواقع المشركين من العداء للإسلام ، فهناك أئمة الكفر الذين يحاربون هذا الدين ، ويدعون الناس لعدم الإيمان ، ويحرضون على قتل المسلمين وقتلهم

وليسذاتهم ولا يصلحون أبداً ، ولا يكفون أداهم عن المؤمنين أبداً : أولئك جبرائهم
القتل .

وهناك من لا يزودون المسلمين ، وبما يجاهرون بالعداء للدعوة ، هؤلاء شأنهم أقص ؛
وأخذهم أسرى . وهناك من الكفار من لا يفعل شيئاً إلا أنه غير مؤمن ؛ فهؤلاء نراقب
حركاتهم ليتقى المسلمون شرهم ليكونوا على استملاك بصعة دائمة لمواجهةهم إذا ما
انقلبوا ليؤذوا المسلمين ويهاجمهم ويقاثلوهم .

إذن فلم توضح عقوبة واحدة تشمل الجميع لأن الجميع غير متساوين في
عدائهم للإسلام ؛ فأنمة الكفر لهم حكم ، ولذين عداوتهم للإسلام أقل لهم حكم
آخر . ثم تأتي رحمة الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده فلا يشتمهم
أبداً من الرجوع إليه فنقول ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٥٠]

ريمتح سبحانه باب التوبة أمام عباده جميعاً ولا ينفقه أبداً ، وبذلك يقول رسول
الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيما يرويه عنه أبو حمزة أنس بن مالك - خادم رسول الله
صلى الله عليه وسلم - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله
أمرح بتوبة عبده من أحلكم سقط^(١) على بعيه وقد أضله في أرض هلاة)^(٢)

أي أنك وأنت مسافر في صحراء جرداء بعيدة تماماً عن أي عمران ثم جلست
لنستريح ومعك الحمل الذي تسافر عليه ؛ عليه ماء والطعام وكل ما تمكك من
ومائل الحياه ، ثم عملت عن الحمل فانطلق شاردأ وسط الصحراء ، ونسيت فلم
تجدته ولا تعرف مكانه ، ودجأة وأنت تغمص على غير هدى وجدت الجسم أمامك ،
فكيف تكون فرحتك ؟ إنها بلا شك فرحة كبيرة جداً لأنك وجدت ما يشجيك من
املاك ، وهذه الفرحة تملأ النفس وتعمرها تماماً ، كذلك يفرح الله بتوبة عباده ؛ لذلك

(١) عشر

(٢) رواه البخاري ومسلم

يُوصَحُّ مَسْحَانَهُ وَتَعَالَى بَأْتُهُ إِنَّ تَابَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَدَائِهِمْ لَدَيْنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَلْيُخَلِّ الْمُسْلِمُونَ سَبِيلَهُمْ وَلْيُزَكُّوهُمْ أَحْرَاراً.

وهنا نجد ثلاثة شروط . أولها التوبة والعودة إلى الإيمان . وإقامة الصلاة ، هذا هو الشرط الثاني ، ثم يأتي الشرط الثالث وهو إيتاء الزكاة . ولابد أن يؤدي الثلاثة معاً ؛ لأن التوبة عن الكفر هي دخول في حظيرة الإيمان ، وللدخول إلى حظيرة الإيمان يقتضي شهادته أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ثم إقامة الصلاة ثم إيتاء الزكاة ثم صوم رمضان ثم حج البيت من استطاع إليه سبيلاً .

ولونظرت إلى أركان الإسلام الخمسة تجد أن المسلم قد يؤدي بعضها ولا يؤدي البعض الآخر ، فالمسلم الفقير الذي لا يجد إلا ضروريات الحياة تسقط عنه الزكاة ويسقط عنه الحج ، والمسلم المريض مرضاً مزمناً يسقط عنه الصوم ، وتبقى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وهذه يكفي أن يقولها المسلم في العمر مرة ، ويبقى ركن إقامة الصلاة لا يسقط أبداً ، لاقى الفقر ولا لاقى العي ولا لاقى الصحة ولا لاقى المرض ؛ لأن الصلاة هي الفارقة بين المسلم وغير المسلم ، وهي عماد الدين لأب تتكرر كل يوم خمس مرات ، فما لمريض عليه أن يصلي بقدر الاستطاعة . فإن لم يستطع أن يؤديها واقفاً فجالساً وإن لم يستطع أن يؤديها جالساً قارئاً

إننا نعلم أن كل صلاة إما تضم كن أركان الإسلام ؛ فهي كل صلاة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وكل صلاة فيها زكاة ؛ لأن الزكاة إخراج بعض المال للفقراء ، والمال يأتي من عمل ، والعمل يحتاج لوقت ، والصلاة تأخذ بعض وقتك الذي يمكن أن تستخدمه في العمل فيعطيك رزقاً تزكي به ، فكأنك رأيت تصلي أعطيت بعض مالك لله سبحانه وتعالى ؛ لأنت أخذت الوقت الذي كان يمكن أن تعمل فيه فتكسب مالا للزكاة ، فكانت الصلاة فيها زكاة الوقت

إن الوقت هو ما يحتاج إليه في حركته أحياء للحصول على المال فتكون في الصلاة زكاة . ونأتي بعد ذلك بالصوم وأنت في الصوم . نأبى تمتنع عن شهوة البطن وشهوة

الفرج بعضاً من الوقت ؛ من ميل المجر إلى المغرب ، وكذلك في الصلاة . وفي الصلاة ست لا تستطيع أن تأكل أثناء الصلاة . فكأنك لابد أن تصوم عن شهرة البطن وأنت تصلي ، كما أنت لابد أن تصوم عن شهوة الفرج أثناء الصلاة ، فلا تستطيع وأنت تصلي أن تفعل أى شيء مع زوجتك ، ولا تستطيع روحك أن تفعل معك شيئاً ، بل أنت في الصلاة تكون في دائرة أوسع من الإمساك ، لأنك مسموع من الحركة ومتنوع من الكلام

فإذا جئت إلى حج بيت الله الحرام ، نقول إنك ساعة تصلي لابد أن تتجه إلى بيت الله الحرام ، وتتحرى القبلة ، إذن فكأنك بيت الله الحرام في بالك وفي ذكرك وأنت تتجه إليه في كل صلاة . وعلى ذلك فقد جمعت الصلاة أركان الإسلام كلها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يرويه عنه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (الصلاة عماد الدين)^(١) وإذا كانت الصلاة هي عماد الدين كما بين ليس صلى الله عليه وسلم فمن أقامها فقد أقام الدين - ومن عجائب ربنا آيات القرآن أنك تجد الصلاة مفروقة دائماً بركعة ؛ لأن الركعة بالمثل ، والصلاة زكاة بالوقوف ، نحن محتاجون إلى الوقت لنعلم فيه حتى نأتي ما نريد ، ولحق سبحانه وتعالى بقول

﴿ فَإِذَا تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

ومعنى ذلك أنهم إذا لم يؤدوا الثلاثة معاً لا يحل سبيلهم ، وما داموا لا يحل سبيلهم فهم يذنبون تحت العقوبات التي حدددها الله وهي : «اقتلواهم» أو «احذروهم» أو «واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد» [التوبة : ٥]

وأول العقوبات هو القتل وذلك لأئمة الكفر ، فإذا آمن كافر وترك الصلاة لا يكون قد تاب وآمن ، وإذا لم يؤد الزكاة لا يكون قد تاب وآمن ؛ لذلك إذا لم يقموا بالعبادات الثلاث لا يحل سبيلهم ، ولقد أفنى بعض الأئمة بأن تارك الصلاة يفتن ، ويقول : لا ، تارك الصلاة إما أن يكون قد تركها إنكاراً لها وجحوداً بها ، وإما أن

(١) أخرجه البيهقي في جامع الاستاذات للإمام السيوطي ج ٢ ص ٤٥٢

يكون قد تركها عن كسل . فإن كان يتركها عن كسل لأنه لا يقدر على نفسه والدنيا
تجده بمشاعلها فليدنا أن نحاول بالحكمة والموعظة الحسنة أن ننصحه ونستحبه حتى
يعود إلى الصلاة ويؤديها في وقتها ، ثم من بعد ذلك إن تركها عمداً كسلاً ، يعاقب
باضرب الشديده ، ولكن بعض الأئمة يقولون : لقد قاتل أبو بكر أولئك الذين ارتدوا
ومعوا الزكاة ، ويقول : إنه لم يقابلهم لأهم عصاة ، بل لأنهم قد ردوا الحكم على الله ،
وأكفروا الزكاة فكانوا بذلك قد ارتدوا كفراً ؛ لأن هناك ما هنا من أن ترد الحكم على
الله وتكفره ، وبين أن تسلم بالحكم لله ، وتعلن أنك مع إيمانك بهد الحكم لا تقدر
على التنفيذ ، أو تعترف أنك مفصر في التنفيذ . ولذلك يقول لذين يحاربون أن
يدافعوا عن الربا ومحله . فقولوا هو حرام ولكن لا تقدر على أنهما حتى لا تعودوا
كفراً : لأنك إذا قلت إن الربا ليس حراماً تكون قد رددت الحكم على الله ووقعت
موجب الكفر ، ولكنك إن قلت إن الربا حرام ولكن ظروف فهرتني فلم أستطع ،
تكون بذلك عاصياً .

وهذا كما قلنا هو الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم عليه السلام ، فقد أمر الله
تعالى إبليس بالسجود ومعصى ، وأمر الله معصى ، فلما أدا قضى الله بأن إبليس
عليه الدعة إلى يوم القيامة ، بينما تلقى آدم من ربه كلمات متاب عليه وضمه له ؟ يقول
: لأن إبليس رد الحكم على الله ، فقال

﴿ أَسْجُدْ ثُمَّ خَلَقْتَ طَيْفًا ﴾ [الإسراء : ٦١]

وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦]

فكان إبليس رد الحكم على الله عز وجل ، ولكن آدم لم يقل ذلك . وإنما قال :
حكمت يا ربى صحيح وما أمرتني به هو الحق ، ولكني لم أصدر عن نفسي فظلمتها
منه عن واعظي وذلك مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا
وَأَن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦٣) [الأعراف]

وهذا هو الفرق بين المعصية والكفر .

إذا فالتعامل مع المشركين إن لم يتوبوا ولم يُضَلُّوا ولم يُزَكُّوا ، ولم يقدر عليهم المسلمون ، ماذا يحدث ؟ إن على المسلمين أن يحاولوا تطبيق ما أمر به الله سبحانه وتعالى بشأنهم

ولكن ماذا إن استجار واحد من المشركين بالمسلمين ؟

وهنا ينزل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ
حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْنِغْهُ مَا مَنَّكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْلَمُونَ ١ ﴾

وبعد أن يَرَى الله سبحانه وتعالى لمهلة التي هي الأشهر الأربعة أو مدة العهد إذا كان هناك عهد وبعد أن يبين أن الكفار إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وقرَّبوا الإيادي بالعدل ، فالحق سبحانه وتعالى يتصرف بهم ما قد سلف منهم ، وبين الله سبحانه وتعالى عظمة الإسلام والرحمة التي نزل بها هذا الدين ، فيخبرنا أن الذين لم يتوبوا من الكفار وظلموا عن حاكمهم ولم يقدر عليهم بأي عقوبة من العقوبات التي جاءت ، ثم جاء أحدهم مستجيراً بالمؤمنين فإذا يكون سلوكنا معه ؟

جاء الحكم من الله تعالى بأنه مادام قد استجار بك فأحره ، وإذا أجرته أسمعته كلام الله تعالى وحاول أن تهديه إلى الإيمان وإلى الطريق المستقيم ، فمن آمن واقتنع وأعلن إسلامه أصبح واحداً من المسلمين ، وإن لم يسمع كلام الله ولم يقتنع فلا تقلبه ؛ ولكن أبغضه مأم ، أي أسأله من أين جاء ؟ فإذا قال لك اسم القبيلة التي ينتمي إليها أو حدد المكان الذي جاء منه فتأكد أنه سوف يكون آمناً حتى يبلغ المكان الذي يجد فيه الأمان وهذه هي المرحلة الأخيرة من علاقة الإيمان بالكفر .

وهي مرحلة الإحارة والتأمين للمستجيبين بالمؤمنين .

والله سبحانه وتعالى تعاضل على خلقه في الأرض فأرسل إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على إرساء من سبقوه من الرسل . وكان انتماس قد نسو منهج السماء ، بل وحرف أهل الكتاب ما رل إليهم من تعاليم .

وكان لابد أن تتدخل السماء بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد جعل في الإيمان ماعات متعددة ، توجد أولاً في النفس ، حين تشرف النفس إلى معصية ، فالصغير الإيمانى يردعها عن تلك المعصية ويترب الإنسان ويرجع إلى الله تعالى من ذات نفسه وبضميره الإيماني وتلك هى النفس اللوامة ومعنى وجود اللوم في النفس هو أن الإيمان مارل موجوداً فيها ، وهذا الإيمان هو الذى يكبح الشهوة ويمنع النفس من الركون إلى المعصية و يرد صاحبها إلى الطريق الصحيح والمنهج السوى

وهب أن نغسأ ولعت بمخالفة المنهج وم تعد نفساً لوامة ، وتظل ترتكب المعاصى حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها المزيع الإيماني ، فتجدها قد عشفت - والعياد بالله - مخالفة المنهج ، بل أصبحت نفساً أمارة بالسوء ، وهما ينقل الله المساعدة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعاصى يردعونه عن المعصية ، ويقفون معه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجمرة حتى يفره إلى ربه يعود إلى رشده . وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان . أما إن مسد المجتمع كله ولم تعد هناك طائفة بأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فلا بد أن تتدخل السماء برسالة جديدة وبرسول جديد مؤيد بمعجزة من السماء ليوقف الناس من هذا السبات العميق الذى شمل الأفراد والمجتمعات .

وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وواجه هذا المجتمع الذى انتشر فيه الكفر أبرداً وحامات كان لابد أن يحدث تصادم بين الإيمان وبمنهج الكفر ؛ ذلك أن

العداوة الشرسة واجهت رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الموجهة لرسول إنما جاءت من استمعين بالفساد في الأرض ، والمتعصبين بالفساد هم السادة الذين استغادوا من ضياع الحق وانتشار الباطل فأحدوا حقوق غيرهم واستعبدوا الناس ، واستأثروا هم بالمنافع وبها فيه الخير لهم ومعروا ذلك عن باقي عباد الله

واستمعون بالفساد يكرهون أى مصلح جاء ليمدح ميزان حركة الحياة في الكون فلان أن يقصروا في وجهه ؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن مافعهم وأموالهم التي حصلوا عليها بباطل والظلم ، ومن استعبداهم لناس . وكانت الخريفة لعريسه في ذلك الوقت مكونة من قبائل متعددة ، وكان لكل قبيلة قاصونها الذي يضعه شيخها ليستأثر لنفسه بكل شيء .

ومعنى ذلك أنه لا توجد رابطة تربط بين هذه القبائل ، ولا يوجد قانون عام يحكمها ، وكل قبيلة لها عزوتها ولها شوكتها ولها حروبها . وكل فرد في قبيلة لابد أن يكون مقاتلا يحمل سلاحه مسعدا للحرب في أى وقت ، لأنه مهدد في أى لحظة أن تغير عليه قبيلة أخرى ، إلا قسلة واحدة هي قريش فقد أحدثت السادة ولا يعتدى عليها أحد ولا تهاجم قواهلها ، ولا تستطيع قبيلة في الشمال أو في الجنوب أن تهاجم تجارتها ؛ لأن هذه القبائل كلها ستأتى في يوم من الأيام قاصدة حج بيت الله الحرام في مكة . وخلال الحج تكون هذه القبائل في حاجة إلى الأمان من قريش ؛ ولذلك حرصت كل قبيلة لعرب أن تحفظ عن علاقتها مع قريش ، لأن السادة عن بيت الله الحرام التي جعلها الله لقريش هي انصاف . وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحماية البيت الحرام من أى عدوان ، حتى عندما جاء أبرهة بأفيله ليهدم الكعبة ؛ جعله الله هو وجيشه كعصف مأكوب مصداقاً لقوله الحق ببارك ويعنى .

﴿ أَلَمْ نَرِ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كُودَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

[الفيل]

فإذا قرأت السورة التي بعد سورة العيل مباشرة تجد أنها .

﴿إِذَا لَفَ قُرَيْشٌ﴾ (١) يُبْلَغُهُمْ رَحْلَةَ اشْتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا

الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَصْلَحَهُمْ مِنْ ضَلَالٍ (٤) ﴿ قُرَيْشٌ أ

فكان حفظ الكعبة من الهدم كان حفظ من الله سبحانه وتعالى لسيادة قريش
ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رساله رسول الله صلى الله عليه وسلم
سالياً والشكر وفهم هذه العممة وتقديرها ، بدلاً من أن نقف من الإسلام هذا
الموقف المتعصب ونحارب هذه الحرب الرهينة ، ولكن سلاماً ذلك فقد حدث
العكس ، وأحسنت قرش كذا بأن الإسلام جاء بهدد سيادتها فصارت تخاربه .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تكن لسيادات الإسلام بعيداً عن هذه اليادة ؟
لأن الحق قد أُرِدَ أن تكون صيحة الحق في جبروت الطائر وأن يواجه الإسلام في أول
أيامه جبروت سادة الجزيرة العربية كنهم جميعاً حتى يصحص الله قسوت المسلمين
الأوائل بهم من يحمون من بعد ذلك دعوة الإسلام في العالم ؛ فلا يعشق الإسلام
مساوياً أو صعيب الإيمان ، بل يعنفه أولئك الذين في قلوبهم إيذان حقيقى ،
ويتحملون كل مظهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم

لقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يبدأ الإسلام في مكة ولم يجعل الله له العزم من
مكة ، وشاء سبحانه وتعالى أن يجعل نصر الإسلام من المدينة ، لأن قريشاً لو انتصرت
دعوة واحد منها فهم سيحاولون احتواء ، ليسودوا به الدب ، وحينئذ سيغال هم قوم
قد تعصروا لواحد منهم لتعلن لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام ثقافاً وليس إيماناً
حقيقياً . ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى انتصار الإسلام من المدينة يعلم الناس
جميعاً ، أن العصية لحمد صلى الله عليه وسلم لم تحل لإيمان برسالة محمد عليه
الصلاة والسلام ، ولكن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى خلق
العصية لحمد عليه الصلاة والسلام .

وبذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هناك مواجعة شرسة بين حمة الإيمان

وبين سادة الكفر، وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل:

المرحلة الأولى كانت الدعوة للإيمان، والدعوة إلى المحبة، والدعوة إلى المساواة وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف. وهذه البداية لم تعجب سادة قريش بل جعلتهم يستهينون بالمؤمنين ويمعنون في إيذائهم وتعذيبهم ويعتقدون أنهم سيقضون عليهم، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل مراحله من مراحل التعذيب والبطش، اردادوا سكيناً بالمؤمنين، مهاجر بعض من المؤمنين إلى الحبشة، وأصبحوا يحشون عمن محبتهم ويستجرون به؛ وشاء الحق تبارك وتعالى ذلك حتى لا يدخل الإسلام إلا من أثرب قلبه حب الإسلام واستهان بكل الصعاب والاضطهاد والقتل والتشريد؛ وهؤلاء هم الذين سيصحبون مأمورين على لذة. وبعد تلك طل الكفر على كره، وطل الإيمان يأخذ به يهدوء بعض الأفراد، وحاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشل الفؤاد والبطش والإرهاب؛ فقالوا: بعد انكم فترة وتعبدون إلهاً فترة، فأمر الله سبحانه وتعالى بسورة فيها ما يسمى بالعرف الحديث «قطع العلاقات»، فقال الحق عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون]

وكان هذا إعلاناً بمرحلة ثانية تنسم بأنه لا مهادة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان؛ لأنه لو قبل المؤمنون عيبتهم لألف الكفار؛ فهذا اعتراف مهم بأن أمتهم حق، ولو قبلوا أن يصعدوا الإله الواحد ويشركوا به أمة أخرى لكان ذلك تصريحاً، ولا يمكن أن يحدث ذلك. وكان الهى هنا في هذه الآية الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل. وهذا ما يسمى في السياسة الدولية باسم قطع العلاقات، بل إن قطع العلاقات الدولية إنما يكون سبب صارى، أما الخلاف بين المسلمين الأوائل وأهل الشرك فلم يكن صراعاً بين فكر مشر وفكر شر آخر، ولكن المانة كانت صراعات بين مهج تريمه السماء لأهل الأرض، وبين استعصم بالعباد في الأرض؛ لذلك كان لابد أن يكون القطع نهائياً، فلا بين ولا مهادة

ولا حصول وسط بين الكفر والإيمان ، وهكذا مثلت حيلة الكفار في تميع وتضييع قضية الدين ، وضاع مكرهم ، وبقي الوجود الإيماني قويا متحداً في مواجهة جبروت الكفار بعد أن كان مهدداً.

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة ؛ مرحلة اعتراف الكفر بقوة الإيمان ، فقد كان الكفار يواجهون المؤمنين بالقهر والتعذيب ، والمؤمنون يواجهون هذا بالصبر والاحتفال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وحدثت المواجهة المسلحة بين الإيمان والكفر في غزوة بدر ، وانتصر المؤمنون وأصبح لهم كيان يحميهم ، فلم يعودوا هم الفئة الضعيفة المستذلة والمستكينة ، بل أصبحت لهم قوة وطعم قسرة ، وإن لم تصبح لهم سيطرة . ولكنهم أصبحوا قوة قادرة على مواجهة الكفار أو قوة مساوية لهم ؛ تستطيع أن تصد الاعتداءات وتواجه الضربة بالضربة .

وحيث أصبح للإيمان هذه القوة والقدرة على حماية أنفسهم والمساواة والكيان تجاه الكفار ؛ كانت هذه بدايه المرحلة التي أعطت الإسلام نفعاً شاملاً لدعوة خارج محيط مكة ، وأمس المسلمون وهم ينشرون دعوتهم من هجوم الكفار وتكيلهم بهم بعد صلح الحديبية ، وكان مجرد لتعاقد والتعاقد هو اعتراف بدولة الإيمان ، وهي المساواة التي فطن لها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وقد طعن البعض لأول وهلة أن معاهدة الحديبية كان فيها هدر لحق المؤمنين ، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ' علام تعطى الدنيا ' (١) في دينا .

هذه المسألة أخذت جدلاً كبيراً ، كاد يصل إلى أن يصادم المؤمنون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدق رأيت أم سلمة رضي الله عنها تحرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من عدم إطاعة ما قاله لهم ، وحدثت الحزن الشديد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ' يا رسول الله لا تخزن إن القوم مكرويون لأن أملهم أن يطوفوا بالبيت الحرام ، وما هم أولاء الآن علي مقربة من البيت ولكنهم

(١) السنة أصلها الديعة بالهمزة ولكنها تحففت وهي صيغة مذكورة . أي الحالة الدينية الخبيثة .

ممنوعون من الطواف به ؛ إن خير ما تعله الآن ألا تكلم منهم أحداً ، وتهد ما أمرك به الله ، فإن فعلت عرفوا أن الأمر عزيمة لا راع فيه ، هذا ما حدث فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبح المدي وتخلل من إحرامه وفعل المسلمون مثلها فعل ، وشاءت قدرة الله سبحانه وتعالى قبل أن يعود المؤمنون إلى المدينة ، أن يبين لهم سبب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصبح الحديبية مع م يبدو ظاهراً وليس حقيقة من أن فيه إجحافاً بالمسلمين

لقد كان الصلح ينص على أنه إن جاء أحد هارباً من قريش والتجأ إلى المدينة رجوهم إلى قريش مرة أخرى . وإن فر أحد بعد إسلامه والتجأ إلى كصر مكة لا يردوه . وقد وجد البعض في هذا إجحافاً وعدم مساواة ، وكان الموقف غاية في الدقة ، وعدم حياء سهيل بن عمرو ليتفاوض على المعاهدة ، وكان عن من أبي طالب رضي الله عنه يكتب عن رسول الله وأمل : هذا ما تعقد عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو اعترض سهيل قائلاً . لو كنا نؤمن بأهلك رسول الله ما حدث بينك هذا القتال ، ولكن اكتب : هذا ما تعقد عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو . هذا شر على من أبي طالب رضوان الله عليه وقال : لا ، لا بد أن يكتب هذا ما تعقد عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفض سهيل بن عمرو

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهيء الموقف منظر إلى على وقال : يا علي اكتب من لك مثلاً تعطيها وأنت مضطهد أي أنه سوف يحدث لك نفس الشيء . انتهى ترقيعه الآن فتعمل . وكان هذا من علامات أسيرة لأن عيب وقف فعلاً هذا الموقف عندما جاءت معاهدة صلح وأراد أن يكتب فيها هذا ما تعقد عليه على بن أبي طالب أمير المؤمنين فقالوا له : لو كنت أمير المؤمنين ما حاربناك ، اكتب هذا ما تعقد عليه على بن أبي طالب وبذكر على بن أبي طالب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد

عن أن الحق سبحانه وتعالى أراد ألا يدخل المسلمون المدينة إلا وقد صعدت فروسهم دون إحساس بأن منهم من انكسر وأن الآخرين قد انتصروا ، فزل قول الحق

تبارك وتعالى الذي يزيل من القوم شرارة • ويزل عليها السكينة والعطمانينة
﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَنْعَ
مَحَلَّهُ وَبَوْلًا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَسَاءَ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْلُبُوهُمْ فَتَشَبِّهُكُمْ مِنْهُمْ
مَعْرَةٌ بَعِيرٌ عََلِمَ لَيْدَخُلُ إِلَهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَبَّلُوا فَعَدْلًا أَلَدِينِ كَفَرُوا مِنْهُمْ
عَلَانِيًا أَلَبَا (١٥)﴾ [الفتح]

ومكنا أحمر الله المؤمنين بسبب عدم السماح لهم بدخول مكة لأن فيها عددا من
المؤمنين والمؤمنات الذين يكتُمون دينهم ، وهؤلاء غير مميزين لأهم مختلطون بالكفار
وليس هم مكان محدد بحيث يستطيع المؤمنون معرفتهم وتمييزهم فلا يتعرضون لهم
في قتالهم داخل مكة ، ولو نشب القتال فعلا لستم قتل عدد كبير من هؤلاء المؤمنين
والمؤمنات المقيمين في مكة ما أبدى المؤمنين ، ولكان عارا أن يقتل مؤمن مؤمنة أو مؤمنة

ها عرب الصحابة العلة وهي صيانة دم المؤمنين ول الوقت ذاته نجد أن صلح
الحديبية جعل الدعوة الإسلامية تنشر في الجزيرة العربية كلها ، وقد اعتبره بعض
انصحابة رصود الله عليهم الفتح الحقيقي للإيمان ، وجاء في ذلك تلك المقولة
المأثورة : « لا فتح في الإسلام يعد فتح الحديبية » ولكن الناس لم يتسع فكرهم إلى
الحكمة في حدث ، والعاد دائما يعجلون ، والله لا يعجل لمجلة عبده حتى يطلع
الأمر ما أراد وقد انشر الإسلام في الجزيرة العربية بالدعوة ، وراود عدد المسلمين
رياده كبره .

إذن المراحل الإيمان بدأت بمرحلة العذوب والاضطهاد ، ثم مرحلة محاولة
الخداع للقضاء على هذا الدين ، ثم المرحلة الثالثة وهي لتعاهد والتفقد ، ونقد وفي
رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهد ، ولكن قریش نفخت لعهد بأن أعف ت حيلة
بنى بكر وهم حلماؤهم على قبيلة خراعة خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام
بنو بكر بمهاجمة قبيلة خراعة وقتلوهم وهم يصلون ، وذهب مندوب قبيلة خراعة
مسجدا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إسماء

المعاهدة التي أبرمت بينه وبين قريش لتفرض قريش العهد وأعد جيشاً لفتح مكة وتطهير البيت الحرام من الأصنام ، وبعد أن تم فتح مكة في العام الثامن الهجري ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر بينه من المشركين وأن يعلن أنه لا معاهدة بين الإيمن والكفر

لقد أراد الله أن يحرر «الملك» وهو أرض الكعبة أولاً ، ثم يحرر «الملكين» وهم البشر فلابد - إذن - أن تتطهر الكعبة من الأوثان ، وأن يُسح المرءة من الأطراف حول البيت الحرام ويُمنع المشركون من الوجود في البلد الآمن بالإسلام . وسبق حج رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع العلاقات وإنهاء المعاهدات ، لكن سباحة الإيمن وحسب الله خلفه جميعاً لم يجعله يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع المعاهدة فوراً ، أو أن يقابل المؤمنون المشركين ويأسروهم فوراً ، لا ، بس محهم أربعة أشهر لعلمهم بقيمتهم إلى الإسلام وأن يتوبوا إلى نازهم .

لقد بين سبحانه وتعالى للكافرين أن هذه المدة لن تفيدهم في حريمهم ضد الإسلام ، لأخيم غير معجى الله في الأرض ، أى لن يعجز الله استعصامهم أو مكبرهم أو أى شيء يفعلونه خلال هذه الأشهر الأربعة ، فإذا انتهت هذه الأشهر وقعت لعقوبة على الكافرين بالقتل وإما بالحصار ، أو بالنزود ، أو عليهم أن يديروا أمر حياتهم بالسباحة في الأرض ماداموا قد أسروا على الكفر ؛ لأن حكماً من الله قد نزل بعدم وجود المشركين في هذه البقعة المقدسة

وأراد الحق سبحانه وتعالى برحمته أن يبقى الباب مفتوحاً للكفار لكي يعودوا إلى منهجه بعد عروحل .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وبعد انقضاء مدة الأشهر الأربعة ، إذا استجارك أحد من المشركين فأجره ، ومن علم في اللغة العربية أن «إن» الشرطية لا تدخل إلا على فعل ولا تدخل على

اسم أبدأ ، فنقول . إن قام زيد قام عمرو ، وأما «إن» في قوله تعالى :

﴿إِنْ أَنهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّعْنَةُ وَلَنَذَهُمْ﴾ [المجادلة : ٢٠]

فهذه ليست «إن» الشرطية ، ولكنها «إن» السامية ، وهي مع «إلا» التي بعدها لإفادة التأكيد والقصر ، أي قصر الأمر على الوالدة ، إلا أنه من بلاغة إعرار القرآن الكريم جاء بعد «إن» الشرطية اسم في قوله تعالى :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ﴾ [التوبة : ١٦]

وكان القياس أن يقل : «إن استجار بك أحد المشركين فأجره» ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جاء بـ «أحد» بعد «إن» في أول الكلام ، ولذلك فعندما نعرّب كلمة «أحد» في الآية الكريمة السابقة نعرّبها فاعلاً ونقدر له فعلة من جنس المتأخر ، والتقدير هو . وإن استجارك أحد من المشركين فأجره .

ولماذا هذه اللمعة من القرآن الكريم ؟ نقول : إن هناك مستجيراً وهنا طلب استجاره ؛ فمن الاستجارة عرف بها المستجير ، أم عرفت الاستجارة مه ؟

وأقول : لنفرض أن واحداً من المؤمنين قد جلس على الحدود قرب أماكن الكفار ، ثم سمع صوتاً يقول : أنا مستجير بمحمد ، ومستجير بالمؤمنين ، ومن بعد ذلك ظهر المستجير بجسده أمام المؤمنين ، هنا تكون الاستجارة قد سقت ظهور المستجير ، وكان الأذن هي التي استجبرت أولاً ثم رأت العين جسد هذا المستجير ، وقد يتخلف الأمر ؛ فيظهر المستجير أولاً ، ثم يصرح طالباً الأمان والاستجارة ، وبذلك تكون العين قد رأت أولاً ثم سمعت الأذن طلب الاستجارة ثانياً

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينهد إلى أهمه الالتفات إلى صدق الاستجارة ، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يصرخ المستجير أولاً ، ويظهر من بعد ذلك ، ولا بد أن يأخذ المؤمن حذره حتى لا يتقلب عليه المستجير أو يكون قد حدهه بطلب الاستجارة .

والاستجارة تعنى طلب الجوار والحماية ، ولهذا فعادة ما يكون المستجير ضعيفاً

لا يفتقد على حماية نفسه . وحين يسحر إنسان بآخر في مثل تلك الظروف ، فعلى المجير أن يملك القطعة ليتعرف على الهدف من الاستحارة ؛ أهى استحارة لمجرد تطويل أمد اللقاء على الكفر ؟ أم هى رغبة فى معرفة أسس الإيمان كما وردت فى كتاب الله تعالى ، أو أنه يريد أن يسمع حكم الله على الكفار فى سورة براء . أو يريد أن يسمع كلام الله بها يهدف فى قلبه الإيمان ، أو أنه يريد أن يسمع شيئاً فيها يطلب فيه الدليل ، أو يسمع كلام الله فيها يرد عليه الشبهة ؟ .

إن مقلة المؤمن يجب أن تتسع تسر أعوار المستجير، وطلب الحوار أو الاستشارة كان معروفاً عند العرب ، فإذا استجار شخص بعدوه عليه أن يجبره، وهذا دليل على شهامته . وإذا كان الإيمان قد فرص على المسلمين إجاره من يطلب الحوار، فهذا دليل على قوة الإيمان وعظمته وسماحته ، ولعل خيرة الإيثار العطرى في نفس الكفار قد استنفذت وتطلب معرفة قواعد الإسلام .

إن على الرأى أو أى واحد من المسلمين أن يجير المستجير، ولماذا لا سمعه
رسلكم معه على يؤمن . ويدخل حظيرة الإسلام ويؤلف الإسلام بجير لوالى أو أى واحد
من المسلمين ؟ لأن المسلمين تتكافأ دعائهم ولا يوحدهم سيد ودم عبد ، ولادم
شريف ودم رخيص ؟ وإن يسعى بدمتهم أديانهم ، ولذلك إذا أحرأى مسلم ، سائلاً
غير مسلم أو سائلاً كافراً يجار من جميع المسلمين : حتى الصبى الذى لم يبلغ الحلم
وحتى المحزون الذى لا يعقل . هذا أولئك أن يجير بشرط أن يوافق لوالى أو المسلمون
على ذلك . لماذا ؟ لأنا بأحد على الكفر أنه بعدد ما نتاهد ويتأسى المروءة ، فلماذا
أن تمتك نحن المؤمنين بالعهد ، وهذا استنصار أحد من الكفار فلماذا أن نهي
بالعهد .

ولكن كيف يكون للصبي والمجود حق الإحارة ؟ يقول - إن الصبي من المؤمنين
استمع بالإسلام لأنه تم تربيته إيمانية وفقاً لمهيج الله وشأ في سوء قول الحق
تشارك وتعالى :

﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء ٢٥]

بين إن الإسلام يعطى التربية الإسلامية للإنسان حتى قبل الحمل ، فأمراً الأب أن يختار الأم ذات الدين لتكون وعده صالحاً ، ويأمر الأم أن تختار الزوج المختار ليكون أباً صالحاً

إذن فالإسلام يخدم الصبي قبل أن يولد باختيار الأب الصالح والأم الصالحة ، ويخدمه بعد أن يولد بتربيته لتربية الإسلامية السليمة ، وعلى ذلك فالصبي قد استفاد بكل هذه القيم من الإسلام ، والذي يعد منهج الإسلام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا التربية الإسلامية لنا جميعاً ، لذلك يجب علينا أن نرد التحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمنا أن المؤمنين تنكحاً ذماً لهم ويسعى بدمتهم أدناهم . فلما أن صبي أعطي الأمان لكافر جاء ليجمع كلام الله ، قبلت منه هذه الإجارة أو هذا الأمان ، ذلك أن الصبي استفاد من تربية إسلامية جاء بها المنهج المبرور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستفاد من أمه التي تحملت حمله وآلام وضعه ، ولولا أن الإسلام حمى النفس حين يوحد في الرحم لأمكن للمرأة حين يتبعها الحمل أن تجهض نفسها أو أن تطرح الصبي بعيداً ، ولكن الإسلام حمى الطفل وهو في بطن أمه ، وجاء حتى تكتمل رضاعته ، وتمثل الأم اسلمة لكن أحكام الإسلام .

﴿ وَإِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْوِلْدَانَ مَوْلًى فَلْيَتَّبِعْهُ وَاسْمُهُ ﴾ [البقرة ٢٣٣]

لقد احترم الإسلام الطفل ، وسأله ، وطلب من الأب والأم أن يحا تسمية أولادهم وأن يحسد قرستهم .

وقل أن يوجد هذا الطفل في رحم أمه جاء الإسلام - كما قلنا - بأن أمر الرجل أن يختار الأم لصاحبة ؛ لتكون وعاء صالحاً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم . هيأ يرويه عنه أبو حاتم المزني قال

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض

وفساد كبير» قالوا يا رسول الله وإن كان فيه ؟ قل «إذا جاءكم من برصود دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات^(١)

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : في حديث له :

«ما ظفر بذات الدين تربت يداك» .

والحديث في يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه يقول : قال صلى الله عليه وسلم «تتكح المرأة لأربع : لماها ، ولحسبها ، ولحياها ، وسدينها ، فاطفر بذات الدين تربت يداك»^(٢)

فيذا كان الإسلام قد احترم هذا المصبي في كل حقوقه ، ألا يحترمه المسلمون ؟

وقد يقال إن المصبي متمتع بالإسلام ، أب المجنون فلا عقل له حتى إن الله عز وجل قد أعفاه من لتكاليف ، ويقول : ينظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول ، صاحب عقل قصارى ما يصل إليه أن تكون كلمته نافذة لا يعترض عليه أحد ، وأن يقرب ما يريد ولا يحاسبه أحد ، أما المجنون فهو يصل إلى هذا لأنه إن قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإن فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

إذن فالمجنون قد أخذ حفاً أكثر مما يأخذ العقلاء ، وصار جوبه حماية وحصانة له إن قال كلمة الحق التي قد تؤذي دوى اننفود فلا يعاقبه أحد ، ويكفى أن يقال إنه مجنون حتى يعفى من العقاب ، ورب كلمة حق واحدة تصدر من مجنون ؛ تكون أرجح عند الله عز وجل من أصحاب عقول كثيرة ظلموا طوائف حياتهم ياتقون ويكذبون ويصلون ما يعصب الله .

(١) أخرجه الترمذي في سننه

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والسنائي وابن ماجه

إذن فهناك مهمة في الحياة قد يؤديها المجنون ولا يؤديها العاقل ، لأن بعض الناس يعتقد أنه إذا سلب الله أحد البشر شيئاً فإنه يميزه الآخرين ، تقول : لا ، لأن عدل الله يأتي إلا أن يعوضه ، وبذلك تجد من فقد عييه يجعل الله عروجل عيون الناس في خدمته ، هذا يأخذ بيده ؛ وهذا يقوده في الطريق ، وهذا يحضر له لطعام وإشراب ، وهذا يسقيه ... إلخ

وإن كان الإنسان أعمى مثلاً ، تجد مد يماونه ، وهذا يأخذه معه في سيارته ، وقد تقف له سياره أجره تأخذه إلى حيث يريد . بينما يقضي أسليم الساعات يبحث عن سيارة الأجرة بلا فائدة . بل ، نك ، ان نظرت إلى الفقير تجد أن الله قد جعل له عدداً من الأغنياء في خدمته ، فعلى من يحرث ويعزق ويعطيه الله خير الرعاة ليعيه ويعبص منه على الفقير ، وأخر يصنع ويتعب ويشقى ليعطى بعضاً من دخله للفقير ، بل إنه يشقى مرة أخرى ليعثر على لفقير حقاً ليعطيه بعضاً من ماله ، والفقير بالفعل يستحق أن يأخذ شريطة ألا يكون مدعي للفقير . فما دام قد قبل حكم الله بالقر والعجز ، يوضع له ربه . لقد رضيت بأنى أعجزتك ، فخذ من قدرة الأغنياء ما يعينك في حياتك ، وهذا مُلْكٌ كَوْنِي له نظام ، وأقول ذلك حتى نهم أن العبي والفقير ، والصحة والمرص ، والقوة والضعف ، إنما هي أعمار ، ولذلك لا أحد يضمن غنة ، وعلى الواحد ما إن كان قادراً أن يعطى الفقير حتى إذا ضاع منا المال وجدنا من يعطين ، وأن يساعد المريض ، حتى إذا مرضنا وجدنا من يساعدنا ، وأن تكون في خدمة لناس وقت شدتهم حتى يكونوا في خدمتنا وقت شدتنا . وفي نفس الوقت حين نرى من حرمه الله من الصريح علينا أن شكر نعمة الله علينا ، ولورأينا إنساناً يعاني في مشيه تسها إلى نعمة الله في أن أعطانا قدرة المشي .

وهكذا فالإنسان لا يفتنه إلى النعمة إلا إذا رأى من هو محروم منها وكذلك أراد الحق أن يرصى كل دى آفة قبل آفته ولم يهرد عيها ؛ لذلك يعيض عليه بالخير .

إذن فكل إنسان أسلم يستفيد من الإسلام حتى العبي والمجنون استمدا من

الإسلام ، وبذلك فلا بد أن ترد التحية لمن تلقاها هذا المنهج الذي أعطاه الحجة ،
فنقرأ المنهج ونعمل به .

وحيث يستقرىء حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بجده يرد جميل كل من
ساعده ، ومثال ذلك حليلة السعدية التي نالت شرف إرضاعه صلى الله عليه وسلم
وهو صغير ، ثم أكرمها الرسول هي وأسرته بعد أن صار بها

ثم ألم يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى لطائف ليطلب البصير له في
تبليغ الدعوة بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ووماء عمه أبي طالب ، وعز عليه الصبر
ومكر في العودة إلى مكة ، والنفس من يجبره حين يدخلها فأجاره واحد من الكفار هو
المطعم بن عدي ، فإذا كان كافراً قد أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدعو
لحاربة الكفر ، أفلا نجبر واحداً من الكفار لرد التحية بخير منها ؟

وإذا كان واحد من الكفار قد أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة فلا بد
أن يرد المؤمنون كلهم التحية بأن يجيروا من يستجير بهم من الكفار . وبعد أن يجير
المسلمون من استجد بهم من الكفار على أن يسمعوه كلام الله . وبعد ذلك هناك
أحد أمرين إما أن يعلن الكافر للإيمان ، وفي هذه الحالة أصبح من المؤمنين ، وإما أن
يصر على كفره وعناده ، وفي هذه الحالة يصح على المسلمين مسئولية أن يلغوه مأمرة ،
وبذلك بأن يساعدوه على الوصول إلى المكان الذي يصح أمارة فيه على نفسه وماله ،
وبعد أن يلغ مأمرة ويسمع كلام الله فليس على المسلمين أن يطلقوا سراجه كما كان
الأمر من قبل : ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة ٥٠]

لا ، بل على المسلمين أن يلغوه مأمرة ، ثم يفتنون فيه حكم الله إما أسراً ، وإما
حصاراً ، أو قتلاً ؛ حسب الحكم الصادر من الله . وعنه تأمير الكافر في أنه من قوم لا
يعلمون حسبها قال الله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

إذن فالإيمان ليس بالعطرة فقط ؛ لأن العلم له وسائل كثيرة ؛ علم بالعطرة ، وعلم بالاكساب ، ومرة تكون أداة لعدم الأدب ، ومرة بدلين ، ومرة بالعقل ، والمعلومات كلها نشأ عند الإنسان إما بالأذن عما يسمع ، وإما بالعين بما يرى ، ثم بعد ذلك تستقر المعاني في نفس الإنسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨]

وهكذا حدد لنا القرآن الكريم وسائل العلم بالسمع والبصر ، فإذا استقرت هذه المعلومات في الفؤاد ، لأنه الذي يحفظ كل القضايا العقلية والعكرية ، وإذا كان الإنسان يسمع ولا يفقه شيئاً فهو لا يعلم .

إذن فالمستجير جاء يطلب وسائل العلم وأدلة الإيمان ؛ وعنده أنه لا يعلم .
وعيناً أن نحسن النظر وأن نعلم المستجير طالب علم بالحقيقة ، ويريد أن يأخذ أدلة الإيمان .

ثم يعود الحق سبحانه وتعالى إلى مسألة لعهد فيقول .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ
اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْرَأَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا
لَهُمْ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ٧

أي لقد جرت مع اليهود مع التركين ، وفي كل مرة يعاهدوكم ينقضون عهدهم ، وقد نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاهدة الحديبية ، إذن فالله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أننا يجب ألا نأمن لليهود المشركين لأنهم لا يحفظون

العهد ولكنهم ينقضونه ، وعلى ذلك فعلة نقض العهد أنهم لم يستقيموا للعهد من قبل . ويكون بقاء العهد هو الأمر العجيب

و«كيف» هنا للاستفهام عن الحالة ، يقال . كيف حالك ؟ تقول : بخير والحمد لله . إذن فـ «كيف» يُسأل بها عن الحال ، والحال قد يكون عاما ، أي كيف حالك وحسن أسرتك وأولادك ومعيشتك إلى آخره ، وقد يكون خاصا أن تسأل عن مريض فتقول : كيف حال فلان ؟ . فيقال : شفى والحمد لله . أو تسأل عن معسر فتقول كيف حاله ؟ فيقال : فرح الله ضائقته أو تسأل عن ابن ترك البيت هرباً فيقال : عدد والحمد لله

إذن فـ «كيف» إن أطلقت تكون عامة ، وإن حصصت تكون خاصة ، ولكنها تُطبق مرة ولا يراد بها الاستفهام ، بل يراد بها التعجب ؛ إما تعجب من القبح ، وإما تعجب من الحسن . كأن يقال لك . كيف سب فلان أباه ؟ هنا تعجب من القبح لأن ما حدث شيء قبيح ما كان يصح أن يحدث . وتأتي لإنسان اختراع اختراعاً هائلاً وتقول : كيف وصلت إلى هذا الاختراع ؟ وهذا تعجب من الحسن والتعجب من القبح يكون تعجب إنكار والتعجب من الحسن يكون تعجب استحسان كأن تقول : كيف بيت هذا المسجد ؟ وفي هذه الآية الكريمة يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ (التوبة : ١٧)

وهذا تعجب من أن يكون للمشركين شيء اسمه عهد ؛ لأنهم لا يعرفون . لأنقض العهد ، ولا يتمسكون بالعهود ولا يحترمونها ، إذن يحق التعجب من أن يكون هم عهد بيننا في الحقيقة لأعهد لهم

وهذا التعجب للاستهزاء والإنكار ، فأنت مثلاً إذا جاء أحد يهددك ، فقلت له . من أنت حتى تهديدني ؟ يكون هذا استهزاء واستكثاراً لأنك تعرفه ، وأيضاً تستهزئ أن يملك القدرة على أن ينفذ تهديده لك . ومرة تكون استفهاماً حقيقياً ، كأن تسأل إنساناً لا تعرفه من أنت ؟ فيقول لك : أنا فلان بن فلان وأحياناً تكون الإجابة عن الكيفية بالكلام ، وأحياناً لا ينتمى الكلام فلا بد أن يجاب بالفعل .

واقرا قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

كيف هذه تحمل معنى التعجب الاستحسانى؛ لأنك إذا بعثت الحياة من لا حياة فيه؟ وهذه مسألة عجيبة تستوجب الاستحسان. ولم يجب سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم باللفظ، بل أجاب بنجربة عملية، ودار حوار بين الحق سبحانه وتعالى وحبيه إبراهيم عليه السلام فسأله المولى سبحانه ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

رد إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى أرى يا رب أمست، وأصاف القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ رَلِكْى لِيُظْمِنُ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

والإيمان هو اطمئنان القلب، فكيف يقول إبراهيم: أمست؟ أليس فى ذلك تناقض؟ وأقول: إن إبراهيم واثق من أن الله سبحانه خلق الكون كله ولكنه يريد أن يعرف كيفية الإحياء وكيف يحدث، حيثند لم يحج الحق سبحانه وتعالى بالكلام، بل أراه بنجربة عملية، هذا له.

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى عليك أن تحضر أربعة طيور وتصحبها إليك وتؤكد من شكلها حتى إذا ماتت وأحييت تكون متأكدا من أنها هى نفس الطير

﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُورًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَادْعُهُنَّ أَذِّنَ السَّمَاءِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى تطلع هذه الطيور بنفسك، وضع على كل جبل قطعة، وبعد ذلك ادعها أنت بأنت معية أى منسأ، حتى لا يغفل [بها طور قد جاءت من مكان آخر، بل تجيئت نفس الطيور سيرا، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعطى القدرة لمخلوق عندما يستدعى الميت أن يأتيه حيا، فما بالك بقدرة الله عز وجل؟

إِذْ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٧]

وهذا استعظام للإنكار واستعجاب من أن المشركين ليس لهم عهد، بل ثمودوا ونعودوا دائماً على نقص العهد ثم يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]

أى أن الله عز وجل وهو يخير المؤمنين بأن هؤلاء الكفار لأعهد لهم، لا يطلب المؤمنين أن يواجهوا مشركين بل، بل يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يحفظوا على العهد مادام الكافرون يحافظون عليه، إلى أن يبدأ الكافرون في نقض العهد وهذا يلزم سبحانه المؤمنين أن يقابلوا ذلك بنقض مماثل وهذا ما يفسره قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]

والمتقى هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ويجعل بينه وبين صفات الخلال من الله وقاية، إذن الأساس التقوى هو ألا ينقض المؤمن عهداً سواء مع مؤمن أم مع كافر، وبما الذى يبدأ بنقض هو الكافر، وعلى المؤمن أن يحترم العهد والوعد ويقول الحق ببارك وتعالى من بعد ذلك.

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا
فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأَنَّى
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

ملاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل كيف يكون للمشركين عهد، بل اكنى «كيف»، لأن عدوهم صار معروفاً، وكانت «كيف» الأولى استمهاما عن أمر مضى

والتأؤل ها بوضع ل أنهم سيخونون العهد دني، كي فعلوا في الماضي، فكان الذي
يجري الماضي يجرب أيضاً عن المستقبل ويعلم ما يكون منهم ويتاح المولى سبحانه
ويعان قوته ﴿ وإن يظهرُوا عليكم ﴾ [توبة ٨]

ومعنى يظهرُوا، أى يتمكنوا منكم، وهم ي تمكنوا من المؤمنين لا يرقبون فيهم إلا
ولا دقة، وهرب من الرقيب الذي يراقب، لأشياء إذن فهم لا يراقبون بمعنى لا
يراعون، أى أنهم لو تمكنوا من المؤمنين لا يراعون دمة ولا عهد ولا ميثاقاً، بل يسيحون
كل شيء وهذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عما في نفوس هؤلاء الكفار من حقد على
المؤمنين.

وبلاحظ أن كلمة «يرقبون» عي «يظرون»، وعبر «يصرون»، وهى أَيْص عبر
«يلمحون» وعبر «يرقبون»، مع أنها كلها تؤدي معنى الرؤية بالعين، ولكن يرقب تعنى
يتأمل ويتمحصر بهتمام حتى لا تفرط حركة، لذلك إذا قلنا إن فلاناً يرقب فلاناً، أى
لا تفرط حركة من حركاته وهو ينظر لكل حركة تصدر منه، أما كلمة «نظر» فتعنى رأى
بجمع عييه، وكلمة «لمح» تعنى رأى مؤخر عييه، و«رقى» أى رأى من أعلى. وقول
سبحانه وتعالى «لا يرفوا منكم إلا ولا دقة» يعنى لا يراعون فيكم عهداً، ولا يجمع الواحد
منهم دارع من أن يفعل أى شيء مما كان فسحاً والمثل: أن يرفع الرجل القوى يده
ليضرب طفلاً صغيراً لا يتحمل صرته، ها يمسك أحدهم بيده ويطلب منه أن يراعى
أن العطف صغير لا يتحمل الضرب، وأنه ابن فلان قريبه، وأهم جيرانه فلا يراعى هذا
كله وإنما ينهال على العطف صريباً.

وقوله سبحانه وتعالى - «إلا» هى فى الأصل اللمعان أى لريق، وإلا» أيضاً هى
الصوت العالي، واللمعان والصوت العالي لافتان لوساثل الإعلام الحسية، وهى الأدن
والعين، والإنسان إذا عاهد عهداً فهذا العهد يصح أمراً وصحاً أمامه يلفت عيونه كما
يلفتها الشيء اللامع، ويلفت أدبه كما يلفتها الصوت العالي، وتسمى العهد والكلام
«إلا» لأنه معلوم بالعين والأذن.

هذا هو المعنى العلوى، لكن المعنى الاصطلاحي لكلمة «إلا» هو العصب، بأن تشد

شيئا كالك تعصبه على عدم الالتصاق بشيء آخر، ولذلك سُمي سلخ جند الشاة غصياً لأن اللحم ملتصق بالحلدة، وسُمي أحد المال غصياً، لأن صاحب المال متمسك به، غصك الشاة الحية بجلدها. وإذا أُطبق الغصب في الغف لا ينصرف إلى المعنى المعري وهو اللمعان والصوت العالي، ولعلها في هذا المعنى أكثر من رؤية، وكل واحد منهم أحد نقطه من الدال «وأصله اللمعان، أل . يؤل . إلأ، بمعنى منع . يلمع . لمعاً وإن إل» أيضاً هو الصوت العالي، وقال ابن عباس والصحيح رضى الله عنها: إن «إلأ» هي القرابة، لأن القرابة سبب للتراحم، فأت يعر عليك أن تحون قريباً لك، لأن القرابة لا تحتاج إلى عهد، وقيل إن «إلأ» هي العهد.

وقال سيدنا الحسن، إن «إلأ» هي الجوار وما يوجبه من حقوقه وقال قتادة: إن «إلأ» هي الحلف والتحالف وقال أبو عميرة: إن «إلأ» هو اليمين أو القسم.

والمعنى كلها نلغنا إلى وجود نوع من التراحم، بحيث لا تملك الإنسان العسوة أو افعالات الانفعال، وسجعل الإنسان لنفسه من يقول له «اهدأ إن حارك أو من قوم بينهم وبين من تعاهدون صلة قرابة»؛ لأن الذي يجعن الإنسان لا يحيل إلى الشر ولا يستثري فيه ساعة يحمره الأمر، هو مراعاة لملاسات كلها، وهكذا يتدخل الخوار، ولكن قد توجد قرابة أو عهد أو قسم أو جوار لينع الطش بقرة، أي إن «إلأ» هو الأمر الذي يسمع الرد بقسوة على شيء قد يكون وقع خطأ والمعنى أيضاً هو عدم احترام لكل الميم؛ عدم احترام للقرابة أو الجوار أو العهد أو القسم، فإذا تمكن رجس قوى من طفل صغير لم يراع فيه أي من هذه الأشياء.

ويريد الحق أن نعلم أن المشركين إذا شكروا من المؤمنين فهم لا يراعون عيهم قرابة ولا عهداً ولا حلفاً ولا جواراً ولا قسماً ولا أي شيء. إذن وكيف يكون للمشركين عهد؟ وهم إن تمكنوا من المؤمنين لا يراعون فيهم شيئاً أبداً.

ثم يضيف الحق سبحانه وتعالى قوله:

﴿ وَلَا ذِمَّةٌ ﴾

[التوبة . ٨]

والذمة هي الوفاء بالامانة التي ليس عليها إيصال ولا شهود، فإذا اقترص واحد

مبعاً من شخص آخر وكتب إيصالاً عليه بذلك المسخ، فهذا الإيصال هو الصانع
للسداد، وكذلك إن كان هناك شهود فشهادتهم بصر الحق لصاحبه ولكن إن لم تكن
هناك إيصال ولا شهود، يصبح الأمر موكولاً إلى دمة المقترض، إن شاء هذا المدين
اعترف بالمقرض، وإن شاء أنكره، وهناك دمة أخرى هي أسى بيك وبين نفسك،
والثاني على ذلك قد تعاهد نفسك بأن تعطى فلاناً كل شهر مبلغاً من المال، وهذا أمر
ليس فيه عهد مكتوب أو شهود لكنه مزكك بذمتك، إن شئت فعلته، وإن شئت لم
تفعله وما في الدمة - إذن - هو شيء إن لم تفعله يُفَضَح، مثال ذلك: أن تقر ببيك وبين
نفسك أن تساعد أسرة ما، وهذا أمر حاصص لإرادتك، فلا عهد يجرى على ذلك ولا
قرابة ولا جواره لأشياء إلا دمتك، ولذلك فأت تراعى الوفاء بما وعدت نفسك به
لتحافظ على سمعتك ورؤية الغير لك، وكذلك أيضاً حين تأخذ ديةً لا إيصال منك
أو شهود عليك، ولكنك تموص على أن تردده لأنه في ذمتك.

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَيْكُمْ أَنْ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرِضُوكُمْ بَاطِرًا عَلَيْهِمْ
وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَكَثَرُهُمْ فَأَسْفُورُ ﴾ (٨)

وهكذا يعرف أن «كيف» هنا تعجب من أن يكون للمشركين الآن أو المستقبل
عهد لأنهم يمزقون نصوص العهد ويؤثرون من المؤمنين فهم يكتلون بهم أنشع تنكيل
دون مراعاة لأي اعتبار، وقد يقول قائل: إنهم معاً على أحسن ما يكون؛ شائقة وحة
وحسن استعمال إلى آخره، فكيف إذا تمكوا ما انقلوا إلى وحوش لا رحم؟ ونقول إن
الله سبحانه وتعالى يعلم ما يظهر وما يخفى، وقد علم ما يدور في خواطر المؤمنين فرد
عليهم حتى لا يترأ هذه الأشياء معلقة داخل قلوبهم، ولذلك يريد سبحانه وتعالى
عن هذا الحظارة:

﴿ يَرِضُوكُمْ بَاطِرًا عَلَيْهِمْ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَكَثَرُهُمْ فَأَسْفُورُ ﴾

أي أن الله عز وجل يسه المؤمنين ويخصهم ألا يصدقوا بغيره التي يرونها أمامهم من
المشركين؛ لأنها ليست الحقيقة، بل هو خداع وهوى؛ فهم يقولون القول الحسن،

ويقابلونك بوجه مشوش والماظ نعمة، لكن قلربهم مليئة بالحق قد عليكم أنبا المسلمون بحيث إذا تمكسوا مككم تظهر مشاعرهم الحقيقية من البغض الشديد والمداوة، ولا يرقبون لركم إلا ولادقه، فإذا دل الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَرْضَوْنَكُمْ بِأَهْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨]

فعلى المؤمن أن يصدق ما جاء من الحق، ويكنشعوا أن اللسان الحلو وحسن الاستقبال ليس إلا جداع، من هؤلاء الأعداء، وهو سبحانه هذا الكشف إنما يعطيا مشاعة بالأسخديع بما براه عن وجوههم؛ فهذا مجرد أمر استقبالي، لا يمثل ما ضيماً أو حاصراً، وحين يدم سبحانه وتعالى أمراً استقبالي فهو يجبره عبادة المؤمنين، ولذلك عبده سبحانه وتعالى يرد نفس الأسلوب على هذه الخواطر والمثل: في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا لِمَشْرِكُونَ يَحْسُ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة: ٢٨]

والبلاغ قد سى عن دخول المشركين المسجد الحرام أو اقترابهم منه، ومن الطبعي أن تدور أحوال طرهن في موسم عدد من المؤمنين الذين يستفيدون من المشركين في موسم الحج، لأنهم أسمة تعيش على اقتصاد الحج، حيث يبيعون السلع هؤلاء القوم ليكسبوا قوت العام، فإذا ماتم مع المشركين من الحج أو الاقتراب من المسجد الحرام، من أين يأسي الرزق الذي يحصلون عليه من البيع هم؟ ولا بد أن يمكروا مؤمنون؛ من أين سأكر؟ نحن نحصر بصاعتنا وننظر طوال الموسم حتى الحج؛ فإذا بعض عدد الخجاج فلمن نبيع؟

فرد الله سبحانه وتعالى على هذه الخواطر بقوله تعالى

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْبَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [التوبة: ٢٨]

أي لا تخافوا لفقر، لأن الله يعلم ما سوف يحدث، والله هو المعى وعنده مقاتيح كل شىء وسوف يغنيكم من فضله ويعتج لكم باب الرزق مما يعرضكم وريادة. وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى على الخواطر التي تدور في نفس المؤمن مسعدة برول القرآن؛ حتى

تطمئن قلوب ونفوس المؤمنين فيقول عز وجل:

﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِالْأَوْثَرِ هُمْ وَقَاتْنِي أَلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨]

وفي هذا القول رد على الخطا طر التي دارت في نفوس المؤمنين: وهم يرون المشركين يستقبلونهم بالاعطاف عمة ورجوه تملؤها الشائشة، فأوضح لهم الحق سبحانه وتعالى: لا تتحدوا عواقيم في القلوب عكس ما هو على الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٠]

يبين أنهم بعيدون عن المنهج، فالفسق هو الخروج عن الطاعة، وهل الكفر والمناق له طاعة؟

نقول: إنك إن نظرت هؤلاء تجدهم حارجين حتى عن المنهج الذي اتخذهوا لأنفسهم، فهم لا يلتزمون بمنهج الباطل الذي يعتقونه، إذن فهم فاسقون حتى في المنهج الذي يتسبون إليه، فإذا كانوا كذلك مع منهج الباطل، فكيف بهم مع منهج الحق؟

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يوضح بأنه قد تكون هناك فئة مدمرة، وهذا احتياط قرآني جميل، كما أنها ردت على السؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن أن هؤلاء كفرون - وليس بعد الكفر حبس - فكيف يقال إنهم فاسقون أي عاصون أو خارجون عن الطاعة وهم غير مؤمنين أصلاً؟

نعون: إنهم حارجون حتى عن منهج الكفر التي اختاروها لأنفسهم، ولذلك يبين الله سبحانه وتعالى وضعهم حين يقول

﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَصَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وهكذا يرى الله عز وجل انقلاب المعايير صدهم، فما اشراء؟ الشراء هو الحصول

عن سلعة مقدس نفس، فإذا قلت: اشتريت ساعة مثلاً، تكون أنت المشتري ما دمت تدفع الثمن، والذي أخذ الثمن هو تاجر، وهذا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمناً قَلِيلاً﴾ [التوبة ١٦]

ركان المروءة - إذن - أن يكونوا قد دفعوا الثمن، لأن المشتري هو الذي يدفع الثمن، ولكن هنا عكست القضية؛ فبعض الحق سبحانه وتعالى الثمن هو ما يشتريه، مع أن الثمن هو الذي يدفع، فتكون القضية مخدعة بواقع البيع والشراء، والذي يجب أن نلاحظه أيضاً هو أن الثمن يساوي لسلعة. فأنت تأخذ السلعة وتعطي للتاجر ثماً يساويها، لأن ثمن كل شيء يجب أن يكون مماثلاً له، فإذا اشتريت شيئاً بسيطاً دفعت له ثماً بسيطاً، وإذا اشتريت شيئاً ثميناً دفعت فيه ثماً عالياً

هذا كله مدحوظ حتى في الأعمال، وقد تكبر عن برعون في مشاكسة الغير، وقد نجد من يشاكس غيره؛ يطلب من أحد أناسه أن يسب فلاساً ويعطيه عشرة جنيهات، فإذا أراد أن يجعل التاجر يصرب خصمه، يقول له: اصرب وأعطيك خمسين، وإن أراد أن يقتل التاجر خصمه فهو يعطيه الألوف من الجنيهات، وعالياً ما يقول هؤلاء الذين بلا إيمان: كل دمة قابلة للتصهار بالذهب، لكن اختلف قيمة هو الكمية التي تصهر أي دمة، هناك من تصهر دمه برباط، وآخر تصهر دمه بعشرين أو ثلاثين، وهناك من تصهر دمه بملايين

ولعلنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن هؤلاء الكفار قد حولوا الإيمان إلى سلعة تباع وتشتري، فهم قد دعوا إيمانهم، وبدلاً من أن يتفاضلوا عنه ما يساوي الإيمان والإيمان أغلى من كسر الذهب كلها؛ بدعوا إيمانهم بشئ قليل، أي أنهم حتى لم يقدموا قيمة الإيمان بما عووه رخيصة. كيف دعوا الإيمان بنعم رخيص؟

نقول مثلاً: إن الذي يرتشي بعمل ذلك ويريد أن يبرح ميران الحق، والذي يغير ميران الحق يشكك الناس في العدالة، وإذا شك الناس في العدالة؛ فقدوا مسدهم الأمتى؛ لأن كل مظلوم أملة أن يرفع الأمر للقضاء فيصممه، لو أن يرفع أمره للمسؤول فيعطيه حقه، فإذا أحسن الناس بأن الحق قد صاغ نتيجة أنه أصبح هناك ثمن للإيمان

وإن دمع اختلت الموازين، في هذه الحالة يعد المجتمع كله، فكأنهم باعوا فساد المجتمع كله بثمن قليل جداً

كما أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الحساب يوم القيامة؛ وكيف أن المؤمنين سيخلدون في الجنة ويعملون بها لأعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عن قلب بشر، وسيدخل هؤلاء الكافرون النار وبذلك يكونون قد باعوا إيمانهم مقابل ثمن رخيص، منها كان المال الذي سيحصلون عليه؛ لأن مال الدنيا كلها لا يساوي يوماً في الجنة؛ لأن الدنيا موقوتة بزمان، ومتعتها محدودة وقليل، فكأنهم باعوا الجلود في النعم بمتعة وقته، قد لا تستمر إلا أياماً أو سنوات. وحينئذ يعرف الكافرون أن الثمن الذي تقاضوه قليل جداً بالنسبة لما خسروه. وليتهم جعلوا الإيمان ثمناً يدفعونه للحصول على منافع قليل في الدنيا، ولكنهم زادوا على ذلك أنهم صدوا عن سبيل الله.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا لَّعَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [التوبة: ١٠]

والصد يحدث حين تكون هناك دعوة معروضة بأدبتها تمنع الناس من أن يستمعوا إليها، لأنك تعرف أنهم لو سمعوها لاعتنقوها واقتنعوا بها، ولذلك يجد الكفار مثلاً حين نزل القرآن والعرب أمة بدلالة وأمة بيان؛ عرفوا أنه لو سمع الناس القرآن لأحسوا بإعجازة وبلاغته وحلاوته ولأمنوا به، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن أنفسهم في القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَنُفُوًا فِيهِ نَعْبُدُكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٢٦) [فصلت أ]

لأن الكفار يعرفون أن الناس لو استمعوا للقرآن لآمنوا به، ولذلك فهم ينهونهم عن السماع، وإن قرأ أحد القرآن بأمرهم بعضهم البعض بالغرق حتى لا يسمع شيئاً، وهذه شهادة من الكفار بأن الأدلة لو استقبلت للقرآن لآمنت، واللغو هو نوع من الصد عن سبيل الله، وكان هناك نوع آخر من الصد عن سبيل الله أنهم كانوا يسمعون الناس من الاستماع إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم يعرفون أن حلالة الدعوة سيسجل من يسمع إلى دعوة الرسول يؤمن بها، ولذلك فهم يصدون الناس عن

كلام الله تعالى وعن الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يقولون لأهل الحجيج: لا تصدقوا الرجل الذي يقول إنه نبي، وهذه شهادة منهم أن الآذان لم تستقبلت القرآن لسحت أفتدعهم إلى الإيمان، وهذه شهادة صدهم وليست لهم؛ لأنهم وانصروا أن سماع الحجيج لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستهدمهم عن الكفر؛ لذلك كانوا يحافون من أن يتأثر الناس بهذا النبي الذي هو دين الحق فيومسوا به وهذا ما جعلهم يصلونهم عنه

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٩]

وساء أي قبح، وليس هو قبح الآن فقط، ولكنه قبح حالياً وعظمت العقوبة عنه مستقبلاً.

وقوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٩]

يريد أدقة القرآن الكريم في أن السوء مهم ليس عملاً واحداً ولكنه أعمال متعددة؛ قول وفعل، أي هم يصدون الناس بالكلام ويمنعونهم باستخدام لقوة في بعض الأحيان. وباستخدام الحق لكلمة «يعملون»؛ يفت إلى أن أهمهم ليست قولاً وليست فعلاً فقط، فهناك القول وهناك الفعل وكلاهما عمل؛ القول عمل اللسان، والفعل عمل الحوارج. فلو قال الحق: ساء ما كانوا يفعلون؛ لقلنا فعلوا ولم يقولوا. ولو قال: ساء ما كانوا يقولون؛ لقلنا قالوا ولم يفعلوا. وسبحانه أوضح لنا أن القول والفعل كلاهما عمل؛ وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصف: ١]

ليبين لنا أن هناك فرقاً بين القول والفعل؛ القول أداته اللسان، والفعل أداته بقية الحوارج، والمعنى في قوله تعالى: «لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ» أي ساء قولهم وفعلهم.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى ويقول :

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَايَمَةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُّونَ﴾

ومن لا يرقب إلا ولاة في غيره إنما يظلمه، وإذا كان يسيء إليك قرابة، أو عهد، أو إيمان، فإن لم ترع ذلك تكون قد اعتديت على حقوقك، وليت ذلك قد اقتضت في الاعتداء على حقوق الغير لكك - أيضا - اعتديت على نفسك، لأنك أعطيتها متاعاً قبيلاً في الدنيا، وتصل في الآخرة ناراً، من فقد ظلمت نفسك ولدنك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا ظَالِمًا أَهَشَتْهُ أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران، ١٢٥] ويقول سبحانه وتعالى

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الدحل ١٠٨]

وأليس الذي فعل فاحشة، يظلم نفسه؟ بل، ظلمها في الآخرة بعد أن أعطاه شهرة في الدنيا، أي أنه أخذ متعة عاجلة بعد أن آجل. لكن الذي يظلم نفسه ظلم شديداً وشئاً هو الذي يرتكب إثماً دون أن يأخذ متعة في الدنيا، فلا هو أخذ متعة دنيا ولا أخذ متعة آخرة، مثل الذي يتطوع لشهادة الرور، هو يأخذ عذاباً في الآخرة ولم يأخذ متعة في الدنيا.

وقد يقول قائل: إن هذه الآية مكررة لأن الله تعالى قال من قبل :

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وِلَايَمَةً﴾ [التوبة ٢٨]

ويقول إن الموضوع يختلف، ففي الآية الثامنة من سورة التوبة يبين الحق أنهم إن تمكنوا من المؤمنين هل يراعوا قرابة ولا حواراً ولا حلفاً، وإن أظهروا عكس ذلك، أما في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها فهم يظلمون أنفسهم ويسعون إيمانهم بشئ فليس، وهناك فرق بين ظلم الغير وظلم النفس

وهم في صددهم عن سبيل الله تعالى وهذواهم على المؤمنين، لم يحصلوا على فائدة دنيوية، بل حاربوا للإيمان وحاربوا الدين فأعدوا الإثم ولم يستفيدوا شيئاً، فكأنهم لا يرقبون إلا ولادة حتى مع أنفسهم. ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بأنهم هم المعتدون؛ لأنهم دون أن يحتسبوا عليهم تطوعوا بالعدوان على دين الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ثم قاموا بالعدوان على أنفسهم. ومن بعد ذلك تأتي رحمة الله لترياً كيف أن الله تعالى رحيم بعباده وخفيق، فالحق سبحانه وتعالى يجزيها بأنهم مهما فعلوا فإن ما يراهم الله توبتهم، لذلك يقول الحق جل جلاله.

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾



وهذه الآية الكريمة تؤكد لنا أن الإسلام يثبت ما قبله، وأن الباب مفتوح دائماً لتوبة المخترين والكافرين مهما كانت دنوسهم، وهكذا تكون رحمة الله تعالى. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال «فإن تابوا» ولم يقل «إذا تابوا»، لأنه لو قال: «إذا تابوا» لكان توبتهم مؤكدة، ولكن قوله: «فإن تابوا» فيها شئ، لأن ما فعلوه ضد الإيمان كثير، والذي تأمله فيهم قليل، ولكن التوبة تفترض أن يباشر التائب بعد ما مهمته الإيمانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ التوبة : ١١٠

إذن فالمهمة الإيمانية بعد التوبة بما تكون بشهادته أن «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وبطبيعة الحال لا بد من مباشرة الصلاة لأنها تجمع كل أركان الإسلام، وهي عمل يومي، وليست عملاً مطلوباً من الإنسان مرة واحدة كالخروج، وليست كالصوم، فالصوم مدته شهر واحد من السنة إذ لا يمكن تأكد التوبة مالم لا يؤدي التائب الصلاة في وقتها كل يوم فهي العمل اليومي الذي لا يزول ولا يأنقض عن وقته، والصلاة قرنت

عالمياً بالزكاة في آيات القرآن الكريم؛ لأن الزكاة تصحية بالمال، والمال ناتج العمل، والعمل ناتج الوقت، والصلاة تصحية بالوقت، فكان الصلاة - كما قلنا - فيها زكاة.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفْعِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١١﴾ [التوبة]

إنه لا بد أن نلاحظ في التعصیل هنا المراحل الإيمانية التي بينها الله عز وجل لنا، المرحلة الأولى وهي تحمل الاضطهاد والصبر، والمرحلة الثانية أنه لامهادنة بين الإيماني والكفر، وهذه حتمت محاولة الكفار تميع قضية الإيماني بأن نعيد الحكم فترة وتعبدون لهم فترة، وكانت هذه عملية مرفوضة تماماً الآن وفي المستقبل وحتى قيم الساعة، ثم جاءت مرحلة المعاهدات ثم يقصص لجهود ثم مهلة الأشهر الأربعة الحرم التي أعطيت لكافرين. وكل هذه مسائل مؤقتة، ولم تكن الأمة العربية تعرف التفتينات.

بعد فكل هذه التفتينات جاءت من السماء، والتفتينات في الأمم تأخذ أدواراً طويلة، ولا يوجد قانون بشري يولد سليماً وكاملاً، بل كل قانون يوضع ثم تظهر به عيوب في التطبيق، فيعدل ويطور ويفسر ويحتاج إلى أساطين القانون الذين يقصرون عمرهم كله في التعديلات والتفصيلات، فكيف ترتب هذه الأمة العربية الأمية التي لم يكن لها حظ من علم ولا ثقافة كل هذه التفتينات؟

يقول: إنما لم ترتب، وإنما رتب لها رب الذي أحاط بكل شيء علماً، فكل هذه المراحل التي مر بها الإيماني نزلت فيها تفتينات من السماء تبين للمؤمنين ما يجب أن يصعدوا.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]

ونحن عادة نعرف أخوة النسب، فهذا أخى من أبى وأُمى، أو هذا أخى من الأب فقط، أو هذا من الأم فقط، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٥٨]

هذه أخوة النسب، ونحن نعلم أن مادة الأخوة تأتي مرة لتعبر عن أخوة النسب،

وتأتى مرة كلمة «إخوان» لتعبر عن الأخوة في المذهب والعقيدة، وثناء الحق سبحانه وتعالى أن يرفع الإيثار إلى مرتبة النسب، فقال عز وجل

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الخجرات : ١٠)

ليدل على أنهم ما داموا قد دخلوا معن في حظيرة الإيمان عليهم علينا حق أخوة النسب فيما يوحد من نواد وترحم، وترمط وحمية بعضهم البعض دائماً، وحب ووفاء إلى آخر ما نعرفه عن حقوق الأخوة بالنسب ولكن لاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قل:

﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ (التوبة : ١١)
ولم يقل إخوانكم، بأداة؟.

نقول: ليس من المعقول أن يجرحوا من كل ما كانوا فيه من آدم بالتوبة، ثم يصحوا في نفس السوء واللحظة إخوة، لكن ذلك يحدث عندما يتعمق إيمانهم، ويثبت صدق توبتهم حيثئذ يصحون إخوة

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَعَصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة : ١١)
كيف يكون استعصيل لمن يعلم؟ وما دام يعلم فلماذا استعصم؟.

ونقول: إن المعنى هـ أب الله سبحانه وتعالى يعصّل الآيات لمن يريدون أن يعلموا العلم الحقيقي الذي يأتي من الله، لأن هذا العلم له أثر كبير على مستقبل الإيمان، ولذلك فعبر المسلمين الذين يهتمون بدراسة الدين الإسلامي دراسة جادة للبحث عن العلم الحقيقي ينتهز إلى إعلان إسلامهم، لأنهم ما داموا أهل علم وأهل مواهب وأهل طموح في قلوبهم، وما دامت شهرة العلم قد علتهم، وبادوا أن يدرسوا مذهب الإسلام بموضوعية، لذلك تحمدهم يعلمون الإسلام لأنهم يطربون الطرة الحقيقية للدين الذي يدرسون، وهم يأخذون الإسلام من مبعده الإيماني وهو القرآن الكريم وأنسنة السوية، ولا يأخذون الإسلام من المسربين للإسلام، أي من المسلمين؛ لأن المسلمين قد يكون بينهم عاص، وقد يكون منهم سارق، وقد يكون فيهم مُرتش، وقد يكون فيهم كذاب وقد يكون فيهم مذهب، ولما أخذوا الإسلام من المسلمين لصلوا ما هذا؟ معصية وسرقة وكذب ورسوة وبعاق؟!

إننى أقول دتماً من لم يدرس الإسلام من أهل البلاد الأخرى: لا تنظروا إلى المسيئين للإسلام، ولكن نظروا إلى الإسلام في جوهره ومنهجه (القرآن والسنة)؛ هل جرم الرشوة والسرقة والكذب والنفاق وجعلها عقوبة أو لا؟ نعم جرّمها.

إذن فهذه الأفعال كلها التي وجدت في عدد من المسلمين واستكرها ليست من الإسلام في شيء، ولكنك إذا ذهبت إلى الإسلام لتعرفه من منابعه انعميه وهي معزولة عن المسيئين إليه لا تهتبت إلى الإيذان.

ولذلك لو عرف المسلمون الذين يحرفون عن المنهج، ماذا يفعلون بالإسلام وكيف يسيئون إليه، لعدموا أنهم يفعلون شيئاً خطيراً؛ لأن الإسلام منهج وسلوك، وليس منهجاً نظرياً فحسب، بل هو منهج عملي يطبق في الحياة، ولذلك فإذا كان القرآن الكريم يمثل قواعد المنهج، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل المنهج العملي التطبيقي للإسلام. ويقول الحق سبحانه.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ﴾ [الأحزاب ٢١]

والمسلم حين يطبق منهج الإسلام يلتفت بنظره غير المسلم إلى هذا الدين ويحببه فيه (١)، وحين يفعل ما لا يرضاه الإسلام يتقَرَّرُ غير المسلم من الدين، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

لأن فعلك حين يختلف مع الدين الذي تدعو إليه وتؤمن به، فهو يتحول

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «أولاد بني عبد مناف إذا مثلوا لمؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً، ووضعت طيباً، ووقعت دمهم نكروا ولم تفسده» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٢)

إلى حجة ضد الدين، يقول غير المسلم: لقد رأيت المسلم ينش، ورأيت يسرق، ورأيت يده تمتد إلى الحرمات، إذن فكل منحرف عن الدين إما يحمي ناساً يهدم بها الدين، ويكون عليه وزر عمله، ويترد من اتخذه قدوة لهم^(١)

ولقد قلنا . إننا حين ننظر إلى التمثيل الدبلوماسي في العالم الإسلامي، نجد اثنين وسبعين دولة إسلامية لها سفارات في معظم دول العالم، وأتساءل: كم من أفراد هذه السفارات يمسك بـ«مظهر الإسلام»؟ أقل القليل. وكم من الجاليات الإسلامية في الدول الأجنبية يمسكون بتعاليم الدين؟ أقل القليل. ولو أنهم تمسكوا جميعاً بتعاليم الإسلام لعرفت دول العالم أن هذا الدين قوة ومناعة تحميه وأن هذه الماسة هي التي منعت الحضارة المادية المنحرفة من أن تؤثر في هؤلاء، ولكان لفتة قوية لشعوب العالم لكي تدرس هذا الدين، ولكنك تجدهم يدبون وينهاقون على الحضارة المادية للدول التي يقبضون قبضاً، عما يجعل شعوب هذه الدول تقول: لو كان دينهم هرباً لتمسكوا به، ولم يتهاقوا على حضارتنا

وإذا درسنا تاريخ الإسلام نجد أنه لم يتشر بالعتال أو بالسيف؛ لكنه انتشر بالأسوة الحسنة، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنْ نَامُوا وَآفَاقُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَفُصِّلَ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ [التوبة]

أي نبيئهم لقوم يبحثون عن العلم الحقيقي، الذي بينه الله عز وجل في منهجه، ولذلك نجد مثلاً أنه إذا وصلت أمة من الأمم إلى كشف حديد فأهل لعلم في الإسلام يعرفون أنه ليس كشفاً جديداً؛ لأن الإسلام ذكره منذ وقت طويل.

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا يضره ذلك من أجرهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا يضره ذلك من إثمهم شيئاً» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٤) وأحمد في مسنده (٢ / ٣٩٧) الترمذي (٢٦٧٤) وابن ماجه (٢١٦) قال الرملي حديث حسن صحيح.

مثلاً في القانون في ألمانيا وصلوا إلى مادة في القانون سموها «سوء استعمال الحق» فانت لك حقوق ، ولكنك قد تسيء استغلالها ، وبدأت الدولة في ألمانيا تنجح نحو تشريع قوانين تهدف لمنع إساءة استعمال الحقوق ووضع شروح لهذه القوانين وبطبيقتها إلى آخره ، وذهب محام مسلم من بني سويف ليحصل على الدكتوراه من ألمانيا ، فاطلع على هذه المسألة ، وقد كان يحضر محاضرة ينفقها صاحب قانون نظرية «سوء استعمال الحق» ، فقام المحامي المسلم وقال له . أنت تقول إنك واضح هذه النظرية؟ فقال المحاضر الألماني نعم . فقال المحامي : لقد جاءت هذه النظرية منذ أربعة عشر قرناً في مذهب الإسلام . وارتبث المحاضر الألماني ارتياك شديداً ، وجاء بالمستشرقين ؛ ليناقشوا هذا المحامي لمسلم ، وجاءوا مكتب السيرة النبوية ، وأخرج المحامي للمستشرقين قصة من ميرة رسول الله صلى الله عليه وسلم نقول . إن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان جالساً فجاءه صحابي يشكر من أن أحد الصحابة له نخلة في بيته ، واليت مملوك للصحابي الشاكي ، والنخلة مملوكة للصحابي آخر ، وقد تعود أن يأتي الصحابي صاحب النخلة إليها كثيراً ليأخذ منها ويلقحها ويظمن عليها ، وكأبه قد جعلها «مسارحاً» كما يقول المثل الشعبي ، فعرضت عورة أسرة الصحابي صاحب البيت إلى الخرج ، فذهب يشكو الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحضر الرسول صاحب النخلة وأوضح له بما معناه «إما أن نهب النخلة لصاحب البيت ، وإما أن تبيعها له بالمال ، أو أن تقطعها»^(١) .

نقد أوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم : أن النخلة حقلك ولكنت

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : إن لفلان في حياض عدينا وربة قد ادناي وشق عن مكان علقه فأرسل إليه النبي ﷺ فقال : بمنى هذا الذي و حياض فلان قال لا قال فبهني ، قال لا قال فبنيه بعدى و الجنة ، قال لا فقال النبي ﷺ : ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي يهمل بالسلام

أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٣٨) وإمامكم في مستدركه (٢/ ٢٠) والبراد (٢٠٠٠) في كشف الأستار قال ابن كثير في مجمع الرواة (٣/ ١٢٧) . اهـ عدا الله بن محمد بن عيسى وفيه كلام وقد وثق .

أسأت استعمال الحق بكثرة ذهابك إلى مكاتب بسبب وبغير سبب، بما عرضت عورة صاحب البيت للمتاعب^(١). وكان هذا الفعل هو المثل الخيئ لسوء استعمال الحق، وكان من أمانة العلم أن يعدل أستاذ القانون الأدنى في محاضراته ويقول: لقد ظلت أنسى قد جئت بشيء جديد، ولكن الإسلام سبقني إليه منذ أربعة عشر قرناً. ومعلنا تم التعديل. واعترف القانون الألماني بأن الإسلام قد سبقه في نظرية «سوء استعمال الحق» منذ ألف وأربعمائة سنة. ولذلك نجد أن صفة الأمانة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفق أمته^(٢)، كانت شهادة تموق : لأنها لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضارات الأمم السابقة، وإنما أخذته عن الله؛ لأن أقصى ما يصل إليه غير لأمين في علمهم أن يحىء إليهم العلم من بعضهم لبعض، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم جاء لها العلم من الله بمصادات الدنيا أكثر من ألف عام.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿وَإِنْ تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا
فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفَرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَفْتَهُونَ﴾

ونكثروا الأيمان : أى لم يصلوا بحد العهد، والله سبحانه وتعالى يعطياها حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التي حاربوا فيها الإيمان، فهم قد نقضوا

(١) وقد أرفده رسول الله ﷺ لأحد عدم الإخلاص على عورات المسلمين، فمن سهل بن سعد قال: طلع رجل من حجرى حجر النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مدرى بحث به رأسه فقال: «لو أعلم أنك تنظر لعطيت به في عينك، إن جعل الاستدانة من أجل البصرة» أخرجه البخارى في صحيحه (٦٢٤١) ومسلم (٢١٥٦).
(٢) قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي الصُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف ١٥٧] وقال المصطفى في تفسيره: (الأمي) منسوب إلى الأمية التي هي على أهل ولادتها لم تعلم الكتابة ولا قراءتها. قال ابن العربي وقال ابن عباس: كان فيكم ﷺ أمية لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب. قال تعالى ﴿وَلَا تَتْلُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ يُخْفَى بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَالْعَنَتُوبُ ٤٨﴾

العهد، ولم يكتفوا بذلك من طعنوا في الدين. أى عابوا في الدين عيباً مقذعاً. وعندما يقال: إن فلاناً طعن في فلان، فلابد أنه قد تجاوز مرحلة لسب إلى مرحلة أكبر بكثير وهنا يأمرنا الحق - سبحانه وتعالى - إما يقاتلهم، وإما أن يعلنوا الإيمان. وهذا حق للمسلمين لأنهم قدموا من قبل كل سب اليهود، لكن أئمة الكفر رضوها.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾، أى: أن لقتل يأتى أولاً لزعماء لكفار الذين يجرضون أتباعهم على محاربة دين الله، فالأتباع ليسوا هم الأصل، ولكن أئمة الكفر؛ لأنهم هم الذين يخططون ويمسكون ويجرضون^(١). وهم - كما يقال في العصر الحديث - مجرمو حرب؛ والعالم كله يعرف أن الحرب تنتهى متى تخلص من مجرمي الحرب؛ لأن هؤلاء هم الذين يضعون الخطط ويديرون المعارك ويعودون الناس إلى ميادين القتال، تماماً كأئمة الكفر، هؤلاء الذين اجترأوا على أساليب لقران الكريم، ومنعوا لقبائل التي نأتى للحج من الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاربوا الدين بكل السبل من إغراء وتحريض، وتهديد ووعيد.

والأمر العجيب أنك ترى من يبرر لك قتل مجرمي الحرب ويستنكر قتل أئمة الكفر، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢]

ويقول الحق عز وجل في ذات الآية:

﴿إِنَّهُمْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٣]

وفي هذا يأتى المستشرقون ومن يميلون إليهم بقلوبهم ويحسبون علينا

(١) قال تعالى في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَعْصَمُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَعْمَدَ بِاللَّهِ فَيَجْعَلُنَا مِنْكُمْ شِئَابًا مُبِينًا﴾ [سبأ: ٢٣]

يقولونهم وظواهرهم ليقولوا: إن هناك تناقضاً، فالله يقول: ﴿وَإِنْ نَكُنْوا بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾^(١) أي أثبت أن لهم أياناً، ثم قال: ﴿لَأَيَّانَ هُمْ﴾. فكيف يثبت لهم الأيان ثم ينفيها عنهم؟. والنهي والإثبات لا يجتمعان في وصف الشخص لوحده؛ ونقول: إسمها لا يجتمعان عند من يفكر تفكيراً سطحياً، أو يأخذ الأمور بظواهرها. ولكن من يعرف مرامي الألفاظ، يعلم أن نفي الشيء وإثباته في لسان الكريم يعني: أن الجهة متفكة بالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]

فأجابه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أي للرمي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، و﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للرمي. ويحيى نفي الشيء وإثباته في آية واحدة، والفاعل والفعل واحد. وهذه تسمى في الأسلوب انفكاك الجهة، أي أن كل جهة تطلب معنى مختلفاً عن الجهة الأخرى، تماماً مثلما يقال: إن فلاناً يسكن أعلى مبنى. فهذا قول صحيح، ولكنه في ذات الوقت يسكن أسفل بالنسبة لمن فوقه، إذن فهو عالي وأسفل في نفس الوقت؛ عالي عمن تحته وأسفل ممن فوقه. أو تقول: - كمثال آخر - فلان أب وابن. هنا يبدو تناقض ظاهري، أي أنه أب لابنه، وابن لأبيه، فهو أب من جهة الابن، وابن من جهة أبيه، ولا يوجد تعارض. وهذا ما سميته انفكاك الجهة.

إذن فلا يوجد أدنى تعارض بين نفي الرمي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثباته له؛ لأن رسول الله أخذ حصنة من الحصن ورمى بها جيش الكفار^(٢)، هذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من البشر، لكن قدرة

(١) من علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: «بارك إن تهلك هذه العصابة قبل تعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل عليه السلام: «كذلك من أدواب قارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من الدواب فرمى بها في وجوههم» فإيا من المشركين أحد إلا أصاب عيه وسحريه ومنه تراب من تلك القبضة فهو مديريه. أخرجه أبو يعقوب (ص: ٤٠٤) والبيهقي (٣/ ٧٩) كلامه في دلائل النبوة، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٩٤).

الله سبحانه وتعالى أخذت هذا الحصى وأوصلته إلى كل جدي من جيش الكفار، وفي قول الحق سبحانه وتعالى

﴿وَتَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

[الروم ٦، ٧]

لقد قالوا: إن الله نفي العلم وأئسه لنفس الأشخاص، ونقول: لا، نه نفى العلم الحقيقي، وأثبت لهم ظاهر العلم، وهذا يختلف عن ذلك تماماً، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَن يَكْفُرُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢]

أثبت الآية أن لهم أيماناً، وفي آخر الآية نفى عنهم الأيمان فيقول:

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٣]

ونقول: هائلة الأيمان أو العهد أن يُحافظ عليه، ومن لا يحافظ على بيمينه أو عهده يكون لا أيمان له؛ لأن أيمانه أي عهده لا قيمة له؛ لأنه محرد من الوفاء وعندما يخلع الكذاب بصول، هذا لا يمين له. وهؤلاء أيمانهم لم تأخذ قداسة الأيمان، فكانهم لا أيمان لهم، كأن يكون لك ابن اقرب استحانه ونجبره على المذاكرة، وتجلس تراقبه فيقلب الكتاب ولكنه لا يفهم شيئاً. وإن حاولت أن تحسب حصيلة المذاكرة لم تجد شيئاً، فتقول ذاكرت وماذاكرت، وهذا نفى للمعل وإثباته ولا تناقض بينهما: لأن الجهة مضخة

ونفي الأيمان في آخر الآية معناه: أنهم لا وفاء لهم، وما داموا يلاؤفاء فلا قيمة لأيمانهم وقوله تعالى:

﴿فَقَاتِلُوا أَمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة ١٢]

هذا أمر بفشاهم لا بقتلهم، فيكون الحصى قاتلهم، فإن لم يقتلوا فقد يجعلهم القتال ينتهون عن عداوتهم للدين، لأنهم حين يرون البعض منهم قد

قتل وهم أصعب من المواجهة، ها سنحذف حدة محاربتهم للإسلام، بوتتهى
الللجاجة في أمر الدين.

ثم يقول الحق من بعد ذلك:

﴿الْأَنْفَالُ قَوْمًا تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ
وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ وَهُمْ بِكَدِّكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَحْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

في هذه الآية الكريمة يحض المولى سبحانه وتعالى على جهاد ، وقاتل أئمة
الكفر، وعدم تركهم يستشرون في حربهم للدين ، ومنع لناس عن الإيمان،
وصدعهم عن سبيل الله ، والآية تسمى أداة تحضيض، مثل قولنا ألا تذهب إلى
فلان، وهي حث على العمل؛ لأن التحضيض نوع من أنواع لطلب وقوة
تعالى: ﴿تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ﴾ أى تقصو عهودهم، وقوله تعالى: ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ
الرُّسُولِ﴾ أى هم الذين بدأوا بالعداوة ومحاولة إخراج لرسول صلى الله عليه
وسلم من مكة، و﴿هَكُمُوا﴾ أى عقدوا انفيه على العمل، وقوله تعالى:
﴿وَهُمْ يَدْعُونَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى أنهم هم الذين بدأوا بعداوة لمسلمين ولصد
عن الإسلام من أول أن بدأ يدعو إليه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.
وليبدء هو: العمل الأول، والهمة هو فعل لا يتكرر؛ لأنه إن تكرر يقول:
﴿مرتين﴾ ، مثل قول الحق سبحانه

[البقرة ٢٢٩]

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾

هم إنك الذين بدأوا الفعل الأول بالعداوة. والإسلام - كما نعلم - قد واجهه

قوتين في مرحلتين مختلفتين من مراحل الدعوة للإسلام : قوة المشركين من قريش، وقوة اليهود، وأما قريش فقد هموا بأن يخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، وقد يقول قائل: لكن المؤمنين هم الذين بدأوا القتال في بدر وأقول: لم يذهب المسلمون إلى بدر للقتال، بل ذهبوا من أجل العير تعويضاً عن ما لهم الذي تركوه في مكة، ولكن الكفار قالوا: لن نرجع حتى نستأص محمدًا ومن معه، وجماعهم بالنفير ليقاتلوا في بدر^(١).

إذن فعلى الرغم من سلامة العير بحيلة من أبي سفيان^(٢) إلا أن قريشا هي التي أرادت القتال فجمعوا الجند والفرسان؛ يقاتلوا المسلمين.

وكذلك فعل اليهود، فقد نكثوا بعهدهم وهموا بإخراج الرسول من المدينة. كما حاول المشركون إخراجهم من مكة، وكان بينه صلى الله عليه وسلم وبين اليهود معاهدة، وهذه المعاهدة كانت من أوائل أعمال رسول الله في المدينة، فمن حافظ اليهود على هذه المعهود؟ لا، فقد تعهدوا ألا يعينوا عدوا عليه، ونكثوا، أي نهم ونقضوا العهد فأعانوا قريشا على المسلمين.

وكذلك فعل بنو النضير، فقد أرادوا اغتياله صلى الله عليه وسلم، وذلك بإلقاء صحرة عليه، بن وتمادى اليهود في غرورة الأحزاب وأعانوا قريشا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقوا معهم على أن يدخلوهم من أرضهم بالمدينة ليهاجموا رسول الله وجيش المسلمين من الخلف.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوْلَٰ مَرَّةٍ﴾ لها أكثر من

(١) جاء في سيرة النبي (٢/٢١٧) أنه لما علم أن المشركين هموا بإخراج الرسول من مكة، وهو يصرخ قريش وهو يصرخ يهود، فقام على ظهره فدعاهم إليه، وقطع الله، وحول راحته وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، النظمه اللطيفه (هـ) الإبل لحمل العيب) أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في المدينة، لا أرى أن تدركوا الموت الموت.

(٢) وذلك أن أبي سفيان غر حريقه إلى مكة ومعه فافقه قريش، فأخذ طريق الساحل وترك بدرًا ونطلق حتى أسرع، قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أضرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إنما خرجتم لتسعو عيركم، ورجع إليكم وأموالكم فقد نجسها الله فارجعوا، ولكنهم لم يستمعوا له. انظر سيرة النبي (٢/٢٥٨، ٢٥٧).

حيثية، ونقضهم لمهود ويدؤهم القتال يجعلكم تقابلونهم ؛ لتأمنوا شرهم .
﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُواكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ١٣]

وقوله تعالى : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ ﴾ حث على القتال، أى : ما الذى يمنعكم من قتالهم إلا أن تكونوا ضاحقين منهم، ولذلت يقول ببارك وتعالى

﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]

وهنا بلغت الحق سبحانه نظرا المؤمنين إلى أنهم إن كانوا أمام حالين، خشية من البشر وإيذائهم، وخشية من الله، فالأحق بالخشية هو الأشد والأعظم والأدوم عقاباً. ولأنكم إذا ما قارنتم قوة هؤلاء بقوة الله، فلهذا أحق بالخشية قطعاً. وإذا كنت بين اختيارين فأنت تقدم على أخف الضررين، فكيف يخاف المؤمن ما يمكن أن يصيبهم على أيدى لكفار؟ ولا يخشون ما يصيبهم من الله.

وأوضح الله سبحانه وتعالى أنه لا خشية من الكفار في آية أخرى من ذات السورة، هي قوله سبحانه

﴿ قُلْ هَلْ مَرِئُونَ بَأِىَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ تَرِيضُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ
اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرِيضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرِضُونَ ﴾ (٥٣) [التوبة]

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين، فإذا سجدت لكم من جنود الكفر؟ إما أن نستشهدوا فتدخلوا الجنة وإما أن تنتصروا. وقوله تعالى : ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ استهزاء استكاري معناه : ما كان يصح أبدا أن تخشوهم وتخافوهم ؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلبوا عليكم فزتم

بالشهادة، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فنزّم بالنصر. وكلاهما أمر جميل مُحبَّب لنفوس المؤمنين بالله يحدث تثبيت لقلوبهم وأقدامهم في مواقع القتال وانتزال .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بالحكم النهائي فيقول:

﴿ قَالَهُ أَهَلُ أَنْ نَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة ١٣]

أى : راجعوا إيمانكم، فإن كنتم مؤمنين بالله فأنتم راغبون في الشهادة وإن كنتم مؤمنين بالله القادر القوى القهار فأنتم تعرفون الله وقدرته وقوته، وهى لاتقارن بالقوة البشرية. فإما أن تتصروا عليهم فتكون لكم هزيمة النصر، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنة، وكلتا النتيجةين خير، أما ما يصيب الكفار فهو يحصر في أمرين: إما أن يصيبهم الله بعذاب بأيديكم، وإما أن يصيبهم بعذاب من عبده.

[ذن قسى أى معركة يدخلها الإيمان مع الكفر، نجد أن الجانب الهائز هم المؤمنون، سواء استشهدوا أم انتصروا. ولخاسر فى أى حال هم الكفرة؛ لأنهم إما أن يعدبوا بأيدي المؤمنين، وإما أن يأتيهم عذاب من الله تعالى فى الدنيا أو فى الآخرة. وهكذا وضع الله المقاييس التى تسرع الخشية من نفوس المؤمنين فى قتالهم مع الكفار، فلا تولوهم الأدبار أبداً فى أى معركة، لأنه مهما كبرت قوة الكفار المادية، فقوة الحق تبارك وتعالى أكبر. ويقول لمولى سبحانه

﴿ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ خَلَّتْ فَتَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة. ٢٤٩]

وهكذا لا يحسب حساب للفارق فى القوة المادية، فهذه خشية لا محل لها

في قلوب المؤمنين في جانب الإيمان ؛ لأن الله مع الذين آمنوا.

ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى حثه للمؤمنين على القتال فيقول:

﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ
مُؤْمِنِينَ ۝١٦﴾

وقوله تعالى . ﴿فَاتْلُوهُمْ﴾ في الآية السابقة كانت حثاً للمؤمنين على القتال، و﴿فَاتْلُوهُمْ﴾ الثابتة التي في هذه الآية ؛ لتحريض والزرع في القتال، وأمر إيماني للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار ثم يأتي المولى سبحانه وتعالى في هذه الآية بأحكام من الأمر بالقتال فيقول: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ونساءل، إذا كان الله يريد أن يعذبهم فلماذا لا يأتي بأية من عنده تخصبهم للعداب؟

يقول لو انتصر المؤمنون بحدث كوني غير لقتال لقات الكفار حدث كوني هو لذي نصرهم. وبشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدي المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لا يؤمنون إلا بالأمر المادي، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهت المسألة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُرى لكفار بأس المؤمنين لتمتلئ قلوبهم هيبة وحقاً من المؤمنين، ويحسوا هم ألف حساب، فلا تحدتهم أنفسهم بأن يهزئوا على الإيمان وعلى المسلمين أو أن يستهيموا بالمؤمنين

ولقاتل أن يقول: إن الحق هنا يأمر فيقول . ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ .

وفي آية أخرى يعوب

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال: ٢٢)

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟ ونقول، لقد نزلت لآيتان في الكفار ومبجابه وتعالى يقول، ﴿قَدْ يَلَوْهُمُ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولو قال، قاتلهم تعذبوهم بأيديكم لاختلف المعنى، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه، ونقول: إن الجهة متفكة، فقله تعالى، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أى، لا يزل الله تعالى عليهم عذابا من السماء ما دمت فيهم، وقد وضح هذا في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٧) وما كان الله ليُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وما كان الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٨) [الأنفال]

قد سبق أن طيب الكفار عذابا من السماء يزول عليهم إن كان القرآن هو الحق؛ فرد الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يعذبهم مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين، ولكن عدم تدخل السماء بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة، لا يعنى أن العذاب قد انتهى بالنسبة للكفار، واتممن سبحانه المؤمنين على نصرة مهجه ودينه وهو معهم، ولكن العذاب يتم بالأسباب الأرضية، ولا يوجد تناقض. لأن العذاب من السماء قد يكون استصمالا لكل الكافرين؛ صفارا و كبار، كأن يغرقهم الطوفان، أو تأتي اميحة فتبيدهم عن آخرهم، أو تحبثهم ريح صرصر عاتية تدمرهم، أو تصيبهم الرجمة فتجمدهم، وفي كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار، ولكن القتال البشرى لا يقصى على الكافرين، فالإسلام يمنع من قتال النساء

الكفار بأيدي المؤمنين فقط، من يريد لهم الانتصاح أيضا، بحيث لا يستطيعون أن يرفعوا رءوسهم. وجاء الحق سبحانه بتيمة ثالثة لهذا القتال فقال:

﴿وَنَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]

وعلى هذا فعندما يقاتل المؤمنون الكفار يصيب الكفار العذاب والحرى والمزيمة إذن ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ مرحلة، ﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾، مرحلة ثانية ﴿وَنَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ مرحلة ثالثة، ثم تأتي المرحلة الرابعة

﴿وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٥]

أي . أن النصر الذي سيحققه المؤمنون بعون الله تعالى في قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استلذهم الكفار واعتدوا عليهم، فكان هذا النصر يشفي الداء، الذي ملأ صدور أئمتك المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، أي . يخرج الغيظ والانفعال المحبوس في الصدور، فكان قتال المؤمنين للكفار لا يمتن فقط استذاب والحرى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم، ولكنه يعالج - أيضا - قلوب المؤمنين التي ملأها الألم والغيظ من محابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إزلالهم وأخذ حقوقهم. لذلك يقول الحق سبحانه ونعني:

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى

مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

وهكذا يرى الذين عدوا بالعهد وتعادوا ضد أئمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرون انتقام الله تعالى لهم، فتشفى صدور المؤمنين ويذهب منها الغيظ. والشفاء - كما نعلم - إنما يكون من داء، والدواء ضرورة للشفاء، وكان انتقام الله عز وجل فيه شفاء لصدور المؤمنين من كمار قريش الدين

أَعَانُوا أَبَاءَ يَكْرَ عَلَى بَنِي خِزَاعَةَ حَلْفَاءَ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ، وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُخْزِهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ونلمس أنه - سبحانه وتعالى - رغم تعذيبه لهم ، وتشديد النكير عليهم ، إلا أنه يفتح باباً لتوبة، وهي مسألة لا يقدر عليها إلا رب حكيم؛ لأن الكل صيد له؛ مؤمنهم وكافرهم، مؤمنهم وكافرهم، هو خالقهم، وسبحانه يغفل عن صنعته، فبعد أن يشتد عليهم بالعذاب والخرى، ويشفى بهذا صدور انقوم المؤمنين، بعد ذلك يفتح باب التوبة ، وهذا يعطى المؤمنين قوة سماحة إيمانية، فلا يصطحبوا التعالى على هؤلاء إن جاءوا تائبين مؤمنين فيقول سبحانه وتعالى -

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة ١٠]

أى أنه سبحانه يعلم كل متطلبات الأحكام، ولكل أمر عنده حكمه، فلقد أَرَدَ الله عز وجل ليذكَّ به جبروتهم، والثبوت حكمتها لمنع غداى الكفار وطغيانهم في الشر؛ لأن مشروعية التوبة هي رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية، ما دامت لا توجد توبة، وما دام مصيرى إلى النار، فلا أحد من الدنيا ما أستطيع، وبذلك يتهدى في الظلم ويزيد في الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد ما دامت لا توجد توبة، ولكن تشريع التوبة يجعل الظلم لا يتهدى في ظلمه ، ويهدى بحسن الله المحتج من شروره، ويجعل في نفسه الأمن في قبول الله لتوبته والطمع في أن يغفر له؛ فيتجه إلى عمل الصالح علَّه يُكَفِّرَ عما ارتكب من الذنوب والمعاصى؛ وفي هذا حمية للناس ومع لاننشار للظلم والفساد .

إذن فالقتال له حكمة، والعذيب له حكمة، والخرى له حكمة، والتوبة لها حكمة، وسبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبها عن حكمة.

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رُسُلِهِ
وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وِلِيَّةً وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾
﴿٤٩﴾

ساعة تسمع «أم» فاعلم أنها إضرابية، أي: ما كان الله سبحانه ليترككم
حتى يعلم - علم الواقع - من منكم يؤمن إيماناً يؤمله للجهاد في سبيل الله؟
هنا طعنت أن الله تارككم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم^(١)،
فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا ما يقابله

إذن فالابتلاء أمر ضروري لمن أراد الله تعالى له أن يتحمل أمر لدعوة
ليواجه شراسة التحلل والفساد، لذلك يصفى الله من أمروا حتى يقف كل
واحد منهم موقف الانتهاء إلى الله مضعياً في سبيل الله. وساعة يقول الحق عز
وجل في شيء كلمة «وَلَمَّا يَعْلَمِ» فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم، لا،
فسبحانه يعلم كل شيء أزلاً، ولكن العلم الأزلي لا يكون حجة على البشر
ودائماً أصرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نجد عميد إحدى الكليات
أحياناً يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له المدرس
الذي يشرف على تحصيل التلاميذ: إن فلاناً هو الأول وهو يستحق الجائزة،

(١) يقول تعالى ﴿أَحْسِبُ أَنَّ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنُوا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ ولقد فتن الذين من ملهم فليعلم
الله الذين صدقوا وليعلم الكاذبين ﴿الأنكوب ٢، ٣﴾ وقد قال تعالى ﴿وَلِيَمْحِصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾
ويمحق الكافرين ﴿آل عمران ١٤١﴾ والمحصي هو المختار والابتلاء، والمحصي أيضاً: التخليص
والتعطير ومنها تمحيص الذهب أي اختبره لمعرفة نقيته من الرديء.

فيقول لعبيد: ولكني أريد أن تعقد امتحاناً؛ ليكون حجة على هير المتفوقين؛ وهذا هو علم الواقع العمل الذي أراده الحق عز وجل من الابتلاء، وبسبحانه وتعالى يعلم كل شيء أزلاً، ولكن العلم الواقعي هو حجة على المحالفين

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ [التوبة: ١١]

أى بدون ابتلاء أو تمحيص. وقوله تعالى:

﴿وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ١١]

«ولما» للنفي، ومثلها مثل قولنا: «لما يأت» أى: أنه لم يتحقق المعنى حتى الآن، وتختلف «لما» عن «لم»، ف«لم» لاتؤذن بترفع لبوت ما بعدها، فيما يأتى بعدها لن يتحقق أبداً، أما «لما» فتؤذن بتوقع لبوت ما بعدها، أى أن ما بعدها.. لم ينحقق إلى لحظة نطقها، ولكنه قد يتحقق بعد ذلك. فإن قلت: «لما يثمر بستان» أى: أن البستان الذى تملكه لم يثمر؛ ولكنه قد يثمر بعد ذلك. وبسبحانه وتعالى يقول

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِرُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]

ومعنى القول الكسريم: أن الإيمان لم يدخل في قلوبهم إلى الآن، ولكنه سوف يدخل بعد ذلك، وهذه إشارة لهم. فقد قالت الأعراب: «آما» فأوضح الحق سبحانه وتعالى بل أسلمتم ولم يدخل الإيمان قلوبكم؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد القلبي الجازم، والإسلام انقياد لما يتطلبه إيمان القلب من سلوك، أى: أنتم قد سلكتم سلوك الإسلام، ولكنه سلوك سطحي لم يأت من بتابع القلب. وقول الحق ها:

﴿وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١١]

لا يعنى أن علمه متصل بوقت الكلام، يعلم الله تعالى موصول أنى
وسبحانه مُنَزَّهٌ عن الأغيار.

إذن فالعلم المراد هنا هو علم الواقع الذى سوف يكون حجة عليكم؛ لأن
الله سبحانه وتعالى لو لم يختبركم لقلتم: لو أمرتنا به رب بالقتال لقاتلنا، ولو
أمرتنا بالصبر فى الحرب لصبرنا، وَلَكِنَّا أَكْبَرُ الْمُجَاعِدِينَ.

ولذلك جاءت الابتلاءات كتجربة عملية، ومن هذه الابتلاءات مواجهة
العدو فى حرب، فمن هرب ثبت له التقصير فى المواجهة، ومن لم يصبر على
الابتلاءات، عرف نقص إيمانه وأصبح ذلك علما واقعا

﴿وَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ
وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَابِيعَةً﴾ [التوبة : ١٦]

إذن فله يريد بعلم لواقع التمييز بين صدق الجهاد وبين الفسار منه، وأن
يكون هناك سلوك إيمانى واضح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخذوا من دون الله
ولا رسوله وليعة، والوليعة من فعيلة، بمعنى فاعل، و«الجنة» بمعنى «دخلة».

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج : ٦١]

أى: يُدْخِلُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُدْخِلُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ، والمراد بـ«الوليعة»
الشيء الذى يدخل فى شيء ليس منه، وهى من الكلمات التى تطلق ويستوى
فيها المفرد المذكر والمؤنث، ولختى والمثناة وجمع المذكر وجمع المؤنث، وتقول
«امرأة وليعة»، و«رجل وليعة»، و«امرأتان وليعة»، و«رجلان وليعة»، و«نساء
وليعة» و«رجال وليعة». كما تقول: «رجل عدل» و«امرأة عدل»، و«رجلان
عدل»، و«امرأتان عدل»، و«رجال عدل» و«نساء عدل»، لا تختلف فى كل هذه
الحالات

والمراد بالوليعة هنا بطانة السوء^(١) التي تدخل على المؤمنين الصغار، وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويلعبوا للكفار ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا ﴿وَلَمَّا يَتْلَمْ اللَّهُ الْإِذِينَ جَاهَدُوا﴾ أى: أن يعلم سبحانه علما واقعا من جاهدوا، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار بدخلونهم في شئوهم دخولا يجعلهم يكتشفون أسرارهم

﴿وَلَمْ يَتَّعِدُوا مِنَ ذُنُوبِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة ١١٠]

فالمعنى هنا - إذن - أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة ؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم وبذلك يتعرض المؤمنون لخطر وعلى المؤمن أن يجعل الله عز وجل هو وليجته، وأن يعمل لرسول صلى الله عليه وسلم هو وليجته، وأن يعمل المؤمنون هم وليجته، ويسمح لهم أن يتدخلوا معه، وهم مأمونون على ما يعرفونه من بواطن الأمور، أما الأعداء والمخضوم من الكفار فهم غير مأمونين على شيء من أسرار المؤمنين وبذلك الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة ١١١]

والمعنى إن كنتم نحسبون أنكم تتدخلون مع الكفار وتعطوهم أسرار المؤمنين ولا أحد يعرف، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خير لا تخفى عليه خافية، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئا عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبدا ؛ فلن يخفى شيء عن عيون الخلق ؛

(١) من أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من بين ولا استعطف من خبيثة إلا كانت له بطانة»، يعنيه بأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر وانضه عليه، وانعصوم من عصم الله عز وجل ؛ أخرج البخاري في صحيحه (٧١٩٨) وأحمد (٣٩/٣٩) والسنن في سنة (١٥٨/٧)

لأنكم إن صيئتم على قضاء الأرض، فمن ثعموا على قضاء اسماء^(١) .
وينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى في قوله عز وجل .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ مَشْهُدِينَ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٧)

وكان هذه الآية قد جاءت حثية للبراءة التي حثها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ليعلنها يوم الحج الأكبر^(٢) ؛ لأن لبراءة هي القطيعة، ومعناها ألا يدخل المسجد مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فكان البراءة من الله عز وجل ورسوله من المشركين فنح لهم من دخول المسجد الحرام، وكان عدد من المشركين قد جعلوا من المسجد الحرام مقبض لهم ، وكانوا يجلسون فيه للتسامر والتجارة وغير ذلك، كما كانوا يقومون بسقي الخبيث من شراب الربيب الذي لم يختصر ؛ ومعهم حجاب لبيت، ويطعمون زوار بيت الله الحرام.

كل ذلك كان يحدث في مكة من الكفار ولكن هذا انتهى بالبراءة التي أعلنها علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوحى إليه

(١) عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ : « كنتم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي به على نحوى أسمع منه، فمن قطعته من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنه أقطع له به قطعة من النار » أخرجه البخاري (٢٦٨٥) ومسلم (١٧١٣)

(٢) عن أبي هريرة قال : « بعثني أبو بكر في تلك الحجة في المؤدبين، بعثهم يوم النحر يؤذنون باسمي إلا الحج بعد انعام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » قال حميد ثم أرفق النبي ﷺ علي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن يوم النحر . قال أبو هريرة : فأذن معا في أهل من يوم النحر ببراءة، ولا يحج بعد انعام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٥٦)

ربه بأن يجعل ذلك ، ولم يعد للمشركين حق في ﴿أَنْ يَغْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ .
والعبارة لها معنيان؛ المعنى الأول هو الجلوس في هذه المساجد بحيث تكون
عامرة برواها، والمعنى الثاني هو المحافظة على بناية المسجد ونظافته
وبصلاحه . وقد منع الله المشركين من كلا النوعين من العبادة^(١) والكلام هنا
عن المسجد الحرام؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾

[التوبة ٢٨ .

تقول . إن المسجد الحرام هو مكان تتجه إليه كل اتجاهات الناس في كل
بقاع الأرض حين يقيمون الصلاة لئلا كن مكان يمسجد فيه إنسان مسلم
يسمى مسجداً ، ويتعدد الساجدين ، يعتبر المسجد الحرام مسجداً ، أو لأن
جهات السجود تتعدد في المسجد الحرام ؛ فواحد يسجد شمال الكعبة، وآخر
جنوب الكعبة وثالث شرق الكعبة، ورابع غرب الكعبة؛ هذا في الجهات
الأصلية، وهناك الجهات الفرعية؛ فهناك أناس يتجهون شمال شرق، وأناس
يتجهون جنوب شرق، وغيرهم يتجه جرب غرب، وتتعدد الجهات الفرعية في
الاتجاه إلى الكعبة ؛ إذن فكل جهة متجهة هي مسجد وهناك من لا يرون
الكعبة في بقاع الأرض يتجهون إليها .

وحين تسمع قول الحق سبحانه وتعالى بقول:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَغْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفَرِ
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [التوبة ١٧]

نلاحظ أن «كان» هنا جاءت منفية ومنها نفهم المعنى: ليس مقبولاً في عرف

(١) قال القرطبي في تفسير الآية: اختلف العلماء في تأويل هذه الآية فقيل: أراد ليس هم الخبيث بعد ما نودي
فيهم بالمع من المسجد الحرام، وكتب أمور البيت كالمسكنة والسقاية والرفادة إلى المشركين فيمن أهم ليسوا
أعمالاً لذلك بل أهله المؤمنون

العقل أو المنطق أو الدين أن يقرب الكفار المسجد، ولا أن يرعى مشرك المسجد أو يصوره؛ لأن المسجد للعبادة، والعبادة تقتضى معبوداً هو الله سبحانه وتعالى، والكفار يشركون بالله، فمن المنطق إذن ألا يكون لهم دخل بالمسجد، إذن فسمعهم من المسجد إقامة وهامة وزيارة هو شيء منطقي بشهادتهم على أنفسهم بالكفر، وهي سبب معهم من الاقتراب من مساجد الله.

والشهادة إما أن تكون شهادة قول؛ وإما أن تكون شهادة حال، أما شهادة القول مدلك لأنهم كانوا يقولون لليهودى: عى أى دين أنت؟ فبرد بدياته، وكذلك يقول للتصرايى: وحين يسأل المشرك: فهو يقر يشركه^(١)، هذه هى شهادة القول. أما شهادة الحال فهى أنهم يسجلون للأصنام ويعبدونها من دين الله

فكيف يكون الإنسان مشركاً ثم لا نقول له ليس لك علاقة بالمسجد؛ اربع يدك عنه؟ وما أغنى الإسلام عن أن يبنى له مشرك مسجداً أو يعمر كائناً بيتاً من بيوت الله وما أغنى الله أن يزوره فى بيته من هو غير مؤمن به سبحانه. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

وهم قد نسوا الشهادة الأولى باحق حينما أشهدهم الله سبحانه وتعالى على أنفسهم، فالحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهَنِّكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

(١) قاله السدى نقله ابن كثير والقرطبي فى تفسيرهما للآية

هم إذن قد أفروا لحظة الخلق الأولى بوحداية الله وعاملوا الله تعالى على ذلك، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا في بيت الله الحرام أصناما. وادعوا الكذب وقالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٢٠]

وهذا هو الإشراك بعينه، وهذه هي شهادتهم على أنفسهم بالكفر.

﴿ أَنْ يَغْمُرَ مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

والمسجد - كما تعلم - هو المكان الذي نجد فيه، وكل بقعة في الأرض بالسنة للمسلمين تصلح للعبادة وتعتبر مسجدا، وهذا مما حص به الله تعالى أمة الإسلام، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت حساً لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وصهوراً، فأياها رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحللت لى المغانم ولم تكن لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث لى قومه خاصة يبعث لى الناس عامة»^(١).

فهذا الحديث يبين أن مما حص الله به الأمة المحمدية أن جعل لها كل بقاع الأرض صالحه لأداء الصلاة فيها، كما جعل لها الأرض أيضا طهوراً، ويكفى المسلم أن يتيمم من الأرض ويصل عيها، ولكن هناك فارق بين مكان يصلح لك أن تصل فيه، وأن تبأشر نشاط حياتك، وبين مكان محصص للعبادة، فالحقل الذى تزرع فيه، لك أن تصلى فيه وتزرع، والمصنع الذى تصلى فيه، ويك أن تصنع، وكذلك المدرسة لك أن تتعلم فيها، ويك أن تصلى فيها، وهذه كلها مساجد بالمعنى العام، وهى أماكن سجود لله تعالى، لكن كلمة «مسجد» إذا أطلقت انصرفت إلى الحيز المحدود من المكان الذى أخرج من نشاطات الحياة كنيها، وتُخص بأن يكون للصلاة والسجود فقط، فإذا

(١) متفق عليه - أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)

حيزت مكاناً يخط أبيض من الجير، أو حيزته بسلك وقلت: هذا مسجد، فلا يزاول فيه نشاط إلا الصلاة، هذا هو المسجد الاصطلاحي الشرعي وكل بيت لله بنيته في أي مكان يسمى مسجداً، وقبة المساجد منتشرة في نواحي الأرض هي المسجد الحرام، فهي أماكن حيزت للمسجدية، أو للعبادة، أو للصلاة وليست بغير ذلك من حركات الحياة، ولكن تميز المكان كان باختيار البشر وقبته المسجد الحرام وهو المسجد الجامع الأكبر باختيار الله تعالى، والحق سبحانه وتعالى هو لائق.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٤٩)
[آل عمران]

ولأن هذا البيت الحرام هو باختيار الله، وموضوع للناس. قلنا أن سأل: من الناس هم الذين وضعوه؟ لا، بل وضعه غير الناس، لأن تعريف الناس هم آدم وذريته، ولا بد إذن أنه موضوع قبل آدم، ويمتنع القرآن الكريم وجد البيت من قبل آدم، وإذا تعمقنا قليلاً، نجد أن هذا البيت الحرام هو ﴿هدى للعالمين﴾ ومن العالمين الملائكة.

وهكذا نرى أن قول بعض القوم: إن إبراهيم هو الذي حدد مكان وفواعل البيت، قول لا يثبت صدق، لأن البيت هو المكان لا المكين، فليت ليس هو الحجر أو المبنى، وهو ما تسميه الكعبة، فالكعبة هي «المكين» أما البيت فهو المكان الذي أقيمت فيه الكعبة، لأنه إن جاء سبيل وأزال الكعبة، جعلها أرضاً مسطحة فأين نصل؟ نصل إلى اتجاه المكان، فالسبيل يُذْهِبُ المكين لكن المكان باق.

وعندما جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أثر البيت ضائعاً، وأمره ربه أن يرفع الست، ولم يقل له: حدد المكان، بل أمره أن يبنى البعد الثالث؛ لأن كل حيز له بعدان؛ الطول والعرض، وإن كان دائرة فله المنحيط، وإن

كان مثلثا يكون من ثلاثة أضلاع. لكن الارتفاع يدخل بالشئ إلى الحجم، وقد رفع الخليل إبراهيم القواعد من البيت. بعد أن حدد السوى سبحانه وتعالى له المكان وأظهره له ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ [البقرة: ١٢٧]

فكان البيت مخصص قبل الرفع، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن عبده هاجر وإبناهما إسماعيل والرضيع، وإسكان إبراهيم عليه السلام لهما في هذا المكان قال: ﴿ وَرَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِهَا بَوَادٍ غَيْرِ دِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وقد رفع إبراهيم عليه السلام القواعد وساعده ابنه إسماعيل بعد أن كبر واشتد عوده، ولكن ساعة أن أسكنه وأمه بجانب البيت كان طفلا صغيرا إذن فالبيتية والملكانية موجودة، ولكن إبراهيم أقدم المكين وهو البعد اشالث أى الارتفاع .

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضا:

﴿ وَإِذْ يَوَّانَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [الحج: ٢٦]

أى أظهرنا وحدنا المكان، وهو البدى سببى فيه سيدنا إبراهيم بالأحجار يبرز البيت، فالبيت - إذن - كان موجوداً من قبل.

ونلاحظ أن المساجد المنتشرة في الأرض لا بد أن يكون لها متجه واحد، لإله واحد، وحدد الحق هذا المكان بالقبة إلى الكعبة. وبعض المتحليلين يحاول أن يقلب المهم في قول الحق:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]

يقولون: إنما إن تجهنا إلى أى مكان سنجد وجه الله تعالى، ويقول:

الصحيح أن وجه الله عز وجل في كل الوجود، ولكن إياك أن تفهم أن تحديد الله للكعبة تكون متجهتا، أنها هي وجه الله، لأن لكنا مأمورون بالاتجاه لها في الصلاة. وأنت إذا نظرت أيضا إلى المسلمين في كل الدنيا سوب تجد أن كل مسلم في الأرض يتجه للكعبة في صلاته، ومادامت الكعبة مكررا، وكلنا نتجه إليه؛ فسوف تجد من يتجه وهو شرقا، وواحد يتجه وهو غربا، وواحد يتجه وهو شمالا، وواحد يتجه وهو جنوبا .

إذن ﴿فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ، ومادمت قد عرفنا أن المساجد محيزة ومخصصة لعبادة؛ فلا يجوز أن يأتي إليها مشرك، ولا تقبل أن يساهم في إصلاحها ولا تفاقتها مشرك؛ لأن الله غنى عن ذلك، وعليها أيضا ألا نناقش أمورنا الدنيوية في مسجد، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يأتى على الناس زمان يتحلقون في مساجدهم وليس همتهم إلا الدنيا، ليس لله فيهم حاجة ملائمتهم» (١)

كأنه لم يكفهم حب الدنيا فخارج المسجد ويظلمون في الدقائق التي يخصصونها للصلاة، فيجرعون الدنيا منهم إلى المسجد، وأقول لهم: لماذا لا تتركوا مصالح الدنيا في تلك الدقائق؟ إن الواحد منكم إنما يجب في سائر الدنيا في نعمة الله. إذن للجعل نصيبا من وقته لله صاحب النعمة

إذن لابد أن نعرف أننا ما دمنا قد خصصنا مكانا لعبادة الله، فلا بد أن نصحب هنا التخصص في المكانية إلى التخصص في المهمة التي يدخل الإنسان من أجلها للمسجد، فيتجه إلى الله؛ لأن المسجد خاص لعبادة الله؛ ومع أن الأرض كلها تصلح للصلاة، لكنك حين تأتي إلى المسجد أصبحت معك أخلاق التعبد. ويجب أن يكون الانفعال، والتفاعل، والحركة والنشاط كله في الله، ولذلك فأفضل ما تعله ساعة تدخل المسجد هو أن تتوى

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/٣٢٣) من حديث أنس رضي الله عنه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه رواه الذهبي

لا عكف فترع عكف من يوى أن يتكلم معك في أحوال الدي

نقد ورد الأثر النهى عن الحديث في المساجد لأنه يحبط العمل ويجزو
الحسرات ، وث قد تصع الحسرات كثيرا خارج المساجد ، ولكن عليك ألا
تدخل المسجد إلا بأذن المسجد ، فالحضور بين يدي الله تعالى في مسجده وفي
بيته به اذابه وسلوكه ، فيحب عبيك ألا تحطى ارقاب وهذه لا تنحاح إلى
تظيم ، بمعنى ألا تجعل الأماكن في الأمام حالية ، وفي الخلف مردحمة ، حتى
يستطيع أن يجلس كل من يحب أن يصلى دون أن يتحصى الرفاق ، ويكون
الحسوس في المساجد ، الأول دالأول ، ومكدا يتحقق الأدب لإيماني في المساجد

ويعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بالقرار على كل صفة نعقد
في المسجد ودعا على كل من يريد شئاً ذنبياً من المسجد ألا يوقفه الله فيه ،
ودعا على كل من ينشد صلاه في المسجد ألا يرد الله عليه ضالته ، حيث قال
صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه .
"إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أبيع الله تجارتك" وإذا
رأيتم من ينشد صلاته فقولوا لا ردها الله عليك" وهي حديث آخر له رضي
الله عنه قال إله سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . " من سمع رجلاً
ينشد صلاته في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا" .

فليجعل الحسوس في المسجد - إذن - خاصاً بالمعجم وهو الله ، أما في خارج
المسجد وفي سائر الأوقات ، فنحن نعيش مع لعمرة التي أجمع الله بها عبينا

(١) عن عبد الله بن بسر قال : جاء رجل يحطّر رفات ابن من يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يعطيه فقال له
رسول الله ﷺ : اجلس فقد آتاه خبرجه أحسن من مسجده (٤/١٩٠) وأبو داود (١١١٨)
والنسائي (٣/١٠٣)

(٢) أي لا أبيع الله فيها الربح ، لأنك أنت بها في محل جمع تذكر والصلوة وقرأه القر ، والبيع والشراء
مخلف في الأسواق خارج المساجد

(٣) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليله (ص ٧٣) والترمذي (٣٢٦) والبيهقي (١٣٢١) وقال حسن
عريب وكذا خازن (٥٦/٢) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه ، ورواه البيهقي

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٦٨) وأحمد (٢/٣٤٩) وأبو داود (٧٦٧)

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٢٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾
[آل عمران ٢٦، ٢٧]

وما دام بيت الله تعالى ﴿هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى أنه بيت لكل الناس وليس لمن يجلس فيه فقط، فكان إشرافات الحق وتجلياته، أعظم ما تكون في بيته أولاً، ثم تشيع الإشرافات والتجليات في جميع بيوت الله، وعلى عمارها والمتعبدين بها، وبيوت الله هي الأماكن التي تنزل فيها لرحمات من الحق سبحانه وتعالى، بدليل أنه سبحانه وتعالى حين تكلم عن سورة في سورة النور قال

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]

أى أن الذين يرون هذا النور وينزل عليهم هم عمار لمساجد وصورة النور جاء فيها - أيضاً - قول الله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

أى: أن سورة يملأ السموات والأرض، حين يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً للمعنويات ليتعرف إليها الناس فهو يقدم لها بأمر مادي يتفق عليه الكل، ليقترب الأمر المعنوي أو الغيبي إلى أذهان الناس؛ لأن الحسويات والغيبات يصعب إدراكها عن العباد، ولذلك بهر سبحانه وتعالى يقترب هذا الأمر وبيته بأن يضرب لنا مثلاً من الأمور المادية المحسوسة؛ حتى تقترب الصورة من لأذهاننا؛ لأننا جميعاً نرى الماديات. وبهذا يلحق سبحانه الأمر المعنوي وهو غير معلوم لنا بالأمر المادي الذي نعرفه؛ فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم.

وإذا كما في كون الله تعالى نحدد النهار إنما يكون نهاراً بإشراق الشمس

الواحدة لتي تنير نصف الكرة الأرضية ، ثم تنير النصف الثاني من بعد غروبها عن النصف الأول، فيتميز النهار بالصورة، ويتميز الليل بالظلمة، ومعنى النور في الحسب أنه شعاع يجعل الإنسان يرى ما حوله؛ حتى يستطيع أن يتحرك في الحياة دون أن يصطدم بالأشياء المحيطة به.

ولكن إن كانت الدنيا ظلاما فيصطدم الإنسان بما حوله ، وأمر من اثنين: إما أن يكون الإنسان أقوى من الشيء الذي اصطدم به فيحطمه، وإما أن يكون هذا الشيء أقوى من الإنسان فيصاب الإنسان إصابة متناسب مع قوة الشيء الذي اصطدم به. ولذي بحميك من أن تحطم أو تتحطم هو النور الذي تسير على هداه.

إذن ساعة أن يأتي النور، تصبح أمامك معالم الدنيا، وتكون خطاك على بنية من الأمور؛ فلا ترتطم بما هو أضعف منك فتحطمه، ولا يرتطم بك ما هو أقوى منك فيحطمك، هذا هو النور الحمسي، وأكبر ما فيه نور الشمس الذي يستفيد منه كل الخلق، المؤمن والمعاصي، والكافر والمشرک، والمسحر من حيوان أو نبات أو جماد، وهذا انور نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذي يعطي النعم للجميع خلقه في الدنيا سواء من آمنوا أم لم يؤمنوا^(١)

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد ما يستعين بنور يعطيه الصوء في خيز محدود وعلى قدر إمكانياته؛ فواحد بوقد شمعة، وواحد يأتي بمصباح «جاز» صغير، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتي بمصباح «نيون»، وواحد يأتي بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور، كل على قدر إمكانياته، فإذا طلعت شمس الله فهل يبقى أحد على مصباحه مضاء ؟ إن الجميع يهتفون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعت نير للجميع، ذلك هو النور الحمسي.

(١) من عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إله الله قسم بينكم أخلاقكم، أي قسم بينكم أوزنكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الذين إلا لئلا أحب» أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/١) وإسحاق في مستدركه (٣٣/١) (٤٤٧/٢) (١٦٥/٤) وصححه رواقه لهي وعمره «هينى في جميع الرواكد» (٢٢٨/١٠) لأعد وقال رجاله وثقوا وفيهم خلاف

وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى التجربة الحسية التي لا يتخلف فيها اثنان، إلا أننا رفضنا أن نطبق هذا على منهج الله وهو النور الذي أهدها لنا سبحانه وتعالى ليس لنا الطريق، وأبى بعضنا، لا أن يأخذ من ظلمات العقل البشري المحدود ما يعطيه طريقاً معوجاً في الحياة، فامتلات الدنيا بالفساد والفساد، ونسيبنا أن السبب في ذلك أننا تركنا نور منهج الله عز وجل لدى إعطائنا الحياة الآمنة الطيبة، ووضعنا لأنفسنا مناهج سببت اتعاسة والفساد في الكون.

ويقرب لنا الحق سبحانه وتعالى الأمر في مثل ما دى عن معنى سور الله فيقول سبحانه وتعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

أى - أن نوره سبحانه وتعالى يملأ السموات والأرض، وأنه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض فلا يترك جانباً منها مظلماً، وقال جل جلاله:

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]

والمشكاة^(١) هي «الطاقة المسددة بالحائط»، وهي عبارة عن مكعب مخرج في البناء داخل كل حجرة وكان أهل لريف يضعون فيه المصابيح لتنير، واستبدله أهل الريف والبادية حالياً بدفء صغير يوضع عليه المصباح، ودائرة صغيرة يخرج منها النور، ولأن ضوء المصباح مركزي هذه الفتحة، فهي تملأ بالنور الذي بدوره يشع في الحجرة. وحير المشكاة بالنسبة للحجرة التي توجد فيها قليل وصغير، والنور الذي يخرج منها، هو نور مركز يملأ الدائرة التي يخرج منها فلا يوجد فيها «مليحة» واحد مظلم، بل كلها نور، وإلا ما استطاع ضوءها أن ينير الحجرة لأن هذا النور قبل أن يضيء الحجرة لا يبد أن يكون

(١) «المشكاة» كره في الحائط غير مملوء يوضع فيه المصباح، وما يحمل عليه أو يوضع به لفتيل أو لمصباح وفي السريال التعريف (كمشكاة فيها يوضع) [لمعجم الوسيط الجزء الأول ص ٤٩٢]

مركزاً بأعلى درجة من التركيز في الدائرة التي يخرج منها.

إذن فنور الله سبحانه وتعالى في السموات والأرض نور شامل عام لا يندع مكاناً مظلياً. ولا مكاناً يغتفى فيه شيء بسبب الظلام، فإما كمثل تلك الدائرة لصغيرة التي يشع منها نور المصباح فلا نجد فيها ملليماً واحداً من الظلام، وقد سمى ما يعطى النور مصباحاً لأنه يعطى بشائر الصبح ثم يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِثْكَاهِ فِيهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ فِي زُجْجَةٍ ﴾ [النور ٣٥]

ونحن إذا أردنا أن نكثف النور فإننا نحيطه بالزجاج، ليحجب عنه الهواء الذي قد يؤثر على النور ويمنع تركيزه، والزجاجة التي تحيط بالمشكاة عاكسة للنور، وهذا كله يعطى معنى لتكثيف التركيز داخل المشكاة ثم يتقلل لمثل من بعد ذلك إلى الحجرة، فيقول الحق :

﴿ الزُّجْجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [النور ٣٥]

أي أن الزجاج يست عادية، ولكنها مصيئة بنفسها تشد النور نوراً. ومن أي شيء يوقد هذا المصباح؟ يجيب الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور ٣٥]

أي أن لشجرة المباركة ليست زيتونة فقط، ولكنها «لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ» أي أن النور يخرج منها غير متأثر بعزاج حار أو بارد بل يخرج منها النور الصافي في مزاج معتدل، وقد أطلقت كلمة «النور الصافي» على آخر مرحلة من مراحل الترفى في الضوء. ومرحلة الترفى بدأت من مشكاة ضيقة فيها مصباح غير عادي، والمصباح في زجاجة غير عادية بل تكثف الضوء، فتظهر وكأنها كوكب دري مضيء بذاته، والبريت الذي يضيء يخرج من زيتونة مباركة، بأعلى

درجات النقاء ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَكَادُ رِيَّتُهَا يُبْصِرُ وَلَوْ لَمْ تُنْمَسْ نَارٌ﴾ [النور: ٢٥]

أي: أن كل شيء مضيء بذاته، ويصف من قوة الضوء للنور، فالندائرة الصغيرة مضيئة؛ يزيد نورها رجاجة تكثف النور والرجاجة ذاتها مضيئة فتعطي إضاءة، والزيت مبارك ليست فيه أية شوائب فيعطي ضوءاً ساطعاً، ويوق ذلك كله. تجدد الزيت مضيئاً بذاته، دون أن تمسه النار، فكأنه نور على نور، فلا يصيح في هذه الندائرة الصغيرة أي نقطة مظلمة، كذلك تنوير الله لكونه المتسع فلا توجد فيه نقطة واحدة مظلمة، بل كله مغمور بنور الله، وإياك أن تظن أن هذا القول: ﴿الله نور﴾ هو تشبيه لله، بل هو تشبيه لتنوير الله سبحانه وتعالى لكونه الذي يشمل لسموات والأرض وما بينهما

وهناك قصة مشهورة للشاعر أبي تمام حين كان يمتدح أحد^(١) الخلفاء فقال:

إقدام عمرو^(٢) في سباحة حاتم^(٣) في حلم أحنف^(٤) في ذكاء إياس^(٥)

وهكذا جاء أشاعر بأولئك الذين اشتهروا بالإقدام والشجاعة كعمرو، وبالسباحة والكرم كحاتم، وبالحلم كأحنف بن قيس، وبالذكاء كإياس، وقال الشاعر عندها الخليفة: إنك قد جمعت كل هذه الصفات، التي لم تجمع في واحد من خلق الله من قبل.

(١) محمد بن المعتصم

(٢) عمرو بن معدى كرب الريمي هارون البعس

(٣) حاتم الطائي المشهور بالكرم

(٤) هو الأحنف بن قيس من مآذبات التابعين وكان شهيداً ومشهوراً بالحلم

(٥) كان قاضي البصرة ويضرب به المثل في العفة والذكاء.

ولكن أحد المحيطين بالخليفة قال: كيف تمدح الأمير بصفتها موجودة في
رعابها، والأمير هو كل ما وصفت، فهو أشجع من عمرو، وأكرم من حاتم،
وأحلم من أحنف، وأدكى من إياس

وأعطى الله الشاعر بصيرة ليرد على ارتجال ويقول:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس

فإنه قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والبراس

أى: أن الشاعر قال مثلا فقط وليس تحديدا

والحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَكَادُ رِيثُهَا يُضَيُّ، وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور ٣٠]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ [النور ٣٥]

أى أن كل شيء مضيء بذاته ليضيف نورا عن النور الموجود، فكما أن
الماديات تحتاج إلى نور يضيء لك الطريق، كذلك تحتاج المعنويات إلى نور
يضيء لك البصيرة والسلوك، فخذ مسيح الله تعالى لأنه لنور الساطع الذى
لا يمكن أن يضيء مثله ولا معه نور آخر، وإذا أردت أن تقرب الصورة إلى
الأذهان، فالله سبحانه وتعالى قال للقوم الذين يستمعون إلى دعوة رسوله ﷺ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا كُلَّ نَدَاءٍ لِّلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم بِمَا يُحْيِيكُم ﴾

[الأنفال ٢٤]

والذين يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بهذا الكلام أحياء، فكيف يقول لهم:
﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؟

نقول: إنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف بين حياة وحياة. فالحياة المادية

المنشئة في الحس والحركة والجري، هي الحصة الدنيا بأجلها المحدود، وإمكاناتها البسيطة، ولأنها حياة أغبر، لا تبقى فيها انعمة ولا تدوم لأحد، بل كل إنسان فيها إما أن تفارقه العمة بانزوال، وإما أن يفارقه هو بالموت، وهذه ليست هي الحياة التي يريد الله من الإنسان أن يعمل لها وحدها. أو يسعى ليمسك بها. فبسيها يفن كمن ما يستطيع لكي يأخذ منها حلالاً أو حراماً، ولكن الحياة التي يعالِب الله سبحانه وتعالى عباده أن يعملوا لها هي الحياة المستقيمة الحركة على منهج الله وتعود إلى حياة أخرى فيها نعيم لا يفارقك ولا تفارقه، وفيها أبدية تبقى ولا تنتهي، وفيها نعم عظيمة تأتي بقدرة الله تعالى، وليس بقدرة الشر المحدودة.

ذن فقله سبحانه وتعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال . ٢٤]

معناه أن الحياة حياتان؛ حياة تحرك هذه المادة ؛ فتتحرك وتجرى وتروح وتحيى، وهي تتصلح بالمهج الذي يقرود إلى حياة أخرى فوق حياة الدنيا.

إذن فالحياة الدنيا بها فيها من سعى وتعب وجهد وفناء ليست هي العاية التي يجب أن يسعى إليها الإنسان، بل على الإنسان أن يسعى إلى الحياة الأرقى. وسبحانه لا يريدنا أن نأخذ المرحلة الأولى من الحياة التي تحرك المادة فتتحرك وتجرى، بل يريد لنا حياة تقودنا بالقيم، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قال عن الحياة التي تحرك المادة:

﴿ وَإِذَا مَوْتُوهُ وَنَفَحْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (ص ١)

فهذه حياة المرحلة الأولى التي لا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نأخذها كعماية، ولكنه يريدنا أن نأخذها وسيلة لنصل بها إلى الحياة الراقية في كل صورها الخالدة بكل معانيها؛ انعمة في كل درجاتها وكما سئى الحق سبحانه

وتعالى الروح التي تنمخ في المادة فتعطىها المرحلة الأولى من الحياة روحاً ، فإنه كذلك سُمي المنهج الذي يعطىها المرحلة الثانية من الحياة روحاً ، حيث يقول :

﴿وَكَذَلِكَ أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرٍ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنَّ جِئْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [الشورى]

هذه هي روح المنهج التي تعطينا المرحلة الثانية من الحياة. فإن أخذنا نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فهو يثير لنا طريقنا في القيم والمعنويات، تماماً كما تير لنا شمس الله طريقنا في الحياة المادية. إذن فالخلق لم يترككم للنور المادى لحافظ على مادييتكم من أن تحطموا أو تتحطموا، وإلها أرسل إليكم نورا لتتهدوا به في مجال القيم .

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿تُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور . ٣٠]

ولم يقل سبحانه . «نور مع نور» ؛ لأن الإنسان لا يتكلف من الله إلا بعد أن يصل إلى من لبوح^(١) ، فالنور المادى يراه ويستفيد به قبل التكليف، ثم يأتي النور المعنوى فيلتقاه من الكتاب الذى أنزل على رسول الله عندما يبلغ سن التكليف فيتعرف على منهج الله

﴿تُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور ٣٥]

فلا يحجب الحق سبحانه وتعالى نور الشمس عن أحد ؛ لأنه نور لكل الخلق، وكذلك أنزل سبحانه وتعالى نور الهداية ليختاره كل من التمس الطريق

(١) عن علي رضي الله عنه قال . سمعت رسول الله ﷺ يقول : ارفع القسم من ثلاثة عن الصغير حتى يبلغ ، وعن الدائم حتى يستقظ ، وعن المصاب حتى يكتب عنه ، أخرجه أحمد (١/ ١١٦) وأبو داود (٤٢٩٩) - (٤٤٠٣) من طرق عن علي . والحكم في مستدركه (١/ ٢٥٨) وصححه وأقره الذهبي

إلى الهداية، وهذا النور المعنوي يختلف عن النور المادي، فالخلق لم يحرم - إذن - أحدا من النور المادي، وبناءً على ذلك لنور المعنوي ضمن اعتبارات الإنسان؛ إن شاء الله تعالى، وإن شاء الله تعالى. وكل ذلك مجرد مثل من الأمثلة التي يصر بها الله تعالى للناس؛ لذلك قال عز وجل:

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]

وجاءت الآية لي بعدها لتوضح لنا أين يرسل نور الله على عباده؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]

وعندما نسمع جارا ويجرورا لا بد أن نتحدث عن المتعلق بهما، فما الذي في بيوت الله؟ إنك حين تبحث عن إجابة لن تجد لها إلا في قوله تعالى:

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]

فكان المساجد وهي بيوت الله هي أماكن تلقى النور المعنوي من عند الله سبحانه وتعالى، وهو النور الذي يعطينا ارتقاء الروح؛ لتصل إلى المرحلة الثانية من الحياة، تماما كما يحدث في الدنيا عندما تصاب آفة يعطب أو لا تؤدي مهمتها على الوجه الأكمل، فالذي يصلحها ويصونها لتؤدي مهمتها المطلوبة منها هو المهندس الذي صممها. والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، فلا أحد يستطيع أن يدعى بها اجترأ على الله سبحانه وتعالى أنه خلق نفسه أو خلق الناس. وهذه دعوى لم يدعها أحد قط.

وما دام الله عز وجل هو الذي خلق، إذن فهو سبحانه وتعالى الذي يضع المنهج الذي يصون حياة الناس ويجعلها تؤدي مهمتها كاملة. وما دام ربنا هو الذي يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، فكيف يأتي إنسان من البشر ليقتت^(١) على

(١) يقتت يقول المائل ويقتنه

الحق سبحانه وتعالى ويقول : إنه وضع منهاجاً لحياة البشر، ويعلم الإنسان ما يصعد حياته لا ما يصلحها ونقول لكل من يفعل ذلك: لماذا تلجأ إلى من يصنع لتليغزبون ليصلح لك الجهاز إن أصابه عطل، ولماذا لا تلجأ إلى صانعك الذي يصلح لك نمطك؟

إن تردد المسلم على بيت الله ليكون في حضرة ربه دائماً هو إصلاح لما في النفس، فحين يقف المؤمن بين يدي الله ويصلي، يمتلئ بالرضا والتوازن النفسي؛ لأن الواحد منا لا يعرف ما الذي يصيب أي ملكة من ملكاته بالارتباك.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حربه أمر يقوم إلى الصلاة^(١)، وما معنى حربه أمر؟ أي: إن جاءه شيء أو أمر، وكان فوق طاقته. وفوق أمسه، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاهه، وتضيق عليه الأمور، فلماذا لا يتبع الواحد ما رسول الله صلى الله عليه وسلم كأموه حسنة، فإن قابل أمراً مكروهاً وشاقاً يعمل^(٢) إن لم يذهب إلى بيته وأصل فأنف في حضرته، فتحل أصعب وأعقد المشكلات إذن فساعة يأتيها أمر شديد، لا بد أن تتجه إلى الله عز وجل وأفضل مكان نتجى فيه إلى الله تعالى هو بيته. فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة ربيع شديدة كان مفزعاً إلى المسجد حتى تسكن الريح، وإذا حدث في أساء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعاً إلى الصلاة حتى تنجلي^(٣)

ومعنى من الذين يحترقون الجدل واللجاجة يقول: ماذا سيفعل الله لي أولئك الذي يعانى من شيء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو؟ ونقول: هذا الطاهر من الأمر، ولكنك لا تعرف ماذا حدث في داخله، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية، ولكن الله سبحانه وتعالى

(١) عن حذيفة قال: «كان النبي ﷺ إذا حربه أمر صلى». أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨ / ٥) وأبو داود في مسنده (١٣١٩).

(٢) أورده الميثاق في صحيح الروايات (٢٦١ / ٢) وصرفه للطبراني في الكبير من روايته وصادق بن صبر عن أبي الدرداء وقال: «لم أجد من ترجمه ببقية رجاله ثقات».

يعالج خاقل النفس دون أن نحس أنت لآل المساجد هي مطالع أنوار الله تعالى وهي التي يرسل فيها أنور على النور الذي يُصلح الحياء لدنيا ويرتقى بها؛ لأن أسرار الله تدخل القلوب فتجعلها تعلمش، وتدخل السموس فتجعلها تحس بالرضا والأمن.

إذن فالمساجد ما مهمة العبادة للطبيب^(١) الخالق الذي خلق هذه النفس ويعرف كيف يداويها، وليس لطبيب المدارس في كنية الطب الذي يعرف أشياء وتعب عنه أشياء. ونحس في المساجد إنها نعيش في حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منه التجليات والفيضات التي تعالج نفوس أكثر مما يعالجها أريج أطباء العالم، على أننا إذا دخلنا المسجد فنعرف أن لهذا المكان قدسية، ولا بد أن يحرص الإنسان على نظافته ومظهره، وليرتد أحسن ثيابه، لأن الله لا ينظر إلى نظافته أو أناقته، ولكن ليحرص كل منا على ألا يتأفف منه من يصلي بجانبه؛ فمن يعمل في مصنع ويحضر إلى المسجد بملابس العمل قد لا تناسب ملابسه مع الحجى إلى المسجد إلا بعد أن يعسل؛ إن ملابسه شرف له في عمله، ولكن حياءه أن يعيرها حين يذهب إلى المسجد^(٢) ومن يعمل في مكتب قد يكون الجو حار أو متلاً جسده بالعرق، وملابسه التي يوجد بها في وظيفته هي شرف له في عمله، ولكن عليه أن يغتسل، وأن تكون راحته طيبة حين يدخل المسجد ولذلك هي رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكل ثوماً أو بصلاً أن يأتي المسجد حتى لا يتأذى أحد بالرائحة التي تصدر من فمه. وقال صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف الذي يرويه جابر رضي الله عنه «من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزل أو فليعتزل مسجداً»^(٣)

(١) معبر الطبيب الخاق، الذي أسجدته ضيف الشيخ الشعراوي ما هو تعبير أسجدته رسول الله ﷺ وذلك في حديث أبي رزمة رضي الله عنه قال: اطلعت مع أبي بصير إلى رسول الله ﷺ، هو ذو ليلة، رده حياء عليه يردن أحضرا فقال له أبي: أرى هذا الذي يظهره من رجل حبيب، قال: والله العظيم، بل من رجل رقيق طيبه، فلهي خلقها.

(٢) وقد جاء في حديث رسول الله ﷺ فمن عاقبة قالت: إن ساسك ما عيان أنفسهم، وكانت ثيابهم السار (خلود أسدر) فكانوا يروحون في مههم كما هي، فقال رسول الله ﷺ: علموا عسلهم وما على أحدكم أن يندم ليوم طمعه نربس سوى نوبى مهته؛ أخرجه أحمد في مسنده (٦٣/٦) ولبخارى (٢٠٧٠) وابن ماجه (٩٦ - ٩٧) واللفظ تام لأبن ماجه.

(٣) متن عليه، أخرجه البخارى في صحيحه (٨٥٥)، ومسلم، (٥٦٤) من حديث جابر بن عبد الله.

وفي رواية لمسلم: «من أكل البصل والثوم والكرات فلا يقرب من مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»^(١). ولذلك على المسلم أن يحرص أن تكون الإقامة في المسجد طيبة، لتكون الأفضلة منشرة. ويجب أن نراعى جلال المسجد، لأننا نعرف أن الرحمة تتسول على الصف الأول ثم الذي يليه^(٢)، فلا يحول واحد منا أن يحجز مكاناً بالصف الأول بأن يضع فيه سجاده خاصة أو كوفه، ثم يأتي أحياناً بعد إقامة الصلاة ويحول اقتحام الصفوف ليصل إلى الصف الأول.

وإياك أن تعتقد أن الصف الأول محجور لشخص معين ولو أتى متأخراً، فكل إنسان يأتي للمسجد عليه أن يأخذ دوره، ويقعد في المكان الخالي وإياك أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الدين بتكثّر مهم الصف الأول، إنهم هؤلاء الذين جاءوا للمسجد أولاً أما أن نحضر للمسجد ونحجز مكاناً في الصف الأول لصديق أو قريب بحيث إذا جاء إنسان آخر ليصلي في هذا المكان قلت له: «إن المكان محجوز تقول لك أنت حر أن تفعل ذلك في بيتك، ولكن من جاء إلى بيت الله أولاً فليجلس أولاً، وكثير ما تحدث مسألة الحجز للأماكن في مواسم الحج والعمرة وعلى من يجد مكاناً قد حُجِرَ بسجادة أو أي شيء آخر أن يزجها بعيداً ويصلي».

وأنت في بيت الله تكون في ضيافة الله. وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد في بيتك على غير دعوة فأنت تكرمه، فإذا كان العجىء عن موعد فكرمك يكون كبيراً. فما بالنا بكرم من حلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يحزبك من قبض كرمه من ساعة أن تنوي زيارته في بيته، فأنت في صلاة منذ أن تبدأ في الوضوء في بيتك استعداداً للصلاة في المسجد، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يعطيل عليك نعمة أن تكون في حضرته.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٦٤) كتاب المساجد

(٢) عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصدون على الصف الأول، قالوا: يا رسول الله وعن الثامي؟ قال: وعن الثامي: أخرجه أحمد (٢٦٢/٥) والطبراني في المعجم الكبير (٢٠٥/٨) قال الثامي في المعجم (٩١/٢) رجال أحمد موثقون»

وسبحانه وتعالى حين يدعونا إلى بيته بالأذان، فلك أن تعلم أنك إن خالفت هذه الدعوة تعاقب^(١)، ولكن ليس معنى هذا أن الله لم ييسر لك بيته لتزوره في أي وقت، فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تمثل الحرج من الله سبحانه وتعالى على أن يهلكك ليعطيك من فيوضاته ما تستعين به على مكدرات الحياة. ولكن إن أحببت أن تجلس في المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل. تعالى في أي وقت وصل كما تشاء، فإذا قلت: «الله أكبر» تكون في حصة الله. وإن لم تستطع فصلواتك الخمس في اليوم الواحد هي القسط الضروري لصيانة نفسك لزمته؛ لأنك تقبل ريث أثناء الصلاة وتعلم الولاء له.

فانصلا إذه خير أراهم الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أن تقى إلى مهجه الذي يصلح بالك، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب، بل تأخذ أنت بالأسباب وحين تسمع «الله أكبر» ينادي بها المؤذن لصلاة الظهر - مثلاً - فعليك أن تترك أسباب الدنيا وتذهب لتصف بين يدي الله عروجل، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر، ثم أذان المغرب، ثم أذان المشاء، وكل هذا تذكير لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه. وأطول فترة بين العشاء ولغجر تكون فيها نالعين فلا بأخذنا متع الدنيا.

إذن والله سبحانه ونعمي يريد منا الولاء دائماً. فإذا كنت تعتز بالله فانت تسليم الولاء له باستمرار الصلاة، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له، فإنه سبحانه يزيدك عزة^(٢) ويكون معك دائماً، ويعيك ذل الدنيا

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عجز» أخرجه ابن ماجه في سنه (٧٩٣) والدارقطني في سنه (٤٦٠/١) والطبراني في معجمه الكبير (٤٤٦/١١) بسند صحيح

(٢) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ قال «عليك بكثرة السجود لله، فبذلك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنتها خطيئة» أخرجه مسلم في صحيحه (٤٨٨) وأحمد في مستدره (٢٧٦/٥) وأخرجه ابن ماجه في سنه (١٤٢٣) بإسناد صحيح من عبد يسجد لله سجدة الخديث.

وقلنا ندينا: إن الإنسان إذا ما أراد أن يقابل عظيم من العظماء فهو يطلب المقابلة، وقد يقبل هذا العظيم مبدأ اللقاء وقد لا يقبل، فإن قبل حدد اليوم والساعة والمكان وفترة الزيارة. فإن أردت أن تطيل فهو يقوم واقفاً إعلناً بأن الزيارة قد انتهت

ولكن الحق سبحانه وتعالى بمطلق الكرم لا يعامل خلقه هكذا، فينته مفتوح دائماً حين يدعوك للصلوات الخمس، فهذا أمر ضروري، ولكن بين الصلوات الخمس إن أردت لقاء الله سبحانه يملك في أي وقت وتدعوه بها تشاء، وتطيل في حضرته كما تريد، ولا يقول لك أحد: إن الزيارة قد انتهت. وأذكركم دائماً بقول الشاعر:

حَسْبُ نَفْسِي عِزًّا بَأْنِي حَبْدُ

يَحْتَنِي بِي بِلَا مَوَاعِيدِ رَبِّ

هُوَ فِي قُدْسِهِ الْأَعَزِّ رَأْسِي

أَمَا أَلْقَى مَتَى وَابْنَ أَحَبِّ



ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٧]

لأن المساجد مخصصة لعبادة الله تعالى، فمن غير المنطقي أن يسيها أو يجلس فيها مشرك أو كافر، وقوله تعالى: «ما كان» أي ما ينبغي، وقوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ أي هم الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر،

شهادتهم بالحل، وبالمقال، كما تشهد على أنفسنا بالإيمان حين نلبس في الحج والعمرة ونقول: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، أي أننا نره الله تعالى عن الشرك

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، و﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المشركين الذين شهدوا على أنفسهم بالكفر، وحكم الله ألا يعمروا مساجد الله، و﴿حَبِطَتْ﴾ أي نزلت من مستوى عال إلى مستواها الحقيقي دون مستواها الشكلي، فتجد العمل وكأنه منقرخ كالبالون المضخم، وهو في حقيقته مجرد فقاعة ضخمة ما تلبث أن تنكمش أو تسقط، فهي أعمال لا قيمة لها، وليس لها حصيلة ، لأنها أعمال باطلة. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هَلْ تَبْنُونَ إِلَّا خُسْرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠) الَّذِينَ صَنَعْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١﴾ [الكهف ١]

ونجد الواحد من هؤلاء يظل يعمل ويعمل، ويظن أنه سوف يبنى خيراً كثيراً من هذا العمل، وقد يكون العمل مهيداً بعيداً عن الناس، ولكنه افتقد البنية، فمستد نتيجة لذلك. والقرآن الكريم يعرض لحبوط الأعمال في آيات كثيرة والمثال هو قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقَاتٍ حِسَابَةٍ﴾ [التور ٢٩]

ولسراب هو ما يجهل إليك بلمعانه أنه ماء في الصحراء. وعندما تذهب إليه لا تجد شيئاً والذي لا يحس بالطعام قد لا يلتفت إلى ذلك. ولكن لظمان تتعلق نفسه بالماء، فيجبل بصره في كل مكان يبحث عنه، فإذا رأى أي لمعان حسبه ماء، وعندما يجيء إليه لا يجد شيئاً، ولبت الأمر يقتصر على ذلك، بل هو

يحب الله عنده ليوثيه الحساب. ومثل هذا الإنسان لم يضع الله في باله يوماً من الأيام، وليس مثل هذا الإنسان عند الله تكريم أو ثواب. لأن الإنسان يطيب أجره عن عمل له وهو لم يعمل عمله وفي باله الله

وأنت إذا صنعت معروفاً تفقد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيراً، ولكن إن عملت معروفاً لتحقيق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله، ولا بد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفي باله الله خالقه، والمتفضل عليه بالنعيم، وإن أطعمت فقيراً فلتطعمه لوجه الله، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك، إنك صاحب مروءة. ومن يفعلون الخير عذيم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل في سالمهم، لأن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتي منهم خبر هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التي توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها، فمن بُني من أجله المسجد وهو الله عليهم بكل شيء، ويعلم اسم من أدام البناء، وعليك أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة، حتى لا تدخل في دائرة «عمل» يُقال وقد قيل: «وحتى المقاتل الذي يجرب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع، لأنه إن فعل، حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ويروى لرسول صلى الله عليه وسلم جراء المرائين في حديثه الشريف الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام: «أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لي قال فلان جرى، فقد قبل، ثم أمر به فشجى على وجهه حتى أتى في سار، ورجل تعلم لعلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال:

تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم لي قال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال قدي . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أقبل في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكن ليقال : إنه جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب عن وجهه فألقى في النار^(١)

وعلى ذلك فالإنسان إن لم يضع الله في سبيله وهو يعمل فسوف يجد الله يحاسبه على أساس أن عمله غير مقبول ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية ثانية .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ . [إبراهيم : ١٨]

ولك أن تتصور ماذا تفعل العاصفة في الرماد ، إنها لا تبقى منه شيئاً . والمشرک الذي كان يدخل المسجد ويسقى الناس من عصير العنب غير المخمر ، ويقوم بعمارة المسجد الحرام قبل تحريم الله لدخول أمثاله إلى هذا المكان ، هذا المشرک لم يكن ليأخذ ثواباً ، لأنه ارتكب خيانة عظيمة بأن أشرك بالله ، بينما يأخذ المؤمن الثواب لأنه يدخل المسجد ويعمره وهو مؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ أَرَأَيْتَ كَيْفَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [التوبة : ١٧]

لأنهم عملوا لغير الله فلفسوا الله بلا عمل . ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك .

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥) وأحمد (٣٢٢/٢) ، السنن في سنته (٢٤٠/٢٣) عن أبي هريرة ، واللفظ للسنن .

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ
إِلَّا اللَّهَ فَحَسْبَىٰ أَوْلِيًّا ۚ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۚ



الإيمان : هو إيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والعذر
غيره وشراء وقمة الإيمان شهادة أن «لا إله إلا الله» وأن محمداً رسول الله .
وكانت هناك حساسية عند أهل قريش من مسألة الرسول هذه ، وأنه محمد بن
عبد الله ، وبعضهم قد قال . القرآن جبين ورائع فلماذا جاء على سنان محمد ؟
وكان اعتراض كبار قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القول الذي
حكاه القرآن عنهم :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ ۚ ﴾ [الزخرف ٤٣]
إذن فالمشكلة عندهم لم تكن في القرآن ذاته ، بل كانت في شخص رسول
الله صلى الله عليه وسلم .^(١)

ويورد الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ قَسِمْنَا بِئِهِمْ مَعِشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ۚ ﴾ [الزخرف ٢٦]

أي أن رحمة الله تعالى خاصة به ، لا يقسمها إلا هو بمشيئته ، يقسمها كيف

(١) ولا يطمس في هذا أن الله عز وجل قد حكى عن مشركي قريش أنهم قالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً)
(ص ٥) وأن منهم من (ضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من ينسج العظام ومن مبهم) [يس ٧٨] ، فقد
يكون ذلك عند بعضهم ستراً من حقيقة رفضه لشخص الرسول ﷺ من عند نفسه وكبرا

بشاء كما قسم بينهم معيشتهم وأعطاهم الرق المادى ، وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم فى الأدنى ، فكيف يريدون هم أن يتصرفوا فى الأعلى ؟ لقد قالوا ما جاء فى القرآن على ألسنتهم :

﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْسِلْ
بِعَذَابِ الْيَوْمِ (٢٦)﴾ [التوبة]

وكان المطلق الصواب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولكنهم بغياهم طلبوا الموت بدلاً من الهداية . فقد كانت عصيتهم إذن - صد شحص الرسول ﷺ .

وكان على من يعلن إيمانه بالله منهم أن يشهد أن محمداً ﷺ هو رسول الله والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿إِنَّمَا يَغُورُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (١٨)﴾ [التوبة]

وهذا القول يحمل فى مصمونه إيماناً برسول الله ﷺ ؛ لأن الله يقول بعدها : ﴿وأقام الصلاة﴾ وقامة الصلاة لا تصح منهم إلا إذا آمنوا برسول الله ﷺ فهو لدى قال لنا إنها خمس (١) ، وهو الذى علمنا كيف نؤديها وماذا نقول فيها ، وهو الذى شهد له ونحن نصلى ؛ فى الإقامة وفى التشهد ، إذن فساعة تقيم الصلاة لا بد أن تكون مؤممين برسول الله ﷺ وعلى ذلك فقولته تعالى : ﴿وأقام الصلاة﴾ يقتضى ضرورة الإيمان برسول الله ﷺ ، واشترط سبحانه وتعالى فى هذه الآية

(١) عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أخبرني بما افترض الله على من الصلاة فقال : افترض الله على عبادة صلوات خمساً ، الحديث أخرجه أحمد (٢٦٧/٣) والحاكم فى مستدركة (١/٦٠١) وحسب والدارقطني فى سننه (١/٢٢٩)

الكريمة الإيثار به وباليوم الآخر وإقام الصلاة وفي طيها الإيمان بوسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إيشاء الزكاة، وطلب منا ألا نخشى غيره، والخشية هي الخوف، وسبحانه وتعلى قد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿وَأَمَّا نَحْنُ فَأَنْتَ مِنْ قَوْمٍ مُّخِيَّاتٍ فَأَنْبِئْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]

إذن هناك خوف من أشياء أخرى، ونقول إن الحق حين قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أى لم يخش فى دينه إلا الله، لكن لأماع من الخشية التى تجعلك تعد لعدوك وتحذر عدوانه عليك. وانظر إلى دقة القرآن الكريم وعظمته، فقد جمع فى آية واحدة بين الإيمان بالله واليوم الآخر والصلاة والزكاة، ولم يأت فيها ذكر الإيمان بالرسول ؛ لأنه مسألة مطوية فى أركان الإيمان، ومن يفعل ذلك يدخل فى زمرة من وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]

ولقائل أن يقول كيف بعد أن آمنوا بكل هذا نقول: عسى...؟ إذن بما حكم الذى م يؤمن؟

ونقول إن «عسى» والعل «أفعال رجاء، وذكرها يعنى الرجاء فى أن يحقق ما يأتى بعدها، ومراتب الرجاء بالنسبة للنفس والنسبة للغير وبالنسبة لله تختلف، أنت تقول مثلاً: اسأل فلاناً لعله يعطيك، هذه مرتبة من الرجاء، وتقول: لعل أعطيك، وهذه أقرب إلى التحقيق من أن أرجو عيرى أن يعطيك.

إذن هى مرحلة أعى فى الإجابة، وأن تقول: لعل الله يعطيك مرحلة ثانية وعالية من الرجاء ؛ لأنك نرجو الله ولا نرجو أحداً من البشر والله سبحانه

وتعالى كريم يعطى بسخاء، ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى عن نفسه: لعل أعطيتك، فيكون هذا توقعاً مؤكداً للعطاء.

إذن فمرحل الرجاء؛ رجاء لعيرك من غيرك، ورجاء منك لغيرك، ورجاء من الله لسوك، وقول من الله بالرجاء. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨]

تقول: إنه الرجاء المحقق؛ لأنه سبحانه وتعالى كريم يحب أن يرحمنا ولا شيء يمنعه من أن يحقق ذلك. إذن فيكون الرجاء قد تحقق. وقوله تعالى:

﴿فَعَسَىٰٓ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]

والهداية إما أن تكون هداية إلى سبيل يؤدي لحياة، أي يهدينا الله للمنتهج، فإن عملك به نصل إلى الجنة، لأن المنتهج هو الطريق للجنة، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول عن الكفار:

﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]

إذن فالهداية مرة تكون للمنتهج فتضمن به وعمل به، وإما لطريق يوصل إلى خاية. والذين ذكرهم الله في هذه الآية الكريمة هم كل:

﴿مَن آتَىٰ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَقْسَامَ الصَّلَاةِ وَآتَىٰ الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]

وما داموا قد فعلوا ذلك، فهذا هو تطبيق المنتهج، وبذلك فهم - إن شاء الله - لا بد أن تكون نهايتهم الجنة.

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٢٤١) كل عسى في القرآن من رغبة، وقال محمد بن إسحق وعسى من الله حق

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ
عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١١ ﴾

جاءت هذه الآية رداً على كفار مكة الذين أسروا في غزوة بدر، وكان منهم
لعباس عم رسول الله ﷺ حين تحدث إليه بعض من الصحابة يدعونه للإسلام
 وللجهاد في سبيل الله فقال : إنا نسقى الحجيج ونرعى البيت، ونفك
العاسي، ونقوم بعمارة البيت الحرام^(١) قال العباس ذلك ولم يكن قد أسلم بعد .
وماقاله العباس هو موجز رأى أهل اشرك من فريش، الذين جعلوا هذه المسائل
مقابل الإيمان بالله والجهاد في سبيله . وجاء قول الحق ليؤكد أن الكفة خبير
راجحة فقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ .. (١١) ﴾ .

وكلمة ﴿ سِقَايَةَ ﴾ تطلق ثلاث إطلاقات : فهي المكان الذي يجتمع فيه الماء
ليشرب منه الناس والذي نسميه السبيل . وكذلك تطلق السقاية : على الإناء
الذي نشرب منه الماء ، والذي يرفع إلى العم كالكوب والكأس أو يسمى صواع
الملك ، وفي قصة يوسف عليه السلام يأتي القول الكريم :

﴿ فَلَمَّا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أُخِيهِ .. (٧) ﴾ [يوسف]

أما المعنى الثالث : فهو الحرفة نفسها ، فنقول : هذه حياطة ، وهذه حدادة

(١) ويقول ابن كثير : قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس عن تفسير هذه الآية : شرب من العباس بن عبد
المطلب حين أسرى ببدر . ثم كنتم سيقوناً بالإسلام والهجرة والجهاد بعد كنا نحمي المسجد الحرام
ونسقى الحاج ونفك العاسي قال الله عز وجل (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله (والله لا يهدي القوم
الظالمين) يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا قبل ما كان في الشرك . تفسير ابن كثير (٢ / ٣٤١) .

وهذه سقاية، أى أنه عمل يتصل بسقاية الناس، فالسقاية - إذن - هى المكان الواسع الذى يتجمع فيه الماء، أو الإناء الذى نستعمله فى الشرب، أو الحفرة التى يقوم بها السقا.

وهما يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِآيَاتِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾^(١)

فإن كنتم تقتصرون بأنكم تحترفون سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام وتجعلون هذا فى مقابل الإسلام، فذلك لا يصلح أبداً كمقابل للإيمان، ولا تتساوى كفة الإيمان بالله واليوم الآخر أبداً مع كفة سقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام. ومن يقل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وله مطلق المشيئة فى أن يتقبل العمل أو لا يتقبله. والمؤمن لمجاهد فى سبيل الله إنما يطلب الجزاء من الله، أم من يسقى الحاج ويعمر يربى الله دون أن يعترف بوحدة الله كما المشركين - قبل الإسلام - فهو يطلب الجزاء ممن عمن من أجلهم، ولأنه سبحانه هو معطى الجزاء، فهو جل وعلا يوضح لنا أن هذين العاملين لا يستويان عنده، أى لا يساوى أحدهما الآخر فى الجزاء.

ويقول^(٢): إن سيدنا الإمام علياً رضى الله عنه، وكرم الله وجهه، عر على طلحة بن شيبه (والعباس ووجداه يتفحران، أى: يتفاخر كل منهما الآخر بالمناقب التى يعتز بها، ليثبت أنه أحسن وأفضل منه. وكانت المناظرة من طبع العرب حتى فى الأسماء التى ليس لهم فيها فضل، والمناظرة لهم من الله عز وجل مثل الشكل ونسب إلى آخرون، لأن أحداً لا يختار أباه وأمه ليتفاخر بهما وإنما كل ذلك هو عطية من الله سبحانه وتعالى.

(١) فكرة ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٤١) من قول محمد بن كعب القرظى وعمره لابن جرير بسند وفيه ابن أبيه فى كلام

لقد كان العرب مثلاً يجلسون أمام مكان ممتلئ بالماء يتفاحرون أيهم يغطس في الماء، ويبتغي رأسه تحت الماء مدة أطول، أي أيهم أطول نفساً من الآخر، مع أن هذه مسألة حاضرة لبنية الجسم وتكوينها من الله الخالق، وليس لأحد يد فيها، بهتك من أعطاه الله رخصين أقوى من الآخر، وهو الذي يستطيع أن يغطس مدة أطول، ولكن هذه المسألة كانت من أوجه التماخر عند العرب.

حسن طلحة والعباس يتماخران، فقال طلحة بن شيبه بيدي مفتوح الكعبة، ولو شئت أن أنام فيها لنامت.

فرد عليه العباس: وأنا معي سفينة الحاج، ولو شئت ألا أسقى أحداً لاستطعت. روى الإمام علي كرم الله وجهه عليها وهما يتماخران، علما سمع كلامهما قال: ما أدري ما تقولان لقد حبلت سنة أشهر قبل لناس، وأب صاحب الجهاد فتزلت الآية:

﴿اجْعَلْكُمْ سَفِينَةَ نَاجٍ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَحَافِظَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَخْلِفُونَ عَنكَ اللَّهُ﴾ [التوبة ١١٩]

ولم يكذ العباس يسمع هذه الآية حتى قال: «إننا قد رضىنا، إننا قد رضىنا»، قال ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي حكم، وفي هذا القول إشارة إلى أن التماخرة التي كانت بين العباس وطلحة لم تكن في موضعها

وكلمة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في الآية الكريمة تفيد: أن المقاييس عند الله تختلف عن المقاييس عند البشر؛ لأن المقاييس عادة تختلف حتى بين الناس، ملك مقاييس وللكس مقاييس. وقد تهامل نفسك في مقاييسك. وقد يهاملك الناس في مقاييسهم، أو قد يفسدون عليك. وكل مقياس يكون فيه هوى؛ لأن كل إنسان إنما يؤثر نفسه. وكل إنسان يمار أن يأخذ كل شيء. ولكن المقاييس

لتي لا هوى فيها والتي ليس فيها إلا العبد المطلق هي مقاييس الله، ولذلك
سجدوا تحب كل شيء، وليس فيها أى فرصة للطعن .

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ٢٩]

وهذه أوجدت الحل لمشكلات متعددة يثيرها بعض الناس حول الهداية،
وكيف أنها من الله سبحانه وتعالى وليست من العبد لقوله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص ٥٦]

نقول: نعم، إن مشيئة الهدى من الله سبحانه وتعالى، لكنه سبحانه قد
أوضح لنا من لا يدخلهم في مشيئة هديه، فقال:

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦١]

وقال سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

وقال سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨]

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقائق في الكثير من آيات القرآن
الكريم وبعض الناس يقول: إن الهدى من الله، ولو أن الله هداى ما قُلت،
وما سرقت وما ارتشيت، ونقول: هذا فهم خاطيء، ونرجع إلى القرآن الكريم،
فالحق تشارك وتعالى يقول: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي ﴾ أى نفي ما يستوجب الهداية عمن
ظلم أو فسق أو كفر، لأن الحق سبحانه لا يهدي من قدم الكفر أو قدم الظلم

أو قدم الفسق؛ فكان الكافر أو الظالم أو الفاسق، هو الذى يسمع الهداية عن نفسه. ولو قدم الإنسان الإيمان لدخل في هداية الله تعالى، فكان خروج الإنسان من مشيئة هداية الله هي مسألة من عمل الإنسان وباختياره، فقد يختار الإنسان طريق الغواية، ويترك طريق الهداية؛ لذلك لا يهدي الله؛ لأنه سبحانه لا يهدي إلا المؤمن به. وإن اختار الإنسان طريق الهداية، فالحق يعطيه المزيد من الهدى؛ لأنه آمن بالله؛ فاختار طريق الهداية، واستقبل منهج الله بالوضوح. وهكذا نفهم قول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّا اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]

إذن فالحق يهدي من استمع إلى القرآن بروح الإيمان، واستقر في يقينه أن له رباً، واعتقد أن له إلهاً، وقد فصلنا ذلك في مسألة انقضاء والقدر؛ ولما إن الذين يقرأون القرآن لهم قضية الهداية عليهم أن يستفسروا كل الآيات المتعلقة بالموضوع، فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لا يهدي الكافر، إذن فهو يهدي المؤمن، وأوضح أنه لا يهدي العالم، إذن فهو يهدي العادل، وأوضح أنه جل وعلا لا يهدي الفاسق، إذن فهو يهدي لطائع، فلا يقولن أحد: إن الله لم يشأ أن يهدي؛ لأن هذا فهم خاطيء لمعنى الهداية من الله؛ فسبحانه وتعالى قد بين لنا من شاء هدايته ومن شاء إضلاله، وهو يهدي من قدم أسباب الهداية، وأسلم مقاليد زمامه للإيمان، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦) [مريم]

ويقول أيضاً:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (١٧) [محمد]

في فائله أخبرنا مسبقاً بمن يستحق هديته ومن لا يدخل فيها ، وأنت
باختيارك صديقك ، إما أن تؤمن ؟ فتدخل في الهداية ، وإما أن تختار طريق
الكفر والظلم ولعياذ بالله ، فتمتنع عنك الهداية . فإذا جاء أحد يجددك ؟
ويقول لك . إن الله سبحانه وتعالى قد قال .

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ (٢١) ﴾ [سورة المائدة]

لك أن تقول له لقد بين الله عز وجل من شاء له الهداية ، ومن شاء له
الضلال ، ولقد صرنا لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - فقننا : إن الهداية قد
وردت في القرآن الكريم على معنيين - المعنى الأول هو الدلالة على الطريق ،
وهذه الهداية للجميع^(١) ، فقد دل الله المؤمنين والكافرين على طريق الإيمان برسبه
وكتسه ، أي : بين لهم ما يرضيه وما يغضبه وما يوجب رحمته وما يوجب
لعنته ، والهداية الأولى - إذن - وردت بمعنى الدلالة للجميع ، أي : أهدانا
هداية عامة . ثم هناك هداية ثانية خاصة للمؤمنين ، وهي التي بينها الله سبحانه
وتعالى في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى وَأَنَّا هُم تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [سورة محمد]

أي : أعانهم على منهجه ؛ فبسر لهم الطاعة وصعب عليهم المعاصي ، فإذا
مثل المؤمن لمنهج الله وأطاعه ، فخلق عز وجل يشرح صدره بذلك ، ويجيب
لطاعة إليه ؛ فيزداد طاعة . ويد شرع في ارتكاب المعصية ، يعصها له وجعلها
ثقيلة على نفسه حتى يتركها^(٢) .

وصرنا لذلك مثلاً بالرجل الذي يقود سيارته ذاهباً لمكان معين . وعند

(١) ومن هذه الهداية قول رسول الله ﷺ يعني بن أبي طالب في حديث طويل : « لأن يهديني الله بك رجلاً
واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم » أخرجه البخاري (٢٩٤٢) ، ومسلم (٢٤١٦) في
صحيحيهما

(٢) وهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبُ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ رَدِيحٌ فِي قُلُوبِكُمْ وَتَوَهُ بَكُمْ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْمَعْصِيَاتُ
أُولَئِكَ هُمِ الْفَاسِقُونَ (١٧) ﴾ [سورة محمد]

إذن ﴿لَهَيْتُنَاهُمْ﴾ في هذه الآية الكريمة معناها دللناهم على طريق الإيمان
ولكنهم اختاروا طريق العمى والكفر.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْقَائِرُونَ ﴿٢﴾﴾

وهي سورة الأنفال تصنيف آخر في قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ
هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال]

وفي هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كان تصنيف المؤمنين بعد الهجرة
مباشرة، وانتهت الهجرة؛ وأصبح الجميع سواء، فجاء التصنيف الجامع في آية
التوبة.

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى أن هذه الأعمال لم تكن مقبولة من
المشركين، أما إن قام بها المؤمنون فلهم درجة عند الله. وفي هذه الآية الكريمة
يصفهم الحق بأنهم ﴿أَكْظَمُ دَرَجَةً﴾، و﴿أَكْظَمُ﴾ صيغة أفعال التفصيل، وهي
تعطى قدراً زائداً عن الأصل المعترف به، فيقال : فلان أعلم من فلان وبهذا
يكون الشخص الثاني عالماً، ولكن الشخص الأول أعلم منه. ويقال : فلان
أكرم من فلان، أي أن الموصوف الثاني كريم، والموصوف الأول أكرم منه والله

سبحانه وتعالى أورد أن يبين لنا الفوز عنده، فقال:

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَىٰكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى ، وهم المؤمنون المهاجرون، والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ولقوز حكم يؤدي إلى أن تأخذ ماتمبه نفسك. فقال الحق موضحاً ميفوزون به:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَىٰكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

ومبادام هؤلاء هم الفائزون، فالقوز إنما يكون في مضارين اثنين فلذين يصنعون أموراً حصية بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم، ولكن نعيمهم على قدر مكاناتهم؛ وهو نعيم غير دائم ؛ لأنه إما أن يزول عنهم بذهاب النعمة، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت، إذن فهو نعيم ناقص.

أما الذي يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لأخترته، فسوف يفوز بنعيم لا على قدر إمكاناته، ولكن على قدر إمكانات الله، ولامقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خلقه. وفوق ذلك فهو نعيم دائم لا يتركك ميزول عنك، ولا تتركه لأنك في الحنة خالد لا تموت.

ثم يذكر الحق بعد ذلك قوله تعالى .

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَوَرْدٍ مِنْ جَنَّاتٍ

لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾

إذن مهد: نعمة الفوز بلقوم الدين يشرفهم الله في هذه الآية بالرحمة منه والرضوان المقيم والبشارة - كما تعلم - هي نوع من الإعلام بشيء سوف يأتي مستقبلاً ، أى ، أنك حين تبشر إنساناً فأنت تخبره بشيء قادم يسره

إذن فائدة البشارة أن تغرى الإنسان بسلوك السبيل الذى يحققها، فأنا أشرك بالنجاح إن استعصمت وذاكرت واستعصمت للأساتذة ، وبشجعك كلامي لتحتهد حتى تحقق هذه البشارة، فكأن لبشارة نجعلك تتخذ الوسيلة التى توصلك إليها

ولذلك فقد فك . إن الأسباب والمسببات وأربعة والمعلول والشرط والجواب؛ كلها يجب أن تحرر بشكل آخر، لأننا كنا نتعلم أن الشرط سبب في الجواب، كقولك: «إن تذاكر تسجح»، وعلى ذلك فالشرط هو المذاكرة، وسبب الجواب هو النجاح، ويقول: لا، إن الجواب هو السبب في الشرط لأنك لا تذكر إلا إذا مثل لك النجاح تكن ما يحققه لك من فرحة، إذن فالشرط سبب في وجود الجواب واقعاً والجواب سبب في وجود الشرط واقعاً، أى: أن الدافع لمذاكرتك هو ما يمثله لك النجاح من قيمة مادية ومعنوية. وكل إنسان يرغب في النجاح، لكن النجاح لا يتحقق بالدعاء فقط، بل بالمذاكرة التى تحقق النجاح كواقع. بمعنى أنك لا تذكر إلا وقد مثل لك النجاح بمواهبه ومزاياه ويمكن أن يفرح أهلك بك، ويفرحك بنفسك. ولهذا نقول: إن السبب هو الذى يوجد أولاً في الذهن

ومثل آخر: لفترض أنك تريد أن تسافر إلى العائف، فتكون لطائف هي العاية، وتكون أنت قد خططت للوسيلة رفى ذهنتك الغاية، إذن فالجواب يوجد دفعاء والشرط يوجد واقعاً. وقوله تعالى: ﴿يَسْرُسْهُمْ رُسْهُمْ﴾ أى يخبرهم بالنهاية السارة التى سوف يصلون إليها لينحملوا مشقة التكالييف التى يأمرهم

فظاهر الأمر أنك تَكِدْتِ حريتك، وإن فعلت ذلك برضا، فالله يعطيك راحة واطمئنانا ومتعة في النفس. ولذلك نجد الصلاة وهي التي يؤديها المسلم خمس مرات في ايوم على الأقل؛ هذه الصلاة في ظاهرها أنها تأخذ بعضا من الوقت كل يوم، ولكنها تعطى راحة نفسية، كما أنها تعطى اقتناعا يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأداها محققا، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «بإبلاؤ أرْحًا بالصلاة»^(١).

كما قال صلى الله عليه وسلم ضمن حديث رواه عنه أس بن مالك رضى الله عنه «وَجُعَلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢).

لأن التكليف يتقل من الحمة إلى الراحة. ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وهدا. وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿يُشْرِهِم﴾ بهم، نجد البشارة ها آتية من رب خالق. والرب هو خالك؛ والمدير لذي يرتب لك أمورك، وهو مأمون عليك

﴿يُشْرِهِمُ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]

والرحمة والرضوان من صفات الله وهي صفات دائية في الله، ومتعلقت بعدد فيها أنه سبحانه سبها لمن يشاء.

وبقاع المولى سبحانه وتعالى قوله:

﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [نعمه: ٢٠]

ونجد أن هذا ترقى وتدرج في النعمة، فقد بشرهم الله سبحانه أولاً بالرحمة،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٤/٥) وأبو داود في مسنده (٢٩٨٥) عن رجل من أسلم، قاله أحمد واللفظ له

(٢) حديث أس أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٢، ١٩٩، ٢٨٥) والسنن في مسنده (٦١/٢) وأخاكم ن مستدركه (١٦٠/٢) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وثام الحديث «سب إن من الدنيا البه والطيب...»

وهي ذاتية به، ثم بنعمة دائمة في الحياة. وللمحظ أن هناك فارقا بين النعمة والمنعم. وبصرف لذلك مثلا - والله المثل الأعلى - إذا دعاك إنسان في بيته وقت الطعام ثم جاء بطبق فيه تفاح، لابد أن يكون التفاح في الطبق يكفى كل الجالسين بحيث يأخذ كل واحد منهم تفاحة، فإذا أمسك صاحب البيت تفاحة وأعطاهما لأحد الخاسين، فهذا مطهر من مظاهر رعاية خاصة من صاحب البيت، وتتميز لشخص ضيفه عن بقية الضيوف، وهذه تمثل درجة أعلى من الكرم والاهتمام؛ فهي تمثل الرحمة والرصون. أما التفاح نفسه فهو النعمة، ومثله مثل الجنات.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً في التكريم والمؤمن حين يرتقون في درجة الإيمان؛ يعيشون دائماً مع النعمة والمنعم، فإذا جاء الطعام قالوا: «باسم الله»، وإذا أكلوا قالوا: «الحمد لله»، وبكثرت إذا ارتقوا أكثر في الإيمان عاشوا مع المنعم وحده، ولذلك يباهى الله بعباده الملائكة^(١)؛ يباهى بعبادتهم وطاعتهم التي يلتزمون بها على أي حالة يكونون عليها، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلب منهم النعم، وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية ولذلك «فأنشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحين، ثم الأئمة فالأئمة»^(٢)؛ يرى الحق سبحانه وتعالى من يحبه لذاته وإن سلب منه نعمة، وهذه منزلة عالية فمن عبد الله ليدخل الجنة أعطاهما له، ومن عبده سبحانه؛ لأنه يستحق أن يعبد، فسوف يرتقى في الجنة ليرى وجه الله في كل وقت؛ وأما الآخرون فيرويه لمحات، ولذلك يكون الخزاء في الآخرة على قدر العمق الإيمانى بلعبه، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

(١) أخرجه ابن ماجه في سنه (٨٠٦) عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال «أبشروا هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء، يباهى بكم الملائكة يقول انظروا إلى عبادى قد مضوا هريضة، وهم ينظرون آخرى» وقد أخرجه أحمد في مسنده (١٩٦/٢)، قال الموصي في الروايات هذا اسماء صحيح ورجاله ثقات

(٢) تخرجه أحمد (١٧٢/١) والترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبي وقاص قال الترمذي حسن صحيح

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠]

وقال أحد الصالحين: «إني لا أشرك بك أحدا حتى الجنة، لأن الجنة أحد» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يُشْرِكُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ وقد ترجم ولكنك لا تنال الرضوان، فوضح الحق سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»، ولذلك يقول الحق عز وجل: ﴿يَرْحَمُهُ مِنْهُ وَيَرْضَاوَانِ﴾ والرضوان هو ما فوق النعيم. وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ .

ولفائل أن يقول . هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ وإذا ذكرت النعيم والجنة وجدت أصلا ليعلم فيها الإنسان

ويقول لمثل هذا القائل : انتبه والتفت جيدا إلى المعنى، فالمنحدر هو الله سبحانه وتعالى وقد يكون عند الإنسان نعمة واسعة، ولكن يجيد في الكثير من المعصيات ، مما يجعله لا يستمتع بالنعمة، كمرض بمرضه بالألم، أو ابن عاق يكدر حياته، أو زوجة تملا الحياة كدرا ونكدًا ، فد يحدث كل ذلك فلا يستمتع لإنسان بما يملك من نعمة الله لأن المكدرات قد أحاطت به . وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منفصات الدنيا، بل هي صفاء واستمتاع، يعطى فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهي نفسه ويعد عنه جميع المعصيات، وقد يحاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم، لذلك يطمس الحق العبد المؤمن أنه «يَعِيمٌ مُّقِيمٌ» ، قد يظن إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك، فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم

تنتهي، وشاء الله - عز وجل - أن يطمئن المؤمن بوعد حق، فوعد المؤمن بالخلود الأبدى في الجنة. يقول سبحانه وتعالى:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ

عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وهذا ما يؤكد الاطمئنان في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، وكلمة ﴿لَهُمْ﴾ أعطت شبه الملكية لهذا النعيم. ولذلك مهما نلتك الإنسان في هذه الدنيا، فهذا الاشتراك لا يتجاوز حدود أن يجلس ! ويقوم الخدم بتنفيذ أوامره ! لأن شئمة إما أن تكون بيدك، وإما أن نعم بالراحة ويمدحها لك غيرك. وعلى سبيل المثال حين تريد أن تأكل ، إما أن تعد الطعام لنفسك ، وإما أن يعد لك غيرك. ولا يوجد إنسان مهما أوتي من ملك بإمكانه أن يحقق كل ما يريد به بل لابد من الالتجاء إلى مساعدة الآخرين. ولكن المؤمن في الجنة يتال ما يتمناه بمجرد أن ينظر لشيء بآله، وهذا يختلف عن الدنيا ؛ لأنك حين ترغب في شيء في دنياك، لابد أن تقوم به بنفسك ، أو تعتمد على غيرك؛ ليفقدك ، حتى وإن كان عاتطلب هو مجرد فتجان من القهوة، وأنت تحدد لصاحبها الهيشة والنزع إن كنت تريد لها يدون سكر، أو قليل من السكر، أو بكثير من السكر، لأن كلاهما في الدنيا إنما يجيء مع أسباب الله. ولكن المؤمن في الجنة إنما يجيء مع المسبب وهو الله القادر العظيم.

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يُسَرُّهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرَحْمَتِهِ وَجَنَّتِ﴾ فمن سحظ مقابلة لجمع بالجمع ، وهي كما علمنا من قبل تقتضي القسمة أحاداً ، فإذا دخل الأستاذ الفصل وقال لتلاميذه: أخرجوا أقلامكم، فكن تلميذ لا يخرج أقلاماً، بل يخرج كل تلميذ قلمه وإذا قلنا: اركبوا

سياراتكم فليس معنى هذا أن يركب كل واحد كل السيارات، ولكن معناه أن يركب كل واحد سيارته.

وقول الحق: ﴿بَجَّاتٍ﴾ ليس معناه أن يدخل كل مؤمن كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أن يدخل كل منهم جنته على حسب الأعمال التي اكتسبها والمنزلة التي وصل إليها^(١)

ومن المهم أن نعلم أن صاحب الجنة عالية المراتبة لن يتلقى حسنا من صاحب الجنة متوسطة المراتبة. وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد من هو أعلى منه، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المراتبة على غيره. وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر. مثلما يحدث أحياء في الدنيا حين يتفوق إسماعيل في دراسته فقد نجد من هو أقل منه درجة يفرح له بصعاه نفس، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه، وإذا كان ذلك هو ما يحدث في الدنيا، فما سألنا بالآخرة؟ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلَرٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧) [الحجر]

أي: بأن كلا من أهل الجنة يفرح بمنزلته، ويفرح بمنزلة الأعلى منه، لأنه سبيل من فيوصات الخير، التي عند الأعلى منزلة. عندما يأتي لزيارته وقد قالوا في قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَنْ يَخَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦) [الرحمن]

إن كل من علت منزلته في الجنة له حنة خاصة به، وجنة أخرى لتكريمها على من هم درجته، وكأنها مضيئة لمن يحبهم، إذن ففي الآخرة يفرح أهل الجنة
(١) من حديث من عمرو بن العباس قال: «قال لصاحب القرآن، فرأوا ربه وتل كما كنت تسئل في الدنيا، فإذ سئلوا عند آخر آية نقرأها، أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩٢)، والترمذي (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح، وأبو داود في مسنده (١٤٦٤).

بمن هم أهل منهم : لأنهم سيأخذون منهم خيرا.

وفي الدنيا إذا أراد إنسان أن يمان نعم كل الخلق، فلا بد أن يفرح بالنعمة عند صاحبها؛ لأنه حين يفرح بالنعمة عند صاحبها أنت إليه واستناد منها، وعليها أن سوف بأن النعمة تعشق صاحبها أكثر من عشق صاحبها لها، لأنها تعرف أن الله قد أرسلها إليه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ تُوْنِي أَكْلَهَا كُلِّ حَيْثُ يَاقِظُ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم . ٢٥]

وأنت حين تبتذر بذرة الشجرة، تعطيك الشجرة الثمار، وهي التي تعطيك ثمارها . ولست أنت الذي تبتذره منها، ولذلك نقول دائما: إن الرزق يعرف عنايتك جيدا ولكنك لا تعرف مكانه أبدا، فأنت تبحث عن الرزق في كل مكان وقد لا تجده ولكن ما قسمه الله لك من الرزق تجده يسعى إليك ويأتيك حتما.

وأهل الجنة لا يعرفون الخقد ولا الحسد ولا الغل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم: « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ».

ودخل الرجل وعرفه أصحابه، فأرادوا أن يعرفوا ماذا يحمل هذا الصحابي حتى يستحق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. قالوا له . ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لتكون معك. فقال الرجل: إني لأصل كما تصلون وأصوم كما تصومون وأزكى كما تركزون. ولكني أبيت وليس في قلبي عل لأحد قلنبروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: لقد قال الرجل كذا وكذا فقال صلى الله عليه وسلم: « وهل فصلت الجنة على الدنيا إلا بهذا »^(١)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٣) وابن المبارك في الزهد (٦٩٤) وعزاه إمامي في المجمع (٧٩/٨) لأحد الزوار منهم . وقال « رجال أحمد رجال الصحيح » وليس فيه « وهل فصلت الجنة على الدنيا إلا بهذا » وقد تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص في قوله . لم أرك عمل كثير عمل مما لدى بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت. . . غير أني لأجد في نفسي لأحد من المسلمين غشيا ولا أحسد أحد عل خير أصحابه لله إمام . فقال عبد الله . هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطق.

فَاللهُ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ فِيهَا :

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ عَلٍ﴾ [الحجر ٤٧]

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَأَخَوَاتَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى
الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمْ
الظَّالِمُونَ﴾ [٤٢]

والربى هو الذى يليك ويسجر ماتفه ، وتلجأ إليه فى كل أمر ، وتأخذ منه النصيحة ، كما أنه القادر أن يحرك حين تخرج إليه ، ويكون دائم بمشاة المعين لك ، والقريب الذى يسمع منك ، إذا استعنت بعينك وينصرك ، ويكون معك فى كل أمورك . إن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق . ولحق سبحانه وتعالى بوضع لنا هذا إن أردتم أن يكون ساء الإسلام قويا لاحتلال فيه ، فلا ياكم أن يكون انتمؤكم غير انشاء الإناء ، فهو فوق انشاء النسب والحسب وغير ذلك ، وإن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق ، فما يطلبه الخالق فوق ما يطلبه المخلوق : لأنك إن أعضيت المخلوق فى رضا الخالق تكون أنت الفاتر ، ويقذف الله فى قلب كل من حولك رضاهم عنك ، وسبقك عنك صاحب مدأ رضى ، ولا ترضى أن تنصب الله ليرضى عنك أحد . وإن أسخطت الله لإرضاء مخلوق مهما كان ، تجد أن الله يجعل هذا المخلوق يسخط عليك ويحقرك^(١) . فإن شهدت زورا لصاحب بشر يعرف عنك هذا الذى شهدت زورا فى حقه أنك شاهد زور فلا يصدقك ، وإن جئت بالصدق لتشهد

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله به وأرضى الناس عنه ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه ، أخرجه ابن حبان وصححه (٢ ، ١٥) ، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٤) من وصية أمينة معاوية

عنده فهو لا يقلل شهادتك ويحترم كلامك.

ولذلك قال الحكماء: شاهد الورق قد يرفع رأسك على الخصم بشهادته، ولكمك تدوس بقدمك على كرامته لأنه سقط في نظرك.

والإنتهاء إذن هو انتهاء الله، فإن صادفك قريب يريد منك أن تفعل ميعض الله فلا تطعه، ولكن لا تكن فقط معه. وخصوصاً مع الوالدين لأن الله سبحانه وتعالى يقول عنها.

﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا لِي إِلَهِمَا مَعْرُوفًا﴾
[لقمان: ١٥]

واحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ﴾
[التوبة: ٢٢]

إذن فالذي يربط كل شيء هو الكفر أو الإيمان وقد أعطانا صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المثل الخالد فقد كان مينا مصعب بن عمير أكثر الفتيان تدللاً في مكة، وكانت حياته في مكة قبل إسلامه غاية في الترف، وكان يرفل^(١) في الثياب الفاخرة، فلما هاجر إلى المدينة عاش ظروف الفقر المادي الصعب، للدرجة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رآه في الطريق سائر عورته بحلة شاة فلمت النبي عليه الصلاة والسلام نظر الصحابة إلى حالته هذه وكيف فعل الإيمان بمصعب حيث فضل الإيمان على نعيم الدنيا كلها لقد رأى مصعب - رضي الله عنه - أن شرفه بالإنتهاء إلى الإسلام أكبر من فاحر الثياب، وترف العيش^(٢) وانطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى

(١) يرفل: يتجمل في مشيته ويجرد ذيله

(٢) عن عمرو بن الخطاب قال: "نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مبعلاً وعليه إمام (جند) كبش قد تنطق به فذبحه ﷺ" يقولون في هذا الرجل الذي قد سؤر الله فيه، لقد رآه بين أيديهم يقدونه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون! أخمجه أبوهم في حلة الأولياء (١٨/١) قال العراقي في تخرجه لأحد حديث الإحياء (٢٩٥/٤) إسناده حسن

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠) يَشْرِيهِمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

وأعطانا ميدنا مصعب ومن معه المثل العظيم في الانتهاء الإيماني، والمجاهدة في سبيل الله بالمال والنفس، وكيف نجعل اختيارنا مع منهج الله، هذا المنهج الذي يقيد الإنسان فيها له اختياره. فالإنسان مقهور في أشياء وخير في أشياء.

ويعلم أن التكليف لا يأتي في الأمور التي نحن مقهورون عليها. وإما يأتي فيما لنا فيه اختيار. فإذا ما كان لنا اختيار، فلنراع أن تختار بين البدائل في إطار منهج الله تعالى، ولا نخرج بعيدا عن هذا الإطار. وكان المسلمون الأوائل يضحون بالبيت والمال والولد، ويهاجرون في سبيل الله واستمبلوا كل هذه التضحيات الصعبة بصدور مؤمنة، وصبر واحتسب شديدين، لأنهم وثقوا في الإشارة من الله سبحانه وتعالى بأن لهم الجنة والرضوان، والنعيم المقيم، خالدين فيه لا يفارقهم ولا يفارقونه. وبهذا أقيم بناء الإسلام.

وبعد أن بين لنا الحق أسس الانتهاء للدين، وجزاء هذا الانتهاء، حذرنا أن نتعرف عنه لنرضى أبا أو إخوة أو أقارب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا آبَاءَكُمْ وَلَا إِخْوَتَكُمْ أُولِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا لِكُفْرٍ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَشْرِهِمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة ٢٣]

ويريدنا الله سبحانه وتعالى أن نعرف أن الانتهاء لله لا يعلو عليه شيء، فإذا ملنا عن الحق لنرضى أقارب، أو لنعظم ببال أو منصب، فذلك ظلم للنفس؛ لأن جزء الحق ونعيمه أكبر، فلا ينصرون أحد الباطل، ولا يجعل

أجلنا الإيمان خادما لكفار لا يؤمنون بالله. ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الصورة بقوله تعالى: ﴿إِنْ اسْتَحَبُّوا نَكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، وكلمة «استحب» أى: طلب الحب ومثلها مثل «استحرج» أى: طلب إحراج الشيء. وإذا قلنا «استجاب الله» معناها: أجاب

إذن فـ «استحب» معناها: أحب، ولكن «استحب» فيها افتعال. و«أحب» فيها اندفاع بلا افتعال.

وقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنْ اسْتَحَبُّوا النُّكُوفَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ يدل على أن الكفر مخالف للفطره الإيمانية للإنسان، لأن الإنسان بفطرته مؤمن بحب للإيمان، فإن حاول أن يحب غير الإيمان، لابد أن يتكلف ذلك، وأن يفتعله لأنه غير مفطور عليه، وليس من طبيعته. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]

وهنا التساؤل والتعجب يوضح لنا أن الذين يحكمون بالمنطق والمكر والعقل يصعب عليهم الكفر بالله، لماذا؟ لأن الكون وجد أولا، ثم وجد الإنسان، فكان من الواجب حين تأتى إلى كون لم يصنع فيه شيئا أن نسأل: من الذى أوجده؟ وكان من الطبيعى أن يبحث العقل عن الموجد، وتصورنا أن فى الكون أشياء، لا قدره للبشر على إيجادها؛ كالشمس، والأرض، والماء، والهواء، والنبات، والحيوان. وكلها تمثل الاستقبال الجامع لقومات حياتك.

كان من الطبيعى - إذن - أن نسأل: من الذى أوجد هذا الكون؟ خصوصا أننا نفتش عن اختراع لنا اختراعا بيطا مثل مصباح الكهرباء، ويدرس تاريخ حياته، وكيفية اكتشافه، لمجرد أنه أضاف إلى حياتنا اختراعا استفدنا منه، فما بالنا بمن خلق هذا الكون؟ ولقد رحبنا سبحانه وتعالى من ضلالات الحيرة، فأرسل لنا رسولا برحة منه، لينبهنا ويقول لنا: إن هذا الكون

من خلق الله القادر العظيم لماذ إذن لا مصدق برسول ، وتبع المنهج الذي أنزل إلينا؟

ولقد ضربنا مثلاً - والله المثل الأعلى - بشخص سقطت به الطائرة وسط الصحراء وبقي حياً، لكن لا ماء ولا طعام، ثم أخذته بسنة من النوم واستيقظ ليجد الطعام والشراب، وكل ما يحتاج إليه حوله؛ ألا يفكر قبل أن يأكل من كل هذا : من الذي جاء به؟ وأنت أيها الإنسان قد جئت إلى هذا الكون العظيم وقد أعددت إعداداً مثالياً لحياتك، وهو إعداد فوق القدرة البشرية، فكان يجب أن تفكر من الذي أوجد هذا الكون؟

إذن: فالإيمان ضرورة فطرية وضرورة عقلية أيضاً، وإن تعددت عن الإيمان فهذا يحتاج إلى تكلف؛ لأنك تنعبد عن مطلق العطرة والعقل؛ لتحقيق شهوات نفسك وما دمت قد تمتعته هواك وحصصت لشهوات النفس، فهذا لون من التكلف الذي يصيب ملكاتك بالخلل، وعقلك بالخلل، فحب الكفر لا يكون عاطفياً، أو فطرياً، كما لا يكون منسجماً مع العقل السليم، بل هو حب متكلف. فالذي يفعل حلالاً يحيا وملكاته كلها مسجمة، والذي يفعل حراماً يعيش وملكاته مضطربة^(١)، ولمثال: حين ينظر الرجل إلى زوجته، فهو ينظر إلى حلاله ويشعر أن ملكاته منسجمة، ولكن إن نظر إلى امرأة أخرى، فهو يشعر باضطراب الملكات. فالسلوك المتفق مع الإيمان سلوك سوى، أما السلوك الخارج عن منهج الإيمان فهو لدى يحتاج إلى تكلف، وهذا لتكلف يعارض الطباع الإنسانية. بينما توافق الإيمان من الاستقامة لا تكلف شيئاً، فالمؤمن يكون مستقيماً فلا يرتشى، ولا يسرق، ولا يدخن، يتعمد إلى مزالق الهوى أو الشهوة، ويحيا حياة طيبة، فإن فتح «دولابه» الخاص، وأخذ منه شيئاً فهو

(١) من التوامن من سمعان الأنصاري قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكبره أن يطع فيه الناس» أخرجه مسلم (٢٥٥٣) والترمذي (٢٣٨٩) وقال: حسن صحيح، وأحمد في مسنده (١٨٢/١).

بأخذ ما يريد مهدوء وأطمئنان ، لكن المحرف من يدخل إلى غير حجرته ليأخذ شيئاً من «دولاب» ماء حتى ولو كان «دولاب» الأب النائم، لذلك يجده يسير على أطراف أصابعه متصصاً ليفتح «دولاب» أبيه.

إذن: فالاستقامة لا تحتاج إلى تكلف، ولكن الانحراف هو الذى يحتاج إلى تكلف. ولذلك قال الله سبحانه: ﴿اسْتَعْبِدُوا﴾ ولم يقل: «أحبوا»، لأن الحب أمر فطرى، فالإنسان - مثلاً - يحب أبيه حباً فطرياً عاطفياً، والحب العاطفى لا يقنن فأنت لا تستطيع أن تقول: سأحب فلاناً وسأكره فلاناً ، لأن العاطفة لا تأتى بهذه الطريقة ؛ لذلك أنت تحب ابنك عاطفياً ، حتى وإن كان فاشلاً فى درسته. لكنك تحب ابن عمك عقلياً إن كان متفوقاً ، إذن فالحب العقلى هو الذى يقنن له.

وكذلك أنت تكره الدواء المر بعاطفتك، لكنك تحبه بعقلك إن كان فيه شفاؤك، فبحث عنه ، وتدفق المال من أجله، وتحرص على أن تتناوله، وكلنا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه»

ووقف عند هذه مسدداً عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وقال: يا رسول الله: أنا أحبك عن مالى وأحبك عن ولدى، ولكن كيف أحبك عن نفسى؟ فكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث قائلاً: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».

وكررها عليه الصلاة والسلام ثلاثاً، فعلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن هذا تكليف. والتكليف لا يأتى إلا بالحب العقلى الذى يمكن أن يقنن. وقد بتسمى المؤمن فى حب برسول الله صلى الله عليه وسلم ليصبح حاكماً عقلياً

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦٣٢) وأحمد بن مسدد (٢٣٣ / ٤) وفى إسناده أحمد بن حنبل ولكن بابه حجة عن زهر بن ميمون وباقى الحديث هو مروي بالمعنى

وعاطفياً. ولكن الحب العقي هو مناط التكليف، أما الحب العاطفي فلا يكلف به. ولم يقتن الحق سبحانه وتعالى لانتعالات العواطف، لأنه سبحانه لا يسمع العواطف أن تعمل انفعالاتها لطبيعية، فانت تحب من يسدى إليك معروفاً، وهناك من تحبه دون أن تعرف السبب. وهناك من تبغضه دون أن يكون قد هاداك أو آذاك^(١)، وكل ذلك متردك لك، ولكن الله سبحانه وتعالى نبي أن يؤدي ذلك إلى عدوان على الحق، فقال سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا يَجْزِيكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلا تَعْلَمُوا﴾ [المائدة ٨]

أي: لا يدفعكم كره قوم على أن تخرجوا عن طريق الحق وتظلموهم، فإن كرهتموهم فتمسكوا بالعدل معهم.

إذن والله سبحانه وتعالى لم ينه عن الحب أو الكره؛ ولكنه نهانا عن أن نظلم من بكره أو نجامل من يحب على حساب الحق ولعدل.

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - صورة حية لهذا؛ فقد قتل أبو مرهم الحنفي زيد بن الخطاب شقيق سيدنا عمر في معركة اليمامة، ثم دُفن في الإسلام؛ فكان كذا مر أمام سيدنا عمر قال له: إلو وجهك بعيداً عني، فإني لأحبك فقال له أبو مرهم الحنفي: أو عدم حثك لي بمسعى حقاً من حقوقي

قال: لا فقال الرجل: إنيأ يكمي على الحب النساء

والحق سبحانه وتعالى حين قال: ﴿إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ﴾ إنيأ يريد أن يلغتنا إلى أنهم عارضوا فطرتهم وعقولهم؛ ولذلك لا نجعل استهانة لهم فوق انتباهنا لله، فالولاء لله فوق كل حق؛ حتى لو كان حق الأبوة، صحيح أن الأب سبب وجودك، ولكنه سبحانه وتعالى خلق أباك الأول آدم من عدم، فلا تجعل الخلق الفرعي يظني على الخلق الأصلي وبذلك يذهل الحق هذه

١. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: الأرواح جنود مجنده، فما عرفت منها انقلب، وما تآكر منها انقلب. أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٨)، وأحمد في مسنده (٢٩٥، ٢٩٧، ٥٢٧، ٥٣٩)، وأبو داود

الآية الكريمة بقوله. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْهُمْ لَظَالِمُونَ﴾ لأنهم نقلوا الحق من الله سبحانه وتعالى إلى الخلق، ولأنهم ظلموا أنفسهم فحرموها من الجراء في الآخرة ليحققوا نفعاً عاجلاً في الدنيا. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَكُنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة، ٥٧]

لأن أحداً لا يستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى ، والذي يتمرد على الإيمان بعد أن يسمع الدعوة إليه ولا يؤمن، ومن يأمره الحق بالطاعة فيعصى، فهذا تمرد على الإيمان ، وإن كب من المتمردين وجاءك الله بمرض؛ فهل تقدر على دفع المرض ولا تمريض؟ وإذا جاءك الله بالموت. أتستطيع أن تتمرد على الموت وتبغضه عنك فلا تموت؟ إذن هناك أقدار لا يستطيع التمرد عليها ، وأنت متمرد - فقط - بيا لك به اختيار .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يحاطبهم خطاباً صريحاً فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَأَزْوَاجًا وَغَيْرَ ذَلِكَ وَأَمْوَالٌ أَقْرَفْتُمُوهَا وَبَنَاءٌ
تَحْسَبُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ
مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ﴾ [١٤]

والخطاب ها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلنجه للمؤمنين وقد جاء سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بمراحل القرابة ، فذكر أولاً صلة النسب من آباء وأبناء وإخوة، ثم الزوج، وهو وسيلة اشتراك، ثم لأهل واعشيرة، ثم الأموال التي تملكها فعلاً، ثم الأموال التي تريد أن تكسبها، ثم المساكن التي ترصى بها، وبعد ذلك ذكر التجارة التي تريد من المال. وفرّق الله سبحانه بين الأموال التي في حوزتنا وبين التجارة؛ لأن التجارة قد تأتي لنا بأموال فوق الأموال، والإنسان لا يحصل على سكن إلا إذا كان عنده فئص من المال ويذكرنا الحق سبحانه هنا إن كانت أي مسألة من هذه الأشياء ، وهي زينة الحياة الدنيا أحب إليكم من الله ورسوله والجهاد في سبيل الله ﴿فَكْرِهُوا﴾ أي انتظروا حتى يأتيكم أمر الله، وحينئذ ستعرفون القيمة الحقيقية للدنيا وقيمة ما عند الله تعالى من رضا ونعيم.

وهذه الآية الكريمة أسباب نزول ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أمر بالهجرة من مكة إلى المدينة ، أمر المسلمين بالهجرة ، فتركوا أموالهم التي اكتسبوها بمكة وتجاراتهم ومساكنهم ، وآبائهم وأبنائهم ، وإخوانهم وأزواجهم وعشائرتهم ، التي تستطيع هديتهم ، تركوا كل هذا وهاجروا لأرض جديدة .

ولكن من المسلمين من ركوا للدنيا بقوا بجوار أموالهم وأزواجهم وأبنائهم المشركين ، وكانت لواحدة من النساء المشركات تتعلق بقسمي زوجها المسلم الذي يريد الهجرة حتى لا يتركها فكان قلبه يوق لها ، ومهم من كان يخشى ضياع ماله وكساد تجارته ، التي بينه وبين المشركين ، فنزلت هذه الآية (١)

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح قيمة الانتهاء الإيماني ويبدد المؤمنين عييه. فقد كان المسلم لا يتم إيمانه حتى يهاجر، ويصارم (٢) أهله

(١) انظر تفسير القرطبي (٤ / ٣٠٢١) طبعة دار العدد . وأسباب النزول للإمام البيهقي (ص ٩٢ ، ٩٣)

(٢) يصارم أهله يعاطفهم لفظاً دلياً

وأقربيه ويقاطعهم، فشق ذلك عليهم. وقالوا: يا رسول الله إن نحن اعتزلنا من مخالفتنا في ديننا قطعنا أبنائنا وأبناءنا وأزواجنا وأقاربنا، ونخسنا على أموالنا ونجارتنا من الفساد، وحفنا على مساكنا أن نخرب، وبذلك نضيع، فأمر الله تعالى هذه الآية، وكأها تأسرهم بأن كسب الإيمان أعلى من أي كسب آخر، فأمر الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَوِّضُونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّعُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦٤)﴾ [نورة]

ولما نزلت هذه الآية لكريمة أخذها الصحابة مأخذ الجذ وهاجروا، وقاطعوا آباءهم وأبناءهم، حتى إن الواحد منهم كان يلقي آباءه أو ابنه فلا يكلمه ولا يدخله بيته، ولا يسرله في منزله إن بقيه، ولا ينفق عليه، إلى أن نزلت الآية الكريمة.

﴿وَإِنْ تَحَدَّثْتُمْ عَلَى أَنْ تُشْرِكُوا بِى مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُوا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [نعمان، ١٥]

أي، أن المعروف معهم يقتصر فقط في المعاملة وفي الإنفاق على المحتاج. أما الطاعة لهم فيه، فيغضب الله فهي محرمة وحاول بعض المستشرقين أن يطعن في القرآن، منهم من قال: إن هناك تعاضداً بين آيات القرآن الكريم، فالآيتان اللتان ذكرناهما، الأولى تطيب مقاطعة الآباء والأبناء إن استحبوا الكفر عن الإيمان، والآية الثانية تطلب مصاحبتهم بالمعروف أو عدم القطيعة، وآية ثالثة تقول:

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ١١]

ولم يفتن هؤلاء إلى أن هناك فارقاً بين الود والمعروف ، فالود هو عمل القلب، فأنت تحب بقلبك ، وود بقلبك ، ولكن المعروف ليس من عمل القلب لأنك قد تصنع معروفاً في إنسان لا تعرفه، وقد تصنع معروفاً في عدوك حين تجده في مأزق، ولكنك لا تحبه ولا توده.

إذن : فالمنهي عنه أن يكون بينك وبين من يجادلون الله ورسوله حب ومودة، أما المعروف فليس منهي عنه؛ لأن الله يريد للنفس الإيمانية أن تعترف بفضل الأبرة، فإن وجدت أباك وهو غير مؤمن في مأزق فاصنع معه معروفاً وساعده لكن عليك ألا تعطيه فيما ينصب الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يرى في النفس الإيمانية أن تحترم من له فضل عليها. والأب والأم من أسباب الوجود الفرعي في الحياة؛ لذلك جاء الأمر بمصاحبتهما بالمعروف في الدنيا، شرط ألا تقبل متهما دعوتها للكفر إن كاسا من أهل الكفر؛ لأن إيمانك بالله لا يبد أن يكون هو الأقوى. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعبد في الكفر بعد أن أقره الله منه كما يكره أن يقتل في النار»^(١).

وذلك حتى لا يكون مقياس الحب هو النسب أو القربى، وإنما يكون القرب من الله سبب الحب، والبعيد عن الله سبب الكره. ففضيلة الإيمان تجتنب قضية العاطفة، فهي معركة بدر كمال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما أبوه فم يكن قد أسلم بعد وكان مع الكفر، فلما أسلم ابن أبي بكر وآمن؛ قال لأبيه. لقد رأيتك يوم بدر

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك

فلويت وجهي عنك حتى لا أفلتك. فرد سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: لو أني رأيتك لقتلتك. وهذا منطقي مع الإيمان لأن موازنة النسيئة اقتضت أن يقارن ابن أبي بكر بين أبيه وبين صنم يعبد، فرجحت كفة أبيه، ولكن أب بكر حين رأى ابنه قارن بين ربه وانه فرجحت كفة ربه.

وإذا كان ذلك عن لقربة، وكيف يجيب الإيمان العاطفة، فهاذا عن المال؟ يتبع المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: أخذتموها بمشقة، وهي مأخوذة من «القرء» وهي القرء، وأنت إن أردت إزالة لقشر عن حبة نبات ماء فتجد شيئاً من المشقة؛ لأن هناك التصاقاً بين القشرة والخبة، ولحق هنا يقول: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: أخذتموها بجهد ومشقة، وهو غير المال الموروث الذي لم يتم فيه صاحبه، وإما ورثته عن غيره، وفي هذه الحالة قد يكون أمره هيناً على صاحبه. أم المال الذي كسبه الإنسان بقرع جبينه وكذبه^(١) فصاحبه أكثر حرصاً عليه من المال الموروث. ويقال: «أفان اقترف كذا»، أي: أنه قام بجهد حتى حصل عليه، ويقال: «اقترف الكذب» و«اقترف السرقة»، بمعنى أنه قد بدل جهداً ليكذب، أو بدن جهداً ليسرق، أي: قام بعملية فيها مجهود.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتَرْتَضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وسبحانه هنا يوضح لهم: انتظروا أمر الله الذي سوف يأتي، لأنه سبحانه لا يهدي فاسقاً خرج عن الإيمان، ولا يهدي من جعلوا جهم للعلاقات الاندسوبة فوق حب الله فخرجوا عن مشيئة هداية الله تعالى، فسبحانه لا يهديهم كما لا يهدي الفاسقين أو الكافرين؛ لأن هؤلاء هم من قدموا الظلم والكفر والفسق، فكان ذلك سبباً في أن الله لم يدخلهم في مشيئة هداية المعونة على الإيمان، أما هداية الدلالة فقد قدمها لهم.

(١) الكذب الشديد والتبذير في تحصيل الشيء.

ثم ارد الحق سبحانه وتعالى أن يعث الطمأنينة الإيمانية في نفوس المؤمنين،
فيوضح لهم أن كنتم تريدون بالأباء والأبناء والعشيرة والأقربين والمال قوة،
فاعلموا أن قوة المؤمن من ربه، وإياك أن تنظر إلى ولي آخر غير الله ؛ لأن ولاية
البشر عرضة للتغير والتبدل، حيث إن الإنسان حدث يتقلب بين لأغياره
فالغنى فيها قد يصح فقيراً، والسليم قد يصبح مريضاً، والعز قد يصير
ضعفاً ، ولكن الولاية الدائمة بما تكون من قادر قاهر لا يتغير ، وإذا كان الله
وليك فهو القادر دائماً ، والقاهر دائماً ، والغالب دائماً ، والموجود دائماً ،
والناصر دائماً ، ولكن إذا كانت الولاية من إنسان لإنسان فالأغيار في الدنيا
تجمل الصديق ينقلب عدواً ، والمعين يصبح صميماً لا يملك شيئاً والمرجود
يصبح لا حدود له بالموت ، إذن : هلاسه أن تجعل ولايتك مع الله سبحانه
وتعالى : لأنه هو الدائم الباقي . ولهذا يعلم المولى - عز وجل - عبده المؤمن أن
يكون دائماً يقطاً، قطناً، لبيّاً، يقول سبحانه وتعالى

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾
الشرفاء . ٢٥٨

أى لا تتوكل على من قد تصبح غداً فتجده ميتاً، ولكن توكل على الحي
الموجود دائماً ، العزيز الذى لا يقهر، لقوى الذى لا يغيب وينه الحق
سبحانه وتعالى المؤمنين: إن كنتم تحبون حين نمرلكم من مجتمع لكفر لما فيه
من عروه كاذبة بالأباء والأبناء والإخوان والأقارب والمال، فاعلموا أن الله هو
الذى يتصر، وهو المولى، ولكن الكافرين لا مولى لهم؛ لأنهم يتخذون موالى من
أغيار، والأغيار لا ثقة فيها؛ لذلك يقال إذا وصل الإنسان إلى القمة فهذه
نهاية الكمال، لأنه ما دام قد وصل إلى القمة ركن شيء في الدنيا يتغير، فلاند
أن يتغير هو ويقول القائل.

دَتَمَّ شَيْءٌ بَدَأَ بِقُصَّةِ تَرَقَّبَ زَوَالًا إِذَا قَبِلَ تَمَّ

لأن كل شيء ليس أغيار لا بد أن يتزل إلى أسفل، ويوضح الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه إذا كان قد طلب منهم أن يعزلوا أنفسهم عن مجتمع الكفرة، فأفقدتهم بذلك قوة ونصيراً، فهم في منعة أكبر؛ لأنهم حيثما يكونون مع الله، والله هو النصير، وليس هذا كلاماً نظرياً، وإنما هو كلام مؤكد بالوقائع التي شهدتموها، وسبحانه وتعالى يقول بعد ذلك:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شِئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ يلفتنا إلى أن النصر يكون من عند الله وحده، والدليل على أن النصر من عند الله أنه سبحانه قد نصر رسوله والدين معه في مواضع كثيرة، و ﴿ مَوَاطِنَ ﴾ جمع: موطن، والموطن هو ما استوطنت فيه، وكل الناس مستوطنون في الأرض، وكل جماعة ما تُحير مكاناً من الأرض ليكون رطناً لها، والوطن مكان محدد يعيش فيه من الوطن العام الذي هو الأرض؛ لأن الأرض موطن البشرية كلها، ولكن أساس موزعون عليها، وكل جماعة منهم تحب في حيز تروح عليه وتغدو إليه وتقيم فيه.

والله سبحانه ما يقول ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾، وما دام الحديث عن النصر، يكون المعنى: إن الحق سبحانه قد نصركم في مواضع الحرب أي موقعها، مثل يوم بدر، ويوم الخديجة، ويوم بني النضير، ويوم الأحزاب، ويوم مكة، وكل هذه كانت مواقع نصر من الله للمسلمين، ولكنه

في هذه الآية يحصن يوماً واحداً بالذكر بعد الكلام عن المواطن الكثيرة، فيبعد أن يحدث إجمالاً عن المعارك لكثيرة يقول ﴿ وَيَوْمَ حُتَيْنَ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُهُمْ ﴾ إذن - كثرة عدد المؤمنين في يوم حنين كان ظرفاً خاصاً، أما المواطن الأخرى، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة، ويوم فتح مكة كانوا كثرة، ولكنهم لم يعجبوا؛ ولم يحتالوا بذلك، إذن فهي يوم حين اجتمعت بهم الكثرة مع الإعجاب، وبذلك يكون يوم حنين له مزية، فهو يوم خاص بعد الحديث العام.

﴿ وَيَوْمَ حُتَيْنَ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ هذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه، إذن فيوم حنين ليس معطوفاً على ﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ ولكنه جملة مستقلة بنفسها؛ لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن في بقية المواطن، وهذه دقة في الأداء اللغوي تتطلب بحثاً لغوياً. فكلمة ﴿ مَوَاطِنَ ﴾ هي ظرف مكان، و ﴿ وَيَوْمَ حُتَيْنَ ﴾ هي ظرف زمان، فكيف حاز أن نعطف ظرف الزمان على ظرف المكان؟

ونقول: هذا هو ما يسميه العرب «احتباك»؛ لأن كل حدث مثل «أكل» و «شرب» و «صرب» و «ذاكر» كل حدث لا بد له من زمان ولا بد له من مكان، فإذا قلت: «أكلت»، نقول متى؟ في الصباح، أو في الظهر، أو في العصر، أو في العشاء؟ وأين؟ في البيت، أو في الفندق، أو في المطعم، أو في الشارع

إذن فلا بد لكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية انطلقت؛ ظرفية مكان حدوث الفعل، وظرفية زمان حدوث الفعل. فإذا قلت: «أكلت» لساعة الثالثة ولم أسألك أين تم الأكل؟ أو إذا قلت: «أكلت» في البيت ولم أسألك عن موعد الأكل ظهراً أو عصرًا أو ليلاً، يكون الحدث غير كامل الظرفية

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان في الظرفية، ولكنهم يختلفان، فالمكان

طرف ثالث لا يتعبر والزمان دائم التغير، فهناك الصباح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . والزمان يدور، هناك ماض وحاضر ومستقبل، وهكذا يشترك الزمان والمكان في انظرية، ولكن الزمان ظرف متغير، أما المكان فهو ظرف ثابت .

رجاءات الآية هنا بالاثنتين، ف ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ هو زمان ومكان لحدث عظيم، وأخذت الآية ظرف المكان في ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وظرف الزمان في ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ فإذا قيل لم يحصر ظرف الزمان والمكان في كل واحدة، نقول لا، لقد حصر ظرف المكان في ناحية وظرف الزمان في ناحية ثانية، وهذا يسموه - كما قلنا - «احتباك». وقد حذف من الأول ما يدل عليه الثاني، وحذف من الثاني ما يدل عليه الأول، فكان المعنى لقد نصركم الله يوم مواطر كذا وكذا. فإذا عطف عليها يوم حنين يكون المعنى «ومواطر يوم حنين»، أي جاء بالاثنتين هنا. ولكن شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون هناك تكرار، فأحضر واحدة هنا وواحدة هناك، وهذا يظهر واضحاً في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ النَّفْثَةِ الَّتِي تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾

[آل عمران ١٣]

فب دامت الأخرى ﴿كافرة﴾ تكون الأولى «مؤمنة»، ولكن حذفت «مؤمنة» لأن ﴿كافرة﴾ تدل عليها، وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل في سبيل الله، فالفتنة الكافرة تقاتل في سبيل الشيطان. وحذفت تقاتل في سبيل الشيطان، لأن ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دلّت عليها وذلك حتى لا يحدث تكرار. ويحمد أن المؤمن الذي يستمع إلى كلام الله تعالى لابد أن يكون عديم عمق فهم، وأن يكون كله أذناً صاغية حتى يعرف ويتنبه إلى أنه حذف من واحدة ما يدل على الثانية [ذن: سيكون ظرف الزمان موجوداً في واحدة،

وطرف المكان موجوداً في وحده، وكلاهما يدل على الآخر. والمثال على ذلك أنه بعد أن انتهت هذه الغزوة، وعاد المسمون إلى المدينة مجاهدين لم يجعلوا ملابس الحرب، قال لهم رسول الله ﷺ: « لا يصلين أحد انصر إلا في بني قريظة »^(١).

فانطلق المسمون - دون أن يستريحوا - إلى أرض بني قريظة، وهم أيهود الذين كانوا يسكنون المدينة، وخانوا عهد رسول الله ﷺ وتحالفا مع الكفار ضد المسلمين، وبينما الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة كادت الشمس بعيد، فقال بعض الصحابة: إن الشمس ستغيب ولا بد أن نصلّي العصر. وصلوا ورقة ثانية من الصحابة فثبت: إن رسول الله ﷺ طلب ما ألا يصلّي العصر إلا في بني قريظة ولم يصلّوا حتى وصلوا إلى هناك.

وتقول: إن الفريقين استحكما المطلق، لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان، فالذي نظر إلى ظرف الزمان قال: الشمس ستغيب، وصلّي، والذي نظر إلى ظرف المكان الذي حدثه رسول الله ﷺ: لم يصلّ وأقر رسول الله ﷺ المرفس، واحترم اجتهادهما في ظرف الزمان، وظرفية المكان. وفي هذا يروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: « لا يصلين أحد انصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا يصلّي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل بصرى، لم يردّ ما ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعب واحداً منهم.

﴿ وَيَوْمَ حُصِيَ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمْ فَلَمْ تُعْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ﴾ والعنى هو عدم الحاجة إلى العير، وحنين^(٢) هو موضع في وادي بين مكة واليمن، تجتمع فيه الكفار الذين ساء بهم فتح المسلمين لمكة، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تُضيق

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر.

(٢) حنين اسم موضع بأوطس، عرف باسم رجل اسمه حنين بن قتيبة بن مهلاتيل من بني عبد شمس، كما في معجم الكري.

قمة هذا النصر. فاجتمعت قبائل هوزن وثقيف، واحتاروا مالك بن عوف ليكون قائدهم في هذه المعركة واستطاع مالك بن عوف أن يجمع أربعة آلاف مقاتل، وانضم إليهم عدد من الأعراب المحيطين بهم ورضع مالك خطته على أساس أن يخرج الجيش ومعه ثرواب المشاركين في الجيش من مال، ويقر وابل وأن يخرج مع الجيش نساء ولأطفال وذلك حتى يدافع كل واحد منهم عن عرصه وماله فلا يمر من المعركة، ويستمر في القتال بشجاعة وعنف، لأنه يدافع عن سنامه وأمواله وأولاده. وبذلك وضع كل لعوس النى تضمن له النصر. بينما المؤمنون عندما بدأ المعركة سيقانلون مدافعين عن دين الله ومنهجه

واجتمع الكفار وبرلوا بواد اسمه « وادى أوطاس ». وكان فيهم رجل كبير السن ضرير اسمه « دريد بن الصعة » وكان رئيساً لقبيلة « جشم ». فلما وصل إلى مكان المعركة سأل: بأى أرض نحن؟ فقاسوا: نحن بوادى أوطاس.. فابتسم وقال: لا حزنأ ضررس ولا سهلاً دمس، أى أنها أرض مناسبة ليس فيها أحجار مديه، تتعب الذى يسير عليها، وليس أرض رخوة تخوص فيها أقدام من يسير عليها، من « الحزن » فالحزن هو: الخشونة وبغلظة، واضررس « هو: التعب أثناء السير، وأيضاً ليست أرضاً سهلة متبسطة رملية تخوص فيها الأقدام.

وعندما سمع العجوز بكاء الأطفال وثلغاء^(١) الشاة، قال: أسمع بكاء الصبيان وحوار ثبقر. فقالو له: إن مالك بن عوف استصحب ذراريه وصطحب كل أمواله، فقال: أما الأموال فلا بأس، وأما النساء والذرارى فهذا هو لأرعن - أى لا يهمهم فى الحرب - أرسلوه لى، فأحصروه له فلما حصر قال: يا مالك ما حملك على هذا؟ قال: وماذا تريد؟ قال: ارجع بسائلك وذراريك لى علك دارك، فإن كان الأمر لك؛ لحقتك من وراءك وإن

(١) ثغاء الشاة: صوت الصم والماعز وصحيجها.

كان الأمر عليك لم تقضح أهلك وذرايك. فقال له مالك. لقد كبرت وذهب علمك وذهب عقلك وأصر على رأيي ثم بدأ مالك بن عوف يرتب الجيش في الشُعَاب وتحت لأشجار حتى لا يراهم المسلمون عند مجيبتهم فيقدمون غير متنبهين للحظر، وحيث يتم الهجوم عليهم من كل جهة ومن كل مكان.

وعندما جاء جيش المسلمين سم ينسوها إلى وجود الكفار المختبئين عن الأعين. وحيث أعطى مالك بن عوف إشارة البدء بالهجوم، فخرج الكفار من كل مكان. وهاجوا المسلمين بهجوم شديد، قال المتحدث فوالله ما لبث المسلمون أمامهم إلا زمن حلب شاة، حتى إنه من فسوة المعركة وصراعتها وقوة المضاجأة انهزم جيش المسلمين في الساعات الأولى للمعركة، ووصل بعض الفرار من القتال إلى مكة ولم يبق مع رسول الله ﷺ في ساحة المعركة إلا تسعة يسهم العباس عم رسول الله ﷺ وكان ممسكاً بالدابة التي يركبها رسول الله ﷺ. وسيد علي بن أبي طالب وكان يحمل الراية وسيدنا الفضل، وكان يقف على يمين رسول الله ﷺ. وسيدنا أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وكان يقف على يساره وكان معهم أيمن بن أم أيمن وعدد من الصحابة (١).

وهنا تساءل. لماذا حدثت هذه الهزيمة للمسلمين في بداية المعركة؟ لأنهم عندما خرجوا إلى الحرب قالوا نحن كثرة لن نهرم من قلة، ويدلث دهموا إلى الأسباب وتناموا المسب، فأراد الله أن يعاقبهم عقاباً يخرجهم ويغلب من قدر رسول الله ﷺ. وقد رأى رسول الله ﷺ ما حدث، قال للعباس وكان العباس صاحب صوت عال: أدن من الناس، فقال العباس بصوت عال يا معشر الأنصار - يا أهل سورة البقرة، يا أهل بيعة لشجرة فلما سمع الناس نداء العباس، قالوا ليك ليك وكان الذي يقول «ليك» يسمعه من هم وراءه ويقولون مثله، حتى حاد عدد كبير من المؤمنين إلى القتال، وحمى لقتال

(١) انظر زاد المعاد في مدى خير العباد (٢/ ١٨٥-١٨٦)

واشتدت الحرب وصار لها أوار^(١) ، فضحك رسول الله ﷺ : الآن حمى الوطيس ، أى شتدت الحرب ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

ويروى هذا الحديث عن النبي ﷺ البراء بن عازب ، فقد جاءه في الصحبة عن البراء بن عازب رضى الله عنه . أن رجلاً قال له يا أما عمارة أفورتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يعر ، إن هوارن كانوا قوماً رؤساء ، فلما لقيهم وحمسوا عليهم انهرموا ، فأقبل الدس على الخنائم ، فاستقبلوه بالسهام ، فانهزم الدس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ، وهو سفيان بن الحارث أشعد بلجام بكته ليضاء وهو يقول : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(٢) أى : أنه رسول الله ، والله لن يتحلى به من يحذله ، ولم يثبت أمام المؤمنين واحد من هوارن وثقيف ، وانتهت المعركة عن ستة آلاف أسير من لسه ، كما غنم المسلمون أموالاً لا حصر لها وعدداً كبيراً من الإبل والبقر والعم والحمير وأحضر رسول الله ﷺ بديل بن ورقم وقال له : أنت أمير على هذا الغنم . اذهب به وأنا سأتابع الهارين

راطلق جيش المسلمين إلى طائف ليطارد الفارين واختبأ مالك بن عوف قائد لعدو ثم عاد رسول الله ﷺ بعد ذلك وقسم الغنائم ، وكاد تقسيم الغنائم أن يحدث فجة بين المسلمين ، لأن لرسول الله ﷺ أعطى الغنائم للمؤلفة قلوبهم ، ولستأثر العرب ولم يعط منها الأنصار ، لقد أراد رسول الله ﷺ أن يقارن بين شيئين ، بين ساي هي أيضاً من متاع الدنيا فيعطى منها المؤلفة قلوبهم وبين حب الله ورسوله فيكون حظ الأنصار منه ، فالأنصار لديهم أوره ﷺ في رأيه ﷺ يستغفون بحبهم لرسول الله وقوه إيمانهم بالله عن مثل هذا المناع الديوى ، إلا أنه على الرغم من ذلك شعر بعض من الأنصار بالعصه ، وتأثر هذا البعض بذلك

(١) الأوار - الدخان والذهب

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (٤٣١٧) ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب



لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وبناتل لعرب ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قتلهم . لى رسول الله ﷺ قومه فدحل عليه سعد بن عبادة فقال يا رسول الله إن هذا الحى قد وجدو عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا لى الذى أصبت ، فسحت في قومك وأعطيت عطايا عطاء في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا حى من الأنصار شيء . قال . هاين أنب من ذلك يا سعد ؟ قال يا رسول الله ما أنا إلا مرؤ من قومي وما أنا . قل . فاجمع لى قومك في هذه الخطيرة . قال . فخرج سعد فجمع الناس في تلك الخطيرة . قال فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدحلوا وحاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال . قد اجتمع لك هذا حى من الأنصار قال فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل . ثم قال يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتوها في أنفسكم ، ألم أتكم ضلالاً يهداكم الله ، وعالة فأغاكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم قالوا بل الله ورسوله أسوأ وأصل قال لا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا وبمادا نجيبك يا رسول الله ولله ورسوله الحق والفضل ؟ قال : أما والله لو شئتم لقاتم فلصدقتهم وصدقتهم ، أتيت مكدماً فصدقتك ، ومحدولاً فنصرتك ، وطريداً فأويناك ، وعالة فأغيتك (١)

أى . أن رسول الله ﷺ ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم ، وهى أنه نقلهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى العنى ، ومن العداوة إلى الأخوة والمحبة .

وعندما تحدث رسول الله ﷺ عن فصل الأنصار على الدعوة ذكر أربع

(١) أخرجه الإمام أحمد بن محمد (٧٦/٣) عن أبى سعد الخدرى عن طريق ابن إسحاق وقد أورده ابن هشام في سيرة النبي (٢٦٢)



فصائل ، وهى أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول ﷺ بهاجر منها فاول .
أهل المدينة ، وجاء الرسول وللمؤمن إلى المدينة لا يملكون شيئاً ، فأعطاهم
الأنصار من أموالهم وزوجاتهم ، وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله ﷺ
هأمنه الأنصار ، وكان رسول الله ﷺ قد حذله قومه من قريش فصره
الأنصار .

عندما سمع الأنصار قول رسول الله ﷺ فى ذكر مصائبهم . فابو : ابنة له
ولرسوله ، أى : إن معشر الأنصار لا تقول هذا الكلام الذى قلته أبدأ لأن
حلاوة الإيمان وجراء الإيمان أكبر من هذا بكثير ، وبهذا لا يكونون هم الذين
أعطوا ، بل الإيمان هو الذى أعطاهم . فالإيمان نفعه نفع أبدي والحق برك
وتعالى يقول :

﴿ قُلْ لَا تَتَّبِعُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾

[الحجرات: ١٧]

وعندما قال الأنصار لرسول الله ﷺ بل المنة لله ولرسوله ، قال لهم
رسول الله عليه الصلاة والسلام :

« أوحديثكم فى أنفسكم بما معشر الأنصار فى جماعة ^(١) من الدنيا تألفت بها
قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون بما معشر الأنصار أن
يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ فى رحالكم ، فوالذى
نفس محمد بيده لو لا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار ، ولو سلك الناس
شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار
وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فلما سمعوا هذا القول من رسول الله ﷺ
نكوا حتى اغضلت لحاهم وقالوا . رضينا بالله وبرسوله قسماً وحطاً
وانتهت المسألة .

(١) جماعة من الدنيا أى بقية يسيرة . وهذا الحديث هو بنية حديث السابق ، وقد سبق تحريره

وهكذا نرى أنه حين تأتي مفارقة بين شيئين ، لا بد أن تنتهخر بالشئ الدائم
الباقى الذى حصلنا عليه ، أما لشيء الذى ماله إلى فناء فإن من ليس معه
يعيش كمن عاش معه ، وهو مشاع الدنيا ، تعيش معه وتعيش بذاته . ولكن
لأحد يستعنى عن الإيمان ، نستعنى عن الدنيا بعم ، أم عن الإيمان وعن الله
ورسوله فلا . وبعد أن قسم رسول الله ﷺ العتائم ، جاء وفد هوازن ورسول الله
ﷺ وهر بالحمرانة وقد أسلموا فقاتلوا يا رسول الله إنا أصل وعشيرة ،
وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامتن علينا من الله عليك فقال
رسول الله ﷺ : أهأركم وساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول
الله خيرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا بن ترد علينا نساؤنا وأبائنا فهو أحب إلينا
فقال لهم : أما ما كان لى ولى عند المطلب فهو لكم فإذا صليت لباس
الطهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى
رسول الله ﷺ فى أبنائنا وسنات فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى
رسول الله ﷺ بالناس الطهر قاموا فتكلموا بأنذى أمرهم به فقال رسول الله
ﷺ : أما ما كان لى ولى عند المطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا
فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . قال
الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو ثميم فلا . وقال عبيدة بن حصن بن حذيفة بن
بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا . قال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ،
قالت بنو سليم : لا ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال عباس : يا بنى
سليم وهنتمونى . فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا
السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء يصيبه ، هردوا على الناس
أساءهم وساءهم (١) ذلك هو ما يشير إليه قول الحق ، تبارك وتعالى

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٨٨) . السلفى فى سنة (٦/٢٦٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن
طريق محمد بن إسحاق ، وأروه ابن شامى فى السيرة (١/١٣٥) . وانظر تفسير القرطبي (٤/٣٠٢٨)

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (٢٥)
[التوبة]

أى أنكم بدأتم المعركة ولم يكن الله فى حساباتكم، بل كنتم معتمدين على كثرتكم فلم تنفعكم ولم تحقق لكم النصر؛ ولذلك فررتكم خوفاً من الهزيمة ووجدتم الأرض ضيقة أمامكم، أى تبحثون بها وهناك عن مكان تختبئون فيه فلا تجدون، مع أن الأرض رحبة أى واسعة، ولكنها أصبحت ضيقة بى نظركم وأنتم تفرون من المعركة. إلا أن الحق سبحانه وتعالى لم يرد أن يسهى المعركة هذا الإيهاء. ولكنه أراد فقط أن يتزع من قلوب المسلمين الميالة بكثرة العدد وظنهم أن اللجوء إلى الأسياح السيوية هو الذى سيحقق لهم النصر أراد منهم سبحانه وتعالى أن يعلموا جيداً أنهم إنما ينتصرون بالله عروجل، وأن كثرتهم دون الاعتماد عليه سبحانه لا تحقق لهم شيئاً
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ
جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦)

أى أن الله تبارك وتعالى أنزل سكينة أولاً على رسوله وعلى المؤمنين الذين تبسوا معه، ثم أنزلها على المؤمنين الذين فروا من المعركة ثم عادوا إلى القتال مرة أخرى، وقوله تعالى:
﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾
[التوبة ٢٦]

وقد حدثونا عن أن ملائكة نزلت وثبتت المؤمنين، وألقت الرعب في قلوب الكافرين وأمرلت العذاب بهم والذين أمواهم الذين شهدوا بذلك، لأنهم وصهوا كائنات على جياذ بئق^(١) ولم يكن عندهم مثلها

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن ملائكة قد نزلت وأن هناك من رآهم^(٢)، فعلى الإنسان من أن يقف موقف المؤمن، وأن يشق في القائل وهو صادق فليؤمن به، قال ولا يبحث عن الكيفية وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعليه ألا يقف وقعة الرافض لوجودها، ولكن وقعة الجاهل لكيفيةها، لأن وجود الشيء، مختلف تماماً عن إدراك كيفية وجوده.

وهناك أشياء كثيرة في الكون، موحودة وتزاول مهمتها، ونحن لا ندرك كيمية هذا الوجود، وليس معنى عنم إدراكنا لها أنها غير موحودة. وكل الاكتشافات التي قدمها لنا العلم المعاصر كانت موحودة، ولكنا لم نكن ندرك كيمية وجودها من قبل، فالخداية الأرضية كانت موحودة، لكننا لم نكن ندرك وجودها ولا كيفية عملها، وكذلك الكهرباء كانت موحودة في الكون منذ بداية الخلق، ولكن لم نكن ندرك وجودها حتى كشف الله تعالى لنا وجودها باستخدامها، وليكروبات كانت موحودة في الكون تؤدي مهمتها ولم نعرفها، حتى كشف الله لنا عنها فعرها وجودها وكيفية هذا الوجود، فكنا هذه الأشياء كانت موحودة في كون الله منذ خلق الله الكون ولكننا لم نكن ندرك وجودها. وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الوجود شيئاً، ولذلك إذا حدثت شيء لا يستطيع عملك أن يفهمه فلا تنكر وجوده، لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئاً، ثم أعطانا الله تعالى العلم فوجدنا أنها تعيش بقوانين

(١) الباق، سواد رياض، والحياء الباق، في السواد التي ارتفع البياض، في أمعائها
(٢) قال القرطبي في تفسير الآية (٢٠٢٨/٤) «وَأَرْبَ جَنُودَ أَلَمْ تَرَ» ومع الملائكة، يقولون المؤمنين به يلقون من قلوبهم من الخوف والرهبة، ويضعفون الكافرين بالتجسس لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال، لأن ملائكة لم تضل إلا يوم بدر، وروى أن رجلاً من بني قيس قال للمؤمير بعد لقتال أبي الحنبل لئق، والرجال الذين كانوا عليها بيض، ما كان فيهم، لا كهنة أكسة، وما كان ذلك إلا بديهم، أخبروا النبي ﷺ بذلك فقال تلك الملائكة



مادية محددة إذن : فوجود الشيء يختلف تماماً عن إدراك هذا الوجود .

وقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حَنْتُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ كلمة ﴿ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ تعطي العنصر لكل من لم ير ، ويكفي أن الله قد ليكون هذا حقيقة رائعة والحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُود رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المائدة ٣١]

وحين كان يقال لنا : إن لله خلقاً هم اجنء ، كما أد به خلقاً آخرين هم الملائكة ، والجن يروننا ونحن لا نراهم كان البعض يقف موقف الاستنكار وكذلك قال لنا رسول الله ﷺ . «إن الشيطان يجرى من ابن آدم بحرى لدمه»^(١).

وكان بعض الناس يكررون هذا الكلام ويتساملون . كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجرى منها مجرى الدم ؟ ! وعندما تقدمنا في العلم التجريبي واكتشفت الميكروبات ورأينا من دراستها أنها تخترق اللحم وتدخل إلى الدم في المروق ، هل يحس أحد بالميكروب وهو يحترق جسمه ؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله للحسم ؟ طبعاً لا ، ولكن عندما يتوالد ويتكاثر ويبدأ تأثيره يظهر على أحاسيسنا نحس به ، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغاً لا نحس به شعيرات الإحساس الموحدة تحت الجلد ومن هوط دفته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بينها ونحن لا ندرى عنه شيئاً ، ويدخل إلى الدم ويجرى في العروق ونحن لا نحس شيء من ذلك ، ولدم يجرى في عروق يحكمها قابض هو أن مربع نصف القطر يورع على لكل ، ومثال ذلك ما يحدث في توزيع المياه ، فنحن نأتي بماسورة رئيسية نصف قطرها ثمان بوصات وندخلها إلى قرية ، تكون كمية الصب هي ٨ × ٨ أي ٦٤ بوصة

(١) نفس عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٣٥ ومواضع أخرى) ، ومسلم (١١٧٥) عن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ

مربعة، حينما تأتي لورعها على مواسير أخرى موعية بأخذ منها ماسورة نصف فطرها أربع بوصات ، ومنها تأخذ ماسورة نصف فطرها بوصتان ، ومنها تأخذ ماسورة نصف فطرها بوصة أو نصف بوصة ، المهم أن مربع أوصاف أقطار المواسير الفرعية يساوى ما تصبه الماسورة الكبيرة

وهكذا عروق الدم ، فالدم يجري في شرايين واسعة وأوردة وشعيرات دقيقة ولكل دقة حجم الميكروب تجعله يخترق هذه الشعيرات فلا يزل منها دم ، وعندما نصيق هذه الشرايين تحدث الأمور التي نسمع عنها ، من تراكم الكوليسترول أو حدوث جلطات، فيتدخل الطب ليوسع الشرايين ؛ لأنها مواسير الدم وهناك جراحات تجري بأشعة الليزر أو غيرها من الاكتشافات الحديثة تحترق هذه الأشعة الخلد بين الشعيرات ، لأنها أشعة دقيقة جداً فلا تقطع أى شعيرة ولا تُسبب أى دماء.

إذن فكل ما في داخل الجسم محسوب بإرادة الله تعالى ، ولكل ميكروب فترة حصانة يقصدها داخل الجسم دون أن نحس به، ثم بعد ذلك يبدأ تأثيره فيظهر المرء وتأخذ عمليات تولد الميكروب في الدم ومقاومته كرات الدم البيضاء له فترة طويلة ، بينما نحن لا نحس ولا ندرك ما يحدث

فإذا كان «الميكروب» وهو من مادتك ، أى . شئ له كثافة وله حجم محدد ولا تراه إلا بالميكروسكوب فتجد له شكلاً محيلاً ، وهو يتولد ويتناسل وبه دورة حياة، إذا كان هذا «الميكروب» لا تحس به وهو في داخل جسمك؛ فما بالك بالشيطان الذى هو مخلوق من مادة أكثر شفافية من مادة الميكروب، هل يمكن أن تحس به إذا دخل جسديك؟ لا ، وإذا كان الشئ المادى قد دخل جسديك ولم تحس به، فما بالك بالمخلوق الذى خلقه الله تعالى من مادة أشف وأخف من الطين؟ ألا يستطيع أن يدخل ويجرى من ابن آدم مجرى الدم؟!

وإذا قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». فلا تتعجب ولا تُكَلِّبْ لادك لا تحس به. فאלله أعطاك فى عالم الماديات ما هو

أكثر كثافة في الخلق ويدخل في جسدك ولا تحس به

إذن : فالعلم أثبت لما أد هناك موجودات لا يراها ولو أننا باستخدام اميكروميكروبات الإلكترونيات الحديثة فحصنا كل خلية في جسم الإنسان فإننا سنرى العجب، سنرى في جلد الإنسان الذي نحسبه أملس أباراً يخرج منها العرق، وغير ذلك من تفاصيل باللغة الدقيقة لا تدركها العين، فإذا حدث الله سبحانه وتعالى بأن هناك ملائكة نزل وتقاتل، فنحن نصدق، وقد جعل الحق تبارك وتعالى لنا ما يطمئن بشرتنا فقال: ﴿جَنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ، فإن قال واحد: إنَّه رآها، وقال آخر: لَمْ أَرُشَيْئاً ، يقول: إن قول الحق ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي: لَمْ تَرَوْهَا مجتمعين، فهناك من لمحها، وهناك من لم يرها.

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بالقتل أو بالأسر أو بسلب أموالهم، وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أن ما لحق بهم من هزيمة كان جزاء لهم على كفرهم. ولكن العُصْ يتساءل لماذا لم ينزل الجزاء وتتم الهزيمة من أول لحظة في اقتتال؟ يقول إن الله أراد أن يزيد عذابهم، فلو أنه ألحق بهم الهزيمة من أول لحظة، لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذاباً، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتي الهزيمة أكثر سوءاً وأكثر بشاعة، والشاعر يقول

كَمْ أَدْرَكْتُ قَرَمًا عَطَاشًا غَمَامَةً

فلما رَأَوْهَا أَقْشَعَتْ^(١) وَتَجَلَّتْ

فحين تمر سحابة على قوم يعانون من شدة العطش، هم يعلمون أن تمطر عليهم، لكن الحلم يتدهد تماماً كالسجون الذي يعاني من عطش شديد. فطلب من السجناء شربة ماء فيقولون له السجناء: سأحضرها لك. وفعلاً يذهب السجناء ويحضر له كوب ماء مثليج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب بيده

(١) أَقْشَعَتْ - انقشعت وذهب عن وجه السماء



ونفسه تقتل فرحاً . وإذا بالسجان يصربه بشدة على يده فيسقط الكوب على الأرض ، فيصاب المسجون بصدمة شديدة . وهذه أشنع طرق التعذيب . ولو أن السجان رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إيلاماً للسجين . لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه في يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذاباً . وهكذا أراد الله أن يزيد من عذاب الكافرين ما أعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولاً ، ثم جاءت من بعد ذلك مرارة الهزيمة لنسلبهم كل شيء ، وبذلك تجتمع لهم جميعتان : فجيعة الإحباط ، وفجيعة السلب .

ثم تأتي لمحة الرحمة التي يغمر بها الله سبحانه وتعالى كونه كله ، ويفتح الباب لكل عاصي ليعود إلى طريق الإيمان فيستقبله الله ، ويقول الحق سارن وتعالى :

﴿ تَعْرِتُوبُ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾

وهذه هي عظمة الخالق ، الرحمن الرحيم ، فهو يفتح الباب دائماً لعباده ؛ لأنه هو حالي هذا الكون ، وكل من عصى يفتح الله أمامه باب التوبة ، وهذه مسألة منطقية ؛ لأن الذي يكفر والذي يعصى لا يضر الله شيئاً ، ولكنه يؤذي نفسه ويحاول أن يفتري على نوااميس الحق ، حين يعلم العاصي أنه لا ملجأ له إلا الله ، فالله عز وجل يفتح له باب التوبة .

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا في هذه السورة أن الله ورسوله بريء من المشركين ، وكشف عن هسعتهم بأنهم لا عهد لهم ولا ذمة ، ويصفى هذه المسائل نصمية عقسية في ﴿ بَرَاءةٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، وطلب ما أن ينهي العقود التي بيننا وبينهم . . فمن نقض العهد انتهى عهده ، ومن حافظ عيبه حافظنا نحن على العهد إلى مدته . ثم طلب من المشركين ألا يقربوا لمسجد احرام ، وصفى أى ضغينة أو ذنب نفتح باب التوبة . ومن بعد ذلك ينتقل



سبحانه من المعاهدة التي انتهت مع ذرات الكفار إلى ذوات الكفار بأنفسهم ،
فقول بارك وتعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ
هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾



أى : أنه لا يكفى أن يقطع المؤمنون كل عهودهم مع المشركين ، بل لا بد أن
يرأوا أيضاً من المشركين أنفسهم ؛ لأنهم نجس ، والنجس هو الشيء استقل
الذي تعافه النفس وتنفر منه ، وقد يكون المشرك من هؤلاء مفعولاً من ناحية
الشكل والملمس ، ولكن هذا هو القالب ، والحق سبحانه وتعالى حسماً بتكلم
إنما يتكلم عن المعانى وعن الخلق . قاله عز وجل لا ينظر إلى القوالب ، بل
إلى القلوب ، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الذى يرويه عنه أبو هريرة رضى
الله عنه «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى
قلوبكم» (١) .

فقد تكون الصورة مقبولة شكلاً ، لكن العقيدة التى توجد فى قلوب تلك
الأجساد فذرة وبجسة ، وسبحانه لا يأخذ بالظواهر ولا بالصور ، بل بالقيم
وأنت إذا ما نظرت إلى القيم وإلى العقائد الحقّة الصادقة ، تجد كل عقيدة تبع
عن تكوين مادتها ، وعلى سبيل المثال ، حينما تكون فرحاً ، يتضح ذلك على

(١) يعنى أن العبرة يوم الحساب بالنظر إلى قلوبكم لا إلى مظهركم ، وفيه حث على الاعتناء بالقلب
وتطهيره ، ، الحديث رواه الإمام مسلم (٢٥٦٤) ، أحمد بن مسنن (٢٨٥/٢) ، ٥٣٩) وابن ماجه فى
سنن (١١٤٣) ، والمعظم

أسارىك ، ومن سيقابلك سيلحظ ذلك ويعرف أنك مبتهج ، وإن كنت غاضباً
أو نعى من صبق ، فهذا ينصح على أسارىك

إذن : فمادة تنعج بأفعال القيم ، وما دامت انقيم فاسده فالمادة التي يتكون
سها جسده تكون متمردة على صاحبها ، لأن المادة بطبيعتها صعدة مسبعة لله ،
وكذلك الروح بطبيعتها عابدة مسبعة لله تعالى ، ولا يشأ انفسد إلا بعد أن
توصع لروح في المادة ، ثم تتكون النفس من الاثنين معاً ، المادة والروح ، فإن
علت النفس منهج الله صارت مطمئنة ، وإن تأرجحت النفس بين الطاعة
والمعصية ، فإما أن تطيع فتكون نفساً نومة ، وإما أن تكفر وتتخذ طريق الشر
فتكون نفساً نمر ، بالسوء أما قبل أن تمنع الروح في المادة ، فكل سها مسبح
لله تعالى : لأن كل شىء في الوجود عابد مسبح ، والنفس في كل سلوكها
مقهورة لإرادة صاحبها بتسخير من الله عز وجل ، وحين يأتى الموت ، تنهى
الإرادة البشرية وتسقط سيطرة الإنسان على جسده ، بل إن هذا الجسد يشهد
على صاحبه يوم القيامة . والإنسان في الحياة الدنيى يعيش وإرادته تسيطر على
مادته بأمر من الله ، فاليد قد تضرب إنساناً ، وقد تعين إنساناً آخر وقع في
عسرة ، ولسان المسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، ولسان الكافر يشرك مع الله آلهة
أخرى

إذن . فمادة الإنسان خاضعة لإرادة صاحبها في دنيى الأغيار ، فإذا انتقل
إلى الآخرة فلا تأثير له على المادة ، وتتحرر المادة من طاعة صاحبها في
لمعصية ، وتتمرد عليه ، وتشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها في المعصية .
والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾ (١) وَقَالُوا لِمَ لُودَهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ
شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢﴾

[مفصلة]

فكأن جوارح الإنسان تقول له يوم اقيامة لقد أتعبتني في الدنيا وأكرمتني على فعل أشياء لم أكر لأفعلها لأنني عابدة مسبحة لله ، وإن ما أمرني به يحررني عن طاعة الله عز وجل ، وسبق أن ضربت المثل بقائد الكتيبة الذي يصدر أوامر خاطئة فيطيعه الجسد ، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى شكروا له عما كان قائد الكتيبة يكرهم عليه ، كذلك أبعاض الجسم تشهد عليه عند حانها يوم اقيامة عمن كنت عادداً مُسبحاً كنت جوارحك معك . وإن كنت غير ذلك كانت جوارحك ضدك ، فاللسان مثلاً عابد مبح في ذاته ، فإذا أكرمته على أن يشرك بالله فهو مُكره في الدنيا ، ويصير شاهداً عليك يوم اقيامة والحق سبحانه وتعالى يتدبر يومئذ قائلاً

﴿لَمَّا مَلَكَ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدَ لَقَهَّارَ (١٦)﴾ [عادر]

وهنا يقول الحق عز وجل ﴿إِنَّمَا الْمَشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي . أن عقيدتهم الفاسدة تضع على تصرفاتهم ، وسبحانه وتعالى يرس المعايير الإيمانية في النفوس أي يزيلها ، ومثال ذلك نحن نرجم إبليس كحسبك من مناسك الحج ، نرجم قطعة من الحجر رمزا إليها بالشيطان ، ونحن لا نرى الشيطان ، وقد وضعنا له رمواً وأرسلنا في أعماقنا أن الشيطان عدو لنا ويجب أن نرجمه لستعد من مراداته ، ولذلك أبرزنا هذه المعاني في أمر حصي ؛ لنوضح للنفس البشرية أن الشيطان عدو لك ، وكلما وسوس الشيطان لنا بأمر نرجمه بأن بين لأنفسنا قضايا الإيمان الناصحة فيهرب منا . وكل منا عليه أن يتذكر أن الشيطان سوف يصحك على العاصين والكافرين في يوم القيامة ، ويقول ما أورده الحق سبحانه وتعالى على لسانه

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]

وهي هذا القول سخرية من صدقوه ؛ لأن السلطان إما سلطان القهر بأن تأتي لإنسان بما هو أكبر منه وتظهره على فعل شيء بالقوة ، وإما سلطان الإقناع

بأن تقنع إنساناً بأن بعض شيئاً. والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فإنه يوضح لنا أن مجسمهم يحتم علينا أن نمنعهم من دخول الأماكن التي لا يدخلها إلا الإنسان الطاهر. وجعل الحق سبحانه وتعالى الحجاسة المعنوية مثلاً مثل لنجاسة لمادية، ولذلك قال العلماء: ما دم الحق قد وصفهم بأنهم نجس فلا بد أن يكون فيهم نجس مادي، ولذلك إذا اقتربت منهم تجد لهم رائحة غير طيبة، لأنهم لا ينظفون من حدث، ولا يغتسلون من حنائه. وعندنا ذهبنا إلى الجزائر بعد تحريرها من فرنسا، لم نجد في البيوت حمامات؛ لأن الواحد من المستعمرين لا يذهب إلى الحمام إلا كل عشرين يوماً مثلاً، لذلك جعلوا الحمامات بعيداً عن المساكن، ولكن بعد أن تحولت الجزائر صارت في البيوت حمامات؛ لأن الثقافة الإسلامية مبنية على الطهارة، ويتوجب على المسلم أنه كلما دخل الإنسان الحمام تطهر، وكلمة كان جنباً احتسل.

ولقد قال البعض: لو أنني سلمت على مشرك ويده رطبه، فلا بد أن أحس يدي^(١). فإذا كانت يده جافة يكفي أن أمسح على يدي. وفي هذا احتياط وبأكيد على اجتناب هؤلاء المشركين. وإذا كنت مجتنبهم أحسناً وقولاً، ألا يجدر بنا أن نجتنبهم قلوباً؟

وقد أنزل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة في العام التاسع من الهجرة وهو لعام الذي صدر فيه مع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام والبراءة من هؤلاء المشركين، وتساءل العلماء: هل للمنع والمحرم هو اقتراب المشرك

(١) قال ابن كثير: من صامع مشركاً فليتوضأ، ذكره القرطبي في تفسيره (٤/٣٠٣)، قال ابن كثير (٢/٢٤٦): «دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح المأمور لا يجس». وأما نجاسة يده فالجمهور على أنه ليس نجس اليد ولذا: لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وهم بعض الظالمين إلى نجاسة أديانهم، وقال أشعث عن الحسن: من صامعهم فليبرأ. رواه ابن جرير.

من المسجد الحرام، أم من الحرم كله؟ وحدد الإمام الشافعي التحريم على المشركين بالوجود في المسجد الحرام ومع احترامنا لاجتهاد الإمام الشافعي نقول: إن الحق سبحانه وتعالى قال ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ ولم يقل . فلا يدخلوا . وتحريم الاقتراب يعني ألا يكونوا قريبين منه ، وأقرب شيء للمسجد الحرام هو كل الحرم ، ولو كان المراد هو المسجد فقط لمع الحق دخولهم إليه بالنظر على ذلك^(١)

وهكذا نرى كيف يمكن أن يجتهد الإنسان ويبحث في المعاني ليستخرج المضمون الحق . ويصاغ المولى سبحانه وتعالى قوله . ﴿وَإِنْ حَقَّتْ عَيْنُهُ قَسَوفٌ يُعَذِّبُكَ اللَّهُ مِنْ قَضَاهُ إِنَّ شَاءَ إِلَّا اللَّهُ عِلْمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي هذا القول الكريم حديث عن الغيب . والغيب . كما عرفناه هو ما يغيب عنك وعن غيرك، أما الشيء الذي يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً، فهذا سرقة منك مال مثلاً فأنت لا تعرف من الذي سرق ، والسارق في هذه الحالة غيب عنك، ولكنه ليس غيباً عن غيرك ، فاسارق يعرف نفسه ؛ والذي دبر له الجريمة يعرفه، ومن رآه ومستر عليه يعرفه . وأنت . أيضاً . لا تعرف مكان المسروقات، ولكن السارق يعرف المكان الذي خبأها فيه

فإن . فهي غيب عنك وليست غيباً عن غيرك . وهذه لعبة الأفاقين والنصابين الذين يسحرون الحن، لما دام الشيء معروفاً ومعلوماً لغيرك من الناس، فالكشف عنه مسألة سهلة ، ولكن هناك غيباً عنك وعن غيرك، وهذا هو ما يفرد به الحق سبحانه وتعالى في قوله سبحانه :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إلا من ارتضى

من رُؤُوسِهِ ... (٢٧) [الجن]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٠٣) قال الشافعي رحمه الله الآية عامة في سائر المشركين ، خاصة في مسجد الحرام ، ولا يجوز من دخول غيره ، فأباح دخول اليهودي والنصراني في سائر المساجد قال ابن العربي وهذا خبره عن علي الشافعي لأن قوله هو وجل ﴿إِنْ شَرَكُوا تَجَسَّسْ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والمجاساة

ولكن هناك غيبٌ عن الناس جميعاً ، ولكنه لن يظل غيباً إلى آخر الزمان ،
 مثلاً الكهرباء كانت عيباً واكتشفناها ، وتعتيت الذرة كان غيباً وعرفناه ،
 وقوانين الجاذبية كانت غيباً ثم دخلت في علم الإنسان فأصبحت معلومة له
 وليس هذا هو العيب الذي يفصده الله سبحانه وتعالى في قوله . ﴿عَالَمُ
 الْغَيْبِ﴾ ، فهذا غيب يختص نفسه به ، فلا تقل : إن فلاناً يعلم الغيب ، ولكن
 قل : إنه مُعَلِّمٌ غَيْبٍ ، والمسائل الغيبية إما أن يحجبها لزمان أو يحجبها
 المكان ، فالآثار المظلمة مثلاً ، تعبر عن شيء ماضٍ واندثر ، وفيه أخبار الأمم
 السابقة ، ولا يعرفها أحد ، وسرّه حجاب الزمن الماضي ، إلى أن يتم الكشف
 عنها ويهيئ الله لها من يفك ألغازها .

أما إبلاغ الله رسوله من أنباء الأمم السابقة مما جاء في القرآن الكريم فهو
 اختراق لحجاب الزمن الماضي ، نحو قوله تعالى :

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاحُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
 يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران ٤٤]

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ
 الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي
 أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥)﴾ [التقصير]

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ في آيات أخرى دليل على أن الله سبحانه
 وتعالى أخبر رسوله ﷺ عما كان مسوراً في الزمن الماضي ، أما الشيء الذي
 سوف يحدث في المستقبل ، فهو محجوب عليك بحجاب الزمن المستقبل ، وقد
 اخترق القرآن الكريم حجاب المستقبل في آيات كثيرة كلها تبدأ بحرف السين ،
 وحرف السين دليل على أن الشيء لم يحدث بعد ، وقوله تعالى .

﴿سُورِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَقْصَىٰ وَفِي أُنْفُسِهِمْ﴾ [صفت ٥٣]

دليل على أنه من الزمن المستقبل يكشف الله لنا عن آياته الموجودة في الأرض، وقوله تعالى

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَتَبُوا الذُّلَّ﴾ [١] عُلِّيتِ الرُّومُ [٢] فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ
سَافِرُونَ [٣]

وهذا اختراق لحجاب المستقبل ؛ لأن النص يحدث بعد نزول هذه الآية بتسع سنوات. إذن فالذي يحدث في المستقبل محجوب عنك بالزمن المستقبل، ولكن هناك شيئاً يحدث في الحاضر ولا تعرفه وهو محجوب عنك بحجاب المكان، فما يحدث في مكان لست موجوداً فيه لا تعرفه، فأنت إن كنت جالساً في مكة مثلاً، فأنت لا تعرف ما يحدث في المدينة المنورة لأنه محجوب عنك بحجاب المكان، وهناك أيضاً حجاب للنفس، أي : أن ما يدور في نفسك لا تعرفه أحد غيرك ؛ لأنه محجوب بحجاب النفس.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فسبحانه وتعالى يخاطب قوماً يريد منهم أن يمتدوا هذا الأمر، ولكنه سبحانه يعلم السرائر التي تستقبل النص. مثلما يأتي إسمان ويخبرك أن المخبر القريب من مرثد سوف يعلق فأول ما يتبادر إلى ذهنك السؤال. ومن أين سأني بالخبر؟ أو أن يقال لك : «إن البعرة التي تحمل اللحم والخضروات صلت الطريق» فأول ما يخطر على بالك لحظتها ومن أين نأكل؟

وكان المشركون يأثرون إلى الحج ومعهم أموالهم ويتجرون ويفقون، هذه الفترة تمثل بالنسبة لمن يعيشون حول بيت الله أحرام فترة الزواج المأذى الذي يعيشون عليه طوال العام

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَسْجِدَ الْحَرَامِ بَعْدَ مَا هِيَ مِنْكُمْ هَذِهِ﴾ فأى شيء يختلج في نفوس المسلمين؟ لابد أن يدور في أعماقهم السؤال ومن الذى سيشتري بضائعهم؟ لكن هل ترك الله عز وجل مثل هذا القول دون أن يرد عليه؟ لا ، فقد رد على التساؤل بقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْمِلُوا عَثَرَةَ مَنْ سَلَفَكُمْ لَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ .

وهكذا كشف الله حجاب النفس ، ورد على ما سيدور في نفوس المؤمنين في نفس الآية التى حرم فيها على المشركين أن يقتربوا من المسجد الحرام ، ولم يتطرق الحق سبحانه وتعالى حتى يعلى المؤمنين ما فى أنفسهم ، بل رد على ما يجول بخوارهم قبل أن يعلنوه

وحين يكشف الله عز وجل حجاب النفس بهذا الشكل ، فالمؤمن للذكى يقول : هذا ما جاء فى بالى ، ولأطمئن لأنه عرف ما بنفسى فسوف يردقى . ولو لم يأت ذلك فى بالهم لكذبوا النص ، ولو كذبوا النص لما بقوا على الإيمان ، وم دأبوا قد تقروا على الإيمان فقد جاء النص معبراً عما يجول بأنفسهم ثاماً

والله سبحانه وتعالى كشف حجاب النفس فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، منها قوله تعالى عن المنافقين والكفار

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (٥٠) [المائدة]

وقول النفس لا يسمعه أحد ، ولو أن هؤلاء لم يقولوا هذا فى أنفسهم لقالوا : والله ما خطر ذلك فى نفوسنا ولأنهم قالوه فى أنفسهم فقد بهتوا لكشف لقرن الكريم ما يدور داخل أنفسهم ولقد رد الله سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة على ما سيدور فى خواطر المؤمنين عندهم يستمعون إليها ، فلم يتطرق الحق سبحانه وتعالى حتى يشكو المؤمنون لرسول الله ﷺ خوفهم الصغر وقلة الرزق ، بل أجاب سبحانه وتعالى عن ذلك قبل أن يحطر على بالهم

فكان الحق سبحانه وتعالى يُشرِّع حتى للخواطر قبل أن تخطر على البال، ولا يترك الأمور حتى تقع ثم يُشرِّع لها.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ و لعلة هي الفقر، ريبايع الحق جل وعلا ﴿فَسَوْفَ يُعْطِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ ، ولم يقل الحق «سيعطيكم» بل قال: ﴿فَسَوْفَ﴾ وهي تقتضي زمناً سيمر ولكنه زمن قريب ، لأن الخير الذي سيأتي به أسباب كثيرة كمية ضخمة كأن يعوضهم الله عما كان يأتي به الكفار بأن تمطر السماء مطراً فسبت النبات، وهذه تحتاج إلى زمن، ولما أحذوا بالأسباب بأن يروج لهم مجادة على غير المشركين، أويكشف لهم من كنوز الأرض ما يغنيهم ولذلك قال ﴿فَسَوْفَ﴾ والأسباب تحتاج إلى وقت، هزلت الأمطار قرب جدة التي أسلمت وست الررع في وادي خلبط ، وتعالى باليمن وجرش وصعفاء، وجاءت أحمال البعير بالخير لأهل مكة وحدثت الفتوحات الإسلامية ، وجاء الخبر من الحزبة والخراج وهكذا نرى أن ﴿فَسَوْفَ﴾ امتدت لمراحل كثيرة ، وما زالت موجودة ممتدة حتى الآن

إذن : فقد أخذت الأمد الطويل حتى أننا لا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى . ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ هي حشية بأن المؤمن عليه ألا يتهاون في أمر دينه رغبة في تحقيق أمر من أمور الدنيا ، فكل من يرتكب معصية خوفاً من أن يصيب منه مائة مادية أو دنيوية ، كأن يخشى قول الحق خوفاً من أن يصيب منه معصية ، أو يعضب عليه صاحب العمل فيطرده من وظيفته ، يقول له : لا عذر لك ، لأد الله سبحانه وتعالى قال . ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُعْطِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ .

وحيث إن الرزق من عند الله سبحانه وتعالى . وهذا هو كلام الله عز وجل ، فلا عذر لأحد أن يرتكب معصية بحجة المحافظة على رقه ، أو بحجة أنه يدفع الفقر عن نفسه وبيته وأولاده.

على أن قوله تعالى : ﴿إِنْ شَاءَ﴾ قد تجعل الإنسان يظن أن الزمن سرف
يواعد بينه وبين الرزق ؛ لأنه سبحانه قد يشاء أو لا يشاء ، فكيف يكون هذا
الأمر وهو سبحانه أراد بالآية طمأنة المسلمين .

وإذا كان الله قد قال : ﴿وَإِنْ حِفْظُ عَيْلَتِهِمْ سَوْفَ يُعْثَبُكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

عرب تقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد الصفة الدائمة بعبده وألا يفسد
على العبد الرجاء اندائم في الله تعالى ، وقوله عز وجل : ﴿إِنْ شَاءَ﴾ هو إبقاء
لهذا الرجاء ؛ لأن العبد سيقبل في رجاء إلى الله عز وجل فيبطل الله تعالى في
بأله ؛ ولأنه سيقبل دائماً رضا الله فإن هذا يجعله يتعد عن المعصية ويتمسك
بالطاعة

وفوق ذلك كله ، فإن الحق تبارك وتعالى له طلاقة القدرة في كونه ، فقدر
الله وقضاؤه ليسا حجة على الله سبحانه وتعالى فيقيد مشيئة سبحانه ، فمشيئة
الله مطلقة لا يقيدها حتى قدر الله فهو إله شاء حدث القدر وإن شاء لم
يحدث . وهكذا تظل طلاقة قدرة الله في كونه

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحة من لمحات الغيب ، فيخبر
الواحد منهم الناس ، فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه ؛ حتى يظل الله
وحده عالم الغيب ؛ فمدام ذلك الذي اصطفه الله بغيب طلع الناس عليه .
فسيبغنه يغير أحداث الغيب ولا يغطي لذلك الشخص خبراً عن أي غيب
آخر

إذن الكلمة : ﴿إِنْ شَاءَ﴾ هي إنسان طلاقة قدرة الله في كونه ، فإن شاء
أعطاكم ، وإن شاء لم يعطكم ، والإعطاء له حكمة ، وإشع له حكمة ، فقد
يمتري البعض بالعمه فيحجبها الحق عنهم ، وهذا ما حدث في كثير من البلاد

التي طغت وكفرت سعمة الله عليها ؛ لأنه سبحانه لو ترك النعمة هكذا بدون صواب لا تستشري في تلك البلاد الفساد والمعاصي ، إذن : فالمشبهة تقصص إعطاء ، أو منعا ، والإعطاء له حكمة ، والمنع له حكمة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه على أنهم من الأعيان القلوب ؛ منهم من تأثره النعمة فتطعمه ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [المجر]

أي : أن الإنسان إذا أنعم الله تعالى عليه ، عذ هذا كرمًا من الله عز وجل ، وإذا ما ضيق الله عليه الرزق اعتبر ذلك إهانة وعدم رص من الله ويرد الله ببارك وتعالى ليصحح المفهوم فيقول . ﴿ كَلَّا ﴾ أي لا المال دليل على لإكرام ، ولا قلة المال دليل على الإهانة

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاسِنُونَ عَلَى طَعْمِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ [المجر]

إذن . فالمال إذا جاء ليطلعك يكون نعمة عليك وليس نعمة لك ، وإذا كانت قلة المال تمنع طغيانك فهي نعمة وليست نعمة . ولذلك قال تبارك وتعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُورٌ (٦) أَنْ وَهَّ اسْتَعْنَى (٧) ﴾ [العلق]

قد يسمع عبك المال الذي إن وصل إليك عرك فتحسب أنك في غنى عن الله تعالى وتطعمي ، وهذا المنع نعمة وليس نعمة ، إذن فقله تبارك وتعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ هو إبقاء لطلاقة القدرة في الكون حتى يكون الإغناء لا بالمادة وحدها ولا بالمال وحده ، ولكن بالقيم أيضا ، فلا يذهب المال قيم السماء ولا يبعد عن مهب الله .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ يحس . أنه سبحانه إن شاء أعطى ،

وإن شاء منع ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وهى طلاقة المشيئة ،
فى حدود حكمة الله عز وجل ، فلا تغل حين يمنع . إنه لم يحقق قومه
﴿ فُسُوفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ لأن لإغناء كما يكون بالمائة ، يكون أيضاً
إعناء بابقيم . ويؤكد هذا قوله سبحانه وتعالى . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾
أى 'عليم بالأمر الذى يصلح لكم ، حكيم فى وضع العطاء فى موضعه ويلمع
فى موضعه

ثم يقول الحق بعد ذلك

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ
دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١٩)

وهذا يعود الحق سبحانه وتعالى إلى التحدث عن القتال ، ونعلم أن الذين
تحدث عنهم المولى سبحانه فى هذه السورة ، هم المشركون وأحوالهم ، والأمر
بإعناء المعاهدة معهم ، وإبعاد دوائهم عن المسجد الحرام ، وتقتيل من يحاول
البقاء معهم ليحصل على الشرك ، حتى لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان (١)

وعرفت من قبل السبب ، وأما الذين يتحدث عنهم الله فى هذه الآية فهم
غيرهم . . فرغم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل لمشركى العرب محمداً ﷺ

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان أحرم عهد رسول الله ﷺ أن يترك بجزيرة العرب
دينان . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٥ ، ٦) قال الهيثمى فى المجمع (٢٧٥ / ٥) « رواه أحمد
والطبرانى فى الأوسط رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع »

وهو رسول من أنفسهم، فهم يعرفونه حق المعرفة، كما أن المعجزة التي جاء بها ﷺ من حسن فصاحتهم، فدا كذبوه فهم مخطئون، ورغم هذا كذبوه ولم يؤمنوا به، أما نوحا جرح الجزيرة فالرسول ليس منهم، والقرن لم يرل بلغتهم، وكان عليهم أن يأخذوا من المنهج التطبيق المناسب. وهكذا يرى أن مصادمة الإيمان لم تكن من مشركي مكة فقط، بل كانت أيضاً من بعض يهود المدينة وبعض من نصارى مجران، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حدد في هذه السورة موقف الإيمان من اشركين به، فقد أراد أيضاً أن يعدد موقف الإيمان من أهل الكتاب.

ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين أهل الشرك وأهل الكتاب، فالمشركون لم يكونوا يؤمنون بالله إلهاً واحداً بل معه شركاء، ولكن أهل الكتاب يؤمنون بالإله ويؤمنون برسول وكتاب سماوي، وهم بذلك أقرب إلى الإيمان. وبذلك نجد لقراء الكريم يعرض لك مثل هذه القضية كطبيعة فطرية، فتجد أن النبي ﷺ قد حزن هو وصحابته حين غلبت الروم في أدنى الأرض (١) لماذا حزن الرسول ﷺ وهو يعلم أن الروم سيقفون أيضاً ضده؟ لقد حزن ﷺ لأنهم يؤمنون أن للكون خالقاً واحداً وأن له رسلاً يوحى إليهم وأن له كتباً مرسلة، لكن الأمر يختلف بالنسبة للمشركين، فهم يكفرون بالله وهذا قمة الكفر صحيح أن بعضاً من أهل الكتاب وقفوا مع المشركين في موقف العداء

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المسلمون يسمون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يسمون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان. فذكر ذلك لسمون لأبي بكر. رضي الله عنه فذكر ذلك لموكر النبي ﷺ فقال به سبي ﷺ. أما إنهم سيهزمون فذكر أبو بكر لهم ذلك فقالوا: أحمل بيتنا وبيتك أجيلاً من ظهرنا كان لله كذا وكذا، وإن ظهر لنا كذا وكذا ففعلنا منهم أهل حمص سبيهم بظهورنا وذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: لا جعلته أراه قال دون العسرة. قال: فظهرت الروم بعد ذلك فذكر قوله تعالى: ألم نجيب الروم في أدنى الأرض وهم من بعد عليهم سيعمون ﷻ قال: فعلت الروم ثم جلبت بعد ﷻ الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يصرح المؤمنون بتبصر الله ﷻ قال سفيان: وسمعت أباهم ظهور يومئذ. أخرجه الترمذي في سنة (٣١٩٢) وقال حسن صحيح عريب وإخاكم في مستدركة (٤١٠/٦) من حديث ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي

لرسول الله، لكن قلبه ﷺ معهم لأنهم أهل إيمان بالقمة. ويُسرَى الحق عن
رسوله ﷺ فيقول:

﴿الْم (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَيُغْلَبُونَ (٣)﴾ [الروم]

وما يبرز سؤال يقول: متى سيغلبون؟ تأتي الإجابة من الحق تبارك
وتعالى.

﴿فِي بَضْعِ سَنِينَ﴾ [الروم، ٤]

والبضع بالسبة للزمن هو فترة تتراوح من ثلاث لتسع سنوات، ولم يحدث
لحق سبحانه وتعالى البضع هنا؛ لأن المعارك لها أوليات ونهايات، لهذا جاء
قول الحق تبارك وتعالى مرعياً لما تستغرقه هذه المراحل كلها. وجاء القول بأن
نصر الروم على الفرس سوف يأتي بعد بضع سنين. وبالله قولوا لي كيف
يتحكم نبي أمي في جزيرة تسكنها أمة أمية، ولا علم لهذا الرسول بأخبار الأمم
وكيف لهذا النبي أن يأتي بأخبار نصر أمة على أخرى؟ وبظل هذا الخبر في
الكتاب الذي يحمل مذهب رسالتك قرناً يتلى ويتعد به إسي قيام الساعة؟ لقد
قالها بثقة في حدوث ما جاء في القرآن في المستقبل القريب؛ لأنها جاءت من
ربه، وهو واثق أن قاتل هذا الخبر قادر على إنعاده ما يقول.

والأ، فمادام كان يحدث لو أن الرسول ﷺ قال ذلك ثم مر بضع سنين ولم
يأت نصر الروم؟ ومادام يكون موقف الذين أمواه كرسول من عند الله؟

إذن: هو ﷺ لم يكن ليجازف وينطقها إلا شقة في أن القائل هو الحق
سبحانه الذي شاء أن يبرل بالخبر في آية قرآنية تُتلى، وتُكتب، وتُحفظ،
ويُصلى بها في كل وقت إلى أن تقوم الساعة. ويتزلها سبحانه على محمد ﷺ
وقت أن كان ضعيماً لا يعرف ميزان القوى، ولا يعلم هل ستستعد الروم
لتنصر أم لا؟

ثم ألم يكن من الممكن أن يتصالح الروم والفرس ؟ كل ذلك لم يكن في حسان محمد ﷺ ؟ لأن الخبر جاء من الله سبحانه القدر على إنباد ما يقول . ألم يكن هناك إخبار عن أمور خالفت الرواميس ؟ نعم كانت هناك أمور خارجة عن الرواميس وجاء بها الخبر من الله سبحانه وتعالى . . ألم يقل زكريا عليه اسلام حين بُشِّرَ بالولد :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لِغُلَامِي وَلَكُمْ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّهُ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم]

أى : ما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فقد تأكد الحدوث . وكان المؤمنون أقرب إلى الروم لأنهم أهل كتاب ؛ ولأن لهم صلة بالسماء ، ومن له صلة بالسماء يتنلى بالخبر إلى أجوار السماء ، ويسمع أخبار المؤمنين في القمة العقلمية . ومن العجيب أن هذه الآية تصدق في الروم وفارس ، فيتصبر الروم على الفرس ، وتصديق في محمد ﷺ وأصحابه ، فيتصبر رسول الله وأصحابه في بدر . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ (١) إِنَّا نَحْمَدُ اللَّهَ (٢) ﴾ [الروم]

وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خوطبنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾ [التوبة]

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وصمهم بما بأنهم لا يؤمنون بالله مع أنهم أهل إيمان والمعنى أنهم لا يؤمنون بالله الإيمان الذي يعطى الله جلال

الصفات وكمالها، لأن بعضهم قال: إن الله له ابن اسمه عزيز، وقال البعض الآخر: المسيح ابن الله، إذن مهم لم يؤمنا بالله حق الإيمان تسبيحاً وتزبيهاً لذاته الكريمة عمّا لا يليق بها، وكذلك يختلف إيمانهم باليوم الآخر عن الإيمان الحق به، إنه إيمان لا يتفق مع مرادات الله تعالى؛ فهم يقولون مثلاً: إن النعيم في الآخرة ليس مادياً ولكنه نعيم روحى، ونقول: عندما يحدثنا الله عن نعيم الآخرة فلا بد أن نعرف هذا النعيم حتى نفهم المعنى، ونسأل: ما هو النعيم الروحى؟ هل النعيم الروحى هو جواهر فى النفس فقط لا علاقة لها بالحقيقة؟ أليكون هذا هو نعيم الآخرة؟

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى عما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين وأعد تارة للكافرين، وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب؛ بما يقنعنا أن فيها نعيماً مثل الذى نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحياً ونحن لا نعرف النعيم الروحى ولا نعلم شيئاً عنه، فكيف يفرضنا الله عز وجل بشيء لا نعلمه؟ إذن: فإيمان هؤلاء لباس باليوم الآخر ليس إيماناً كما يريد الله.

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشباه من جسس ما نعرف وليس من جسس ما لا نعرف. وصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا بعض صور النعيم فى الجنة، وقال: إنها مثل كذا وكذا. قال الحق جل جلاله:

﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا
تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد ٣٥]

إذن: فالله عز وجل يعطى مثلاً فقط. ومعلوم أن اللفظ فى اللغة لا بد أن يوضح لمعنى معروف. ولذلك عندما يحدثنا الله عن نعيم الجنة لا بد أن يحدثنا بكلام نعرف معانيه. ورسول الله ﷺ قال عن الجنة:

«فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»^(١)

إذن . فلا توجد في اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة ؛ لأن المعنى غير معروف لنا . ولكن الله أراد أن يحسبنا فيها فأعطانا صورة يهملها عن الحميم ، فيقول عمر وجل ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنعصبات التي تكون في المثل . فمثلاً الخمر في الدنيا فيها خصلتان ؛ الأولى أنها تغتال العقول^(٢) والثانية . أنها لا تشرب بقصد اللذة ، والذي يشرب الخمر لا يشربها مثلما يشرب كوب عصير لماجر أو عصير الليمون الذي يستطيعه ويشربه على مهل ، ولكنه يسكب الكأس في فمه دفعة واحدة ؛ لأن طعمها غير مستساغ وليقل زمن مرور الخمر على الحس الذائق ، ومعنى هذا أن طعمها غير مستطاب . ثم إنها تذهب بوعي الشارب لها فيفقد السيطرة على سلوكه ، ويعتذر في الصباح عما فعل أثناء احتشائه للخمر ويقول خحلاً . فلم أدر موقع رُسى من موقع قدمي « هذه خمر الدنيا . ولكن الخمر في الجنة لا حَوْلَ فيها . أى : لا تغتال العقول ، حلوة المذاق ، ولذلك يصفها الله سبحانه وتعالى بقوله .

﴿ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ﴾

[محمد ١٥]

أى أنها مختلفة تماماً عن تلك الخمر التي حرمها الله في الدنيا وتتجلى الحكمة في معنى الاستطعام في قول رسول الله ﷺ

«ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه

(١) عن سهل بن سعد الساعدي قال «شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ في آخر حديثه فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ويستمعون صوتاً وطعماً وما رزقناهم يمعنون ﴾ فلا تعلم نفس ما أُتيت لهم من قرة أعين جزاء ما كانوا يعملون ﴾ « أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٥) وأبو عبد الله (٣٣٤/٥) من طريق أبي زهير عن أبي بصير به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه إمامكم في مستدركه (٤١٢/٢) من طريق عبد الله بن مسعود عن أبي بصير به . وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأخره

الذهبي

(٢) تغتال العقول : تسكر ، وتذهب بها

كما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يهود في الكفر بعد أن آمنه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» (١)

ومن رحمة الله تعالى بحلقه أنه لم يجعل الطعام وقوداً للطاقة فقط ، بل يعرى الناس على وقود الطاقة لاستبقاء الحياة بأن يستلذ الإنسان الطعام ، يطيل أمد اللذة ساعة تناوله ، لا أن ينتظر النع بعد أن يهضم الطعام . مكان الإيمان لا يستمر إلا لمن يحب في الله ويكره في الله ؛ فذلك يعطيه لطافة التي نستبقى إيمانه ؛ كما تستبقى طاقة الطعام حياة الإنسان . وشاء الله سبحانه وتعالى أن يعطيت في تصوير الجنة المثل لما في الجنة . لا بتشخيص وتحديد لما في الجنة فعلاً ، ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَعْيَنَ جَزَاءُ بِمَآ كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧)

[السجدة]

وإذا كنت النمر لا تعلم شيئاً ، فهي لا تملك ألقاظاً يصع فيها ما لا تعلمه ، فإذا خاطبها الله تعالى بواقع الجنة فهي لن تفهم ، لذلك شاء الحق تبارك وتعالى أن يحاطبها بواقع المثل ، فيقول عز وجل

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٥)

[البقرة]

إذن - فهو رزق يشبه الرزق الموجود في الدنيا ولكن ليس هو (٢) ، أما أن

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٨٤ / ١) « من قيل يعنى من الدنيا ، وفيه وجهان ، أحدهما أنهم قالوا هذا الذي وعده الله من الدنيا والثاني هذا الذي رزقنا في الدنيا ، لأن لوها يشبه لون نهار لدي ، إذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك وقيل من قيل يعنى من الجنة لأنهم يزرعون ثم يزرعون ، فإذا أتوا بطعام ونهار في لون النهار مأكول منها ، ثم أتوا منها في نهار النهار ، قالوا - هذا الذي رزقنا من قبل ، يعنى أحدهما من أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ، فلما أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول وقال بن عباس « وأتوا به متشابهاً » - هذا على وجه التصيب - وليس في الدنيا شيء مما في الجنة سوى الأسماء ، فكانهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم حلقها .

يقال : إن نعيم الجنة هو النعيم لروحي أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتحيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك؛ فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقي، ولكنهم يقولون هذا لكلام؛ لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواهر، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة، أي سيكون عذاب الخواطر، وفي هذا تصور لعذاب سهل؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا يد أن يكون له واقع يشبهه في الدنيا، وإلا ما وُجد في أنفسنا من جعلنا نرغب في نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار. لذلك فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق. وشاء الله سبحانه أن يصفى النعيم من كل الشوائب، فقال عمر وجل عن أنهار الجنة.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾

[محمد : ١٥]

أي ليس فيه كل الشوائب الموجودة في عسل الدنيا وكذلك قال عن لبن الجنة.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾

[محمد : ١٥]

وكلمة ﴿لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ لها عند العرب أيام رسول الله ﷺ معنى؛ لأن العربي كان يحب الجمال ويصنع ألوانها في الأواني، وكان اللبن يتغير طعمه ويصير حامضاً، لكنه كان مضطراً أن يشربه؛ لذلك حين يسمع ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فهو يعطيه المثل من حياته، بعد أن يتقيه من كل الشوائب التي تمسد طعم اللبن في الحياة الدنيا.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَاتِلُوا الدِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي الإيمان الواجب بعظمة الله وتزيهه واليهود يؤمنون إيماناً إجمالياً بالله، ولكنهم يجسمونه ويقولون : إنه جلس على صخرة رمد قدميه في قصعة من الرمود ثم استكشف الله أن يمد يده لبني إسرائيل، وهذا تصوير لا يليق بكمال

الله ولا بذاته المعدسة، وهذا خطأ في التصور وكذلك كان خطوهم في تصور عقيم الجمة وعذاب النار، وبذلك لم يؤمنوا إيماناً حقاً باليوم الآخر، ولهذا جاء قول الحق: ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهم لم يقفوا فقط صد الإسلام كمنهج، بل وقفوا أيضاً من أديانهم مثل هذا الموقف، ويقول المولى سبحانه وتعالى

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾

وهم كأهل كتاب خرفوا وبدلوا في دينهم فأخفوا ما حرم الله ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَوُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾

ولحق كما تعلم - هو الشيء الثابت الذي لا يتغير - وإذا نظرنا إلى كل رسول في عصره؛ نجد أنه قد جاء بالحق، وإذا جاء رسول من بعده فهو لا ينسخ العقائد، ولكنه يسبح في الأحكام، وهكذا تعلم أن كل رسول جاء بالمعقائد الثابتة وبالأحكام التي تناسب الزمان إلى أن بعث الله محمداً ﷺ، فكان انتهى الخاتم إلى أن تقوم الساعة، ولا بد أن يكون الحق الذي جاء به هو الحق الثابت الذي لا يتغير؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا رسول بعده، إذن بقوله ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: أنهم لا يؤمنون حتى بما جاء في كتبهم من بشارة به ﷺ، وهذا حكم خاص بهم؛ لأن المشكلة معهم أنهم لم يصدقوا بلاغ رسول الله ﷺ عن الله وأنه مرسل إليهم، وسن رسول الله ﷺ في معاملتهم ما شرعه الله تعالى، وذلك أن يعاملوا معاملة مختلفة عن المشركين، فمعاملة المشركين كانت براءه من العهد، وإبعاداً عن المسجد الحرام، وقتالاً، ووجدناهم، أو أن يسلطوا. أما معاملة رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب فكانت: إما أن يسلطوا، وإما أن يعطوا الجزية مع استبقاء الحياة، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

أى حتى يؤدوا ما قُرض عليهم دفعه من أموال مقابل حصولهم على الأمان وإحمايه، وهى هدأ حصول لدعاتهم، وبذلك نجد أن المسلمين قد فتحوا بلاداً غير إسلامية وصاروا قادرين على رقبهم ولم يقتلوهم، بل أبقوا عليهم، وإبقاء الحياة نعمة من نعم الإسلام عليهم، وهناك نعمة ثانية وهى أنه لم يفرض عليهم ديناً، وإنما حمى اختيارهم الدين الذى يروته، وفى ذلك رد على من يقول، إن الإسلام انتشر بالسيف، ويقول: إن البلاد التى فتحت بالمسلمين أقرت أهل الأديان على أديانهم، وحمت فقط حرية لاختيار، بل وقف المسمون بالسيف أمام القوم الذين يقفون أمام اختيار الناس، وتركوا الناس أحراراً لكنك نجد المعالطات تماماً كتسابات انضرب حول مسألة السيف ويرد دائماً أن الإسلام لو انتشر بالسيف لما وجدت فى البلاد التى فتحها أسساً باقية على دياناتهم، بل كان الإسلام يأخذ الجزية ممن نقوا على دياناتهم من أهل الكتاب، وأخذ الجزية الذين على أنهم ظلوا على دينهم وظلوا أحياء، وهاتان نعمتان من نعم الإسلام، وكان يجب أن يؤدوا جزاء على ذلك، وكان إجراء هو الجزية. وهى مادة «حزى» و«يجزى» فكان الجزية معة من «جبرى» «يجزى»، لأن الإسلام قدم لهم عملاً طيباً بأن أبقى على حياتهم وأبقىهم على دينهم من غير إكراه، فوجب أن يعطوا جزاء على هذه لعممة التى أنعم الله تعالى بها عليهم بالإسلام.

وأيضاً، فإنهم سيعيشون فى مجتمع يمدى؛ الولاية فيه للإسلام، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وصمما سلامتهم فى أنفسهم وأهليهم ولى أموالهم وهى كل شىء، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون فى المجتمع الإسلامى يتفعمرون - أيضاً - بالخدمات التى يؤديها الإسلام لهم، ويجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من مالههم نظير تلك الخدمات، والإسلام مثلاً لا يكف أهل الكتاب أن يدخلوا حدى فى حرب ضد أى عدو للمسلمين إلا إذا تطوعوا هم بذلك، إذن فالجزية ليست فرض قهر، وإنما هى مقابل منفعة أداها الإسلام بهم، إبقاء على

حياتهم وبقاء على دينهم الذي اختاروه ، وترى الحق أن يعطوا الجزية
﴿عَنْ يَدٍ﴾ واليد هي الخارحة التي تُؤدَّى بها الأعمال ، وغلب الأعمال إنما
تُؤاكَد باليد ، ومجد القرآن الكريم يقول :

﴿وَمَا عَمَلُهُمْ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس ٣٥]

واللسان أيضاً آلة الكلام ، والحق تبارك وتعالى يجارى على القول لطيب
أو السيئ ، ولكن الأصل في العمل هو « اليد » ، وتطلق اليد ويراد بها القدرة
التي تعمل ، أو يراد بها النعمة ، مثل قولك : فلان له يد على فلان ، وفلان له
أياد ببقاء على الناس

وهذا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾

فهل المقصود بـ ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي من يُعْطُونَ الجزية ، أم أيدي الآخرين
الآخذين للجزية ؟

إن هذا القول : ﴿عَنْ يَدٍ﴾ مثله يقال : فلان نفخ يده من هذا الأمر ، أي
خرج عن الأمر ولم يعد يعاون عليه . إذن يكون معنى ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي غير
رد لنعمة . وعن يد منهم أي من المعصين للجزية ، أو ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي يبدأ
بيده فلا يجلس الواحد من أهل الكتاب في الأمة الإسلامية للمحكومة بالإسلام
في مكانه ويرسل رسولا من عنده يسلم الجزية ، لا ، بل عليه أن يدفعها
ويحضرها بيده .^(١) أو نقول : ﴿عَنْ يَدٍ﴾ من معنى القدرة ، فمن عنده
قدرة ، فأتخذ الجزية من القادر ولا تأخذها من العاجز^(٢) .

إذن يشترط في اليد إن كانت منهم ثلاثة ملاحظ : الملحظ الأول : أن

(١) قوله تعالى ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال ابن عباس : يدها نفسه غير مستتب فيها أحد ، وقيل ﴿عَنْ يَدٍ﴾ عن إنعام
منكم عليهم ، لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك . قال عكرمة : يدعيها وهو قائم
والأخذ جالس ، وقاله سعيد بن جبير ، (انظر تفسير القرطبي ٤ / ٤٢ - ٣)

(٢) عن عمرو بن الربيع قال : عمر هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأسياط (فلاح) (عجم) بالشام . قد
أنعموا على الشمس ، فقال : ما شئتم ؟ قالوا : حسوا في الجزية . فقال هشام : أشهد لرسول الله
ﷺ يقول : إن الله يذهب الدين يهنيون الناس في الدنيا . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦١٣)
وأحمد في مسنده (٤٠٤ / ٣) وأبو داود في سننه (٣٠٤٥)

يكونوا موالين لا نافذين لأيديهم منا ومن حكمتنا، والملاحظ الثاني : أن يأتي بها بنفسه لا أن يرسل بها رسولا من عنده، وإن جاء بها لابد أن يأتي بها وهو ماش وأن يعطيها وهو واقف ومن يأخذ الجزية قاعد، وهذا هو معنى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. ولماذا يعطونها عن صَعَر؟ لأن الحق عز وجل أراد للإسلام أن يكون جهة العلو، وقد صنع فيهم الإسلام أكثر من جميل، فلم يقتلهم ولم يرحلهم على الدخول إلى الإسلام؛ لذلك فعليهم أن يتعاملوا مع المسلمين بلا كبرياء ولا عطرسة، وأن يحضنوا لأحكام الإسلام، وأن يكونوا موالين للمسلمين، لا نافذين الأيدي، وأن يؤدوا الجزية يدأ بيد، وأما العاجز وغير القادر فيعفى من دفع الجزية^(١).

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ والصَّغَارُ من مادة الصد والعين والراء. وتدل على معنيين؛ إن أردتها من السن يقال «صَعُرَ» «يَصْعُرُ» مثل قولنا فلان كبير يكبر. وإن أردتها في الحجم والمقام نقول «صَعِرَ» «يَصْعُرُ»، أى صعر مقاما أو حجما، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿كَبُوتَ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف ٥]

وهنا في قوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ نعلم أن يؤدوها عن انكسار لا عن علو، حتى إن من يعطى لا يظن أنه يعطى عن علو، ونقول له لا، إن اليد الآخذة هنا هي اليد العليا.

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا حثيثات قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فقال بعد ذلك:

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٠٤١) - «قال عطاء بن رباح: أما حقوقهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمسك بعبادته، فبما سمع قبيس بن جابر فلاحل عقوبتهم، لأن من هجر عن الجزية سقطت عنه، ولا يكلف الأعداء أدائها عن العقر». وروى أبو داود عن سمعان بن سالم عن هبة بن أبياء أصحاب رسول الله ﷺ عن أبياتهم أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهداً أو تكلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فإنا حجيجه يوم القيامة». الحديث أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٥٢).

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
 الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
 يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمْ
 اللَّهُ آفَ يَوْمَ كُوتٍ ﴾

هذا الادعاء فيه ماس بجلال الله تعالى ، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب ؛ إما لأنه يريد أن يبقى ذكره في الدنيا بعد أن يرحل ، والله سبحانه دائم الوجود ؛ وإما لكي يعينه الله عندما يكبر ويضعف ، والله سبحانه وتعالى دائم القوة ؛ وإما ليرث ماله وما يملك ، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها . وإما ليكون عروءة له ، والله جل جلاله عزيز دائماً وهكذا تتسمي كل لأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى هذه الادعاء . ولا يغفل أن يرسل الله سبحانه رسولا ليس للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس : إنه ابن الله إذن هم هم يؤمنوا بالإيمان الكامل بالله .

ويسوق الحق تبارك وتعالى قول كل من اليهود والنصارى ﴿ وَقَالَتِ
 الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾

وهكذا نجد أنهم لم يبرهوا الله وأحلوا بالإيمان الحق ولا بد أن نعلم أن من
 قابوا إد عُزَيْراً ابن الله لبسوا هم كل اليهود ، بل جماعة منهم فقط هي التي
 جعلت عُزَيْراً ابناً لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه ،
 فقالوا . هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها رب لشخص عادي ، بل
 أعطاه لابنه . ذلك أن اليهود بعد سبداً موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء ،
 وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها ، ولكن طغلاً لم يعبه

مشهد قتل الأسياء فخرج شاردٌ في الصحراء مهاجراً وهارباً، فقابلهُ شخص من الطريق فسأله: لماذا أنت شارد؟ فقال: خرجت أطلب العلم. وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام، فعلمه أن لله تورا، فحفظها فصار واحداً من أربعة، هم فقط من حفظوا التوراة: موسى، وعيسى، وعزير، واليسع، ولأن الكتب قديماً لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل رماننا، بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخل، لذلك كان وزن التوراة يقدر سبعين حملاً بعير، رحين رجع عزير حافظاً للتوراة، اندهش قومه وقالوا: لا بد أنه ابن الله؛ لأن الله أعطاه التوراة وأثرو على القمر جميعاً^(١). ونشأت جماعة من اليهود تؤمن بذلك، وكان منهم سلام بن مشكم، وشامس بن قيس، ومالك ابن الصيف، وعمان بن أوفى. وحينما أمر الله قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ لم يكر اليهود المعاصرون لهذا الثور تلك المسألة ولم يكذبوها، فكان هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة من كان يؤمن بذلك، وإلا لاعترضوا على هذا القول، وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يصدق على بعضهم أو هم عالمون بأن قوماً منهم قد قالوا ذلك. وكذلك قالت نصارى عن عيسى عليه السلام، فجاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾.

ويتابع الحق: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ﴾ فيوضح لنا سبحانه أن السنة لله جاءت فيها مشبهة، كان يجب أن يلبسوا إليها ويرهاوا الله عن ذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يصف عباده بأنهم عباد الله، وأن الخلق كلهم خلق الله تعالى

فالله سبحانه وتعالى وهو الخالق والمقدر على كل شيء خلق كل الخلق

(١) انظر قصة العزير هذه في تفسير القرطبي (٣١/٤٣) وسن كثير (٢/٤٨٨) والعزير هو سبي من أنباء بني إسرائيل وهو الذي سمى الله مثلاً لأحياء للنبي في قوله تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوسِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ مِمَّا مَرَّتْهَا فَأَمَقَهُ اللَّهُ مِمَّا عَدِمَ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ (الفرق: ٢٥٩) قال ابن كثير في قصص الأنبياء (ص ٣٨٠) «أروى ابن حسان عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ سمعنا أن ذلك قد ذكره ابن سلام ما كان من تسميته لبني إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتيها بالتوراة، لا في كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب، فرموا طوائف منهم وقالوا: عزير ابن الله»

من عدم ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولكن الشهة عند بعض من أتباع المسيح جاءت من أنه أوجد من دون أب، ونقول لهم: لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق، فكأن من الأولى أن تحيى ذات الشبهة في خلق آدم؛ لأن قصارى ما في المسيح أنه جاء من غير أب، ولكن آدم جاء من غير أب ومن غير أم، فايهم كان أولى أن يكون ابن إله؟

ولذلك يقول القرآن الكريم ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ والحق سبحانه وتعالى يخلق الشيء - أى شيء - بأسباب، وكل الأسباب مخلوقة له، والولد منا - هي جمهرة الناس - ينشأ من اجتماع الأب والأم، وأشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة: إما أن يوجد بوجود شيئين ذكر وأنثى، وإما أن يوجد باسعدام الشيئين مثل آدم، وما أن يوجد بوجود واحد من الشيئين وهو الذكر مثل حواء، فقد خلقها الله من آدم مصداقاً لقوله ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وإما بوجود واحد من الشيئين وهي الأنثى وخلق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر. ويعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعاً أن الأسباب لا تدخل لها في التكوين، وأن المسبب هو القادر على أن يوجد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأن يوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس، وأن يوجد من أم دون أب كما أوجد عيسى، وأن يوجد من دون أم كما أوجد حواء.

يَذَن - فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته، ولا دخل لأحد إلا بإرادة الحق سبحانه وتعالى، فالأسباب ليست هي الفاعلة في ذاتها، بل إرادة الخالق سبحانه هي الفاعلة، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى -

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (١) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَزِيزٌ قَدِيرٌ (٢)﴾

[الشورى]

أى: قد يوجد الذكر والأنثى ولا يعطى لهما الحق عز وجل أولاداً، وهذه

طلاقة قدرة من الله تعالى ، وإياك أن تقول إنها بأسباب ، بل سبحانه وتعالى يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء ذكوراً ، ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث ، ويجعل من يشاء عقيماً ، وكان مستعمل الناس للموليد يختلف ؛ فالعرب كانوا يحسون إيجاب الذكر ؛ لأنه قوى ويحقق العزوة ويركب الخيل ، ويحارب الأعداء . ولم يكرنوا يحسون إيجاب العتاة لأنها قد تأتي منها المفاسد ، وبذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. (٥٩) ﴾ [النور]

وجاء الإسلام لموضح . أنه مادام لا دخل لك في الإيجاب والإنسال ، فدع الأمر لمن يهب الأبناء . وقد سمي الحق تبارك وتعالى الأبناء « هبة » ليدرك أن الإيجاب شيء أعطاه سبحانه لك بلا مقابل منك ، فالذكور هبة ، والإناث أيضاً هبة . فلا تفضل تلك الهبة عن هذه الهبة . ودائماً أقول للمذنبين ينحب ساب ، ويذهب هو وروجته إلى الأطباء : لو استقبلتم هبة الله في الإناث كما تستقبلونها في الذكور ، فإن الحق سبحانه وتعالى يجزيكم جزاء لا يخطر لكم على البال ، فيحسن الله كل أمة لكم في حين رجل صالح دين وزوجها ، فإن كن عشر بنات مهر يأتين بعشرة رجال أزواج يعاملون الأب والأم لكن زوجة معاملة الأب والأم ، وهكذا يرزق الله من يرصى بقسمة الله في الإيجاب ، ويصبح أرواح البنات أصرع من الأبناء الذكور ، فالذي يرصى بالهبة في الإناث يوضح له الله . وصيماً يهين فيك ولم تكن على سنة العرب من كراهة الإناث ؛ لذلك أهيك من أرواح البنات أبناء لم تشعب في تربيتهم ويكونون أكثر حناناً وولاءً من أي أبناء تنجبهم أنت . ولذلك إذا ما وجدت إنساناً قد وفق في ريجات ناته ، من رجال يصرون أعراسهم ويحسنون معاملة أهل الزوجة ، فاعلم أن الأب قد استقبل ميلاد الأنثى بالرضا ؛ لأنه هبة الله ويقول المولى سبحانه وتعالى

[الثوري]

﴿ وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيماً ۝٥٥ ﴾

إذن فدعهم أيضاً هبة إلهية؛ لأن الإنسان إذا ما استقل أعظم برضا الله؛ لوحد في كل ركن يراه أباً به؛ لأنه استقل لهبة في المنع برضا، مثله مثل من استقبل الإنث كاستقبال الذكور إذن مادامت المسألة هبة من الله فيجب أن يستقبل عطاء الله ومعه بالرضا.

وعيسى عليه السلام جاء نسبة طلاقة القدرة من الخلق سبحانه وتعالى؛ لأن القسمة لعقدية والعقوبة لا تتم إلا به، وثى تكرر؛ لأن آدم وجد أولاً، ومن وجدوا بعد آدم جاء كل منهم من أبوين، وكذلك حواء وحُدت من قسهم، فهذه ثلاث صور قد وجدت في الكون وبقيت صرة ناقصة، هي أن يوحد إنسان من أم دون أب، فانمها الله عز وجل بعيسى عليه السلام.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾

وقول الحق ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى القول بأن المسيح ابن الله أو عرير ابن الله، ويصيف الحق عز وجل توصيحاً ﴿ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ونسأل وهل يوجد قول بغير أفواه؟ إن كل قول إنما يكون بالأفواه أحتي قول المؤمنين بأن الله واحد وأن محمداً رسول الله هو قول بالأفواه ونقول هناك قول بالغم فقط دون أن يكون له معنى من المعاني، وهناك قول بالغم أيضاً وله معنى، إلا أنه غير حقيقي، وكاذب

ولنعرف أولاً ما هو القول؟ إنه كلام يعبر به كل قوم عن أغراضهم؛ كالقول للطفل - اجلس، ولا بد أن يكون الطفل فاهماً لمعنى الجلوس، وإن قتها بالعربية للطفل إنجليزي هلن يفهم معناها.

إذن، فاللغة أنماط يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والغرض هو معنى متفق عليه بين المتكلم والسامع، ولا بد أن يعرف لاثنان ما يشير إليه اللفظ من

موصوحات. فإن لم يعرف السامع اللفظ الذي يتكلم به المتكلم فهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا يعلم أن الفهم بين المتكلم والمخاطب يشترط فيه أن يكونا عليمين باللفظ، فإذا تكلم متكلم بشيء لا علم للسامع به، فهو لا يفهم وكانوا يضربون لما الخلل قديماً بعلقة السحوى وكان مشهوراً في النحو والفاظ واللغة، وينفع في استخدام الكلمات، ولا يتكلم إلا باللغة الفصيحة الشادة التي لا يعرفها الناس، وكان عند علقمة خادم، فمرض علقمة اسحوى مرة وذهب إلى طبيب اسمه «أعجر» ليشكو له علة عنده، وقال علقمة للطبيب: «قد أكلت من لحوم هذه الخواري» بفضأت منها قصاة أصابني منها وجع من التوابية إلى دابة العنق، ولم يرل يمسى حتى خالط الخلب وأملت منه السراسيب. ولم يكن الطبيب متخصصاً في اللغة ولا معاجم عنده، فوقع مستغرباً من كلمات علقمة وقال له: «أعد علي ما قلته فترى لم أفهم، فأعاد علقمة عليه ما قاله بعصب ولوم لأنه لم يفهم لعمري، وعرف الطبيب تقعر علقمة فقال له: «هات انقم والورقة لأكتب لك لواء»، وكتب له خد حرقه وسلفة ورهقة وعسله غاروس واشربه بماء ماء. فقال علقمة: «أعد علي ما والله ما فهمت شيئاً»، فقال الطبيب: «لعمري ألقاً إلهاماً لصاحبه». وعرف علقمة أنه متقعر في اللغة ويأتي بالفاظ ليست من الألفاظ لدائرة على كسب الناس، وقال أسانذتماً: «ولم يؤدبه عن هذا إلا غلامه أي خادمه، فقد استيقظ علقمة داب ليلة وقال: يا غلام أصعبت العناري، ولأن لعلام لم يفهم بعد رد قائلاً زفيلاً، وقال علقمة لعلام: وما زفيل؟ قال: وأنت ما أصعبت العناري؟ فقال له: يا بني لقد أردت أصاحت الديكة؟ فقال: وأنا أردت لم تصح.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ إذن القول هو اللفظ المفروض من الفم، وهذا القول إما أن يكون له معنى، وإما ليس له معنى مثل كلمة «زفيل» التي قالها خادم علقمة، هذه الكلمة ليس لها

وجود في اللغة فهي قول باللسان ليس له معنى . وقد يكون القول له معنى ؛
لا أنه كلام باللسان لا يؤيده واقع ، فهو كذب

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذَلِكْ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يحتمل الأمرين
إما أنهم يقولون كلاماً لا يقصدونه ولا يعرفون معنى ما يقولون ، والمثال : أن
نقول : « كتب » ، وهي كلمة مكونة من الكاف والطاء والباء ، ويمكن أن
ستحذف ذات الحروف فنقول : « كت » وهي نفس الحروف أيضاً ولها معنى
أو نقول : « تكب » وهو لفظ غير مستعمل ، وهو كلام بالفم ولا معنى له في
اللسنة ، بل هو لفظ مهمل فإذا قال إنسان كلاماً له معنى فهمناه مثل قول
« زيد كان بالأمس بالمكان الفلاني » وهنا زيد معلوم ، والكان معلوم ، وأمس
معلوم . لكن زيدا لم يذهب إلى ذلك المكان ، وبذلك يكون القول في
حقيقته كذبا لم يحدث . ويكون كلاماً بالفم ، ولا واقع له في الحياة .
إذن فالقول بالفم إما أن يكون لا معنى له أبداً ، فيستعمل كللف مهمل
لا وجود له في اللغة ، وإما أن يكون له معنى في ذاته إلا أنه ليس له واقع
يؤيده .

والحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ﴾ [١]

[الأحزاب]

والله سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ اللَّائِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أَنَّهِنَّ كُنَّ وَمَا جَعَلَ أَفْعَالَكُمْ

أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ .. ﴾ [٢]

[الأحزاب]

منه إذن كلام لا وجود له في الواقع ، فانزوحة لا نصير أمّا لزوجها والولد
المتبني لا يكون أساً للرجل أو المرأة ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

[الأحزاب ٥]

واحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ (١) قِيمًا
لِيُذِيرَ بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُنَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ
أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كُنْ فِيهِ أَيْدٍ (٣) وَيُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) ﴾
[الكهف]

أى : أن هذا القول منهم كلام له معنى فى اعتقادهم ، ولكن ليس له
واقع ، ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى : ﴿ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى : لا واقع لهذا القول بسنده فهو كذب .

﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ وهل هذا القول بالأموه أهم ابتكره أم
ابتدعوه ؟ إن الحق سبحانه يوضح لنا . ﴿ يُصَاهَتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
قَبْلِ ﴾ أى : أنهم لم يأتوا بهذا النصور من عندهم ، بل من شيء له واقع ،
فقد قال المشركون ما أورده الحق على ألسنتهم :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا (١٩) ﴾ [الرحم]

فعد توهم المشركون أن لله تعالى بنات والعباد بالله وسبحانه منزّه عن
ذلك ، فى ذلك يحاط بهم المولى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾ - [إدن : فهذه
كلام قديم ؛ لذلك قال الحق عنهم : ﴿ يُصَاهَتُونَ ﴾ أى : يشابهون ويمثلون
الذين من قبلهم حينما قالوا مثل ذلك ، كما أن السودية فى الصين واليابان
قالت بسوة الإله والحيون وقد حفظ بعضهم من هؤلاء ، ولم يطرأ جديد من
ألسنتهم ، وهم كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ يُصَاهَتُونَ ﴾ أى : يشابهون
ويمثلون به قول الذين كفروا من قبل ، وه المضاهاة هى المماثلة والمشابهة ،
وقالوا . إن مادتها مأخوذة من امرأة « صَهْيَاء » ^(١) وهى التى صاهت رشابهت
^(١) قال فى لسان العرب : امرأة صَهْيَاء وهى التى لا يظهر بها ثدى ، وقيل هى التى لا تحيض ، فكانها
رجل شهياً

الرجل ، في عدم الحيض أو الحمل أو الولادة ، وهي بذلك تكون شبيهة بالرجل

﴿ بَضَاهُمْ قَوْلَ الدِّينِ كَمَرُوا مِنْ قَبْلِ ﴾ والتعقيب هنا إما يصدر من الحق تبارك وتعالى عليهم ، ولم يتركه الحق لنا ، ومادة تسمع : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ فانفطرة الإنسانية تعرض أن يقول السامع لهذا الكلام : قاتلهم الله كيف يقولون هذا ؟ وشاء الحق هنا أن يتحملها عن جميعاً ؛ لأننا إن قلت نحن . « قاتلهم الله أو لعنهم الله » فلا أحد ما يضمن استحابة الدعاء عليهم ، فالأمر قد لا يتحقق ، ولكن حين يقولها الحق سبحانه وتعالى فتكون أمراً مقضياً لذلك يقول الحق . ﴿ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْتِكُونِ ﴾ ، وما معنى قاتلهم الله ؟ أنت إذا رأيت فعلاً قبيحاً من فرد ، تقول قاتله الله لأن حياته تزيد المكرات ، ومثل ذلك من سب أباه ، يقول من يسمعه قاتله الله ؛ بينما يقول الإنسان ما لإنسان يفعل الخير : « فليعيش هذا الرجل الطيب » ؛ لأنك ترى أن حياته فيها خير للناس

وقول الحق . ﴿ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ﴾ أي لعنهم وطردهم ، ويقول سبحانه وتعالى . ﴿ أَنَّى يُؤْتِكُونِ ﴾ ، وكلمة ﴿ أَنَّى ﴾ ترد بمعنى « مرة » من أين ؟ ، ومرة أخرى تعني « كيف ؟ » ، والمثال على معناها الأوب قول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا زكريا لما دخل على مريم البتول^(١)

[آل عمران ٣٧]

﴿ أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾

كان ذلك لأنه رأى عندها أشياء من الخيرات لم يأت بها إليها ، مع أنه هو الذي يكفلها ، والمتعرض فيه أن يأتى لها بمقومات حياتها ، وعندما دخل عليها ووجد شيئاً هو لم يأت به ، سألها : ﴿ أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ أي . من أين لك هذا ؟ فأجابت مريم المصطفاة بما جاء في القرآن الكريم :

(١) البتول من النساء المنقطعة عن الرجال لا أوب لها بهم ، وبها سميت مريم أم نسيح . ويقال : البتول من المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران ٣٧]

وجاء الحق بهذه الكلمة لنخدم أموراً إيمانية كثيرة جداً ، وجاء بها على لسان مريم المصطفاة ، لأن المسألة ليست مجرد طعام يأتيها من مصدر لا يعلمه البشر حتى من هي مي كفالته . بل هي تقفيم لما سوف يحدث فلا نغفل أن الأمور تسير سير المسألة الحسابية بأسباب ومسببات ، وعقل ومعدلات ، ومعدات ونتائج ، بل هي بإرادة الله تعالى ؛ لأنها لو كانت من عند الإنسان لعمدتها بحساب ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعطي بلا حساب ، لأنه خالق الأسباب ، وهو قادر على أن يخلق اسبب على العور .

﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران ٣٧]

وحين أنطق الحق سبحانه وتعالى مريم بهذا إما كان ليوضح لها ولزكريا في أن واحد : إنك يا زكريا تأتي لها بالرزق في حدود قدراتك وحساباتك البشرية ، ولكن الله يأتيها بالرزق بغير حساب ، وهو ما لا تستطيع أن تأتي به قدرات البشر ، فقد يكون الرزق الذي رآه سيدنا زكريا عند سيدتنا مريم لوناً من الأطعمة لا يأتي إلا في الصيف ، بينما كان لوقت شتاء ، أو العكس . وقد يصح أن هذا الرزق يسر في بلادهم مثله ، ولذلك قال ﴿ أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ وقول الحق تبارك وتعالى . ﴿ أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ هو قضية تربوية اجتماعية بمعنى أن الكفيل على قوم حينما يرى عندهم أشياء لم يأت بها هو ، وجب عليه أن يسأل عن مصدرها ، فحينما ترى مي يد ابنتك فلم حير على الثمن وأنت لم تحصره له ، لا بد أن تسأله : من أين جئت به ؟ وذلك بتصرف التأثيرات الخارجية عليه ، هل سرقه ؟ أم أن أحداً أراد استرجاعه إلى عرض سئ فأنفراه بهذا القلم ؟

لا بد إذن أن تسأل ابنتك . من أين لك هذا ؟ وكذلك إن رأيت ابنتك ترتدي ثوباً لم تأت لها به ولا أتت به أمها بعينك ، لا بد أن تسأل ابنتك : من أين

لك هذا ؟ وهذه القضية إن سيطرت على كل بيت من بيوتنا فلن يحدث في البيوت ما يشينها ، لكننا للأسف الشديد نرى في بعض البيوت طقلاً يدخل ومعه قطعة من الشيكولاتة ، ولا تسأله الأم . من أين لك هذا ؟ بل تربت عليه وتأخذ منه قطعة من « الشيكولاتة » لتأكل معه . لكن الأم التي تهجد التربة تماماً تسأل الابن : من أين أتيت بها ؟ حتى تعرف هل ثمنها مناسب لمصروف يده أم لا ، فإذا لم تجد أنه قد جاء بهذه « الشيكولاتة » من مصدر معلوم لها وحلال فهي تحذره وتضرب على يده .

ولا بد لنا أن نعلم أن قانون « من أين لك هذا ؟ » يحكم العالم كله ، لأنه يتحكم في التربة الاجتماعية كلها . وقد سبق الإسلام العالم بأربعة عشر قرناً حين أنزل الحق تبارك وتعالى قوله : ﴿ أَلَيْسَ لَكَ هَذَا ﴾ ، وأجاب سيدتنا مريم الإيجاب الإيماني ، وأوضحت لسيدنا زكريا عليه السلام : أت تنكلم بحسبك ولكني أتكلم بحساب الله تعالى ؛ لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، أنطق الحق ذلك لأن هذا لقول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة في الكون .

القصة الأولى أنها سعة أن قالت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران ٣٧]

نبهت زكريا إلى قضية عقدية ، وهي أن الله سبحانه وتعالى غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطي بلا حساب ، ونظر زكريا إلى نفسه متسائلاً : ما دام الله عز وجل يعطي بغير حساب ، وأنا قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب منه أن يعطيني الولد ؟

إذن . فقد نبهت مريم سيدنا زكريا عليه السلام ولفتت نظره إلى قضية عقدية ، وهي أن الله يعطي بلا أسباب ، وبلا حساب ، فدعا الله أن يرزقه غلاماً فلما بشره الحق بالغلام تساءل : كيف يرزق بالغلام وامرأته عاقر ، وهو قد بلغ من الكبر عتياً ؟ وجاءت الإجابة من الحق سبحانه وتعالى .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

[مريم، ٩]

وهكذا انتفع زكريا بمطاء الله بالابن، ولم يكتف الحق سبحانه وتعالى بذلك، بل تكفل عن زكريا بتسميته، والله ملحظ في تسميته، ونحن نعلم أن الناس تسمى الوليد الصغير بأسماء تميز بها^(١)، مثل أن يسمى رجل ابنة «سعداء» وجاء أن يكون سعيداً، وقد يسمونه «عارساً»، وجاء أن يكون فارساً، ويسمونه «فصلاً» وجاء أن يكون كريماً، ويسمونه القضاة «قمرأ» لعلها تكون جميلة. إذن فالتسمية باسم يحمل معنى شريفاً على أمل أن يكون الوليد هكذا، وهناك شاعر كان أولاده يموتون بعد الولادة، فجاءه ابن وسماه يحيى، فمات هذا الابن أيضاً فقال الشاعر متحسراً

سَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا قَلَمٌ يَكُنْ لِرَدِّ قَضَاءِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلٌ

إذن : فالتسمية بالاسم الشريف، أو بالاسم الذي يدل على الشيء المؤمل هو وجاء أن يكون الوليد هكذا، لكن اسمي لا يملك أن يكون سعيداً، ولا أن يكون فارساً، ولا أن يعيش؛ لأن الذي يملك كل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الله هو الذي سمي يحيى، فلا بد أن يكون الأمر مختلفاً؛ لأن الذي يملك هو الذي سمي، فهل سيميش يحيى بن زكريا كالحياة التي نحيها وفيها الموت مُحْتَمٌّ على الجميع؟ نعم؛ لذلك شاء له الله أن يموت لتبقى حياته موصولة إلى أن تقوم الساعة. وهكذا رأيت سيدتنا مريم أثر ذلك منذ أن قل لها زكريا عليه السلام ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ وأجاب

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

[آل عمران]

(١) من علي بن أبي طالب قال: ولد الحسن عليه السلام حراً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: أروني ابني ما سميتوه؟ قال: قلت حراً، قال: بل هو حسن، فلما ولد الحسن سميت حراً فجاء رسول الله ﷺ فقال: أروني ابني ما سميتوه؟ قال: قلت حراً، قال: بل هو حسين، أخرجه أحمد في مسنده (٩٨/١، ١١٨) وحاكم في مستدركه (٣/١٦٥، ١٨٠) وصححه وأثره الذهبي

لقد رأت كل ذلك في سيدنا زكريا وفي ميلاد يحيى، وجعل الله كل ذلك مقدمات لها؛ لأنها ستمنعن في عرضها فهي التي ستجب ولدا من غير أب، وعليها أن تتذكر دائما قولها

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

ولذلك تجد القرآن الكريم في قصصه العجيب يقول على لسان مريم :

﴿ أَنَّنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم: ٢٠]

وقد بشرها الحق تبارك وتعالى بذلك في سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَتِهِ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

[آل عمران: ٤٥]

ومادام قد نسب الله لها فلن يكون له أب، فسألت: كيف يكون لي غلام من غير أب، ويذكرها الحق عز وجل بهذا لقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وقال لها

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [مريم: ٢١]

مثلم قال لزكريا من قبل، إذن ﴿ أَنَّنِي ﴾ هذه هي مفتاح الموضوع العقدي كله، هي زكريا ويحيى، وفي مريم وعيسى، وهذا هو معنى ﴿ أَنَّنِي ﴾ وقد إن ﴿ أَنَّنِي ﴾ تأتي بمعنى كيف؟ مثل قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وسيدنا إبراهيم لا يكذب أن الله قادر على الإحياء، ولكنه يسأل عن الكيفية، وهنا يقول الحق ﴿ قَاتِلْهُمْ إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي كيف يعدلون عن الحق؟ فالقضية منطقية، وماكن يصح أن تغيب عنهم، فكيف يصرفون عن

هذه الحقيقة التي توجهها القطرة الإيمانية؟ وكيف يفضلون عن الحق وهو طاهر
ويعدلون إلى الباطل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك عن أهل الكتاب :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

والـ «حُبر» هو لقب عند اليهود، وهو العالم ويقال في اللغة «حبر»
أو «حبر» أي رجل يدقق الكلام ويزنه بأسلوب عالم والـ «رهبان» عند النصارى
والـ «مقصود» بهم المنقطعون للعبادة، والـ «حبر» عالم اليهود، والـ «راهب» عابد
النصارى، أما عالم النصارى فيسمى «قسيس» وبذلك قال الحق سبحانه
ونعالى ﴿ قَسِيسٍ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة: ٨٢]

فإن قصدنا عالم الدين المسيحي قلنا : «قسيس» ، وإن قصدنا رجل
التطبيب أي العابد قلنا «الراهب» والـ «راهب» هو من يقول إنه انقطع لعبادة الله
فوق ما طلب الله منه من جنس ما طلب، ونعلم أنه لا رهبانية في
الإسلام^(١)، ولكن الإنسان يستطيع أن يتقرب إلى الله كما يحلو له من جنس
ما طلب الله منه، فإن كان الحق عز وجل قد أمر بإقامة الصلاة خمس مرات

(١) روي الإمام أحمد عن عروة قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب نفسها خولة بنت حكيم على
عائشة وهي بدة الهبة (أي : دة الهبة تاركه وبيتها) فآلتها ما شئت؟ فقلت : روجي يوم النيل وبصرم
الهار (أي : أنه منصرف عنها إلى قيامه وعبادته) فدخل النبي ﷺ وذكرت عائشة ذلك له فلفى
رسول الله ﷺ عثمان فقال : قبيح ما إن نرهبانية لم تكتب عليها، أفما لك في أسوء من الله إني لأحشاكم
له وأسفلكم لمدوحه) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٦/٦) وابن حبان (١٢٨٨) - مراراً الطمان

في اليوم، فاسلم الذي يرغب في زيادة التقرب إلى الله يمكنه أن يصلي ضعف عدد مرات الصلاة، وإذا كان الحق سبحانه قد فرض أن تكون الزكاة بمقدار اثنين ونصف في المائة، فالعدد الصالح قد يزيد ذلك بضعفه أو أضعافه وهذه ريادة من جنس ما فرض الله تعالى وزيادة، وهذا يعنى في لإسلام الدخول إلى مقام الإحسان^(١)، واقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾
[الذاريات]

أى: أنهم قد دخلوا إلى مقام الإحسان أى ارتقوا فوق مقام الإيمان ويريدنا الحق علماً بمقام الإحسان يقول :

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾
[الذاريات]

وسبحانه لا يطلب منا في فروض الدين ألا نهجع^(٢) إلا قليلا من الليل، بل نصلى العشاء ونام إلى لمجر لكن إن نام الإنسان متأهجا بذلك ريادة عما فرض الله ولكنه من جنس ما فرض الله وكذلك لاستغفر فمن تطوع به فهو خير له وكذلك الصدقة على غير المحتاج، فهنا ريادة في العطاء على ما مرصه الله من الزكاة التى حُدِّثَتْ من قبل فى قول الحق تبارك وتعالى .

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤)﴾
[المعارج]

والرهبانية كانت رغبة من بعضهم فى الدخول إلى مقام الإحسان، ولكن الحق لم يعرصها عليهم؛ لأنه هو الذى خلق وعلم أزلاً قدرات من خلق،

(١) ما ابن رجب الحنبلى في جامع العلوم والنسب (ص ٤٨) «الإحسان هو أن يحيد المؤمن ربه في السب على وجه اختصار والمراقبة، كقائه براء بقلبه ويظهر إليه في حال عبادته، فكان جبراً ذلك النظر إلى الله عبداً في الآخر» وذلك يوجب التمسك والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضاً التصح من العبادة ويدل الجهد في محبتها وإقامتها وإكمالها

(٢) النهجوع النوم ليلاً

لذلك قال سبحانه وتعالى .

﴿ وَرَهَابِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد . ٢٧]

هم إذن قد ابتدعوها ابتعا، وضوان لله وزيادة في العبادة ، وليس في ذلك ملامة عليهم ، ولكنها ضد الطبيعة البشرية ؛ لذلك لم يراعوا الرهبانية حق رعايتها ، ويقول المولى سبحانه وتعالى هنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خوطبنا عنها

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَابِيَّهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فهل معنى ذلك أنهم يقولون بلحبر أو ابراهب " رب " ؟ لا ، ولكن كانت معاملتهم لهم كمن يعامل ربه ؛ لأن الله هو الذي يحل ويحرم بـ " الفعل " و " لا تفعل " ، فإذا جاء هؤلاء الأحرار وأحلوا شيئاً حرمه الله أو حرّموا شيئاً أحله الله ، فهم إنما قد أخذوا صفة الألوهية فوصفوهم بها ؛ لأن التحليل والتحرير هي سلطة الله ، فلذلك عندما دخل عدى بن حاتم على سيدنا رسول الله ﷺ ووجد الرسول ﷺ في عنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثني » ، ومن أدب الرجل مع الرسول خلع الصليب . وقال ﷺ : « إنكم لتحتلون الأحبار والرهبان أرباباً » فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . . قال له رسول الله ﷺ : أو لا تعبدونهم فيما حرموا وأحلوا ؟ قال : نعم . قال : تلك هي العبادة ^(١) .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَابِيَّهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ ولما سأل أن معنى عطف المسيح على الأرباب ، وعلى الأحرار والرهبان ؟ والإجابة : إن الذي يحل ويحرم إن لم يكن رسولا ، فهو إنسان يطلب

(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنق صليب من ذهب ، فقال : « يا عدى اخلع عنك هذا الوثني » وصحبه يقرأ من سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَابِيَّهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

قال : « أدم إليهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً أسحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » أخرجه الترمذي في مسنده (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث شريف

السلطة الزمنية، وذلك لا يتأتى من الرسول؛ لأن الرسول ﷺ إنما جاء ليلفت الناس إلى عبادة الله بما شرعه الله، وعيسى عليه السلام هو رسول لم يقم إلا بالبلاغ عن الله، ولكن البعض أخطأ التقدير وطس أنه ابن الله، ولذلك يشاع الحق قوله

﴿وَمَا أُمُّوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوْا إِلَهًا وَحَدًّا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾^(١)
وهكذا يذكر الحق أن الأمر لم يصدر منه سبحانه وتعالى. لا ما يعبد من يؤمن بالرسالات الإله الواحد. ورسولنا ﷺ يقول:

«خير ما قلته أنا والنبيون: لا إله إلا الله»^(٢).

وأنت حين تنظر إلى «لا إله إلا الله» تجد انتهى في «لا» والاستثناء من لى والإثبات في «إلا»، وهذا نفي لالوهية عن غير الله وإثباتها له وحده، وحين تقول «الله واحد» فهذا يتضمن لإثبات فقط. ويأخذ الفلاسفة الذين يملكون قوة الأداء والبيان من هذه القضية «الإثبات والنفي»، أو «الموجب والسالب»، ويقولون: كل الشفاء بين موجب وسالب إنما يعطى طاقة، والطاقة يمكن استخدامها في الإنارة أو تداربها آلة، وكذلك الطائفة الإيمانية تحتاج إلى «سالب وموجب»، ويقول الشاعر (يقال):
إنما التوحيدُ يُجَبُّ وسَلْبُ

فيهما للنفس عِزٌّ ومُضَاء

ويقول سبحانه وتعالى تذيلاً للآية الكريمة: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾^(٣)
وحيث تسمع كلمة «سُبْحَانَهُ» ما عرف أنها للتنزيه، فلا ذات مثل ذات الله، ولا صفة مثل صفات الله، فإله غنى وأنت عى، فهل غناك الحادث مثل غنى الله لأزى؟ وأنت حى والله حى، فهل حياتك الموهوتة مثل حياته؟ فحياته

(١) أخرجه الترمذى في سنة (٢٥٨٥) وبيهقى في سنة (١٨٩/٤) قال الترمذى: هذا حديث قريب من حد الوجه

داسة وحياتك موهوبه، فسحانه حتى بذاته، ولذلك يجب أن تفرق بين سمه «الحى» واسمه «المحيى»، فهو حى فى ذاته، ومُحْيى لغيره، وإن كانت الصفة لله فى الذات فهى لا تعدى إلى الغير، إن الله يوصف بها ولا يوصف بنفسها، فنقول «حى» ولا نقول المقابل، ولكن إن قلت «محيى» دأت تأتى بالمقابل وتقول «ميت» وتقول «قائض وباسط» و«رحيم وقهار».

إذن فصحة الدات يتصف الله بها ولا يتصف بمقابلها، وأما صفة الفعل فيُتصف بها ويتصف بمقابلها لأنها فى غيره، فسحانه هو مُحْيى لغيره، وميت بعينه، لكنه حى فى ذاته إذن فكلمة «مُتَّحَانَهُ» تعنى استزیه ذاتاً، وصعدت، وأفعالاً، وإذا جاء فعل من الله، ويأتى مثله فعل من البشر، يقول: إن فعل الله عز وجل غير عمل البشر لأن فعل الله بلا علاج^(١)، ولكن فعل البشر بعلاج، بمعنى أن كل حرية من الرمن تأخذ قدرأ من الفعل، كأن تقن شيئاً من مكان إلى مكان، دأت تأخذ وقتاً وزمناً على قدر هونك، أما فعل الله عز وجل فلا يحتاج إلى زمن، وقوته سبحانه وتعالى لا نهائية

ولذلك حين قال سيلفنا رسول الله ﷺ لقد أُسْرِىَ بى إلى بيت المقدس، قال من سمعوه: أتدعى أنك أيتها فى ليلة ونحن نصرب إليها أكباد الإبل شهرآ؟^(٢) لكن لم يلتفت أحد منهم إلى أن محمداً ﷺ لم يقل لقد ذهب

(١) أى أن فعل الله سبحانه وتعالى يسم من الكون بدون معالجة، أو بهيئة أسباب من الأمور بالنسبة من كن يكون (٢) أخرجه أحمد بن مسدد (٣٠٩/١) عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قد لما كان ليلة أسرى بى وأصعب بكه نظمت بأمرى، وعرفت أن الناس مكذبى فقطعت معترلاً جزياً قال فمر عبد الله أبو جهن فجاء حتى حنس إليه فقال له كائن سهرى: هل كان من شئ؟ لقد روى الله ﷺ نعم، قال ما هو؟ قال إنه أسرى بى ليلة، قال إلى أين؟ قال إلى بيت المقدس قال ثم أصعب بين ظهرائنا؟ قال نعم قال فلم ير أنه يكذبه سبحانه أن يحمد الحديث إذا دعا قومه إليه الحديث، روى جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال ٢٠ لما كلمتى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس فقت فى الحجر هجلاً الله لى بيت المقدس سلمت أجبرهم من أياته ولما أنظر إليه أخرجه أحمد بن مسدد (٣٧٧/٢) والبخارى صحيحه (١٧١٠)، ومسلم (١٧٢)

وبد قال ابن إسحاق فلما أصبح عدا على قريش، فخرهم الخبر فقال أكثر قناس هدا لله الأمر النبى، رافق بن المير مطر شهر من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة أيدمت ذلك محمداً فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة (سيره النبى لابن هشام ١١٢) والإمر هو شئ العظيم العجيب المكر

إليها بقوتى، بل قال: لقد أسرى بى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.
إذن: فالذى أسرى هو الله القوى القادر ولا يحتاج الله إلى زمن

إذن: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ هى تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أى شىء يوجد فى البشر. ولا تقارن قدرة الله سبحانه وتعالى بقدرة البشر مهما كان، بل إن العمل يسب لقدرة صاحبه، وكلما زادت القوة زادت القدرة والله هو القوى. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هو تنزيه لله، ولا تجد بشراً يقول لبشر حتى من الكفار الذين يعاندون الإيمان، لا يقول واحد منهم لآخر «سبحانك» لأن التنزيه أمر يختص به الله عز وجل.

والناس تضع أسماء أولادها، فالأسماء مقدور عليها من البشر، ولكنك لا تجد كافراً معانداً محارباً لدين الله عز وجل يسمى ابنه «الله» فالؤمن لا يجرؤ على هذه التسمية لأنه يؤمن بالله، والكافر لا يجرؤ عليها أبد بقدرة الله وقهره. لذلك فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ولفظ الجلالة «الله» لفظان يختص بهما الله وحده بالقدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، وسبحانه القائل:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ
مِثْلًا (١٠)﴾ [مريم]

إذن: فالله سبحانه وتعالى - بالقدرة والقهر - حجز ألسنة البشر جميعاً أن يقول أحدهم لأحد «سبحانك»، أو أن يسمى أحد ابنه «الله»

والله عز وجل يقول هنا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية: لأن منهج السماء لا يأتى إلا إذا عم الفساد والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان الخليفة فى الأرض أن يكون صالحاً ومصلحاً، وأقل درجات الإصلاح أن تترك الصالح فلا نفسه، فإن استطعت أن ترتقى به فهذا هو الأفصل فإن كانت هناك بشر يشرب منها الناس، فانصلاص أن تترك هذه البئر ولا تتردها، والأصلح من ذلك أن نحمى

حدر بها بالطرب حتى لا تنهار الأتربة وتسُدّها، وأن تحاول أن تسهّل حصول الناس على الماء من البئر، والأصلح منه أن تصنع خزاناً عالياً، ومن هذا الخزان تمتد المواسير ليصل الماء إلى الناس في منازلهم بدون تعب، هذا إصلاح لأنك بذلك إنما تأخذ بأسباب الحق القائل عن تميز الفكر: حدّ ذي القرنين:

﴿وَأَنبَأَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤) فَأَتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴿

[الكهف]

أي: أن الله سبحانه وتعالى أعطى للذي القرنين الأسباب، وهو زاد باجتهاده أسباباً أخرى؛ إذن، فالحق سبحانه يريد من الإنسان أن يصلح في الأرض حتى يسعد المجتمع بأي إصلاح في الأرض ويستفيد منه الكل، ولذلك يعطى الحق سبحانه وتعالى اختيارات في أشياء ولا يعطيها في أشياء أخرى، فالإنسان له اختيار في أن يصلّي أو لا يصلّي، يتصدق أو لا يتصدق، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما علمه، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر، فالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وكل هذا له نظام دقيق، فلا الشمس ولا القمر ولا النجوم، ولا غيرها من الكون الأعلى يخضع لاختيار الإنسان، وإلا لفسد الكون وكل شيء مقهور سليم بالعظمة ولا يحدث مصاد إلا في شيء الذي فيه اختيار للإنسان؛ لأن الاختيار قد يتبع الشهوة وهو النفس، حتى المخلوقات المقهورة كالحيوانات التي سخرها الله للإنسان لا يأتي منها الشر بل إن مُخلّقاتها تُستخدم في زيادة خصوبة الأرض. ولكن الأشياء التي صنعها الإنسان ملأت أجواء الدنيا بالسموم ولوثت لجوء لأن الأولى مخلوقة بهندسة إلهية، والثانية بهندسة بشرية فلم صانعها أشياء وعابت عنه أشياء.

وقد يعتقد الناس أن هناك بعضاً من الاكتشافات قد حلّت مشكلات لكون، ثم بعد ذلك وعندما غر السواك يعرفون أنها جاءت بالشقاء للبشرية، ولعل تلوث البيئة الذي بدأ يؤثر على حياة الكون أخيراً يلفتنا إلى ذلك، حتى

إن الإنسان الذي قطع الأشجار وأزال الغابات التي خلقها الله في هذا الكون لتكون مصدراً للهواء انتهى وأبشأ بدلاً منها مصانع ومُنشآت، بدأ لأن يحاول أن يعمد زراعة هذه الأشجار بعد أن علم أن تدخله في الكون قد أفسد جُوة وماءه وأنسد على جميع الكائنات حياتهم، ولو أن الإنسان المختار عاش في الدنيا وفقاً لمهيج الله تعالى لاستقدم أمر الدنيا، كما استقدم الكون الأعلى ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [رحمن]

إذن ، فالمران للعلويات لا يخل أبداً، فإذا حرمت ذلك فتمذوا أمر الحق سبحانه وتعالى في قوله:

﴿أَلَا تَتَّقُونَ فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن ٨]

إذا سرت على ضوء منهج الله تعالى، تستقيم أموركم الدنيا كما استقامت أموركم العليا، وما هو ذا الكون أمامكم يسير مضطرباً، وهذا شأن الشيء الذي فيه احتيار للإنسان؛ إن لم يسر على منهج الله عز وجل تجده غير مستقيم وعلى هذا إذا رأيت عورة في لكون من أي لون، فاعلم أن منهجاً من مالهج الله قد عطل

ولذلك نجد - أيضاً - أن المفسدين ساعه يرون أن مصلحاً قد جاء يصرب على أيدي لمفسدين، يجدهم يحاولون إفساده وجديه إليهم ليعيش فسادهم، وإذا لم يتحقق لهم ذلك فهم يفتنون أمام هذا المصلح لأنهم إنما يعيشون بالفساد وعلى الفساد، ويصنعون لأنفسهم السيادة والخبوت ويستعملون غيرهم، وحين يرى المفسدون رجلاً يريد أن يعطل ميزان الكون فهم يحاربونه. وئت حين تشتري سلعة، فالبائع يزكك لك بمقدار ما ندفع من ثمن، ويحتاج

البائع إلى ميزان منضبط ليزن لك به ما تشتريه، فإن كان بائعاً مخادعاً، فهو يبعث بالميزان ليبيع لك الأقل بالثمن الأكبر، وليبخسك حقك ومثل هذا البائع مثل المفسدين الذين يرهقهم أن يأتي مصلح يعيد ميزان الكون لما أمر الله عز وجل من إقامة العدل وإصلاح المعوج

ومن قبل قلنا إن الحق صرب المثل فجعل له سبحانه نورين . النور الأول حسي وهو في الماديات، والنور الثاني معوي وهو في انقيم، وكما أن النور الحسي يهدي الإنسان إلى طريقه دون أن يصطدم بأي شيء؛ لأن الإنسان إن اصطدم بشيء أقل منه، فإنه يحطمه، وإذا كان الشيء أكبر من الإنسان فهو يحطم الإنسان، وهكذا يلعب لنور دوراً في الحسيات، وكذلك جعل الله للمعنويات نوراً، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى .

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور ٣٥]

والمفسد يكره أن يوجد مثل هذا النور، بل يريد أن يطفئه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ أَن يُشْمِتَ نُورَ مُؤَلَّوْكَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ٢٢

لكن هل يستطيعون أن يطفئوا نور الله؟ لا؛ لأن الإنسان في الأمر الحسي لا يستطيع أن يطفئ النور؛ لأن هناك فرقاً بين مصدر النور وبين أداة التنوير، فالإنسان يمكنه أن يحطم الدائرة الرجاسية التي تحمل النور، لكن لا أحد بإمكانه أن يطفئ «النور» والمور الأعلى هو الله، ولا أحد يستطيع إطفاءه. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أي لا يريد الله شيئاً ﴿لَا أَن يُشْمِتَ نُورَهُ﴾، وسبحانه قد أرسل الرسل حاملة لنهج النور ولم يرسل الرسل

ليتنصر عليهم الكفر، ولذلك يقول لنا : ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ﴾ أى لا يريد ﴿إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .

ويتابع الحق جل وعلا قوله :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢٧)

والرسول ﷺ إنما جاء بالقيم التى تهدى إلى الطريق المستقيم ، جاء بالدين الحق . فكلمة «دين» أخذت واستعملت أيضاً فى الباطل ، ألم يأمر الحق سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول بكفار ومشركى مكة :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٢٥) [الكافرون]

فهل كان لهم دين؟ نعم كان لهم ما يدينون به عما ابتكروه واخترعوه من المعتقدات ؛ لكن ﴿دين الحق﴾ هو الذى جاء من السماء ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ولنلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جاء بهذا القول يؤكد أن الإسلام قد جاء ليظهر فوق أى ديانة فاسدة، ونحن نعلم أن هناك ديانات متعددة جاءت من الباطل، فسبحانه القائل

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (٧٦) [المؤمن]

ونترقب عند قول الحق سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ ادِّينٍ كُلِّهِ﴾، قلوا أن انفساد كان فى الكون من لون واحد، كان يقال ليظهره على الدين الموجود الفاسد، ولكن هناك أدياناً متعددة؛ منها اليهودية وعقائد المشركين، وديانات أهل الكتاب والمجوس الذين يعبدون النار أو بعض أنواع من الحيوانات،



وكذلك الصابئة ^(١) . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يظهر دينه ؛
الذى هو دين الحق على دين واحد ؛ من أديان الباطل الموجودة ، ولكن يريد
سبحانه أن يظهره على هذه الأديان كلها ، وأن يعليه حتى يكون دين الله واقماً
فوق ظهر هذه الأديان كلها ، والشئ إذا جاء على الظهر أصبح عالياً ظاهراً .
ولحق سبحانه وتعالى بقول :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف ٩٧]

أى أن يأتوا فوق ظهره . وكى الأديان هى فى موقع أدنى بكثير من الدين
الإسلامى . بعض الناس يتساءل : إدى كيف يكون هناك كهار ومجوس
وبوذيون وصانثون وأصحاب أديان أخرى كاليهودية والنصرانية ، فما زالت
دياناتهم موجودة فى الكون وأتباعها كثيرون ، بقول لفهم معنى كلمة
الإعلاء ، إن الإعلاء هو إعلاء يراهم وسلامة تعاليم ، بمعنى أن العالم
المخالف للإسلام سيصدم بعصاى كوية واجتماعية ، فلا يجد لها مخرجاً إلا
باتبع ما أمر به الإسلام ويأخذون تقيساتهم من الإسلام ، وهم فى هذه الحالة
لا يأخذون تعاليم الإسلام كدين ، ولكنهم يأخلوها كضرورة اجتماعية لا
تصلح الحياة بدونها . وأنت كمستم حين تنعصب لتعاليم دينك ، فليس فى هذا
شهادة لك أنك أمست ، بل دفعك وحدائك وعمى بصيرتك لأن تؤمن بالدين
الحق ، ولكن الشهادة القرية تأتى حين يضطر الخصم الذى يكره الإسلام
ويعانده إلى أن يأخذ قضية من قضايا الإسلام ليحل بها مشكلاته ، هنا تكون
الشهادة القوية التى تأتى من خصم دينك أو عدوك . ومعنى هذا أنه لم يجد
فى أى فكر آخر فى الكون حلاً لهذه القضية فأخذ من الإسلام .

فإذا قلنا مثلاً : إن إبطالها إلى فيها الفاتيكان الذى يسيطر على العقائد

(١) الصابئة قوم تركب ديبهم بين اليهودية والمجوسية وقال الخليل هم قوم يشبه ديبهم من الصابى ،
لا أن قتلهم بعد مهة الجيوب ، يرحسون أنهم على دين نوح عليه السلام انظر تفسير القرطبي
(١٧١ ، ١٨١) والمثل وسجل لشهر ستاس (٢٦ ، ٢٧) وشدة الفكر القسسى فى الإسلام للدكتور على
سامى المشار (ص ٢١٢ وبعدها)

المسيحية في العالم العربي كله، وكانت الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان تجارب الطلاق وتهاجم الإسلام لأنه يبيح الطلاق، ثم اضطرتهم اشكالات الهائلة التي واجهت لمجمع لإيطالي وغيره من المجمعات الأوروبية إلى أن يبيحوا الطلاق؛ لأنهم لم يحدوا حلاً للمشكلات الاجتماعية الحسنة إلا بذلك

ولكن هل أباحوه لأن الإسلام أباحه، أم أباحوه لأن مشاكلهم الاجتماعية لا تُحل إلا بإباحة الطلاق؟ وساعة يأخذون حلاً لقضية لهم من دينا ويطبّقون الحل كتشريع، فهذه شهادة قوية. يتأكد بهم بها صحة دين الله ويتأكد بها قول الحق سبحانه وتعالى ﴿يُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، وبالله لو كان الإظهار عليه عقوبة، بمعنى ألا يوجد على الأرض أديان أخرى، بل يوجد دين واحد هو الإسلام لما قال الحق هنا ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ولما قال في موضع آخر من القرآن ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وهذا يعني أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل من المعارضين للإسلام من يظهر الإسلام على صبره من الأدب لا ظهور اعتناق وإيمان، لا، بل يطعن على دينهم ولكن ظروفهم تضطرهم إلى أن يأخذوا حيلاً لقضاياهم الصعبة من الإسلام. ومثال آخر من قضية أخرى، هي قضية الرضاغة، يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿وَأَنزَلْنَاكَ يُرْسِلُ الْأَوْدَانُ مِنْ حَوْلَيْكَ كَإِذَا لَمْ يَأْمُرْ أَنْ يُرْسِلَ الرِّسَالَةَ﴾

[البقرة ٢٢٣]

وقامت في أوروبا وأمريكا حملات كثيرة ضد الرضاغة الطبيعية، وطالبوا الناس باستخدام اللبن المجفف والمصنوع كيميائياً بدلاً من لبن الأم، وكان ذلك في نظرهم نظاماً أكمل لتغذية الطفل، ثم بعد ذلك ظهرت أضرار هائلة على صحة الطفل ونمسيته من عدم رضاعه من أمه. واضطر العالم كله إلى أن يعود إلى الرضاغة الطبيعية وبحماسة بالغة. هل فعلوا ذلك تصديقاً لقرآن

الكريم أم لأنهم وجدوا أنه لا حل لمشكلاتهم إلا بالرجوع إلى الرضاعة الطبيعية^٩

وكذلك الخمر بعد الآن حرباً شعواء ضد الخمر في المول التي أباحتها من قبل وتوسعت فيها، ولكن شراً عليها هذه الحرب بعد أن اكتشف لعلم أصرارها على الكسد والمخ والسلوك الإنساني، هذا هو معنى ﴿يُطَهِّرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى يجعله عالمياً بالمرهان والحجة والحق والدليل على كل ما عداه. ولذلك بقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يُطَهِّرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ فقد طهر هذا الدين وغلب في مواجهة قضايا عديدة ظهرت فى مجتمعات امشركين والكافرين انذين يكرهون هذا الدين ويحاربونه، وهو ظهور غير إيمانى ولكنه ظهور إقرارى، أى رغباً عنهم.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن الأحيار والرهبان لا يؤمنون بالله الإيمان الصحيح، ولا باليوم الآخر بالشكل السليم، ويحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، وتحذهم أتباعهم أرباباً من دون الله. ها يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَثُرَ مِنْ الْأَحْبَارِ
وَالرُّهَّانِ لَبِأُكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْرِزُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧١﴾﴾

وبعد أن شرح سبحانه بنا ما يدرى فى دوانهم ، وانحرفهم عن منهج الله تعالى ، والعرق فى حب الدنيا وحب الشهوات ، وهم قد امشروا بآيات الله

ثُمَّ قَلِيلًا، وَحَرَّفُوا تَعَالِيمَ السَّمَاءِ حَتَّى يَأْكُفُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَلَكِنْ هَلِ الْأَمْوَالُ تَوْكُلُ؟ طَعْمًا لَا، بَلْ نَشْتَرِي بِمَالِ الطَّعَامِ الَّذِي نَأْكُلُهُ، فَلَمَّا دَا اسْتَحْدَمَ احْتِقَ سَبْحَانَهُ عِبَارَةً ﴿لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ﴾؟ أَرَادَ احْتِقَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِذَلِكَ أَنْ يُلَمِّتَنَا إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَأْخُذُونَ أَمَلًا عَلَى قَدَرِ حَاجَتِهِمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَكِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ كَثْرًا مِنْ حَاجَتِهِمْ لِيَكْرَهُهُ (١)

وَلِذَلِكَ يَأْتِي قَوْلُهُ تَعَالَى فِي دَتِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الدَّمْعَ وَالْعَصَّةَ وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِشْرُهُمْ بِعَدَابِ إِلَهِهِ﴾ هُمْ إِذَنْ أَكَلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، مَصْدَقًا لِقَوْلِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ ﴿لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ هَآكِ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْحَقِّ فِي عَمَلِيَّاتٍ تَبْدُلُ الْمَنَافِعَ، فَالتَّاجِرُ يَأْخُذُ مَالَكَ لِيُعْطِيكَ بَضَاعَهُ، وَيَذْهَبُ التَّاحِرُ لِيَشْتَرِيَ بِهَا بَضَاعَةً وَمَكْدًا، وَقَتَّانُونَ الْأَحْبَابَ هَآهُنَا هُنَا أَنْ يَكُونَ هَآكِ رَهْبَانٍ وَأَحْبَارٍ مُحَاطُونَ عَنِ تَعَالِيمِ الدِّينِ، وَلَا يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِنْ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ حَلْ حَلَالَهُ كُلِّ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، بَلْ قَالَ ﴿إِنْ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَوْجَدُ عِنْدَ مُحَدِّثِهِ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ مُتَّزِمُونَ، وَاللَّهُ لَا يَغْلُمُ أَحَدًا؛ لِذَلِكَ جَاءَ بِالْإِحْتِمَالِ. فَلَوْ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّ وَوُجِدَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُقَرَّبٌ بِالْإِسْنِ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْفِرَاقُ الْكَرِيمُ لَمْ يُعْطَ كُلُّ الْإِحْتِمَالَاتِ، وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ. لِأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قَرَأَتِهِ يَصُونَ الْإِحْتِمَالَاتِ كُلَّهَا.

إِذَنْ فَاسْتَيْلَاءُ بَعْضٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ لَا يَكُونُ بِالْحَقِّ، أَيْ لَا يَحْصُلُونَ قَطْعًا عَلَى مَا يَكْفِيهِمْ، بَلْ بِالْبَاطِلِ أَيْ بِأَكْثَرِ

(١) قَارِ الْفَرْحَانِي فِي تَفْسِيرِهِ لِآيَةِ (٣٠: ١٩/٢١) ذَكَرُوا يَأْخُذُونَ مِنْ أَمْوَالِ أَتَابِعِهِمْ مَوَالِفَ وَهِيَ بِاسْمِ الْبَنَاتِ وَالْبَنَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، عَادِيهِمْ وَهُمْ أَنْ الْخَفَّةَ مِنْهُ مِنَ الشَّرْحِ وَالتَّرْلَفِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ بِحَالِ ذَلِكَ يَحْجَرُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ، كَالَّذِي ذَكَرَهُ سَلَمَةُ الْعَارِضِي عَنْ الرَّهْبِ الَّذِي اسْتَعْرَحَ كَثْرَةً وَالتَّرْلَفُ هُوَ الْغَرَبُ

يحتاجون وهم بأحذون المال ليصدوا به عن سبيل الله، وهم في سبيل الحصول على الأموال الدنيوية؛ يُعْمِرُونَ مِنْهُ لِيَتَّقُوا اللَّهَ بِمَا يَتَّقُوا مَعَ شَهْوَتِهِمْ لِلْمَالِ، وما يحقق لهم كثرة الأموال التي يحصلون عليها، ولهذا تأتي العقوبة في ذات الآية فيقول المولى سبحانه وتعالى

﴿وَالَّذِينَ يَكْرِهُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْقُرُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَشَرَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وَالْكَثْرَ مَاخُودٍ مِنَ الْاِمْتَلَاءِ وَالتَّجَمُّعِ، وَلِذَلِكَ يَقَالُ: «الشَّاةُ مَكْنَزَةٌ»، أَي مَلِيَّةٌ بِاللَّحْمِ وَتَجَمُّعٌ فِيهَا لَحْمٌ كَثِيرٌ

إذن: فيكنزون أي يجمعون، وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾، وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوي، فقد بدأ التعامل الاقتصادي بالتبادل، أي سلعة مقابل سلعة، وهي ما يسمى عمليات المقايضة، وعندما ارتقى لشعاع الاقتصاد احتربت العملة التي صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول والعملة من بدايتها حتى الآن تركز على الذهب والفضة. وحتى عندما وجدت العملة الورقية، كان لا بد أن يكون لها عطاء من الذهب لكي تصبح لها قيمة اقتصادية؛ لأن العملة الورقية لا يكون لها قيمة إلا بما يعطيها من الذهب والفضة.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن الذهب والفضة وهما معدنان، يجعلهما الأساس في النقد والتجارة، ولقد وجدت معادن أخرى أغلى من الذهب وأغلى من الفضة كالماس مثلاً. لكن لا يزال الأساس النقدي في العالم هو الذهب والفضة وعلى مقدار رصيد الذهب الذي يغطي العملة الورقية ترتفع قيمة عملة أي بلد أو تنخفض فمثلاً في مصر في عهد الاحتلال البريطاني كان النقد المتداول ثمانية ملايين جنيه، ورصيدنا من الذهب عشرة ملايين جنيه فيكون العائض من الذهب مئوتى جنيه، وبذلك كانت قيمة الجنيه المصرى ساوى جنيتها من الذهب مصداقاً إليه قرشان ونصف العرش. والذى يهبط بالنقد إلى الخفض أن يكون رصيد

لذهب قليلاً وكمية النقد المتداولة كثيرة، وهكذا يبقى الذهب هو الحجة
والأساس في الاقتصاد العالمي

إذن، فالحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أراد أن يلفتنا إلى أن
الذهب والعصاة هما أساس التعامل في تسيير حركة العالم الاقتصادية، وأن
هذا التعامل يقتضي الحركة الدائمة للمال ؛ لأن وظيفة المال هي الانتفاع به في
عمارة الأرض، ولو أنك لم تحرك مالك وكنت مؤمناً، فلأنه ينقص كل عام
نسبة ٥,٢٪ وهي قيمة الزكاة، ولذلك يفنى هذا المال في أربعين سنة. فإن
أرد المؤمن أن يُبقي على ماله ؛ فيجب أن يديره في حركة الحياة ليستثمره
ويسميه ولا يكتزّه حتى لا تآكله الزكاة ؛ وهي نسبة قليلة تُدفع من المال.
ولكن إذا أدار صاحب المال ما يملكه في حركة الحياة، فسيتفع به الناس وإن لم
يقصد أن ينفعهم به ؛ لأن النسي يستثمر أمواله مثلاً في بناء عمارة ليس في بابه
إلا ما سيحققه من ربح لذاته، ولكن أساس يتفعلون بهذا المال ولو لم يقصد
هو نفعهم ؛ فمن وضع الأساس يأخذ أجراً، ومن جاء به بطوب يأخذ قدر
ثمنه، ومن أحضر أسمنتاً أخذ، ومن جاء بالحديد أخذ، والمعامل التي صنعت
مواد البناء أخذت، وأخذت العمل أجورهم ؛ في مصانع الأدوات لصحية
وأسلاك الكهرباء وغيرها، والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا، إذن .
فقد انتفع عدد كبير في المجتمع من صاحب العمارة، وإن لم يقصد هو أن
ينفعهم . ولذلك فإن الذي يبنى عمارة يقدم للمجتمع خدمة اقتصادية يتمتع بها
عدد من الناس، وكذلك كل من يقيم مشروعاً استثمارياً .

إذن سبحانه وتعالى لا يريد من المال أن يكون راكداً، ولكنه يريد متحركاً
وبو كان في أيدي الكافرين ؛ لأنه إذا تحرك أمدد الناس جميعاً فيحدث بيع
وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء لمصانع . وتشغيل للأيدي العاملة إلى غير ذلك،
ولكن إن كثر كل واحد من ماله فلم يستثمره في حركة الحياة، فالسلع لن
تستهلك ، والمصانع ستوقف ، وتعطل الناس عن العمل

وكما يحث الإسلام على استثمار المال، يطالب أيضاً بالآلا يذهب المال إلى الناس بغير عمل؛ حتى لا يعتادوا على الكسب مع لكل وعدم العمل ولذلك قال: إذا كثر المال ولم تكن هناك حاجة إلى مشروعات جديدة، فلا تترك الناس عاطلين؛ بل عليك أن تأمرهم وبو بحرق بث ثم تدمرهم بظلم أي ردمها، في هذه الحالة سيأخذ العمال أجر الحفر والردم، فلا تنتشر البطالة ويتعود الناس أن يأكلوا بدون عمل؛ لأن هذا أقصر طريق لفساد المجتمع.

إذن: فخلق سبحانه وتعالى يريد للمال أن يتحرك ولا يكثر؛ ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالنَّعْصَةَ وَلَا يُفْقَرُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُشْرَهُمْ بَعْدَ آيَمٍ﴾ لأنهم يكثرهم المال إنما يُوقِفُونَ حركة الحياة التي أرادها الله تعالى لكونه وأنت ترى لعالم الآن يعيش في حالة البطالة؛ لأن المال لا يتحرك لعمارة الكون، بل هناك من يكتنزون فقط

ونقابل أن يقول ولكن الناس الآن يتعاملون بالنقد الورقي، بينما ذكر الله سبحانه وتعالى الذهب والنفضة؛ نقول: إن العملة الورقية ليست نقدًا بذاتها، ولكنها استجذمت لتعفى الناس من حمل كميات كبيرة وثقيلة من الذهب والنفضة، فد لا يدرون على حملها، إذن فهي عملية للتسهيل، وهي منسوبة إلى قيمتها ذهباً، إذن: فالدين يكرون العملة الورقية ولا ينفقونها فيما يحمر بها الكون وتتم عمارته بتطبيق عليهم الآية الكريمة^(١)

ولكن الكثر في هذه الآية لا يأتي فقط بمعنى الجمع؛ ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لا يؤدون حق الله فيها. ولذلك فإن المال الذي أخرجت زكاته لا يُعدُّ زكراً، لأنه يتناقض بالزكاة عما بعد آخر؛ أما المال المكبوز فهو مال الذي لا تُؤدى زكاته

(١) قال القرطبي في تفسيره، (٣٠٤٩/١) «الكثر أصبه في اللغة الصبر والجمع، ولا يحصر ذلك بالذهب والفضة إلا يرى قوله ﷺ «ألا أخيركم بخير ما يكر لموه المرأة الصالحة» أي يصفه لصفه ويجمعه، وخص الذهب والنفضة بالذكر لأنه مما لا يطلع عليه بخلاف ما قاله الأموال قال الطبري: الكثر كل شيء مجموع بعضه إلى بعض، في بطن الأص كان أو على ظهرها» وأحدث الذي ذكره القرطبي قد أخرج أبو داود في سننه (١٦٦٤) والحاكم في مستدركي (٤٠٩/١) (٢/٢٣٣) وصححه، أنه الذهب في الموضع الأول

والذي يملك مالا مهما كانت قيمته ويؤدي حق الله فيه لا يعثر كثيراً لسمال، بل الكثر في هذه الحالة ما لم يؤد فيه حق الله^(١)

وإذا عُدنا إلى نص الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْمِصَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا﴾ تساءل، لماذا لم يعمل الله - ولا ينفقونهما مع أنهما معدتان؟ ونقول إن الحق سبحانه وتعالى استخدم أسلوب الجمع؛ لأن الذهب يطلق إطلاقاً كثيراً، فهناك من يملك ألف دينار من الذهب، وغيره يملك مائة دينار من اذهب، وثالث ليس لديه إلا دينار ذهبي واحد وكذلك الفضة، وما دام الجمع هنا مبرحاً فلا بد أن تستخدم ﴿يُنْفِقُونَهَا﴾

ولم تقل الآية الكريمة والذي يكثر. ولكنها قالت، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ﴾، إذن، فالمخاطبون متعددون، فهذا عنده ذهب، وهذا عنده ذهب، وثالث عنده فضة، إذن فلا بد من استخدام صيغة الجمع وبلغنا القرآن الكريم إلى هذه القضية في قوله تعالى

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]

وسم يقل «اقتتلا» لأن الطائفة اسم لجماعة مكونة من أفراد كثيرين، فإذا جاء القتال لا تقوم طائفة وتمسك سيماً ونقاتل الثانية، وإنما كل فرد من الطائفة لأولى يقاوم كل فرد من الطائفة الثانية، إذن فهما طائفتان ساعة السلام، ولكن ساعة الحرب يقاتل كل أفراد الطائفة الأولى مع كل أفراد الطائفة الثانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى ﴿اقْتَتَلُوا﴾، ولم يقل «اقتتلا». أم في حالة الصلح فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]

واستخدم هنا «المثنى» لأنها ساعة تصلح بين طائعتين، لا تأتي بكل فرد من الطائفة الأولى ويصلحه على كل فرد من الطائفة الثانية، ولكن تأتي بزعيم

(١) قال ابن عمر: ما أدى ركبته ليس بكر وإن كان تحت سبع أوصي، وكل ما لم تؤد زكاته فهو كثر وإن كان موق الأرض ذكره القرطبي في تفسيره. وقال: فومله من جابر، وهو الصحيح

الطائفة الأولى ومصلحه على زعيم الطائفة الثانية فيتم الصلح . ولذلك هنا
تجب الشبهة

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالنَّصَافَ﴾ لم يقل
ولا ينفقونها ، ولكن قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
والإنفاق في سبيل الله يشمل مجالات متعددة ، فهي سبيل الله تحدث حركة في
المجتمع يستفيد منها الناس ، فحين تُخرجُ الزكاة يستفيد منها الناس ، وحين
تُجهزُ بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس ، ونظرية عدم كثر المال وبما
ظهرت حديثاً في الاقتصاد العالمي ولكنها موجودة منذ نزول القرآن الكريم

فأنت إن أنفقت ولم تكنز حدث رواج في السوق والرواج معناه إيجاد
اعمل ووسائل الرزق وإيجاد الحافز الذي يؤدي إلى ارتقاء البشرية ، وأنت
حين تشتري لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بيتاً صغيراً فلأنك توجد رواجاً
اقتصادياً في المجتمع وفي نفس الوقت ارتقيت بوسائل مستخدماتك
والرواج يدفع إلى اكتشاف لأحسن الذي يفيد البشرية ، ولكن إذا كثر كل
مالك ساد الكساد الاقتصادي

وليس معنى ذلك أن ينفق صاحب المال كل ماله وريادة : لأن الحق سبحانه
وتعالى يريد الوسط في كل الأشياء . وبذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٥٧)

[الفرقان]

والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق ، وعدم
الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أي أزمة مفاجئة . لكنك إن قشرت حدث
كساد في السوق وتوقف الإنتاج وتعطل العمال ، والإسلام يريد نفقة معتدلة
توحد الرواج السلي ، وادحوا تسخدمه في الارتقاء بحبائك ومواجهة
الأزمات

والإنفاق أنواع ، إنفاق في المساوي لإبقاء الحركة السائجة بين المنتفع والمستهلك ، وإنفاق في غير المساوي بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم ، والزكاة تنقي المجتمع من مفسدات كثيرة ^(١) ؛ فهي تمنع الحقد بين الناس ؛ لأن الفقير إذا رُحِد من إعطائه فهو يتمنى له دوم النعمة حتى يستمر العطاء فلا يسخط الفقير على العني ، والعني والفقير مساويان في الانتفاع ؛ لأن الفقير عديم يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يحس بالعطاء حوله ، وانحس حين يعطى يحس أن هذا أمان له ؛ لأنه إن ذهبت عنه النعمة فسوف يجد من يعطيه .

وهكذا يحدث توازن في المجتمع بين الناس ، فلا يوجد من لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة ، ولا يوجد من لديه فائض يحبس عنه الناس ^(٢) . ولهذا يدعونا الإيمان إلى العمل بما يزيد عن قدر الحاجة ، ليكون هناك فائض للزكاة والصدقة . والإنسان إذا عمل فإنه لا يمد نفسه فقط بل يعيد المجتمع أيضاً . فسائق «لتاكسي» مثلاً إذا كسب مائة جنيه في اليوم قد يظن أنه نفع نفسه فقط ، ولكنه في الحقيقة نفع المجتمع كله بأن يسر على العباد مصالحهم ، فنقل هذا إلى عمله ؛ ونقل ذلك إلى المستشفى ، ونقل غيرهما إلى السوق ليسرى ما يحتاج إليه ، ونقل راعياً ليرور قريباً أو ليحقق مصلحة وهكذا .

إذن . فالذي يعمل يكون عمله خيراً لنفسه وخيراً للمجتمع ، وإن عمل كل الناس على قدر حاجاتهم فقط ، فمن أين يعيش غير القادر على العمل ؟ من أين يعيش المستحق للزكاة والصدقة ؟ إنه لا يعيش إلا بفائض القادر على

(١) ولعلك يقول عر وجل في هذه السورة ﴿ غَدَمُ أُولَئِكَ تَطْهِرُهُمْ وَتَرْكُهُمْ بِهَا وَعَلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَّاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ ﴾ (التوبة ١٠٣)

(٢) وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى هذا ، فقال فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري . « من كان معه فضل ظهر فليعده على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل راح فليعده على من لا راح له » قال أبو سعيد فذكر من أضاف له ما ذكره حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل أخرجه مسلم إلى صحيحه (١٧٢٨) وأحمد في مسنده (٣/ ٣٤) وأبو داود في سننه (١٦٦٣)

العمل ، ولذلك لابد للإنسان المسلم أن يعمل على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته . ولعمل على قدر الحاجة يجعله يوفى بحاجات من يعولهم ، ولا يضطرهم إلى أن يمدوا أيديهم للآخرين ، أى أنه يقيهم شر الحاجة . أما العمل على قدر الطاقة فيجعله يأخذ حاجته ، ويعطى لعسر العادر ما يقيم حياته ، وبذلك يقدم الخير لنفسه ومن يعولهم وللآخرين .

إن المجتمع الذى يجد فيه غير انفاذ حاجته ، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للعادر وغير العادر . ونحن نعلم أننا نعش فى دنيا أعيار ، ولا يوجد من يدوم عنه أو من يدوم فقره . لأن دوام الحنان من المحال ، إن عاش لغيره فى مجتمع متكامل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الرمن ؛ لأنه وهو الآن يعطى لفقير ، إن أصبح فقيراً فسوف يجد مقومات حياته ، والصغير إذ أعماه الله تعالى فسيدكر أنه كان يأخذ من الأغنياء ، فيبادر لبعض الفقراء كنوع من رد الجميل . وبذلك يعيش المجتمع كله حياة آمنة ، كما أن الحياة فى مثل هذا المجتمع إنما تهيم الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم ، ذلك أن الأعمار بيد الله ، وعندما يحس الإنسان بأنه إن مات وترك أولاداً صغاراً صعباً فسوف يتكامل المجتمع بهم ، عندئذ يحس بالأمان فى حياته ، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يصعب فيه حق اليتيم ، فالأب يعيش غير مطمئن على أولاده لصغار ، ولهذا نحمد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم ^(١) ؛ ليحوصه عن أب واحد يساه مسعدين يرعونهُ ، فَحَسُّ الْآبِ بِالْأَمَانِ وَتُحَسُّ الْأُمُّ بِالْأَمَانِ وَبِحَسِّ الصَّغَارِ بِالْأَمَانِ ، ولذلك يقرن الحق سبحانه وتعالى .

(١) كفالة اليتيم من الأمور التى حث عليها الإسلام ، وورد ذكر اليتيم واليتيمى فى القرآن (٢٣ مرة) ، وذلك من نحو قوله تعالى : «وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ وَلَا تُسْرِكُوا بِهِ سُبُكًا وَبِالْوَلَدِ إِحْسَانًا وَبِالنَّفْسِ الْفَرْسِ وَالْيَتَامَىٰ وَالْيَتَامَىٰ» الآية (النساء ٣٦)

ونظر إلى القرآن وهو يوحى كفى اليتيمى بالناس حسد يمدى يده من قلبهم وخسائرهم مع أموال هؤلاء اليتيمى يقول هو وحده : «وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ اسْتَمْتَحْتُم بِشَرِّ مَا فِيهِمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَنْكُحُوهُنَّ بِسَرِّهَا وَبِظَهْرِهَا» ويكبروا ومن كان صبياً فليطعم ومن كان غنياً فليؤتَ ثياباً كمل بالمعروف نود حفظت لهم أموالهم فاحفظوا عنهم وكفى بالله حبا (النساء ٦)

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرْكُوا مِنْ خَلْقِهِمْ قُرْبَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١﴾﴾ [النساء]

وتقوى لله تكون ضماناً في أن يكفل المجتمع اليتيم ؛ فيدخل الأمن في قلب كل أب يخشى أن يموت وأولاده صغار

إذن ساعة يكفل المجتمع ليتيم والطفل لن يسقط على القدر الذي حرمة من أبيه لأنه وجد أبناء يرمونه ، وهناك قصة يرويها عدد من إخواننا العلماء ، فقد مات زميل من زملائهم وأولاده صغار ، وكنت الأم تكى على أطفائها لأنهم تيمموا ، ثم مرت السنوات وكبر الأطفال فصار هذا مهندساً وصار ذلك طبيباً ، والثالث أصبح محامياً ، بينما من لا يزال آباءهم على قيد الحياة كانوا متعثرين في دراستهم ، فقال أحدهم للأخر ليت ثورت حتى يفتح الله باب الرزق على أولادنا ،

إذن فهلك أباه محاسن رزق ، إذا ذهبوا قاض الله بالرزق على أولادهم ، وهذه صورة براها في الكون ؛ فعرف أن المسألة في يد الله سبحانه وتعالى العائل

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٢﴾﴾ [الذاريات]

إذن ، فالاقتصاد الإسلامي مبني على وجود حركة في الكون ، ولا بد أن تكون هذه الحركة على قدر طاقة المتحركين ، وليس على قدر حاجاتهم ؛ حتى يكون هناك هائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى لحة إيمانية ، حينما نرى الفقير غير القادر وهو يتلقى إعطاه من أي إنسان غني يتحب في صمله ، وكأن من هم أغنى منه يعملون لإعطاه ، وسبحانه وتعالى حين سلب القوة من هذا الرجل فقد عوضه بأن أعطاه ثمرة من جهد وناتج عمل غيره فلا يسقط على اختبار الله تعالى به بالانطلاق

﴿وَالَّذِينَ يَكُفِّرُونَ اللَّذَّعَ وَالْعِصَّةَ وَلَا يَسْقُوتُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وساعة تسمع كلمة ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ تعرف أن الإشارة عادة تكون في خبر سار، وإن جاءت في خبر محزن تكون تهكمًا، فالإنسان الذي هو عرير فومه ويجعل الناس له اعتبارًا، إن ظلم وطمع وخاف الناس أن يردوه؛ لأنه لا يحشى الله فيهم، هذا الظالم يُؤتى به يوم العياض ويُعَذَّب أشد العذاب، ويقال له .

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَرِيرُ الْكَرِيمُ﴾ [٤١]

وبطبيعة الموقف في النار هو مهان بعداب جهنم ولا يمكن أن يكون عزيزًا كريماً، ولكن قول ملائكة النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَرِيرُ الْكَرِيمُ﴾، هو نهكم شديد، وهو في ذلك كقول الحق تبارك وتعالى .

﴿وإن يَسْتَغِيثُوا يَغَالُوا يَغَاءُ كَالْمُهْرِ يَشْوِي الوجوه﴾ [الكهف ٢٩]

وهم ساعة يسمعون كلمة ﴿يَغَالُوا﴾ يفرحون؛ لأن عطشهم شديد وهم قد استعاثوا فقبل لهم إبهم سيعاثون، وهذا حر سار بالنسيه لهم، ولكن الإعاثة تأتيهم بماء يشوي وجوههم، فهل هذه إعاثة؟ إنه تهكم عيهم وريادة في عذابهم، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى هنا: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ويصف ما الحق هذا العذاب لأليم لذي سيعرصون له، ويبيِّن لنا خبراً أعيت عناً في الآخرة بصورة مُحَسَّنة لنا فيقول

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [٢٥]

بحر يعلم أن النار لا تُحصى إلا للمعادن ، فإن كان ما كزوه أوراق نقد فكيف يُحصى عليها ؟ ود كان ما كروه معادن فهي صالحة لأن تُكوى بها أجسادهم ، أما لورق فكيف يتم ذلك ؟ ونقول : إن القادر سبحانه وتعالى يستطيع أن يجعل من غير المحمى عليه محمى ، أو يحولها إلى ذهب وفضة ؛ وتكوى بها نوح متعددة من أجسادهم ، والكمية هي أن تأتي معدن مساحن وتنطقه بالخلد فيحرقه ويترك أثراً

وحين مات أحد لصحية في عهد لرسول ﷺ وبحثوا في ثيابه فوجدوا فيها ديناراً ، قال الرسول ﷺ : هذه كربة من النار ؛ لأن صاحبه كان حريصاً على أن يكتزها ، كما وجدوا مع صحابي آخر دينارين كثرهما ، فقال رسول الله ﷺ : هاتان كيتان ، (١)

كان هذا قبل أن تشرع الزكاة ، أما إذا كان صاحب المال قد أدى حق الله فيه فلا يُعدُّ كزاً ، وإلا لو قلنا : إنَّ لإنسان إذا أهى بعضاً من المال لأولاده حتى ولو أدى زكاته فإن ذلك يعتبر كزاً ، بو قلنا ذلك لكننا قد أخرجنا آيات الميراث في القرآن الكريم من بعضها ؛ لأن آيات ميراث جاءت لتعريف ما عند المتوهم والمال المورث المقرص فيه أنه قد أتى عن طريق حلال وأدى فيه صاحبه حق الله ، لذلك لا يعتبر كزاً

وهو يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ، لماذا حصَّ الله هذه الأماكن بالعذاب ؟ لأن كل جراحة من هذه

(١) عن أبي أمامة قال : توفي رجل من أهل البصرة فوجد في مفرقه دينار ، فقال رسول الله ﷺ : كيه ثم قال : توفي آخر فوجد في مفرقه دينار ، فقال رسول الله ﷺ : كيتان . أخرجه أحمد بن مسند (٢٥٢/٥ ، ٢٥٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٠/١٠) : رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب . وقد وثق بهذا الحديث وجمعه روى أحمد بن مسند عن الصحابة

وقد يقرر قائل : وما دينار أو دينار حتى يكوى بهما بالنار ؟ وأجوب : إن هذا رجل من أهل البصرة أي من الفقهاء المتقدمين الملائمة بمسجد رسول الله ﷺ ويأكل من صدقات المسلمين ، بينما هو يكتز الذهب ولو ديناراً من طينته ثيابه فكانه أخد حق غيره وحرم من جميع المسلمين بما يكتزّه ومن جهده في العمل فهو بهذا التيهار أتى حراماً ، وجب كما فعل رسول الله ﷺ مع غيره فكان أثناع عشر ولائله وأخيرهم ؛ ولهذا استحق الرعيد

الجوارح لها مدخل في عدم إغراق الماء في سبيل الله كيف؟ مثلاً تجدون الوجه هو أداة المواجهة ، وإذا رأيت إنساناً فقيراً متحجهاً إليك ليطلب صدقة، وأنت تعرف أنه فقير وقد جاءك لحاجته الشديدة ، فإن كان أول ما تفعله حتى لا تؤذي حق الله أن تشيح بوجهك عنه، أو تعبس ويطهر على وجهك الغضب، فإن هذا الفقير يحس بالمهانة ولذلك ؛ لأن العنى قد تركه رابتمد عنه، فإذا لم تمنع إشاحة الوجه واستمر الفقير في تقديمه من اعنى ، فإنه يمرضى عنه بأن يدير له جبه ليحس بعدم الرضا ، فإذا استمر الفقير واقفاً بجانبه فإنه يعطى له ظهره .

إذن : فالجوارح الثلاث قد تشرك في مع الإتفاق في سبيل الله، وهي الوجه الذى أداره بعيداً، ثم أعطاه جانبه، ثم أعطاه ظهره هذه هي الجوارح الثلاث التى تشرك في منع حق الله عن الفقير ، ولذلك لابد أن تُعَذَّب فتُكْوَى الحباه وجنوب ولظهور.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، أى : هذا ما ستم فيه حق الله، فإن كنز الإنسان مالا كثيراً فيكون عذابه أشد من كنز مالا قليلاً ؛ لأن الكنى سيكون مساحة كبيرة ، أما إن كان الكنز صغيراً فتكون الكية صغيرة ولهذا لا يجب أن يغتر المكتنر بكمية ما كنزه لأن حسابه سوف يكون على قدر ما كنز

وقوله سبحانه وتعالى ﴿قَدْ نُولُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أى : أن عذابكم في الآخرة سيكون بسبب كنزكم المال، فالمال الذى تفرحون بكنزه من الدنيا كان يجب أن يكون مساً فى حزنكم ؛ لأنكم تكتنون علاناً لأنفسكم يوم القيامة، ومهما أعطاكم كنز المال من تقانير وغرور فى الحياة الدنيا ، سوف يقابله فى الآخرة عذابٌ ، كُلُّ عَلَى قَدْرٍ مَا كَنَزَ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي
كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا
أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً
كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

والشهر هو دورة القمر كما هو معلوم ، ونحن نعرف أن الكون فيه
شمس وقمر وفيه نجوم ، هذه هي الأشياء المرئية لنا ، وهناك كواكب أخرى
بعيدة عما نستطيع أن تأخذ مليون شمس في جوفها ، كل هذا يعطيك فكرة
عن مدى اتساع الكون ، فلا تعجب أن الشمس هذه موجوده بذاتها، بل هي
تأخذ أشياء من كواكب أعلى منها كثيرة ، ولكن ما نراه بأعين محدود ،
ومناك ما لا يمكننا أن نراه ؛ لأنه غير منطوق لنا ، وأنت إذا نظرت إلى مصباح
كهربائي ، فور المصباح ليس ذاتياً، بل إن وراءه أجهزة كثيرة تمده بالكهرباء من
أسلاك وكابلات وأكشاك ، ثم محطة بوسد الكهرباء التي تولد التيار
الكهربائي ، ثم المصانع التي أشحت الآلات التي تعمل في محطة الكهرباء ،
إذن: فوراً هذا المصباح لصغير حجم هائل من العمل والأجهزة المختلفة

ونحن نرى الشمس فيها ضياء ، والقمر فيه نور ، فما الفرق بين الضياء
والنور؟

الضياء فيه نور وفيه حرارة والنور فيه ضوء وليس فيه حرارة ولذلك

سمون ضوء القمر «الضوء اخليهم» ، أى : أنك عندما تجلس فى ضوء القمر لا تحتج إلى مظلة تحميك منه ، ولكن إن جلست تحت ضوء الشمس فأنت تحتاج إلى مظلة تحميك من حرارة الشمس الشديدة .

والحق سبحانه وتعالى يسمي الشمس سراجاً رهاجاً ، والسراج فيه حرارة وفيه ضوء . أما القمر فسماه منيراً ؛ لأن أشعة الشمس تنعكس عليه فينير ، وهذا انكوبان انعكاس الشمس والقمر - وضع الله فيهما موازين الزمن والرمز له حالات كثيرة تتطلب موازين وقياسات مختلفة ، وأساس الزمن هو اليوم والليل ، وأساس اليوم هو صباح وظهر وعصر ومغرب ، وهناك الفجر الصادق والفجر الكاذب والشروق ، وهناك أوقات يتساوى فيها الشيء وظله ، وأوقات يكون الظل مثلى الشيء . والليل فيه الظلام ، ويأتى بعد النهار وليل فى مقاييس الزمن الشهور ، وبعد الشهور تأتى السنوات

ذن : فمقاييس الزمن محتاجة لألات تقاس بها ، وأنت تعرف بداية اليوم بشروق الشمس إذن فالشمس معيار اليوم وأنت تعرف بداية الليل بغروب الشمس . وهكذا فالشمس تعطينا بداية ونهاية الليل والنهار ، ولكنها لا تعطينا شيئاً عن الشهور ، فإذا نظرت إلى لشمس فإنك لا تعرف هل أنت فى أول الشهر أو فى منتصفه أو فى آخره . ولكنك إذا نظرت إلى القمر عرفت ، فى أول الشهر يكون القمر هلالاً . وفى منتصفه يكون بدرأ ، وفى آخره المحاق^(١) والشهور عند الله اثنا عشر شهراً

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الإنسان ، ويجعله خليفة فى الأرض ؛ خلق له كيوماً معدداً عدداً حكيماً لاستقباله ، فقدّر فى الأرض الأقوات وجعل الشمس والقمر وأبرل المطر ، فكل ما يعيم حياة الإنسان كان

(١) المحاق : آخر الشهر إذا سحق الهلال فلم يبق ، وهو أن يستمر القمر ليلى فلا يرى منى ، ولا حشبة قال ابن الأعرابي : سمي المحاق محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقتة ، فلم يره أحد . انظر لسان العرب (سادة معنى)

موجوداً في تكون قبل أن يأبى الإنسان إليه . والإنسان جعله الله خليفة في الأرض وله حركة ، وهي الأحداث التي تقع منه أو تقع فيه أو تقع عليه ، والأحداث تتطلب زماناً ومكاناً ، ولذلك خلق الله لها الزمان والمكان . إذن : بالحياة كلها تتفاعل بين حركة الإنسان الخليفة وبين الزمان والمكان .

وكما أعد الله سبحانه وتعالى للإنسان في كونه مقومات حياته اليومية أثرت له القيم التي تحفظ له معويات حياته ، وأراد بها الحق سبحانه وتعالى أن تتساند حركة الإنسان ولا تعاند ، ومعنى التساند أن تتحد حركة الناس جميعاً في إيجاد النفع لمريد من الإصلاح في الأرض ، أما إن تعاندت حركات البشر ضد بعضها البعض ، فإن الفساد يظهر في الأرض ، لأن كل واحد يريد أن يهدم ما فعله الآخر

ولكني تتساند حركات الإنسان في التكون ؟ فلا بد من مُشْرِع واحد . وهو المشرع الأعلى - يعطي قوانين الحركة البشرية لكل الناس - وإن ابتعد الناس عن تشريعات الله تعالى ، وأجفوا يفتنون لأنفسهم ، يجد قرايين الشر تتبع أهواءهم ، وكل واحد يحاول أن يحصل على مميزات لنفسه ، ويأخذ حقوق الآخرين ، فتفسد الحياة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىَٰ فَيُضِلَّكُمْ فُتُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ [التوبة ٧٦]

إن اتبع الحق لأهوائهم سيضيع التكون لأهواء البشر ، هذا يريد وهذا لا يريد ، ولحق سبحانه يريد في التكون حركة سلام والأمن والاطمئنان ، وهذه لا تتم إلا إذا التزم كل إنسان منهج الله ، حينئذ يوجد سلام دائم ومستوعب شامل ، مسوعب لسلام الإنسان مع نفسه ، و سلام الإنسان مع الكون ، و سلام الإنسان مع الله . يكن الإنسان الذي خلفه الله مُحَيِّراً وأمر به المنهج بالتكليف ، في إمكانية أن يطيع هذا المنهج أو أن يعصيه . وإن عصى الإنسان منهج فهو يفسد في الأرض وينشر فيها الظلم والفساد .

وأراد الحق سبحانه أن يضع للسلام ضماماً ، وهو أن توجد قوة
تقف أمام انفساد في الأرض ؛ لذلك شاء الحق أن يكون للحرب وجود
في هذا الكون ، لتتصارع الإردات ، فمادام للإنسان اختيار ، ومادام
هناك من يعصى ومن بطيع ، فلا بد أن يحدث الصراع . أما لأمر التي
لا اختيار للإنسان فيها فهي لا تحرك السلام في الكون ، فلن تقوم ثورة -
مثلاً- لكي يشرق الشمس ، أو تشعل حرب لإنزال المطر ؛ لأن هذه
الأمر تسير بقواتير القهر التي أَرادها الله لها ، وتعصى بدعها للجمع ،
ولكن الفساد يأتي من انحراف الناس عن منهج الله ، ومادام في الكون
حراس للمنهج من الشر ، بحيث إذا انحرف إنسان ضربوا على يده حتى
يعود إلى الطريق السليم " ؛ فإن الحياة المظلمة الآمة تبقى . ولكن إن عمَّ
انفساد ، ولم يوجد في المجتمع من يقف ضده تعندت حركات الحياة
وتعب الناس في حياتهم وأوراقهم .

ولكى يسود السلام في الكون ؛ وضع الحق سبحانه في الزمن وهي
الكان حواجز أمام طغيان النفوس ؛ علّها تفيق وتمود إلى الحق ، فجعل في
ازمان أشهراً حُرماً يمنع فيها القتال ، ويسود فيها لسلام بأمر السماء ،
وأراد الحق أن يكون هذا السلام القسري فرصة تحبس هؤلاء استعاريين
يفيقون إلى رشدهم ويهتدون للخلاف بينهم ، كذلك خص الله بعض الأماكن
بمحرم القتال فيها ، فإذا التقى الناس في هذه الأماكن كانت هناك فرصة
لتصفية النفوس وإنهاء الخلاف

(١) عن الحسن بن بشير عن النبي ﷺ قال : مثل لقنم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهيموا
على سقية فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا
على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤد من فوقنا - فإن يتركوهم وما أرادوا
فلكم جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نحسوا ونحسوا جميعاً - أخرج البخاري في صحيحه
(٢٤٩٣ ، ٢٦٨٦) وأحمد في مسنده (٢٦٨/٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠) والترمذي في مسنده (٢١٧٣) وقال
حسن صحيح ، وانظر شرح ابن حجر العسقلاني لهذا الحديث في فتح الباري (٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) فيه
كلام قيم جداً

والإنسان في حربه مع أخيه الإنسان يُنهك بيران ونتائج الحرب ، تنهكه دماً ، وتنهكه مالا ، وتنهكه عتاداً ، ويصيب لصعبُ الإنسان نتيجة هذه الإنهاكات متصراً كان أم مهزوماً . ولكنه أمام عزة نفسه في مواجهة حصمه يريد أن يستمر في الحرب حتى لا يظهر أمام الخصم بأنه قد ذل . فيشاء الله برحمته لخلق أن يجعل في الرماح وفي المكان ما يحرم فيه القتال ؛ حتى لا يقال . إن قبيلة ما أو جماعة ما قد أوقعت القتال خوفاً من خصومها ، أو لأن خصومها هم الأقوى ؛ ولكن ليقول الله إنهم أوقفوا الحرب بأمر الله .

وبهذا يحتفظ كل طرف من الأطراف المتحاربة بكرامته ، فيسهل الصلح وتسلم الأرواح والفرس

وكذلك إن لجأ واحد من المتحاربين إلى المكان أو الأماكن التي يحرم الله فيها القتال ، أمن على نفسه ، وفي هذا مع الشر أن يستمر ، وحسن للنفس من المهانة والذلة والانكسار أمام الغير ؛ لذلك أراد الله أن يوضح لنا . أنا خالفكم ، وأنا الرحيم بكم ، وسأجعل لكم من الرماح زمناً أحرم فيه القتال ، وأجعل لكم مكاناً من دخه كان آمناً ، فاستثروا وراء ذلك وكفُّوا عن القتال .

وهذه هي بعض من رحمة الله ، يعطى بها سبحانه للناس فرص الحياة ، وهذا من عطاءات الربوبية ، وعطاء الربوبية من الله هو خلقه جميعاً ، المؤمن منهم والكافر ، والطائع والمعاصي ، وكل نعم انكون من عطاءات ربوبية الله .

إن عطاءات الله سبحانه لا تمرق بين المؤمن والكافر ، فالأرض مثلاً لا يعطى لزراع للطائع وتنبعه عن المعاصي ، والشمس لا تصي و تسقط دفتها وحرارتها للمؤمن دون الكافر ؛ فتعمُ الكون الماديه كلها من عطاء ربوبية الله سبحانه وتعالى لخلقهم .

الأسباب إذن - هي للناس جميعاً ، وبهم أن يتخذوا الأزمان المتواترة لحركة الحياة كما يحسون ، فيسيرون البراعات على أى تقويم ، ويحددون المواسم على حسب ما يقيدهم ، وهم يحددون بذلك مصالحهم المادية التى هى من عطاء الربوبية . ولكن الله رب قيم ، ولذلك فهناك عطاء الربوبية لله فى المنهج الذى أرسن به الرسل لباس فأوضح أبا اختار ازمان الذى أجده مناسباً للقيم والمعانى السامية ، وأختار الأماكن المناسبة للقيم والمعانى السامية .

وأراد الحق برسالة محمد ﷺ أن يشيع اصطفاء المكان و لزمان بكل الزمان والمكان .

والشهور والأزمان عند الله هى اثنا عشر شهراً ، وما دام قد قال ﴿عند الله﴾ ، فهناك "عند" غير الله ؛ وهناك «عند» الناس .

وأوضح سبحانه خلقه : قَدَّرُوا أزمانكم بمصالحكم ، وهذا ما يحدث فى الواقع المعاش . إنك تجد من يروع حسب التقويم القبطى ، حيث تكون شهور الصيف فيه ثابتة ، وكذلك شهور الشتاء والربيع والخريف ؛ لأن التقويم القبطى قائم على التقويم الشمسى .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد للقيم أزماناً محصورة ؛ لذلك قال : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وأوضح سبحانه . لا تجعلوا زمن لقيم كالأزمان التى تجعلونها لمصالحكم .

وأراد الله سبحانه أن تعم القيم كل الرمن ، ولا تكون مقصورة على أزمان معينة ، ولذلك اختار سبحانه أزماناً للصلاة مثلاً ، فصلاة الصبح لها وقت ، وصلاة الظهر لها وقت ، والعصر لها وقت ، والغروب لها وقت ، والعشاء لها وقت . ولكن أوقات الصلاة رغم أنها محددة هى تشمل

الزمن كله : فالصلاة تقام مثلاً في أسوان ، وبعد دقائق في الأقصر ، وبعد دقائق في القاهرة ، وبعد دقائق في الإسكندرية ، ثم تتدرج إلى دول أوروبا ، وهكذا . فكانها لا تتوقف عند فترة معينة ، بل هي مستمرة حسب اختلاف الأوقات في الدول المختلفة ، فصلاة الفجر - على سبيل المثال - من شروق الشمس . والشمس تشرق في كل دقيقة على بقعة محدثة من الأرض فكان الصلاة قائمة على سطح الأرض بل أكثر من ذلك نجد أنها في الوقت الذي يصلي فيه نحن الظهر ، قد يصلي عبرنا العصر في شمال أوروبا ، والمغرب في أمريكا ، والعشاء في كندا مثلاً ، وكان الصلاة تقام في كل وقت على ظهر الأرض ، ذلك لأن انكون كله مُبَاحٌ لله .

وبأتى بعد ذلك إلى اختبار الله ليوم وقفة عرفات ، ولشهر الصوم وغير ذلك من الأوقات ، فشهر رمضان يأتي مرة في الصيف ، كما يأتي في الشتاء وفي الربيع ، وفي الخريف كذلك الحج يأتي في فصول السنة المختلفة . وهكذا شاء عدل الله أن تكون الأيام المفضلة عنده مُوزَّعة على الزمن كله . وجعل الحق سبحانه وحدة الزمن هي اليوم ، واليوم يتكون من الليل والنهار ، والأيام وحدتها اشهر ، والشهور وحدتها العام ، وجعل من مهمة الشمس أن تحدد لي اليوم ، ومن مهمة القمر أن يحدد لي لشهر ؛ فهو في أول الشهر هلال ، ثم تربيع أول وتربيع ثانٍ فبدر إلى آخره . إذن فالقمر هو الذي يحدد بداية اشهر ونهايته .

ولقد حدد الحق سبحانه شهور العام ، فقال :

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وقال : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾

ولكن لماذا لم يجعل الحق كل الأشهر سلاماً ؟ نقول . إن الحق في تشريعه أراد أن يسود السلام ، ولكن لحرب أبصاراً قد نكون سبباً لتحقيق

السلام ، فليس كل إنسان أو مجتمع يسير على الجادة ، فمن الممكن أن تحرح جماعة عن الجادة ، ولهذا لا بد من قتال تلك الجماعة ، ولا بد كذلك من وقفة لمحير أمام الشر ، وما دام الإنسان له اختيار ؛ فقد يسير في اختياره إلى ناحية السوء ؛ لذلك لا بد أن يضرب المجتمع على يد المسمى ، وإذا ما احتارت دولة قتال دولة أخرى اعتداءً ، فالحرب ضرورة للدفاع . وكذلك لو أن الحق قد جعل العام كله أياماً حُرماً لأدل الكفار واشركون المؤمنين ؛ لأن الكفار والمشركين سيعصون الله ويحاربون ، والمؤمنون ملتزمون بأمر الله ، فكان الله قد فرص العبودية على المؤمن به . وأعطي السيادة لمحير المؤمن . ثم إن قوى الخير والشر تصارع في هذا الكون ، وهوى الحق والباطل تنقاتل ، ولا بد من وقفة للحق أمام الباطل ، ولذلك أباح الحق في الأشهر الحرم القتال ، حتى إذا استشرى الباطل تصدى له الحق بالقوة ، ولذلك قال شوقي

الحربُ هي حقٌ لديك شريعةٌ

وَمِنْ نَسْمُومِ النَّاقَعَاتِ دَوَاءٌ

إذن : فقد شاء الله أن يوجد من يقوم الباطل ، وضمن للحق أن يحارب الباطل ويواجهه ؛ لذلك لم يشرع بتحريم القتال في العام كله ولكنه شرع هذا التحريم فقط أربعة أشهر يذوق الناس فيها حلاوة اسلام ويتوقف فيها القتال وتتاح الفرصة للصالح .

ولقد أوجد سبحانه في لكون سنة ، هي أنه إذا ما التقى حق وباطل في المعركة فالباطل ينهزم في وقت قصير . وإن رأيت معركة تطول بسوات طويلة فاعرف أنها بين باطل وباطل ، وإذا قامت الحرب بين باطل وباطل فإن السماء لا تتدخل ، وأما إذا قامت معركة بين حق وباطل فإن السماء تنصر الحق على الباطل . ولا تقوم معركة بين حق وأدأ ؛ لأن الحق

في الدنيا كلها واحد ، فلا يوجد حقان ، بل حق وباطل ، وإن وجد الصراع فإنه لا يطول بينهما ؛ لأن الباطل وهو بطبيعته ، وإن وجدت حرب بين باطلين ، فالسماة توضح لنا أنه لا يوجد باطل منهما أوبى بأن يتصره الله على الآخر ؛ بل بترك سبحانه هذا لصراع لأسبابهم ؛ مما يطيل أمد الحرب

وحين شرع الله الأشهر الحرم ، ضمن للناس مطلوبات السلام الدائم ؛ لأن الناس تهكهم الحرب ويحبون أن يرتاحوا منها ، فإذا جاءت الأشهر الحرم كانت فرصة للناس ليقعوا الحرب ، دون أن يشعر أحدهم بالذل والهوان والهزيمة. ونحن بلجأ إلى ذلك أحياناً ، فإذا كنا في بيت يسكنه عدد من الناس - كم يحدث في الريف - وسُرق شيء ثمين من هذا البيت ، والسارق من لسكان ومريد منه أن يعيده دون أن يكشف أمره هم يحددون مكاناً معيناً ، وكل واحد من سكان البيت يأتي ليلاً ويضع حفنة من التراب في هذا المكان ، لعل السارق يضع ما سرقه بين حفنة التراب ، وهو بذلك يأخذ فرصة من مجتمعه الصغير ليعيد ما سرقه دون أن يعرفه أحد ، وفي هذا ستر له فلا يفضح أمام الناس

والأشهر الحرم فرصة للسلام دون أن يفضح أحد من الأطراف المتحاربة أمام الناس بأنه ضعيف أو غير قادر على الاستمرار في الحرب ، وتتوقف خلالها الحرب وقد ستر الله كل أطرافها ، وتقوى خلالها فرص أكثر للسلام واصلاح ، وبذلك تكون فرص اسلام أكبر من فرص الحرب بكثير .

ولكن ماذا يحدث عندما يعتدى عصاة غير مطيعين لله على المؤمنين في الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها ؟ إن الحق سبحانه لا يعنى تشريعاته أبداً أن تكون مصدر إذلال للمؤمنين وإعزاز للكافرين ؛ ولذلك ينبهنا إلى أننا يجب ألا نسمح لأعداء الله بأن يستغلوا حرمة الأشهر الحرم ليتدبروا

في العدوان على المؤمنين ، فأباح للمؤمنين القتال في هذه الأشهر إذا قاتلهم الكفار فيها ، وكذلك في الأماكن المحرمة فيها القتال ، فقال :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فَأْتِي فِيهِ كَثِيرٌ ... (٢١٧)﴾

[البقرة]

وهكذا أباح الله القتال في الشهر الحرام ليدافع المؤمنون فيه عن أنفسهم إذا بدأهم الكفار بالقتال ، وأباح الحق سبحانه أيضاً القتال في المسجد الحرام إذا قام الكفار بقتل المؤمنين فيه ، رغم أننا نعلم أن تحريم القتال في المسجد الحرام هو تحريم دائم ، ولكن الحق سبحانه وضع استثناء فقال :

﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ

فَاغْلِبُواهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢١٨)﴾

[البقرة]

وهكذا جاء التفنين الإلهي ليحمي المؤمنين من طغيان الكافرين ، فالمؤمنون يلتزمون بعدم القتال في الأشهر الحرم كما أمر الله ، بشرط التزام الطرف الآخر الذي يقاتلهم ، فإن لم يلتزم الكفار بهذا التحريم ، فسبحانه لا يترك المؤمنين للهزيمة ، وهكذا شاء الحق أن يضع التشريعات المناسبة لهذا الموقف . فإن احترمها الطرفان كان بها ، أما إن حالها الكفار فقد سمح الله للمؤمنين بالقتال .

وهنا يقول سبحانه .

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ والكتاب يطلق على الشيء المكتوب المدون ، ولا يُدَوَّن الكلام إلا إذا كانت له أهمية ما ، أما الأحاديث التي تسم بين الناس فهم لا يكتبونها ولا تُدَوَّن . بينما الكلام المهم وحده هو الذي يكتب حتى يكون حجة في الاستشهاد به في حالة وجود خلاف .

ولكن أين ﴿كتاب الله﴾ الذي كُتِبَ فيه هذا ؟

إنه اللوح المحفوظ عند الله ، والمهيمن على كل الكتب التي نزلت في موكب الرسل ، ويقصد بالكتاب - أيضاً - القرآن الكريم الذي نزلت فيه هذه الآية ، وقد جاء القرآن جامعاً لمنهج الله بدءاً بآدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . وتعتبر في القرآن كثير من الأحكام الموجودة في الرسالات السابقة ، أما العقائد فهي واحدة . كما أن القرآن قد تضمن الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت نزوله ، والمثال هو قوله الحق :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ...﴾ (١٨٩) ﴿البقرة﴾

وأيضاً يقول الحق سبحانه

﴿هو الذي جعل الشمس صياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد

السنين والحساب ...﴾ (٥٠) ﴿يونس﴾

فكانه ربط السنين والحساب بالقمر ، وهذا الحساب هو من ضمن عجازات الأداء البتاني في القرآن ؛ لأن ابعالم قد بحث عن أدق حساب للزمن ، فلم يجد أدق من حساب القمر ، وكل الأحياء المائية تعتمد في حسابها على الحساب القمري ، والله سبحانه يريد ما حين نقرأ كتاباً أن نتمعن في وضح الألفاظ في موضعها فيقول سبحانه

﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض﴾ وبعد ذلك يأتي بامتناء هو : ﴿منها﴾ أي من الاثني عشر شهراً ﴿أربعة حرم﴾ ذلك الذين القيم فلا تظلموا فيهم أنفسكم ﴿ ، ولتأمل أن يقول : لماذا لم يقل الله : " فيها " بدلاً من ﴿ فيهم ﴾ ما دام قد قال من قل : ﴿منها أربعة حرم﴾ ؟

ويقول: إن الحق يهوى عن الظلم العم في كل الشهور ، وإن كان
المقصود الأشهر الحرم الأربعة ، فالمقصود الهوى عن ظلم الحرب . وهى
قاعدة لغوية يجب أن ننتفت إليها ، وعندنا فى اللغة جمع قلة وجمع
كثرة . جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، ويحتلظ الأمر على بعض الناس
فى مسأله جمع القلة وجمع الكثرة ، وجمع الكبير وجمع الصحيح .
فجمع القلة وجمع الكثرة ، غير جمع التكسير . والجمع الصحيح ؛ لأن
انكسار هو أن تكسر بنية الكلمة ، فمثلاً بيت جمعها بيوت ، ورسول
جمعها رسل ؛ هما كسرت بية الكلمة أى غيرتها.

أما إن قلت " مسلم " فجمعها " مسلمون " ، وهى تصيف " وأو " و
" يونأ " ، ولكن كلمة " مسلم " صحيحة ، أى أننا لم نكسر المفرد . ولكن
إن قلت : " سفينة " وجمعها " سفن " تكون قد كسرت المفرد .

وقول الحق هـ : ﴿ إِن أَعَدَّ الشُّهُورَ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾
فما دام العدد هو اثنا عشر شهراً تكون قد زادت عن جمع القلة ؛ لأن جمع
القلة من ثلاثة إلى عشرة ، وجمع القلة يعاملونه معاملة جماعة . وإن رد
على عشرة يعاملونه معاملة المفرد المؤنث ، مثل وضع الشهور الأربعة
المحرمة فى كتاب الله ، ولذلك قال ﴿ فَلَا تَقْظَمُوا فِيهَا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وجاء
هـ بـ "نون السوء" للجمع . والقاعدة - كما قلنا - إن جمع القلة يعامل
معاملة الجماعة ، فإن كان جمع كثرة عوض معاملة لمفرد المؤنث . لأن
الفرد يكون معصوماً بالجماعة ، أى أنه مفردة ضعيف . فإن وجد جماعة
يتمى إليها فهو يُحسن بالقوة.

إذن - فالعقد يعصم بالجماعة ، وبهذا تعامل الجماعة كلها كهيئة
واحدة ، وهى شاعر يستهزئ بقوة جماعة ما ، فيقول :

لَا أُنَالِي بِحَمْعِهِمْ فَجَمَّ عَنْهُمْ كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثٍ

إذن فكل جمع يكون مؤنثاً ، وهذا ما ينطق على قوله سبحانه وتعالى هنا: ﴿ فَلَا تَظْلُمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، وأكرر ، إن أردت الظلم لعدم إيمان الله قد حرم الظلم في كل شهور السنة ، سواء ظلمت لنفسك أم ظلمت للناس ، وإن أردت من معنى الكلام تحريم الحرب في الأشهر لحرم تكون ﴿ فَلَا تَظْلُمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قد أتت بالمؤنث .

ومعنى قوله ﴿ فَلَا تَظْلُمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ي: إياكم أن نظنوا أن مجالسكم منهج الله يحدث منها شيء يضر الحق سبحانه ، فكل ما يحدث من ظلمكم لأنفسكم هو أن تصروا أنفسكم أو غيركم ، لكن من يضر أحدكم الله ، لأن سمات الله في الكون لا تتأثر أطاع الخلق أم عصوا ولذلك فإن اتباع منهج الله هو أمر لصالح الناس ، لصالح نحن ، فانصرافنا عن المنهج لا يضر الله سبحانه شيئاً ولكن يضرنا نحن ، فكل ما أمره الله من قيم هو لصالحاً حربياً وسلاماً ، وتحريماً وتحليلاً .

ولكن لماذا خص الحق سبحانه الشمس بحساب اليوم ، والقمر بحساب الشهر ؟ وأقول لأن الله سبحانه يريد أن يوزع الفضل على كل ازمن ، وأن ييسر على الناس أداء مناسكه وما يكلفهم به . فلو حسبت اشهور بالشمس لكان ميعاد الحج كل عام في أشهر الصيف دائماً ، ومن يعيش مثلاً في بلاد بارده إن ذهب إلى الحج صيفاً يتعرض لأخطار شديدة ، فكأنه ليس هناك عدل بين الذين يعيشون في مناطق باردة ، والذين يعيشون في مناطق حارة في أداء مناسك الحج ، فلو كان ميعاد الحج هو الصيف دائماً ، فسوف يؤديه الدين يعيشون في المناطق الحارة بسهولة ، بينما يؤديه من يحيا في المناطق الباردة بصعوبة . ولتدوم عدل الله بين خلقه بعباده سبحانه قد أدار الأشهر القمرية في لسنة الميلادية ، فلا يأتي الحج أبداً في طقس واحد ، وبذلك تستوى كل البيئات وكل الناس في أحكام الله .

وأبضا صوم رمضان لو كان يأتي في الصيف دائماً ، لوجدنا بعض الناس سيصومون ثمانى أو تسع ساعات ، والذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون عشرين ساعة في اليوم ، ولكن مجيء رمضان في فصول السنة كلها يجعل أولئك الذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون مرة تسع عشرة ساعة مثلاً ، ومرة ساعين أو ثلاثاً ، وهذه تعوض تلك ، ويتم العدل ، وإذا أخذنا متوسط ساعات الصيام بالنسبة لهؤلاء الناس على مدار السنة ، نجد أن فترات صومهم فترة تسع عشرة ساعة وفترات ثلاث ساعات ، وبذلك يتساوون في المتوسط مع أولئك الذين يصومون ثمانى أو تسع ساعات يومياً

ونجد بالحساب أن تقويم الهلال ينقص عن تقويم الشمس بمقدار أحد عشر يوماً وثلاث يوم كل عام ، ويكون الفرق عاماً كاملاً كل ثلاث وثلاثين سنة وثلاث العم ، أى أن رمضان يأتي مرة في يناير ومرة في فبراير ومرة في مارس ، وكذلك الحج ، وبذلك تتكافأ الفرص بين المؤمنين جميعاً ، فالذين يصومون في الصيف المعروف بيومه الطويل ، يصومون في الشتاء ويومه قصير والذين يعانون من الصوم في حرارة الجو ، يصومون أيضاً في برد الشتاء ، وهكذا يدور رمضان والحج في شهور العام كله ، وبذلك يتم عدل الله على الجميع بالتشريع الحق ، ويدور التكليف مشقة ويسراً وصعوبة وسهولة على جميع المؤمنين

وإذا نظرنا إلى ربط اليوم بالشمس نجد أن الحق سبحانه وتعالى الذي ربط أوقات الصلاة بالشمس ، كفل لها الدوام التكليفى ، لماذا ؟

لأن القمر براه أياماً ، ولكنا لا نراه في أيام الحاق ، فلو ربطنا الصلاة بالقمر لصاع ما الدوام ، مضافاً إلى ذلك أن القمر يظهر لنا في أوقات غير متساوية ، فعندما يكون هلالاً لا يظهر للمعين في الأفق إلا دقائق معدودة ،

ولكن الشمس تشرق كل يوم في وقت محدد، وتغرب كل يوم في وقت محدد، وهي بصورتها ظاهرة للباس كل الناس من الشروق إلى الغروب، فلا يجدون مشقة في رؤيتها. ولذلك فربطُ الصلاة بالشمس فيه يُسر التكليف ودومه، وكما قال رسول الله ﷺ: " الصلاة عماد الدين، من أقامها أقام الدين" ^(١) وهي الركن الوحيد من أركان الإسلام الذي لا يسقط أبداً؛ لأن الفقير تسقط عنه الزكاة، والمريض يسقط عنه الصوم، وغير المستطيع يسقط عنه الحج، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفي أن يقال مرة واحدة في العمر، ولكن إقامة الصلاة لا تسقط أبداً. إذن فهي عماد الدين، ولذلك تتكرر خمس مرات يومياً لكل أهل الأرض، فالصبح في دولة قد يكون ظهراً في دولة ثانية، وعصرًا في دولة ثالثة ومغرباً في دولة رابعة وعشاء في دولة خامسة. وذلك بسبب فروق التوقيت بين دول لعالم، وهكذا تكون في كل لحظة من الزمن جميع أوقات الصلاة قائمة على الأرض، فيظل الله سبحانه وتعالى معبوداً بالصلاة في كل الزمن في كل بقاع لأرض. وهكذا يرتفع الأذان: الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله في كل لحظة على الأرض.

قد نجد رجلاً أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة، لكن له شراقات بورانية، أفاض الله عليه يقول: يا زمن وفيك كل الزمن، أي يا حجر وفيك كل أوقات الصلاة على سطح الأرض. ولذلك فظاهر الأمر أن الصلوات خمس، والحقيقة أن الصلاة دائمة على وجه الأرض في كل

(١) حديث ضعيف قال المصنف في كتاب الخفاء (٢/ ٣٩) رواه البيهقي عن الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر بن الخطاب قال: قال الحارثي في تحريم أحاديث الإخبار (١/ ١٤٧) قال الحارثي عكرمة لم يسمع من عمر قال: رواه ابن عمر لم يلق عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسائط: به غير معروف، وقال لنووي في التقييد: مبكر، ظل ورد ابن حجر في التقييد (١/ ١٧٢) وليس كذلك. بن رواه أبو معمر شيخ البخاري في كتاب الصلاة بلفظ: " الصلاة عبادة الدين" وهو مرسل رجاله ثقات

ثانية ، ولا يوجد جزء من الرمز إلا والله معبود فيه بعبادات كل الرمز ،
أى أنه فى كل لحظة تمر بحمد الله معبوداً بالصدوات الخمس على ظهر
الأرض . وهذا سبب ربط الصلاة بالشمس

وإذا عرفنا هذه الحقيقة ، وعلمنا أن الكون كله يصبى لله فى كل لحظة
من الرمز ، فلماذا يعلم أن القرآن يتسع لأشياء كثيرة ، وأن كل حيل يأخذ
من القرآن على قدر عمله ، فإذا ارتقى الحفل أعطى القرآن عطفاً حديداً .
وهذا ما يؤكد أن آيات القرآن يتسع إدراكها فى الدهر كلما مر الرمز ،
فتسبه إلى معان جديدة لم نكن ندركها .

وعندما يأتى المستشرقون ليقولوا : إن فى القرآن تناقضاً فى الكونيات
نقول لهم مستحيل .

يقولون : لقد جاء فى القرآن

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) [الشعراء]

ويقول :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (١٧) [الرحمن]

ويقول :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٢١) [الماعرج]

وبين هذه الآيات تناقض ظاهر .

ونرد : إن التقدم العلمى جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات ، فكل
مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، هذه هى اسطرة العامة ، إذن
فقلوه تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ صحيح ، ثم عرفنا أن لشمس

حين شرق عدى ، غرب عد قوم آخرين ، وحين غرب عدى شرق عد قوم آخرين . دن فمع كل مشرق مغرب ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرق ومغربان . ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر . وفي كل ثانيه هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم من بوب المشارق والمغارب ؛ لأن المشارق والمغرب مخلفة على مدار السنة .

وإذا سأل أحدهم : لماذا تخصصون القمر لحساب الرمن وتخصصون الشمس لحساب ليوم ؟ يقول : إن الشمس مرتبطة بعلامة يومية ظاهرة وهي النهار ، واحتفاؤها عند مرتبط بعلامة يومية ظاهرة وهي الليل . ولكن القمر غير مرتبط بعلامة يومية ، صحيح أن القمر موجود دائماً ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يتركه أو يراه إلا في أوقات محددة

بعض الناس يقول : إذا كان المقصود بهذه الآية - لشي نحن بصداد غواطرنا عنها - هو بيان الأشهر لأربعة الحرم ، مما مائدة بقى أشهر السنة ؟

ونقول : إنك ن تستطيع أن تحدد الأشهر الحرم . لا من خلال بيان وتوصيح أمر السنة ومعرفة عدد أشهرها ، وهذا أمر ضرورى أيضاً حتى تستطيع أن تحدد الأشهر الأربعة الحرم في العام . وإلا كيف يمكن أن نغير هذه الأشهر وزمنها ؟ لا بد لنا إذن من أن نعلم أن هناك عاماً ، وأن العام هو اثنا عشر شهراً لنستطيع أن نحدد الأشهر الحرم والأشهر الحرم منها ثلاثة متتبعة وشهر فرد ، والأشهر المتتبعة هي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر رجب هو لشهر الفرد . وتحديد الحق لهذه الأشهر الأربعة يعنى أنها تتميز بخصوصيات ، لأن الحق سبحانه وتعالى لو أراد أن تكون هذه أشهر في أى وقت من السنة لتركها لنا لتحدها بمعرفةنا فحتم

أى أربعة أشهر على هوان ، لستمع فيها عن القتال ، ولكن كون الله تبارك وتعالى حددها بذلك لخصوصيات فيها . جاء البعض وقال ما دام سبحانه وتعالى قد جعل الشهور اثني عشر شهراً وجعل منها أربعة حراماً ، ونحن نريد أن نحارب في شهر المحرم فلنفعل ذلك ونجتنب عن القتال في شهر آخر غيره ، وبذلك نكون قد حافظنا على عدة الأشهر الحرم وهى أربعة كما حددها الله .

ونقول : إنكم حافظتم على العدد ولم تحافظوا على المعدود . ولو أن رسول الله ﷺ لم يبين الأربعة الأشهر المقصودة بالآية الكريمة من الاثني عشر شهراً ، لأصبح من حق كل جماعة أن تختار ما تريده من أشهر السنة ، ولكه ﷺ خصصها : لأنها علما بذلك كيف نحافظ على الفرق بين العدد والمعدود .

إن مسألة العدد والمعدود حلت لنا إشكالات كثيرة ، منها إشكالات أثارها المستشرقون الذين يريدون أن يسيثوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن الزواج كان مطلقاً عند العرب ، ثم حدد الله سبحانه وتعالى عدد الزوجات بأربع ، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام الدين كانوا قد تزوجوا بأكثر من أربع زوجات أن يمسك الواحد منهم أربعاً ويفارق الباقيات^(١) ، وأضاف استشرقون نساءً : إذا كان الرسول قد شرع للناس ، فماذا لم يطبق هذا الأمر على نفسه . ولماذا اتحد تسع زوجات ؟

ونقول : إننا إذا قمنا بعملية حساسة منصفة ، لوجدنا أنها ليست توسعه لرسول الله ﷺ وإنما هى تضييق عليه ، فأنت حين تأخذها من ناحية العدد فقط تقول : إن رسول الله ﷺ أخذ تسع زوجات وأمه أخذت أربعاً ، ولكنك لم تلاحظ مع العدد المعدود ، أى أنه إذا ماتت زوجاتك لأربع

(١) هو ابن عمر فاك . اسم غيلان بن مسلمة التميمي وعنده خمس نسوة ، يقال به النبي ﷺ . أخذ منهن أربعاً . أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٢) ، وابن ماجه (١٩٥٣) ، والدارقطني في مسنده (٢٦٩/٣) . أما نعت لأمسك والمعارفة فقد ورد في حديث لابن عباس أخرجه الدارقطني (٢٦٩/٣) . وفيه الواقدي وهو من علي بن أبي طالب

أحلت لك أربع أحرىات ، وإن ماتت واحدة أحلت لك أخرى ، إذن فأنت - كمسلم - عندك عدد لا محدود ، بحيث إذا خلقت واحدة أو اثنتين حلَّت لك روحه أو زوجتان أخريان ، فأنت مُقيّد بالعدد ، ولكن المعدود أنت حُرٌّ فيه أما رسول الله ﷺ فقد نزلت فيه هذه الآية الكريمة :

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدِّلَ بَيْنَهُمْ مِنْ أَزْوَاجٍ وَكُنَ أَعْيُنُكَ حَسَنَةً ... ﴾ (٥٦)

[الأحرار]

وهكذا نجد أن التشريع هُيئَ على رسول الله ﷺ في المعدود . وكان استثنائه عليه الصلاة والسلام في العدد للتشريع ، فقد كان الرسول ﷺ يتزوج بإرادة التشريع التي يشاؤها الله .

وسبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خراطم عنها : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وعرفنا أن قوله سبحانه : ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ معناها اللوح المحفوظ أو القرآن ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ معناه : أنها مسألة لم تطرأ على الكون ، ولكنها محسوبة من قبل أن يُخلق الإنسان . فهي إذن مسألة من النظام الكونى الذى خلق عليه الكون . وهو سبحانه قد خسق الكون بدقة وإحكام ، فكأن الحق يريد أن يلفسنا إلى أن من مهام الشمس والقمر أن يكونا حساباً للزمن : ليوم والشهر والعام ، ولذلك يقول سبحانه .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (٥)

[الرحمن]

ي : أنهما خُفِّقَا بحساب دقيق ، ويقول سبحانه :

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام ٩٦]

أي : أنه سبحانه يظالبنا بأن نستخدم الشمس والقمر حساباً لنا . وهذا يتفق مع منطق الأمور ، فالشيء الذي تريد أن تتجده حساباً لك ، لابد أن يكون مصنوعاً بحساب دقيق . ولذلك فإن الساعة مثلاً إن لم تكن مصنوعة بدقة فإنها لا تصلح قياساً للوقت ؛ لأنها تقدم أو تؤخر . ولكن إن كانت مصنوعة بحساب دقيق فهي تعطيك الزمن لدقيق . إذن - فدقة قياس الزمن تعتمد أساساً على دقة صناعة آلات القياس .

وقيل أن يُزَلَّ الحق هذه الآية لئى نحن بصدد خواطرها عنها ، كان العرب يعترفون بالأشهر لأربعة الحرم ، ولكنهم كانوا يعيرون في مواعييدها ، فكانت الجماعة مهم تقاتل الأخرى ، فإذا ما أحسوا بقرب انتصارهم وجاءت الأشهر الحرم قالوا - نستدس شهراً شهراً ، أى نقاتل فى الشهر الحرم ، ثم بأحد شهر آخر نمتنع عن القتال فيه ، وحسبوا أنهم ماداموا قد حافظوا على العهد يكونون بذلك قد أدوا مطلوبات الله ، ولكنهم نسوا أنهم لم يحافظوا على الميعود ، ونسوا أن الدين مجموعة من القيم التى لابد أن يؤمن بها ويطبقها .

والإيمان - كما تعلم - هو انقياد وسليم لله سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بأمر من الأمور فلا اختيار لنا فيه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة ، وهنا يجب أن يقف الاختيار الشرى ، بمعنى أنه لا أحد يملك تعديل مرادات الله بأى شكل من الأشكال ؛ لأننا فى حياتنا اليومية حين نرى واحداً من البشر قد اشتهر بحكمته وعلمه فى أمر من الأمور أكثر منا ، نقول له : وكلّناك فى هذا الأمر ، وسسير وراءك فيما تقرره . ومعنى هذا أننا مسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكم .

إن لا يعطى أحداً هذه الصلاحية إلا إذا تأكدنا بالتجربة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم في تصرفه

وإن سألك أحد من الناس : لماذا تتصرف في ضوء ما يقوله لك فلان ؟ فتقول : إنه حكيم وخبير في هذه المسائل ، وهذا دليل منك على أنك واثق في علمه ، وواثق في صدقه ، وواثق في حكمته

والمثال الحي المتجدد أمام هو سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عندما قيل له : إن رسول الله ﷺ أعلى أنه نبي الله ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قد قال فقد صدق . قال أبو بكر رضى الله عنه هذا القول ؛ لأنه عرف ولمس أن رسول الله ﷺ لم يكذب قط في كل الأحداث السابقة ، وإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يكذب على أهل الأرض أيكذب على السماء ؟ ^(١) طبعاً هذا غير معقول

وأنت لا تسلم زمام أمرك للمساوى لك ، لا إذا كانت هناك مقدمات أثبت أنه أعلى منك في ناحية معينة ، صحيح أنه مساويك في انفرادية وفي الذاتية ، ولكنه أعلى منك عندما في المجال الذي يتفوق فيه . فما يقوله تنمده بلا نقاش لأنك وثقت في علمه . وأنت إذا مرضت - لا قدر الله - وكان هناك طبيب تشق في علمه وقال لك : خذ هذا الدواء ؛ أنتاقشه أو نجادله ؟ طبعاً لا ، بل تفعل ما يأمرك به بلا نقاش . فإذا سألك أحدهم : لماذا تناول هذا الدواء ؟ تقول : لقد كتبني الطبيب الذي أثق فيه وهذا يكفي كحجية للتنصّد.

(١) جاء هذا فيما وقعت عليه خاصاً بحديث الأسراء ، وقد سبق تحريره ، وهو حديث عائشة قالت : لما أسرى بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس من كانوا أسوا به وصدقوه وصبروا بذلك إلى أبي بكر فأتوا من لك إلى ما حدث يرغم أنه أسرى به النبي إلى بيت المقدس حال . أو كان ذلك ؟ قالوا نعم قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا أو تصدقه أنه ذهب النبي إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم لم لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بغير السماء في غدوة أو روحة . فلفلك سمي أبو بكر الصديق أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٦٦) وصححه وأمره الذهبي

فإذا جئنا إلى الله سبحانه الذي أعد لنا هذا الكون وأنزل إلينا مهجاً وطالبنا أن نُسلم له وجوهاً ، وأن نفعل ما يأمرنا به في كل أمور الحياة ، فإن احتجنا إلى حكمة فهو الحكيم وحده ، وإن احتجنا إلى قدرة فهو القادر دائماً ، وإذا احتجنا إلى قهر فهو القاهر فوق عباده ، وإن احتجنا إلى رزق فهو الرزاق ، وعنده كنوز السموات والأرض أيوجد من هو أحق من الحق سبحانه لنُسلمَ زمامنا له وبمعنى ما يأمرنا به ؟ طبعاً لا يوجد ، وإذا سألنا أحد : لماذا نتبع هذا المهج ؟ يقول : إنه سبحانه قد أمرنا باتباعه وهذا هو الإسلام الحقيقي ؛ أن تسلم اختيارك في الحياة لمرادات الخالق الأعلى ، فالدين معناه الالتزام والانقياد لله ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي قِيم على كل أمور حياتنا ، وللدليل على ذلك قائم فيما تحدثنا عنه ، فعادى الله سبحانه وتعالى قد قال ، فحين يفعل . إذن ، فالدين قَسَمٌ عينا . والدين قِيمٌ أيضاً على غيره من لرسالات السماوية ، أي مُهَيِّمٌ عليها ، وفي هذا يقول الحق :

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ لِكِتَابٍ بِالْحَقِّ مَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا

عَلَيْهِ ...﴾ (٤٨) [لعائده]

حددت الآية - التي نحن بصدد خواطرها عنها - أشهراً حُرماً يحرم فيها القتال وحدت من الظلم بالحرب أو غيرها ، وقد يقال : إن معنى هذا أن تضعف حمية الحرب عند من يريد الحرب ضد الباطل ، فتري الباطل أمامنا خلال الأشهر الحرم ولا نحارب .

يقول : إن هذا غير صحيح ، ففترة السلام هذه تكون شَحْداً لهم المقاتلين ضد الكفر والظلم ؛ لأنك قد ترى الباطل أمامك لكك تمثّل لأمر الله في وقف القتال ، فإن ذلك يزيد الانفعال الذي يحدثه الباطل في تحديه

مع الكفار ضد المسلمين ، فكما أن الباطل يحتج مع بعضه البعض فاجتمعوا أنتم أيها المؤمنون وأصحاب الحق قوتكم لتواجهوا باطل الكفر والشرك .

ويقول الإمام على كرم الله وجهه . « أعجب كل العجب من تصاهر الناس على باطلهم وفشلهم عن حقهم »^(١) ويتعجب الإمام على رضي الله عنه من أن أهل الحق يضطرون في حقهم رغم اجتماع أهل الباطل على باطلهم ويعطينا القرآن صورة من تجمع أهل الباطل في قول اليهود لكفار مكة :

﴿ هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الْدِينِ آمَنُوا سِيلًا ... ﴾ (٥١) [النساء]

أي أن اليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله ﷺ وأناسه^(٢) ، قالوا ذلك رغم أن كتبهم قد ذكرت لهم أن رسول الله ﷺ سيأتي بالدين الخاتم حتى إنهم كانوا يقولون لأهل المدينة من المشركين : لهد أهل زمان بني ستمه ويقتلكم به قتل عاد وإرم . كذلك في كتب أهل الكتاب بآ رسول الله ﷺ وأوصافه ورماته . وعندما تحقق ما في كتبهم كبروا به واجتمعوا مع أهل الباطل

وهنا يوضح لنا الحق . ما دام الباطل قد اجتمع عليكم وأنتم على الحق فلا بد أن تجتمعوا على دحض الباطل وإزهاقه ؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

(١) من حطبه حطها الإمام علي عندما أعار سفيان بن عوف الأزدى على الأبيات ، فقام على المنبر ، فقال : « يا عجب من جد هؤلاء أقوم في باطلهم ، وهمسكم في حقكم ، فبعضاكم ويرحأ حين صدقتم خلف يرمي ، وحيث يستهد ، يعاد عليكم ولا تعبرون ، وتغرون ولا تعرفون ، وبعضكم الله وترعون » انظر حطت كتابها في كتاب « حط يوم اليمامة » يتحقق في شرح دار الروضة القادرة (٢) وذلك أن كتب بن الأشرف خرج في صحبة رافض من اليهود إلى مكة بعد دعوة أحد ليواجهوا فريسا على قتل رسول الله ﷺ ، فترد كتب على أبي سفيان فأحسن مشواه ، ونزلت اليهود في دور فريش لتعادوا ، ومعهما علي بن قتال محمد فقال أبو سفيان لك امرؤ نمرأ الكتاب ، يعلم ، ويعني أيول لا يعلم ، فهنا هدى سبيلا رافض إلى الحق من أم محمد لا فقال كتب أنتم . الله الهدى سبيلا في عليه محمد ، ذكره القرطبي في تفسير الآية ٥١ من سورة نساء

﴿وَقَالُوا الْمَشْرِكِينَ كَأْفَؤُا كَمَا يُقَابِلُونَكُمْ كَأْفَؤُا وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
 دد : والله بأمر المؤمنين بأن يجتمعوا على قتال الكافرين ، ولأن الله مع
 الذين مو ، بذلك فهو يبصر المؤمنين ، وإذا رُجِدَ الله مع قوم ولم يوجد
 مع آخرين ، فأي أكفسيه أرجح ؟ لا بد من رجحان كفة
 المؤمنين . ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

والعلم - كما قلنا - حكم يقين عليه دليل ، أي لا يحتاج إلى دليل ؛
 لأن العلم هو أن تأتي بقضية غير معلومة ، ثم تقيم الدليل عليها لنصح
 بقساً .

وإذ قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَعَلِمُوا﴾ فالعلم هنا يتقل من علم
 يقين إلى غير يقين . والعلم - كما نعرف - قضية معلومة في النفس
 يؤديها الواقع وتستطيع أن تقيم عليها الدليل . وإذا علمت بشيء أحبرت
 به ، وبقينك بما علمت يكون على قدر ثقتك بمن أخبرك .

والشال - حين قيل لأبي بكر رضى الله عنه : إن رسول الله ﷺ قال إنه
 أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وخرج به إلى السماء
 الساعة ، هنا قال الصديق : إن كان قد قال فقد صدق^(١) ، وكانت هذه هي
 ثقته في القائل ، وهو يستمد منها ثقة فيما قال وروى

وحجما أخبر رسول الله ﷺ سيدتنا خديجة رضى الله عنها بحجر لوحى
 وأدى حوفه بما يرى ، قالت : « كلا والله ما يحريك الله أبداً ، إنك لتصل
 الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الصيف ، وتعين على
 نوائب الحق »^(٢) ، وهي بذلك قد أحدث من المقدمات حبشيات الحكم
 وكانت أول مجتهدة في الإسلام عمت باقيا - فقد قاست الحاضر
 بالمضى .

(١) سبق تخريجه من ٥٠٩ .

(٢) حيث بدء الوحى من عائشة رضى الله عنها أخرجه البخارى في صحيحه (٣) ، ومنه مواضع أخرى

ومسلم في صحيحه (١٦٠) واللفظ لبخارى

- تحمل الكل ، أى تعين على الصعيب واليهم وغير القادر على الإنفاق

- تكسب المعدوم تعطي المعدوم دلاً ، مالاً ، والمعدوم مكارم وأخلاقاً أخلاقاً طيبة

تقري الصيف أى أنت كريم جواد تطعم الصيف طعام القرى

- تعين على نوائب الحق حوادث الخير والشر

وعندما يقول الحق : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيكشفنا أن يكون هذا كلام الله سبحانه ليكون يقيناً في نفوسنا ، وهناك علم يقين يأتيك عن تثق في علمه وصدقه ، وأنت إن رأيت الشيء الذي أخبرت به وشاهدته يصح عين يقين ، فإذا اختبرته وعشت فيه يصح حق يقين ،
وحين قال الحق : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وجدنا بعض المؤمنين قد أخذوها على أنها علم يقين ، أو عين يقين ، أو حق يقين ، لأنهم شاهدوا ذلك في المعارك حين كانوا قلة ، فمن أخذ كلام الله دون مناقشة عقلية - لأن الله هو القائل - أخذ علم يقين ، والذي أخذ الكلام على أنه يصل إلى درجة المشاهدة أخذه على أنه حق يقين ، والذي أخذ الكلام كأنه عابث فهذا عين يقين ، ولكي نعرف هذه المنازل نقرأ قول الحق سبحانه ونعالي :

﴿ أَنهَآكُمْ التَّكَاثُرُ ۚ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ ۝٥ ﴾ [التكاثر]
وهذه أولى الدرجات . علم يقين ، لأنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى :
﴿ تَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ ۚ ۝١ ثُمَّ تَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ ۝٢ ﴾ [التكاثر]

أي . أنكم في الآخرة سوف ترونها بأعينكم بعد أن كنتم مؤمنين بها كعلم يقين ، أما الآن فقد أصبحت عين يقين أي مشاهدة بالعين . وفي هذه السورة أعطانا الحق مرحلتين من مراحل اليقين هما : علم اليقين وعين اليقين ، ففي الآخرة سوف يُصْرَبُ الصراط على جهنم ، ويرى الناس - كل الناس ، المؤمن منهم والكافر - نار جهنم ، وهم يمرون فوق الصراط ، ويرونها مشتملة متأججة ، وحين يمر المؤمن فوق الصراط ويرى جهنم وهولها ، يعرف كيف لجأه الإيمان من هذا العذاب الرهيب فيفرح ؛ فإذا دخل الجنة ورأى نعيمها يرداد فرحه ؛ فله فرحة بأنه نجى من العذاب ،

ومرححة بالعم وبالمعم ، ويقول المؤمن : الحمد لله الذي أنقذني من النار
وهذه نعمة كبيرة وقور عظيم ، ولذلك يقول الحق

﴿لَمَنْ دُخِيَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْحِجَّةَ فَقَدْ قَارَ...﴾ (١٤٥) ﴿[ال عمران]

فالسجاة من النار وحده فصل كبير ، ودحول الحجة فصل أكبر ، والحق
هو لقائن

﴿إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْصُودًا﴾ (١٤٦) ﴿[سريم]

ويرد الشيء أى يصل إليه دون أن يدخل فيه ، ويقال : ورد الماء أى
وصل إلى مكانه دون أن يشرب منه ، إذن فكل منا سوف يرى جهنم ،
ويعرف المؤمن نعمة الله عليه ، لأنه أبعدها منها ، ويدم الكافر ، لأنه يعذب
فيها

وقد صرحت من قبل مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقراءة عن مدينة
نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعرف القارىء أنها مبنية
على عبدة جدد ، ومعها ناطحات سحاب وأنها مزدحمة بالسكان ،
وهذه القراءة هي علم يقين ، فإذا ركب الإنسان الطائرة ورأها من الجو

(١) اختلف الناس في ورود على أقوال

١ - ورود الدحول على حار بن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الورود الدحول»
لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فكتب عن المؤمن برذاً وسلاماً كما كانت علم إمامهم - ثم يحيى الله
الذين اتفروا ويهدى الصالحين فيها جنته - أخرجه الإمام أحمد (٣/٣٢٩) والحاكم في مسنده (١/٤٨٧)
وجمعه وأقره الذهبي

٢ - ورود المور على الصراط ويستدل أصحابه بحديث المور عن الصراط

٣ - ورود ورود يشرف وإطلاق وصوت وذلك أنهم يحسمه روحاً موصح لحسنه وهو يقرب
حهم ، ويرويه ويظرون له في حالة الحساب ثم يحيى الله الذين اتفروا ويهدى الصالحين فيها جنته - أخرجه الإمام أحمد (٣/٣٢٩) والحاكم في مسنده (١/٤٨٧)
الجنة ﴿وَلَوْ وَرَدَ مَدِينَتِي﴾ أى : أشرف عليه لأنه دخله

٤ - ورود المؤمن من النار هو المور الذى نصب المؤمن من دار الدنيا ، وهو حظ المؤمن من النار فلا
يرده

٥ - ورود العنبر إليها من القبر ، فيحيى منها العائر ويصلها من قدر عنده دحولها ، ثم يخرج منها
بالشفاعة أو يصرف من رحمة الله تعالى ، وحشحو بحديث ابن عمر : «مات أحدكم عرس عليه
مقعدته بالعبادة والعشى»

و قد جمع الإمام القرطبي في مسنده (٦/٤٣٠٧) بين هذه الأقوال فقال : «ظاهر الورد والدحول»
لا أنها تكون رذاً وسلاماً يحيى المؤمنين ويجوز منها ما بين ، قال خاله بن معدن : «إذا دخل أهل الجنة
الحنة قالوا : ألم يقل ربنا إننا نرد لدار؟ فقال : لقد وردتوها لأليموها رماً»

يكون ذلك عين يقين ، فإذا ما برز وعاش على أرضها بين باطنحاتها وعائش ، زدحامها بالسكان يكون ذلك حق اليقين .

وفي سورة التكاثر جاء الله سبحانه وتعالى بمرحلتين فقط من مراحل اليقين ، وجاء بالمرحلة الثالثة في سورة الواقعة ، فقال

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٩٨) ﴿ لَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ (٩٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الْمَصَّالِينَ ﴿٣﴾ فَلَوْلَ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٤﴾ وَنَصْلَةٍ جَعِيمٍ ﴿٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٦﴾ [الواقعة]

وحق اليقين هو آخر مراحل العلم ، والإنسان قد يكابر في حقيقة ما حين يقرؤها ، وقد يجادل في حقيقة يشاهدها ، ولكنه لا يستطيع أن يكسر في واقع يعيشه ، وقد حدث ذلك وحملته لنا سطور الكتب عن سيدنا عمر وقد قال عن أحد المعارك : « حينما شہرت سبى لأقصص رأس فلان ؛ وجدت شيئاً سبغني إليه وقصص رأسه » أي هناك من شاهد ذلك بنفسه .

وبعد ذلك يعطى الله الحكم فيس يعبر الأشهر الحرم أو يسألها فيقدمها شهراً ، أو يؤخرها شهراً ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُخَوِّنُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُتَوَاطُّوا عِذَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَجْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧)

(١) لم عقب عن أثر عمر رضي الله عنه هذا ، رغم طول بحث ، ولكن وقع من حديث ابن عمر بن الخطاب قال : « أي لأصح يوم بدر ، جلا من أشهر كبر لأصوبه فوقع أمه من أن يصل إليه سبى » ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٢/١٣٧) وعزاه لابن إسحاق

والنسيء هو التأخير ، فكأنهم إذا ما دخلوا هي قنن وجاء شهر حرم قالوا : نقله إلى شهر قادم ، واستمروا في قتالهم ؛ وهم بذلك قد أحلوا الشهر الذي كان محرماً وجعلوا الشهر الذي لم تكن به حرمة ؛ شهراً حراماً ، وهذا يوضح الحق سبحانه أن هذا العمل ريبة في الكفر ؛ لأنه أدخل في المحل ما ليس به ، وأدخل في المحرم ما ليس به ؛ لأن الكفر هو عدم الإيمان فإذا بدلت وغيّرت في مذهب لإيمان ، فهذا زيادة في الكفر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ و ﴿ يُضِلُّ ﴾ هنا مبيية للمجهول ؛ ومعنى ذلك أن هناك من يقوم بإضلال الذين كفروا ، وهذه مهمة للشيطان ؛ لأن هناك فرقاً بين الضلال والإضلال ، فالضلال في الدات والنفس ، أما الإضلال فيتعلى إلى الغير ، فهناك ضال لا يكتفى بضلال نفسه ، بل يأتي لغيره ويضله ويغويه على المعصية بأن يريتها له . ولذلك هناك جراء على الضلال ، وجزاء أشد على الإضلال ، فإذا كان هناك إنسان ضال فهو في نفسه غير مؤمن ، أي أن ضلاله لم يتجاوز ذاته ، ولم ينتقل إلى غيره . ولكن إذا حاول أن يعري غيره بالضلال والمعصية يكون بذلك قد ضلّ وأضلّ غيره . ويتحد بعض المفسرين هذه القضية مطعماً في القرآن بلا وعى منهم أو فهم فيقولون إن القرآن يقول .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ... ﴾ (١٨)

[فاطر]

ثم يأتي في آية أخرى فيقول .

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ ... ﴾ (١٣)

[المعكوت]

فكيف يقول القرآن . إن أحداً لا يتحمل إلا وزره ، ثم يقول : إن هناك من يتحمل وزره ووزر غيره ؟

ويقول لهم أنتم لم تفهموا المعنى ، فالأول : هو الضَّلُّ الذي يرتكب المعاصي ولكنه لم يُغْرِ بها غيره ، أي : أنه عصي الله ولم يتجاوز المعصية . أما الثاني : فقد ضلَّ وأصل غيره . أي أنه لم يكتفِ بارتكاب المعصية بل أخذ يغري الناس على معصية الله وكلمنا أغري واحداً على المعصية كان عليه نص وزر مرتكب المعصية

وهنا يقول الحق ﴿ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّلُونَ عَمَّا وَيُحَرِّمُونَهُ عَمَّا ﴾ وطبعاً التحليل والتحرير هنا حدث منهم لظنهم أن هذه مصلحتهم ، أي أنهم أخضعوا الأشهر الحرم لشهواتهم الخاصة ، وخرجوا عن مرادات الله في كونه ، يوم خلق السموات والأرض .

ولكن لماذا يُحَلِّلُونَهُ عَمَّا وَيُحَرِّمُونَهُ عَمَّا ؟ تأتي الإحسان من الحق . ﴿ لِيُؤْطِقُوا عِبَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي سوائفوا عدة ما أحله الله حتى يسروا ويمولوا لأنفسهم : نحن لسنا عاصين ، فلما كان الله يريد أربعة أشهر حرم ، فنحن قد التزمنا بذلك ! ولكن تشريع الله ليس في العدد فقط ولكن في المحدود أيضاً ، وقد حدد لنا رسول الله ﷺ الأشهر الحرم ^(١) .

وكان عمرو بن لحي أو نعيم بن ثعلبة هما أول ^(٢) من قاما بعملية إسئى هذه ، فأحلَّ شهر المحرم ، وحرم غيره

وهؤلاء الذين قاموا بهذا العمل كانوا يعرفون أن هناك أربعة أشهر حرم بدليل أنهم أحلوا وحرموا . ولو لم يعرفوها ما أحلوا ولا حرموا ، ولكن هم أرادوا أن يخضعوا تشريع الله لأهوائهم . وهذا هو المعنى من تحليل

(١) عن ابن بكير رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض اثنتان عشر شهراً ، منها أربعة حرم : ثلاثة مولات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٧) ومسلم في صحيحه (١٦٧٩)

(٢) اختلف العلماء في تحديد أول من بدأ الشهور على العرب ، فكونه عمرو بن لحي هو قول ابن عباس أما كونه نعيم بن ثعلبة فهو قول الكشي . وقد قال ابن إسحاق : إنه انقلس وهو حبيبة بن عبد ذكر ، ابن كثير بن بغيره (٣٥٧/٢) وانظر تفسير المصطفى (٢٠٦٤/٤) والشمس في اللغة هو : الرجل الداهية انظر لسان العرب

شهر المحرم ومحريم شهر آخر ، وأرادوا بذلك إخضاع مرادات الله لشهوات نفوسهم ؛ لأن المحرم ثابت فيه التحريم ، وهو شهر حرام سواء قام الإنسان بتأجيله أم لم يؤجله ، فهو شهر حرام بمشيئة الله لا مشيئة الناس . ولذلك حكم الحق سبحانه على السيئ بأنه زيادة في الكفر ؛ لأنك حين تؤخر حرمة شهر المحرم إلى شهر غيره ، تكون قد قُمتَ بعملتين ؛ أحلت شهراً حراماً وهذا كفر ، وحرمت شهراً حلالاً وهذا كفر آخر . أى زيادة في الكفر ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لِيُؤْطَقُوا عَذَابَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَعْلَمُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ وقد حكم الله عليهم بالكفر بأنهم أحسوا ما حرمة الله .

ثم يقول الحق . ﴿ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ والتزين . هو أمر طارئ أو زائد على حقيقة الذات مما يحمله مقبولاً عند الناس ، فالمرأة مثلاً لها جمال طبيعي ، ولكنها تزين بأن تبالغ في إظهار مفاتها حتى تكون أجمل من عيون الرجال ، هذا هو التزين . د : فالتزين تغيير في المظهر وليس في الجوهر . وهناك تزيين في أشياء كثيرة ، تزيين في الفكر مثلاً ، بأن يكون هناك استعداد للقتال فيأبى القائد فيربى للمقاتلين دخول المعركة ، ويقولون : أنتم ستنتصرون في ساعات ، ولن يصاب منكم أحد وسيقتل عدوكم ؛ هذا تزيين محمود .

ولذلك أراد الحق أن يكشف لنا حقيقة التزيين الذي قاموا به حين حلتوا حرمة الأشهر الحرم ، وكشف لنا سبحانه أن هذا لون من التزيين غير المحمود فقال ﴿ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ وما دام قد زين لهم السوء فهذا العمل قد خرج عن متعلقة الهداية ، وخرج عن نطاق التزيين المحمود إلى التزيين السيئ . وما داموا قد خرجوا عن هداية الله فلن يمينهم الله ؛ لأنه سبحانه لا يعين من كفر ، ولا يعين من ظلم ، ولا يعين من فسق .

ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي أنهم يكفروهم قد أخرجوا أنفسهم عن هداية الله ، فالحق سبحانه لم يمسح عنهم الهداية ، بل هم الذين منعوها عن أنفسهم بأن كفروا فأخرجوا أنفسهم عن مشيئة هداية الله لهم ، وهذا ينطبق فقط على هداية المعونة ، ونحن نعلم أن له سبحانه هداية دلالة وهداية معونة ؛ هداية الدلالة هي للمؤمن وللکافر ، ويدل الله الجميع على المنهج ، ويريهام آياته ، وتبلغ الرسل مبعث السماء الذي يرضح الطريق إلى رضاء الله والطريق إلى سخطه وعذابه . فمن آمن بالله دخل في مشيئته هداية المعونة ، فيعينه الله في الدنيا ويعطيه الجنة في الآخرة أما من يرمي هداية الدلالة من الله ، فدله لا يعطيه هداية المعونة ؛ لأن الكفر قد سبق من العبد وكذلك الظلم والفسق ، فيكون قد منع عن نفسه هداية المعونة بارتكابه لتلك الأثام

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧) [لتوبة]

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) [لتوبة]

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٤) [التوبة]

إذن : هم الذين قدّموا الكفر والظلم والفسوق ، فمنعوا عن أنفسهم هداية المعونة التي كان الحق عنها :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَتَسَاهَلُ لِقَاؤُهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]

وبعد أن طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يواجهوا الساطل جميعاً ، كما يجتمع الباطل عليهم ويقاثلهم جميعاً ، يقول سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ
 أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ
 بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ٢٨ ﴿

وساعة تسمع ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهذا بدء خاص بمن آمن بالله ؛ لأن
 الله لا يكلف من لم يؤمن به شيئاً ، ولكنه كلف الذين آمنوا ، فلا يوجد
 حكم من أحكام منهج الله فيه تكليف لكافر أو غير مؤمن .
 ولكن أحكام المنهج موجهة كلها للمؤمنين . ولذلك ساعة تسمع .
 ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تعرف أن الله يخاطب أو يأمر من آمن به ؛ لأنك أنت
 لذي امنت باختيارك ، ودخلت على الإيمان بروعتك ، فالحق سبحانه لم
 يأحكك إلى الإيمان قهراً ، ولكك جئت للإيمان اختياراً ، ولذلك يقول
 سبحانه وتعالى لك ما دُمت قد أمنت بي إلهاً قادراً قيوماً ، له مطلق
 صفات الكمال ، لاسمع مني ما أريد له حركة حياتك

ولا يحسب أحد أنه قادر على أن يدخل في الإيمان ولا ينفذ المنهج ،
 ولا يحسب أحد أنه قادر أن يصبر الله شيئاً ، وسبق أن صرنا المثل للمريض
 لدى يختار أيرع الأطباء ، ولم يجبره أحد على أن يذهب إليه ، وأحرى
 لطبيب الكشف على المريض ، وحدد الدواء وكتب الدواء ، ولكن المريض
 بعد أن خرج من العيادة أمست تذكرة الدواء ومرفقها ، أو أنه اشترى الدواء
 ولم يتناول . أيكون بذلك قد عاقب الطبيب أم عاقب نفسه ؟

١) ومن هذا يقول عروجل : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من

أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد صحت صلاته ﴾ [الأحزاب ٣٦]

إن الطبيب من يتأثر ولن يصبره شيء مما فعله هذا المريض ، ولكنه هو الذي سيزداد عليه المرض ويقود نفسه إلى الهلاك ، وكذلك الإنسان إن لم يتبع منهج الله ، فإنه يضيع نفسه ويفرقها في الشقاء ؛ لأن الحق سبحانه قد وضع هذا المنهج وفيه علاج لكل أمراض الإنسان ، فإن عمل به الإنسان فجا من بلاء الدنيا ، وإذا عمل به مجتمع لن يظهر فيه اشقاء . بل يمتلئ بالرخاء والأمن والطمأنينة ، ومن لم يعمل به فليس يضر الله شيئاً ، بل يحصل على الشقاء وبهلاك نفسه

وحين يحاطب الحق سبحانه لذين آمنوا يوضح خلتوا منى هذا التكليف ففيه سعادة الإنسان في الدب والأخرة ، ولهذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى لا يذكر أمراً من أوامره بأى تكليف أو نهياً من نواهيه ، إلا مسبقاً بقوله سبحانه . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مثل قوله تعالى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... ﴾ (١٨٣) [البقرة]

وقوله سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ... ﴾ (٧٨) [البقرة]

وهذه التكاليفات لم تأت مبنية للمعلوم ، فمن الدين يكتب ؟ إنه الحق سبحانه ، كما أنها صيغة مبنية دائماً لما لم يُسمَّ فعله ، أى . أن الكتابة أتت من كثير . ونقول : صحيح أن الله سبحانه وتعالى هو الذى كتب ، فلماذا لم يقل . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُم . ولماذا يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ؟ ونقول لأن الله وإن كان قد كتب ، إلا أنه لم يكتبها على كل خلقه ، بل كتبها على الذين

أمواجه ، وأنت بإيمانك أصبحت ملتزماً بعناصر التكليف^(١) ، فكأن الحق سبحانه لم يكتب ثم يلزمك ، ولكن التزامك ثم في نص السحطة التي دخلت فيها باختيارك في الإيمان . وبذلك تكون كل هذه الأحكام قد كُتبت عليك باختيار كل ما ، فمن لم يختر الإيمان ليس مكتوباً عليه أن يتعد أحكام الإيمان ، لأنها لا تُعَد إلا بالعقد الإيماني بينما وبين الحق سبحانه : وقد احتوم سبحانه دخولنا في هذا العقد ، فلم يسره لسانه العلنية فقط ، بل شمل أيضاً كل من دخل في الإيمان

ولذلك فإن سأل أحد عن حكمة التكليف من الله ، نقول له : إن لحكمة تسع من أنه سبحانه هو الذي كلف ثم إن معرفة الحكمة لا تكون إلا من المساوي للمساوي ، فلو ذهب المريض إلى الطبيب وكتب له الدواء ، وظل المريض يناقش الطبيب في الدواء وموثره ؛ فالطبيب يرفض المناقشة ، ويقول للمريض : ادخل كنية الطب وأنص فيها سبع سنوات ، واحصل على الدرجات العلمية ، ثم تعال وناقشني .

إذن : فأت تربط علة التكليف بأمر المكلف ، مع أن المكلف من البشر قد يحطون . أما إذا حدث مجموعة من الأطباء ليكشفوا على مريض اختار الطب فيه ، ثم جلسوا بعد الكشف يتناقشون ، فكل منهم يقبل مناقشة الآخر ، لأنه مُساوٍ في الفكر والثقافة والعلم إلى غيره ، لكن إن أردت أن تسأل عن الحكمة في تكليف من الله فلن تجد مساوياً لله سبحانه وتعالى ، وبذلك تكون المناقشة مرفوضة

(١) وينصح هذه من حديث رسول الله ﷺ ، «مراس عباد ربي الله فلهما قال قال رسول الله ﷺ لعدد من أهل جبريل بنى إيمان» إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب ، جاءهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، أن محمداً رسول الله ﷺ ، فإنهم هم الضعفاء لك بذلك فحسبهم من الله فمد عمرهم عنهم خمس صلوات في كل يوم وليلة . » الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٤٩٦) ومسلم (١٩) قال ابن حجر العسقلاني في شرح البخاري (٣/٣٥٩) «قوله : فمد عمرهم أضاعوا لك يدك» أي شهبو وتعادروا . واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالمعروف حيث دعوا ، ولا إلى الإيمان معده ، ثم دعوا إلى العمل»

إذن . فالمكلف لابد أن تكون له مسرلة سابقة على التكليف ، ومسرلة الحق أنك مت به ، ولهذا أرى أن البحث عن أسباب التكليف هو أمر مرفوض إيمانياً ، فإذا قيل : إن الله فرض الصوم حتى يشعر الغنى بألم الجوع ؛ لمعطف على الفقير ، نقول : لا ، وإلا سقط الصوم عن لفقير ؛ لأنه يعرف ألم الجوع جيداً . وإذا قيل : إن الصوم يعالج أمراض كذا وكذا وكذا . نقول : إن هذا غير صحيح ، وإلا لما أسقط الله فرضه الصوم عن المريض في قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ لَعَدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... ﴾ (١٨٥) [البقرة]

فإذا كان الله قد أباح للمريض أن يفطر ، فكيف يأتي إنسان ويقول : إن علة فرض الصوم هي شفاء الأمراض ؟ كما أن هناك بعض الأمراض لا يُسمح معها بالصوم .

إذن . فحين الصوم لأن الله فرض عليه الصوم ، وما دام الله قد قل حسب التنفيذ هو أن لقول صادر من الله سبحانه ، ولا شيء غير ذلك ، فإذا ظهرت حكمة التكليف فإنها تريدنا إيماناً ، مثبته ثبت ضرر لحم الخنزير بالنسبة للإنسان ؛ لأن لحم الخنزير ملئ بالميكروبات والجراثيم التي يأكلها مع القمامة ، ونحن لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لهذا السبب ، بل نمتنع عن أكله لأن الله قد أمرنا بذلك ، ولو أن هذه الحكمة لم يكشف عنها الطب ما قلل هذا من اقتناعنا بعدم أكل لحم الخنزير ؛ لأننا نأخذ التكليف من الله ، وليس من أي مصدر آخر .

ويعود إلى خواطرنا حول الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ، ونجد كلمة : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ تأتي حين نتعجب من حال لا يتفق مع حال ، وكأن حرب المؤمنين للكفار

أمر متوقع وتقتضيه الحال ؛ لأن المؤمنين حين يعانون الكفر إنما يدخلون شيئاً من اليقين على أهل الاستقامة ، فأهل الاستقامة إن لم يجدوا من يضرب على أيدي الكافرين فقد ينحرف منهم من تراوده نفسه على الانحراف ، أما إن وجد من يضرب على أيدي الكفر ، فإنه معه هذا يريب في المؤمن إيمانه ؛ لأنه يرى عدوه وهو يتلقى الكمال . كأن تقول للتلميذ . ما لك بهمل في مذاكرتك وقد قُرُبَ الامتحان ؟ أي . أن المفروض أنه إذا قرب الامتحان لابد أن يجتهد الطالب في المذاكرة . فإن أهمل التلميذ عمله فتجنن نتعجب من سلوكه ، لأنه لا يتفق مع ما كان يجب أن يحدث . وبذلك نستتكر أن يحدث مثل هذا الإهمال ، مثلما نستتكر ونتعجب من مريض يترك الدواء بينما هو يتألم

ونتعجب الحق سبحانه هنا من تشاغل المؤمنين حين يُدْعَوْنَ إلى القتال ؛ لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال ، وهذا الاستعداد بحيف الكفار ويضع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً ، كما أنه ثانياً يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع في أي وقت . ويعطى ثالثاً شيئاً من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين .

د : فَلْيَكُنْ يَفْقِي الْمَجْتَمَعُ الْمُؤْمِنُ قُوًى وَأَمْنًا ؛ لا بد أن يوجد استعداد دائم للقتال في سبيل الله ورعية في الشهادة ، وما يقول الحق . ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْهَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فكان الاستعداد المستمر للقتال في سبيل الله أمر لا بد أن يوجد لمطردة وبالعقل ، فإذا صَعُفَ هذا الاستعداد أو قلَّ صار هذا

الأمر مرطناً ليتعجب ؛ لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر ينربص بهم دائماً ، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة ، ويستكر الحق أن يتأقل المؤمنون ، إذا دُعُوا للقتال في سبيل الله أو أن يكاسبوا .

وقوله سبحانه : ﴿ انْفِرُوا ﴾ من «الثمرة» وهي الخروج إلى أمر يهيج استقرار الإنسان ، فحين يكون الإنسان جالساً في مكانه ، قد يأتي أمر يهيجه فمزم لفعل ما يتناسب مع الأمر المهيج ، فأنث مثلاً إذا رأيت إنساناً سيسقط في بئر ، فهذا الأمر يهيجك ، فتنتقل من مكانك لتجده بعيداً ، ومنه الثمرة التي تحدث بين الأحباب للذين يعيشون في وُدٍّ دائم ، وقد يحدث بينهم أمر يُحوّل هذا الود إلى جفوة .

ذن . فكلمة ﴿ انْفِرُوا ﴾ تدل على الخروج إلى أمر مهيج ، وهو المنطق الطبيعي الذي يجب أن يكون ، لأن عمل الكفار يهيج المؤمنين على مواجعتهم . وقول الحق سبحانه : ﴿ انْفِرُوا ﴾ يدل على الاستمزاز المستمر من الكفار للمؤمنين . ويقول الحق تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ .

والثقل معناه . أن كسلة الشيء تكون رائدة على قدرة من يحمله ، فإن قلت : إن هذا الشيء ثقيل فهذا يعني أن وزنه مثلاً أكبر من قوة عضلاتك فلا تستطيع أن تحمله . أما الثاقل فهو عدم مرافقة شيء لطبيعة التكوين . كأن تقول : فلان ثقيل أي أن وزنه ضخم ولا يستطيع أن يقوم من مكانه إلا بصعوبة ، ولا أن يتحرك إلا بمشقة

ولكن الثاقل معناه تكلف المشقة ، أي : لك قدرة على الفعل ، ولكنك تصنع أنك غير قادر ، كأن يكون هناك - على سبيل المثال - شيء وزنه رطل ، ثم تدعى أنه ثقيل عليك ولا تستطيع أن تحمله

إذن . فقولہ تعالیٰ ﴿ أَتَأْتِفْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أى . تكلمتم الشغل بدون حقيقة ، بأنتم عندكم قدرة على القتال ولكنكم تظاهرتم بأن لا قدرة لكم

وهكذا يعرف أن الموقف يقتضى النعمة ليواجهوا الكفر ، لأن المنهج الذى ارتصوه لأنفسهم والتمسوا به يحقق السلامة والأمن والاطمئنان لهم ولغيرهم ، وكأد الشاغل إلى لأرض له مماثل ، فالعصر ، تكون فى سبيل الله ، والمقابل فى سبيل الشيطان أو فى سبيل شهوات النفس

لقد تحدث العلماء فى المسائل التى تجعل الإنسان يقبل على المعصية ، وهى النفس التى تحدث الإنسان بشئ ، فالإنسان يقبل على المعصية بهذين العاملين فقط . هما العرق بين الاثنين ؟ وكيف يعرف الإنسان على ذلك ؟ قال العلماء : إذا كنت النفس تلح عليك أن تفعل معصية معها بحيث إذا صرفتها عنها عادت تلح عليك لا تتراف نفس المعصية لتحقيق متعة عاجلة ، فهذا إلحاح من النفس الأمارة بالسوء

ولكن لشيطان لا يريد منك ذلك ، إنه يريدك مخالفاً لمهجع الله على أى لون ، فإذا استعصى عليه أن يجددك إلى المال الحرام ، فهو يريد لك شهوة النساء ، فإذا فشل جاء من حاجة الخمر إذن : فهو يريدك عصياً بأى معصية ، ولكن النفس تريدك عاصياً بنفس المعصية التى تشتهيها وهذا هو العرق .

وهكذا نعرف أن هناك واقعين ، واقعاً يدعو المؤمنين إلى قتال الكفار الذين يفسدون مهجع الله فى الأرض ، وواقعاً يدعوهم إلى أن يتشاقلوا عن هذا القتال ، وذلك إما بسبب حب الدنيا لتحقيق شهوة النفس أو بعراء الشيطان ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ وارضوا هو حب القلب ، يقال : فلان راضٍ لأنه مسرور بالحل الذى هو فيه .

ومعنى تشغل المؤمنين عن القتال في سبيل الله ، أن هناك شيئاً قد علب شيئاً آخر في داخل نفوسهم ، فالرضا بالحياة الدنيا قد يعلب على حب الآخرة . ولكن المسطق الإيماني يقول : إنه إذا كان هناك أمر آخر غير الدنيا ، أو حياة أخرى غير حياتك الدنيوية ، فلا بد أن تقارن بين ما تعطيه الدنيا وبين ما تعطيه الآخرة ، فإذا رصينا بما تقدمه لنا هذه الحياة المادية ، يكون المؤمن بلا طموح وبلا ذكاء ؛ لأنه رضى بمتاع قليل زائل وترك متعاً أبدياً ممتناً بقدرة الله

وأنت لو نظرت إلى الدنيا نظرة واحدة ، تجد أنها متعبة ممتدة ، والصحيح يصح مريضاً ، والغنى يصبح فقيراً ، والقوى يصبح ضعيفاً

فد : فمتاع الدنيا متغير ولا عصمة لك فيه ، وأنت لا تستطيع أن تعصم نفسك من المرض أو من الضعف أو من الفقر ؛ لأن هذه كلها أغيار تحكمك ولا تحكمها أنت ؛ تفهرك ولا تستطيع أنت أن تفهره . فإن رخصت بمتاع الدنيا اليوم فأنت لا تضمن استمراره إلى عد .

ولهذا ينبغي ألا تؤخر تنعمد ما يكلفك به الله ؛ لأنت الآن تستطيع أن تؤديه ، لكن أنت لا تضمن إن كنت قادراً غداً أم لا . كذلك لا تأخذ التكليف على أنه قد يسلك حريتك أو مالك ، بل هو يسلك ويعطيك في نفس الوقت . فإذا أمر الله سبحانه بأن تُخرج الركاه ، قد تعتقد أن هذا يُقص مالك^(١) ، أو تقول : هذه عرامة . يقول : إن هذا في ظاهر الأمر قد

(١) عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يخطب : انقسم خمساً قبل حصن شبابك من هرمك ، وصحتك من سقمك ، وغناك من فقرك ، وفراغك من شغفك ، وحياتك من موتك . أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٠٦/٤) وصححه على شرط شيخه ، وأقره الذهبي . وقد أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢) من حديث عمرو بن ميمون مرسلاً بسند صحيح . قال ابن حجر في الفتح (١١/٢٣٥)

(٢) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ما نعت صلوة من مال ، وما راد الله عبداً بغيره . وما تم أجمع أحد لله إلا رفعه الله . أخرجه مسلم (٢٥٨٨) وأحمد في مسنده (٢/٢٣٥ ، ٣٨٦) والترمذي في مسنده (٢٠٢٩)

يكون صحيحاً ، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا مال فيزيده لك ويُسَمِّيه ^(١) فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مثل ، ثم تضاعف إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الحكم الذي يأخذ منك الآن وأنت عسى ، هو بذاته الذي سوف يعطيك إن افتقرت والحأت إلى الناس . فإذا كان الحكم الذي سيأخذ هو الذي سيعطى تكون هذه عدالة وتأميناً ضد الأعيار ، وعليك أن تقارن الصفة النفعية بمقابلها ، وساعة تعطى أنت الذي لا يملك ، لابد أن نتذكر أنه قد يأتي عليك يومٌ لا غم لك فيه .

وكلمة دنيا بالـة لحياتنا أعطتنا الوصف لطبيعي الذي يطق عليها ؛ لأن " الدنيا " مقابلها " العمياء " . واحة العليا تكون في الآخرة . فإذا كانت هذه هي الحياة الدنيا فلماذا تربط نفسك بالأدنى إلا أن يكون ذلك حوراً في العزيمة ؟

والمثال للقوة الإيمانية هو : سيدنا عمر من عند العرير رضى الله عنه ، وكان قبل أن يصبح خليفة المؤمنين يرتدى أفخر الثياب ويتعطر بأجمل العطور ، وكان الناس يدفعون أموالاً لمن يعمل ثياب عمر بن عبد العزيز ليدخلوا ثيابهم مع ثيابه حتى تمتلئ عطرأ . وذلك من عراة وجود لعطر الذي كان يصعبه عمر بن عبد العزيز على ثيابه فتخرج كل الثياب مليئة بالعطر . وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة ، كانوا يأتونه بالثوب الخشن الذي كان يرفض ارتدائه قبل الخلافة ، فيرفضه ويقول : هاتوا أحسن منه ، وامتنع عن العطر ، أى أن معايير قد تغيرت وليس في هذا أدنى تناقص ، بل هو علو في الحياة ، ولذلك قال : اشتاقت نفسي إلى الإمارة بقلب لها . اتعدى يا نفسُ ، فلما تلتها اشتاقت نفسي إلى الخلافة فهيتها عن ذلك ، قلب تلتها ؛ أى بال الخلافة ، اشتاقت نفسي إلى الجنة فسلكت كل طريق يؤدي إليها ^(٢)

(١) مخرج قول رسول الله ﷺ : لا يصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أحدها الله تعالى بيمينه ، فبربها كما يرى أحدكم فبره (مهره) أو مبرسه (الفتي من الإبر) حتى تكون كالليل أو أعظم ، وهو حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ، أخرجه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤)

(٢) أورد عبد الأنور أبو سعيد الأصفهاني في حلية الأولياء (٥/ ٣٣١)

وهكذا يعرف أن سلوكه رضى الله عنه لم يكن فى تناقص بل تعلية
للمصفة الإيمانية . كان دائماً فى علو يريد أن يواصله ، فقد اشتاق أولاً
إلى الإمرة ، فلما تحققت أراد أن يعلو فاشتاق للخلافة ، فلما تحققت أراد
أن يعلو فاشتاق إلى الجنة ، إذن : فهو دائماً فى علو

وأقول : ليس فى سلوكه أدنى تناقص ، لأن علماء النفس يصرون
التناقض فى السلوك البشرى على أنه اختلاف فى المقارنة ، فالإنسان يقارن
شئ ثم يقارن بشئ آخر وهكذا ، لأن كل شئ فى الدنيا بسبب . ومعنى
السببية أن ينسب الشئ لما حوله ، فإذا قلت : إبنى أسكن فوق فلان ،
فأنت فى نفس الوقت تسكن تحت فلان الذى يعيش فى لطاق الذى
يعبوك

إذن : فأنت فرق فلان وتحت فلان فى نفس الوقت ، فلا تأخذ نقطة
وتتخلف عن الأخرى ، وهذا اسمه " معنى إضافي " أى . أن المعانى
لا تتحقق بذاتها ، ولكن بالنسبة إلى شئ تقاس به ، وكذلك المقاييس من
الأشياء يجب أن نقيسها بالأمور التى تُصعد لك القيمة . فأنت إذا نظرت
إلى الدنيا ، تجد أن الحق سبحانه أسماها " دنيا ولم يجد اسماً أقل من هذا
ليسميها به ، لماذا ؟ لألك تنعم فى الدنيا على قدر وجودك فيها ، أى على
قدر صورك ، وهو مهما زاد وظال فهو سواب معدودة ، وقد يكون متاعك
مها حتى سن الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين . أو أكثر من ذلك أو أقل
ومتاعك فيها بما تحققه قدراتك ، فالذى عنده ألف جنيه يتمنع على قدرها ،
والذى عنده عدة ألوف متاعه على قدرها ، وصاحب الملايين متاعه أكبر .

إذن : فكل واحد يتمتع بقدر ما عنده من ما . وحتى إن وصل الإنسان
إلى أعلى متاع فى الدنيا ، متاع صاحب الملايين ، بهذه الملايين إما أن تروى
عن صاحبها ، وإما أن يترك هو هذه الملايين بالموت . وهذه تتحقق وهذه
تتحقق . إذن : فنعمة الدنيا إما أن تتخلع منك أو تتخلع أنت منها .

فإذا حنسَ إلى المقابل وهو الآخرة فجد أن النعيم فيها دائم لا يزول عندك ، وأنت خالدا لا تزول عن الععة بالقضاء أو الموت ، وأنت لا تتمتع في الآخرة بقدراتك أنت ، بل بقدره الله سبحانه . فكان المتاع أكبر كثيراً من قدرتك ، وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أن تحققه . فمثلاً : إن كان معك ريال وجهك رجل فقير فأعطته له ليأكل به ، تكون في ظاهر الأمر قد أثرت الفقير على نفسك ، لأنك أعطيته كل ما عندك ليأكل به وحرمت نفسك منه ، ولكنك في الحقيقة فضلت نفسك على الفقير ، لأنك أعطيته هذا الريال ليكون عند الله عشرة إلى سبعمئة ضعف ، فمن مكمما الذي استفاد ؟ ومن مكمما الذي انتفع ؟ إنه أنت .

ولذلك نجد أن الدين الصحيح ضد الأدنية الخلقاء ، ويُعَلَى عِيكَ الأَدْنِيَةِ العَافِلَةِ بأن يجعلك تحب نفسك حباً أعلى . فأنت حين تتصدق تحب نفسك ، ولذلك تريد أن تعطيتها الأعلى والأفضل . فظاهر الأمر أنك أعطيت ، وفي حقيقة أنك قد أخذت . وأنت حين تعطى إنساناً مسوياً لك كأن تقدم له هدية في مناسبة معينة ، تنتظر أن يرد إليك الهدية بمثلها في مناسبة أخرى إذن . فالعطاء مُساوٍ ، وقد يرد هذا الإنسان الهدية ، وقد لا يردها . وقد ينوى ردها ولكن تصدده ظروف لا تُمكنه من أن يردها لك . لكن الحق سبحانه يقول :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا

كَثِيرَةً... (٢٤٥) ﴿

[البقرة]

إذن : فحينئذ تعطى إهداء وجه الله فأنت لا تحصل على عطاء مُساوٍ لما أعطيت . لكك تحصل على عطاء مضاعف أضعافاً مضاعفة . والذي يعطيك الثواب هو الله سبحانه وتعالى دائم الوجود ، ولن يتعد عطاؤه لك ، لأنه دائم القدرة ، ولن يأتى عليه وقت يكون غير قادر على أن يرد

لك ما أعطيت ؛ لأن عنده كنوز السماوات والأرض ؛ وهو سبحانه قادر على أن يضاعف لك مهما كانت قيمة عطائك . فإن فصلت الحياة الدنيا على الآخرة ، فأنت تقيس بمقاييس لكمال عددك ، وهي مقاييس ساقطة وهابطة ، ولو كنت تعلم تلك المقياس الصحيح لعرفت أن الذي يحقق لك النفع الأكبر هو أن تعطى وتعمل طامساً للآخرة وليس للدنيا . ولذلك فالحق سبحانه يقول هنا ﴿ أَرْضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أى - أنكم أردتم الحياة الدنيا بدل الآخرة . وهذه مقارنة غير عاقلة وغير حكيمة

وكلمة ﴿ من ﴾ تدل على الدل في قوله ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ومدة البذل والاستبدال البيع والشراء ، ويعرف أن الباء مدخل على المتروك ، فأنت تقول : ائتمريت بشيء بكذا درهم ، أى . تركت الدراهم مقابل شرائك لشيء ، كأن هؤلاء الراضين بالحياة الدنيا قد أخذوا الدنيا بدلاً من الآخرة ، وهذه صفقة تحلو من العقل والحكمة .

وبعد أن استكبر الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يرضوا بالحياة الدنيا ويتركوا الآخرة يقول سبحانه ﴿ لِمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ والمتع : هو ما يستمتع به . والإنسان لا يستطيع أن يوقن أنه سيستمتع بالحياة ، وهذا أمر مطعون فيه ، فليس كل كائن حي مستمتعاً بالحياة ، هناك أشقياء وهناك تعساء ، وهناك من حياتهم كلها تعب ، وحتى أولئك المستمتعون بالحياة في الحاضر ، من يدرهم ماذا يحمل المسقل لهم ؟ ألا يمكن أن يكون استمتاعهم هذا وقنباً ؟ ألا يمكن أن يأتيهم ظرف من الظرف ، أو قدر من الأقدار يملأ حياتهم بالشقاء ؟

إننا نجد اعتقلاء حين يرون من نعمته الله عليهم ما يكدر حياتهم - يشكرون الله ، ينتم نجد الإنسان السطحي المكيير والفهم يساء ويفعل ويريد لموقف معاناة . العاقل - إذن - يعرف أن الإنسان يعيش في ديب

أغيار ، ومعنى أننا نعيش في دنيا أغيار أنه تأتي أحداث تنقلب من حال إلى حال ، أي من الغنى إلى الفقر . أو من الصحة إلى المرض إلى غير ذلك من أحوال الدنيا المتقلبة المتغيرة ، ففي الدنيا لا يدوم حال ، وما دامت الدنيا أغياراً ، فأحوال الناس تتغير فيها دائماً .

وهب أن إسماعيل وصل إلى القمة التي لا يوجد أعلى منها نقول له لا داعي أن بأحذرك الفرح والكسر والحيلاء ، ولا تنس أنك تعيش في دنيا أغيار ، وأن دوام الحال من المحال ، فلو دامت لعبرك ما وصلت أنت إلى القمة ؛ لأن من كان عليها سقط فصعدت أنت

إذن : معنى هذا أنك وإن وصلت لسفحة فلن تثبت عليها وتبقى هكذا بلا تغيير . وما دمت قد وصلت إلى أعلى ، يمكنك ، فالشئ الوحيد الذي يمكن أن يحدث لك هو أن تنزل ؛ لأنك وصلت إلى قمة الصعود ، ولم يَعدَ بعدها شيء تصعد إليه . فالشئ المتوقع لا بد أن يكون إلى أسفل ، ويقال : « تَرَقَّبْ زَوْلاً إِذَا قَبِلَ تَمَّ » ، ولهذا يحد أهل الحكمة والبصيرة يقولون : إن المصائب في الأموال والأنفس من ثمائم النعمة ، وكانت احق لا يريد أن يتحم النعم ؛ لأنها إن تمت تزول ؛ لأن المصيبة ما دامت قد حدثت فلا بد أن تزول .

وسبحانه حين يقول ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ يريد أن يبين لـ أن متاع الآخرة أكبر ، فأنت حين تقول : شيء في شيء . فأيهما يكون أكبر ؟ إنه الذي يدخل فيه الشيء الآخر ، فإذا قلنا فلان في البيت ، فمعنى ذلك أن البيت أكبر من فلان هذا ، وإلا لما احتواه داخله . وإن قلنا محمد في جدة أو في المملكة السعودية أو في مصر ؛ يكون منك ظرف ومظروف ، والمظروف عادة أوسع من الظرف ، وسعته كبيرة لدرجة أنها تحيط بالمظرف من كل جوانبه .

وقول الحق سبحانه ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ معناه أن متاع الدنيا بئس في متاع الآخرة ؛ لأن متاع الآخرة أوسع ويحتوى متاع الدنيا ويريد ، وما دام الكلام بقدرته الله سبحانه وتعالى ، فمعنى ذلك : سعة متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدني لا نهائية . فإذا راد الحق سبحانه وقال : ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فهو لإعطاء صورة لسعة متاع الآخرة .

لكن هذا الاستثناء في قوله تعالى ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ إنما هو لمخاطبة العقول بالنسبة لقمة المتمتعين في الدنيا .

ومثال هذا أنك تحمد إنساناً قد أعطاه الله قمة متاع الدنيا ، وتحمده تعتقد أن المتاع لا يمكن أن يريد على ما وصل إليه ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى له لو أنك متمتع بكل ما تستطيع أن تعطيه لك الدنيا فهو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

وإذا كان غير المتمتع بشيء من متاع الدنيا يظر إلى مَنْ أعطاه الله سبحانه وتعالى قمة متاع الدنيا ويتساءل : هل هناك متاع أكثر من ذلك ؟ إن هذا الإنسان متمتع بكذا وكذا وكأنه يعيش في الجنة ، ولا اعتقد أنه يمكن أن يكون هناك متاع أكثر من هذا . تقول له : لا ، إن ما نحسبه نهاية لما يمكن أن يمتع به الإنسان هو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

إذن . فقوله سبحانه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ليس مقصوداً به المتعة العادية للدنيا التي يتمتع بها الناس ، ولكن المقصود به متاع القصة الذي لا يوصى إليه ولا يحدث إلا لأفراد قليلين في العالم . فقد يعيش إنسان في قصر صخم ، وحوله المئات من الناس يخدمونه ، وعنده من الأحجار الإلكترونية وغيرها ما يجعله بمجرد أن يريد شيئاً يضغط على زر صغير فيجد ما يريد

أمامه ، وكل شيء حوله يحقق له رغباته ، بل إنه يعيش في درجة الحرارة التي يريد لها داخل قصره ، ومعه أفخر أنواع الطعام والشراب ، وإذا أراد أن يتنقل من مكان إلى آخر ؛ ضغط على زر فيتحرك به الكرسي إلى المكان الذي يريد ، وكل من حوله يطيعونه طاعة عمياء ، فكل رعباته أوامره ، وحياته تشبه الجسم الجمين .

إذا عاش إنسان في هذا الجو وانبهر بهذه النعم كلها يستوقفه رب العزة سبحانه ويوضح له . لا تسهر ، فهذا المناع الذي تعيش فيه بالنسبة للأخرة قليل

إذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من منعة وانبهروا بها ، يوضح لهم الله : لا تنبهروا ولا يأخذكم العجب ، فكل هذا الذي ترونه أمامكم بالنسبة لمناع الآخرة قليل .

إذن فقولوا سبحانه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يدل على أن فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تحب القليل من النعم بل تريد الكثير ، ولهذا نجد لحق سبحانه وتعالى يُفَرِّع عبادته من أن تفتهم نعم الدنيا مهما بلغت ، فيوضح لهم : لا تظنوا أن هذه النعم كثيرة ، بل إنها نعم قليلة بالنسبة لما ينتظركم في الآخرة ، فإذا كان الإنسان مصطرته يحب كثرة النعم ، ففي هذه الحالة لن تقنعه نعم الدنيا ، بل سوف يطلب نعم الآخرة . ورسول الله ﷺ يقول : « لو أن ابن آدم أعطى وادياً ملاً من ذهب أحب إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً »^(١)

أي . أن الإنسان الذي امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هم ويطمع في امتلاك وادي الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لسبق مقدار واد واحد . فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٣٨) وأبو معين في حلية الأولياء (١/٢٣٧) عن عبد الله بن الزبير

لماذا ؟ لأن كثيراً من الناس ينسون الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أن يحتاط لنفسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أن يحتاط لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أن يحتاط لأحفاده . ولكن المؤمن الحق هو من يعرف أن الحياة الدنيا طريق العصور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصيرة تنتهي ، فلا يهتم بهذا اللب من الاحتياط ، ولكن الذي يحرص على عمية الاحتياط هذه هو من يظن أن الحياة الدنيا هي النعاية من خلق ، ولا ينتبه إلى أنها وسيلة للآخرة .

إننا نجد أولئك الذين يسمعون على أنفسهم ويسمعون شهواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شيء يمكن أن تعطيه لهم حلالاً أو حراماً ، وهذا واضح في سلوكهم لديوى

أما المؤمن فهو كالطالب الذى يحد في دروسه ويحتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظن ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من متع كثيرة لأنه نعطته ودكاته يعرف أن هذا حرمان مؤقت . وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق ولدخل المرفق إلى آخر ما يمكن أن يعطيه له المستقل . أما المترف على نفسه فهو كالطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ويقضى وقته فى اللعب والامسماح ، وهو يمثل هذا السلوك كاد قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوة عاجلة ليظن فى معاناة بقية حياته .

إذن . فكل من الطالبين أعطى نفسه ما يريد : الأول : أعطى نفسه مستقلاً مريحاً ممتداً ، وصار قنة من قمم المجتمع . والثانى : أعطى نفسه متعة عاجلة رائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة صعلوكاً فى المجتمع لا يساوى شيئاً

إذن : عليك أن تنتظر نمت أدامك فقط ؛ لأن العالم لا ينتهي عند موقع وقوف قدميك هاتين ، ولكنه تمتد إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرت إلى هذه الآفاق ، فلا يلبث بك أن تختار متعة وقبلة قليلة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ امْضُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَبِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي لَأَجْرَةٍ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٣٨)

[التوبة]

نزل في غزوة تبوك^(١) ، وهي أول غزوة للمسلمين مع غير العرب ، وسبقها كل المعارك بين المسلمين وبين الكفار والمشركين ، ودارت على أرض الجزيرة العربية معارك مع المشركين في بدر وأرض مكة ، أو مع اليهود في مجتمع المدينة ، فقد كانت هذه معارك في محيط الجزيرة العربية ، ولكن غزوة تبوك كانت مع الروم على الحدود الشمالية للجزيرة العربية وحينما بدأ تجهيز الجيش يذهب إلى تبوك لمحاربة الروم تناقل المسلمون وها هم يستفهمون : كيف يحارب المسلمون الروم ، وهم الذين حاربوا حين انتصر الفرس على الروم ؟ أيحزن المسلمون لهزيمة الروم ثم يدهيرون ليحاربوهم ؟

نقول : نعم ؛ لأن المواقف الإيمانية ليست مواقف في قالب من حديد ، ولكنها تتكيف تبعاً لمواقف الكفار من الإيمان والإسلام .

ولذلك فإن المؤمن الحق ينفع للأحداث انفعالاً إيمانياً ، وعلى مسيل المثال ، يمد قلب سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه مملوءاً رقة ورحمة ،

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٠٦٦/٢) : لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً عن خلف من تحلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام .

بيما قلب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مملوءاً قوة وحرماً ،
انظر إلى موقف الائبين عندما انقل رسول الله ﷺ إلى الرقيق الأعلى ،
وارتد عدد من المسلمين عن الإسلام ، ومنعوا لزكاة ، وقرر أبو بكر
اصديق رضى الله عنه أن يحارب هؤلاء المرتدين ؛ لأنهم أنكروا ركناً من
أركان الإسلام ، هنا وقف عمر بن الخطاب صدى رأى أبى بكر وقال يا أبا
بكر أنتحارب أناشأ شهدرا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقال
أبو بكر أجبر يا عمر فى الجاهلية خوآر فى الإسلام ؟ والله لو معونى
عقل بعير كائو يؤدونه إلى رسول الله لفاتلتهم عليه^(١)

وهكذا انقلبت المواقف ؛ فالقوة والشدة ملأت قلب أبى بكر الذى كان
مشهوراً بالرفقة والرحمة والعطف ، بينما امتلأ قلب عمر بالليل ، وهو
المشهور بالشدة والقوة . ولو أن عمر هو الذى قال كلمة أبى بكر لقاتلوا .
شدة ألقها الناس من عمر .

ولكن الناس قالو عن عمر الشديد : « قد لأن قلبه ييسا اشتد قلب أبى
بكر » هذه هى الموقف الإيمانية التى تمثل نفس كل مؤمن . فالذى يصنع
موقف المؤمن هو إيمانه لا طبيعه ؛ ولذلك قال الحق فى وصفه للمؤمنين :

﴿ سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى

[مادة]

الْكَافِرِينَ ... ﴿٥٤﴾

(١) عن صبة بن محسن الغوى قال : « قلت لعمر بن الخطاب أنت خير من أبى بكر فىكى وقال والله
لييه من أبى بكر ويوم خير من خسر عمر ، هل لك أن أحدثك بذلك ويومه ؟ قلت نعم يا أمير
المؤمنين . فادأ أم يومه فلما تولى رسول الله ﷺ وأرسلت العرب فقال بعضهم نصلى ولا نركى
وقال بعضهم لا نصلى ولا نركى ، فأتوته ولا أتوه نصحاً فقال يا حبيبة رسول الله تألف الناس
وأرق بهم فقال : جبار فى الجاهلية خوآر فى الإسلام ، فبعد أآلهم ؟ أبشعر مععل أو سحر
معرى ؟ الحديث أورده المثنى الهنذى فى منتخب كتالعمال (٧٤٩ / ٤) وعرفه لندينورى فى
الجمالة ، أبى الحسن بن سبرال فى هوالله ، واليهفى فى دلائل النبوة ، واللائكانى فى السنة

وكيف يكون الإنسان عزيزاً وذليلاً في الوقت نفسه ؟ وكيف يوصف
اشخص نفسه بأنه عزيز وذليل ؟ وكيف يمكن أن يجتمع التقيضان في
شخص واحد ؟ لكك تقرأ ما يطمئتك في قول الحق :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَلَدَيْنَ مَعَهُ أَشْدُّ عَلَى الْكَافِرِ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ ﴾ (٦٩)

[الفتح]

لقد وصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم أشداء ، ووصفهم أيضاً بأنهم
رحماء ، ولكي تفهم هذا المعنى عليك أن تعلم أن لموافئ الإيمانية هي
انتي تحدد مشاعر المؤمن ، ولا تحدد ما يباعه الخاصة والشخصية ، وهو
يُكيّف مواقفه حسب الموقف الإيمانى وما يتطلبه ، فهو شديد ورحيم ،
وذليل وعزيز .

ونعود إلى عروة تموك التي نزلت فيها الآية التي تناولها بخواطرن وإلى
السؤال : كيف يحارب المسلمون ااروم ، وقد حزنوا يوم هزيمة ااروم من
الفرس ؟ ونقول : لقد حزن المسلمون لأن إلهاداً يبكرو الألوهية قد انتصر
على إيمان مرتبط برسالات السماء ؛ ولأن ااروم - وهم نصارى -
مرتبطون برسالات السماء . ولذلك فهم أقرب إلى قلوب المؤمنين من
الكفار ، إذن : فمسألة قد أخذت من ناحية الوجود الإلهى أما في عزوة
تموك فقد أخذت من ناحية قول المشيخ الناسخ ومع الدعوة له ، ولهذا
تحول الموقف في عروة تموك إلى عداء إيمانى ، وهذا هو السبب الذى أدّى
إلى الحرب ^(١)

(١) قال ابن حجر العسقلانى في فتح البارى (٨/ ١١٠) : كان السبب فيها ما ذكره ابن سعد وتسخه وغيره
قالوا : بلغ المسلمين من ألياط الدين يقتلعون بالزيت من الشام إلى مدينة أن الروم جمعت جمعوا ،
وأجبت معهم لحم ورجدام وغيرهم من مسخرة العرب ، وجاءت مقدمتهم إلى القداء ، فندب النبي ﷺ
لناس إلى الخروج ، وأعلمهم بجهة غروهم .

وإذا نظروا إلى العزوة نفسها نجد أن توك تعد عن المدينة بمسافة كبيرة ، ووقت العزوة كان صيفاً شديداً الحرارة ، كما أنها كانت بعد غزوة حنين التي قاتل المؤمنون فيها قتلاً شديداً . وكان العام عام عسرة ، فلم يكن مع الجيش ما يكفيه من طعام أو خيل أو جمال .

إذن : فقد اجتمع المشقة في هذه العزوة ؛ مع حرارة الجو ؛ وبعد المسافة ، وكانت قوى المسلمين منهكة من عزوة حنين . وكان رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج لغزوة ، لا يخبر عنها أصحابه إلا عندما يصلون إلى مكان القتال ؛ إلا هذه الغزوة فقد بينها رسول الله ﷺ لأصحابه قبل أن يعادروا المدينة ، لكي يستعدوا للمشقة التي تنتظرهم ، وتباطأ المسلمون ، وبعضهم كان يستمتع بالجلوس في ظل البساتين لموجودة في المدينة ويأكل من ثمارها واستطاب - هذا البعض - الثمار والظلال ؛ لذلك تباطأوا في الذهاب إلى القتال ، فنزلت هذه الآية ببيان اللوم ، ثم جاءت الآية التي بعدها لتوضح وتبين العقوبة ، فقال الحق :

﴿لَا تَنفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
وَيَسْتَبْدِلْ قَرْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

أي : إن لم تذهبوا إلى القتال فإن الله يذركم بالعذاب . وإذا أنذر الحق فلا بد أن يتحقق ما أنذره ، فأنتم إن لم تنصروا مخافة العذاب المطبون ، وهو الإرهاق والتعب ، فما بالكم بالعذاب المحقق إن لم تفتدوا أمر الله بالنفرة إلى القتال؟ وإذا كانت المقارنة بين مشقة السفر والقتال والحرب

الشديد ، وبين عذاب الله ، فالؤمن سوف يختار فلا شك - مشقة الحرب مهما كانت ، لأن كل فعل إنما يكون بقياس فاعله ، فمظنة العذاب بالحر ، أو مشقة السر ، وفسوة لقتال لا يمكن قياسها بعذاب الله ؛ لأن العذاب الذي ينتظر من يتباطأ أو يفر من الزحف أكبر من مشقة الاستجابة للرحف مهما كانت مرهقة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيُسْتَبَدَّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ إذن : فلا تظنوا أنكم تباصتكم ، وعدم رغبتكم في القتال سمضرون الله شيئاً ؛ لأن الله قادر على أن يأتي بخلق جديد ، وهو على ذلك قدير ، لذلك يقول : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهي آية أخرى يقول الحق سبحانه .

﴿ مَا أُنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لَتُسْفَوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخْلُ وَمَنْ يَخْلُ فَإِنَّمَا يَخْلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ وَأَنْتُمْ الْمُقَرَّرُونَ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣٨)

[محمد]
فلا تظنوا أنكم بما معكم من ثراء أو قوة قادرون على عرقلة مهج الله بابهخل أو اتخذ ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يستبدلكم بقوم غيركم ، يملكون حمية القتال والنصح في سبيل الله ؛ لأنه القادر فوق كل الحق .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ هو حيشية للأحكام التي سبقتها من قوله . ﴿ لَا تَقْرَؤُوا عِبَادِي أَلِيمًا وَيُسْتَبَدَّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ وإن ظن واحد منهم أن هذا كلام نظري ، فالحق سبحانه يصرب لهم المثل العملي من الواقع الذي شاهدوه وعاصروه حينما اجتمع كمار قريش ليقتلوه منصره الله عليهم ، فقال جل جلاله :

﴿إِلَّا تَصُروهُ فَقَدْ بُصِرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُشُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى
وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾﴾

روقف المشرقون عند قول الحق سبحانه ﴿إِلَّا تَصُروهُ فَقَدْ بُصِرَهُ اللَّهُ﴾
وعبادتهم كمشككين في الإسلام نجدهم يبذلون جهداً كبيراً في
محاولة التصيد لأخطاء يتوهمونها في القرآن الكريم فيقولون : إن معناه
القرآن وقدسيت عندكم أيها المسلمون لا تُسَكَّر أدهانكم من الحرام اللامة
للبحث في أساليبه ، تكتشفوا ما فيه من الخلل ولكن إن بطرنا إلى القرآن
ككتاب عدي لا فداة له فسوف نجد فيه التضارب والاختلاف

وحصص لمشرقون باباً كسراً للبحث في مجال النحو بالقرآن الكريم ،
وجاءوا إلى مسألة الشرط والحراء ، ومن يقرأ بقلوبهم يشعرون فوراً على
حقيقة واضحة هي جهلهم بعمق أسرار اللغة العربية ، فهم قد أخذوا ظاهر
اللغة العربية ، ولا يملكون فيها ملكة أو حُسْن فهم ، وقالوا : إن أساليب
الشرط في اللغة لعربية تقتضي وجود جواب لكل شرط ، بل إن قلت : إن
جاءك زيد فأكرمه ، نجد الإكرام يأتي بعد مجيء زيد ، وإن قلت : إن
تذاكر تسجع ، فالسجاح يأتي بعد المذاكرة . إذن : فمن الجواب متأخر عن
ومن الشرط .

وهم قدموا كل تلك المقدمات ليشتكوا في القرآن وعزل لهم . إن كلامكم عن الشرط وجوابه صحيح ، ولكن افهموا الزائد ، فحين نحقق في الأمر نجد أن الجواب سبب في الشرط : لأنك حين تقول إن تذاكر تنجح ، فالطالب إن لم يستحضر امتيازات النجاح ولن يذاكر ، بل لابد أن يتصور الطالب في ذهنه امتيازات النجاح ليندفع إلى المذاكرة ، إذن فالجواب سبب دافع في الشرط ، ولكن الشرط سبب في الجواب ولكنه سبب واقع ، فتصور النجاح أولاً هو سبب لبذل الجهد في تحقيق النجاح ، وهكذا تكون الجهة متحركة ، لأن هذا سبب دافع ، وهذا سبب واقع

وقوله تعالى ﴿ إِلَّا تَصْرُوهُ ﴾ فعل مضارع ، زمه هو الزمن الحالي ، ولكن الحق يتبع المضارع مع ما صرح به . ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ فهل يكون الشرط حاصراً ومستقبلاً ، والجواب ماضياً ؟ ونقول : إن لمعنى : إِلَّا تَصْرُوهُ فسينصره الله . بدليل أنه قد نصره قبل ذلك وهذا ليس جواب شرط ، وإنما دليل الجواب ، فحين يكون دليل الجواب ماضياً ، فهو أدل على الوثوق من حدوث الجواب ، فحين دعاهم الله لينصروا فشاقوا ، أوضح لهم سبحانه : أنظنوا أن جهادكم هو الذي سيبصر محمداً وينصر دعوته ؟ لا ؛ لأنه سبحانه قادر على نصره ، والدليل على ذلك أن الله قد نصره من قبل في مواطن كثيرة ، وأهم موطن هو النصر في الهجرة ، وقد نصره برجل واحد هو أبو بكر على قريش وكل كفر مكة ، وكذلك نصره في بدر بجود لم يروها ، إذن . فسابقة النصر من الله لرسوله سابقة ماضية ، وعلى ذلك فليست هي الجواب ، بل هي دليل الجواب

ونرى في قوله تعالى ﴿ إِلَّا تَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أن نصر الله له ثلاثة أزمنة ، فـ ﴿ إِذْ ﴾ تكررت ثلاث مرات ، فسحاه بقول .

﴿إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أى: أنا أمام ثلاثة أزمته: زمس الإخراج، ورمس الغار، ولزمس الذى قال فيه رسول الله ﷺ لأبى بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وقد جاء النصر فى هذه الأرمته الثلاثة: ساعة الإخراج من مكة، وساعة دخل سيدنا رسول الله ﷺ مع أبى بكر إلى الغار، وساعة حديثه مع أبى بكر

ولسائل أن يسأل: هل أخرج الكفار رسول الله من مكة، أم أن الله هو الذى أخرجهم؟ وقول: إن عباد قومه وتآمرهم عليه وتعتسهم أمام دعوته، كل ذلك اضطره إلى الخروج، ولكن الحق أريد بهذا الخروج هدفاً آخر غير الذى أراد الكفار، فهم أرادوا قتله، وحين حرج طسوا أن دعوته سوف تختنق بالعرل عن الناس، فأخرجه الله لئساح الدعوة، وأوضح لهم سبحانه أنهم يريدون حرج محمد بتعتكم معه، وأنا لن أمكنكم من أن تخرجوه مخذولاً، وسأخرجه أنا مدعوماً بالأنصار وقالوا: إن الهجرة نرأم السعنة. أى: أن ابعة المحمدية جاءت ومعها الهجرة، بدليل أن رسول الله ﷺ حينما أخذته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل، بعد ما حدث له فى عار حراء، قال له ورقة: ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك. قال ورقة بن نوفل ذلك لرسول الله قبل أن تثبت من النبوة، يقال رسول الله ﷺ أمخرجى هم؟ قال ورقة بن نوفل: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى^(١)

إذن: فالهجرة كانت مقررة مع تكليف رسول الله ﷺ بالرسالة، لماذا؟

لأنه ﷺ كان أول من أعلن على مسامع مادة قریش رسالة الحق والتوحيد

(١) مسنوع عليه من حديث عائشة: أخرجه البخارى فى صحيحه (٣)، ومراجع اخرى (١)، ومسنوع فى صحيحه (١٦٠).

فمكة الهجرة مسبقة مع البعثة ؛ ولأن البعثة هي لصبحه التي دوت في أدان
سادة قريش وهم سادة الجزيرة ، ولو صاحبها في ذان قوم ليسوا من سادة
العرب لقالوا . استضعف قوماً فصاح فيهم ، ولكن صبحه البلاغ جاءت في
أدان سادة الجزيرة العربية كلها ، فانطلقوا في تعذيب المسلمين ليقتضوا على
هذه الدعوة . وشاء الله سبحانه وتعالى ألا يصبره بقريش في مكة ؛ لأن
قريشاً ألفت السيادة على العرب ، فإذا جاء رسول لهداية الناس عامة إلى
الإسلام ، لقال من أرسل فيهم : لقد نعصت له قريش لتسود الدنيا كما
سادت الجزيرة العربية . فأراد الحق سبحانه أن يوضح لنا : لا لقد كانت
الصبحة الأولى في أدان سادة العرب ، ولا بد أن يكون نصر الإسلام
والأنبياء الدين لا من هذه السلف بل من بلد آخر ؛ حتى لا يقال : إن
العصية لمحمد هي التي خلقت الإيمان برسالة محمد ﷺ . ولكن الإيمان
برسالة محمد هو الذي خلق العصية لمحمد ﷺ .

وبلاحظ في أمر الهجرة أن فعلها « هاجر » وهذا يدلنا على أن رسول
الله ﷺ لم يهجر مكة ، وإنما هاجر ، والمهاجرة مفاعلة من جانبين ، فكان
قومه أعتوه فخرج ، والإخراج نفسه فيه نصر ؛ لأن رسول الله ﷺ خرج
وحده من بيته ؛ الذي أحاط به شباب أقوياء من كل قبائل العرب ليضربوه
صبره رجل واحد ، ويشر عليهم الشراب فتعشى أبصارهم ، وكان أبو بكر
رضي الله عنه ينتظره في الخارج^(١) ، وكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن
يشبث لهم أنهم لن يثأروا من محمد ؛ لا بتامر خفي ، ولا بتساند علني .
وهذا نصر من الله .

(١) ليس المعنى أن أبو بكر رضي الله عنه كان ينتظر رسول الله ﷺ خارج البيت أو في مكان قريب منه ،
ولكن المقصود أنه ﷺ خرج وحده من بيته ليلاً واحترق صفوف أربعين من قومه قد شهروا سيوفهم
لقتله إن هو خرج من بيته وكان وحده ، فالتأنيب في السيرة أن أبو بكر كان في بيته مع أهل بيته وقت
الظهيرة وجاء رسول الله ﷺ سحياً وقال له : « أتى قد أدلى في الخروج » فقال أبو بكر الصديق
بأنى أن رسول الله ﷺ . ثم وتوعدا ثم خرجا من خروجة في ظهر بيت أبي بكر أخرجه
البخاري (٣٩٠٥) وأحمد (١٩٨/٦ ، ٢١٢) وأبو يعقوب في دلائل النبوة (ص ٢٢١) وسيرة ابن هشام
(٩٧/٢)

وينابيع الحق سبحانه : ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ ﴾ ، ويتأكد في القمار نصر آخر ذلك أن قصاص الأثر الذي امتعانت به قريش واسمه كرز بن علقمة من خراعة قد تبع لأثر حتى جاء عبد الغار ، وقال . هذه قدم محمد وهو أشبه بالموجود في الكعبة ، أي أشبه بأثر قدم إبراهيم عليه السلام ، ثم قال : هذه قدم أبي بكر أو قدم ابنه وما تجاوزا هذا المكان . وكان قصاص الأثر يتعرف على شكل القدم وأثره على الأرض . وأضاف : إنهما ما تجاوزا هذا المكان ، إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا في حوف الأرض . وبالرغم من هذا التأكيد فلهم لم يدخلوا العار ، ولم يفكر أحدهم أن يقلب الحجر أو يفتش عن محمد وصاحبه ، مع أن هذا أول ما كان يجب أن ينبادر إلى الذهن ، فمادامت آثار لأقدام قد انتهت عند مدخل لغار كان يجب أن يفتشوا داخله لكن أحدا لم يلتفت إلى ذلك .

وجاء واحد منهم وأخذ يقول ، فجاء بعورته قبالة الغار ، وهذا هو السبب في قول أبي بكر لرسول الله ﷺ . لو أن أحدهم نظر تحت قميصه لرآه .

فقال رسول الله ﷺ بعبطة النبوة . لو رأونا ما استقبلونا بعوراتهم^(١) وهذا دليل على أن العربي كان يأنف أن تظهر عورته ، وهي كرامة لمحمد ﷺ ألا يُريه عورة غيره ، وليأخذ القاريء كما يأخذها ، وهي على كل حال فيض إلهامي لرسول الله ﷺ ، كذلك جعل الحق سبحانه انعكاسات بتسح حيوطه على مدخل العار ، وحسن الخدم يسي عُتً فيه بيض ،

(١) قد جاء هذا في أحاديث فيها عقل ، فعند العسري من حديث أسماء بنت أبي بكر « وقال أبو بكر لرجل سواجه العار يا رسول الله إنه ليأنا فقال كلاً إنه ملائكة تسترون بأجسدها محطس ذلك الرجل فبال موجه الغار فقال رسول الله ﷺ . لو كان يراد ما فعل هذا فيه يعقوب بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره ، وفيه رجاله رجال الصحيح قال الهيثمي في المجمع (٥٤/١) وعند أبي يعلى الموصلي في مسنده من حديث أبي بكر الصديق قال ﷺ لا نردنا لم يستقبلنا بعورته » وفيه موسى بن مطير وهو مفروك . وانظر فتح الباري (١١/٧)

وجعل مرافقة بن مالك يقول . لا يمكن أن يكون محمد وصاحبه دخلا
لعار ، وإلا لكانا قد حطما عُشَّ الحمام ، وهتكنا نسج العكوت
ونحن نعلم أن أوهى البيوت هو بيت العنكبوت ، فاحق سبحانه وتعالى
يقول :

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت ٤١]

ويظهر الإعجاز الإلهي هنا في . أن الله سبحانه قد صد مجموعة كبيرة
من المقاتلين الأقوياء بأوهى البيوت ، وهو بيت العنكبوت ، وقدرة الله
تجلى في أن يجعل خيط العكوت أقوى من انفولاد ، وكذلك شاء الحق أن
يبصر الحمام وهو أودع الطيور ، وإن أهيج هاج وهذا بصر ، ثم هناك
بصر ثالث نفسى وداتى ، فحين قال أبو بكر رضى الله عنه لرسول الله
ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، لمحذ رسول الله ﷺ يرد في ثقة
بربه . « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » (١) .

هذا الرد لا يسعهم مع سؤال أبى بكر : لأن أبى بكر كان يحشى أنهم
لو نظروا تحت أقدامهم لرأوا من فى العار ، وكان الرد الطبيعى أن
يقال « لن يرونا » ، ولكن رسول الله ﷺ أراد أن يلفت لفتة إيمانية إلى
اللام الأعلى ، فقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، لأنه ما دام رسول
الله ﷺ وأبو بكر فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ؛ فمن فى معيته
لا تدركه لأبصار .

وتكون كلمة رسول الله ﷺ الذى تعود أبو بكر به الصدق فى كل ما
يقول ، تكون هى الحجة على صدق ما قال ، فعندما قال رسول الله
ﷺ : إنه أسرى به إلى بيت المقدس وعُرج به إلى السماء ، قال أبو بكر :

(١) منقح عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١)

إن كان قد قال فقد صدق^(١) فحسن يقول رسول الله ﷺ لأبي بكر فيما يحكيه سبحانه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، فلا بد أن يذهب الحزن عن أبي بكر ، وقد حنى سيدنا أبو بكر حين دخل الغار ووجد ثقباً ، خشي أن يكون فيه حيات ، أو ثعابين ، فأخذ يمزق ثوبه ويسد به تلك الثقب ؛ حتى لم يبق من الثوب إلا ما يستر العورة ، فسد الثوب لباقية بيده وكعبه^(٢) .

إذن ، فأبو بكر يريد أن يفدى رسول الله ﷺ بنفسه ؛ لأنه إن حدث شيء لأبي بكر فهو صحابي ، أما إن حدث مكروه لرسول الله ﷺ فالدعوة كلها تهدم إذن : فأبو بكر لم يحزن عن ضعف إيمان ، ولكنه حزن خوفاً على رسول الله ﷺ أن يصاب بمكروه

ويأتي الحق سبحانه وتعالى فيقول : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَمْرَ اللَّهِ سَكُنْ عَلَيْهِ وَأَيُّدُهُ بِخُذُودِهِمْ قُرُوءُهَا ﴾ اختلف العلماء^(٣) في قوله تعالى ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ، هل المقصود بها رسول الله ﷺ ؟ أو أن المقصود بها أبو بكر ؟ وما دامت السكينة قد نزلت ؛ فلا بد أنها برئت على قلب أصابه الحزن . ولكن العلماء يقولون : إن لصحابة في الآيات تعود على رسول الله ﷺ ، فالحق قال : ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ أي محمداً عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه يقول : ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أي محمداً ﷺ ، ويقول أيضاً : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ﴾ أي محمداً ﷺ ، فكر الضمائر في الآية عائدة على رسول الله ﷺ

(١) سبق هذا الحديث قريباً وقد خرجناه هناك ، ومن حديث أبي الدرداء قال النبي ﷺ عن أبي بكر : هل أنتم تاركون صاحبكم ؟ (مريين) إلى قلب يأبىه الناس إلى رسول الله ﷺ ، ليكنم جميعاً ، فأنتم كذبت ، وقال أبو بكر : حدثت ، خرج به البخاري (٣٦٦١ ، ٤٦٤٠) وابن أبي عاصم في السنة (٥٧١/٢)

(٢) قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : « وألقى بعثك بالحق لا تدعني حتى أدخله ، من كان فيه شيء نزل بي قبلت ، فدخل فلم ير شيئاً فسلم فأدخله ، وكان في العار يحرق فيه حيات وأفاعي فحشى أبو بكر أن يخرج منه شيء ، يوحى رسول الله ﷺ فأنقذه قدسه فجعل يقرئته ويلبسه الحيات والأفاعي » سبق إبراهيم جزمه من حديثه من معصن ص ٥١٩

(٣) انظر ، تفسير الموطأ (٢/٣٠٧٤) وابن كثير (٢/٢٥٨) ، ولقد رجح القاضي أبو بكر بن العربي أن سكتة الله ﷺ نزلت على أبي بكر

ثم يأتي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَيْهِ ﴾ إذن فلا بد أن يعود الصمير هنا أيضاً على رسول الله ﷺ ، وأقول : ولكن لماذا لا نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ وهذا قول رسول الله ، ولا بد أن قوله هذا يجرس السكينة تنزل على قلب أبي بكر إذن فالصمير هنا عائد على أبي بكر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقد رأى الكفار عَشْرَ الحمام وبيت العكروت ، وهذا ما معهم من أن يروا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن ليس هذا هو المقصود . فقط : بالآية : لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ والعكروت والحمام مرثبان ، وأول الجنود غير المرئية هو أنه لم يخطر على بال القوم ولا فكرهم أن ينظروا في النار ، مع أن آثار الأقدام انتهت إليه . لكن الله طمس على قلوبهم وصرفهم عن هذه الفكرة بالدات ، ولم تخطر على بالهم ثم جاء حدث آخر حين استطاع سراقه بن مالك وهو من الكفار أن يلحق برسول الله ﷺ وأبي بكر ، وهما في طريقهما إلى المدينة ، وكما حاول الاقتراب منهما ابتلعت الأرض قوائم فرسه في الرمال^(١) ، وعلى أية حال ما دام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقال في آية أخرى :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٣١]

إذن فالجنود الذين سحرهم الله لرسوله ﷺ لحفظه حلال الهجوه لا يعلمهم إلا الله وكل شيء في هذا الكون من جنود الله ، فهو سبحانه
(١) قصة سراقه بن مالك بن جهم أنخرجها مطوية دامة البخاري في صحيحه (٣٩٠٦) مطلقاً مجهولاً من قول أبي شهاب الزهري من حديث سراقه ، وأخرجه أحمد موصولاً في مسنده (١٧٦/٤)

وتعالى الذي سخر الكافر لخدمة الإيمان ، ألم يكن دليل رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة هو عبد الله بن أريقط ، وكان ما زال على الكفر ^(١) ، فكان الله سبحانه وتعالى بسخر له الكافر ليكون دليله في رحلته من مكة إلى المدينة . وهكذا عمل الكافر في خدمة لإيمان ، وفي الوقت نفسه فكل ما رصدته قريش من جعل ^(٢) لمن يدلها على مكان رسول الله ﷺ لم يُغَرِّ الدليل انكافراً بالخيانة ، بل أدخل الله على قلب الكافر ما يجعله أميناً على رسول الله ﷺ

الحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ ، ولقد أراد الكفار القضاء على الدعوة بمثل رسول الله ﷺ ، أو نفيه بإخراجه إلى مكان بعيد . أو سجنه ^(٣) ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يلفسوا إلى أن الباطل لا يمكن أن يعملوا على الحق ، وأن الحق دائماً هو الأعلى ، ولذلك قل سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ ولا يجعل الله كلمة الكفار السفلى إلا إذا كانت في وقت ما في علو وإن كان علوها هو عبو الربد على الماء الذي قال عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الرُّبْدُ فَيُهْطَبُ جَهَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

[الرعد ١٧]

(١) من عائشة قالت : استأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً هادياً خريشاً ^(٤) (أي ماهراً بالهداية) وهو علي بن كمار قريش فأتاه ، فذهب إليه راحتيهما وواعداه عار بوز بعد ثلاث ليال ^(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٦٣) وقد كان ماهراً معلقاً بطروب الطريق إلى المدينة انظر تفاصيل الطريق لدى من له سيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢/ ١٠٤ - ١٠٨)

(٢) الجعل هو ما رصدته قريش مكافأة لمن يدلهم على محمد من ماله وغيره
(٣) ويقول عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَكَرْتَ الْكَذِبَ يُبْعَثْ أَوْ يُقْلَبْ أَوْ يُجْرَحْ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٢٠] ومعنى يشترك بجر حوك خراجه ، لا تقوم معها أو ليجسرك

ولقد صرّب الله هذا المثل فقال .

﴿ أَمْرٌ مِّنَ السَّعَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد ١٧]

أى - أن كل واد أخذ ما قدره الله له من الماء .

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ [الرعد ١٧]

وهذا ملاحظه عندما يحدث سيل ، ويجده يأخذ معه لَقَشَ وإيقاذورات التى بها كثافة قليلة ؛ لتطير على سطح الماء ، ولكن أتصل عليه ؟ لا ، بل تُطرد إلى الجوانب بقوة التيار ويبقى الماء نظيفاً . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَلِكَ يَصْرِبُ اللَّهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فَمَّا الزَّبَدُ فَنَزَحَ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد ١٧]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يحبرنا أن كلمة الكفر كانت فى علو كالزبد . ولكن : لماذا أوجد الله علواً ولو مؤقتاً للكفر ؟ أراد الحق ذلك حتى إذا جاء الإسلام وانتصر على الكفر يكون قد انتصر على شيء عدل فيجعله أسفل ؛ ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالمقابل وقال : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ ، فالنسق الأدائى فى القرآن كان لا بد أن يتم على أساس ؛ لذلك جاء القول : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ ؛ لأن كلمة الله دائماً وأبداً هى العليا ، وليست كلمة الله عُلْيَا جَعْلًا ، فهى لم تكن فى أى وقت من الأوقات لا

وهي العليا ولهذا لم يعطها بالنصب ، لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هي العليا دائماً وأبداً وأزلاً .

وإن كان الكفار قد أرادوا قتل رسول الله ﷺ ، أو أن يخرجوه إلى مكان بعيد لا يستطيع فيه أن يمارس دعوته ، أو يحبسوه ، فلابهم لم يظفروا بشيء من هذا ؛ لأن الله عزيز لا يُعْلَبُ ، وعِزُّه مبينة على الحكمة .

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلمت المؤمنين إلى أن تشاغلهم من الجهاد في عروة توك بن نصر الدعوة شيئاً ؛ لأن الله قد نصر رسوله وهو وحده ، ونصره بجنود لم يروها ، فإذا كان لنصر لا يحتاج إلا لكلمة الله ، ولا بسم إلا بإرادة الله ، فلماذا ذن الشاغل ؟

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَيْضُوا إِخْفَافًا وَثِقًا وَأَجْهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وهكذا يفتح الحق باب الوصول إليه ، ليهتوا إلى نصره الرسول ويريل الصياب من أدهانهم ، ويفتح لهم باب الوصول إليه لأنهم خلق الله وعياله ، فهو سبحانه يريد منهم أن يكونوا جميعاً مهديين ، وأن يشاركوا في نُصْرَةِ الدعوة إليه .

والقتال في سبيل الله قد يكون مشقة في ظاهر الأمر ، ولكنه يَهَبُ الدعوة انتشاراً واستقراراً . وحين يقوم المسلمون بنصر الدعوة إلى الله ،

فى هذا القيام مغفرة وتوبة ، وهو رحمة من الله بهم . ورسول الله ﷺ هو القائل :

« الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة »^(١)

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « قالت السماء يا ربى إئذن لى أن أسقط كسماً على ابن آدم ؛ لأنه طعم حبرك ومع شبرك . وقالت البحار : يا رب إئذن لى أن أغرق ابن آدم لأنه طعم خبرك ومع شبرك . وقالت الأرض مشهما »

فماذا قال الحق سبحانه وتعالى ؟ قال : « دعوى وعبادى ، لو جلعتموهم لرحمتهم ، إن تابوا إلى فأنا حبيهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم »^(٢)

وهكذا ترى رحمة الله بخلقه

ويعد أن لام الحق سبحانه المسلمين ؛ لأنهم لم يتحمسوا للجهاد ، يفتح أمامهم باب التوبة فقال : ﴿ انصروا ﴾ أى : اخرجوا للقتال ، وهذا أمر من الله يوفق به سبحانه الإيمان فى قلوب المسلمين ، وفى الوقت نفسه يفتح أمامهم باب التوبة لتبائطهم عن الخروج للقتال فى عزوة تنك . ولذلك قال : ﴿ انصروا خفافاً وثقالاً ﴾ والصرة : هى الخروج إلى شىء بهيج عليه ، والمثال هو التباعد بين إسان وصديق له كان يهمل ود ،

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) واللفظ للبخارى . واسقط على بعيره : أى : صاده وعثر عليه من غير قصد فطعم به بعد أن صلبه ، والأرض فلاة هى الصحراء المهلكة

(٢) أورده العزالى فى زحيد علوم الدين (٥٢ / ١) من قول بعض السلف والمفسر : « ما من عبد يعنى إلا أمأده مكانه من الأرض أن يغضب به ، واستاد سفعه من السماء أن يسقط عليه كسماً ، يقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَا عن عبدى وأمهلا فإنكما لم تحلفا ، ولو خالفتم لرحمتهم ، وبعل يترب إلى فأغمر له ، ولعمري يسبيل صاخاً بأبدله له حسنات »

ثم حدث من هذا الصديق سلوك أو قول يهيج على الخروج عليه ، فيفر منه الإنسان والحق سبحانه هنا يأمر ﴿ انفروا ﴾ والذي يهيج على النفور هو رفعة دين الله وكلمته ، وحين ترفعون كلمة الله إنما يفتح لكم باب الارتفاع بها فقال : ﴿ انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ . والخفيف : هو الصحيح السليم لقوى الذي لا تسعه ولا توهقه الحركة والثقل : هو المريض أو كبير السن

والله يريد من الجميع أن يسارعوا إلى القتال : لسجوا من العذاب الأليم ، وينالوا قوته ورضاه

ولكن الصحيح خفيف الحركة يمكنه أن يقاتل ، مماذا يفعل المريض ؟ يفعل مثلما فعل سيدنا سعيد بن المسيب وكان مريضاً ، إذ قالوا له : إن الله أهلك من الخروج إلى المعركة في قوله تعالى

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾

[الفتح ١٧]

فقال : والله أكثر مواد المسلمين وأحرص منافعهم ^(١) .

ومن الممكن أن يكون مريض متميزاً بالذكاء وصحة العقل ، ويمكن أن يُستشار في مسألة ما وقد يكون المريض أسوة في قومه ، فإذا خرج للقتال هاج قومه وخرجوا معه ، ويمكن أن يكون المريض أو الضعيف حافزاً للأقوياء على القتال . فحين يرى الأقوياء المريض وهو يخرج للقتال ؛ فإنهم يخجلون أن يتحلفوا هم .

(١) قال الرمري : خرج سعيد بن المسيب إلى عمرو بن عبد الله فمعه رجل من بني عبد الله الضعيف والتميل ، فإن لم يمكن الحرب كثرت السراة وحفظت المنافع ، ذكره القرطبي في تفسيره (٣٠٧٦/٤) وتكثير السواد . تكثير أهلادهم

وختلف العلماء^(١) في تفسير قوله تعالى : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ بمعصمهم قال : إن هذه إشارة إلى ذات الإنسان ، فهناك ذات خفيفة وذات ثقيلة في الورد لا تستطيع الحركة بسهولة ، وقال آخرون : إن الفرد الواحد يمكن أن يكون فيه الوصفان ، وقوله تعالى : ﴿ انْفِرُوا ﴾ هو أمر للجماعة ، و ﴿ خِفَافًا ﴾ جمع « خفيف » ، و ﴿ ثِقَالًا ﴾ جمع « ثقل » ، ومقابلة الجمع بالجمع باختصاص يقتضي القسمة إلى آحاد .

والمعنى : أن ينهر كل واحد من المسلمين سواء كان حصفاً أم ثعبلاً . وسبق أن ضربنا المثل حينما يدخل الأستاذ على اصطبة ويقول : أخرسوا كتبكم ، ومعنى هذا الأمر أن يُخرج كل تلميذ كتابه ، وإن قست . اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن يركب كل واحد منكم سيارته إذن فالآية تعني . لينهر كل واحد منكم سواء كان ثقيلاً أم خفيفاً .

ولكن : كيف يكون الإنسان ثقيلاً وخفيفاً في وقت واحد ؟ نقول . يكون خفيفاً أي . ذا نشاط لمجاهد ، وثقيلاً أي . أنه سيدخل في مشقة تجعل المهمة ثقيلة على نفسه . والله سبحانه وتعالى يقول .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة ٢١٦]

والدحول يسا هو مكروه^(٢) في سبيل الله أمر يرفع درجات الإيمان إذن : فالآية تحتل أكثر من معنى ، فهي تحمل المعنى لعام : أن يكون المعصم خفيفاً والبمعصم ثقيلاً في ذاته ، أو أن يجمع القتال بين الخفة

(١) اختلف العلماء في تفسير هذه الآية حتى عثرنا أقوالاً ، ذكرها القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٠٧٥) ثم قال والصحيح في معنى الآية أن الناس أمروا بجلبه ، أي انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقل (٢) قال القرطبي في تفسيره (١/ ٩٥٦) : إنما كان الجهاد كرهاً ، لأن فيه إخراج المال وعبادة الوطن والأهل والتعرض بالخصد للشجاج والجروح وطلع الأطراف وذهاب النفس ، فكانت كرهية لهم لذلك ، لأنهم كرهوا عرض الله تعالى .

في الحركة واشقل في المشقة ، أو - أن يكون الذي يملك دابة هو الخفيف ؛ لأن الدابة تزيد المشقة وأسرع في الطريق ، والثقيل هو من يجاهد ماشياً ؛ لأنه سيتحمل طول المسافة . وساعه يشحن الحق سبحانه ويعالي قلوب المؤمنين ، فهو يطلب منهم ما يكلفهم به بقوة ، ثم تتجلى رحمته فيخفف الكليف . ولو جاء الحكم خفيفاً في أول التشريع ، ثم يصعد ؛ فإن هذا الأمر يكون صعباً على النفس ، ولكن عندما يأتي الحكم ثقيلًا ، ثم يخفف يكون أقرب إلى النفس ، والمثال في قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٦٥]

وهنا يعطى الحق مقياساً لقدرة المؤمن بالنسبة للكافر . فالعشرون يغلبون مائتين ، أي : أن النسبة هي واحد من المؤمنين إلى عشرة من الكافرين ، ولذلك فعندما نزلت هذه الآية كان على المؤمن الواحد أن يقتل عشرة من الكافرين ، لكن الحق سبحانه وتعالى قد علم أن هذا الأمر شديد على هموس المؤمن بأن يواجه المؤمن الواحد عشرة من الكفار ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا أولو العزم ، فقال سبحانه :

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦]

وما دام هناك ضعف فلا بد أن يُخفف الأمر بالنسبة للمؤمنين في مواجهة الكفار أثناء القتال . وبقل الحق سبحانه وتعالى السعة من واحد إلى عشرة ، إلى . واحد إلى اثنين ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٦٦)

لذلك : مَنْ قُتِلَ مِنْ قَتَالِ اثْنَيْنِ يَكُونُ قَدْ قُتِلَ مِنَ الرَّحْفِ ، وَلَكِنْ إِنْ قُتِلَ مِنْ
مُوَاكِفِهِ ثَلَاثَةٍ لَا يُحْسَبُ قِتَالاً ^(١) ؛ لِأَنَّهُمْ أَكْثَرُ مِنَ النِّسْبَةِ الَّتِي قَرَرَهَا اللَّهُ
وَقَوْلُ الْحَقِّ فِي الْآيَةِ لَتَنْ نَحْنُ بَصَدِّ حَوَاطِرِنَا عَنْهَا ﴿ ائْتُوا خِفَافًا
وَتَثَالُثًا ﴾ هُوَ أَمْرٌ بِشَمْلِ الْجَمِيعِ عَلَى اِخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ ، أَيْ : أَنَّهَا تَحْمِلُ
أَمْرًا عَامًّا لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ ^(٢) . وَلَكِنْ هُنَاكَ قَوْلٌ آخَرُ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ ،
أَعْقَى بَعْضُ حَالَاتٍ مَعِينَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَخْلَصُوا قُلُوبَهُمْ لِلَّهِ ، فَيَقُولُ
سُبْحَانَهُ :

﴿ تَبَسُّمٌ عَلَى الْفُتُفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضِيِّ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يُفْقَهُوا خَرَجَ إِذَا بَصَحُوا لِلَّهِ دِرْهُمُهُمْ وَأَلْفُ مِائَتِينَ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ^(٣) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ
تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيحُ مِنَ الدَّمَعِ ذَرْوًا أَلَّا يَعِدُّوا مَا يَفْعَلُونَ ^(٤) ﴾ [التوبة]

أَيْ : لَيْسَ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَاءَتْ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ ^(٥) بِذِكْرِهِمْ أَيْ
خَرَجَ فِي أَنْ يَقْعُدُوا عَنْ الْقِتَالِ وَكَانَ هَذَا هُوَ الْاِسْتِثْنَاءُ مِنَ الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ
الَّتِي فُرِصَتْ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَفْتَلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُوَ مَا حَادَتْ بِهِ الْآيَةُ
الَّتِي نَحْنُ بَصَدِّ حَوَاطِرِنَا عَنْهَا

(١) مَنْ مِنْ حَسَابِ أَنْ السِّبْكَ قَالَ : « مِنْ جَرِّ مِنَ الشَّيْءِ مَقْدَمُهُ ، وَمِنْ جَرِّ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَمْ يَمُرْ » أَخْرَجَهُ
الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ (١١٥١) مَرْفُوعًا مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْهُ قَالَ التَّهْمِزِيُّ فِي
الْمَجْمَعِ (٣٢٨/٥) : « رَحَالُهُ ثَمَاتٌ » وَقَدْ أَخْرَجَهُ سَعِيدُ بْنُ مَسْرُورٍ فِي سَنَةِ (٢٥٢٨) مَرْفُوعًا عَلَى ابْنِ
عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْهُ

(٢) وَدِدَ الْقُرْطُبِيُّ (٣٠٧٧/٤) : « وَذَلِكَ إِذَا مَعِيَ عَهْدٌ بَعْدَهُ اِسْتَدْعَى قَطْرٌ مِنَ الْأَمْطَارِ ، أَوْ يَحْدُثُ
الْمَغْرِبُ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ رَجَبٌ عَلَى جَسِيمِ أَمَلٍ تَلَّكَ الدَّرَارُ أَنْ يَفْرُوا وَاسْرَحُوا إِلَيْهِ خِفَافًا وَثِقَالًا ، شَبَابًا
وَشَيْخُوخًا ، كُلٌّ عَنِ قَبْلِ طَائِفَتِهِ ، مِنْ تَمَّانٍ لَهُ أَبٌ يَخِيرُ بَيْنَهُ وَمَنْ لَا أَبَ لَهُ ، وَلَا يَتَخَفُ أَحَدٌ يَفْعَلُ عَنْ
الْخُرُوجِ ، مِنْ مَقْدَلٍ أَوْ مَكْرٍ »

(٣) قِيلَ إِنَّ آيَةَ ﴿ ائْتُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ مَسْجُوحَةٌ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، وَهِيَ : النَّاسِخُ لَهَا قَوْلُهُ ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ
فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة ١٢٢] قَالَ
الْقُرْطُبِيُّ (٣٠٧٦/١) : « وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِمَسْجُوحَةٍ » قُلْتُ : فَالْجِهَادُ أَحْوَالٌ حَسَبَ ظُرُوفِ
الْمَعْرَكَةِ ، فَمِنْهَا مَا يَتَوَجَّبُ فِيهَا الْقِتَالُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ كَمَا يَأْتِي وَيَكُونُ الْجِهَادُ حِينَئِذٍ فَرَضٌ عَيْنٌ ، وَمِنْهَا مَا لَا
يَتَوَجَّبُ فِيهَا الْقِتَالُ فَكَأَنَّهُ مَرْضَى كَمَا يَأْتِي ، إِذَا دَامَ بِهِ السَّهْمُ سَمِعَ عَنِ الْآخَرِينَ وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْعَدُوُّ
خَارِجَ الْحُدُودِ وَلَمْ يَغْزِ الْبِلَادَ وَهِيَ حَتْمًا

﴿ انصبروا حفاظاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ والمال هو الذي يجعلك تُعدُّ السلاح للحرب ، وحين يذهب الجيش إلى القتال لا بد أن يكون مُرَوِّدًا بالسلاح ، وبالمركبات وهي مثل الخيل على زمن رسول الله ﷺ ، وأيضاً لا بد من الزاد الذي يكفي لأيام القتال ، لذلك جاء الله سبحانه وتعالى بذكر المال أولاً ، ثم بعد ذلك ذكر الأنفس والأرواح ، ومن يملك القوة والمال فعليه أن يجاهد بهما ، ومن يملك عنصراً من الاثنين ؛ القوة أو المال ، فعليه أن يجاهد به . فإن كان ضعيفاً فعليه أن يعين بحله القوى القادر على القتال بأن يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وجاهدوا ﴾ ، و « جاهد » و « قاتل » مبة على المفاعلة ، بمعنى : إن قاتلك واحد من الكفار ، فلا بد أن يبذل كل جهدك في قتاله ، و « جاهد » مثل « شارك » ، فهل تقول : شارك زيد ثم تسكت ، أم تقول شارك زيد عمراً ، وقاتل زيد عمراً ؟ إذن فهناك مفاعلة

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول في آية أخرى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تَفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول هو أمر بالصبر على القتال ولكن هَبْ أن عدوك صبر مثلك ، هنا يأتي أمر آخر من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صَابِرُوا ﴾ أي : اعمله في الصبر بأن تصبر أكثر منه . وكذلك ﴿ جَاهِدُوا ﴾ أي : اغسوهم في الجهاد ، بأن تجاهدوا أكثر منهم .

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وسبيل الله هو : الطريق الموصل إلى الغاية التي هي رضا الله والحق . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، و « ذا » اسم إشارة ويشير إلى المفرد المستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ إذن : و « ذا » تشير إلى الجهاد بالمال والنفس ، و ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ تشير للخطاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة

وبعض من لا يفهم اللغة يقول : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ كلمة واحدة خطاباً أو إشارة ، ويقول لهم لا ، بل هي كلمتان ؛ إشارة وخطاب . والإشارة هنا لشئ واحد ، والخطاب جماعة . ومثال هذا أيضاً قول الحق سبحانه على لسان امرأة العزيز في قصة يوسف عندما جمعت امرأة العزيز نسوة ، وأخرجت يوسف علسهن ، وصارت هناك جماعة من النسوة ، وهناك يوسف - أيضاً - .

﴿ فَلَذَلِكَ الَّذِي لُمْتَنِي فِيهِ ﴾ [يوسف ٢٢]

و « ذا » المقصود بها يوسف ، و « كُنْ » هن : النسوة المخاطبات . ومثال آخر أيضاً هو قول الحق سبحانه .

﴿ فَلَذَلِكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَى هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ [القصص ٢٢]

و « ذاك » إشارة لاثني ، وهما معجزتان من معجزات موسى عليه السلام ؛ العصا واليد البيضاء ، وحرف الكاف للمخاطب وهو موسى عليه السلام .

بذن فنقول الحق : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ هي الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها مكون من كلمتين : الإشارة لواحد والخطاب لجماعة

وقوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ . . عن أي خير يتحدث سبحانه ؟

إن نصرتم وحاهدتم بأموالكم وأبئسكم فهو خير ، ولابد أن يكون خيراً من مقابل به . والمقابل له هو القعود عن الجهاد بأموالكم وأنفسكم

إذن : فالجهاد خير من القعود

وكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ تستعمل في اللغة استعمالين ، لاستعمال لأول أن يرد بها الخير العام ، كقول تعالى :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٣) [التوبة]

ويكون مقابلها في هذه الحالة هو الشر . ومرة تأتي «خير» بمعنى «أفعل التفصيل» ، كأن تقول : هذا خير من هذا . وفي هذه الحالة يكون كل من الأمرين خيراً ، ولكن أحدهما أفضل من الآخر ، مثل قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير »^(١)

فإن جاءت «خير» دون أن تسبقها «من» فالمراد بها المقابل لها ، وهو «الشر» .

ويجد بعضاً من أساتذة اللغة العربية يقولون : عندما تستخدم كلمة «خير» كأفعل تفصيل لا تقل ، «خير» ، بل قل «الخير» ، ولكن اللفظ المستخدم هنا هو «خير» ، فإن استعمل في أفعل التفصيل فهو يعطى الصفة الزائدة لواحد دون الثاني ، ولأنما مشتركاً في الخيرية

وعلى سبيل المثال كان عبد رسول الله ﷺ عند اسمه زيد بن حارثة اشتريته بخديجة رضى الله عنها ، وأهدته لرسول الله ﷺ ، وعرف أبو زيد (١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) وأحمد في مسنده (٣٧٠/٢) وابن ماجه في سننه (٤١٦٨، ٧٩) والحميدي في مسنده (١١١٤) عن أبي هريرة رضى الله عنه

وعنه مكانه فذهبا إلى مكة ليرويه ، فقال له رسول الله ﷺ : « هانت قد علمت ودرأت محنتي لك فاحتسبي أو احتزهما » . فقال ريد . ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أي : أنه اختار أن ينقي مع رسول الله ﷺ ولا ينهب مع أهله ، فأراد رسول الله ﷺ أن يكافئه : فألحقه بنفسه وقال : « يا من حصر الشهدوا أن ريداً أباي يرثي وأرثه » '' وكان النبي مباحاً عند العرب ، وأراد الحق أن يلغي الشئ وأن يطبق رسول الله هذا لإلغاء نفسه ، وجاء قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب ٤٠]

و هكذا أنهى الحق سبحانه وتعالى الشئ ، وقال سبحانه وتعالى

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب ٥]

و ﴿ أَقْسَطُ ﴾ يعني « أعدل » ، كأن الحق سبحانه وتعالى لم ينف عن رسوله ﷺ العدل ، ولكنه أنزل ما هو أعدل إذ ذ . فساعة ترى أفعل لتفضيل ؟ فاعلم أنه يعطي الصفة لزائدة ويبقى الصفة الأصلية . وهي الآية التي نحن بصدددها ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ ومقابلها : أن القعود عن الجهاد بالمال وانفس شر .

يقول الحق سبحانه . ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [إدن : فهناك موارد يعرف بها ما هو خير وما هو شر . . . وحيثما هل الحق : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فكان هناك مقدمات للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون ، فانه يعلمهم ، ذلك أن الذي يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس وأيضاً : إن قتل فهو باستشهاده خير أسوة حسنة لمن يأتي بعده . وحين أوضح

(١١) انظر قصة زيد بن حارثة بالتفصيل في صفة الصموة لابن الجوزي (١/١٩٩ - ٢٠١) وتفسير القرطبي (٢/٥٣٧٨) (٨/٥٤٦٧) طبعة دار اندلس في تفسير سورة الأحزاب

سليدا رسول الله ﷺ أنه من يقاثل صابراً محتسباً يدخل الجنة^{١١} ، جاء له صحابي^{١٢} في فمه ثمرة يعصفها ويقول أليس بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن أقاتل فيقتلوني ؟ فما أجاب النبي ﷺ : نعم . استبطأ الصحابي أن يضع موضع التمرة وقتاً ، وأن يتأخر عن القتال بسببها ، فرمها من فمه وقاتل حتى استشهد . وكان هذا دليلاً على أنه واثق تمام الثقة أن الاستشهاد يعطيه جزءاً أعلى بكثير مما ترك .

ثم بعد ذلك يعود الحق سبحانه وتعالى إلى الذين يتشاقلون عن الجهاد ليصمى المسائل كلها ، فيقول جل جلاله

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبَعُوكَ
وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

والعَرَضُ هو ما يقابل الجوهر ، والجوهر هو ما لا نظراً عليه أعيار . فالصحة عرض والمرض عرض ؛ لأن كليهما لا يدوم ، إذن فكل ما يتغير يسمى عَرَضاً يروى . ويقال : الدنيا عَرَضٌ حاضِرٌ يأكل منها البرُّ والقاهر^(١٣) .

(١) قال الله ﷻ : يا أيها الذين آمنوا ، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثت الله صابراً محتسباً ؛ أخرجه أبو داود في سننه (٢٥١٩) ومطابقاً في مستدركه (٨٥/٢) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .
(٢) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرايت إن قتلت فأنت أنا ؟ قال : هي الجنة . فألقى ثراباً في يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البيهقي (٤٠٤٦) ومسلم (٢٨٩٩) في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) حديث ضعيف جداً من شداد بن أوس مرفوعاً إلى النبي ﷺ أخرجه أبو يعيم في الخلية (٢٦٤/١) وابن عسلى في الكامل (٣٦١/٣) ط . ذكر الفكر في ترجمة أبي مهدى سعيد بن ساد قال : أجورجاس أخاف أن تكون أحاديث موضوعة . وقال البيهقي منكر الحديث أنظر . ميرزا الاعتقال (ترجمة ٢٢٠٨) ولكن قد أورده أبو يعيم مرفوعاً على شداد من طريق آخر من بول . وهو الأوجه .

إذن . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ أى : لو كان
أمراً من متاع سهل التناول ، ومحسباً للنفس ، وليس فيه مشقة السمر
والتضحية بالمال والنفس ؛ لأسرعوا إليه ﴿ وَسَفَرًا قاصِداً ﴾ ، واقصداً
هو المقتصد الذى فى الوسط ؛ وبعض الناس يسرف فى الكسل ، فلا
يستطع اخير من السعى فى لأرض وما خلق الله ، وبعض الناس يسرف
فى حركة الدنيا ويركض كركض الوحوش فى البرية ، ولا يكون له إلا ما
قسمه الله وأمرجة الناس تتراوح ما بين الإسراف والتقتير ، أما المؤمن
فعليه أن يكون من الأمة المقتصدة ، والحق هو لقائل :

[المائدة ٦٦]

﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾

لأن المزمع لا يأخذه الكسل فيعقد خبير ثدياً ، ولا يأخذه الإسراف
فنسى الإيمان إذن . فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ أنه
لو كان هالك متاع من متاع الدنيا أو سفر بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك ، فهم
لم يتبعوك ؛ لأنه ليس هالك مغام دنيوية ؛ لأن هناك مشقة ، فارجحة
إلى توك ، ومقاتلة ااروم ، وهم أصحاب الدولة المتحضرة التى تصعب
رأسها برأس دولة العرب ، وهذه أيضاً مشقة ، والعام عسر والحز شديد ،
ولو أن الأمر سهل يُسر لاتبعوك

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أى أن اشقة
طويلة ، ثم يقول : ﴿ وَسَيَعْلَمُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ هم إذن
لم يتبعوك ؛ لأن المسألة ليس عرضاً قريباً ولا سفرأ سهلاً ، بل هى رحلة
فيها أهوال ، وتضحيات بالمال والنفس ، وحين تعود من القتال سوف
يحلمون لك ؛ أنهم لو استطاعوا لخرجوا معكم لقتال

وقد قال الحق ذلك قبل أن يأتي أوان الحلف ، وهذه من علامات النبوة ؛ لكن يعرف رسول الله ﷺ المنافقين من صادقى الإيمان وسبحانه وتعالى يفضح عباء المنافقين ؛ لذلك قال ﴿ وَسَيُحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ واستخدام حرف السين هنا يعنى أنهم لم يكونوا قد قالوه بعد ، ولكنهم سيقولونها فى المستقبل ، ولو أنهم تهرأ إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف . ولقالوا : إن القرآن قال سحلف ، ولكن لن نحلف . ولكن الله أعلمهم فحلفوا . وهكذا يأتي حصوم الإسلام ليشهدوا - رغم أنوفهم للإسلام . ومثال آخر على نفس الأمر ؛ عندما حوكت القسوة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة ؛ قال الحق سبحانه وتعالى

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

[البقرة ١٤٢]

وقوله هنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ معناه أنهم لم يقولوا بعد ، وإلا ما استخدم فيها حرف السين . وهذه الآية نزلت فى قرآن يتلى ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . ورغم أنه كان فى استطاعتهم ألا يقولوا ذلك القول ، ولو فعلوا ساهموا فى التشكيك بمصداقية القرآن ، وبهدموا قضية الدين التى يتمون هدمها ، ولكنهم مع ذلك كانوا ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ﴾ وجاءوا مشتين ومُصدِّقين للقرآن .

ومى هذه الأيام نجد شيئاً عجيباً ، نجد من يقول : أما لا أتبع إلا ما جاء فى القرآن ، أما السنة فلست مطابياً بالالتزام بها . ويقول لمن يردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ،

والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع ونقول : من أين أتت بهذا ؟ يقول : من السنة .

نقول : إذن فلا بد من اتباع السنة حتى نستطيع أن نصلي ، ولن تفهم التطبيق العملي لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة

ويجبر الحق سبحانه هذا الذي يحارب سنة رسول الله ﷺ ويدعو إلى عدم الالتزام بها ؛ يجبره سبحانه على الاعتراف بضرورة اتباع السنة ، وبهذا يصدق قول رسول الله ﷺ .

« يوشك الرجل يتكىء على أريكته يحدث بحديثي ، فيقول : بئس وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرّمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله »^(١) .

وقد قالوا ذلك القول طعناً في الكتاب ، ولكنهم من حيث لا يشعرون أكدوا صدق رسول الله ﷺ ، فهم لم يمتلكوا الذكاء ؛ لأن الذكاء الذي لا يهدي للإيمان هو لون من القبه وعمى البصيرة ، وكذلك كان حال من حلفوا بعدم استطاعتهم الخروج للقتال ؛ فقد سبقهم قول الله . « وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ۖ وَجَاءُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَحَلَفُوا ؛ لَيُؤْكِنُوا صدق القرآن . وهم في حلفهم يدعون عدم استطاعتهم ليقنال ، مع أن لديهم المال ولقدرة

ويقول الحق عنهم « يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ وَمَا دَامُوا قَدْ حَلَفُوا بِاللّٰهِ كَذِباً ، فَقَدْ أَدْحَلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي لَهْلَاكِ ، فهم هم يكتفون بعدم الجهاد ؛ بل كذبوا وضح الله كذبهم .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٧/٤) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢٢) والدارقطني (٢٨٦/٤) في سننهم من طريق الحسن بن جابر عن المقدم بن معدي كرب قال الترمذي حديث حسن عويص من هذا الوجه . اللفظ للدارقطني

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿عَمَّا آتَاكَ اللَّهُ عَلَيْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ (١٣)

وكلمة ﴿عَمَّا﴾ تدل على أن هناك أثراً قد مضى ، تماماً كما يمشي إنسان في الرمال ؛ فتحدث أقدامه أثراً ، ثم تأتي الريح فتتملاً ماضى هذا الأثر بالرمال وتريله . وهي تطلق في الدين على محور الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده فلا يعاقبهم عليها . وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه " ، فلا يجب أن يخرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد ، فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمعصية " ، فلا يُدخل " أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يخرح إنسان مذنباً مادام قد استغفر من يملك العفو ، ومن يسمع مستغراً عليه أن يقول عَمَّا آتَاكَ اللَّهُ عَنْكَ ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فليُتعت به بالدعاء له ، ومن يعاير مذبذباً يقول له : بأدب ؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان من يستغفر من ذنبه لا يُخرج به بين الناس ، فما نالنا بعفو الله سبحانه أنقادر وحده على العفو

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٧) والترمذي (٣٥٧٧) في صحيحهما من حديث زيد مولى النبي ﷺ . قال الترمذي : حديث غريب لا يعرفه إلا من هذا الوجه . قال المنذرى في المصنف (٢/٢٦٩) : «إسناده جيد متصل» وأخرجه الحاكم في المستدرک (١/١١٨) عن ابن مسعود وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى

(٢) فهدى : شأن الرب العفو العصور المتتالي سبحانه ﴿ومن يظفر الذنوب﴾ (أى الله) . أن هدى : [١٣٥] ، أما نال : أن من فقد قال الله عنهم ﴿من لو أنهم تطفون حرائر رحمة ربى إذ لا يمسكنم خشية الإنفاق وكان الإنسان قثوراً﴾ [الإسراء : ١٠٠] ، عنهم بالإضافة لتصيدهم لأعداء الناس ، لو كانت الرحمة بأبدىهم وكلموا أعداء الناس منها ليحلوا بها

وهنا يقدم الحق سبحانه العفو عن رسول الله ﷺ الذي أدن لهم بالقعود عن الفتن ، ثم يأتي القرآن من بعد ذلك ليؤكد أن ما فعله رسول الله ﷺ بالإذن لهم بالقعود كان صواباً ، فيقول في موضع آخر من نفس السورة :

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زادوكم إلا خبالاً﴾ [النوبة ٤٧]

إذن ، ولو أنهم خرجوا لكانوا سبباً في تهيمة ، لا من أسباب النصر ، وصوب الحق عمل لرسول ، وهو ﷺ له العصمة

وهنا نحسن أمام عفو من الله ، على الرغم من عدم وجود ذنب يُعفى عنه ، وهنا أيضاً إذن من الرسول بهم بالقعود ، ونزل القرآن ليؤكد صوابه وهناك من فهم قول الحق : ﴿لم أدنن لهم﴾ على أنها استسهام استكاري ، وكان الحق يقول : كيف أدنن لهم بالعفو ؟

إذن رسول الله بين أمرين : بين عفو لا يُذكر بعده ذنب ، واستفهام يعيد عند البعض الإنكار

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أبدى رسوله ﷺ بقوله

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زادوكم إلا خبالاً﴾ [النوبة ٤٧]

فكان لرسول قد هدى إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، وقد أشير القرآن إلى ذلك ؛ ليوضح لنا أن رسول الله ﷺ معصوم وفطرته سليمة ، وكان عليه أن يقدم البيان العملي للناس ؛ لأنه الأسوة حتى لا يأسي من بعده واحد من عامة الناس ليعتق في مسألة دينية ويقول : أما رأيت بفطرتي كذا ، بل لا بد أن يتبين الإنسان ما جاء في القرآن والسنة قبل أن يمتد في أمر من أمور الدين

وعلى سبيل المثال: اختلف الأمر بين المسلمين في مسألة الفداء لأسرى بدر^(١) ونزل القول الحق:

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]

وأيد الله حكم رسوله وأبقاه . إذن فرسول الله ﷺ هدى إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، ولكن هذا الحق لا يباح لغير معصوم .

وقد أباح الحق سبحانه الاستئذان في قوله :

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد أذن لهم بالمقدمات والبحث والفطرة ، ورأى أن الإذن لهؤلاء المتخلفين هو أمر يوافق مراد الحق سبحانه ، لأنهم لم يخرجوا مع جيش المسلمين ما زادوهم إلا خيالاً^(٢) ، لعدم توافر النية الصادقة في الجهاد ؛ لذلك لبسهم^(٣) الله ، وأضعف عزيمتهم حتى لا يخرجوا . والعفو هنا جاء في شكلية الموضوع ، حيث كان يجب التبين قبل الإذن ، فيقول الحق سبحانه :

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٦٣) وأحمد في مسنده (٣٠١٩، ٣١) من حديث عمر بن الخطاب عن حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر : « ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا نبي الله ، هم يروى العم والعشيرة . أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ » فقال : « أرى أن نمكنهم قنطرباً أمانيهم . » لأن هؤلاء أئمة الكفر ومناوئدها . وقد أخذ رسول الله ﷺ برأى أبي بكر وأخذوا الفداء ، ولكن نزل وحى الله ﴿ ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يفتن في الأرض فريدون عرش الدنيا والله يرد الأخوة ﴾ [الأنفال: ٦٧]

(٢) الخيال : الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف (الأكاذيب) .

(٣) اللبس : التخليط وإضعاف المزيمة على الخروج .

﴿حَتَّى يَحِثَّ لَكَ الدِّينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى : أن رسول الله ﷺ لو لم يأذن لهم لكانوا قد انكشفوا ، ولكن إذنه لهم أعطاهم ستاراً يسترون به نفاقهم ، فهم قد عقدوا النية على ألا يخرجوا ، ولو فعلوا ذلك لافضح أمرهم للمسلمين جميعاً ، فشاء الرسول ﷺ أن يستترهم ^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَا يَسْتَشِدُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُنْقِينَ﴾ ١١

ويلفتنا سبحانه : أن الذين طلبوا ذلك الإذن بالعودة فضحوا أنفسهم ، فقد استأذنوا بعد مجيء الأمر من الله ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ ، وكل مؤمن بالله واليوم الآخر - فى تلك الظروف - لا يمكن أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله . والمؤمن الحق لن يقدم الأعذار ليتخلف ، حتى وإن كانت عنده أعذار حقيقية ، بل سيحاول إخفاءها عن رسول الله ﷺ ليخرج معه مجاهداً بل إنه يسرع إلى الجهاد ، حتى ولو كان الله قد أعطاه رخصة بعدم الجهاد .

وهذه الآية - إذن - تحمل النوبيخ للذين استأذنوا ، بل وتحمل أكثر من ذلك ، فالمؤمن إذا دُعِيَ للجهاد مع رسول الله ﷺ ويأمر من الله لا يكون

(١) قال قتادة وعمر بن ميمون : ثنان فعلهما النبي ﷺ لم يؤمر بهما : إذنه لطافة من المنافقين فى التخلف عنه ، ولم يكن له أن يحض شيئاً إلا بوحي ، وأخذ من الأسارى الفدية ، فعاتبه الله .

تفكيره كالشخص العادي ؛ لأن الإنسان في الأمور العادية إذا طلبَ منه شيء أدار عقله وفكره ؛ هل يفعله أو لا يفعله ؟ ولكن المؤمن إذا دُعي للجهاد في سبيل الله ، ومع رسول الله ، وبأمر من الله ؛ لا يدور في عقله الجواب ، ولا تأتي كلمة « لا » على شفاطه أبداً ، بل ينطلق في طريقه إلى الجهاد .

وكيف يكون الأمر بالخروج إلى القتال صادراً من الله ، ثم يتحجج هؤلاء بالاستئذان بعدم الخروج ؟

إذن : فمجرد الاستئذان دليل على اهتزاز الإيمان في قلوبهم ؛ لأن الواحد منهم في هذه الحالة قد أدار المسألة في عقله ، يخرج للجهاد أو لا يخرج ، ثم اتخذ قراراً بالتخلف . والغريب أن هؤلاء استأذنوا رسول الله ﷺ في عدم الخروج ، مع أن أمر الجهاد صادر من الله سبحانه وتعالى ، ولم تكن المسألة تحتاج إلى أن يأذن لهم الرسول بالتخلف . إلا أنهم كانوا يبحثون عن عذر يحتمون به .

والثال من حياتنا اليومية أننا نجد أولاد البلد يسخرون من البخيل الذي لا يكرم ضيفه ويدعي أنه سيكرمه ، فتجده ينادي ابنه ويقول له أمام الضيف : انزل إلى السوق وابحث لنا عن خروف تذبجه للضيف ولا تتأخر فنحن منتظرون عودتك . . وما إن يقول الضيف أدباً منه : لا . تجد البخيل يصرف ابنه . ويتخذ من رفض الضيف حجة لعدم إكرامه ، وكأنه يريد ذلك ، ولكن الواقع يقول : إنه لا يريد من أول الأمر .

ونعلم جميعاً أن الإنسان لا يستأذن في إكرام ضيوفه . والمثال : هو إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة في هيئة رجال ، وأراد أن يكرمهم فلم يستأذنهم في أن يذبح لهم عجلاً ، بل جاء به إليهم مذبحاً ومشوياً^(١) ، هذا سلوك من أراد إكرام الضيف بذبيحة فملاً ، أما من يريد أن يبحث عن العذر ، فهو يتخذ أساليب مختلفة يتظاهر فيها بالتفيد ، بينما هو في حقيقته لا يريد أن يفعل ، مثلما يقال لضيف : أنشرب القهوة أم أنت لا تحبها ؟ أو يقال له : هل تريد تناول العشاء أم تحب أن تنام خفيفاً ؟ أو يقال : هل تحب أن تنام عندنا أم تنام في الفندق ، وهو أكثر راحة لك ؟

وما دام هناك من سأل الرسول : أخرج معك للقتال أم أقعد ، فهذا السؤال يدل على التردد ، والإيمان يفترض يقيناً ثابتاً ؛ لأن التردد يعني الشك ، وهو الذهاب والرجوع على التوالي ، وهو يعني أن صاحب السؤال متردد ؛ لأن طرفي الحكم عنده سواء .

إذن : فالمؤمنون بالله لا يستأذنون رسول الله ﷺ إذا دُعوا إلى الجهاد ؛ لأن مجرد الاستئذان في الخروج إلى الجهاد لا يليق بمؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَشَفِّينَ ﴾ أي : أن الله يعلم ما في صدورهم من تقوى ، فهم إن خدعوا الناس ، فلن يستطيعوا خداع الله ؛ لأنه مطلع على ما تُخفي الصدور .

(١) وقد ورد هذا في قوله تعالى ﴿ لَمَّا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ٦٩] وقال : ﴿ فَرَأَى إِلَى اللَّهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [النار : ٢٦] . ما لبث : أي : ما أبداً عن مجيء بعجل مشوي بحر الحجارة من غير أن تحس النار ، وهو معنى الخبير .